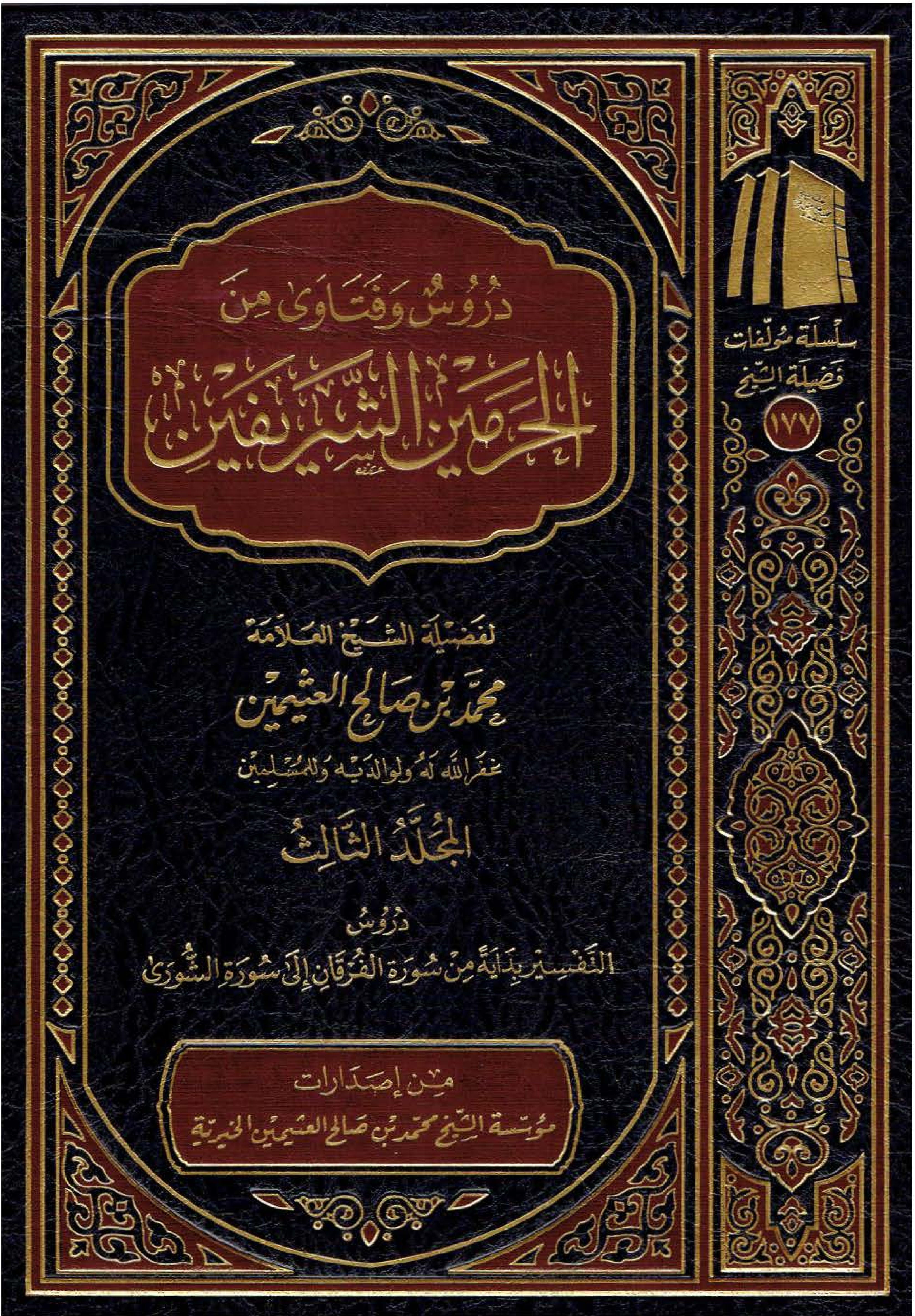

دُرُوسٌ وفتاوى مِن
الحرمين الشريفين
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
المجلد الثالث
دروس
التفسير بداية من سورة الفرقان إلى سورة الشورى
من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ
١٧٧

دُرُوسٌ وَفَتَاوَى مِنَ

الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ

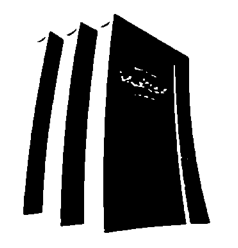
المُجَلَّدُ الثَّالِثُ

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين ، محمد بن صالح
دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين . / محمد بن صالح العثيمين ط ١ -
القصيم ، ١٤٣٩ هـ / ١٨ مج .
٨٠٠ ص ؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين ؛ ١٧٧)
ردمك: ٣ - ٦٤ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
٤ - ٦٧ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٣)
١- الفتاوى الشرعية. ٢- الفقه الحنبلي. أ . العنوان
ديوي ٢٥٨.٤ ٢٠٣٥ / ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٢٠٣٥ / ١٤٣٩
ردمك: ٣-٦٤-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٤-٦٧-٨٢٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٣)

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩
هاتـف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جـوال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جـوال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦
www.binothaimeen.net
info@binothaimeen.com



الموزع المعتمد و الحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرَّة الدولية للطباعة و التوزيع
١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .
هاتف و فاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٧٧)

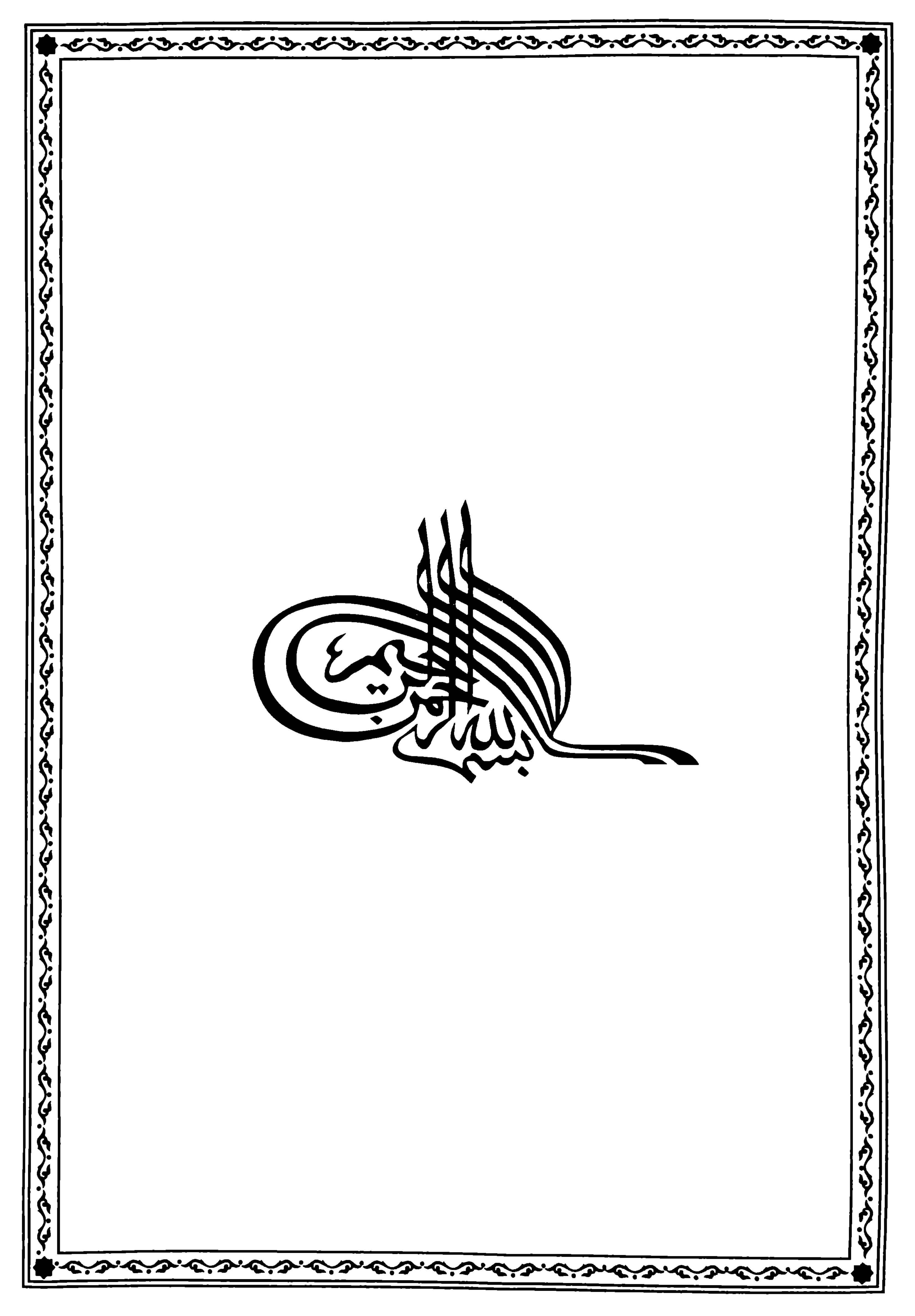
دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثالث

دروس التفسير بداية من سورة الفرقان إلى سورة الشورى

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم



سورة الفرقان

الدرس الأول:

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين، وأُصَلِّي وأُسَلِّم على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ خاتَمِ النَّبِيِّين وإمامِ المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[الفرقان:٢٥].

نؤمن نحن المُسْلِمِينَ بأنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ، والمعنى: لا مَعْبودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ودليلُ هذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج:٦٢]، فكلنا نؤمن بأن لا مَعْبُودَ حَقٌّ إلا اللهُ، وأنَّ كلَّ ما عُبِدَ من دُونِ اللهِ فهو بَاطِلٌ.

والذين يَعْبُدونَ الشَّمْسَ يَعْبُدونَ باطلًا، وكذلك الذين يَعْبدون القَمَرَ، والذين يَعْبدون النبيَّ عِبادتُهم بَاطِلَة، والذين يَعْبُدون عِيسَى عِبادتُهم بَاطِلَةٌ، وهَلُمَّ جرًّا، وكلُّ مَن عُبِدَ سِوَى اللهِ فعِبادتُه باطلةٌ.

إذن كُلُّنا يُؤمن بأنَّ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَى موصوفٌ بصفاتِ الكمالِ، أي: جميعُ صِفاتِ الكمالِ ثابِتَةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، والدَّليلُ: قال اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل:٦٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧]، والمَثَلُ بمعنى الوَصْفِ؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد:١٥]، مَثَلُها أي: وَصْفُها وصِفَتُها كذا وكذا.

فكُلُّنا يُؤْمِنُ بأنَّ اللهَ تعالى مَوصوفٌ بصفاتِ الكمالِ من كلِّ وَجْهٍ.

ورَبُّنا مَوصوفٌ بأنه حَيٌّ، وبأنه سَمِيعٌ بَصيرٌ عَليمٌ قَديرٌ حَكيمٌ حَليمٌ شَكورٌ... إلى آخِرِ ما ذكَرَ عن نفسِهِ عَزَّوَجَلَّ. ولا يُمْكِنُ أن نَعْلَم ما يَثْبُتُ للهِ على وَجْهِ التَّفْصيلِ من الصِّفاتِ إلا بالدَّليلِ، فأنا أَعْرِفُ من حيثُ العمومُ أنَّ اللهَ تعالى لا بُدَّ أن يَكونَ مَوْصوفًا بصِفاتِ الكمالِ، ولكِنَّني لا أَعْرِفُ التَّفْصِيلَ.

وإذا أَردْتُ أن أَعْرِفَ أنَّ اللهَ يُوصَفُ بهذِهِ الصفة المُعَيَّنَةِ فعليَّ بالكتابِ والسُّنة، وليسَ لي الحقُّ أن أُثْبتَ من صِفاتِ اللهِ ما لم يَكُنْ في الكتابِ والسُّنةِ، وليسَ لي الحقُّ أن أُنْكِرَ من صِفَاتِ اللهِ ما ثَبَتَ في الكتابِ والسُّنةِ. وهذه هي قَاعدةُ صِفَاتِ اللهِ على وَجْهِ الإِجْمالِ التي نَعْلَمُها؛ وهي أنَّ اللهَ مَوْصوفٌ بصِفَاتِ الكَمالِ هذا مَعْلومٌ لنا، ونَعْلَمُ أنَّ مَن ليسَ كاملًا لا يَصِحُّ أن يكون ربًّا، ولهذا قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]. لكن لا نَعْلَمُ تفصيلَ تلك الصفاتِ بعُقولِنا، فهذا أمرٌ فوق ما تُدْرِكُه العقولُ.

إذن يَلْزَمُنا أن نُثْبِتَ كلَّ وصفٍ أثبته اللهُ لنفسِه في القرآنِ الكريمِ، أو في سُنةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، ويجب علينا أن نُؤْمِنَ بكلِّ ما وصَفَ اللهُ به نَفْسَه، فإنْ أَنْكَرْنَا شَيْئًا من ذلك، فذَلِكَ جِنايةٌ عظيمةٌ في حقِّ اللهِ، وفي حقِّ النصوصِ من القرآنِ والسُّنةِ؛ لأننا أَقْصَرُ من أن نُحِيطَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأقْصَرُ من أن نَحْكُمَ بعُقولِنا

على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، إنما نَرْجِعُ في هذا إلى الكتابِ والسُّنةِ، وإذا ذكَرَ اللهُ عن نفسِه شيئًا قلنا: سَمِعْنا وآمنا، ولا نقول: هذا مَجَازٌ عن كذا، بل نقولُ: هذا حقٌّ على حقيقتِه، وإلا لم نكُن مُؤمِنِينَ بما أَنْزَلَ اللهُ.

وهذه قاعدةٌ -أيها المسلمون- عِيشوا عليها ومُوتوا عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور:٥١]، لا يَقُل أحَدُكم: واللهِ ما لا يَقْبَلُه العقلُ لا نَقْبَلُه أبدًا. فمن أنتَ يا ابنَ آدَمَ حتى تَحْكُمَ على ربِّ العَالَمِينَ بأنَّ هذا يَصْلُحُ، وهذا لا يَصْلُحُ؟! أرجو أن تَسْتَقِرَّ هذه القاعدةُ راسخةً في قُلوبِكم، مُطمئِنَّةً بها نُفوسُكم، تَحْيَوْنَ عليها وتموتون عليها؛ لأن هذه هي طريقُ النبيِّ ﷺ وطريقُ الخُلفاءِ الراشدين، وطريقُ الصحابةِ، والتابعين لهم بإحسانٍ.

إذن كلُّ ما أخْبَرَ اللهُ به عن نفسِه، فالوَاجِبُ الإيمانُ به، إنْ نفيًا، وإنْ إثباتًا. فإذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن نفسِه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، وجَبَ علينا أن نَعْتقِدَ بأن له الحياةَ الكاملةَ، وأنه لا يَموتُ، وهذا إثباتٌ ونَفْيٌ، الإثباتُ: الحياةُ، والنفيُ: الموتُ.

وهذه قاعدةٌ أُكَرِّرُها كثيرًا؛ لأنها عَقِيدةٌ، وكيف يُمكِنُ أنْ يَلْقَى الإنسانُ رَبَّه وهو يقولُ: أنا لا أُومِنُ بهذِه الصِّفةِ؛ لأن عَقْلِي لم يَقْبَلْها. وهناك الآن أُناسٌ يَنْتسِبونَ للإسلامِ، وهم مُسْلمونَ وليسوا كُفَّارًا، لكن يقولون عن بعضِ الصِّفاتِ: لا نَقْبَلُها؛ لأنَّ العَقْلَ لا يَقْبلُها. واللهُ قد أَخْبَرَ بها.

سُبحانَ اللهِ، هل تَحْكُمونَ على اللهِ، أم أنتم أعْلَمُ مِن اللهِ؟! أتَظُنُّ أنَّ اللهَ لما أخْبَرَ عِبادَه بهذه الصِّفةِ يُرِيدُ أن يُضِلَّ عِبادَه، ويعتقدوا فيه ما لا يَجوزُ؟ إن كان ظَنُّك هكذا

فالأمرُ خَطِيرٌ جدًّا. وهذه هي القاعدةُ: كلُّ ما أخْبرَ اللهُ عن نَفْسِه إثباتًا أو نفيًا وجَبَ علينا الإيمانُ به، والتصديقُ به، ويَجِبُ على عُقولِنا أنْ تُسَلِّمَ له، وألَّا نَقولَ: قال فُلانٌ، قال فُلانٌ. مَن فُلانٌ حتى يقولَ على اللهِ!

نَعودُ إلى الآيةِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ والمعنـى: عَلَا على العَرْشِ، وارتَفَعَ على العَرْشِ. وهذا العَرْشُ الذي استوى عليه الربُّ مَخْلوقٌ عَظِيمٌ، لا يَعْلَمُ قَدْرَه إلا الذي خَلَقَه، قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ فيما يُرْوَى: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**». الحَلْقَةُ: حَلْقَةُ الدرع، وهي صغيرةٌ جِدًّا مثل السِّلسلةِ، والفلاةُ: هي الأرضُ الواسعةُ، فضَعِ الحَلْقَةَ في فَلاةٍ من الأرضِ، ستكونُ الحَـلْقةُ بالنسبةِ لهذه الفَلاةِ لا شَيْءَ، قال: «**وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ**»[1]. سبحان الله! مخلوقاتٌ واللهِ عَظِيمةٌ، يَحارُ العقلُ منها، لكنه لا يحيلها، لأنَّ اللهَ أَعْظَمُ قَدْرًا وأعظمُ قُوَّةً.

وقد يأتي مُتَنَطِّعٌ مُتَعَمِّـقٌ فيقول: من أيِّ شيءٍ خُلِقَ هذا العَرْشُ؟ ومثلُ هذا نَقولُ له: اللهُ أعْلَمُ، أنتَ تُؤمِـنُ أنَّ هناك عَرْشًا عَظِـيمًا هذه سَعَتُه، ولا يَعْلَمُ قَدْرَه إلا اللهُ، وهذا حَسْبُكَ.

إذن قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي علا عليه، وعُلُوُّ اللهِ على العرشِ لا يَعْنِي أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مُفْتَـقِرٌ إلى هذا العرشِ، بحيثُ لو أُزِيلَ سَقَـطَ الربُّ عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّ العرشَ هو المُفْتَقِرُ إلى اللهِ، وجميعُ المخلوقاتِ مُفْتَقِرَةٌ إلى اللهِ، فالاستواء على العرشِ مِن كَمالِ العَظَمةِ والسُّلْطانِ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم (٣٦١).

فما بَالُكَ يا أخي المسلم بعدَ أنْ قَرَّرْنا العقيدةَ بمَن يَقولُ: اسْتَوى على العَرْشِ بمعنى مَلَكَ العَرْشَ واسْتَوْلَى عليه؟! فهذا مُخْطِئٌ خطأً عَظِيمًا في حقِّ اللهِ، ومُخْطِئٌ في حقِّ النُّصوصِ. لا يُمْكِنُ أبدًا أنْ يَكونَ هذا التَّعْبِيرُ بمعنَى المِلْكِ والاسْتيلاءِ، والقرآنُ نزَلَ باللِّسانِ العَرَبِيِّ، ولن تَجِدَ في كَلِماتِ اللُّغةِ كُلِّها الفِعْلَ (استوى على كذا) بمعنى: اسْتولى عليه. وكلُّ عربي إذا قال: استوى فُلانٌ على كذا. فيعني: عَلا عليهِ. فمعنَى (استوى الله على العرش) أي: عَلَا عليهِ. نَسْأَلُ اللهَ تعالى أَلَّا يُزِيغَ قُلوبَنا، وأنْ يَجْعَلَ لنا في قُلوبِنا نورًا نَسْتَضِيءُ به، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وإذا سَلَّمْنا لمن قال في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: إن (اسْتَوى) معناها: اسْتَوْلَى ومَلَكَ. فلِمَنْ كانَ العَرْشُ قبلَ أنْ يَخْلُقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ؟! فمعنى كَلامِهِم أنَّ العرشَ كانَ مَملوكًا قبلَ هذا لغيرِ اللهِ، وأنه كانَ هناك حَرْبٌ وقِتالٌ حتى استولى اللهُ عليه. وهذا لا يُمْكِنُ لعاقلٍ أن يقولَه.

ونحن نَرُدُّ على هذا الرجلِ بقولٍ نَدِينُ به إلى اللهِ، وبالتصريحِ به، ونَخْشَى اللهَ إنْ قُلْنَا على اللهِ ما لا نَعْلَمُ. هذا الذي يقولُ: اسْتَوى معناها استولى ومَلَكَ. قَد جَنَى على هذهِ الآيةِ من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أنه أَبْطَلَ ما تَدُلُّ عليه بمُقْتَضَى اللُّغةِ العَربيَّةِ، وبمقتضى شَهادةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

الوجه الثاني: أنه أوجد للكلمة مَعْنًى من عنده، وهو أنه قال: استوى بمعنى استولى.

فإذا قال: إذا أثبَتَّ أن الله استوى على العرش كاستواءِ الراكب على البعيرِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ في القرآنِ الكَرِيمِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]، ومعلوم أننا إذا استوينا على هذه الأشياءِ وسَقطَت أو خَرَّت لسَقَطْنَا؛ لأننا محتاجون لها، فإذا أثْبَتَّ أنَّ اللهَ استوى على العرشِ أثْبَتَّ أنه محتاجٌ إليه، وأنه مُشابِهٌ لاستوائنا على الفُلْكِ والأنعامِ؟

قلنا: سُبْحانَ اللهِ! هل تُثْبِتُ للهِ ذاتًا أو لا تُثْبِتُ؟ فإن قال: نعم، فقد أعلن أنه مخصومٌ، وإن قال: لا، فقد أعْلَنَ على نفسِه جُحودَ الخالق عَزَّوَجَلَّ.

إذن إذا قال: لا أُثْبِت لله ذاتًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معناه أنه أنْكَرَ اللهَ، وإذا قال: أُثْبِتُ لله ذاتًا، قلنا: أليسَ لكَ ذاتٌ؟ فسيقولُ: نعم، فنَقولُ: أثْبَتَّ لنفسِك ذاتًا ولله ذاتًا، أفيَلْزَمُ من إثباتِ ذاتِ اللهِ أن يكونَ مُماثِلًا لذاتِكَ؟ فسيقولُ: لا يُمْكِنُ، للهِ ذاتٌ تَلِيقُ به، ولي ذَاتٌ تَلِيقُ بي، فنقولُ: أَثْبِتْ للهِ استواءً يَلِيقُ به، ولكَ استواءً يَلِيقُ بك.

والعرشُ مَعْلومٌ أنه فوقَ المَخْلوقاتِ كُلِّها، فالعرشُ سَقْفُ المَخْلوقاتِ كُلِّها، ولا نَعْلَمُ أنَّ فَوْقَ العرشِ شَيْئًا من المخلوقاتِ، فيَلْزَمُ مِن إِثْباتِكَ استواءَ اللهِ على العرشِ أنه بمَعْنَى (علا) علوُّ اللهِ على الخَلْقِ.

وهنا نَتوقَّفُ قليلًا، فكُلُّنا يؤمن بالفطرةِ بعُلوِّ اللهِ على خَلْقِه، بقَطْعِ النَّظَرِ عن الدَّليلِ العَقْلِيِّ أو النَّقْلِيِّ، ونُؤْمِنُ بأنَّ اللهَ فوقَ كلِّ شيءٍ، حتى العَجَائِزُ في قَعرِ بُيوتِهِنَّ، وإن لم يَكُنَّ يَقْرَأْنَ أو يَكْتُبْنَ فإنهن يَعْلَمْنَ أنَّ اللهَ فوقَ كلِّ شيءٍ، وهذا دليلٌ فِطْرِيٌّ مَعلومٌ. ولكن هناك مَن يقولُ: إنَّ اللهَ تعالى في كلِّ مكانٍ. وهذا خطأٌ

عَظِيمٌ. فعلى هذا القولِ يَكونُ اللهُ في المَسْجِدِ، وفي السُّوقِ، وفي دُورِ اللهْو والسينما، وفي الحَمَّاماتِ والمَراحيضِ! ولا يُؤْمِنُ عاقلٌ بهذا أبدًا، حاشا الله عَزَّوَجَلَّ أن يَكُونَ في الأرضِ.

ولكن هناكَ من الناس الآن مَن يُؤْمِنُ بأنَّ اللهَ بذاتِه في كلِّ مكانٍ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِاللهِ، وإنَّا للهِ وإنَّا إليه رَاجِعُون، أسألُ اللهَ أن يَهْـدِيَهم؛ حتى يَلْقَوْا رَبَّهم وهم يُؤْمِنونَ بعُلُوِّه عَزَّوَجَلَّ وإلا هَلَكُوا.

وهناكَ فَرِيقٌ آخَـرُ من الناسِ يقولُ: لا تَقُلْ: إنَّ اللهَ في كلِّ مكانٍ، ولا تَقُلْ: إن اللهَ له مَكَانٌ، لكنْ قُل: اللهُ عَزَّوَجَلَّ لا مَكَانَ له، ليسَ فَوْق، ولا تَحْت، ولا يَمِينًا، ولا يَسَارًا، ولا أَمَام، ولا وَرَاء! وإنا لَنَعْجَبُ مِن كَلامِهم هذا، ونَسْأَلُ: على ذلك أينَ يَكونُ اللهِ؟ هكذا أصْبَحَ عَدَمًا!

ولهذا قالَ بَعْضُ العلماءِ: لو قِيلَ لنا: صِفُوا اللهَ بالعَدَمِ لم نَجِدْ أَدَقَّ من هذا الوصـفِ، ولا أعَمَّ من هذا الوصـفِ، إذا كانَ اللهُ ليسَ فوقَ الناسِ، ولا تحـتَهم، ولا يمينًا، ولا يسارًا، ولا أمام، ولا خَلْف، فأين ذَهَبَ؟ وهذا يعني العَدَمَ.

ولهذا قال محمودُ بنُ سبكتكين رَحِمَهُ اللَّهُ وهو أَحَدُ الأُمراءُ الذين فَتَحَ اللهُ على أَيْدِيهم بلادًا كبيرةً في السِّند والهندِ، قال لُمحَمَّدِ بنِ فُورَكَ أحَدِ عُلماءِ الكلامِ: صِفْ لنا رَبَّكَ. قال: رَبُّنا لا فوق ولا تحـت ولا يمـين ولا يسار ولا مُباين ولا مُحـايث ولا مُتَّصِل ولا مُنْفَصِل. قال: لو قِيلَ لنا: صِفُوا اللهَ بالعَدَمِ ما وَجَدْنَا أَدَقَّ من هذا الوصفِ. فأنْكَرَ عَلَيْهِ إنكارًا عظيمًا[1].

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣)، والصواعق المرسلة (٤/ ١٢٨٧).

إذن لدينا الآن ثَلاثةُ أَقْوالٍ:

الأول: لا تَصِـفِ اللهَ أبدًا بمَكانٍ، لا فَوْق ولا تَحْـت ولا يَمِـين ولا يَسَار ولا خَلْف ولا أَمَام، ولا مُتَّصل ولا منفصِل. وهذا بلا شَكٍّ تعطيلٌ مَحْضٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ وإنكارٌ له.

الثاني: اللهُ في كلِّ مَكانٍ، وعلى قولهم هذا فإن الله يكونُ في غُرَفِ النوم، وفي الحماماتِ، ويكون معك أينما كُنتَ مُلازِمَك، وهذا لازمُ هذا القولِ، وإن قلتَ به هَلَكْتَ، وإنْ أَنْكَرْتَ هذا اللازم كَابَرْتَ، أي أَنَّه أمْرٌ لَازِمٌ لا يُمْكِنُ أبدًا أن يَنْفَصِلَ عن الإنسانِ.

الثالث: اللهُ في العُلُوِّ، في السماءِ، فوقَ كلِّ شيءٍ. وليسَ مَعْنَى قولِنا: إنه فوقَ كلِّ شيءٍ أن شَيْئًا يُحِيطُ به؛ لأنَّ ما فوقَ المخلوقاتِ فَضَاءٌ، ليسَ فيه إحاطةٌ، ولا جُدْران ولا جِبَالٌ ولا أشجارٌ، ولا غـيرها، بل فَضاءٌ ليسَ فيه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ. وهذه عقيدةٌ أرجو اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يُمِيتَنا وإياكم عليها، عَقِيدةٌ مُهِمَّةٌ، وربما تَجِدُونَ في بِلادِكم مَن يقول: إنَّ اللهَ في كلِّ مكانٍ، أو لا تَصِفِ اللهَ بأيِّ مَكانٍ.

فإذا قال قَائِلٌ: أنا لا أطمئن إلا إذا ذكرتَ لي دَلِيلًا يَدُلُّ على العُلُوِّ. قلنا: على العين والرأس، ويَجِبُ علينا أنْ نُبَيِّنَ لعِبادِ اللهِ ما تَبَيَّنَ لنا من دَليلِ القُرآنِ والسُّنةِ، وأرجو اللهَ أن أكون من العُلماءِ، والعلماءُ يَجِبُ عليهم أن يُبَلِّغوا ما عَلِموا بشريعةِ اللهِ؛ لأنَّ العلماء ورثةُ الأَنبياءِ[1]. سنأتي بالدَّليل: أولًا من الكِتَابِ، وثانيًا من السُّنة،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

وثالثًا من إجماعِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، ورَابِعًا من العَقْلِ، وخامسًا من الفِطْرَةِ. خمسة أَدِلَّة مُتنوعة، وهي:

أولًا: في القُرآنِ: هناك آياتٌ كَثِيرةٌ فيها لَفْظُ (العَلِيِّ)، مثل: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وفيها (الأعلى)، مثل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وفيها الفوقية، مثل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]. وآيات أخرى مثل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، وكقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وكلها تَدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ.

ثانيًا: من السُّنة: قد دَلَّت السُّنةُ بأنواعها على عُلُوِّ اللهِ: بالقَولِ، والفِعْلِ، والإِقْرارِ.

أما القولُ فإنه ثَبَتَ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ثُبوتًا لا رَيْبَ فيه أنه يقولُ في سُجودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»[1]. مُقِرًّا بها مُؤْمِنًا بها.

أما الفعل فكان في أكبرِ اجتماعٍ للمسلمين مع النبيِّ ﷺ في حَجَّةِ الوداع في السَّنَةِ العاشرة في عَرَفَةَ، لما خَطَبَ النبيُّ ﷺ الخُطْبَةَ العَظِيمةَ التي قَرَّرَ فيها قَواعِدَ الإسلامِ، وقال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[2]. وجعل يرفع إصْبَعَه إلى السماءِ ويَنْكُتُها إلى الناسِ، فأشارَ بإصبعه فوق عندَ قولِه: «اشْهَد»، وأشار تحت إلى المشهودِ عليهم في الأرضِ، فهذا دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ بالفِعْلِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٥)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩) واللفظ له.

أما الإقرار، فما رَواهُ مُعاوِيةُ بنُ الحَكَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أنَّه كان عندَه جاريةٌ مملوكةٌ غَضِبَ عليها يومًا من الأيامِ، فصَكَّها، وأراد أن يُعْتِقها بَدَلًا عن صَكِّها، فأمرَه النبيُّ ﷺ أن يأتي بها، فأتى بها، فقال لها النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: **«أَيْنَ اللهُ؟»**. قَالَتْ: فِي السَّماءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: **«أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»**[١].

فهذه جارية أعْلَمُ من هؤلاء الذين يَقولونَ: إنه في كلِّ مَكانٍ، أو إنه ليسَ في مكانٍ، فهل صَاحَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ بهذِهِ الجاريةِ مُنْكِرًا قولها؟! لا لم يَصِحْ، بل أَقَرَّه، وقال له: **«أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»**، فهذا إقرارٌ. وهكذا -والحمدُ للهِ- دَلَّت السُّنةُ على عُلُوِّ الربِّ عَزَّوَجَلَّ بالقولِ والفعلِ والإقرارِ، وليسَ بعدَ هذهِ الأدلة شيءٌ.

ثالثًا: وأمَّا إجماعُ الصحابةِ فَإِنَّنا نَطْلُبُ من كلِّ مَن يُنْكِرُ عُلُوَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ دَليلًا واحدًا من قولِ الصحابةِ يقولون فيه: إنَّ اللهَ ليسَ في السماءِ. ولن يجد، فما قالَ أحَدٌ من الصحابةِ: إنَّ اللهَ ليسَ في السماءِ أبدًا، والحبلُ ممدودٌ لمن أرادَ أن يَأْتِيَ بدليلٍ من كلامِ السَّلَفِ.

وهناك قاعدةٌ مُفيدةٌ أُقَدِّمُها لطلبةِ العِلْمِ: كلُّ ما في الكتابِ والسُّنةِ فالسَّلَفُ -الصحابةُ والتابعون لهم بإِحْسانٍ- قد قالوا به؛ لأنَّ رأيهم لو كان خِلافَه لَبَيَّنوه. ولذلك من طُرقِ إثباتِ إجماعِ الصحابةِ ألَّا يُوجَدَ في كلامِهم مُخالِفٌ لما في القرآنِ، فإنهم يَقْرَءُونَ القُرآنَ صَبَاحًا ومَسَاءً، ولو كان عندَهم مُخالَفَةٌ له لَبيَّنوها.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

وكذلك الأَئِمَّةُ من بعدِ الصحابةِ، لم نَجِدْ عندَ وَاحِدٍ منهم حَرْفًا وَاحِدًا يقولُ: إنَّ اللهَ في السماءِ، بل قالَ رَجُلٌ للإمامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ إمامِ دار الهجرةِ إمامِ المدينة النبوية، وهو أشهر من أن نُعَرِّفَه؛ لأنه مَعْروفٌ، قال له: يا أَبَا عَبْدِ اللهِ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، فكيف استوى؟ فأَطْرَقَ مَالِكٌ برَأْسِهِ، وجعل يَتَصَبَّبُ عرقًا خَجَلًا من هذا السؤالِ. فانظُرْ كيف كان تَقدِيرُ السَّلَفِ لعَظَمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وحَياؤُهم منه، نسألُ اللهَ أن يُتْبِعَنا آثارهم. ثم رفَعَ رأسَه، وقال: «يا هذا، الاستواءُ غَيْرُ مَجْهولٍ» أي: مَعْلُومٌ لجَمِيعِنا «والكيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» أي: لا نُدْرِكُه بعُقولِنا «والإيمانُ به وَاجِبٌ» يُرِيدُ الاستواءَ «والسؤالُ عنه» أي: عن كَيْفِيَّتِه «بِدْعَةٌ، وما أُرَاكَ» أي: ما أظُنُّك «إلا مُبْتَدِعًا». ثم أمر به فأُخرِجَ من مسجد النبي صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ[1].

أخرجه لأن هذا دَمٌ فَاسِدٌ، وعِرْقٌ فَاسِدٌ، يجب أنْ يَخْرُجَ كما يَخْرُجُ الدَّمُ الفَاسِدُ من البَدَنِ بالحِجامةِ، فأمَرَ أن يُخْرَجَ من المَسْجِدِ النَّبويِّ. وحُقَّ للإمامِ مالكٍ أنْ يَفْعَلَ ذلك، فهذا الرجُلُ يُشَكِّكُ الناسَ ويُضِلُّهم بالسُّؤالِ عن الكيفية، فَلْنَطْرُدْه من المَسَاجِدِ.

بعضُ العلماءِ يَنْقُلُ هذه القِصَّةَ فيقول: «الاستواءُ مَعْلومٌ» والمعنى واحد، لكنَّ اللفظَ الذي ورَدَ (الاستواءُ غَيْرُ مَجْهولٍ).

إذن الاستواءُ مَعْلومٌ، لا يَحْتاجُ إلى أن يُسْأَلَ عنه، لكن هذا الرجل سَأَلَ عن الكيفيةِ، فإمَّا أنَّه صادقٌ في سؤالِه، ويُرِيدُ الاستعلامَ، أو أنه يُرِيدُ أن يُلْزِمَ مالكًا بأنه إذا لم يَعْلَمِ الكَيْفِيَّةَ فَلا يُمْكِنُ الاستواءُ. هذا في عِلْمِ اللهِ، لكنَّ ظَنَّ الإمامِ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ لَعَلَّه يكون هو الواقع، وأنه رجل مبتدع يُرِيدُ أن يُفْسِدَ العَقائِدَ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

رابعًا: العقل: فاللهُ يَجِبُ أنَ يَكُونَ كَامِلَ الصفاتِ جَلَّوَعَلَا عاليًا عن المَخْلوقاتِ. إذن العَقْلُ دَلَّ على أنَّ اللهَ لا بُدَّ أن يَكُونَ عاليًا، وهذا العُلُوُّ صِفَةُ كمالٍ، فيَجِبُ أنْ يُثْبَتَ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

خامسًا: الفطرة: وهي فطرةُ الإنسانِ التـي فُطِرَ عليها الخَـلْقُ، فما قال قائلٌ: يا ربِّ. إلا ويَتَّجِهُ بقلبِه إلى السماءِ، ولا أَظُنُّ أَحَدًا يَدْعُو اللهَ ويقولُ: يا ربِّ. ويَجْعَلُ يديه تُجاهَ الأرضِ، ولا يَمِينًا ولا شِمالًا، إنما إلى الأعلى. فطَلَبُ هذا العُلُوِّ فِطْرِيٌّ.

ولذلك تَجِدُ العجائز الآن وعوامَّ الناسِ إذا لم يُهَيَّأ لهم مَن يُضِلُّهم ويقولُ: اللهُ في كلِّ مكانٍ؛ لا يُمْكِنُ أن يَعْتَقِدوا أنَّ الله في كلِّ مكانٍ أبدًا. ولهذا كان أبو المعالي الجُوَيْنِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ الملقب بإمامِ الحَـرَمَيْنِ، يُقَرِّر فيقولُ: إنَّ الله تعالى كانَ، ولم يَكُنْ شَيْءٌ مَعَه، وهو الآن على ما كانَ عليه. يُقَرِّرُ إنكارَ الاستواءِ الذي هو العُلُوُّ، فقال له أبو جعفر الهَمَذانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يا شيخ، دَعْنَا من ذِكْرِ العَرْشِ، واستواءِ اللهِ على العَرْشِ، ما تَقولُ في هذه الضرورةِ: ما قال عارفٌ قَطُّ: يا الله، إلا وَجَدَ من قَلْبِه ضَرورةً لطَلَبِ العُلُوِّ؟ فاستدَلَّ عليه بالفِطْرةِ، فجعل يَضْرِبُ على رَأْسِه ويقول: حَيَّرَني الهَمَذاني، حَيَّرَني الهَمَذاني[1]. وذلك لأنه لا يَقْدِرُ أنْ يُنْكِرَ الفِطْرةَ، فالفِطْرَةُ لا يُمْكِنُ إنْكارُها.

ولهذا رجَعَ علماءُ الكلامِ البَارِزونَ إلى مَذْهَبِ أهلِ السُّنةِ ومذهب السَّلَفِ في إثبات الصفاتِ، وقال بعضُهم: ها أنا أموت على عَقيدةِ أمي التي ما قَرَأَتْ عِلْمَ الكلامِ، ولا تَعْرِفُ عِلْمَ الكلامِ. والرازيُّ، وهو من فُحولِ أئمة الكلامِ، يقول عن

(١) انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٤٤)، ومختصر العلو للذهبي (ص:٢٧٦).

نفسه: نَظَرْتُ في العُلُومِ، وفي الطُّرُقِ الكَلامِيَّةِ والمَنَاهِجِ الفَلْسَفِيَّةِ، فما رَأَيْتُها تَرْوِي غَلِيلًا، ولا تَشْفِي عَلِيلًا، ووجدتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقةَ القرآنِ، أَقْـرَأُ في الإثباتِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وأَقْـرَأُ في النَّفْـيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]. أي: فأُثْبِتُ ما أَثْبَتَهُ اللهُ، وأَنْفِي ما نَفَاهُ اللهُ. وأقولُ: إنَّ اللهَ استوى حقيقةً على العرشِ، ولكن ليسَ كمِثْلِهِ شَيْءٌ، ومَن جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي[1]، ثم أنشَدَ لنَفْسِه أو لغَيْرِه:

نِهَايَـةُ إِقْـدَامِ العُقُـولِ عِقَـالُ ... وَأَكْثَـرُ سَـعْيِ العَـالَمِينَ ضَـلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَـةٍ مِـنْ جُسُـومِنَا ... وَحاصِـلُ دُنْيَانَـا أَذًى وَوَبَـالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُـولَ عُمْرِنَـا ... سِـوَى أَنْ جَمَعْنَـا فِيـهِ قِيـلَ وَقَـالُوا

وهكذا رجَعَ الرجلُ عن عِلْمِ الكلامِ، وعن قولِ أولئك المُتكَلِّمِـينَ، الذين يَحْكُمونَ على اللهِ بعُقولهم، ولو رَجَعوا إلى العقـولِ حقًّا لوَجَدوا أنَّ اعتمادَهم على العقل مُخالِفٌ للعَقْلِ؛ لأنَّ العقلَ يَقتضِي أنَّ الأمورَ الغَيْبيةَ مَبْنيةٌ على الخـبرِ، وعلى السمعِ، ولا نَتجاوزُه. ولو أننا رَجَعْنا إلى العُقولِ لكان كلُّ واحدٍ يَغْتَرُّ بعَقْلِه.

ولذلك تَجِدُ هؤلاء الذين يَرْجِعُـون إلى العَقْل مُتناقِضِينَ، يُوجِبُ بعـضُهم ما يَرَى الآخَـر أنَّه مُسْتحِيلٌ عَقْلًا، أو جَائِزٌ عقلًا، والواحـدُ منهم في كُتُبِهِ يَتغَـيَّرُ، فيُوجِبُ في بعضِ كُتُبِه ما كانَ يُنْكِرُه في الأول؛ لأنه ليسَ لهم قانون مُستقِيمٌ، بل هي عُقولٌ تَتغَيَّرُ، وليستْ عقولًا حَقِيقةً؛ لأن العَقْلَ يَقْتَضِي أنَّ ما أَخْبَرَ اللهُ به عن نفسِه فالواجبُ الإيمانُ به واتباعه، إثباتًا للثابت، ونفيًا للمنفي، هذا العَقْلُ.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٦٠).

أَخِيرًا يَجِبُ علينا أنْ نُؤْمِنَ أنَّ اللهَ تعالى فوقَ كُلِّ شيءٍ، ويَجِبُ علينا أنْ نُؤْمِنَ بأنَّه استوى على العرشِ، أي: عَلَا عليه عُلُوًّا خاصًّا يَلِيقُ به، ويَجِبُ علينا أن نُنْكِرَ قولَ مَن يَقولُ بأن اللهَ بذَاتِه في كلِّ مكانٍ، وأن نَدْعُوَه إلى أن يَتُوبَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ قبلَ أنْ يَفْجَأَهُ المَوْتُ وهو على هذه العقيدةِ الباطلةِ. ونحن واللهِ لا نُحِبُّ لهم إلا ما نُحِبُّ لأنفُسِنا، ولا نَرْضَى لأنفسِنا أن نقولَ هذا القـولَ: إنَّ اللهَ بذاتِه في كلِّ مكانٍ. واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] فكيف يكونُ الربُّ عَزَّوَجَلَّ في كلِّ مكانٍ! وهو واحدٌ وليسَ مُتعَدِّدًا، فإذا قلنا: في كلِّ مكانٍ، لَزِمَ أن يكون مُتعَدِّدًا، أو يكون مُتَجَزِّئًا؛ بعضُه هنا، وبعضُه هناك.

أَسْأَلُ اللهَ أن يَهْـدِيَ هؤلاء إلى الحـقِّ، وأن يَقتلِعَ من قلوبِهم تلك العقـيدةَ الفاسدةَ، وأنْ يَقْدُروا اللهَ حَقَّ قَدْرِه، ويُعَظِّمُوه حَقَّ تَعْظِيمِه.

فإنْ قال قَائِلٌ: بماذا نُجِيبُ عن قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، وعن قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد:٤]؟

فالجوابُ أنْ نَقولَ: لا مُعارَضَةَ، هو معنا، وفَوْقَ السماواتِ، ولا مَانِعَ؛ لأنَّ اللهَ ليسَ كمِثْلِه شيءٌ، فهو عالٍ في عُلُوِّه، وهو مع عِبَادِهِ، لكن ليسَت ذَاتُه معَ عِبَادِهِ.

فنحن نرى في اللغة العربية قولَ السَّائِرِ المُسافِـرِ: ما زِلْتُ أَسِيرُ والقَمَرُ معي حتى غَابَ. والقَمَرُ عالٍ في السماءِ، وتَراهُ أَصْغَرَ المَخْلوقاتِ. وهكذا فإنَّ اللغةَ العربيةَ تَحْتَمِلُ أنْ يُقالَ: هو مَعَنا.

وهناكَ مَثَلٌ آخَرُ: رجلٌ طَلَّقَ امرأتَه، فنفى أحَدُهم هذا الأمر، وقال: لم يُطَلِّقْها زَوْجُها، بل هي مَعَه. وقد تكونُ في مَكَّةَ، وزوجُها في المَدِينَةِ، ولكن (مع) معناها هنا: المُصاحَبَةُ، وليسَ معناها أنها مَعَه في المكانِ. فالمَعِيَّةُ معناها المُطْلَقُ في اللغة العربية المصاحبةُ، وتكونُ في كلِّ مَوْضِعٍ بحَسَبِهِ.

ولهذا كانَ مِن دُعـاءِ السَّفَرِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِـبُ في السَّفَرِ، والخَـلِيفَةُ في الأَهْلِ[١]. جَمَـعَ بينَ هذا وهذا؛ لأنَّ اللهَ تعالى مُحِـيطٌ بكلِّ شيءٍ، وهـؤلاء الذين يَسْتَدِلُّون بآيةِ المَعِيَّةِ على أنَّ اللهَ بذَاتِهِ في كلِّ مكانٍ هم من الذين اتَّبَعوا ما تَشَابَهَ من القرآنِ، وتَرَكوا المُحْكَمَ؛ لأنَّ الجَمْعَ بينَ هذا وهذا وَاضِحٌ، هو فوقَ كلِّ شيءٍ، ولكنه مع الخَلْقِ.

فإذا كانَ اللهُ يَعْلَمُ بك ويَسْمَعُ قولَكَ ويُبْصِرُ فِعْلَكَ، فإذن هو مَعَكَ ولو كانَ في السماءِ، والأمرُ وَاضِحٌ ولله الحـمدُ، أسأَلُ اللهَ تعالى أن يَتوفَّاني وإياكم على هذه العقيدةِ عَقِيدةِ أنَّ اللهَ في السماءِ وأنه وَاسِعُ العِلْمِ والسَّمْعِ والبَصَرِ والسُّلْطَانِ.

والعقيدة لها فُروعٌ تَخْـفَى على كثيرٍ من الناسِ، ووَاجِبُنا أن نُبَيِّنَها، ولكن إذا لم تَسْتَطِعِ الكُلَّ فخُذِ بالبَعْضِ، ولهذا يقال: ما لا يُدْرَكُ جُلُّه لا يُتْرَكُ كُلُّه. نسأَلُ اللهَ التوفيقَ والسَّدادَ.



---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم (١٣٤٢).

الدرس الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦١-٧٠].

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾. والبروجُ جمع بُرْجٍ، وهو في الأصلِ البناءُ العالي، والمرادُ بذلك البروجُ الفَلَكِيَّة، وهي اثنا عَشَرَ بُرجًا، ثلاثة منها للشتاءِ، وثلاثة منها للقَيْظ؛ الحَرِّ، وثلاثة للرَّبيع، وثلاثة للخَريف، فالجميع اثنا عشر بُرجًا.

قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في السَّماء ﴿سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ والمراد بالسَّماءِ هنا العلوُّ، وليس المراد بالسَّماءِ السَّقف المَحْفُوظ الَّذِي بناهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بقوةٍ، بل المراد العلوُّ؛ لأَنَّه ثبت أن هذه البروجَ بين السَّماء والأرضِ، وليست في السَّماءِ التي هي السَّماء العُليا، والسَّماء تُطلَق ويراد بها العلوُّ؛ كما في قوله تَعَالَى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:٩٩] أي: من العُلُوِّ.

والدَّلِيلُ على أن المرادَ العلوُّ قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]. فأنزل من السَّماء أي من العلوِّ؛ لأن الماءَ إنَّما يكون من السحابِ، وقد قَالَ اللهُ تَعَالَى في السحابِ: إنَّه مسخر بين السَّماء والأرض.

قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾: وهي الشمسُ، ووصف الله تَعَالَى هذا السراجَ في آية أُخرى بأنه وَهَّاج، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ:١٣]، أي: شديد الحرارةِ، فالشمسُ شديدةُ الحرارةِ، ويدلُّ لذلك أَنَّها تَخترِق هذه المسافاتِ العظيمةَ حتَّى تصلَ إلى الأرضِ، ويكون فيها -أي في الأرض- من جَرَّاء هذا الضوءِ حرارةٌ شديدةٌ جدًّا، حتَّى إنَّه في أيام الصيفِ ربما يَذُوب الإسفلتُ الَّذِي قد طُلِيَتْ به الممرَّاتُ؛ مع هذا البُعد، فتبيَّن أن حرارتها شديدة عظيمةٌ.

ولهذا لو أنكم سَعَّرتم نارًا عظيمةً لوجدتم أن حَرارتها لا تذهب بعيدًا؛ فكيف بهذه الحرارةِ الَّتي تَنبعِث من مكانٍ بعيدٍ حتَّى تصل إلى الأرضِ، إذن حرارتها شديدةٌ،

ولهذا قال بعضُهم: إن حرارتها تُذيب الحديدَ حتَّى يكون كالماءِ قبل أن يَصطدِم بها ويُباشرها من شِدَّة الحرارةِ، فسبحان الخلَّاق العليم! سبحان مَن قوَّتُه فوقَ كلِّ قوةٍ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ!

قوله تعالى: ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ وصف الله القمر بأنه مُنِير، وفي آيةٍ أُخرى قال: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:٥]، فالقمرُ نفسُه مُظلِم، ليس فيه نُور، لكنه يَكتسِب نُورَه من الشمسِ، ولذلك إذا قابَلَها أتمَّ المقابلةِ امتلأَ نورًا، وكلَّما دنا منها ضعُف نُورُه، والمنيرُ منه هو الجانبُ الَّذي يَلِي الشمسَ، فكلما ابتعدَ منها ازداد نُورًا، فإذا قابلها أتمَّ مقابلةٍ امتلأَ نُورًا، ويقابلها أتم مقابلةٍ في وسطِ الشهرِ في أيامِ البِيضِ؛ إن كانتْ هي في المشرقِ وهو في المغربِ فهذه مقابلةٌ، وذلك في أولِ النهارِ، وإنْ كانت الشمسُ في المغربِ وهو في المشرقِ فهي مُقابلةٌ، وذلك في أولِ الليلِ، وكلَّما دنا منها ضَعُفَ نُورُه، والذي يُنِير منه هو الجانِبُ الَّذِي يلي الشمسَ؛ ولهذا ترى الهلالَ أولَ الشهرِ مُقَوَّسًا، وقوسُهُ الأسفلُ هو المُنِيرُ، والقوسُ الأسفلُ منه هو الَّذِي يلي الشمسَ، وترى القمرَ في آخِرِ الشهرِ مُقوَّسًا، والمنيرُ منه هو القوسُ الأعلى الَّذِي يلي الشمسَ.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يعني يخلُف بعضُها بعضًا، فإذا جاء اللَّيْل ذَهَبَ النهارُ، وإذا جاء النهارُ ذهبَ الليلُ.

قوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ لمن أراد أن يذكرَ أي يَتذَكَّر بتقلُّب اللَّيْلِ والنهارِ، وهو -واللهِ- محَلُّ ذِكرى، بينما ترى الجوَّ مُظلِمًا إذا به يكون مُنيرًا، والعكسُ، ممَّا يدلُّ على قُدرة اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ

﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٢]؟ الجواب في الآيتين: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا قال: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي يتذكر ويتَّعظ ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، و(أو) هنا ليستْ للتنويعِ، بل هي مانِعَة الخُلُوِّ، أي مَن أراد الذِّكر والشُّكور، أما الذِّكر فعرفتم ذلك لأن هذا يدلُّ على كمال قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وأما الشكورُ فلأن اختلافَ اللَّيْلِ والنهارِ فيه مَصالِحُ عظيمةٌ للخلقِ؛ جعل اللَّيْل سَكَنًا يسكنُ فيه النَّاسُ، والنهارَ مُبصِرًا يَبتغي النَّاسُ فيه من فَضلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويذهب كلُّ إنسانٍ منهم بحاجاتِه.

ثمَّ قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، وذكر بقيةَ الصفاتِ، وقد أضاف هذه العُبُودِيَّة إلى الرحمنِ؛ لأن اتِّصافهم بهذه الصفاتِ الحميدةِ من آثارِ رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهؤلاء رحمهم الله عَزَّوَجَلَّ رحمةً خاصةً، أسألُ اللهَ تَعَالَى أن يجعلني وإياكم منهم.

وهنا أسألُ: هل الخَلق كلهم عبادُ للهِ أوِ الخُلَّص من الخلقِ هم عبادُ اللهِ فقطْ؟

الجواب: أما العُبوديَّة العامَّة، وهي عبودية القَدَر، فهي عامَّة لكلِّ الخلقِ، فالكافِر عبدٌ للهِ من حيثُ إن اللهَ تَعَالَى يَقضي فيه بما شاءَ، والمؤمنُ عبدٌ للهِ من حيثُ إنَّه يفعلُ فيه ما شاءَ، فالاثنانِ بالنسبةِ لعبوديَّة القَدَر على حدٍّ سواء، فكلُّ مَن في السَّماواتِ والأرضِ عبدٌ للهِ؛ كما قال تَعَالَى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

أما عُبوديةُ الشَّرعِ، يعني التعبُّد لله بشرعِه والانقياد لأمرِه، فهذه خاصَّة بالمؤمنينَ الَّذِينَ وصفهمُ اللهُ في هذه الآياتِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

وهل المراد في قولِه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ السعيُ بالقَدَمِ، أوِ المرادُ السعيُ بالقدمِ والسعيُ في الفِكر، والسعيُ في العملِ، وفي كل شيءٍ؟

الجواب: الثَّاني؛ لأنَّه أعمُّ، يعني أنَّهم يَسيرون في أعمالهم بالهَون، أي دون العَجَلَةِ، فهم مُتَّزِنُونَ، عندهم وَقار، وعندَهم تفكيرٌ، وعندهم تخطيطٌ، ولا يُمكِن أن يُقْدِموا على شيءٍ إلَّا وقد عَرَفوا كيف يَدخُلون فيه، وكيف يَتَخَلَّصُون منه.

إذن هذا عامٌّ في كل الأحوالِ، وانتبه يا أخي، فلا يَحمِلك الطيشُ على سُرعةٍ تَندَم عليها، بلِ اجعلْ مَشيَكَ أي: سيرَك على الأقدامِ، وسيرَك في العملِ، وفي الفِكر، كله اجعلْه هَونًا، أي على هونٍ وتأنٍّ وتُؤَدَةٍ، فكم من إنسانٍ تَعَجَّلَ فندِمَ، وقال: ليتَني لم أفعلْ، فانظرْ كيف تدخل وكيف تخرُج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، الجاهِل: الَّذي لا يُحسِن التصرُّف، إذا خاطبهم فلا يمكِن أن يَقَعُوا معه في خصومةٍ؛ بل يقولون قولًا سَلامًا يَسلَمون به من جهلِ هذا الجاهِل، ولا سيَّما إذا كان الإنسان صائمًا؛ فإن النبيَّ ﷺ أمر الصائم إذا سابَّه أحدٌ أو قاتَلَه أن يقول: إني صائمٌ[1].

كذلك عبادُ الرحمنِ في كلِّ الأحوالِ إذا خاطبهم الجاهلونَ قالوا قولًا يَسلَمون

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب: هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم (١٩٠٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١).

به مِن أذيَّة هذا الجاهلِ، ويسلمون به من الذُّلِّ أيضًا، ويسلمون به من الذلِّ لأنَّه أحيانًا يكون مَوقِفُ العِزِّ -والمرادُ عـزُّ المؤمنِ- أن يَتكَلَّم، وأن يُقابلَ الجـهلَ بما يَستحِقُّ، لكن هذا نادِر، والأصل أنه ينبغي في مُخاطبةِ الجاهلِ الإعراضُ عنه، وأن يقول الإنسان في ذلك قَولًا يَسلم به.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ يعني ليسوا يَبِيتون على لهوٍ، ولا على مُحرَّمٍ، ولا نومًا بدونِ تهجُّد، بل يبيتون سُجَّدًا وقيامًا.

وذكر اللهُ السُّجُودَ وذكرَ القيامَ، ولم يذكر الجلوسَ، وإنَّما ذكرَ جَلَّوَعَلَا القيامَ لأنَّه أشرفُ بذكره؛ لأن القيامَ يقرأ فيه الإنسان كلامَ ربِّ العالمينَ عَزَّوَجَلَّ، وكلامُ اللهِ تَعَالَى أفضلُ الكلامِ، وذكر السُّجُود لأنَّه أفضلُ بهيئتِه؛ إذ إن أذلَّ حالٍ يكون الإنسانُ عليها أن يكونَ ساجدًا، فإذا سجدتَ فإنك تضعُ جَبهَتَك أشرف أعضائِكَ، وأعلى أعضائِكَ، تجعلها في الأرضِ في مساواة القدمِ، في الأرض الَّتي هي مَوطِئ الأقدامِ.

فالسُّجُود أشرفُ بهيئتِه، والقيامُ أشرفُ بذِكـره، أما القعودُ والجلوسُ فهذا تابع، وهو دونَ حالِ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، فذكرَ اللهُ تَعَالَى أعلى الحالينِ؛ أحدهما أعلى بذِكره، والثَّاني أعلى بهيئتِه.

وفي هذا إشارة إلى أنَّه يَنبغي إذا أطالَ الإنسانُ القيامَ فإنه يُطيل السُّجُود، وكذلك الرُّكُوع، والجـلوس بين السجدتينِ، والقيام بعد الرُّكُوع؛ لتكونَ الصَّلاةُ متناسبةً، ولهذا كان قيام النبـيِّ ﷺ وقعودُه وركوعُه وسجودُه وجلستُه متساويةً قريبةً من السواءِ، عكس ما يفعله بعضُ النَّاس اليـومَ، فتجده يُطيل القراءةَ جدًّا، وربما يَقرَأ نصفَ جزءٍ أو أكثرَ، وإذا أتى إلى الرُّكُوعِ وكأنَّ خلفَه أحدٌ يَحدُوه ويَسُوقه،

فيُعجِّل جِدًّا حتَّى تقول: لا يطمئنُّ، وهذا غلط، فإذا أطلتَ القيامَ فأطِلِ الرُّكُوعَ، وإذا أطلتَ الرُّكُوعَ فأطِلِ السُّجُودَ؛ لِتكونَ الصَّلاةُ متناسبةً.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يسألون اللهَ أن يَصرِفَ عنهم عذابَ جهَنَّم.

وهل المعنى إذا عمِلوا السيئةَ أن يَصرِفَ اللهُ عنهم عُقوبَتها، أوِ المعنى أن يَصرِفهم عن عملِ السيئاتِ، أو المراد المعنيانِ جميعًا؟

الجواب: الثالث، يسألون اللهَ أن يصرفَ عنهم عذابَ جهَنَّمَ؛ أولًا أن يصرفَ عنهم الأعمالَ الَّتي تُوجِب دخولَ النَّارِ، بحيث يُوَفِّقُهُم للعملِ الصالحِ، أو إذا أساءوا تابوا إلى اللهِ؛ لأن الإنسان إذا أساءَ وتابَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ صار كمَن لم يُسِئْ، فالتائبُ منَ الذنبِ كمَن لا ذنبَ له. أو يريدون بقولهم: ﴿ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أننا إذا عمِلنا سُوءًا فاصرِفْ عنا عذاب جَهَنَّم فتعاملنا بالعفوِ والمغفرةِ.

وكلا المعنيينِ حقٌّ، وكلا المعنيينِ ينبغي للإنسانِ إذا قرأ هذه الآيةَ أن يجعلَها على بالِه، أي أن يصرفَ عنه عملَ السوءِ، وأن يصرفَ عنه المُجازاة على السُّوء.

قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أيْ: مُلازِمًا والعياذُ باللهِ، والمرادُ عذابُ أهلِها الخالدينَ فيها، فهو غَرامٌ مُلازِمٌ كملازمةِ الغَرِيم لَمِدينِه.

قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ هذا ذمٌّ للنارِ والاستقرارِ فيها، والإقامةِ فيها، فقد ساءتْ مُسْتَقَرًّا وساءتْ مُقامًا، والمُستقرُّ: الدائمُ، والمُقام: غير الدائمِ، فالنَّارُ -أجارَنا اللهُ وإيَّاكم منها- مُسْتَحِقَّة لهذا الذمِّ: ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

وأهلُ الجنةِ قالَ اللهُ فيهم: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٧٦].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ هذه حالُهم في الإنفاقِ؛ لا يُسرِفون فيَتجاوزون الحدَّ، ولا يَقْتُرون فيُقَصِّرون عن الواجبِ، بل هم بين الإسرافِ والتقتيرِ. وإلى أيِّهما يَميلون؛ إلى الإسرافِ أو التقتيرِ؟

قال تعالى: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ يعني إنفاقًا قَوامًا؛ أحيانًا يَزيدون عن الوسطِ إذا دَعَتِ الحاجةُ إلى ذلك، مثل أن يَنزلَ بهم ضيفٌ، وأحيانًا يَميلون إلى التقصيرِ، مثل أَلَّا يكونَ هناك سببٌ للزيادةِ، فهذا حالُهم في الإنفاقِ.

فحالهم في الصَّلاة ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾، وحالهم في الإنفاقِ والصدقةِ لا يُسرِفون ولا يَقتُرون، ولكن بين ذلك قَوامًا.

قوله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعني أنَّهم مُخلِصون في عِبادتهم، لا يَدْعون أحدًا معَ اللهِ، فإنِ استغاثوا استغاثوا باللهِ، وإنِ استعانوا فباللهِ، وإن توكّلوا فعلى اللهِ، وإنْ صَلَّوْا فللهِ، وإنْ تَصَدَّقوا فللهِ، وإنْ بَرُّوا الوالدينِ فللهِ، وإنْ وَصَلوا الأرحامَ فللهِ، فهم مُخلِصونَ في كلِّ أعمالِهمْ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وذلك لأن المشرِكَ لا يُقبَل عملُه ولو كان عبادةً، فإذا أشرَكَ بها معَ اللهِ بَطَلَتْ.

ودليل ذلك قول الله تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

وفي الحديثِ القُدُسِيِّ الَّذِي رواه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ عن ربِّه: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي**

غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١). فأيُّ عملٍ صالحٍ تُشرِكُ فيه مع اللهِ أحدًا فاللهُ غنيٌّ عنه، ويتركك أنت وشِركك؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الغنيُّ الحميدُ.

إذن عبادُ الرحمـنِ لا يَدْعُونَ معَ اللهِ إلهًا آخرَ، والذين يدعون معَ اللهِ إلهًا آخرَ هم عِباد الشيطانِ؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦٠-٦١].

فعبادُ الرحمنِ لا يَدْعون إلَّا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ولا يَدْعون معه أحدًا، وعبادُ الشيطانِ يَدْعون مع اللهِ غيرَه.

فمَن يَتَرَدَّدُ إلى أهلِ القبورِ، ويقف على القبرِ يقول: يا سيِّدي، يا مولايَ، إني فقيرٌ فأَغْنِنِي، إني مُحتاج إلى الزواجِ فيَسِّر لي، إن امرأتي بَقِيَتْ سنواتٍ لم تَحْمِلْ فأَعْطِنِي وَلَدًا، من يفعل ذلك فهو مُشْرِكٌ شِركًا أكبرَ.

وهذا الرجلُ يُصَلِّي ويأتي إلى المسجدِ ويكون خلفَ الإمامِ دائمًا، ويتصدَّق كثيرًا، ويصومُ كثيرًا، ويَحُجُّ كثيرًا، ويَصِل الرحِمَ، ويَبَرُّ الوالدينِ، ولكنَّ عَمَلَه هذا حابِطٌ.

والدَّلِيلُ قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

فهذا الخطابُ مُوَجَّهٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ الَّذِي لا يُمكِن أن يقعَ منه الشركُ، لكن على فَرْضِ وُقُوعِهِ إنْ أشركَ حَبِطَ عملُه، فما بالُك بغيره! يَحبَط عمله وليس في ذلك إشكال.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، فالرجلُ الَّذِي ضربتُه مثلًا عملُه حابط؛ حتَّى صالح الأعمال الَّذِي يكونُ مَقبولًا منَ المُخلِصِ يكون من هذا مَردودًا.

وإني أقول لَمَن يتردَّد إلى هذه القبورِ:

أوَّلًا: ما الَّذِي أَعلَمَكَ أَنَّه قبرُ فلانٍ؟ لأن هذا يحتاجُ إلى دليلٍ؛ لأَنَّه قد يُدَّعَى أنَّ هذا قبرُ فلانٍ وليس كذلكَ، يُقال: إنَّ الحُسينَ بنَ عليٍّ -رضي الله عنه وعن أبيه- رأسُه في العراقِ، وله رأسٌ آخَرُ في الشامِ، وله رأسٌ آخرُ في مِصرَ، فهذه ثلاثة رؤوس!

وربما يكون في بلادٍ أُخرى، ويأتي الجهلةُ العامَّة إلى ما يُقال: إنَّه محلُّ رأسِ الحُسينِ، فيَدْعُونَ الحُسينَ، والحسينُ بريءٌ مِنهم ومِن شِركِهم.

إذن نحتاج إلى إثباتِ أنَّ هذا قبرُ فلانٍ؛ لأنه قد يُدَّعَى أَنَّه قبرُه وليس قبرَه.

ثانيًا: إذا ثبتَ أَنَّه قبرُ فلانٍ فإننا نحتاجُ إلى إثباتِ شيءٍ آخرَ، هو أنَّ هذا الفلان الَّذِي يُقال عنه: إنَّه وليٌّ تَثْبُت ولايتُه؛ لأَنَّه قد يقال: إنَّه وليٌّ وهو عدوٌّ، وأولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقونَ؛ كما فسَّر ذلك ربُّ العالمينَ عَزَّوَجَلَّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

فمَن قال: إن هذا الرجلَ مُتَّصِف بالصفتينِ: الإيمان والتقوَى؟! فقد يظهر الرجلُ بمَظْهَر التقيِّ النقيِّ وهو من أفجرِ عِبَاد اللهِ، أليسَ المُنافقون يذكرونَ اللهَ

ويصلون؟ بلى، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

وقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: «**إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ**»[(١)].

إذن المنافقُ يُصلِّي، ويشهد أنَّ مُحَـمَّدًا رسول اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] فهذه شهادة مقابل شهادة، والثانية هي الحقُّ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

والمنافقُ له زِيٌّ حَسَنٌ، وهيئةٌ حسنةٌ، وكلامٌ ساحِرٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، يعني في هَيئتها وشَكلها، وإذا رأيتَه قلت: هذا المؤمِنُ التقِيُّ، ويُعجبك جِسْمُه، ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤] لِفصاحتهم وبيانِهم -اللَّهُمَّ أعِذنا من النفاقِ، اللَّهُمَّ أعذنا من النفاق، اللَّهُمَّ أعذنا من النفاقِ- يعني يُبهِركَ القولُ وتُنصِت رغم أنفِك، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»[(٢)]، ومع ذلك هم منافقونَ، فقد يكون هذا المدفونُ في هذا المكانِ رجلًا يتبادر للناسِ أنَّه مِن أولياءِ اللهِ وهو من أعداء اللهِ.

فهاتان مَرتبتان: الأُولى: أن يثبتَ أنَّ هذا قبرُ فلانٍ، والثَّانية: أن يثبت أنَّه وليٌّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم (٦٥١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب إن من البيان سحرا، رقم (٥٧٦٧).

ثالثًا: أن يُثبَت أنَّ هذا الميتَ يَنفَعُك أو يضرُّك، وهذا مُحال، فالميتُ جُثَّة هامدةٌ يحتاج إلى الحيِّ، والحيُّ لا يحتاج إليه، ألسنا إذا زُرنا القبورَ قلنا: السلامُ عليكمْ دارَ قومٍ مؤمنينَ، يَرحَمُ اللهُ المُسْتَقْدِمِينَ منكمْ والمستأخِرِينَ؟ فهم مُحتاجُون لنا في أن ندعوَ لهم، لا أن ندعوَهم، ولا يُمكِن أن يستجيبوا لنا، وكيف يستجيبون لي وأنا أعرِف أنَّ الرجلَ جُثَّة هامدة! فمن أين يجيب دُعائي!

ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف:٥].

الجواب: لا أحدَ أضلّ، فلو سُئلنا: مَن أضلُّ النَّاسِ هَديًا وأَسْفَهُهُمْ عُقولًا لَقلنا: الَّذِينَ يَدْعون القبورَ، حتَّى لو كانوا من أَذْكى النَّاسِ، فالذكاءُ ليس عَقلًا، فالعقلُ هو الَّذِي يَهدي صاحبَه إلى حُسنِ التصرُّفِ.

إذن قوله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ نقول: إنّ الَّذِينَ يدعون مع الله إلهًا آخرَ ليسوا عبادَ الرحمنِ، ولكنهم عباد الشيطان.

قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يعني ليس مِنهم عُدوان في حقِّ الخالقِ ولا في حقِّ المخلوقِ، ليس منهم عدوانٌ في حق الخالقِ لأنهم لا يَدْعون مع اللهِ إلهًا آخرَ، ولا في حقِّ المخلوقِ لأنهم لا يقتلونَ النفسَ الَّتي حرَّم اللهُ إلَّا بالحقِّ.

فذكرَ اللهُ أعلى حقوقِه، وأعلى حقوقِ الآدميينَ: احترام النفوس، واحترامُ النفوسِ من محَاسنِ الإسلامِ، فما هي النفسُ الَّتي حرَّم اللهُ؟

النفوس الَّتي حَرَّمها الله أربعةُ أصنافٍ: المسلِم، والذِّمِّيُّ، والمُعاهَد والمستأمِنُ.

فهؤلاءِ نفوسهم محرَّمة.

أما المسلمُ فقد قالَ النَّبِـيُّ ﷺ: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»[١].

والذِّمِّيُّ والمُعاهَد قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»[٢].
وهذا يعني أن اللهَ حَرَّم عليه الجنة، والمُعاهَد والذِّمِّيُّ كلاهما أُعطوا وثائقَ مِن وُلاة الأمورِ، وليس من أفرادِ النَّاسِ؛ لأنّ أفرادَ النَّاسِ ليس منهم حَلٌّ ولا عَقْدٌ، وأفراد النَّاس مَحكومون، لكن إذا أعطَى وليُّ الأمرِ تصريحًا لهذا الرجلِ فقد صار مُعاهَدًا، وأما الذِّمِّيُّ فهو أعلى حالًا منَ المعاهَد؛ لأنّ الذِّمِّيَّ يُقيم معنا في بلادنا، له ما لنا وعليه ما علينا، فهو مُواطِن ذِمِّيٌّ، ولكن في عصرنا الحاضر ثمرةُ الذِّمِّيِّ غيرُ موجودةٍ؛ لأن المسلمينَ ضُعفاء، والثمرةُ من الذِّمي التـي نَحميه بها ونحافظ عليه ونعتقده كالمواطن هي الجِـزيةُ؛ أن نأخذ عليه ما يُسَمُّونَه في الوقتِ الحاضرِ ضَريبةً كلَّ عامٍ حَسَبَ رأيِ وليِّ الأمرِ، لكنَّ حُكمَه باقٍ إذا كان معنا في بلادنا كمواطنٍ عادي، فهو ذِمي دَمُهُ مُحترَم، ولا يجوز أن يعتديَ عليه أحدٌ من النَّاسِ لأنَّه محترمٌ حَسَبَ العهدِ الَّذِي بيننا وبينه.

والمعاهَد ليس مُقِيـمًا معنا، بل هو في بلدِه لكـن بيننا وبينه عهدٌ ألَّا يُحـاربَنا ولا نُحارِبه، مثلَما جَرَى من النبيِّ ﷺ مع كفارِ قريش في الحُدَيْبِيَةِ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ عَاهَدَ قُريشًا عشرَ سنواتٍ ألَّا يكون بينهم حربٌ، فهؤلاء مُعاهَدون دِماؤهم مُحترَمة لا يجوز العُدوان عليهم لا في بلادهم ولا خارج بلادهم؛ لأنَّ بيننا وبينهم عَهدًا، وأوفَى البشرِ بالعهودِ هم المسلمونَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، رقم (٢٥٦٤).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، رقم (٣١٦٦).

وهذا الحُكْمُ واجبُ التطبيقِ، بمعنى يجب أن يكون المسلمونَ أَوفى مَن يكون بالعهدِ؛ لأنهم إذا وفوا بالعهدِ فالمصلحةُ لهم كمسلمينَ محترمينَ احترموا أنفسهم، وللإسلام أيضًا، حتَّى لا يُقال: إنَّ الإسلام دِين غَدر وخِيَانة.

وهل لنا أنْ نُعاهِدَ الكُفَّارَ عهدًا دائمًا ألا نُحاربهم؟

الجواب: لا يجوز؛ لأننا إذا عاهدنا الكفارَ عهدًا دائمًا ألَّا نحاربهم فهذا يعني إسقاط الجهادِ في سبيلِ اللهِ، ولا يمكن إسقاطُه، فالجهادُ ماضٍ إلى يومِ القِيَامَةِ.

لكن هل يَصِحُّ أن نعاهدهمْ عهدًا مطلَقًا غير موقَّتٍ أو لِأَمَدٍ أو للأَبَدِ؟

الصَّحيح أنَّه يصح، فيجوز أن نُعاهِدَ الكفار عهدًا مطلقًا؛ فنكتب بيننا وبينهم عهدًا ألَّا نحاربكم ولا تحاربونا، ولكن لا نقول: أبدًا، ولا نقول: لمدة عشرِ سنواتٍ ولا عشرينَ سنةً ولا أكثر ولا أقلّ، وهذا عهدٌ مُطلَق صرَّح بجوازِه جماعةٌ من العلماءِ؛ منهم شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثَّالث: العهد الموقَّت: وأكثر العلماء قالوا: العهد المؤقت لا يجوزُ أن يَزيدَ على عشرِ سنواتٍ؛ قالوا: لأن الأصل وجوبُ قتالِ الكفارِ حتَّى يُسلِموا أو يُعطوا الجزيةَ، وخرجنا عن الأصلِ بعشرِ سنواتٍ لأن الرَّسُول ﷺ عاهد قريشًا عشرَ سنواتٍ.

ولكن بعض أهلِ العلمِ يقول: إذا دَعَتِ الضرورةُ أوِ الحاجةُ إلى الزيادةِ على عشرٍ فلا بأسَ؛ لأنَّ معاهدة النبي ﷺ لقريشٍ عشرَ سنواتٍ دعت الحاجةُ إليها، ولم يقلْ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: لا تعاهدوهم بأكثرَ.

والمسألةُ على كل حالٍ ليستْ راجعةً لنا نحن أفراد الشعب، لكنها عائدة إلى وليِّ الأمرِ، فإذا رأى المصلحةَ بالزيادةِ على عشرٍ أو بالأقلِّ أو بالإطلاقِ فالأمر إليه، لكن لو رأى التأبيدَ فحينئذٍ نُعارِضه، نقول: لا يمكن أن يكون بيننا وبين الكفارِ عهدٌ مؤبَّد؛ لأن هذا يعني تعطيل فريضةٍ من فرائضِ اللهِ، وهي الجهادُ لتكون كلمةُ الله هي العليا.

إذن في قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ نقول: الأنفس الَّتي حرّم الله إلاّ بالحق المسلمُ والذميُّ والمُعاهَد والمستأمِنُ.

والمُسْتَأْمِن نفسُه مُحَرَّمة؛ لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة:٦].

فدلَّ هذا على أنَّه آمِن في حالِ استجارتِه، وهو كذلك، فالمُسْتَأْمِن أصلُه حربيٌّ طَلَبَ مِنَّا أن يَقدَمَ إلى بلادِ المسلمينَ ليسمعَ كلامَ اللهِ، أو لِيَتَّجِرَ ويَرجِع إلى بلده، وأعطيناه أمانًا، فيكون حينئذٍ له كرامة، ولا يجوز أن يُهانَ؛ لأننا أعطيناهُ أمانًا، وقد قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»[1].

فما دام هذا قد أُعطي أمانًا من قِبَل الجهاتِ المسؤولةِ، أي تصريحًا بالدخولِ إلى البلدِ، وقضاء حاجتِه والرجوع إلى أهلِه، إما ليستمعَ القُرآن، أو ليستمعَ إلى حِلق الذِّكر، المهم جاء يطلع على الإسلامِ، وعلى عملِ المسلمينَ لعله يُسلِم، فهذا نُعطيهِ أمانًا، وهو مُحترَم ولا يجوز لأحدٍ أن يخونَ أمانتَه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب أمان النساء وجوارهن، رقم (٣١٧١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب عدد ركعات الضحى.. رقم (٣٣٦).

وبهذا نعرِف خطأ أولئكَ القومِ الَّذِينَ يَعتدُون على المعاهَدينَ أو على المستأمِنينَ، وأنّ هذا الخُلُق ليس من خُلُق الإسلامِ في شيءٍ، فخُلُق الإسلامِ الوفاءُ للمعاهَد والمستأمِن.

واعلمْ أنَّ أكثرَ طلبةِ العلمِ يقولون: المستأمَن، وهذا لحنٌ يُفسِد المعنى؛ لأنّ المستأمَن الَّذِي طُلِبَ الأمان منه، والداخِل في أمانٍ لم يُطلَبِ الأمانُ منه، وإنما طُلِب الأمانُ له، وعليه فصوابُ الكلمةِ أن يُقال: المُسْتَأْمِن -بكسر الميم- ليكونَ اسمَ فاعلٍ بدلًا من أن يكونَ اسمَ مفعولٍ.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، كلمة ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يعني إلا إذا جاز قَتلُها بحقٍّ. وإلى أيِّ شيءٍ نَرجع في معرفةِ كونِ القتلِ حَقًّا؟

إلى الكتابِ والسنَّة، فليس الحقُّ ما قلنا: إنَّه حقٌّ، حتَّى يُعرَضَ على الكتابِ والسنَّة.

زِنَا الثَّيِّبِ يُبيحُ القتلَ:

فلْنضرِبْ لهذا مثلًا: إذا زَنَى الرجلُ وهو قد تزوَّج وصار ثَيِّبًا بجِماعِ زوجتِه، يعني تزوَّج وجامعَ زوجتَه ثمَّ زَنَى بعد ذلك، أيُقتَل أم لا؟

الجواب: يُقتلُ.

فإنْ قيل: كيف يُقتَل وهو يُصَلِّي ويَتَصَدَّق ويصوم ويحجُّ؟!

قلنا: يُقتَل بالرجْم؛ بأن يُضرب بحجارةٍ لا صغيرة ولا كبيرة، ولا تُقصَد المَقاتِلُ، بل يُقصَد بقيَّةُ الجسمِ، فيُضرب بالحجارةِ إلى أن يموتَ، سُبْحَانَ الله!

والإنسان يدور في رأسِه شيءٌ: لماذا لا نَقتُله بالسيفِ ويَستريح، أو نُسلِّط عليه خطَّ كهرباء مِئتين وعشرين ويموت على الفور؟

نقول: الجزاءُ مِن جنس العملِ، وإذا كان الجزاء من جنسِ العملِ فهذا عدلٌ وليسَ بجورٍ؛ هذا الرجلُ تلذَّذ جميعُ جسمِه بلذَّةٍ مُحرَّمَة، فكان من الحِكمة أنَّ العذابَ يَشمَل جميعَ بدنِه، ولهذا قالَ العلماءُ: يَحرُم أنْ يُضرَب بحجارةٍ كبيرةٍ، أو أن تُقصَد مَقاتِلُه؛ لأَنَّه إذا ضُرِبَ بحجارةٍ كبيرةٍ مات، وإذا قُصِدتِ المقاتلُ ماتَ، وهذا غيرُ مقصودٍ للشرعِ، فالمقصودُ للشرعِ أن يَتَأَلَّمَ جميعُ البدنِ الَّذِي تَلَذَّذَ باللَّذَّة المحرَّمة.

اللُّواط يُبيح القتل:

وإذا تلوَّط ذَكَرٌ بذَكرٍ هل تكون نفسُه محرَّمةً أو لا؟

الجواب: لا، فإنه يُقتل؛ لأنَّ اللُّواط -والعياذ باللهِ- فاحشةٌ عُظمَى، أعظم من فاحشةِ الزِّنا، والدَّلِيل أنّ لوطًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠]، وفي الزنا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، يعني فاحشةً من الفواحشِ. فكلمة فاحشة أهونُ من كلمةِ الفاحشةِ؛ لأنَّ معنى الفاحشةِ الَّتِي بَلَغَتْ في الفُحْش غايتها -والعِيَاذُ باللهِ- فكان اللُّواط أعظمَ مِنَ الزِّنَا.

إذن مَن تَلوَّط بِذَكَرٍ يُقتَل حتَّى وإنْ لم يكنْ مُتَزَوِّجًا، حتَّى لو كان بِكرًا لم يتزوَّجْ إطلاقًا فإنه يُقتَل إذا كان بالغًا عاقلًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أجمعَ الصَّحَابَة على قتلِ اللُّوطِيِّ -وإجماعُ

الصَّحَابَةِ ليس بِهَيِّنٍ- ولكنِ اختلفوا كيف يُقتَل؛ فقيل: يُحرق بالنارِ، وقِيل: يُرجَم، وقيل: يُرمَى به من أعلى شاهقٍ في البلدِ ويُتبع بحجارةٍ[١].

المهم اتفاقهم على قتلِه، أما كيف يُقتل فهذا يَرجِع إلى الإمامِ، يعني إلى وليِّ الأمـرِ، فإذا قال: اقتلوه بالرجمِ فإنه يُرجَم، أو بإلقائِه من شاهـقٍ كمنارة وشبهها أو طيارة هليكوبتر فلْيُفعل، فإذا قال: اقتلوه بالإحراقِ أَحرقناه، يعني حسب ما تقتضي المصلحةُ، والمصلحةُ هنا راجعة إلى أقوى قِتلة يحصُل بها الرَّدع؛ لأن اللواطَ -يا إخواني- فاحشة منكَرة والعياذُ باللهِ، فهي انقلاب حِسٍّ وفِطرة.

واللواطُ لا يُمكِن التحرُّزُ منه، بمعنى لا يمكن إذا رأيتَ شابينِ يَمشيانِ جميعًا أن تقولَ: قِف، مَن هذا الشابُّ؟ لكن الزنا يمكِن إذا رأيتَ رجلًا مَشبوهًا مع امرأةٍ أن تُوقِفَه وتسأل عن المرأةِ. فلَمَّا كان اللواطُ لا يمكِنُ التحرُّزُ منه، وكان قَبيحًا، وكان يجعَلُ رجالَ الشعبِ إناثًا؛ لأنّ هذا المفعول به -سُبْحَانَ اللهِ- ما أشدَّ ظُلمةَ وَجهِه إذا قيل له في المستقبل: يا زوجةَ فلانٍ، فهذه صعبةٌ جدًّا، فهو في الحقيقة إذلالٌ لرجولَة الشابِّ.. لما كان ذلك كان يجبُ على وليِّ الأمرِ إذا ثبَت اللواطُ من شخصٍ أن يقتلَه؛ اتِّباعًا لإجماعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهناك حديثٌ مَرفـوعٌ لكنِ اختلفَ النَّاسُ في صحَّتهِ، وهو: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ، وَالمَفْعُولَ بِهِ**»[٢].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: أبواب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب مَن عمِل عَمَل قوم لوط، رقم (٢٥٦١).

ومن هنا نرى أنَّه يجب على أولياء الشباب أن يراقبوهم مراقبةً تامَّةً، وأن ينظروا مَن أصحابُهم، ومَن يخرجون معه، ومَن يذهبون إليه؛ حتَّى يحفظوا الشبابَ؛ لأنَّ الشابَّ عاطفتُه قَريبة، وسُرعانَ ما يَنخدِع، وأولئك الفَسَقَة الفَجَرَة اللُّوطِيَّة حِيَلُهُم ومَكْرُهم عظيم؛ يخدعون الشابَّ خدعةً عظيمةً جِدًّا، ولا حاجة أن أذكرَ هنا شيئًا من مكائدهم لأني أخشى أن يَسمَعَها خبيثٌ فيَتَّخِذها سبيلًا، لكنها مَعروفة.

فيجب على أولياء الأمور أن يُحافظوا على شبابِهم محافظةً تامَّةً، حتَّى يَعرِفوا مَن أصحابُهم، وما مَسلَكُهم، فيَحصل بذلك رَدْعُ الشرِّ.

الحرابة:

كذلك أيضًا مِمَّا يُبيح قتلَ النفسِ الحِرابة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣٣-٣٤].

هَؤُلاءِ المحارِبون للهِ ورسوله الساعونَ في الأرضِ فَسادًا جزاؤهم حَسَبَ محاربتهم وفسادِهم:

النوع الأولُ منَ الجزاءِ: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ يقتلهم الإمامُ إعدامًا، والثَّاني: ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ قال أهل العلمِ: ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ أي: مع القتلِ، وعلى هذا فيكون القتلُ تارَةً بصلبٍ، وتارةً بغيرِ صلبٍ. والصلبُ أن يُربَط إلى عمودٍ أو إلى خشبةٍ، وتُمَدّ يداهُ حتَّى يَشتهِرَ ويَفتضحَ. وهل يُصلب قبل القتلِ ثمَّ يُقتل أو يُقتلُ ثمَّ يُصلَب؟

هناك رأيانِ للعلماءِ: قال بعضـهم: يُصلَبُ حتَّى يشتهرَ وحتى يُخـزَى أمامَ النَّاسِ، ثمَّ بعد ذلك يُقتَل، وقِيل: يُقتَل ثمَّ يُصلَب. والأوَّلُ أشدُّ عارًا وخِزيًا؛ لأن المقتولَ إذا قُتِل ثمَّ صُلِب فإن ذلك لا يَضرُّه، ولا يَتألَّم، لكن إذا كان حَيًّا فلا شَكَّ أنَّه يتألَّم ألـمًا قلبيًّا، كما هو يتألم ألـمًا بَدَنِيًّا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ معناه: إذا قطعتَ اليمنى من اليدِ فاقطعِ اليسرَى من الرِّجلِ، وإنْ قطعتَ اليسرى من اليدِ فاقطعِ اليمنَى من الرجلِ. والدينُ الإسلاميُّ فيه شيء من الرحمةِ، وفيه شيء من الحَزم، وهنا لا يُوجِب الله القطعَ في اليدِ والرجلِ من جانبٍ واحدٍ؛ لأنَّ هذا يُخِلُّ بتوازُن الجسمِ، بل كان قطعُ اليدِ من جهةٍ وقطعُ الرجـلِ من جهةٍ أخرى، وهذا لا شَكَّ أنَّه منَ الرأفةِ.

ولكن هل نَقطَع اليدَ اليمنى والرِّجل اليسرَى، أو اليدَ اليسرى والرجلَ اليمنَى؟

لننظر السارق: فإذا سرق فإنه تُقطع يده اليمنى، وإنْ سرقَ باليدِ اليُسرى.

والدَّلِيل أن في قراءة عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (**والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أَيمانَهما**)[1]. وهذا دليل على أن الَّذِي يُقطَع منَ السارقِ يدُه اليُمنى.

إذن نقول: المحارِبُ نَقطَع يده اليمنـى، ولأن اليمنـى غالبًا هي آلةُ العملِ، فعملُك باليدِ اليمنى أكثرُ منَ اليسرى، إلَّا رجلًا أعسرَ فيكون عمله باليسرى أكثر.

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢٩٤).

فإذا كان السارق تقطع يده اليمنى قلنا: المُحارب أيضًا نَقطَع يدَه اليمنى، فإذا قطعنا اليد اليمنى تعيَّن أن تُقطَع الرجلُ اليُسرى.

القِصاص:

ومن ذلك القِصاص، فإذا اعتدى شخصٌ مسلمٌ على مَن يُقتَصُّ له منه فإنه يُقتَل. والشروطُ معروفة عند الفقهاءِ، وعند الحكَّام والقُضاة.

قوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾:

والزنا: فِعل الفاحشةِ في قُبلٍ أو دُبُر. ويدخل في ذلك اللواطُ، لكن اللواطُ أقبحُ من الزنا، ولذلك كان حَدُّ اللُّوطِيِّ أن يُقتل بكلِّ حالٍ إذا كان بالغًا عاقلًا، حتَّى وإنْ لم يَتزوَّجْ؛ لقولِه ﷺ: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ، وَالمَفْعُولَ بِهِ**»[1]، وقد حكَى شيخ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإجماع -أعني إجماع الصَّحَابَة- على قتل اللوطيِّ، وشيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ حُجَّةٌ في نقلِ الإجماعِ؛ لأنَّه رجل أعطاه الله تَعَالَى علمًا، وهو أمينٌ فيما يَنقُل، وهو بصيرٌ أيضًا في الطرقِ الَّتي يُعرَف بها الإجماعُ.

وعلى هذا فإذا تلوَّط رجلٌ قد بلغَ خمسَ عشرةَ سنةً بمثلِه، أو بمن دُونه وجبَ قتلُه، ولا حاجةَ أن نسأَلَ: هل هو متزوجٌ أم غير متزوجٍ. أما المفعولُ به فإن كان مُكرَهًا فلا شيءَ عليه، وإن كان مُطِيعًا نظرنا إن كان بالغًا عاقلًا قتلناهُ، وإلا فلا.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: أبواب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب مَن عمِل عَمَل قوم لوط، رقم (٢٥٦١).

وقد ذكـر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في آيةٍ أخرى النهـيَ عن الزنا، لكنه لم يأتِ بلفـظِ: ولا تَزنُوا إلَّا في مبايعة النساء: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ [الممتحنة:١٢] أما النهيُ عن الزِّنا فإن اللهَ يقولُ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢]. والنهيُ عن قُربانِ الزنا يَتضمَّن النهيَ عن كل ما يكون سببًا للزنا، فمن ذلك:

الخَلوة بالمرأةِ إذا لم يكنْ مِن مَحارمها، فإن الخلوةَ بالمرأةِ إذا لم يكن من محارمها وسيلةٌ وذَريعةٌ للزنا؛ لأَنَّه إذا خلَا بها قد يُمازِحُها ويُضاحكها، ويكلِّمها ويَعِدُها، حتَّى يقعَ في شَرَكِ الزنا.

ولهذا نهى النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ عن خَلوة الرجلِ بالمرأةِ إلَّا مع ذي مَحْرَمٍ[1]، وقال: «لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ»[2].

ومِنَ الخَـلوة ما يَتهاون به بعض النَّاس من كونِ السائـقِ تركَب معه المرأةُ وحدَها من البيتِ إلى السُّوق، أو منَ البيتِ إلى المدرسةِ، أو مِنَ البيتِ إلى المسجدِ، وما أشبهَ ذلك، فإن هذا مِنَ الخَـلْوَةِ، وهو أقبحُ من أن يخـلوَ بها في حُجرةٍ؛ لأَنَّه يستطيع أن يُرَاوِدَها عن نفسها، فإن لم تفعل فالقيادةُ في يد السائقِ، فيستطيع أنْ يفعلَ ما يريد.

فلا يَحِلُّ لإنسانٍ أن يمكِّن نساءَهُ من الركوبِ معَ السائقِ إذا كان وحدَه؛ لَمِا في ذلك من إضاعة الأمانةِ والتخلِّي عن المسؤوليةِ، ونساؤُك هم وَجْهُك، وهم حرمكَ، أتريد أن يكون نساؤك لُعبةً بيدِ الرجالِ! لا أحدَ يريد ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، رقم (٥٢٣٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية، رقم (٢١٧٢).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الرضاع، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، رقم (١١٧١).

فإذا قال قائلٌ: امرأةٌ زَوجُها يأبَى أن يذهب بها إلى المدرسةِ، وأولادُها صِغارٌ، وهي تَدرُس أو تُدَرِّس، فماذا تصنع؟

قلنا: يُؤتَى بالسائقِ ومعه محـرَم من نِسائِه؛ كزوجتِه وأختِه وما أشبهَ ذلك، فإذا ركِب هذا السائقُ معَ محْرَمِه، ومعهم المرأةُ الأخرى، زالتِ الخَلْوَةُ.

ألَا فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ، لا تُهْدِروا حُرُماتِكم، لا تهـدروا شَرَفكم من أجلِ الطمعِ والتهاوُن؛ لأن نبينا صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ حذَّر منَ الخَلوة بالنساء، حتَّى قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَرَأَيْتَ الحَمْوَ؟ قَالَ: «الحَمْوُ المَوْتُ»[1]: يعني هو البَلاءُ وهو الشرُّ وهو الهلاكُ. والحَمْوُ هم أقارِبُ الزَّوْج.

فمنع النبيُّ ﷺ أن يخـلوَ قريبُ الزَّوْجِ بالزَّوْجـةِ، حتَّى ولو كان أخـاهُ، فإنه لا يجوزُ أَلَّا يخلوَ بزوجةِ أخيه.

ولهذا يجب أن نعلمَ خطرَ أولئكَ القوم الَّذِينَ يَخرجون إلى أعمالهم، ويَدَعُون زوجاتِهِمْ مع إخوانهِمْ في البيتِ، فإن ذلك خطرٌ عظـيمٌ، وقد سمِعنا ما لا نُحِبُّ ذِكرَه في هذا المكانِ منَ البلاءِ.

إذن في الآيةِ الكريمةِ من صفاتِ عبادِ الرحمنِ أنَّهم لا يزنون، فهل يدخلُ في ذلك زِنا العينِ، وزِنا الأُذن، وزِنا اليدِ، وزِنا الرجلِ؟

الجواب: نعم، يدخل كل هذا في عُمـوم ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾، فزنا العينِ النظرُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، رقم (٥٢٣٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية، رقم (٢١٧٢).

فإن بعضَ النَّاسِ -نسأل الله العافيةَ- يُطلِق نَظَرَه في النساءِ ولا تكاد تمـرُّ به امرأةٌ إلَّا وقد ركزَ على النظرِ إليها، والنظرُ سهمٌ مَسموم من سِهام إبليسَ، فإذا أصابَ إبليسُ به قلبَ صاحبِه فقد أماتَهُ وأَزْهَقَهُ، ويكون هذا الرجلُ الَّذِي يُبتلَى بالنظرِ إلى النساءِ، وإتباع بصرِه إياهنَّ، يكون كالمَسحورِ؛ كلَّما مرَّت امرأة علَّق نَظَرَه فيها، وإن كان لا يَعلَم أجميلةٌ هي أم ليستْ جميلةً، لكنَّ المرضَ مَرَضٌ، نسأل الله العافيةَ.

كذلك زنا الأُذُن، يعني يستمع إلى صوتِ امرأةٍ جميلٍ، ويَستمتع بهذا السماعِ أو يَتَلَذَّذ به، فإن هذا نوعٌ منَ الزنا؛ ولذلك أُمِرَتِ النساءُ بغضِّ الصوتِ، ونُهِينَ عن الخُضوع بالقولِ؛ لأن ذلك يُؤدِّي إلى الفتنةِ، حتَّى إنَّه إذا حصلَ سهوٌ من الإمامِ ومعه رجالٌ ونساءٌ فوظيفةُ الرجالِ التسبيحُ، ووظيفةُ النساءِ التصفيقُ لِئَلَّا يُسمَع صَوْتُها.

كذلك زنا اليد، ويكون باللَّمس، فإن بعض مَن في قَلْبِه مرضٌ إذا مرَّ بالمرأةِ ربما يَلمِسها مَسًّا مُريبًا.

وزنا الرِّجْل المشيُ؛ أن يمشي إلى بُيوت الدِّعارة والخَنَا[1] والعياذُ باللهِ.

فكلُّ هذا قدِ انتفَى عن عِبَادِ الرحمنِ.

فهذه ثلاثةُ أشياء:

الأول: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

والثَّاني: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

والثَّالث: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

---

(١) الخنا: الفُحْش.

فالأول: الإخلالُ به إخلالٌ بحقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإن أعظمَ الذنوبِ «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»[1].

والثَّاني: إخلالٌ بحفظ النفوسِ، فإن أعظم الحقوقِ حقُّ النفسِ، ولذلك كان «**أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ**»[2].

والثَّالث: الإخلال بصيانة الأعراضِ، وهو الزنا، نسأل الله العافيةَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾.

من يفعل هذه الأشياءَ الثلاثةَ، وهي: أن يدعوَ مع الله غيرَه، وأن يقتلَ النفسَ الَّتي حرَّم الله بغير حق، وأن يزنيَ؛ يَلقَى أثامًا، وهذا الآثام بيَّنه بقولِهِ: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ والتوبة تعريفها: الرجوعُ من معصيةِ اللهِ إلى طاعةِ اللهِ.

فالتوبةُ منَ الشِّرك بالتوحيدِ والإخلاصِ.

والتوبةُ منَ البدعةِ بالاتباعِ وحُسن الأُسوة برسولِ اللهِ ﷺ.

والتوبةُ مِنَ الزنا بالعَفاف.. وهلمَّ جرًّا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، رقم (٧٥٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٣)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، رقم (١٦٧٨).

المهمُّ أن التوبةَ تعريفها الجامِع المانِع هي الرجوع عن معصيةِ اللهِ إلى طاعةِ اللهِ.

وللتوبةِ شُروطٌ:

الأولُ: الإخلاصُ.

والثَّاني: النَّدَم على ما فعلَ.

والثَّالث: الإقلاعُ عنِ الذَّنب.

والرَّابع: العَزْمُ على ألَّا يعودَ.

والخامس: أن تقعَ التوبةُ في وَقتٍ تُقبَل فيه.

فالإخلاصُ ألَّا يَحمِلَ الإنسانَ على التوبةِ إلَّا مَخافةُ الله، والرغبةُ فيما عنده، لا يُريد دنيا ولا مَدحًا ولا جاهًا.

والندمُ أن يكونَ في قلبِه حسرةٌ على ما حصلَ من ذنبٍ، وألَّا يكون فِعْلُ الذنبِ وعدمُه عنده سواءً، فلا بُدَّ أن يقعَ في قلبِه شيءٌ منَ التحسُّر على ما فعلَ.

والثَّالث: الإقلاعُ بأن يتركَ الذنبَ بدون تأخيرٍ.

والرابع: العَزم على ألَّا يعود، فإن تاب وهو في نفسِه أنَّه متى تيسَّر له الذنبُ فَعَلَهُ، فليستْ توبتُه مَقبولةً.

الخامس: أن تكون في وقتٍ تُقبَل فيه التوبةُ، فإن فات الوقتُ فلا توبةَ، واقرأْ قولَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ﴾ [النساء:١٨].

فيقال: فاتَ الأوانُ ولا تنفعُ التوبةُ إذا شاهدَ الإنسانُ مَلَك الموتِ؛ لأن هذه توبةُ مُضْطَرٍّ لا مُختار، فالَّذِي يتوبُ حقًّا هو الَّذِي يتوبُ باختيارٍ، وأما الَّذِي لا يتوبُ إلَّا عند الضرورةِ فلا توبةَ له، واقرأ قولَ اللهِ تَعَالَى عن فرعونَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، فقيل له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ يعني آلآن تؤمن ﴿وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٩١]. فلم يَقبَلِ اللهُ توبتَه لأنَّه إنَّما تاب حين رأى العذابَ ورأى الموتَ.

وبناءً على هذا الشرطِ الأخيرِ يجب أن يبادرَ الإنسانُ بالتوبةِ؛ لأنَّه لا يَدري متى يَفْجَؤُه الموتُ، فكم من إنسانٍ رَكِبَ سيارتَه يقودها إلى عملِه فيصاب بحادثٍ ويموتُ، وكم من إنسانٍ يموت على فِراشِه، وكم من إنسانٍ يسقط وهو يُصَلِّي مَيِّتًا، فإذا كان الموتُ قد يأتي بغتةً فالواجب علينا أن نُبادِرَ بالتوبةِ؛ لئلَّا يأتيَ الموتُ بغتةً ونحن لم نَتُبْ.

وهناك أيضًا وقتٌ لا تُقبَل فيه التوبةُ، وهو إذا طلعتِ الشمسُ من مَغربِها، فالشمسُ الآن تدورُ على الأرضِ؛ تأتي من الشرقِ وتغرُب في الغربِ؛ كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وقالَ النَّبِيُّ ﷺ لأبي ذرٍّ وقد غَرَبَتِ الشمسُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟». قال أبو ذرٍّ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلا يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يُقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩).

فإذا خرجتِ الشمسُ من مَغربها فإن النَّاس كلهم يؤمنونَ، حتَّى ألحدُ النَّاسِ وأكفرُ النَّاسِ وأفجرُ النَّاسِ يُؤمن؛ لأنَّه رأى آيةً لا يمكِن للمخلوقِ أن يقومَ بها، وهي ردُّ الشمسِ عن سَيرها حتَّى تَرجِعَ إلى الوراءِ، وتخرج من مَغربها، فحينئذٍ يؤمن النَّاس كلهم، ولكن الله تَعالَى يقول: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]. وقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[1].

فهذه شروطُ التوبةِ، فبادِرْ أخي المسلمُ بالتوبةِ إلى اللهِ، واخرجْ من المَظالمِ قبلَ أَلا تستطيعَ الخروجَ، فإذا كان عندك حقٌّ لإنسانٍ فإنه يجبُ عليك أن تؤديَه، حتَّى إنَّه لا يجوز للإنسانِ أن يُماطلَ بالحقِّ، بمعنى لو كان أحدٌ يَطلُبُك مئةَ ريالٍ، فيأتي إليك ويقول: يا أخي أَوْفِني، وأنت غنيٌّ تستطيع أن توفيَه مئةَ ريالٍ، فتقول: غدًا، ويأتي غدًا فتقول: بعد غدٍ، فإن النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أخبر أن مَطْلَ الغَنِيِّ ظُلْمٌ[2]، والظُّلْمُ ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ[3].

ومن ذلك ما نسمعه عن بعضِ الكُفَلَاءِ الَّذِينَ لا يَرحمون الخلقَ، ولا يخافون الخالِقَ، فتجده يُماطِل بوفاءِ المكفولِ، فيكدح المكفولُ ليلًا ونهارًا حَسَبَ ما يَجري به العقدُ، ومع ذلك يُماطِل به، وربما لا يُعطيهِ، وربما يَنقُص منَ الأُجرة الَّتي اتَّفق معه

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب في الاستقراض، باب مطل الغني ظلم، رقم (٢٤٠٠)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني، رقم (١٥٦٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، رقم (٢٤٤٧)، ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٩).

عليها في بلادِهِ، وقد قالَ النَّبيُّ ﷺ فيما رَوَاه عن ربِّه: «**قَالَ اللهُ: ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**»(١).

فمَنِ استوفى من الأجيرِ العملَ ولم يُعطِه كان الله يومَ القِيَامَةِ خَصمَه، وما ظَنُّك يا أخي إذا كان اللهُ خَصمَك، فهل أنت غالب أو مغلوب؟ مغلوب بلا شَكّ، وليس هناك أدنى احتمالٍ لأنْ تغلبَ.

فعلينا ألا نظلمَ هَؤُلاءِ المساكينَ الَّذِينَ تركوا أهليهم وأوطانَهم، وجاءوا يريدونَ لُقمة العَيش، ثمَّ نَغدِر بهم، حتَّى إن بعضَهم إذا اشتغلَ عند كَفِيله قال له كفيله: أُعطيك ثلاث مئةِ ريالٍ وإلا ارجِعْ، وهو قدِ اتفقَ معه على خمسِ مئة ريالٍ، فهذا حرامٌ ولا يَحِلُّ، وبعضهم يأخذ على الفيزا أجرًا إلى ألفينِ وثلاثةٍ وأربعةٍ، وكلُّ هذا بغيرِ حقٍّ.

فالواجبُ علينا -يا إخواني- أَلا ننظرَ إلى الدنيا والاتِّجار بها والإكثار منها، بل ننظُر إلى شيءٍ آخرَ الَّذِي هو مآلُنا وهو الآخِرَةُ؛ ماذا قدَّمنا للآخرةِ، أما الدنيا فإنها زائلةٌ؛ إما أن تزولَ الدنيا أو يزول صاحبُ الدنيا، وما خُلِّدَ أحدٌ؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيِّهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤]، يعني: كلكم ستموتونَ.

وكما قال في الآية الثَّانية: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إثم من باع حرا، رقم (٢٢٢٧).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ اللَّهُمَّ لك الحمدُ، إذا تابَ الإنسانُ إلى اللهِ وصَدَقَ في توبتِه أبدلَ الله سيئاتِه حسناتٍ، يُبدِله بالشركِ إخلاصًا وتوحيدًا، ويُبدِله بالعقوبةِ على الشركِ إثابةً على الإخلاصِ والتوحيدِ، ويبدِّل الله تَعَالَى سيئاتِه حسناتٍ بالنسبة للقتلِ وبالنسبة للزِّنا إذا تاب وآمَنَ وعمِل عملًا صالحًا.

وبالنسبةِ للقاتِلِ فتوبتُه أن يُسلِّمَ نفْسَه لأولياءِ المقتولِ حتَّى يَستقيدوا منه، أو يأخذوا الدِّيَةَ أو يعفوا مجَّانًا، وبدون ذلك لا تَصِحُّ التوبةُ، يعني لو أن من قتل نفسًا ذهبَ في البرِّ وتاب إلى اللهِ، وصار يقوم اللَّيْلَ ويصومُ النهارَ ولكن لم يسلمْ نفسَه لأولياءِ المقتولِ فتوبتُه غيرُ صحيحةٍ، فلا بُدَّ أن يسلمَ نفسه لأولياءِ المقتولِ، وإلا فلا توبةَ له.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثالث:

الحمد للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسلامُ على نبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آلِه، وأصحابِه، ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فقد قال تعالَى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٣-٧٠] إلى آخرِ ما ذكرَ الله تعالَى منَ الأوصافِ الجليلةِ لهؤلاءِ.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أولًا قَالَ: «عباد الرَّحْمَن» ولم يقلْ: «عباد الله»؛ لأن توفيقهم لهذهِ الصفاتِ الجليلةِ من آثارِ رحمةِ اللهِ تعالَى.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ والمراد بالمشي الهون ليسَ هو التماوت، وإنما هو المشيُ المعتدِل؛ الَّذي كمِشْيَةِ النَّبِـيّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، وأمَّا التماوتُ في المشيِ، أو المشي في الأرضِ مَرحًا وكِـبرًا وإعجابًا، فإن ذلك ليسَ من أوصافِ مَشْيِ عِبَاد الرَّحْمَن.

قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾؛ أي قالوا قولًا يَسْلَمُـون به، وليس المعنَى قالوا سلامًا أي أن يُسَلِّموا عليهم، فإذا خاطبهمُ الجاهلُ الَّذي يريد العدوانَ عليهم بقولِه أو فعلِه، فإنَّهم يقولون قولًا يَسْلَمُونَ به.

ومِن ذلكَ ما أرشدَ إليه النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ الصائمَ إذا سابَّه أحدٌ أو قاتلَه: «فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ»[1]. خلافًا لبعض النَّاس الآن؛ تجده يُقاتل على أدنَى شيءٍ وهو صائمٌ، ولا يَحترِم الصَّومَ، ولا يَلتفِت إلى ما أرشد إليه النَّبِيّ ﷺ من أنك لا تقاتل مَن قاتَلَكَ، ولا تَسُبّ مَن سابَّك في أيامِ الصِّيامِ، ولكن قُل: إني امرؤٌ صائمٌ، حتَّى يعرِف أنك قدِ احتفظتَ لنفسِكَ، وأنك لم تَمْتَنِعْ من مقابلتهِ إلَّا من أجلِ الصَّوم، ومن أجل أن يخجلَ هو أيضًا فيَمْتَنِع.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ أي أنَّهم لا يَنامونَ كما يَنامُ النَّاسُ على فُرُشِهِم، ولكنَّهم يَبيتـونَ للهِ سُجَّدًا وقِيامًا، و(سُجَّدًا) جمـعُ ساجدٍ، و(قِيامًا) جمعُ قائمٍ، وذَكَرَ اللهُ السُّجُود والقيامَ لأن السُّجُودَ أشرفُ أفعالِ الصَّلاةِ في هيئتِهِ، والقيام أشرف أفعالِ الصَّلاة في ذِكره.

والجملة المعروفة (السُّجُود أشرف أفعال الصَّلاة في هيئته) لأن الإِنْسَان يضعُ أشرفَ ما فيه في مداس الأقدامِ، ولهَذَا كان الإِنْسَان الساجدُ أقربَ ما يكون من ربِّه، وأمَّا القيامُ فهو أشرفُ أفعالِ الصَّلاةِ في ذِكره؛ لأن المشروع في حال القيامِ هو قراءة القُرآنِ؛ الَّذي هو أفضلُ أنواعِ الذِّكر؛ فلهَذَا ذكرَ الله تَعالَى من أفعالِ الصَّلاةِ هذينِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم (١٩٠٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١).

الفعلينِ فقطْ دونَ الرُّكُوع والقعودِ؛ لأن هذينِ الفعلينِ أشرفُ أنواعِ الصَّلاةِ؛ القيامُ بِذِكْرِه والسُّجُودُ بهيئتِه.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ أي أنهم يسألون الله تَعَالَى أن يَصرِف عنهم عذابَ جَهَنَّمَ.

فإنْ قيل: بماذا يَصرِف عنهم عذاب جهنمَ؟ هل المراد بالتوبةِ من المعاصي، أو بأن يَصرِفَ عنهم المعاصيَ الَّتي هي سببُ عذابِ جهنمَ، أو الأمرانِ جَميعًا؟

الجواب: الأمرانِ جميعًا، والقاعدةُ في هَذَا الأمرِ أَنَّه إذا كان النصُّ يَحتمل معنيينِ لا مُرَجِّحَ لأحدهما على الآخرِ، ولا يُعارِض أحدُهما الآخرَ، وجبَ أن يُحْمَلَ النصُّ على المعنيينِ جميعًا؛ استيعابًا للمعنى الَّذي يَحتمله اللفظُ.

إذن ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ بألَّا نتعرَّض للأعمال الَّتي تُوجِب عذابَ جهنمَ، وأن نُوَفَّقَ للتوبةِ إذا نحن وقعنا فيها، فيشمل المعنيينِ جميعًا.

قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ أي: كالغَريم في مُلازَمَتِه لأهلِه والعياذ بالله، والمراد بذلك أهلُ النارِ الَّذين هم أهلُها.

قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ هَذَا ذمٌّ لها في الْمُقام والْمُستقَرِّ، فهي شرُّ دارٍ سواءٌ كان الإِنْسَان أقامَ فيها بنيَّة المغادرةِ، أوِ استقرَّ فيها استقرارًا كاملًا.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ ذكرَ الله عَزَّوَجَلَّ ثلاثَ أحوالٍ للإنفاقِ:

الأُولَى: الإسرافُ.

والثَّانية: الإقتارُ.

والثَّالثة: الوسَط.

فعبادُ الرَّحْمَنِ إذا أنفقوا لم يُسرِفوا؛ أي لم يَتَجَاوَزُوا الحَدَّ في إنفاقهم، ولم يَقْتُروا؛ أي لم يُقصِّروا في الإنفاقِ عمَّا ينبغي أن يُنفِقوه، وكان إنفاقهم بين ذلك المشار إليهِ: الإسراف والتقتير، لكن (قِوامًا) يعني ليسَ وسطًا على كلِّ حالٍ، بل (قوامًا) أحيانًا يَميلون إلى الزيادةِ، وأحيانًا يميلونَ إلى النقصِ بِحَسَبِ المصلحةِ والحاجةِ.

فإذا كان الإِنْسَانُ إذا أنفقَ أسرفَ فإنه بذلك يخرجُ عن هَذَا الوصفِ الجليلِ؛ كما يوجد الآن في كثيرٍ من إخواننا الفقراء؛ فتجده فقيرًا ويريد أن تكونَ نفقاته كنفقةِ الغنيِّ، فيشتري أفخرَ السياراتِ، ويلبس أفخرَ الملابسِ، ويَطْعَم في أفخر المطاعمِ، ويفترش أفضلَ الفُرُش؛ لأَنَّه يريد أن يكمِّل النقصَ في زَعمِه، وهَذَا ما يُسمِّيه علماءُ النفْس بِمُرَكَّبِ النَّقْص؛ يَشْعُر أَنَّه فقيرٌ وأنه يجب أن يكونَ مُضاهيًا للأغنياء، وهَذَا غلط، وهَذَا خِلاف الشرع، وخلاف العقلِ.

وتجد هَذَا الرجل يمكن أن يشتريَ سيارةً بثلاثينَ ألفًا، لكنَّه لا يكتفي بذلك، بل يشتري سيارة بستينَ ألفًا أو بأكثرَ؛ لأَنَّه لا يريد أن يشتريَ من السياراتِ الرخيصة، وإنما يشتري من السيارات الغاليةِ تفاخرًا، ولِئَلَّا يظهرَ أمامَ النَّاسِ وكأنه فقيرٌ، وهَذَا غلطٌ.

وتجده أيضًا يَستدين من أجلِ أن يفرشَ جميعَ البيتِ، بل من أجل أن يفرش

الدَّرَج؛ لأن فلانًا الغنيَّ قد فرشَ درجه، فيريد أن يفرشَ الدرجَ كما فرشه الغني، ويستدين ويُثقِل كاهِلَه بالدَّين، ويموت وهو مَدِين، ولم يشعرْ هَذَا المسكين أن ذلك من الخطأِ في التصرُّف وأنه ليسَ رُشْدًا.

فيجب علينا أن نحذرَ من التهاونِ بالدَّين حَذَرًا بالغًا؛ لأن الدَّين أمره عظيمٌ، وقد كان النَّبيّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ إذا قُدِّمَ إليه ميتٌ ليُصَلِّي عليه، وعلى هَذَا الميتِ دينٌ لا وفاءَ له، لم يصلِّ عليه[1]. وقُدِّمَ له ذات يومٍ رجلٌ منَ الأنصارِ، فلمَّا خطَا خُطُواتٍ قَالَ: «أَعَلَيْهِ دَيْنٌ؟». قالوا: نعم، عليه دِينارانِ. والدينارانِ هما ما يُسمَّى عند النَّاسِ الآن بالجُنَيْهاتِ الذَّهَبِيَّة، فانصرف ﷺ ولم يصل عليه؛ لأن عليه دينًا، فقال أبو قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الدِّينَارَانِ عَلَيَّ. يعني: وصلِّ عليه، فقال: «حَقَّ الغَرِيمِ، وَبَرِئَ مِنْهُمَا المَيِّتُ؟». قَالَ: نعمْ. فتقَدَّمَ وصَلَّى[2].

وسأله رجلٌ عن الشهادةِ، فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدَّيْنَ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ»[3]. فانظرْ إلى الشهادةِ؛ يُقتَلُ الإِنْسَانُ في سبيلِ اللهِ ويُكفَّر عنه كلُّ سَيِّئاته إلَّا الدَّين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكفالة، باب من تكفل عن ميت دينا، فليس له أن يرجع، رقم (٢٢٩٨)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، رقم (١٦١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، رقم (١٨٨٥).

ثمَّ انظر إلى القصَّة الغريبة:

جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، جِئْتُ أَهَبُ لَكَ نَفْسِي -يعني تريد أن تكونَ زوجةً له بدون مَهْرٍ- فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَصَعَّدَ النَّظَرَ فِيهَا وَصَوَّبَهُ، ثُمَّ طَأْطَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ رَأْسَهُ -فلِكَرَم أخلاقه لم يقل: لا أَرْغَب -فَلَمَّا رَأَتِ المَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا- وهَذَا من كمال الأدب مع الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لم يطلبْ أن يزوِّجه إياها فورًا، بل قَالَ: إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها- فَقَالَ: «فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟». فَقَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ: «اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا؟». فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: لَا وَاللهِ، مَا وَجَدْتُ شَيْئًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ»، فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: لَا وَاللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَا خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ، وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي -وَمَا لَهُ رِدَاءٌ- فَلَهَا نِصْفُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ؟ إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ مِنْهُ شَيْءٌ». فَجَلَسَ الرَّجُلُ، حَتَّى إِذَا طَالَ مَجْلِسُهُ قَامَ، فَرَآهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ مُوَلِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: «مَاذَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ؟» قَالَ: مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا -عَدَّدَهَا- فَقَالَ: «تَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «اذْهَبْ فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ»[1]. يعني علِّمها، ولم يقل النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب وكالة المرأة الإمام في النكاح، رقم (٢٣١٠)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الصداق، وجواز كونه تعليم قرآن، وخاتم حديد، وغير ذلك من قليل وكثير، واستحباب كونه خمسمئة درهم لمن لا يجحف به، رقم (١٤٢٥).

آلِهِ وسَلَّمَ لهَذَا الرجلِ: تَسَلَّفْ، استَقْرِض، اسْتَدِن، وإنما قَالَ: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ».

وهنا مسألة وهي: هلِ الباء للسَّبَبِيَّةِ أو لِلْعِوَضِ؟

الجواب: الباءُ للعوضِ، والفرق بينهما أنها إذا كانتْ للسببيةِ صار المعنى: زَوَّجْتُكَهَا لأنك قارئٌ، وليس للمرأةِ حظٌّ من التعليمِ، وإذا كانت للعِوض صار المعنى: زَوجتُكها على أن تُعَلِّمَها ما معكَ منَ القُرآنِ، وبينهما فرقٌ عظيمٌ.

فالمقصود من هَذَا أن النَّبِيّ ﷺ لم يقل له: استقرِضْ، وهناك أناسٌ الآن شباب يريدون أن يَتَزَوَّجوا، ويمكِن أن يتزوج المرأةَ بثلاثينَ ألفَ ريالٍ حَسَبَ مستوى المعيشةِ، لكنَّه يقول: لن أُعطِيَها ثلاثينَ ألفَ ريالٍ، إنما أُعطِيها خمسينَ ألفَ ريالٍ؛ لِئَلَّا أَنقُص عن زَميلي، فزميلي أصدقَ امرأتَه خمسينَ ألفَ ريالٍ، وأنا أريد أن أَصْدُقَها خمسينَ ألفَ ريالٍ، فهَذَا غلطٌ، ومع هَذَا سوفَ يَستدين هذهِ الخمسينَ. لذلك يجب أن نهتمَّ بأمر الدَّين، وألا نَستدينَ أو نَستقرِض إلَّا عند الضرورةِ.

ثمَّ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾، وهذهِ أُمَّهاتُ السَّيِّئات؛ الشركُ: إخلالٌ بحقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقتلُ النفسِ: انتهاكٌ لِحُرُمات النُّفُوس، والزِّنا: انتهاكٌ لحُرمات الأعراضِ والأنسابِ؛ فإن الزنا -والعياذ بالله- هتكٌ للأعراضِ واختلاطٌ للأنسابِ، فالمرأة إذا توالى عليها الزُّناةُ -نسأل الله العافيةَ- وأتت بولدٍ لا أحدَ يعلم لمن يكونُ هَذَا الولدُ، فتختلط الأنسابُ.

فهذهِ العظائمُ الثلاثُ يَتَخَلَّى عنها عِبَاد الرَّحْمَن تمامًا؛ فلا يَدْعُون معَ اللهِ إلهًا

آخَرَ، ولا يَقتُلون النفسَ الَّتي حرَّم الله إلَّا بالحقِّ، والنفسُ الَّتي حَرَّمَها اللهُ أربعُ أنفسٍ: نفس المؤمن، ونفس الذِّمِّيِّ، ونفس المعاهَد، ونفس المُستأمِن، فهذِهِ أربعُ أنفسٍ مُحْتَرَمَة، مَعصومة، لا يجوز الاعتداءُ عليها.

ونفس المؤمن واضح أمرها: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

وأما نفسُ الذِّمِّيِّ فالذميُّ هو الَّذي بيننا وبينه ذِمَّة؛ بأن يُقِيم بِدَارِنا نَحميه، ويبذُل الجِزْيَةَ، والذِّمَّةُ هي العهدُ، وهَذَا قدِ انمحَى منذ زمانٍ، فلمّا كان المسلمونَ أقوياءَ صار الكافر يقيم بينهم آمِنًا مُطْمَئِنًّا، له ما للمواطنينَ من الحقوقِ، لكن يبذُل الجزيةَ، فهَذَا الذِّمِّيُّ.

وأما نفسُ المعاهَدِ فالمعاهدُ هو الَّذي لا يُقيم بِدِيَارِنا، لكنَّه يقيم بدارِه، ويكون بيننا وبينه عهدٌ، كما حصل للنبيِّ ﷺ مع قُريشٍ في صُلحِ الحُدَيْبِيَة، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:٤]، فيكون بينه وبين المُسْلِمين عهدٌ ألَّا يعتديَ أحد على أحدٍ، ويكون هَذَا المعاهَدُ مُحْتَرَمًا، نفسه مَعصومة، لا يجوز العُدوان عليه.

ومِن ذلك: مَن دخل بلادنا بأمانٍ، وهو المُستأمِن، فإن حُكْمَه في حِمايته حكمُ المعاهَدِ، و«**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[1]؛ كما قاله النَّبيّ ﷺ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، رقم (٣١٦٦).

فعباد الرَّحْمَن لا يقتلونَ النفسَ الَّتـي حرَّم الله إلَّا بالحق، والحـقُّ كلُّ ما يبيح الدمَ المحـترَم، فمن ذلك الزِّنا، فإذا كان الزاني ثيِّبًا فإنَّه يُقتل، ومن ذلك اللُّواط، فإن اللائط يُقتَل ولو لم يكن ثيِّبًا، والملوطُ به كذلك يُقتَل إذا كان بالغًا عاقلًا ولم يُكْرَهْ.

ومن ذلك القِصاص؛ فإن القاتل يُقـتَل ولو كان مُسلـمًا. ومن ذلك المُفَارِقُ للجماعةِ؛ كقُطَّاع الطرُق، فهؤلاءِ يُقتَلون وإن كانوا مسلمينَ.

وهنا مسألة: الزاني يُقتل إذا كان ثيبًا، وهو المُحْصَن، وأمَّا البِكر فإنَّه لا يُقتَل، ولكن يُجلَد مئةَ جلدةً، ويُطرَد عن البلدِ مدةَ سنةٍ، أما الثيبُ، وهو الَّذي تزوَّج بنكاحٍ صحيحٍ فإنَّه يُقتل، ولكن يُقتل قتلًا غيرَ معتادٍ، فيُرجَم بالحجارةِ؛ حجارة لا كَبيرة ولا صَغيرة؛ لأن الكبيرةَ تُميتُه بسرعةٍ، فلا يذوق ألَمَ الحجارةِ، والصغيرة لا تؤدِّي الغَرَضَ إلَّا بعد وقتٍ طويلٍ، فيتَعَذَّب، وقد رَجَمَ النَّبيّ ﷺ في حياته، ورَجَمَ الصحابة بعده، ونزل في ذلك آيةٌ من كتاب اللهِ[1]، هذهِ الآيَة نُسِخَ لفظها وبَقي حكمها[2].

فإذا قال قائل: لماذا لا يُقتَل بالسيفِ؟

قلنا: ليذوقَ عذابَ الحجارةِ كما ذاق لذَّة الشهوةِ المحرَّمة، وهَذَا من الحِكمة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ هذهِ الجرائم الثلاث إذا فعلـها الإِنْسَان فإنَّه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنا، رقم (٦٨٢٩)، ومسلم: كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنى، رقم (١٦٩١).

(٢) وهي «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا البَتَّةَ».

يُضاعَف له العذابُ يومَ القيامةِ ويَخْلُد فيه مُهانًا إلَّا من تابَ، وعلى هَذَا فمَن تاب من أعظمِ الجرائمِ؛ تاب الله عليه مَهما كان ذنبُه، فإذا تاب من الشركِ تابَ الله عليه، وإذا تاب من قتلِ النفسِ تاب الله عليهِ، وإذا تاب مِنَ الزِّنا تاب الله عليه؛ قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

فإذا نظرنا إلى بعض مَن تابَ مِن شِركه فتابَ الله عليه، وجعله من الأئمَّة؛ نجد من هؤلاء عمرَ بنَ الخطَّاب، وخالدَ بنَ الوَلِيد، وعِكْرِمَةَ بنَ أبي جَهْلٍ، وغيرهم كثير تابوا منَ الشركِ، فتاب الله عليهم، وكانوا أئمةً.

وكذلك أيضًا مَن تاب مِن الزنا فإن الله يتوبُ عليه، ولهَذَا لمّا جاء مَاعِزُ بنُ مَالِكٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وقال: يا رسول، إني قد زنيتُ، أعرض عنه الرَّسُول ﷺ إلى جانبٍ، فاستدارَ ماعزٌ ليواجِهَ النَّبِيّ ﷺ مرةً ثانيةً، فقال: إني زنيتُ، فلَمَّا شهِد على نفسه أربعَ مراتٍ، قال له النَّبِيّ ﷺ: «أَبِكَ جُنُونٌ؟»؛ يعني أنت مجنون حين قلتَ: إنك زنيت، قَالَ: لا يا رسولَ اللهِ. لكنَّه زنى حقًّا، فأَمَرَ النَّبِيّ ﷺ أن يُرجَم، فخرج به الصحابة لِيَرْجُمُوه، فلَمَّا أَذْلَقَتْهُ الحجارةُ -أي: ذاق مَسَّها- هربَ، ولكن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أدركوهُ؛ لأن النَّبِيّ ﷺ أَمَرهم أن يَرْجُمُوه، قالوا: لا بُدَّ أن ننفِّذَ أمرَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأدركوه حتَّى هلك، فلَمَّا أُخْبِرَ النَّبِيّ ﷺ بذلك قَالَ: «هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ فَيَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب سؤال الإمام المقر: هل أحصنت، رقم (٦٨٢٥)، ومسلم: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، رقم (١٦٩١)، ولفظ: «هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ، فَيَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ» لفظ أبي داود: كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك، رقم (٤٤١٩).

وكذلك أيضًا ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إذا تابوا تاب اللهُ عليهم.

توبة القاتل:

وهنا مسألة نذكرها وهي: كيف يتوب القاتلُ، والمقتولُ قد ماتَ؟

نقول: يتوبُ القاتلُ بأن يَندَم، ويستغفر اللهَ، ويسلِّم نفسه لأولياءِ المقتولِ، وأمَّا فيما بينه وبين المقتولِ؛ فإن بعض العلماءِ يقول: إن المقتولَ يُطالِب بحقِّه يوم القيامةِ فيُرضيه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ومنهم من قَالَ: إنه إذا تابَ تاب اللهُ عليه وتَحَمَّل عنه حقَّ المقتولِ.

فالتوبةُ تَجُبُّ ما قبلَها ولله الحمدُ، والتوبة إلى الله تَعَالَى من صفاتِ عبادِ الرَّحْمَن -نسأل الله تَعَالَى أن يتوب علينا وعلى المُسْلِمين- وللتوبة شروطٌ خمسةٌ:

الأول: الإخلاصُ.

والثَّاني: النَّدَم على ما فعل.

والثَّالث: الإقلاعُ عن الحالِ.

والرَّابع: أن يَعزِم على ألَّا يعودَ.

والخامس: أن تكون التوبةُ في وقتِ قَبول التوبةِ.

فالتوبةُ حبُّ التقرُّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والتذلُّل له، دون المراءاةِ أو طلبِ الجاهِ أو طلب المال، وأمَّا الندمُ فأن يشعرَ بنفسِه أنَّه أذنبَ فيَحزَن لذلك، ويَتَمَنَّى أنْ لم يكنْ منه الذنبُ، وأمَّا الإقلاعُ فأنْ يدعَ الذنبَ إنْ كان متلبِّسًا به، وأن يَقضِيَه إن كان واجبًا تركُه ولم يفتْ وقتُ قضائِهِ.

وعلى هَذَا فإذا كان الذنبُ أخْذَ مالٍ مُحْتَرَمٍ فلا بُدَّ في التوبةِ من أنْ يَتَحَلَّلَ من صاحب المالِ؛ إما بإبراءٍ وإما بإيفاء ولا بُدَّ.

وقد كثُر السؤالُ من بعضِ النَّاسِ يقول: إنه كان حين صِغَرِه قد سرقَ أموالًا من بعض الدكاكين، وإنه الآن تابَ، فماذا يصنع بهذهِ الأموال؟

والجواب أن يقال: إن كنتَ تعرِف أصحابها فلا بُدَّ من إيصالها إليهم، وإن كنتَ لا تَعرِفهم فتصدَّق بهذهِ الأموالِ، أو بما يُقابلها من النقودِ لأصحابها.

لكن قد يقول: أنا لو ذهبتُ إلى الرجلِ الَّذي سرقتُ منه المالَ، وقلتُ: إني قد سرقتُ منك مئةَ ريالٍ، تفضَّل خُذها، أخشى أن يقول: إنك سَرقتَ ألفَ ريالٍ، وليس مئةَ ريالٍ، نقول: إذا كنتَ تَخشَى هَذَا فأَرْسِلْها بالبريدِ الممتازِ، واكتبْ ورقةً بأن هذهِ دراهمُ لك من شخصٍ أخذها منك ولا تُبيِّن.

وإننا بهذهِ المناسبةِ نذكر قصةً تدلُّ على ذكاءِ بعض القُضاة؛ يقال: إن رجلينِ من السُّرَّاق (النَّشَّالِينَ) أرادا أن يَسرِقا بالخيانةِ، فمرّ بهما رجلٌ من اليهودِ، فقال أحدُهما للآخَرِ: لا بُدَّ أن نُوقِع هَذَا اليهوديَّ بمشكلةٍ، قَالَ: كيف ذلك؟ قَالَ: اذهبْ أنت أمامَه وارمِ بالبوك، والبوك هو الحقيبةُ الصغيرةُ الَّتي تُحفَظ فيها الدراهمُ، ويُسمِّيها البعضُ محْفَظَة دراهمَ، قال: ألقِ بالمحفظةِ، وهو في الغالبِ سوف يقول لك: يا فلانُ، خذِ المحفظةَ، وإذا أخذتها وفتحتها فقلْ له: أنتَ أحسنتَ بأن نَبَّهْتَنِي أنها سقطتْ مِنِّي، ولكن المحفظة كان بها مِئة دينارٍ، والآن ما فيها إلَّا عشرةُ دَنانير، وحينئذٍ سيقول لك: مَن يشهد لك؟ فقُلْ: يشهد لي هَذَا، يعني شَريكَه في السَّرِقَة.

ففعل الرجلُ، وتقدَّم أمامَ اليهوديِّ، ثمَّ ألقَى المحفظةَ، فناداه اليهوديُّ: يا فلانُ، خذ محفظتكَ، فقال: أنتَ رجلٌ أمينٌ، وجعل يمدحُه، ثمَّ فتح المحفظةَ فقال: لكن يا فلانُ المحفظة كان بها مِئة دينارٍ، والآن ما فيها إلَّا عشَرةُ دنانيرَ، أين ذهب التسعونَ دِينارًا؟ قَالَ: لا أعلمُ، قَالَ: لا يمكِن، لا بُدَّ أن تسلِّم لي تسعينَ دينارًا وإلا فالقضاءُ. وحصل بينهما كلام.

قَالَ: مَن يَشهَد لك؟ قَالَ: يشهد لي فلانٌ، قَالَ: تَشهَدُ؟ قَالَ: نعم، أَشْهَد، وهو سيشهد لأنَّه سارِق.

فذهبا إلى القاضي، وقال صاحب المحفظة: هَذَا الرجلُ سرقَ من محفظتي تسعينَ دينارًا، فقال القاضي للمُدَّعَى عليه، وهو اليهوديُّ: أَجِبْ عن هذهِ الدعوَى. قَالَ: ما سرقتُ منه شيئًا، فقال القاضي للمُدَّعي، وهو صاحبُ المحفظة: عندك شهودٌ؟ قَالَ: نعم، هَذَا فلان يشهدُ، وأنا أحلِف، ومعلومٌ أنَّه إذا شهِد شاهدٌ وحلفَ المدَّعي فإنَّه يُقضَى له.

ولكن اليهوديُّ انفعلَ وأقسمَ بالَّذي أنزلَ التوراةَ على مُوسَى أنَّه لم يأخذِ المحفظةَ، ولم يَسرِقْ منها شيئًا، فعرف القاضي أن اليهوديَّ صادقٌ، وأن المدَّعِيَ وشاهِدَه كاذبانِ، فقال للمُدَّعِي: أنتَ مُتيَقِّنٌ أن المحفظةَ الَّتي سقطتْ منك فيها مئةُ دينارٍ وأنك لم تجدْ فيها إلَّا عَشَرَةَ دنانيرَ؟ قَالَ: نعم متأكِّد، قَالَ: إذن محفظتك ضاعتْ، والمحفظة الَّتي فيها العَشَرَةُ دنانيرَ ليستْ لك، قال لهَذَا المدَّعي: إذن ابحثْ عن محفظتِكَ الَّتي فيها مئةُ دينارٍ، أما هذهِ المحفظةُ الَّتي نبَّهك عليها هَذَا اليهوديُّ فهي ليستْ لك، بل لرجلٍ آخرَ، ثمَّ أخذَ القاضي المحفظةَ، وقال: اذهبوا عني.

فحينئذٍ سُقِط في أيديهم؛ ضاعت المحفظةُ، وكان منهما شهادةُ زُور، ويمينٌ باللهِ كاذبةٌ، و«**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، هُوَ عَلَيْهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»[1]، ومالُ المعاهَدِ محترَم، واليهوديُّ ذهبَ سالمًا. وبَقِيَتِ المشكلةُ الآنَ؛ كيف يَستخرجونَ عَشَرَةَ الدنانيرِ من هَذَا القاضي. وإلى هنا انتهت القصَّة، ولا أحدَ يدري هل تابا إلى اللهِ، أو لم يَتُوبا، فاللهُ أعلمُ.

المهم أن الإِنْسَان يجب عليه إذا تابَ أن يؤديَ الحقوقَ إلى أهلها، وإن كانت أموالًا فإنه يَرُدُّها إليهم، وإنْ كانت غِيبةً أو ما أشبهَ ذلك فلْيَتَحَلَّلْ منها، حتَّى تَتَحَقَّقَ التوبةُ. نسأل اللهَ لنا وللمسلمينَ التوبةَ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب المساقاة، باب الخصومة في البئر، رقم (٢٣٥٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، رقم (١٣٨).

الدرس الرابع:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَن يُضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، إله الأولينَ والآخِرينَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وخليلُه، وأمينُه على وحيِه، بلغَ الرسالةَ، وأدى الأمانةَ، ونصحَ الأمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، وتركَ أمتَه على محجةٍ بيضاءَ، ليلِها كنهارِها، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

وقد مكثَ النبيُّ ﷺ في مكةَ بعدَ البعثةِ ثلاثَ عشرةَ سنةً، ومكثَ بعدَ الهجرةِ في المدينةِ عشْرَ سنواتٍ؛ فبلَّغَ الرسالةَ، وأدى الأمانةَ، ونصحَ الأمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه حتى أتاهُ اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، أما بعدُ:

فيقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

هذهِ ثلاثةٌ مِن أصولِ وعظائمِ المحرماتِ:

الأولُ: الشركُ؛ لأن الشركَ أعظمُ المحرماتِ، فأعظمُ الذنبِ **«أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾

الثاني: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾. وقتلُ النفسِ بغيرِ حقٍّ مِن أعظمِ ما يكونُ جُرمًا في حقِّ الآدميينَ، و«**أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ**»[1].

الثالثُ: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ والزنَا منَ الفواحشِ، وهوَ فسادُ الأمةِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

فهذِهِ ثلاثةُ أشياءَ: الشركُ، والثاني: قتلُ النفسِ التي حرمَ اللهُ إلا بالحقِّ، والثالثُ: الزنَا.

منْ صفاتِ عبادِ الرحمنِ: أنهُم لا يَدعُونَ معَ اللهِ إلهًا آخرَ:

ومن صفاتِ عبادِ الرحمنِ أنهمْ لا يدعونَ معَ اللهِ إلها آخرَ. وانتفاءُ الشركِ عنهمْ يتضمنُ خالصَ التوحيدِ، يعني أن عبادَ الرحمنِ -جعلَني اللهُ وإياكُم منهمْ- على أكملِ ما يكونُ في إخلاصِ التوحيدِ لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يُشركونَ باللهِ؛ لا في ربوبيتِه، ولا في ألوهيتِه، ولا في أسمائِه وصفاتِه، فيجعلُونَ ما للهِ للهِ خاصًّا بهِ، ولا يشاركُه فيهِ أحدٌ.

وقولُه: ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أيْ معبودًا آخرَ، وإنما يُخلصونَ العبادةَ للهِ وحدَه لا شريكَ لهُ.

= [المائدة:٦٧]، رقم (٧٥٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٣)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، رقم (١٦٧٨).

وقولُه: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ﴾ المرادُ دعاءُ العبادةِ، أو دعاءُ المسألةِ؛ لأن الدعاءَ ينقسمُ إلى قسمينِ: دعاءُ مسألةٍ ودعاءُ عبادةٍ.

فإذا قلتَ: اللهمَّ اغفرْ لي وارحمنِي، فهذا دعاءُ مسألةٍ، وإذا قامَ الإنسانُ يُصلي يرجُو ثوابَ اللهِ فهذا دعاءُ عبادةٍ.

ويدلُّ لهذا قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

إذنْ لا يَعبدونَ معَ اللهِ إلهًا آخرَ، ولا يسألونَ أحدًا حاجةً لا يَقدِرُ عليها إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ؛ فالذينَ يدعونَ الأمواتَ يأتونَ إلى قبرِ الوليِّ يقولونَ: يا سيدِي، يا وليِّي، أَغِثْنِي منَ الشدَّةِ، هؤلاءِ مشركونَ شِركًا أكبرَ يُخرجُهم مِن دينِ الإسلامِ، حتى لو صَلَّوا للهِ، وتَصدقُوا للهِ، وصامُوا للهِ، وحَجُّوا للهِ، واعتمرُوا للهِ، وهمْ يَدعُونَ مَن يزعمونَهُم أولياءَ للهِ، فإنهمْ مشركونَ لا يُقبلُ منهمْ شيءٌ.

ولو دعَا أحدٌ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أفضلَ البشرِ أيكونُ مشركًا باللهِ؟

نقولُ: نعمْ يكونُ مشركًا باللهِ، ولا يُقبلُ منهُ صلاةٌ.

ولو وقفَ على قبرِ النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقالَ: يا رسولَ اللهِ، إنهُ لا يأتينِي ولدٌ، فارزقنِي ولدًا، ثم انصرفَ إلى القبلةِ وجعلَ يصلي، فإننَا نقولُ في صلاتِه: إنها باطلةٌ، ولا تُقبلُ. وإذا تصدقَ لم يُقبلْ منهُ، وإذا صامَ لم يقبلْ منهُ، وإن حجَّ لم يُقبلْ منهُ، وإنِ اعتمرَ لم يقبلْ منهُ، وإن فعلَ أيَّ شيءٍ منَ العباداتِ لم يقبلْ منهُ حتى يتوبَ منَ الشركِ. وهذا هوَ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فكيفَ بغيرِهِ!

كذلكَ أيضًا ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ لا يعبدونَ أحدًا سِوَى اللهِ، فلا يركعونَ إلا للهِ، ولا يسجدونَ إلا للهِ، ولا ينظرونَ إلا للهِ، ولا يَخْشَونَ إلا اللهَ، إلى آخرِ أنواعِ العبادةِ، فلا يَصرفونَ شيئًا منَ العبادةِ إلا للهِ وحدَه، فهؤلاءِ همْ عِبادُ الرحمنِ.

قتلُ النفسِ بغيرِ حقٍّ:

ثانيًا: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ والنفسُ التي حرمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أربعةُ أنفسٍ:

الأولى: المسلمُ. **والثانيةُ:** الذميُّ

والثالثةُ: المعاهَدُ. **والرابعةُ:** المستأمِنُ.

المسلمُ:

وكلُّ هؤلاءِ أنفسُهم محـرَّمةٌ؛ فالمسلمُ ظاهرٌ أن نفسَه محـرمةٌ؛ لأنهُ لا يحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ يشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن محـمدًا رسولُ اللهِ إلا بإحدَى ثلاثٍ[1]. وسنبينُها إن شاءَ اللهُ تعالى.

الذميُّ:

والذميُّ هوَ الرجلُ الكافرُ يقيمُ في بلادِنا تحتَ ظلِّ الإسلامِ، ويبذلُ الجزيةَ، ونحنُ ندافعُ عنهُ، ونمنعُ العدوانَ عليهِ؛ لأنهُ في حمايتِنا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ...﴾ [المائدة:٤٥]، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦).

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩].

المعاهَد:

المعاهدُ الذي بينَنَا وبينَهُ عهدٌ، فهذا نفسُهُ محترمةٌ ما لم يَنقضِ العهدَ؛ فإن نقضَ العهدَ زالَ احترامُه، أما ما دامَ على عهدِه فإنهُ يجبُ علينَا أن نوفيَ لهُ بالعهدِ؛ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ [التوبة:٧].

وقد ذكرَ اللهُ أحوالَ المعاهَدينَ أنها ثلاثُ حالاتٍ:

الحالُ الأُولى: أن يستقيمُوا على العهدِ، ولا ينقضُوا العهدَ، ولا يُخشَى منهمْ نقضُ العهدِ، فهؤلاءِ يجبُ علينَا أن نوفيَ بعهدِهم، وألا نعتديَ عليهمْ في أيِّ حالٍ منَ الأحوالِ؛ لأن أوفى الأديانِ ذمةً وعهدًا هوَ دينُ الإسلامِ.

الحالُ الثانيةُ: قومٌ نكثُوا عهدَهُم بعدَ أن أَجْرَوا معاهدةً بينهُمْ وبينَ المسلمينَ، فهؤلاءِ يقولُ اللهُ فيهمْ: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ ﴾ [التوبة:١٢]، يعني لا عهودَ لهمْ، وهذا ظاهرٌ، فإذا جرَى بيننَا وبينَ الكفارِ عهدٌ، ثم نقضُوا العهدَ باعتداءٍ علينَا، أو على مَن كانَ في حِلفِنا، فإن عهدَهم ينتقضُ، ولا أمانَ لهمْ.

الحالُ الثالثةُ: قومٌ لم ينقضُوا العهدَ، ولكننَا نخافُ أن ينقضُوا العهدَ، يعني بأن بدَا منهمْ أفعالٌ تشيرُ إلى أنهمْ سينقضونَ العهدَ، فحكمُ هؤلاءِ كما قالَ اللهُ

تَعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ [الأنفال:٥٨] انبذْ يعني انبذِ العهدَ، وقلْ لهمْ: لا عـهدَ بينَنَا وبينَـكُم؛ لأننا نخافُ أن يَنقضُـوا العهدَ، فإذا نَقضُوا العهدَ ما بقيَ شيءٌ، فقبلَ أن يَنقضُوا العهدَ نُبادِرُهُم، لكن لا ننقضُ العهدَ، بل نقولُ: لا عهدَ بينَنا وبينكُم، فلا نُخونُهم، بلْ نُخبرُهم أنهُ لا عهدَ بينَنَا وبينَهُم على سواءٍ.

إذنِ المعاهَدُ نفسُهُ منَ الأنفسِ المحرَّمةِ، إلا إذا نقضَ العهدَ، فإنَّ احترامَهُ يزولُ، وإن خِيفَ نقض العهدِ منهُ نبذْنَا إليهِ عهدَه على سواءٍ، حتى يكونَ على بصيرةٍ ونحنُ على بصيرةٍ.

أما إذا استقامَ على عهدِهِ فالواجبُ علينا أن نستقيمَ على العهدِ.

نفسُ المستأمِنِ:

الرابعُ: المستأمِنُ، وهوَ الذِي ليسَ بينَنَا وبينَ طائفتِهِ عهدٌ، لكن هوَ بنفسِهِ دخلَ إلى بلادِنا مستأمِنًا، يعنِي أُعطِيَ أمانًا مِن قِبلِ الدولةِ، أو ممنْ يصحُّ أن يُعطيَ الأمانَ، فهذا آمنٌ، ويجبُ أن نَردَّهُ إلى مأمنِه، وألا نَعتَدِيَ عليهِ بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ، معَ أن قومَـه ليسَ بيننَا وبينَهُم عهدٌ ولا ذمـةٌ، بلْ همْ حربيونَ، لكنهُ دخـلَ مستأمِنًا وأعطينَاهُ الأمانَ، فالواجبُ الوفاءُ بالأمانِ؛ لأن هذا ما بَينَنا وبينَهُ عهدٌ، بل بيننا وبينَهُ أمانٌ.

مثلًا: تاجرٌ منَ الكفارِ قدِمَ إلى بلادِنا مستأمِنًا، وأُعطِـيَ الأمانَ من قِبلِ مَن يصحُّ منهُ إعطاءُ الأمانِ، فهوَ محترمٌ لا نَعتدِي عليهِ، أو على تجارتِه التي معَهُ حتى ينتهيَ منَ التجارةِ ويرجعَ إلى بلدِهِ، وهذا محترمٌ.

ومنْ ذلكَ العمالُ، فالعمالُ حتـى وإن لـم يكنْ بينَنا وبينَ قومِهم عـهدٌ فإنهمْ آمنونَ؛ لأن مجردَ العقدِ الذي بينَنا وبينَهُم على أن يَعمَلُوا في بلادِنا يَستلزمُ الأمانَ، فكيفَ آتِي بهِ ليعملَ عندَنا بدونِ أن يكونَ آمِنًا! هذا لا يستقيمُ، ولهذا العمالُ حتى وإن كانَ بينَنا وبينَ قومِهم حربٌ فإنهم يُعتبرونَ آمنينَ، إذا كانَ بيننا وبينَ قومِهم حربٌ وهؤلاءِ جاؤُوا تجارًا أو عُمالًا مهندسينَ أو غـيرَ ذلكَ، فهؤلاءِ قدْ أعطيناهُم أمانًا، فهمْ آمِنونَ محترَمونَ في دمائِهم وأموالِهمْ.

وبهذا نعرِفُ وفاءَ الإسلامِ، وأن الإسلامَ دينُ الوفاءِ، ودينُ الأمانِ، لكنهُ في مقابلِ ذلكَ دينُ الحزمِ والجهادِ والقتالِ إذا لم يوجدْ سببُ الأمانِ؛ لأن الدينَ الإسلاميَّ ما فيه مداهنةٌ، لكن متى وُجدَ ما يَقتضي الأمانَ وجبَ على المسلمينَ الوفـاءُ بهِ، ولا يحلُّ لأيِّ واحدٍ مِن أفـرادِ الناسِ أن يعتديَ على هـؤلاءِ؛ لأنهم آمنونَ.

إذنْ قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بيَّنَّا أنها أربعةُ أنفسٍ.

قولُه: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فيقتلُـونها. من ذلكَ المسلمُ إذا زَنَى الرجـلُ وهوَ ثيبٌ، أو زنتِ المرأةُ وهيَ ثيبٌ، والثيبُ هوَ الذي جامعَ زوجتَه في نِكاحٍ صحيحٍ، فهذا الثيبُ إذا زنَى فإنهُ يُرجمُ حتى يموتَ، ويُرجَمُ بالحجارةِ حتى يموتَ معَ أنهُ مسلمٌ، لكن رجمُه هنا حقٌّ.

وإذا قَتلَ نفسًا وتمـتْ شروطُ القصاصِ، وهوَ مسلمٌ، فالقاتلُ يُقتلُ، معَ أن نفسَه محـرمةٌ، لكن إلا بالحقِّ، فمَن قتلَ شخصًا عمدًا وتمتِ الشروطُ والقصاصُ فإنهُ يُقتلُ.

وإذا خرجَ عنِ الجماعةِ وفارقَ الجماعةَ، وأرادَ أن يشقَّ العصَا، فإنهُ يُقتلُ؛ لأن النبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ»(١).

لأن الفتنةَ التي تحصلُ بفعلِه فتنةٌ عظيمةٌ، يترتبُ عليها إراقةُ دماءٍ وانتهاكُ أعراضٍ، وإفسادُ أموالٍ.

والأسبابُ المبيحةُ للقتلِ كثيرةٌ، ليسَ هذا موضعَ ذِكرها، لكنِ النبيُّ ﷺ أشارَ إلى هذهِ الثلاثِ في حديثٍ واحدٍ فقالَ في حديثِ ابنِ مسعودٍ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»(٢).

كذلكَ الذميُّ، فالذميُّ أيضًا إذا نقضَ العهدَ أو نقضَ الذمةَ وجبَ قتلُه، فلو أن الذميَّ سبَّ اللهَ ورسولَه، وهوَ ذميٌّ، يُعطِي الجزيةَ، خاضعٌ لأحكامِ الإسلامِ؛ فإنهُ إذا سبَّ اللهَ ورسولَه انتقضَ عهدُه، ووجبَ قتلُه؛ لأنهُ فعلَ ما ينقضُ العهدَ.

وكذلكَ يقالُ في المعاهَدِ إذا نقضَ العهدَ، فإنهُ يباحُ قتلُه، ويباحُ مقاتلتُه، ولهذا لما نقضتْ قريشٌ العهدَ الذي بينَهُم وبينَ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وذلكَ بمعاونةِ حلفائِهم على حلفاءِ الرسولِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ انتقضَ عهدُهم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، رقم (١٨٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المائدة:٤٥]، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦).

فالذي حصلَ بينَ الرسولِ ﷺ وبينَ قريشٍ في الحديبيةِ هوَ وضعُ الحربِ بينهُم لمدةِ عشرِ سنواتٍ، وقريشٌ ما صَبرتْ، فما مَضى بعدَ هذهِ المعاهدةِ سِوى سنتينِ حتى نَقَضُوا العهدَ؛ لأن الصلحَ كانَ في السنةِ السادسةِ، ونقضَ العهدِ كانَ في السنةِ الثامنةِ، فنقضُوا العهدَ بمعونةِ حلفائِهم على حلفاءِ النبيِّ ﷺ، فغزاهُم الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والمستأمِنُ كذلكَ إذا وُجدَ منهُ ما يُخلُّ بالأمانِ انتقضَ أمانُه، وحلَّ دمُهُ ومالُه، ولهذا قيدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فقالَ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾. وعَرضْنَا شيئًا مِن جوانبِ الحقِّ.

مِنْ صفاتِ عبادِ الرحمنِ: أنهمْ لا يَزنونَ:

قولُه: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾، والزنَا فسادُ الأخلاقِ، وفسادُ الأممِ اختلاطُ الأنسابِ حتى لا يُدرى هذا الولدُ ولد الزاني أو ولدَ الزوجِ، فكلُّه فسادٌ، ولهذا قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

ولهذا حرَّمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ كلَّ وسيلةٍ تؤدي إلى الزنَا؛ فحرَّمَ النظرَ لغيرِ الزوجةِ، وحرمَ النظرَ بشهوةٍ حتى لمحارمِكَ، فلوْ أن رجلًا -والعياذُ باللهِ- انسلخَ منَ الحياءِ والخجلِ والإيمانِ وصارَ ينظـرُ إلى أختِه منَ الرضاعِ نظـرَ شهوةٍ، صارَ هذا النظرُ حرامًا، بلْ لو كانَ ينظرُ إلى أقربِ الناسِ إليهِ بشهوةٍ -غير الزوجةِ- فإنهُ يُعتبرُ النظرُ حرامًا.

وسدَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ كلَّ طريقٍ يوصلُ إلى الزنا فأمرَ بغضِّ البصرِ، ونهَى المرأةَ أن تُبديَ زينتَها إلا ما ظهرَ؛ فقالَ تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ

فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ [النور:٣١]... إلى آخرِه.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي منَ الزينةِ، والزينةُ هيَ: ما يتزينُ بهِ الإنسانُ، وهوَ اللباسُ؛ كما قالَ تَعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف:٣٢]، ولم يَرِدْ في القرآنِ ولا في السنةِ ولا في اللغةِ العربيةِ أن الزينةَ بعضُ المتزيِّنِ أبدًا، وإنما الزينةُ شيءٌ مُنفصِلٌ يَتَزَيَّنُ بهِ المتزيِّنُ؛ كاللِّباسِ، أما أن تعودَ الزينةُ على جزءٍ منَ المتزيِّنِ فهذا لا يوجدُ في اللغةِ العربيةِ، ولا في القرآنِ الكريمِ.

فقولُهُ تَعالَى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي ثيابهن، وقولُه: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: إلا مَا لا بدَّ مِن ظهورِهِ، وهوَ العباءةُ والرداءُ والجلبابُ، وما أشبهَ ذلكَ مما تُغطِّي بهِ المرأةُ لباسَها الباطنَ، هكذَا فسرَهُ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ[1]، وهوَ الحقُّ.

ويبعُدُ جدًّا أن يُرادَ بالزينةِ الوجهُ والكفانِ؛ لأن هذا ليسَ بزينةٍ، فهذا جزءٌ منَ الإنسانِ، والجزءُ منَ الإنسانِ ليسَ زينةً لهُ، فالزينةُ كما ذكرتُ هوَ ما يتزينُ بهِ الإنسانُ، ولا بدَّ أن يكونَ منفصلًا عنهُ، يعني ليسَ جزءًا منهُ. وليسَ في اللغةِ العربيةِ ولا في القرآنِ ما يدلُّ على أن الزينةَ بعضُ المتزينِ.

ثم إنهُ قالَ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ولو كانَ الوجهُ لقالَ: إلا ما أظهرنَ منهَا، وإلا فالأصلُ أن الوجهَ مستورٌ معَ بقيةِ البدنِ، ولكنْ قالَ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ أي: لا بدَّ مِن ظهورِه؛ كالعباءةِ والرداءِ والجلبابِ، وما أشبهَ ذلكَ.

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٥٥).

قالَ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١] الخُمُرُ ما تُغطَّى بهِ الرؤُوسُ، والجيبُ هوَ أعلَى النحرِ، فتَضربُ بخمارِها على جيبِها، وإذا كانَ خمارًا وقلنا: اضربي بهِ على الجيبِ لزِمَ مِن ذلكَ أن يمرَّ الخمارِ بالوجهِ، فيكونُ مغطًّى.

ثم قالَ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ ففي الأولِ قالَ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وهنا قالَ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾، فهلِ الزينةُ الثانيةُ هيَ الزينةُ الأولى؟

الجوابُ: لا، الزينةُ الثانيةُ هيَ الزينةُ الباطنةُ التي تتجمَّلُ بها المرأةُ؛ كالقميصِ وشبهِه، فهذا لا تُبدِيه إلا لمن ذكرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فهناكَ فرقٌ بينَ الزينتينِ: الزينةُ الأولى الذي يَظهرُ ولا بدَّ مِن ظهورِه، والثانيةُ الذي لا يَظهرُ ولكنهُ يجوزُ إبداؤُه لبعولتِهن أو آبائِهن إلى آخرِ الآيةِ.

قلتُ هذا استطرادًا لبيانِ أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ حرّمَ الزنا وكلَّ وسيلةٍ تُؤدي إليهِ، ولهذا قالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

واعلمْ أن الزنَا يتضاعفُ بحسبِ جُرمِه وإثمه، فزنَا الشيخِ الكبيرِ أعظمُ منْ زِنا الشابِّ، ولهذا جاءَ في الحديثِ: «ثَلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»، ومنهم: «أُشَيْمِطٌ زَانٍ»[1] يعني: شَيخٌ شمطَهُ الشيبُ فزَنى، ولكنهُ صغَّرَهُ تحقيرًا لهُ، فلمْ يَقلْ: أَشمَط زانٍ، بلْ قال: «أُشَيْمِطٌ زَانٍ».

كذلكَ يعظُمُ الزنَا إذا كانَ بإحدَى المحارمِ، فإذا كانَ بإحدَى المحارمِ كما لوْ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٤٦، رقم ٦١١١).

زَنَى -والعياذُ باللهِ- بأمِّ زوجتِه، أو زنَى ببنتِ زوجتِه التي دَخلَ بها، فهذَا أشدُّ مما لو زَنى بامرأةٍ أجنبيةٍ، ولهذَا قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢]. والزنا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢]، ولم يقلْ: ومقتًا؛ فدلَّ ذلكَ على أن الزنَا بذواتِ المحارمِ أشدُّ وأعظمُ؛ لأن قولَه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ نَهي عن عقدِ النكاحِ عما تزوجَه الأبُ، فإن جامعَ صارَ أشدَّ منَ الزنَا؛ لأن العقدَ الأولَ غيرُ صحيحٍ.

فماذَا على مَن زنَى بامرأةٍ مِن محارمِهِ؟ أيقالُ فيهِ ما يقالُ فيمَن زنَى بامرأةٍ ليستْ مِن محارمِه؟ لأننا نعرفُ أن الرجلَ إذا زنَى بامرأةٍ من غيرِ محارِمِه فإن كانَ ثيبًا رُجم، وإن كانَ غيرَ ثيبٍ جُلد مئةَ جلدةٍ، وغرِّبَ عنِ الوطنِ لمدةِ سنةٍ، لكن إذا زنَى بامرأةٍ من محارمِه، فهلْ حكمُ هذا كحكمِ مَن زنَى بامرأةٍ مِن غيرِ محارمِهِ؟

الجوابُ: اختلفَ في هذا العلماءُ؛ فمنهمْ مَن قالَ: إن الحكمَ واحدٌ، وإن مَن زنَى -والعياذُ باللهِ- بأختِه كمَن زنَى بابنةِ عمِّه؛ إن كانَ محصنًا رُجم، وإن كانَ غيرَ محصنٍ لم يُرجمْ.

ولكنِ القولُ الراجحُ أن مَن زنى بواحدةٍ مِن محارمِه فإنهُ يقتلُ بكلِّ حالٍ، حتى وإن لم يكنْ محصنًا؛ لأن الزنَا بذواتِ المحارمِ أعظمُ منَ الزنَا بغيرِ ذواتِ المحارمِ؛ كما في اللواطِ والعياذُ باللهِ؛ فلو تلوطَ ذكرٌ بذَكرٍ فإنهُ يجبُ قتلُهما جميعًا إذا كانَا بالغَينِ عاقلينِ، سواء كانَا محصنَين أو غيرَ محصنينِ، إلا إذا كانَ المفعولُ بهِ مُكرَهًا فإنهُ لا يُقتلُ.

إذنْ قولُه: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ هذا الوصفُ الثالثُ مِن أوصافِ عبادِ الرحمنِ؛ أنهـم لا يَدعونَ معَ اللهِ إلهًا آخرَ، ولا يقتلونَ النفسَ التـي حرمَ اللهُ إلا بالحـقِّ، ولا يزنونَ.

قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ومنْ يفعلْ ذلكَ المشار إليهِ؛ هذه الثلاثة؛ أن يَدعوَ معَ اللهِ غيرَه، وأن يقتلَ النفسَ التي حرمَ اللهُ إلا بالحقِّ، وأن يزنيَ؛ منْ يفعلُ ذلكَ المذكورَ يلقَ أثامًا.

و(يَلْـقَ) بـدونِ ألـفٍ، والـذي أوجـبَ حـذفَها الجزم عـلى أنهـا جـوابُ الشرطِ.

قولُه: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾. أما قتلُ النفـسِ فظاهرُ القرآنِ أن مَن قتلَ مؤمنًا متعمدًا فجزاؤُه جهنمُ خالدًا فيهَا، وغضبَ اللهُ عليهِ ولعنَه وأعدَّ لهُ عذابًا عظيمًا، لكنهُ على طريقِ أهلِ السنةِ والجماعةِ مِن آياتِ الوعيدِ، وآياتُ الوعيدِ إذا كانَ الإنسانُ فيهِ إيمانٌ فإنهُ لا يُخلدُ في نارِ جهنمَ، بل يُعذبُ فيها ما شاءَ اللهُ إن لـم يعفُ اللهُ عنهُ؛ لقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وكذلكَ يقالُ في الزنَا: إن الخلودَ ليسَ على إطلاقِه، ولكنهُ عرضةٌ لأن يُخلدَ في نارِ جهنمَ؛ لأن الإنسانَ -والعياذُ باللهِ- لا يزنِي حينَ يزنِي وهوَ مؤمنٌ[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب النهبى بغير إذن صاحبه، رقم (٢٤٧٥). ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله، رقم (٥٧).

توبةُ المشركِ:

قولُه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أولًا نبدأُ بالشركِ؛ مَن تابَ منَ الشركِ يتوبُ اللهُ عليهِ مهما عظُمَ شركُه، حتى لو كانَ حينَ شركِه يسبُّ اللهَ، ويسبُّ الرسولَ، ويسبُّ الإسلامَ، ثم اهتدَى وآمَنَ، فإن اللهَ يتوبُ عليهِ.

وانظرْ للذينَ كانُوا يستهزئونَ بالرسولِ والقرآنِ، قالَ اللهُ فيهمْ: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

والذينَ يَعفو اللهُ عنهمْ همُ الذينَ يتوبونَ، فمَن تابَ مِن أيِّ شركٍ، ومِن أي كُفرٍ فإن اللهَ يتوبُ عليهِ، مهما كانَ، والتوبةُ تهدِمُ ما قبلَها، فلو جاءَنا رجلٌ مثلًا وقالَ: إنهُ مضَى عليه سنتانِ أو أكثرُ لا يصومُ ولا يُصلي، ويسرقُ، ويزنِي، وقتلَ نفسًا، وهوَ الآنَ تائبٌ نادمٌ، فإننا نقولُ: توبتُك مقبولةٌ.

إذنِ الشركُ مهما عظُمَ فإن توبتَه مقبولةٌ.

توبةُ القاتلِ:

أما قتلُ النفسِ فإذا تابَ الإنسانُ منهُ، وقدْ قتلَ نفسًا مؤمنةً عمدًا، فإن اللهَ يتوبُ عليهِ، ولكن لاحِظ أن التوبةَ مِنَ القتلِ لا تصحُّ إلا إذا سلمَ القاتلُ نفسَه لأولياءِ المقتولِ، بأن أَتى إليهِمْ وأقرَّ بأنهُ هوَ الذي قتلَ صاحبَهُم، أما أن يكونُوا قدْ أتوه وأخفَى نفسَه، ويبقَى غيرَ مبينٍ نفسَه، فهذا لا تصحُّ توبتُه، فلا بدَّ أن يُسلِّمَ نفسَه لأولياءِ المقتولِ، ويُمكِّنَهم مِن قتلِه إذا شاؤُوا.

على أنهُ لو تابَ القاتلُ وبرئَ من حقِّ أولياءِ المقتولِ فإنهُ يبقى عليهِ حقٌّ آخرُ، وهو حقُّ المقتولِ نفسه، ولهذا جاءَ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن القاتلَ لا توبةَ لهُ[1]، ويريدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهُ لا توبةَ لهُ باعتبارِ حقِّ المقتولِ؛ لأن المقتولَ الآنَ ماتَ لا يُدرَى هلْ سامحَ وتنازلَ أو لا، فلا بدَّ مِن أخذِ حقِّه منَ القاتلِ يومَ القيامةِ ولو تابَ؛ لأنهُ فوَّتَ على المقتولِ أن يَبقى في الدنيَا.

ولكنْ ظاهرُ الآيةِ الكريمةِ أن توبتَه مقبولةٌ، وأن اللهَ تعالى يُرضي المقتولَ يومَ القيامةِ بما يقابلُ إثمَ هذا القاتلِ.

توبةُ الزاني:

أما الزنَا فلوْ كانَ رجلٌ زانٍ -والعياذُ باللهِ- وسَفِهَ في أولِ عمرِهِ، ثم منَّ اللهُ عليهِ بالتوبةِ، فهلْ يسقطُ عنهُ إثمُ ما سبقَ؟

الجوابُ: نعمْ؛ لأن اللهَ قالَ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾، فيسقطُ عنهُ كلُّ إثمٍ حصلَ لهُ بالزنَا، لكن بشرطِ أن تكونَ توبتُه نصوحًا خالصةً للهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا أكدَ اللهُ هذا الأمرَ بقولِه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

فإذا قدرنَا أن الكافرَ اعتدَى على حقوقِ المسلمينَ في حالِ الكفرِ، مثلما يجري بينَ الكفارِ والمسلمينَ منَ القتالِ، فهلْ يضمنُ الكافرُ حقَّ المسلمِ، أو لا؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾، رقم (٤٧٦٤)، ومسلم: كتاب التفسير، رقم (٣٠٢٣).

الجوابُ: لا يضمنُ، ولهذا لم يُضَمِّنِ النبيُّ ﷺ الذينَ أسلمُوا ما قتلوهُ في بدرٍ وغيرِها منَ الغزواتِ. ولما أدركَ أسامةُ بنُ زيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رجلًا منَ المشركينَ؛ لأن المشركَ هربَ مِن أسامةَ فلَحقَهُ أسامةُ، فلما أدركَه قالَ المشركُ: لا إلهَ إلا اللهُ، فقتلَه أسامةُ؛ لأن أسامةَ تأولَ أن هذا المشركَ إنما قالَ: لا إلهَ إلا اللهُ تعوذًا منَ القتلِ، وليستْ مِن قلبِه، فلما بلغَ ذلكَ النبيَّ ﷺ وجاءَهُ الخبرُ قالَ لأسامةَ: «**يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». قال أسامة: «كَانَ مُتَعَوِّذًا» يعني خوفًا منَ القتلِ، فما زالَ الرسولُ ﷺ يكررُ عليهِ وهوَ يقولُ: إنما قالَها تعوذًا، وقالَ: «**كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟**». قال أسامة: «فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا، حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ»[1].

لأنهُ لو قتلَ هذا الكافرَ وهوَ كافرٌ فإنهُ لا يُعاقبُ عليهِ؛ لقولِه تَعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

فهذهِ نُبذٌ يسيرةٌ مما منَّ اللهُ بهِ علينَا أن نتكلمَ بهِ على هذهِ الآيةِ، وإلا فالآيةُ تحتاجُ إلى كلامٍ أكثرَ، لكن أشرْنَا إلى نُبذٍ لعلهَا يُستغنى بها عما وراءَهَا، أو لعلَّها تكونُ فتحَ بابٍ لطالبِ العلمِ حتى يستنبطَ منَ القرآنِ ما هوَ أهلٌ لهُ.

ولذلكَ ينبغِي لطالبِ العلمِ أن يعتنيَ باستنباطِ الفوائدِ منَ الأدلةِ الشرعيةِ، سواءٌ منَ القرآنِ أو منَ السنةِ، فيفكرُ مثلًا ماذا تدلُّ عليهِ الآيةُ حتى يستنبطَ، ولهذا لما قالَ أبو جُحيفةَ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ: «هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللهِ؟» لأنهُ كانَ في ذلكِ الوقتِ قدْ أُشيع أن الرسولَ ﷺ أوصَى إلى عليِّ بنِ أبي طالبٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، رقم (٤٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، رقم (٩٦).

أن يكونَ الخليفةَ مِن بعدِه، فقال عليٌّ: «لا وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي القُرْآنِ» وهذا هو الشاهد «وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ» والصحيفة فيها: العَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَلَّا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ[1].

فالمهمُّ الفهمُ -يا إخواني- فيما يدلُّ عليهِ الكتابُ والسنةُ منَ الفوائدِ والسنةِ والأحكامِ، ثم تطبيقها على الواقعِ.

نسألُ اللهَ أن يرزقَني وإياكُم الفهمَ في كتابِه، والعملَ بهِ، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ. والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبينَا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).



سورة الشعراء

الدرس الأول:

إنَّ الحَـمْدَ للهِ؛ نَحْمَدهُ ونَسْتَعِينهُ ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذ باللهِ من شرور أنفسـنا وسَيِّئات أعـمالنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْـلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْـهَد أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودِينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه؛ فصلواتُ الله وسلامُه عليه، وعلى آلِهِ، وأصحابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

ففي قِصَّة مُوسَى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع فِرْعَوْن كان بينهما محاورةٌ ومجادَلَة، ولجأَ فِرْعَوْنُ في النهاية إلى التهديد؛ فإنَّه لما عجزَ عن المجادلةِ بالحقِّ قَالَ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]؛ أي لَأَسْجِنَنَّكَ ضِمنَ المسجونينَ، وهَذَا هو سبيل المُفلِس الَّذي ليسَ عنده حُجَّة، أنَّه يُهدِّد ويَتَوَعَّد، لكن ليست الحُجَّة هي ما يهواه الإِنْسَان، أو ما تُمليه العاطفةُ، لكنَّها ما كان من شريعة الله عَزَّوَجَلَّ، سواء كان في شريعة مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، أو في شريعة مَن قبله، وليس كلُّ ما يَعتقده الإِنْسَان حُجَّةً يكون حجةً.

وفي آخِر القصَّة نجد أن فِـرْعَوْن أرسل في المدائنِ حاشرينَ، وأمرَ أن يُؤتَى بكلِّ ساحرٍ عليم؛ مُجِيدٍ للسِّحر؛ من أجل مقابلةِ مُوسَى بما جاء به من الآياتِ، قال

تَعَالَى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٣٦-٤٠].

وإنما حَشَرَ فِرْعَوْنُ السَّحَرَةَ؛ لأن آيات مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من جنس السحرِ، لكنَّها ليست سحرًا؛ بل آية من آيات اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإنَّ من آيات مُوسَى أن يُلقِيَ عصاهُ الَّتي يَتَوَكَّأ عليها، ويَهُشُّ بها على غنمه، يلقيها على الأرض، فتكون ثعبانًا عظيمًا، ثمَّ يحملها فتعود عصًا، وهَذَا في نظر النَّاس يُظَنُّ أنَّه سحرٌ، ويُدخِل يده في جَيبه على طَبيعتها، ثمَّ يُخرِجها بيضاءَ من غير عَيب، ومن غير سُوء؛ يعني ليسَ بياض بَرَصٍ، ولكنَّها بيضاء تَتَلَأْلَأُ، وهَذَا أيضًا يظنُّ الرائي أنَّه سحرٌ.

وكان للسحرِ في عهد فِرْعَوْن شأنٌ عظيم، حتَّى وصل إلى القمَّة، فجمع السحرةَ، وانتهى الأمرُ إلى أن ألقى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عصاه ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء:٤٥]؛ تبتلعه مع كثرتِه؛ لأن الأرض امتلأتْ من حِبالهم وعِصِيِّهم، وصار الرائي يظنها حيَّاتٍ تَسعى، وهذهِ الحية الَّتي ألقاها مُوسَى صارتْ تلتهم كلَّ ما صنعوا.

فمن آيات الله أنها تلتهم هذهِ الحبالَ والعصيَّ، ومن آيات الله أنها تهضمها بسرعةٍ، وكأنه بخارٌ يزول سريعًا، وإلا فأيُّ بطنٍ تسعُ هذهِ الحبالَ والعِصِيَّ الَّتي ملأتْ هذهِ الأرض؟! ولكنَّها آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ.

لَمَّا رأى السحرةُ ذلك -وهم علماءُ بالسحرِ- عَرَفوا أن هَذَا أمرٌ لا قِبَلَ لهم به، وأنه خارجٌ عن طاقة البشرِ، وأنه ليسَ من السحرِ في شيء، فآمنوا، ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٤٦]؛ وفي قوله: (ألقي) دليل على أنهم سجدوا مَبهوتينَ[1]، كأنما أُلقوا إلقاءً على الأرضِ؛ لأنَّهم رأوا من الآياتِ ما بَهَرَهم، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٧-٤٨]، فتوعَّدهم فِرْعَوْن، وهدَّدهم، ولكنَّهم لِقوَّة إيمانهم وثَباتهم قالوا له: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:٧٢-٧٣].

ثمَّ إن فِرْعَوْن جمعَ النَّاس لِيقضيَ على مُوسَى وقومه، فأمر الله مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يَسريَ بقومه ليلًا، ويَخرج من مِصْرَ، وأمره أن يتوجَّه إلى ناحيةِ الشرقِ من مِصرَ، أي إلى ناحية آسيا، يتجه إلى البيتِ المُقَدَّس (المسجد الأقصى)، ففعل وخرجَ بأمر اللهِ.

فأمرَ فِرْعَوْنُ جميعَ جنودِهِ أن يتَّبعوا مُوسَى وقومَه، ووَصَل مُوسَى وقومه إلى البحرِ، وخلفهم فِرْعَوْن وقومه، فقال أصحاب مُوسَى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، ويكون إدراكهم بأنهم إذا تقدَّموا وقعوا في البحر، وإذا بَقُوا أو رجعوا تلقَّاهم فِرْعَوْنُ وقومه، فأيقنوا بالهلاكِ، ولكنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لقوَّة إيمانه باللهِ، وقوةِ توكُّله عليه ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ يعني لسنا بِمُدْرَكِينَ ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]؛ لأن الله تعَالَى وَعَدَه حين أرسله أوَّل ما أرسله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

---

(١) بَهَتَه: أَخَذَه فجأة.

فأمره الله أن يَضرِبَ البحرَ بعصاهُ، فضربه، فانفلقَ البحر في الحال اثني عشرَ طَرِيقًا بإذنِ اللهِ، وصارتِ المياهُ بينَ هذهِ الطرقِ كالجبالِ ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء:٦٣]؛ تفرَّق البحر اثني عشر طريقًا؛ لأن بني إسرائيلَ كانوا اثني عشرَ أَسباطًا؛ أي: قبائلَ، كل قبيلةٍ كانت تمرُّ من طريق.

ولم يحدُثْ لهم حين مُرُورهم بالبحرِ غَوصٌ في الطينِ ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه:٧٧]؛ وهذهِ آيَةٌ ثانيةٌ، أنَّه في هذهِ اللحظة يبِس البحرُ؛ وكأنه أرضٌ صحراء لم يَنزِلْ عليـها ماءٌ إطلاقًا، وهَذَا -واللهِ- من آياتِ اللهِ الدالَّة علي كـمالِ قُدرته، وكمال نصرهِ لأوليائهِ إذا ضاقتْ بهم الحِيَل.

عَبَرَ مُوسَى وقومه آمِنِين، ودخل فِرْعَوْن وقومه على أنهم ظافـرون بمُوسَى وقومه، فأمر الله تَعَالَى البحرَ فانطبقَ عليهم؛ فغرِقوا عن آخرهِمْ.

ولـمَّا أدرك فِرْعَوْنَ الغرقُ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، ولم يقل: لا إله إلَّا الَّذي دعـا إلى توحيده مُوسَى، ولم يقل: آمنتُ أنَّه لا إلَّا الله، قَالَ: لا إله إلَّا الَّذي آمنت به بنو إسرائيلَ، فأذلَّ نفسَه حتَّى جعلها تابعةً لبني إسرائيلَ؛ الَّذين كان بالأمسِ يذبح أبناءَهم، ويَستحيي نِساءهم، فأذاقه الله الذلَّ قبل أن يفارق الحياة، وهَذَا من بلاغة القُرآن.

وهَذَا دليل على أن مَنِ استكبر عن آياتِ الله فإن مآله أن يَذِلَّ ويخْزَى؛ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، فقيل له: ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾ يعني الآن تؤمن وتتوب ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١] يعني ولا توبة لك؛ لأنَّه إنما تاب حين رأى الموت.

ومن تاب حين رأى الموت فإنَّه لا تُقبَل منه التوبةُ؛ قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء:١٨] فهَذَا ليس له توبة؛ لأنَّه عايَنَ الحقَّ، والإيمان عن معاينةٍ لا ينفع، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥]؛ ومن ثَمَّ يَتبَيَّن أنَّه يجب علينا أن نبادرَ بالتوبةِ، وأن نبادرَ بالخلاصِ من الآثامِ الَّتي بيننا وبين ربِّنا، ومن الآثام الَّتي بيننا وبين عباد الله، قبل أن يَفْجَأَنَا الموتُ.

فلا أحد يضمَن لنفسه أن يبقى إلى صباحِ هذهِ اللَّيلةِ، وكم من إنسانٍ خرج من بيته ولم يرجعْ إليه! وكم من إنسانٍ لبِسَ ثوبَه، وزَرَّ أزراره، ولم يفكَّ أزراره إلَّا غاسلُه على سَرير غُسلِه! وكم من إنسانٍ بيده القلمُ يكتب على مكتبه وإذا هو ميِّت!

وإذا كان كذلك فإن الواجب أن نُبادر بالتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأن نفكر -أسأل الله أن يعيننا على ذلك- هل نحن قمنا بواجب ربِّنا؟ هل انتهينا عمَّا حرَّم؟ هل علينا حقوق للناسِ؟ مَظالم، أكل أموال، ادِّعاء ما ليسَ لنا، كَذِبٌ ودَجَل، غِشٌّ وخِيانة... ما أكثرَ هَذَا بين النَّاس اليوم!

لقد تكالبَ النَّاس على الدُّنْيَا حتَّى صارت الدُّنْيَا أكبرَ همِّهم، ومَبلَغ عِلمهم، وصاروا لا يهتمُّون بنقصِ الدينِ إذا زادتِ الدُّنْيَا -نسأل الله العافيةَ- مع أن الدُّنْيَا إما مُفارِقةٌ لهم، وإما أنهم هم مفارقون لها.

نَرجع إلى القصَّة، ففِرْعَوْن آمنَ حين أدركه الغرقُ، وعاينَ الموتَ، فقيل له تَوبيخًا: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾

يعني لا تغرق ببدنك، كما غرق آل فِرْعَوْن وأكلتهم الحيتانُ، بل ننجِّيك ببدنك، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩١-٩٢]؛ لأن بني إسرائيلَ قد أرعبهم فِرْعَوْن، ووصل خَوفه ورُعبه إلى شِغاف قلوبهم، فلن يَطْمَئِنُّوا حتَّى يشاهدوا عدوَّهم طافيًا على الماءِ، فإذا شاهدوه أَيقَنوا أنَّه ميِّت؛ لأنَّه لو غاب معَ مَن غاب من آلِ فِرْعَوْن لصارَ في قلوبِ بني إسرائيلَ شَكٌّ، هل مات أو لم يَمُت؟ فإذا طفا على سطح الماء، وشاهده بنو إسرائيلَ حينئذٍ أَيقنوا.

فإنْ قِيلَ: وهل هناك فرق بين كونِ المرءِ يشاهد الشَّيْء بعينه أو يخبره عنه مُخبِر صِدق؟

قلنا: نعم، بينهما فرق، والدَّليلُ قوله تَعَالَى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، هَذَا الكلام ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ قاله الله عَزَّوَجَلَّ لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنَّه طلب من الله أن يُرِيَهُ كيف يُحيي الموتَى؛ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، وليس الخبر كالمعاينةِ، وكم من إنسانٍ صَدوقٍ عندك ثِقة مئة بالمئة يخبرك بالخبر وتصدِّقه، ولكنَّه لا يطمئنُّ قلبُك تمامًا إلَّا إذا شاهدته عينَ اليقين؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢].

وبهَذَا يَتبيَّن أن الفَرَجَ مع الكَرْبِ؛ فلـمَّا اشتدَّ الكربُ على بني إسرائيلَ فرَّج الله عنهم؛ بِنجاتهم وهلاك عدوِّهم.

وقد قال نبيُّنا مُحَمَّدٌ رسول الله ﷺ كلمةً جامعة ينبغي أن تكون بين جَنبينا، وأن تكون على أفهامنا دائمًا: «وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ

مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»[1]. آمِن بهَذَا، وصَدِّق به؛ حتَّى يَتبَيَّنَ لك، فكلَّما اشتدَّت عليك الكُروبُ فاعلمْ أن الفرج قريبٌ، لكنِ اصبِرْ، وكلَّما تعسَّرت عليك الأمور فاعلمْ أن اليُسرَ قَريب؛ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦]، قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في هذهِ الآية، فيما يذكر عنه: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»[2].

وهناك شواهدُ كثيرة تدلُّ على أن الله تَعَالَى فارجُ الكُرُبات، وأنه كلَّما اشتدَّ الكَربُ واعتمد الإِنْسَان على ربِّه اعتمادًا كاملًا، فإن الله تَعَالَى يفرِّج عنه، وهَذَا ما حصلَ في صُلح الحُدَيْبِيَة؛ من الشروط الَّتي ظاهرها أنها قاسيةٌ شديدةٌ، وأنها على المُسْلِمين وليست لهم.

وقصة صُلح الحُدَيْبِيَة أن النَّبِيّ ﷺ خرج من المدينة إلى مَكَّة معتمرًا؛ في السنةِ السادسةِ من الهجرةِ؛ لا يُريد قِتالًا، ومعه من أصحابِه ألفٌ وأربعُ مِئَة رجل، ومعهم إبلٌ كثيرة؛ هَدي يُهدونه إلى البيتِ.

ولـمَّا وصلَ إلى الحُدَيْبِيَة، والحُدَيْبِيَة مكانٌ معروف؛ بعضه من الحِلِّ وبعضه من الحَرَم، يعني نزل على حدود الحرم، منعه المشركون؛ قالوا: لا يمكِن أن تدخلَ مَكَّة، لو دخلت مَكَّة لتحدَّث العربُ بأننا أُخذنا ضَغطةً؛ يعني غَصبًا علينا. وهَذَا منَ الجَبَروت والعياذُ بالله. وحَمِيَّةُ الجاهليَّةِ هي الَّتي أدَّت بهم إلى هَذَا القولِ، مع أنَّه لو يأتي رجلٌ مُشرِك من أقصى الجزيرة لَفَتَحوا له الطريقَ! لكنَّ مُحَمَّدًا رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧).

(٢) التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ٥١٧).

وأصحابه، وهم أَولى النَّاس بالبيتِ مَنعوهم! قالوا: لِئَلَّا يَتَحَدَّثَ العربُ أَنَّا أُخِذْنَا ضَغطةً؛ أي: غصبًا.

فحصلت بينهم مراسلاتٌ، واتفقَ الجميعُ على شروطٍ ظاهرها أنها ليستْ في مصلحةِ المُسْلِمين:

الشَّرط الأوَّل: أن تُوضَع الحرب بينهم لمدة عشرِ سنواتٍ، لا يحاربهم الرَّسُول، ولا يحاربون الرَّسُول، مع أنهم مُشرِكون، ومع ذلك رأى النَّبِيّ ﷺ مِنَ المصلحةِ أن يصالحهم هذهِ المدَّةَ، فصالَحهم على أن توضع الحربُ لمدَّةِ عشرِ سنواتٍ، هَذَا شرطٌ.

الشَّرط الثَّاني: أن النَّبِيّ ﷺ لا يدخُل مَكَّةَ؛ ويرجِع إلى المدينةِ من حيثُ جاء. وهَذَا أيضًا ثَقيلٌ؛ ووجهُ ذلك أن الرَّسُول مُحرِم يقول: لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، ثمَّ يُرَدُّ، فهو أمر شاقٌّ على النفوسِ، ولكن الرَّسُول وافَق.

الشَّرط الثَّالث: أن الرَّسُول ﷺ يَقضي العُمْرَة في العام القادمِ، لكن بدون حملِ السلاحِ، إلَّا بالسيوفِ في جِرابها.

الشَّرط الرَّابع: أن مَن جاء منهم مُسلِمًا إلى المُسْلِمين يُرَدُّ، ومَنْ ذهبَ مِن المُسْلِمين إليهم لا يُرَد -سبحانَ الله- وهَذَا الشَّرط فيه جَور ظاهر، والعدلُ أنَّه إذا جاء مسلمٌ إلى المدينةِ فإنه يَبقَى في المدينة، كما أنَّه إذا ذهبَ منَ المُسْلِمين إلى المشركينَ رجل يَبقى عندهم، هَذَا هو ظاهرُ العدل. وهَذَا الشَّرط من أثقل ما يكون على المُسْلِمين.

الشَّرط الخامس: لمَّا أملى النَّبِيُّ ﷺ الصُّلح، وقال: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» قال مندوب قريش: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ.

وهناك أناسٌ الآن لا يكتبون (بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم) بل يكتبون: (باسمه تَعَالَى)، والضمير في (باسمه تَعَالَى) لا ندري على من يعود، فهو ضمير لا يُعْرَف مَرجعه، والكتابة الصَّحيحة: (بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم)،

إذن قال الرَّسُول: «**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**»[1] تنازُلًا منَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن بحقٍّ.

الشَّرط السادس: لما قال النَّبِيّ ﷺ: «**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**» قَالَ مندوب قريشٍ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ. وقد وافق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ: «**وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي**» احتفظ لنفسه بهَذَا «**اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**»[2]؛ لأَنَّه رسول الله مُحَمَّد بن عبد الله لا شكَّ.

ولهَذَا ينبغي أن ننبه إخواننا الَّذين يقولون دائمًا: هَذَا قول مُحَمَّد بن عبد الله، أو قال مُحَمَّدُ بن عبد الله، بدلًا من أن يقولوا: قال رسول الله، نقول: يا أخي، وصْفُه بـ(رسول الله) أفضلُ ألفَ مرَّةٍ من وصفِه بأنه مُحَمَّد بن عبد الله. فمُحَمَّد بن عبد الله عَلَمٌ على ذاتِه ﷺ، وعلى ذات أبيهِ، لكن مُحَمَّد رسول الله إثبات رسالةٍ. وهذهِ نجدها في الكُتَّاب المتأخِّرين كثيرًا، فبدلًا من أن يقول: قال رسول الله، يقول: قال مُحَمَّد بن عبد الله، وبدلًا من أن يقول: الصَّلاةُ والسلامُ على رسول اللهِ، يقول: الصَّلاة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

والسلام على مُحَمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ.. يا أخي، الرسالةُ أفضلُ وصفٍ؛ فأفضل وصفٍ للرسولِ أَنَّه عبد الله ورسولُه.

وانتهى الصلحُ، أو انتهت الوثيقةُ، وفيها مَشَقَّة على المُسْلِمين، ونفَّذ النَّبِيّ ﷺ الصُّلح، وأمر أصحابه أن يحلوا، وقال: «قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا» لكنَّه كبُر على الصحابةِ ذلك الأمر، وتأنَّوا وتأخَّروا لم ينفذوا سَريعًا؛ رجاء أن يبدوَ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ رأيٌ آخرُ؛ لأن الزمن زَمَن تَشريعٍ، ويمحو الله ما يشاء ويُثْبِت، ولكنَّ الرَّسُولَ صمَّم، فلمَّا رآهم تثاقلوا دخل على زوجِه أمِّ سَلَمَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وكانت امرأةً ذكيةً عاقلةً، فاستنكرتْ منه ما رأتْه على وجهِه، وأخبرها بما جَرى، وأنه أمر الصحابة، ولم يَمتثِلوا، فقالت: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. سبحان الله! هَذَا تطبيق بالفعلِ، ففعل الرَّسُول ﷺ، ولمّا فعل الرَّسُول هَذَا علِموا أَنَّه لا نسخَ في الأمرِ، وأنه لا بُدَّ من تبديلِ هَذَا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، رضي الله عنهم وأرضاهمْ[1].

لم نأتِ إلى المقصودِ من ذِكر هذهِ القصَّة؛ جاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ يحاوره في هذهِ الشروط، يقول: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَنْ؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: لا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ»[1]؛ لأن كلام الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، غير مقيَّد.

الشاهد هنا قوله: «وَهُوَ نَاصِرِي»، فأيقن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هَذَا المقام الضنك؛ الَّذي لم يتحمَّلْه مثل عمرَ بنِ الخَطَّاب أن الله سينصره، مع أن ظاهرَ وثيقةِ الصُّلح أنها على المُسْلِمينَ، لكن قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي». وهَذَا هو الَّذي حصل ولله الحمد.

وعمرُ بنُ الخَطَّاب معروفٌ بشِدَّتِه في دينِ اللهِ، فذهب إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يعلم أن أبا بكر هو أخصُّ النَّاس برسولِ اللهِ ﷺ، وصرَّح له كما صرَّح للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وجعل يناقشه كما ناقشَ النَّبِيَّ ﷺ، فكان جواب أبي بكر كجواب النَّبِيّ ﷺ حرفًا بحرفٍ، وهَذَا مِمَّا يدلُّ على ثبات أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنه أشدُّ النَّاس ثباتًا عند المضايقِ.

يقول عمر: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذنْ؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ[١].

وحدثَ -والحمدُ للهِ- النصرُ بعد سنةٍ واحدةٍ فقطْ، فنقضتْ قريشٌ الصلحَ مع رسولِ اللهِ ﷺ؛ حيث أعانت حلفاءها على حلفاءِ النَّبيّ ﷺ، فجعل النَّبيّ ﷺ ذلك نقضًا للعهدِ، وغزاهم في السنةِ الثامنةِ في رمضان، وفتح الله عليه مَكَّة وطهَّرها -ولله الحمد- منَ الشِّرك والأوثانِ، ووقف على بابِ الكعبةِ -كما قاله المؤرِّخون[٢]- وكُبراء قريشٍ تحتَه، يقول لهم: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟». قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ».

وقَالَ: «فَإِنِّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾»[٣].

انظر! مَنَّ عليهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد أن كان قبل ثماني سنواتٍ خارجًا خائفًا منهم، فصارتِ العاقبةُ للمتَّقين، والنصر مع الصبرِ، والفرج مع الكَربِ، وهَذَا أمرٌ لا يَشُكُّ فيه الإِنْسَان، لكن الشَّيْطَان يأتي بني آدمَ، ويُوسوس لهم، ويُزيِّن لهم أن يَعتمدوا على الأسبابِ دون المسبِّب، حتَّى إن الواحد منَّا إذا أُصيب بالزُّكام المعتاد فإنه يفرُّ إلى جهةِ المستشفى: أين المستشفى؟ أين الطبيب؟ ويَغفُل كثيرًا منَّا عن الربِّ عَزَّوَجَلَّ؛ الَّذي قدَّر المرضَ بعد الصحَّة، وهو القادِر على أن يقدِّر الصحةَ بعد المرضِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

(٣) السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ١٥٤، رقم ١١٢٣٤).

لكننا لا نَنفـي بذلك الأسبابَ، فالأسباب ثابتة وحقٌّ، وقد أمرَ النَّبِـيّ ﷺ بالتداوي فقال: «**تَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»[1].

لكن كوننا نَعتمِد على غير اللهِ من الأسباب الَّتي جعلها الله تَعَالَى أسبابًا، هَذَا هو الخطأ. فالواجبُ أن نعتمدَ على مُسَبِّبِ الأسبابِ، وأن نعتقدَ أن السببَ مِن خلقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهو الَّذي قَدَّره، وقدَّر لنا الشفاءَ بِهَذَا السببِ.

فيا أخي؛ إذا ضاقتْ بك الحِـيَل فانتظِرِ الفَرَجَ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تَركَـنْ إلَّا إلى اللهِ، ولا تستعِنْ إلَّا بالله، ولا تسأَلْ إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّه فارجُ الكُرُبات، ومُجيب الدعواتِ.

نسأل الله تَعَالَى أن يُفرِّج كُروبنا وكروبكم، وأن يَكشِـفَ غمَّنَا وغمَّكم، وأن يَجعلنا من عبادِ اللهِ المؤمنينَ المتوكِّلين عليه، إنه جَوَاد كريمٌ، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا مُحَمَّد، والحمدُ للهِ الَّذي بحمدِه تتمُّ الصالحاتُ.



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب في الأدوية المكروهة، رقم (٣٨٧٤).

الدرس الثاني:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فقد قال تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].

الضَّميرُ في (إِنَّهُ) يَعودُ عَلَى القُرْآنِ.

قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أضافَ التَّنْزِيلَ إِلَى الرَّبِّ، وإِلَى عُمُومِ الرُّبُوبيَّة: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فَالَّذِي أَنْزل هَذَا القُرْآنَ هُوَ رَبُّ العالمينَ، الَّذِي خَلَقهم، ولَهُ مُلْكهم، وله تَدْبِيرهم، فَعَلَيْهم أنْ يَأْخُذُوا بِهَذَا القُرْآنِ.

وَلِهَذَا كَانَ القُرْآنُ للنَّاسِ عامَّةً ولَيْس للمُسْلِمِينَ فقطْ، فكلُّ منْ بَلَغَهُ القُرْآنُ لزمهُ أنْ يَتبعهُ. وَلِهَذَا أقسمَ النَّبيُّ ﷺ، وهوَ الصادقُ المصدوقُ بِدُون قَسَمٍ، فقالَ: «**لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ وَلَا يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، وَلَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»[1]، وأَصْحابُ النارِ همْ أَهلها المُخَلَّدُونَ فِيهَا.

وعلَى هَذَا، فكلُّ يَهوديٍّ أَو نَصرانيٍّ سَمع بِرِسالةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ ثُمَّ ماتَ عَلَى هَذَا ولم يُؤْمِنُ به، فَإِنَّه منْ أَصْحابِ النَّارِ، ولَا يَجُوزُ لَنَا أَن

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٣).

نَدْعُوَ له بِالمغفرةِ، أوْ بِالرحمةِ، أَوْ نُبْدِيَ الحزنَ أَوِ الأسفَ عَلَيْهِ، وقد قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣].

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهوَ إِمامُ الحُنَفاءِ، استغفَرَ لِأَبيهِ وهوَ مُشركٌ؟

قُلْنَا: إِنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- أَجَابَ عنْ هَـذَا الإشكالِ بِقَولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

فَلَا يَجُوزُ أَنْ نَقولَ: اللَّهُمَّ اغفرْ لِفُلان، وقَد مَات عَلَى الكفرِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ الاعتداءِ فِي الدُّعَاءِ، فاللهُ لا يَغْفِرُ لِلمُشركينَ، ولَا يَنْبغي أَنْ تَسألَ اللهَ مَا لا يُمكن أَنْ يَفعلَهُ، أَو مَا اقتَضَت حِكْمته أَلا يَفْعلَهُ.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الرُّوحُ الأَمِينُ هُوَ جبريلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، نَزَلَ بِهِ مِنَ اللهِ عَلَى قلبِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولم يقل: عَلَى أُذُنِكَ، أَوْ عَلَى سَمْعِكَ؛ لأنَّ محَلَّ الوعيِ والحفظِ هُوَ القَلْبُ، فكأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إذا أُوحيَ إِليه القُرْآنُ، لم يُفْلِت مِنه حرفٌ واحدٌ، ولَا حَركةٌ، ولَا كَلِمَةٌ، ولَا آية، فتنزل فِي القلبِ.

قَوْلُهُ: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أَيْ: مِنَ الرسلِ؛ لِأَنَّ الرسلَ -عليْهِم الصَّلَاةُ والسلامُ- مُبَشِّرُونَ ومُنْذِرُونَ، كَما قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي سُورةِ النِّسَاءِ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥]، وهنَا لم تذكرِ البشارةُ، قَالَ تَعالَى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ

﴿ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الكلامِ يَقْتضي الإنذارَ، ولِأَنَّ السُّورةَ فِي بيانِ تكذيبِ المجرمينَ لِلرسلِ، والمُكَذِّب الأنسبُ فِي مخاطبتِهِ، الإنذارُ؛ وَلِهَذَا قَالَ هنَا: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أَيْ: منَ الرُّسُلِ المُنْذِرينَ الَّذِينَ يُنذرونَ قَومهمْ مُخالفتهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥].

وهَذَا فَخْرٌ للإِنْسَانِ العربيِّ، وفَخْرٌ للغَتنا العربيةِ، فعلَيْنا التَّمَسُّك بها.

ومِنَ العجيبِ أَنَّنا نَجدُ أُنَاسًا عربًا مُسْلِمِينَ من جَهْلهم يَتكلمونَ وَيَتخاطبون باللُّغة غيرِ العربيةِ، حَتَّى كَانوا يُعَوِّدُون صِبْيانهم بدلًا منْ أَن يَقُولُوا: السلامُ عليكمْ، أن يَقُولوا: بَاي بَاي.

إنَّ اللغةَ العربيةَ هِيَ لغةُ القُرْآنِ، ولغةُ النَّبِـيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ والصَّحَابَةِ، ولغةُ مَن نَفْتَخِرَ بالانتسابِ إِلَيْهم منَ العربِ، فكَيْف تأتِي بلغةٍ أعجميَّةٍ تُعَلِّمُها الصبيانَ!

ولهَذَا كَانَ عُمَرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَضْرِبُ عَلَى رطَانةِ الأعاجمِ[١]، فإذَا سمِعَ إِنْسَانًا عربيًّا يتكلمُ بلغةِ العجمِ، ضَرَبهُ كأَنَّه يَقُولُ: لِمَاذَا تُضَيُّعُ لغتك وهيَ لُغَةُ القُرْآنِ، والسُّنَّة، وعلماءِ المُسْلِمِينَ.

البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إمامُ أهلِ الحديثِ، غيرُ عربيٍّ، لكنهُ يتكلمُ العربيَّةَ، ويعرفُ معانيَ الكلماتِ العربيةِ، ويَفْخر بِذَلك رَحِمَهُ اللَّهُ، وكَذَلك كُلُّ إِنْسَانٍ عاقلٍ يَفْخَرُ بأنْ يَستعملَ لغةَ القُرْآنِ والسنةِ.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١/ ٤١١).

قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: بلغةٍ؛ لِأَنَّ اللسانَ يُرادُ به اللغةُ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ أي بلغتهم، ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم:٤].

قوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ أَيْ: بَيِّن، أَو مُظْهِر، أَو كِلَاهما.

فَائِدَةٌ:

إِذَا رأَيْت النصَّ منَ القُرْآنِ أو السُّنَّةِ يَحْتملُ معنيَيْن لَا مُرَجِّح لِأَحدهما عَلَى الآخرِ، ولَا مُنافاة بَيْنهما، فَالنَّصُ يَدُلُّ علَيْهما جميعًا، فإنْ كَانَ أحدُهما أرجحَ أُخِذَ به، وإن تساوَيَا لكن هناكَ مُرجِّحٌ خَارِجيٌّ، أُخذ بِما دَلَّ علَيْه المُرَجِّحُ الخارجيُّ.

و(مُبين) تَصلح لَازمةً ومُتَعديةً؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ أَبَانَ اسمُ الفاعلِ منها مُبِينٌ، كأكرمَ اسمُ الفاعلِ مِنها مُكْرِمٌ، وكَلِمَة أبان يَصح أنْ تَكونَ لازمةً، ويصحُّ أَنْ تَكونَ متعديةً، تَقول: أبانَ الصبحُ، هَذِهِ لازمة، بمعنَى: بَانَ الصُّبحُ، وتَقول: أَبَانَ الضوءُ حروفَ الكتابِ، فتَكون مُتعدية.

إِذَنْ (مُبين) يَصح أَنْ تكونَ بِمعنى: بَيِّن، ويَصِحُ أَنْ تَكونَ بمعنى: مُبَيِّن لِغيره، ولَو أَردنا أَنْ نَقولَ: هي شاملة لِلْمعنيين، صَحَّ لا شَكَّ.

إِذَنْ القُرْآنُ الكريمُ بَيِّنٌ مُبَيِّنٌ لِغَيرِهِ؛ وَلِهَذَا سَمَّاه اللهُ تَعَالَى فُرْقَانًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦].

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أَيِ: القُرْآنَ، وزبر الأولينَ: كُتُبُهم، والمرادُ أَنَّ القُرْآنَ مَذكورٌ فِي الكتبِ السابقةِ، وهَذَا لِتعلية شَأنه، وأَنَّه كتابٌ عظيمٌ نَوَّهت عنهُ الكُتُبُ السابقةُ،

وحُقَّ له ذَلك، فَالقُرْآنُ أشرفُ كتابٍ أنزلهُ اللهُ عَلَى أهلِ الأرضِ، عَلَى أشرفِ نبيٍّ أرسلهُ اللهُ إِلى أهلِ الأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧].

قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ أَيْ: لِلمُكَذِّبِينَ، ﴿ءَايَةً﴾ أَيْ: عَلامةً عَلَى أَنَّه حَقٌّ، ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وعُلَماء بَنِي إِسرائيل همُ الأَحْبَارُ الَّذِينَ دَرَسُوا الكُتُبَ، يَعلمونَ أنَّ القُرْآنَ حقٌّ، ويَعرفونَ النَّبِيَّ ﷺ كَما يَعْرِفُون أبناءَهُمْ، كَما قَالَ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، لَكنهم يَكْتُمُون الحقَّ؛ حسدًا لِلْعرب أنْ تكونَ هَذِهِ الرسالةُ العظيمةُ فِيهمْ.

وَفِي هَذَا دليلٌ عَلَى فَضْلِ العلمِ، حيثُ إنَّ اللهَ تَعَالَى يَستشهدُ بقولِ العُلَماء ليُقِيم به الحُجَّةَ، وقدْ قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨]، فعلَيْنا بِتَحصيلِ العلمِ، فَبِهِ رِفْعَتُنَا فِي الدنيَا والآخِرةِ، والعَلْمُ نُورٌ لنَا وللأمةِ، ويَكْفينا فخرًا أنَّ اللهَ تَعالَى قَرَن العُلَماءَ بالملائكةِ فِي شهادةِ التَّوحيد للهِ وحدهُ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾، وَهُنَا يَقُولُ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨-١٩٩].

وهَذَا كَالتَّبكيت للعربِ، واللَّوم لهمْ، يَقُولُ اللهُ: لَو كَانَ هَذَا القُرْآنُ نَزَلَ عَلَى العَجَمِ ولَم يُؤمنوا بهِ، لَكان لَهم بَعضُ العذرِ؛ لِأَنَّهم لَا يَفْهمون مَعْناه، لَكن أنتمُ العربُ نَزَلَ بِلُغَتِكُم، فَلِماذا لَا تُؤمنونَ بِهِ، وهَذَا تَوْبيخٌ للعربِ أَلا يَكونوا مُؤمنين بهَذَا

الكتابِ العزيزِ، والحمدُ للهِ أَظْهر اللهُ منَ العَجَم مَن عَلِمُوا القُرْآن، وعَلَّمُوه، وقَاموا بِتَفسيرِه، فحفظُوا السنةَ، وهَذَا شَيْءٌ مَعلومٌ منَ التاريخِ، ومنَ الكتبِ المؤلفةِ فِي ذلكَ.

وقَد فَسَّرَ بعضُ العُلَمَاءِ قولَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ [الجُمُعَة:٢-٣] بأَنَّ المرادَ بِهِمُ العَجَمُ.

فَيَجب عَلَى العربِ أنْ يَكونوا أولَ مَنْ يُؤْمِنُ بالقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَتِهم، بِلِسانهم، فَيَفهمونَ الكلامَ مُركبًا وغَير مركبٍ؛ لِأَنَّهُ لُغَتهم.

ويَجبُ أنْ نَحْمَدَ اللهَ عَلَى نعمهِ، أَنْ يَسَّرَ لنَا اللغةَ العربيةَ؛ لِأَنَّها لُغةُ القُرْآن، والسُّنَّةِ، فهناك عُلَماء وأئمَّة مسلمون منَ المُحَدِّثِينَ لَيْسَ أَصْلهم عربيًّا، ولكنَّهُم تَعَلموا العَرَبية منْ أَجلِ أَن يَفْهَمُوا كلَامَ اللهِ وكَلَامَ رَسُولهِ ﷺ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدرس الثالث:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أَنْ لا إلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ محَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فقد قالَ تعالى عَنِ القرآن الكريمِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:١٩٢-٢٠٧].

في هَذِه الآياتِ الكَريمَةِ يُبيِّنُ اللهُ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن هذا القرآنَ الَّذي أُنْزِلَ على محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أنه تَنزيلُ رَبِّ العَالمينَ، لم يَنْزِلْ مَنْ غيرِهِ، بل هو كَلامُهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إلى خَلْقِه على لسانِ رسولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، وذلِكَ حينما نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ، وهو جِبريلُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وسمَّاهُ اللهُ رُوحًا لأنه يَنْزِلُ بما فِيهِ الرُّوحُ، أي: الحياةُ القَلْبِيَّةُ، وهي حياةُ الإيمانِ والدِّينِ والعَمَلِ الصالحِ، وقولُهُ: ﴿ٱلْأَمِينُ﴾ هذا وصْفٌ مُهِمٌّ في هذا الموضِعِ حتى يتبَيَّنَ أن جِبريلَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يكُنْ مُقصِّرًا فيمَنْ أُرْسِلَ ولا فِيما أُرْسِلَ بِهِ؛ لأنه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان

أَمِينًا، وكان ذا قُوَّةٍ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠].

قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾: خَصَّ القَلْبَ بالذِّكْرِ لأنه مَحَلُّ الوَعْي والحِفْظِ، ولهذا نَزَلَ جبريلُ الأمينُ على قَلْبِ محمَّدٍ الأمينِ ﷺ فكانَ بواسِطَةِ أَمِينٍ إلى أَمِينٍ.

واللام في قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ للتَّعْلِيلِ؛ أي: لبيانِ الحِكْمَةِ من إنزالِ هذَا القرآنِ على قَلْبِ محمَّدٍ ﷺ، لأجل أن يكونَ مِنَ المنْذِرِينَ.

والإنْذار: الإعْلامُ المقْرُونُ بالتَّخْويفِ والتَّرْهيبِ، أي: لِتُنْذِرَ النَّاسَ وتُخَوِّفَهُم مِنْ مخالَفَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حتَّى يكونُوا قائِمِينَ بطاعَةِ اللهِ مصَدِّقِينَ بأخبارِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: ﴿بِلِسَانٍ﴾، أي: بِلُغَةٍ؛ لأن اللسانَ يُطْلَقُ على اللُّغَةِ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، أي: بِلُغَةِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لهم؛ لأنه مِنَ المعلومِ أن الإنسانَ لو خاطَبَ قَوْمًا بغيرِ لُغَتِهِمْ فإنهم لا يفْهَمُونَ ما جاءَ بِهِ، وحتى لو تُرْجِمَ فإن الترجمَةَ لا تُؤَدِّي المعْنى الكامِلَ للمُتَرْجَمِ.

قوله: ﴿مُّبِينٍ﴾، أي: مُظْهِر للمَعانِي المقْصُودَةِ باللَّفْظِ.

فالمُبِينُ هنا من أَبَانَ المتَعَدِّي؛ لأن (بان) فِعْلٌ لازِمٌ بمَعْنى: ظَهَرَ، وتكونُ بمَعْنَى: انْفَصَلَ، و(أبان) يُستَعْمَلُ لازِمًا ومتَعَدِّيًا، فيقال: أبانَ الفَجْرُ بمَعنى: بانَ الفجرُ وظَهَرَ، ويقالُ: أبانَ الحُجَّةَ، بمعنى: أظْهَرَهَا وبَيَّنَهَا.

وإذا جاءَتْ كلِمَةُ (مُبين) في القرآنِ الكريمِ فإنها تارَةً تكونُ بمَعْنى بَيِّن، وتارَةً

تكونُ بمَعْنَى مُظهِر، فمثلًا: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، مبين هنا مِنْ أبانَ اللازِم، الذي هو بمَعْنى بَيِّن.

وأما قولُهُ هنا: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ ومثل قولِهِ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:١] وما أشبه ذلك فالمرادُ بالمُبينِ هنا: المظْهِر، أي: المُبِين لحقائقِ الأُمورِ، الفاصِلُ بينَ الحقِّ والباطِلِ، وبينَ أولياءِ اللهِ وأعداءَ اللهِ، فيكون قولُهُ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: مُظْهِر للمَعَانِي المرادَةِ بهذَا الكلامِ، وهو أمرٌ بَيِّنٌ ولكنه يحتاجُ إلى تَدَبُّرٍ، فإن هذا القُرآنَ الكريمَ إذا لم تَتدَبَّرْهُ فإنه لن تَتبَيَّنَ لك مَعانِيهِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، زُبُر بمَعْنى كُتُبِ، أي: إنَّ ذِكْرَ هَذا القرآنِ والتَّنويهَ به وبيانَ أنه سَينْزِلُ على محمَّدٍ ﷺ لمَوجودٌ في كُتُبِ الأَوَّلينَ.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، إذا كان هَذا القرآنُ قد نُوِّه عنْه في الكتبِ السابِقَةِ فإن بَنِي إسرائيلَ الذين أُوتُوا الكِتابَ سوفَ يكونُ لدَيهِمْ عِلْمٌ بِه وشَهادَةٌ به، ولهذا قالَ الله في سورة الرَّعْدِ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣]، وهنا قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ أي: لمَنْ جئتَ إليهِمْ وبُعِثْتَ إليهِمْ من قُريشٍ وغيرِهم، ﴿ءَايَةً﴾: أي: عَلامَة، ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، نعم إن ذلِكَ لآيةً دالَّةً على صِدْقِ ما جاءَ به محمَّدٌ ﷺ حيث شَهِدَتِ الكُتُبُ السابِقَةُ له بالحقِّ.

ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨-١٩٩] أي: لو نَزَّلَ اللهُ هذَا القُرآنَ على بَعْضِ الأعْجَمينَ، فقرَأَهُ

عليهِمْ ما كانوا بِهِ مؤمِنِينَ؛ لأنه بلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، والأعْجَمِيُّ لا يفْهَمُ اللِّسانَ العَرَبِيَّ، والمرادُ بالأعْجَمِيِّ هنَا ليس الفُرْس فقط، ولكنَّ المرادَ كلُّ من لا يتكَلَّمُ باللغةِ العربِيَّةِ، فلو نَزَلَ هذا القرآنُ على بعْضِهِمْ ما كانُوا به مُؤمنينَ.

وهذا الاحترازُ العَجِيبُ في القُرآنِ: على بعضِ الأعْجَمِينَ، ولم يقُلْ: على الأعْجَمينَ، ولا: عَلى كلِّ الأعجَمِينَ؛ لأن مِنَ الأعْجَمِينَ من آمَنَ بهذا القرآنِ، وأَيَّدَهُ ونصَرَهُ، كما قالَ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجمعة:٢-٣].

فإن بعضَ المفَسِّرِينَ قال: إن المرادَ بقولِهِ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، مَن لم يكُنْ من العَربِ الَّذينَ هُم الأُمِّيُّونَ.

وفي الآيةِ تفسيرٌ آخَرُ وهو أن المرادَ بِهِمْ مَن جاءَ بعدَ الصحابَة مِنَ العَرَبِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٠]، أي: أنَّ القرآنَ وصَلَ إلى المجْرِمِينَ وقامَتْ عليهِمُ الحُجَّةُ بِهِ، ولكنهم مع ذلِكَ لن يؤمِنُوا به ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشعراء:٢٠١]، أي: أنهم سيَسْتَمِرُّونَ في إجْرامِهِمْ وفي غَيِّهِمْ حتى يَنْزِلَ بهِمْ عذابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فيأتِيهِمُ العَذابُ بغْتَةً وهُمْ لا يَشْعُرونَ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

وما أشَدَّ العَذابَ إذا نَزَلَ بالمتْرَفِينَ المنَعَّمِينَ الغافِلينَ اللاهِينَ! لأنه يكون

عَذَابًا مضاعَفًا والعياذ باللهِ، حيثُ يَفْقِدُونَ ما أسْرَفُوا فيه، ويَنزلُ بهِم ما يَتْلَفونَ به، فحينئذٍ يكون الأمرُ أشَدَّ وأنْكى والعياذ باللهِ، نسأَلُ اللهَ السلامَةَ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾، وهذا مِنَ الإنكارِ عليهِمْ، فالذين يُصِرُّونَ على المعاصِي ويقولون: أينَ العَذابُ الذي تَوَعَّدَنَا اللهُ بِه، هذا -والعياذ بالله- مِنْ تحدِّي ما وَعَدَ اللهُ بِه وأوْعَدَهُم إيَّاه.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾، ﴿ أَفَرَءَيْتَ ﴾ أي: أخْبِرْنِي أيها المخاطَبُ إن مَتَّعْنا هؤلاءِ المجْرمينَ سِنينَ، ولو كانَتْ طويلَةً، ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾، فهل المُتْعَةُ التي مُتِّعُوا بها من الأموالِ والبَنِينَ والقُصورِ والمراكِبِ وغير ذلك هل تُغْنِي عنْهُم؟ ولهذا (ما) في قولِهِ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ الأرجَحُ أنها استِفْهامِيَّةٌ وليستْ نافِيَةً، ولكنَّه استفهامٌ مضَمَّنٌ لمَعْنَى النَّفْي، فيكونُ المعنَى: أيُّ شيءٍ يُغْنِي عنْهم ما كانوا يُمَتَّعُونَ؟ والجواب: لن يُغْنِيَ عنْهم شيءٌ.

في هذه الآياتِ الكريمَةِ بيانٌ لأمورٍ:

أولًا: فضيلَةُ اللسانِ العَرَبِيِّ، وهي اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ، حيث نَزَلَ بها القرآنُ الكريمُ، الذي هو مُنَزَّلٌ لجميعِ الخَلْقِ أجمعينَ، ولهذا كان ينْبَغِي على الخَلْقِ كلِّهِم أن تكونَ لُغَتُهم هِي اللُّغَةَ العربِيَّةَ؛ لأنها لُغَةُ الشَّريعَةِ العامَّةِ الشامِلَةِ، ومن المؤسفِ أن قَوْمًا مِنَ العَرَبِ ومنَّا المسلمينَ أيضًا كَفَرُوا هذه النِّعْمَةَ، حيث صارُوا ينْطِقُونَ بغيرِ اللُّغَةِ العربيةِ ويفْخَرُونَ بها، ويرَوْنَ أنها أعزُّ من اللُّغَةِ العربِيَّةِ، حتى إن الرَّجُلَ ليَشْعُرُ بنفْسِهِ أنه قَدِ ارتَفَعَ فوقَ قِمَمِ الجبالِ حينَ يتكَلَّمُ بلغَةٍ غيرِ العربِيَّةِ.

وقد ذكر كثيرٌ من أهلِ العِلْمِ أنه يَحْرُمُ على المرءِ العَرَبِيِّ أن ينْطِقَ بغيرِ اللغةِ العربيةِ بَدَلًا مِنَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وليس المعْنَى أن ينْطِقَ بغيرِ اللُّغةِ العرَبِيَّةِ عندَ الحاجَةِ إليها فإن هذَا أمرٌ جائزٌ، والنبيُّ ﷺ قال لزينَبَ بنتِ أمِّ سلَمَةَ وقد جاءَتْ مِنَ الحبشَةِ، ورَأى عليهَا ثَوْبًا جديدًا قال: «هَذَا سَنَاهْ»، ومَعْنَى سناه في اللغَةِ الحَبَشِيَّةِ: أي هذا حَسَنٌ[1]، وأمَر زَيدَ بنَ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يتَعَلَّمَ لُغَةَ اليَهُودِ[2] حتى يقْرَأَ ما يرِدُ إلى النَّبِيِّ ﷺ من كِتابِهِمْ، ويَكْتُبَ إليهِم بلُغَتِهِمْ.

فتَعَلُّمُ غيرِ اللغةِ العَربية جائزٌ، وقد يكونُ واجبًا أحْيانًا، إذا كان وسيلَةً لإبلاغِ الشريعَةِ الإسلامِيَّةِ، ولكنَّ المؤسفَ أن بعض الناس يتَّخِذُونَ من غيرِ اللُّغَةِ العربيةِ وسيلَةً لنُطقِهِمْ، حيث يتكلَّمونَ بها، فمثلًا: تجِدُ بعضَ الناسِ بدل من أن يقولَ: السلامُ عليكُم باللُّغَةِ العربِيَّةِ يأتِي بما يقابِلُها في اللُّغَةِ غيرِ العربِيَّةِ، وكذلك أيضًا ينطِقُ عندمَا يَسْأَلُ شَيئًا أو يُعْطِي شيئًا أو ما أشبَه ذلك بغيرِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وقد ذُكِرَ أن أميرَ المؤمنينَ عُمرَ بنَ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يَنْهَى عَنْ رَطَانَةِ الأعَاجِمِ ويَضْرِبُ عَلَيْهَا[3]، ولا شَكَّ أن هذا حَقٌّ فيمَنِ اتَّخَذها بَدَلًا عن اللغة العربيةِ، أو اتَّخَذَها مُنْطَلَقًا للعِزِّ والافتِخَارِ بِهَا، والحقيقة أن الفَخْرَ كلَّ الفَخْرِ أن يكون الإنسانُ عالمًا باللُّغَةِ العرَبِيَّةِ التي هِي لُغَةُ القُرآنِ.

ويتَبَيَّنُ من هذه الآياتِ الكريمَةِ أيضًا أن القُرآنَ محفوظٌ من لَدُنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إلى أن وَصَلَ إلى محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ، ثم هو محفُوظٌ بعد ذلك أيضًا كما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة الحبشة، رقم (٣٨٧٤).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام، رقم (٧١٩٥).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١/ ٤١١).

قالَ اللهُ تعالى للنَّبيِّ ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٩]، ﴿عَلَيْنَا﴾ أي: أَوْجَبَ اللهُ على نَفْسِه أن يُبيِّنَ كلامَه للخَلْقِ.

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وهَذا من نِعْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّ اللهَ حَفِظَ كِتابَهُ هذا فَلَمْ تَنَلْهُ أيْدِي التَّحْرِيفِ اللَّفْظِيَّة كما نالَتِ الكُتُبَ السابِقَةَ.

نقول: أيُّها المسلِمونَ، إن عَلَينا أن نَشْكُرَ اللهَ على هذه النِّعمَةِ، حيث إنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَفِظَ لنا القُرآنَ من وقْتِ أنْ نَزَلَ به جِبريلُ الأمينُ على قَلْبِ محمَّدٍ خاتَمِ النَّبيِّينَ إلى أن وَصَلَ إلينا ولله الحَمْدُ، وصار يَقْرؤهُ مِنَّا الصغيرُ والكبيرُ، وصارَ أعظَمَ كتابٍ تَواتَرَ في أيِّ كُتُبٍ سابِقَةٍ.

ويتبَيَّنُ من هذه الآيَةِ التَّحْذِيرُ العَظِيمُ من أولئكَ القَومِ الذي هَلَكُوا فيما أُتْرِفُوا فيه وغَفَلُوا بدُنْياهُم عن آخِرَتِهِمْ، وصارَ أكبَرُ هَمِّهِمْ أن يشتَغِلُوا بالدُّنيا عن الدِّينِ، حتى إن الرَّجُلَ ليُفَكِّرُ في دُنياهُ قائِمًا وقاعِدًا ومضطجعًا وآكِلًا وشَارِبًا، حتى في مكانِ الخلاءِ الَّذِي يبُولُ أو يتغَوَّطُ فيهِ، كلُّ جِسمِهِ وكُلُّ عقْلِه وكُلُّ فكْرِهِ منْصَرِفٌ إلى هذه الدنيا، إما تَحْصِيلًا، وإما تَنْمِيَةً، وإما تَمَتُّعًا بما فيها مِنَ القُصورِ واللذائذِ والنَّعِيمِ.

ومما يكونُ بِهِ العَجَبُ ولا ينْقَضِي به العَجَبُ أن هؤلاءِ يُشاهِدُونَ الناسَ يرْتَحِلُونَ عن الدُّنيا رَجُلًا رَجلًا، وأنَّهم لا يُمَتَّعُونَ بها، ومع ذلِكَ فَهُم غافِلونَ بِهَا عَمَّا خُلِقُوا لَهُ، ولهَذَا قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾.

أيها المسلِمُونَ، الحَذَرَ الحَذَرَ أن تَفْتِنكُم الدُّنيا حتَّى تَقعُوا في التَّرَفِ، ثم تكونُوا بعدَ ذلك في التَّلَفِ، وأن تجعَلُوا الدُّنيا وسيلَةً إلى الآخِرَةِ، ولقد أعجَبَنِي كلامٌ لشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيمِيَةَ قال: ينبَغِي للإنسان أن يجْعَلَ المالَ بينَ يدَيْهِ كالحِمارِ الذي يَرْكَبُهُ، فيَقْضِي عليه حَاجَتَهُ[1].

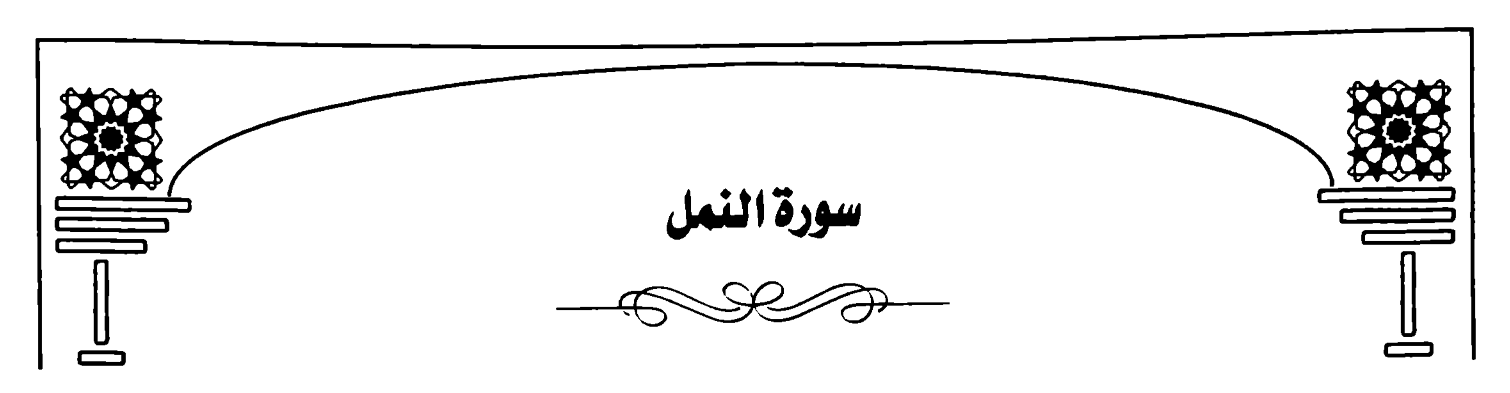
وقال في موضع آخر: أو كَبَيتِ الخَلاءِ الذي يَقْضِي بِه حاجَتَهُ أيضًا[2]. لا أن يجعَلَ المالَ رَاكِبًا على ظَهْرِهِ. فينْبَغِي للإنسانِ أن يكونَ هو الراكِبُ على المالِ، لا أن يكونَ المالُ راكِبًا عليه.

وأسألُ اللهَ أن يُعِيذَنِي وإياكُمْ مِنْ عذابِ جَهنَّمَ، ومِنْ عذابِ القَبْرِ، ومن فِتْنَةِ المحْيَا والمماتِ، ومِنْ فِتنَةِ المسيحِ الدَّجَّالِ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٣).



سورة النمل

الدرس الأول:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعدُ:**

فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥]. وداودُ وسُليمانُ هُما مِنْ أنبياءِ بَنِي إسرائيلَ، وليسَ دَاودُ مَلِكًا فقط كما تَزْعُمُهُ اليهودُ عليهِمْ لعائنُ اللهِ المتتابِعَةُ إلى يومِ القِيامَةِ، فإنَّ داودَ نَبِيٌّ أرسَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى قومِهِ من بنِي إسرائيلَ.

والعِلْمُ الذي آتاهُ اللهُ تعالى داودَ وسليمانَ هو عِلْمُ الشريعَةِ بالوَحْيِ، وعِلْمُ بعضِ الأمورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، كما عَلَّمَ الله تعالى داودَ صَنْعَةَ الدُّروعِ، وكذلك عَلَّمَ اللهُ تعالى سليمانَ ما عَلَّمَه من مَنْطِقِ الطَّيرِ، وغير ذلِكَ من العُلومِ.

ثم ذَكَرَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن سُليمانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قِصَّةً غريبَةً عجِيبَةً؛ وقَعَتْ لحشَرَةٍ من الحَشَراتِ التي خَلَقَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، مما يَدُلُّ على أن رَبَّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

فقال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٧-١٨] إلى آخِرِ القِصَّةِ.

ووادِي النَّمْلِ هو وادٍ معروفٌ بهذَا الاسمِ، وذلِكَ لكثْرَةِ النَّمْلِ فيه، لما أَتَى سليمانُ وجنودُهُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطيرِ، قالَتْ هذه النمْلَةُ محذِّرَةً قومَها ومُرَهِّبَة لهُم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، ثم اعتَذَرَتْ عن سليمانَ وجنودِهِ بأنهم إذا حَطَّمُوا هذا النمْلَ فإنما يَحْطِمُونَهُ وهم لا يشْعُرون، فلا يشْعُرونَ بها لأنها حَشَرَةٌ صغيرَةٌ، وهذا جندٌ عظيمٌ.

وقد ذَكَرَ علماءُ البيانِ أن كَلامَ النَّمْلَةِ اشتمَلَ على اثْنَي عشَرَ نَوْعًا من أنواعِ البَلاغَةِ، وليس هذا موضِعَ ذِكْرِها.

وسليمانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما سَمِعَ من هذه النمْلَةِ ما سَمِعَ لم يأخُذْهُ الغُرورُ، ولم يأخُذْه العُجْبُ ولكنه تَبَسم، قالَ تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

وهذه القِصَّةُ، وهي قِصَّةٌ قصيرَةٌ لكن فيها فوائدُ عظِيمَةٌ؛ فمِنْ فوائدِهَا أن النَّمْلَ حيوانٌ يعقِلُ بقَدْرِ ما يكونُ فيه مصلَحَتُهُ، ليسَ عاقلًا عَقْلًا مطْلَقًا يكون مَنَاطًا للتَّكْلِيفِ كعَقلِ الإنسِ والجِنِّ، ولكنه عقْلٌ يكونُ به مصْلَحَتُها، ولهذا نادَتْ ولا ينادِي إلَّا العاقِلُ؛ لكن بحسَبِ عقْلِهِ الذي يَلِيقُ بِهِ، قالَتْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾، وفي هذَا دليلٌ على أن مَنْ قتَلَ حَشَرَةً مِنَ الحشراتِ وهو لا يَشْعُرُ فإنه معذُورٌ، ولا حرَجَ

عليهِ في ذلكَ، فمَنْ دَهَسَ بالسيَّارَةِ قِطًّا أو كَلْبًا أو حَمامـةً أو غيرها، فليس عليه في ذلِكَ حرَجٌ ما دَامَ غير متعَمِّدٍ؛ إلا ما كانَ مَمْلُوكًا فإنه يجِبُ ضمانُهُ من مالِكِهِ، أما إذا كان مالِكُهُ مُفَرِّطًا أو مُتعَدِّيًا فلا.

واعْلَمْ أن الحيواناتِ تنْقَسِمُ إلى ثلاثَةِ أقسامٍ:

القِسْمُ الأوَّل: ما أمَرَ الشَّرْعُ بقتْلِهِ، وهو: كلُّ مُؤذٍ مِنَ الحيواناتِ، فإنَّه يُشْرَعُ للإنسانِ قَتْلُهُ، مثلَما ذكَرَهُ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقولِهِ: «**خَمْسٌ مِنَ الدَّوابِّ كُلُّهُنَّ فاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الحِلِّ وَالحَرَمِ: الحِدَأَةُ، وَالفَأْرَةُ، وَالعقْرَبُ، وَالغُرَابُ، وَالكَلْبُ العَقُورُ**»[١]، فَهذِه الخَمْسُ وما أشْبَهَهَا كلُّها يُقْتَلُ في الحِلِّ والحَرَمِ.

القسمُ الثَّاني: ما نَهَى الشارِعُ عن قَتلِهِ، ومنه ما جاءَ بِهِ الحديثُ الذي يُرْوَى عَنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ أنه نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوابِّ: النَّمْلَةِ، وَالنَّحْلَةِ، وَالهُدْهُدِ، وَالصُّرَدُ[٢].

القِسْمُ الثالثُ: مَا لم يَجِئِ الشَّرْعُ بقَتْلِهِ، ولا بالنَّهْيِ عن قَتلِهِ، فهذا لا ينْبَغِي للإنسانِ قَتْلُهُ، ولكنه إن قَتَلَهُ فلا حَرَجَ عليهِ، ولا سِيَّما إن حصَلَ منْه تَعَدٍّ، ومثالُ ذلك: قولُ النَّبـيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وسَلَّمَ في حديثِ أبي هُـريرَةَ الَّذي رواهُ البخارِيُّ: «**إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ؛ فَإِنَّ فِي إِحْدَى**

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، رقم (١١٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قتل الذر، رقم (٥٢٦٧)، وابن ماجه: كتاب الصيد، باب ما ينهى، عن قتله، رقم (٣٢٢٤).

جَنَاحَيْهِ دَاءً، وَالأُخْرَى شِفَاءً»[١]. ومن المعْلُومِ أنَّه إذا غُمِسَ الذُّبابُ في ماءٍ حارٍّ فإنه لا بُدَّ أن يمُوتَ؛ لكن هنا لدَرْءِ ما يُخشَى من أذِيَّتِهِ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالحاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء، رقم (٣١٤٢).



سورة القصص

الدَّرس الأوَّل:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنَّا، منْ يهدِه اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومن يضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورَسولُه، وخليلُه، وأمينُه على وحيِه، أرسلَهُ اللهُ بينَ يديِ السَّاعةِ بشيرًا ونذيرًا، فبلّغَ الرِّسالَةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلِه وأصْحابِه، ومَن تبعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ. **أَمَّا بَعْدُ:**

فنتناولُ بما يسّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ قولَ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

فرْعَونُ هوَ مَلِكُ مِصرَ، قيلَ: إنهُ علمٌ على فرْعَونَ الطَّاغيةِ الذي أُرسلَ إليهِ موسَى، وقيلَ: إنهُ علمُ جنسٍ على كلِّ مَن مَلكَ مصرَ وهوَ كافرٌ، وإن كلَّ مَن مَلكَ مصرَ وهوَ كافرٌ فإنهُ يُسمى فرْعَونًا، كما يُقالُ لمنْ مَلكَ الرومَ: هرقلُ، ولمنْ مَلكَ الفرسَ: كسرَى.

وعلى كلِّ حالٍ فالمرادُ بفرْعَونَ هنا شخصٌ معينٌ، ألا وهوَ فرْعَونُ مُوسى، أي فرْعَونُ الذِي أُرسلَ إليهِ مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

هذا الرَّجلُ كانَ جبارًا عنيدًا، ادَّعى لنفسِه ما لم يدَّعِهِ أحدٌ، فادَّعَى أنهُ الإلهُ، وقالَ لقومِه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾[الزخرف:٥٤]، وظنُّوا أن ما قالَهُ حقٌّ؛ لأنهُ يَرمي فيهمْ بالشُّبهِ العظيمةِ البالغةِ، حتى أضلَّ قومَهُ والعياذُ باللهِ.

وقالَ اللهُ عنهُ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨].

هذا الرَّجلُ -فرْعَونُ- عَلا في الأرْضِ واستكبرَ فيهَا، وقالَ: أنا ربكمُ الأَعلى، وجعلَ أهلها شِيعًا؛ أي طوائفَ متفرقةً يتميزُ بعضُها عنْ بعضٍ، وهذا مِنَ السياسةِ الماكرةِ التي يَلجأُ إليهَا أعداءُ الدينِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهوَ تفريقٌ؛ تفريقُ الكلمةِ وتفريقُ الأمةِ.

وهذا أيضًا مِن وحيِ الشَّيْطانِ الذي هوَ رأسُ الفتنةِ؛ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، فهنا قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ وإذا أرادَ الشَّيْطانُ بنا شيئًا فإنهُ سوفَ يكونُ عليهِ في غايةِ الحرصِ، وهنا ذَكرَ الخمرَ والميسرَ كمثالٍ على ما يريدُه الشَّيْطانُ، وإلا فإن الشَّيْطانَ يريدُ أن يُوقعَ العَداوَةَ والبغضاءَ في كلِّ شيءٍ، لكن لما كانَ الكلامُ على الخمرِ والميسرِ خصَّ اللهُ الخمرَ والميسرَ بالذكرِ هنا، وإلا فإنَّ الشَّيْطانَ حريصٌ على أن يُلقي العَداوَةَ والبغضاءَ بينَ النَّاسِ، ولا سيَّما بينَ طلابِ العلمِ، وهذا مما يُؤسَفُ لهُ؛ أن يكونَ بينَ طلبةِ العلمِ الشرعيِّ الَّذينَ يُريدونَ إعلاءَ كلمةِ اللهِ، والَّذينَ يريدونَ

إصلاحَ عبادِ اللهِ، والَّذينَ يريدُونَ إقامةَ الشريعةِ أن يَكونُوا أعداءً، فالهدفُ لمن أرادَ الآخرةَ مِن طلابِ العلمِ إعلاءُ كلمةِ اللهِ، وإقامةُ دينِ اللهِ في عبادِ اللهِ، هذا هوَ الهدفُ، فما بالُنا نتفرقُ فيهِ، أليسَ هذا مِن عملِ الشَّيْطانِ! بلى واللهِ مِن عملِ الشَّيْطانِ، فهوَ الذي يريدُ أن نتفرقَ.

ولقدْ كانَ الشَّبابُ على خطٍّ مستقيمٍ منذُ سنواتٍ، إلا أنهُ في السَّنواتِ الأخيرةِ معَ الأسفِ، وأقولها بحرارةٍ، ليسَ من حيثُ إلقاءُ القولِ، ولكنْ من حيثُ ما في ضَميري مِن هذا الأمرِ، الذي حدثَ أخيرًا بينَ شبابِ الإسْلامِ وبينَ شبابِ الصحوةِ أنهم غرَّهُمُ الشَّيْطانُ، ونزغَ بينهُمُ العَداوَةَ، وصارُوا يتعصبونَ للهوَى، لا للهُدى، فيتعصبونَ لفلانٍ وفلانٍ، سواءٌ أقالَ حقًّا أم باطلًا.

وهذا -واللهِ- هوَ العَمى، فما لنَا لفلانٍ وفلانٍ؛ إن أساؤوا فعلى أنفسِهِم، وإن أحسَنُوا فلأنفسِهِم.

إن الواجبَ علينَا أن نقولَ للحقِّ: حقٌّ، مِن أيِّ شخصٍ كانَ. والواجبُ أن نقولَ للباطلِ: باطلٌ، من أيِّ شخصٍ كانَ. والواجبُ علينا ألا نعتقدَ أن أحدًا منَ البشرِ معصومٌ إلا رَسولَ اللهِ ﷺ، فكلُّ إنْسانٍ يُمكنُ أن يُخطئَ خطأً كبيرًا أو خطأً صغيرًا، فما بالُنا نجعلُ معاداتَنَا ومُوَالاتَنا وبرَاءَتَنا منوطةً بأشخاصٍ معينينَ، هذا ينتحلُ لفلانٍ، وهذا ينتحلُ لفلانٍ، وهذا ينتحلُ لفلانٍ، وكأنَّ الحَقَّ ما نطقَ بهِ هذا الرَّجلُ، والباطلُ ما نطقَ بهِ الرَّجلُ الآخرُ، فأينَ هذهِ الطَّريقُ منْ طريقِ السَّلفِ!

إن طريقَ السَّلفِ الصَّالحِ الرجوعُ إلى شيئينِ، لا ثالثَ لهما، ألا وهُما كتابُ اللهِ، وسنةُ رَسولِه صلَّى اللهُ عليهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّم، لا الانتحال لفلانٍ وفلانٍ، حتى

يُرقوا هذا الرَّجلَ الذي يَنتحلونَ لهُ إلى ما فوقَ الثريَّا، ومقامُه في الحقيقةِ دونَ الثَّرى، فهذا غلطٌ يا إخواني، وهذا واللهِ يُحزنُ، فبينما النَّاسُ مستبشرونَ بصحوةِ الشَّبابِ الإسْلاميِّ واتجاهِهم اتجاهًا سليمًا، وإذا بهِمْ ينكصونَ على أعقابِهم؛ لأن هذا فلانٌ ينتحلُ لفلانٍ ويمدحُ فلانًا، ويذمُّ فلانًا، ويمدحُ كُتبَ فلانٍ، ويذمُّ كتبَ فلانٍ.

ما لنَا ولهذا! هؤلاءِ القومُ إن كانُوا أحياءً فنسألُ اللهَ لهمُ الهدايةَ فيما أَخطؤوا فيهِ، وإن كانُوا أمواتًا فقدْ قَدِمُوا على أحكمِ الحَاكمينَ، وأعدلِ الحَاكمينَ، ربِّ العَالمينَ جَلَّوَعَلَا، لكن الخطأَ يجبُ أن نقولَ: إنهُ خطأٌ، مهما تكلمَ بهِ المتكلمُ، والصَّوابُ يجبُ أن نقولَ: إنهُ صوابٌ، مهما كانَ المتكلِّمُ بهِ؛ لأن الرِّجالَ يُعرفونَ بالحقِّ، وليسَ الحقُّ هوَ الذي يُعرفُ بالرِّجالِ، فلو كانَ الحقُّ هوَ الذي يُعرفُ بهِ الرِّجالُ لكنَّا نضلُّ إذا وجدنَا أحدًا على خطأٍ واتبعنَاهُ في خطئِهِ.

لذلكَ أدعُو إخواني المسلمينَ، وأخصُّ الشَّبابَ منهمْ، وأخصُّ طلبةَ العلمِ، أدعوهُم إلى الائتلافِ والاتفاقِ، ونبذِ الخلافِ، وطرحِ الافتراقِ، وألا يتعصبَ بعضُهم لأناسٍ وبعضُهم لأناسٍ، فإن هذا هوَ عنوانُ الشَّقاءِ، وعنوانُ الفشلِ.

واستمعُوا إلى قولِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى يخاطبُ خيرَ القرونِ؛ صحابةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال:٤٦].

ولهذا لو سُئلَ هذا الرَّجلُ عنِ الشخصِ الذي كانَ يَنتمي إليه، وكانَ ينتحلُ مذهبَه، لو سُئلَ عما قالَ مِن خطأٍ، دونَ أن يَعرفَ مَن قائلُه، لقالَ: هذا خطأٌ، لكن لو كانَ القائلُ هوَ مَن ينتحلُ إليهِ، ويتعصبُ لهُ، قالَ: هذا صوابٌ، وإذا عجزَ أن

يقولَ: إنهُ صوابٌ قالَ: لعلَّهُ رجَعَ عنهُ. والأصلُ فيما قالَهُ القائلُ أنهُ قولُه حتى يُعلنَ أنهُ رجَعَ عنهُ إعلانًا واضحًا بيِّنًا يبطلُ بهِ ما سبقَ مِن قولِه الخطأ حتى يعرفَ النَّاسُ أنهُ رجعَ إلى الصَّوابِ.

ولهذا كانَ الهوَى يُعمي ويُصم، فكلمةٌ خطأٌ نُقلتْ إلى شخصٍ وقيلَ لهُ: ما تقولُ في هذَا؟ قالَ: واللهِ هذا خطأٌ وغلطٌ، ثم بقينَا يومًا أو يومينِ فقلنَا: وجدنَا هذا القولَ في الكتابِ الفلانيِّ لمن يَنتحلُ، أَلَّفَهُ مَن ينتحلُ إليهِ، فهذا الخطأُ بالأمسِ يكونُ اليومَ صوابًا، اللهُ أكبرُ! فانقلبَ الخطأُ صوابًا لأن فلانًا قالَهُ! والخطأُ خطأٌ، والصَّوابُ صوابٌ أيًّا كانَ القائلُ بهِ.

لذلكَ يجبُ على شبابِنَا وطلابِ علمِنَا أن يَبتعدُوا عن هذهِ الأمورِ، وعنْ هذهِ السفاسفِ، وأن تكونَ هِمتُهم فوقَ ذلكَ، وأن يكونَ هَمُّهُم كتابَ اللهِ وسنةَ رَسولِه ﷺ، ومنهجَ السَّلفِ الصَّالحِ صحابةِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليهِ وعلى آلِهِ وسلمَ، الَّذينَ قالَ عنهمُ الرَّسولُ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**خَيرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[1].

فالصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يكونُ بينهمُ الخلافُ حتى في الأصولِ، ومعَ ذلكَ لا تختلفُ القلوبُ، ألمْ يختلفِ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هل رأى النبيُّ ﷺ ربَّهُ؟ لقدِ اختلفُوا في ذلكَ، وهوَ منَ العقائدِ والأصولِ، ومعَ ذلكَ لم تختلفِ القلوبُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصْحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصْحاب النبي ﷺ، رقم (٣٦٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصَّحابة، باب فضل الصَّحابة ثم الَّذين يلونهم ثم الَّذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

الاختلافُ عند الصَّحابة:

ألم يختلفِ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في أعظمِ ركنٍ منْ أركانِ الإسْلامِ بعدَ الشهادتينِ؛ في الصَّلاةِ؟ ومعَ ذلكَ لم تختلفِ القلوبُ؛ ألم يَبلغكُمْ أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلمَ لما رجَعَ مِن غزوةِ الأحزابِ أمرَهُ جبريلُ أن يخرجَ إلى بَني قُرَيْظةَ اليهودَ، الَّذينَ نَقضُوا العهدَ، فندَبَ النبيُّ صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وسلمَ أصْحابَهُ إلى الخروجِ وقالَ: «**لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»[1]، فاتجهَ الصَّحابةُ إلى بني قُرَيْظَةَ، وحانتْ صلاةُ العصرِ، وهيَ الصَّلاةُ الوسطَى التي هيَ الفُضلَى، والتي أمرَ اللهُ بالمحافظةِ عليهَا بذاتِها، حيثُ قالَ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨].

وإني أسألُ سؤالًا مُعترِضًا -والجملةُ المعترِضَةُ لا بأسَ بها أحيانًا-: هلْ أنتمْ إذا أردتُم أن تُكبروا تكبيرةَ الإحرامِ لصلاةِ العصرِ تَستَشعرونَ قولَ اللهِ تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾؟ أبدًا، فاستشعرْ أن اللهَ يقولُ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ وأن الصَّلاةَ الوسطَى هيَ هذهِ الصَّلاةُ التي هيَ صلاةُ العصرِ، فالمحافظةُ عليهَا أشدُّ وأعظمُ كما أوصَى بها اللهُ عَزَّوَجَلَّ في كتابِه بخصوصِهَا.

إخواني، استشعارُ القلبِ امتثالَ أمرِ اللهِ عندَ فعلِ العبادةِ واتباعِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهُ شأنٌ كبيرٌ في صلاحِ القلبِ، أما الغفلةُ وفعلُ الشيءِ على العَادةِ فهذا لا يُكسبُ العبادةَ رُوحَها ومعناهَا والمرادُ بها.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب صلاة الخوف، باب صلاة الطَّالب والمطلوب، رقم (٩٤٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو، رقم (١٧٧٠).

أعوذُ وأقول: قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلمَ: «**لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، وفي أثناءِ الطَّريقِ حانتْ صلاةُ العصرِ، فاختلفَ الصَّحابةُ؛ فبعضُهم قالَ: نُصلِّي العصرَ حتى لا يَخرجَ وقتُها، والعصرُ أفضلُ الصَّلواتِ، فكيفَ نُضيِّعُها، وكيفَ نُخرجُها عن وقتِهَا. وقالَ آخرونَ: بل نمتثلُ أمرَ الرَّسولِ ﷺ لأنهُ قالَ: لا تُصلوا إلا في بني قُرَيْظةَ، وهذا أمرٌ خاصٌّ في هذهِ الصَّلاةِ، فلا نُصلِّي إلا في بَني قُرَيْظةَ.

ولو وُجِّهَ الخطابُ إلى النَّاسِ الآنَ لاختلفُوا كما اختلفَ السَّلفُ، فيقولُ البعضُ: نريدُ أن نُصليَ حفاظًا على الوقتِ، والآخرونَ يقولونَ: سنؤخرُ حتى نَصلَ بني قُرَيْظةَ؛ طاعةً لرَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلمَ.

المهمُّ أن بعضَهُم صلى في الطَّريقِ حتى لا يَخرجَ الوقتُ، وبعضُهم صلى بعدَ أن وصلَ إلى بني قُرَيْظةَ بعدَ غروبِ الشَّمسِ.

فهذا اختلافٌ في صلاةٍ هيَ أفضلُ الصَّلواتِ، ومعَ ذلكَ فإن هذا ما أحدثَ في قلوبِهم اختلافًا أبدًا، فالقلوبُ متفقةٌ، فكلٌّ منهمْ يَرى أن صاحبَهُ معذورٌ، وكلُّ واحدٍ منهمْ يَرى أن الخطَّ الذي مَشَى عليهِ صاحبُه هوَ الخطُّ الذي مشَى عليهِ هوَ؛ لأنهُ يعتقدُ أن صاحبَه صلَّى في الوقتِ قبلَ أن يَصلَ إلى بني قُرَيْظةَ لأنهُ يَرى أن هذا مرادُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والآخرُ الذي أخَّرَ يرى أن مرادَ الرَّسولِ ﷺ تأخيرُ الصَّلاةِ إلى أن يَصلوا إلى بني قُرَيْظةَ.

إذنْ كلٌّ منهمْ فعلَ ما فعلَ امتثالًا لأمرِ اللهِ ورَسولِه، وليسَ مخالفةً لأمرِ اللهِ ورَسولِه.

إذَنِ الخطُّ واحدٌ، كما لو قَصدنَا جميعًا مكةَ لكنَّ بعضَنا ضَربَ يمينًا، وبعضَنَا يسارًا، وبعضَنا مَشى بالوسطِ، فالطرقُ كلها تُوصلُ إلى مكةَ.

على كلِّ حالٍ حصلَ هذا الاختلافُ منَ الصَّحابةِ، ولكنِ القلوبُ واحدةٌ متفقةٌ مؤتلفةٌ، والمحبةُ باقيةٌ، والتآلفُ باقٍ.

وإمامُهم محمدٌ رَسولُ اللهِ ﷺ موقفُه تُجاهَ هذا الاختلافِ أنهُ لم يَعبْ أحدًا؛ لا هؤلاءِ ولا هؤلاءِ، يعني لم يَقلْ للذينَ صَلَّوْا قَبلَ أن يَصلوا إلى بني قُرَيْظةَ محافظةً على الوقتِ؛ لم يقلْ: لماذا صليتُمْ قبلَ أن تَصلوا إلى بني قُرَيْظةَ؟ ولم يقلْ للآخرينَ الَّذينَ أَخَّروا إلى أن وصَلُوا إلى بني قُرَيْظةَ بعدَ الغروبِ؛ لم يقلْ: لماذا أخرتُمُ الصَّلاةَ عن وقتِهَا؟ لأن النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلمَ يعلمُ أنهمْ لم يَقصدُوا المخالفةَ، وإنما تَأولُوا، وكلٌّ مِنهمْ معذورٌ.

وقد ثبتَ عنْ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ أنهُ قالَ: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ، فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ. وَإِذَا حَكَمَ، فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ**»[١].

إذنْ لم يَحرمْ واحدًا منهمْ منَ الأجرِ، ولكنْ لا شكَّ أن الإِنْسانَ إذا تأملَ وجدَ أن الصَّوابَ معَ الَّذينَ صَلوا في الوقتِ، وأن مرادَ النبيِّ ﷺ بقولِه: «**لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**» أن يُبادِرُوا بالخروجِ ولا يتأخرُوا، كما لو قلتُ لكَ: يا فلانُ، اذهبْ إلى المدينةِ الفلانيةِ، لا يُؤذنُ العصرُ إلا وأنتَ فيها، أو لا تُصلِّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب، أو أخطأ، رقم (١٧١٦).

العصرَ إلا فيهَا، فهلِ المعنَى أن يُؤخِّرُوا الصَّلاةَ ولو غابتِ الشَّمسُ، أو المعنى: بادرْ حتى تصلَ إليهَا قبلَ العصرِ وتُصلِّي العصرَ فيهَا؟

الجوابُ: الثَّاني بلا شكٍّ.

الحقُّ مقبولٌ دُونَ النَّظر لقائِله:

على كلِّ حالٍ أقولُ: يا إخـوانُ، لا يجـوزُ للشبابِ، ولا سيَّما طلبةُ العلمِ، أن يَتفرقُوا منْ أجلِ اختلافٍ في التأويلِ، إذا كانَ للتأويلِ مساغٌ، أما إذا كانَ عنادًا فالعنادُ لهُ بابٌ آخَرُ.

كذلكَ أيضًا لا يجوزُ أن نتحلَ لشخصٍ ونتعصبَ لهُ، ونعادِيَ ونواليَ مِن أجلِهِ، بل نقولُ للذِي أصابَ: أصبْتَ، وللذِي أخطأَ: أخطأتَ.

فإن قالَ قائلٌ: رجلٌ عالمٌ كبيرٌ أديبٌ، مؤلفاتُه منتشرةٌ، نقولُ لهُ: أخطأتَ؟

فالجوابُ: نعمْ نقولُ: أخطأتَ، ولا نبالي، والخطأُ مردودٌ، وإذا أصابَ إنْسانٌ آخرُ فإننا نقولُ لهُ: أصبتَ؛ لأن الصَّوابَ يجبُ أن يُقبلَ حتى مِن أكفرِ الكَافِرينَ.

ألـم تَعلمُوا أن اللهَ تعالى سكتَ عنِ الحقِّ، وأبطـلَ الباطـلَ، وهو صادرٌ منَ المشركينَ؟ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ هذه علة ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذه علةٌ ثانيةٌ، فكانَ الجوابُ منَ اللهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]، فأَبطَلَ العلةَ الثَّانيةَ وهيَ قولُهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وسكتَ عنِ الأولى، وإبطالُ أحدِ الأمرينِ والسكوتُ عنِ الآخرِ يعني أن الآخَرَ صحيحٌ، وهوَ كذلكَ، فهُمْ وجدُوا آباءَهُم على هذا، ولذلكَ لم يُبطِلُوا معَ أنهُ صادرٌ منَ المشركينَ.

والنبيُّ ﷺ قَبِلَ الحقَّ منَ اليهودِ الَّذينَ همْ أبعدُ النَّاسِ عنِ الحقِّ؛ جاءَهُ حَبرٌ منَ اليهودِ -يعني عالِمًا منَ اليهودِ- وقالَ: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ...» وذكرَ بقيةَ الحديثِ، فضحكَ النبيُّ ﷺ تصديقًا لقولِ الحَبرِ، وليسَ إنكارًا؛ لأنهُ لو كانَ كاذبًا لأنكرَ عليهِ، لكنهُ ضحِكَ تصديقًا لهُ، ثم قرأَ النبيُّ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧][(١)].

فقَبِلَ الحقَّ مِن حَبرٍ منْ أحبارِ اليهودِ، وعالِمُو اليهودِ أشدُّ مِن عوامِّهم؛ لأن عالِمَ اليهودِ قدْ خالفَ الحقَّ عن بصيرةٍ والعياذُ باللهِ، فكان أشدَّ جُرمًا منْ عوامِّهم، فأحبارُ اليهودِ أشدُّ جرمًا منْ عوامِّ اليهودِ لأنهمْ خالفُوا الحقَّ عن بصيرةٍ، لكنِ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَبِلَ الحقَّ؛ لأن دينَ رَسولِ اللهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دينُ الحقِّ، يقبلُ الحقَّ مِن أيِّ شخصٍ كانَ.

بل إن الرَّسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قبلَ الحقَّ مِن رأسِ الكفرِ والطغيانِ، ورأسِ الطواغيتِ، ألا وهوَ الشَّيْطانُ، فيَقبلُ الحقَّ إذا صدرَ منَ الشَّيْطانِ، وذلكَ في قصةِ أبي هريرةَ:

قالَ أبو هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، رقم (٤٨١١)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، رقم (٢٧٨٦).

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ**». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ**».

فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ -انظر الإيمانَ والتَّصديق، فما تردَّد أبو هريرةَ ولا وقَع في قلبِه شكٌّ، فعلم أنه سيعود- فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**».

فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلاثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ -والشَّيْطانُ لا يريدُ أن يُرفعَ إلى الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالشَّيْطانُ يَهرُبُ مِن عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فما سَلكَ عمرُ فجًّا، أي طريقًا، إلا سلكَ الشَّيْطانُ فجًّا آخرَ[1]، فكيفَ برَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!-؟

قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٩٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٩٦).

-وهذه لا شك أنها حراسةٌ عظيمةٌ مِن عندِ مَن؟ من عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، آيةٌ في كتابِ اللهِ إذا قرأَهَا الإِنْسانُ في ليلةٍ لم يزلْ عليهِ منَ اللهِ حافظٌ ولا يَقربُهُ شيطانٌ حتى يُصبحَ-.

فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ؟»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِها حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ -وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَم مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لا، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»(١).

قال: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ» أي أخبرَكَ بالصدقِ، إذنْ صدّقَهُ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معَ أن الذِي دلَّ عليهِ هوَ الشَّيطانُ.

والمهمُّ أن الحقَّ يجبُ أن يُقبلَ مِن أيِّ أحدٍ قالَ بهِ، لا لأنهُ مِن فلانِ بنِ فلانٍ، بل لأن هذا هوَ الحقُّ، ويجبُ أن يُردَّ الباطلُ مِن أيِّ قائلٍ قالَ بهِ، لا لأنهُ فلانُ بنُ فلانٍ، ولكنْ لأن هذا هوَ باطلٌ.

فإذا كانَ هذا هوَ القَاعِدةُ الأساسُ في هذه الشريعة، وفي كلِّ حكمٍ مِنَ الأحكامِ، فإن الواجبَ علينَا معشرَ الشَّبابِ وطلابَ العلمِ ألا يَهمَّنَا فلانٌ ولا فلانٌ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا، فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، رقم (٢٣١١).

بل يهمُّنا الحقُّ أينما كانَ، وألا نتحزبَ لحزبٍ؛ لأن الدينَ الإسْلاميَّ ضدُّ الأحزابِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]. برَّأَ اللهُ رَسولَهُ مِن هؤلاءِ الَّذينَ فَرقُوا دينَهُم وكانُوا شيعًا، الَّذينَ ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣]، فلا حزبيةَ في الإسْلامِ، فالإسْلامُ أمةٌ واحدةٌ.

والتفرقُ في الدينِ الإسْلاميِّ مما تَقرُّ بهِ عينُ الأعداءِ، ألم تَعلمُوا أن أعداءَ الإسْلامِ إذا رأَوْا شبابَ الإسْلامِ والمتجهينَ إلى الإسْلامِ على هذا الحَالِ منَ التفرقِ فسوفَ يَفرحونَ، وسوفَ يُسرونَ؛ لأنهم بدلًا مِن أن يَدخلُوا المعركةَ معَ هؤلاءِ أهلِ الخيرِ والصلاحِ جَعلُوا المعاركَ بينَهُم، فتقرُّ أعينُهُم، ويفرحونَ بذلكَ.

فأرجُو -أيها الإخوةُ- أن تَكسِرُوا أعينَ هؤلاءِ الأعداءِ، وأن تَروا مِن أنفسِكُمُ الاتفاقَ والائتلافَ والوئامَ على الحقِّ، وأن تَدَعُوا هذا الخلافَ جانبًا، فإلى متى هذَا الخلافُ يا جماعةُ؟! إلى أن يَرتقيَ إلى خلافٍ مسلحٍ، سبحانَ اللهِ! يجبُ علينا أن نتفقَ، ويجبُ علينَا أن يَعذرَ أحدُنا أخاهُ فيما يمكنُ فيهِ الاجتهادُ، ثم يجبُ علينَا أيضًا إذا رأينَا مِن أحدٍ منا مخالفةً للحقِّ أن نتصلَ بهِ، وأن نُناقشَهُ مناقشةً هادئةً هادفةً مفيدةً، لا بعنفٍ ولا بانتقادٍ، ولا بانتصارٍ لأنفسِنَا.

وكثيرٌ منَ المناقشينَ يناقشُ بعنفٍ، حتى وإن كانَ يناقشُ مَن هوَ أكبرُ منهُ سنًّا، وأكبرُ وأكثرُ منهُ علمًا، وأقوى منهُ فقهًا، فتجدهُ يناقشُه وكأنما يناقشُ تلميذًا مِن تلاميذِهِ، ولا يَعرفُ لعالمٍ قدرًا ولا مكانًا، وهذا لا شكَّ أنهُ خلافُ الأدبِ مِن وجهٍ، وربما تأخذُ العَالِمَ العزةُ بالإثمِ فلا يَقبلُ.

لذلكَ إذا رأيتُم مِن أخيكُمْ شيئًا فلا مانعَ مِن أن تَتصلُوا بهِ وتناقشُوه، لكن

مناقشةً هادفةً هادئةً، لا حملا لهُ على أن يَتبعَكُم، ولا انتصارًا لأنفسِكم، ولا انتقادًا لما هوَ عليهِ، هذا إذا كنَّا نريدُ الحقَّ، أما إذا كنَّا نريدُ أن تنتصرَ آراؤُانا وأهواؤُنا، فهذا واللهِ هوَ البلاءُ.

أسألُ اللهَ أن يجمعَ قلوبَنَا على طاعتِهِ، وعلى العلمِ النَّافعِ، والعملِ الصَّالحِ.

فأوصيكَ ونفسِي بتركِ الخلافِ، والدعوةِ إلى الائتلافِ، ونبذِ هذهِ الآراءِ إلا ما وافقَ الحقَّ، وإلا ما كانَ عليهِ سلفُ الأُمةِ مِن طاعةِ اللهِ ورَسولِهِ، والإيمانِ باللهِ ورَسولِه، والاجتماعِ على كلمةِ الحقِّ، فإن هذا هوَ المنهجُ السليمُ، وقدْ قالَ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمةً تُوزنُ بالذهبِ: لَن يُصلحَ آخِرَ هذِهِ الأمةِ إلا مَا أَصلحَ أولها. وأما النزاعُ والخلافُ فهذا لا يجوزُ إطلاقًا.

وليُعلَم أن هناكَ أيدي خائبةً خاسرةً مفسدةً مدمرةً تريدُ مِنَ الشَّبابِ أن يَتفرقُوا، وتكتبُ في المجلاتِ، وتكتبُ في الصحفِ، وتكتبُ في النشراتِ مِن أجلِ تفريقِ الأمةِ، وفسادِ الأمةِ، وزوالِ أمنِها، وزوالِ دينِها، وزوالِ عيشِها الرغيدِ؛ لأنهم حاقدونَ، فلا يغرنّكُم هؤلاءِ، فبينكُم -والحمدُ للهِ- كتابُ اللهِ، وسنةُ رَسولِهِ ﷺ ومنهجُ السَّلفِ الصَّالحِ.

فهذا ما أَوْصَي بهِ، وأسألُ اللهَ تعالى أن يجعلَنَا وإياكُم منَ المتبعينَ، لا المبتدعينَ، فهؤلاءِ القومُ فيهمْ بلا شكٍّ شَبَهٌ بفرْعَونَ؛ لأن فرْعَونَ هوَ الذي جعلَ أهلَ الأرْضِ شيعًا، وفيهمْ شَبهٌ منَ الشَّيْطانِ؛ لأن الشَّيْطانَ هوَ الذي يريدُ أن يُوقعَ العَداوَةَ والبغضاءَ بينَ المسلمينَ، فهمْ رسلُ الشياطينِ، وهمْ ورثةُ فرْعَونَ.

فإياكُم أن تَغترُّوا بهمْ، فانبِذُوا آراءَهُم، وانبذُوا ما يَكتبونَ وما يَمحونَ بهِ ما دامَ مخالفًا للحقِّ، وما دامُوا يريدونَ أن يُفرّقُوا جماعتكُم ويُشتّتُوا شملَكُم، ويخالِفُوا بينَ آرائِكُم.

وأسألُ اللهَ وأبتهلُ إليهِ جَلَّ وَعَلَا أن يجمعَ شبابَ المسلمينَ على الحقِّ، وأن يعيذَهُم مِن أعدائِهم، وأن يَدحَرَ أولئكَ الأعداءَ بالذلِّ والخزيِ والعَارِ، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، والحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ.



الدَّرس الثَّاني:

الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبِيِّين، وإمَامِ المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالَى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص:٤-٦].

هذه آياتٌ عظِيمَةٌ ذَكَرَها اللهُ تعـالى عن حالِ فِرعونَ، وفِرعونُ كان مَلِكًا لمصْر، وكان مَلِكًا كافِرًا جبَّارًا مُتكبِّرًا، علَا في الأرْضِ، وجَعَلَ أهلها شِيَعًا، أي: فِرقًا؛ لأنه كُلَما تَفرَّقَتِ الأمَّةُ ضَعُفَتْ شَوكتُهَا، وقَلَّت هَيبَتُها، وتَخلَّلها أعدَاؤهَا، وإذا كانَتِ الأُمَّةُ كلَمتُها واحِدَةٌ، وقولها واحدٌ، واتجاهُها واحدٌ قَوِيَتْ، ولم يكُنْ لعَدُوِّهَا أيَّ مطْمَعٍ فيهَا؛ ولكن كَما قيلَ: (فَرِّقْ تَسُدْ). فإذا حَصَلَ التَّفَرُّقُ والتَّفريقُ اختَلَّتْ قوَّةُ الأُمَّةِ، وضاعَتْ هيبَتُهَا بينَ الأُمَمِ.

ولهذا كان مِنْ طريقَةِ فِرعونَ أنه جَعَلَ أهلَ الأرْضِ شِيَعًا وطوائفَ، يُضَلِّلُ بعضُهُم بعْضًا، ويُعادِي بعضُهم بعْضًا، ويُبْغِضُ بعضُهُم بَعْضًا، وفي هذا دَلِيلٌ على أَنَّه يجِبُ علينَا أن نَحْذَرَ مِنْ أعداءِ المسلِمِينَ، الَّذين يَحرِصُونَ على إلقَاءِ العَدَاوةِ بينَهُم، وإلقاءِ البَغضَاءِ والتَّفَرُّقِ، سواء كان ذلك على مُسْتَوى الحُكوماتِ الإسْلامِيَّةِ، أو على مستَوَى عُلماءِ المسلِمِينَ، فإن الواجِبَ على الجميعِ مِنْ وُلاةِ الأمورِ مِنَ الحُكامِ والعُلماءِ أن يَتَفَطَّنُوا لما يريدُ أعداؤهُم بِهِمْ من تَفريقِ كَلِمَتِهِمْ، وتمزِيقِهِمْ وشَتَاتِهِم، فإنه بذلك تَضِيعُ الهيبَةُ، وتختَلُّ القُوَّةُ.

يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الرَّجُلِ الطَّاغيةِ: إنه جَعَلَ أهلَ الأرْضِ شِيعًا لأجل التَّفريقِ بينَهُم، وجعلَهُم شِيعًا يستَضْعِفُ طائفةً منهم، وهي طائفةُ بَنِي إسرائيلَ الَّذين كانَ منها موسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يُذَبِّحُ أبنائهم، ويَسْتَحْيِي نساءهُم، قيل: إنَّه كانَ يفعلُ ذلِكَ؛ لأنه ذُكِرَ له أن رَجُلًا من بَنِي إسرائيل يخرجُ فيكونُ زوالُ مُلكِهِ على يدِهِ، وقِيلَ: إنه كان يفْعَلُ ذلك من أجلِ إضْعافِهِم؛ لأن الأُمَّةَ برِجَالها، فإذا فُقِدَ الرِّجالُ ولم يبقَ إلا النِّساءُ فلا أُمَّةَ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

ثم بَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إرادتَهُ التي لا رَادَّ لها، فقَالَ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾، وإنما قَصَّ الله ذلكَ لأجلِ أن يُطَمْئِنَ رَسولَ اللهِ ﷺ الذي كانَ في مكَّةَ، وكان أصْحابُهُ مستَضْعَفِينَ فيها، أن اللهَ تَعالَى سَيمُنَّ عليهم كما مَنَّ على بني إسْرائيلَ في عهْدِ فِرعونَ، حتى كانت العَاقِبَةُ لهُمْ.

وهكَذَا رَسولُ اللهِ ﷺ كانَ وأصحَابُهُ مستَضْعَفِينَ في الأرْضِ في مكَّةَ، ولكِنَّ العَاقِبَةَ كانَتْ لهم؛ لأنهم قامُوا باللهِ وقامُوا للهِ، وقامُوا في اللهِ، وكلُّ من قامَ على هذِهِ الأوصافِ الثَّلاثَةِ فإنه سوفَ يكونُ منْصُورًا في كلِّ حالٍ.

أما معنى قولِنَا: (قامَ باللهِ). فمعناهُ أنه استَعانَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولم يعتَمِدْ على قُوَّتِهِ، ولا على حولِهِ ولا على سُلطانِهِ، وإنما اعتمَدَ على قوَّةِ اللهِ وحولِهِ وسُلطانِهِ، اعتمَدَ على قوَّةِ الله معَ الأخْذِ بالأسبابِ التي أمَرَنَا اللهُ بها، كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

وأما مَعْنى قولِنَا: (قائمًا لله). فمَعْناهُ أن يكونَ قيامُهُ خالِصًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، لا يريدُ بقيامِهِ مدْحَ المَخلُوقِينَ، ولا ثَناءَ المَخلُوقِينَ، ولا التَّقرُّبَ إلى المَخلُوقِينَ، وإنما يريدُ بذلِكَ أن يكونَ قريبًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأن يَحظَى بمَدْحِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وثَنائِهِ، فإن ذلك هو الذي يَنفَعُ العبْدَ، أن يكونَ مُخلِصًا للهِ في عمَلِهِ لا يُبالي، ولا تأخُذُهُ في الله لومَةُ لائمٍ، فإنه بذلك يكونُ مَنصُورًا مُؤَيَّدًا مُظَفَّرًا.

وأما قولُنَا: (في اللهِ). فإنَّ (في) للظَّرفِيَّةِ، والمعنَى: أن يكونَ قِيامُهُ هذا في شَريعَةِ اللهِ، وعلى حسَبِ شريعَةِ الله، وعلى حسَبِ ما أمَرَ الله بِهِ من الدَّعْوَةِ إلى اللهِ تَعالَى بالحكْمَةِ وبالموعِظَةِ الحسَنَةِ، وبالمجادَلَةِ بالتي هي أحسَنُ.

فكلُّ من قامَ للهِ وباللهِ وفي اللهِ؛ فإن العَاقِبَةَ تكونُ لَهُ، ولهذا قالَ اللهُ -سبحانه-: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وهذا كُلُّهُ كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ القادِرُ على كلِّ شيءٍ، الذي بيدِهِ ملَكُوتُ كلِّ شيءٍ.

وما فاتَ الأُمَّةَ الإسْلامِيَّةَ مِنَ النَّصْرِ، وما فاتَها مِنَ العِزَّةِ إلا بسببِ عدَمِ الأخْذِ بتَوجِيهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وبسَببِ إخْلالها بأمرٍ من هذِهِ الأمورِ الثَّلاثَةِ، إما أنَّها لم تَقُمْ للهِ، أو أنها لم تَقُمْ باللهِ، أو أنها لم تَقُمْ في اللهِ، ولو أنها فَعلَت ذلك لكانَ لها النَّصْرُ المبينُ.

والواجِبُ علينا أن نتبَيَّنَ وأن نَعْرِفَ ما يريدُ بنا أعداؤنَا من تَفريقِ كَلِمَتِنَا، وتفريقِ صُفُوفِنَا، والواجبُ كذلِكَ على أهلِ العِلْمِ أن يجتَمِعُوا على كلِمَةٍ سواءٍ بينهُم، أن يجتَمِعُوا على كَلِمَةِ اللهِ، أن يجتَمِعُوا على شريعَةِ الله، أن ينْصَحَ بعضُهم

بعضًا، أن يكونَ مرادُ الجَمِيعِ هو الحَقُّ، لأن ذلك هو الواجِبُ عليهِمْ، ولا يجوزُ لهَمُ أن يتَفَرَّقُوا شِيَعًا، وأن يكونَ لكُلِّ واحدٍ منهم رأيٌ يخالِفُ الآخَرَ، إلا إذا كان ذلِكَ عن محْضِ اجتِهَادٍ وإخْلاصٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإن الإِنْسانَ لا يُمكِنُه أن يُلزَمَ بقولِ غَيرِهِ، إذا كان يَرَى أن الحَقَّ في خِلافِهِ، بل الواجِبُ عليه أن يتَّبِعَ ما دَلَّ عليه الحَقُّ وإن خالَفَهُ مَن خالَفَهُ، إلا أن يكونَ في ذلِكَ خارِجًا عن إجماعِ المسْلِمينَ، فإن الخُروجَ عن إجماعِ المسلِمِينَ ضَلالٌ؛ لأَنَّ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النِّساء:١١٥]، ويقولُ تَعالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النِّساء:٥٩]، فدَلَّ هذا عَلَى أن محَلَّ الوفاقِ من أهْلِ العِلْمِ أنه حُجَّةٌ، وإلا لا احتاجَ إلى الرَّدِّ إلى الكتابِ والسُّنَّةِ حتى مَعَ الاتِّفاقِ.



الدرس الثالث:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القَصَص:٧-١٣].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القَصَص:٧] هَذَا الوَحْيُ لَيْسَ وحْيَ نُبُوَّةٍ أوْ رِسالَةٍ؛ لأَنَّهُ لَا يُنبَّأُ إِلَّا الرِّجالُ، ولا يُوحَى إِلَّا إِلَى الرِّجالِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يُوسُف:١٠٩].

إِذَنْ: أَوْحَيْنَا إِلَيْهَا وحْيَ إِلْهَامٍ، ووَحْيُ الإِلْهَامِ يَكُونُ للرِّجالِ والنِّساءِ والبهائِمِ، مِثالُهُ فِي البهائِمِ قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النَّحْل:٦٨] هَذَا وَحْيُ إِلْهَامٍ.

أَوْحَى اللهُ إِلَى أُمِّ مُوسَى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: مِن فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ؛ لأَنَّهُ يُذَبِّحُ أَبْناءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ويَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ يَعْنِي البَحْرَ ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ [القَصَص:٧] لَا تَخافِي عَنْ مُسْتَقْبَلِهِ، ولا تَحْزَنِي عَنْ مَاضِيهِ.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧] بُشْرَيانِ عَظِيمانِ:

الأُولَى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾.

الثَّانِيةُ: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وأعْظَمُهما الثَّانِيةُ، أنْ يَكُونَ مِنَ المُرْسَلِينَ، فآمَنَتْ باللهِ، وألْقَتْهُ فِي اليَمِّ، جعَلَتْهُ فِي تَابُوتٍ، وألْقَتْهُ فِي اليَمِّ فِي البَحْرِ، وهَذَا إيمانٌ راسِخٌ، وإلَّا فأيُّ أُمٍّ تَسْتَطِيعُ أنْ تُلْقِيَ رَضِيعَهَا فِي البَحْرِ لوْلَا الإيمانُ؟!

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ سُبْحَانَ اللهِ! هَذَا الَّذِي تُقْتَلُ بَنُو إسْرَائِيلَ خَوْفًا منهُ، صارَ فِي أحْضانِ فِرْعَوْنَ، قُدْرَةٌ إلَهِيَّةٌ عَجِيبَةٌ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] اللامُ هُنَا للعاقِبَةِ، أيِ: الْتَقَطُوهُ حتَّى صارَتْ عاقِبَتُهُ أنَّهُ عَدُوٌّ لهمْ وحَزَنٌ.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص:٨] فِرْعَوْنُ هُوَ الكَبِيرُ، وهامانُ هُوَ الوزِيرُ، وجُنُودُهُما كانُوا خاطِئِينَ.

﴿وَقَالَتْ﴾ يَعْنِي أُمُّ مُوسَى ﴿لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١] أيْ: تَتَبَّعِي أَثَرَهُ أيْنَ ذهَبَ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:١١] يَعْنِي: بَصُرَتِ الأُخْتُ ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أيْ: عَنْ بُعْدٍ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:١١].

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص:١٢] لَمْ يَرْضَعْ مُوسَى مِنِ امْرأةٍ قطُّ حتَّى رَدَّهُ اللهُ إلَى أُمِّهِ.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص:١٢] فجاءَتْ أُخْتُهُ والنَّاسُ يَبْحَثُونَ: مَنْ يُرْضِعُ هَذَا الطِّفْلَ ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ

نَٰصِحُونَ﴾ [القَصَص:١٢] لَمْ تَقُلْ: هلْ أَدُلُّكُم عَلَى أُمِّهِ؟ بلْ قالتْ: ﴿عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ﴾ وهَذَا صَحِيحٌ أَنَّهُمْ أَهْلُ بَيْتٍ ﴿يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القَصَص:١٢].

قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القَصَص:١٣]رَدَّهُ اللهُ إِلَى أُمِّهِ قَبْلَ أنْ يَرْضَعَ مِنْ ثَدْيِ أيِّ أُنْثَى ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لأنَّ الله تَعالَى لَا يُخْلِفُ المِيعادَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ:٩].

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطَّلَاقِ:٤]وهَذَا حَقٌّ، فلوِ اتَّقَيْنَا اللهَ عَزَّوَجَلَّ لجَعَلَ لنا مِنَ الأمورِ العَسِيرَةِ يُسْرًا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق:٢]أيْ: مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ ضِيقٍ ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطَّلَاقِ:٣] وهَذَا وعْدٌ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [يُونُس:٥٥].

لكنِ البلاءُ منَّا نحنُ، فلوِ ادَّعَيْنَا أَنَّنا نَتَّقِي اللهَ قَدْ تكونُ تَقْوانَا ضَعِيفَةً، قَدْ تكونُ ضَعِيفَةً مِنْ جِهَةِ التَّطْبِيقِ، وقدْ تَكُونُ ضَعِيفَةً مِنْ جِهَةِ القَلْبِ، فكمْ مِنْ إِنْسَانٍ يُصَلِّي صَلاةً إذَا رَأَيْتَهَا قُلْتَ: مَا أَحْسَنَ هَذِهِ الصَّلاةَ! وهُوَ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ذَكَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنِ الخَوارِجِ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى وُلاةِ الأُمورِ وقَاتَلُوهُمْ أَنَّهُمْ يَصُومُونَ ويَقْرَؤُونَ القُرْآنَ، وأَنَّ الصَّحابَةَ يَحْقُرُونَ صَلاتَهُمْ عِنْدَ صَلاتِهِمْ، وقِراءَتَهُمْ عندَ قِراءَتِهِمْ، لكنَّهُمْ كما قَالَ الرَّسُولُ: يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لَا يَتَجاوَزُ حَناجِرَهُمْ، والحناجِرُ هِيَ أسْفَلُ القَصَبَةِ، أيْ: لَا يَدْخُلُ القُلُوبَ، فالعِبْرَةُ بالقَلْبِ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [يُونُس:٥٥].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [القَصَص:١٤]

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أيْ: غايَةَ قُوَّتِهِ ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أيْ: كَمُلَ، حينئذٍ صارَ أهْلًا للرِّسالَةِ، أتاهُ اللهُ الحُكْمَ والعِلْمَ، الحُكْمَ بما أنْزَلَ مِنَ الشَّرِيعَةِ، والعِلْمَ بما عَلَّمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في التَّوْرَاةِ.



الدَّرس الرابع:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالِمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد سَمِعتم قولَ الله عَزَّوَجَلَّ لِلنَّبيِّ ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦]، وسَببُ هَذه الآيةِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ حَرَصَ عَلى أَنْ يَهديَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَمَّه أبَا طَالِب؛ لأنَّ عَمَّه أبا طَالِب كانَ يَحُوطُ النَّبيَّ ﷺ ويَحمِيه مِن أعدَائِه وَيَنصُره نَصرًا عَزيزًا؛ حتَّى إنَّه كانَ فِي قَصَائِده وأشعَارِه يُثنِي عَليه، يَقولُ فِي لامِيَّته المَشهُورةِ الَّتِي قالَ عَنها ابنُ كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «هَذِهِ قَصِيدَةٌ عَظِيمَةٌ فَصِيحَةٌ بَلِيغَةٌ جِدًّا؛ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولها إِلَّا مَنْ نُسِبَتْ إِلَيْهِ، وَهِيَ أَفْحَلُ مِنَ المُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ، وَأَبْلَغُ فِي تَأْدِيَةِ المَعْنَى مِنْهَا جَمِيعًا، وَقَدْ أَوْرَدَهَا الأُمَوِيُّ فِي مَغَازِيهِ مُطَوَّلَةً بِزِيَادَاتٍ أُخَرَ».

والمُعلَّقاتُ هِي قَصَائدُ عَظيمةٌ عِند العَربِ كانُوا يُعلِّقُونهَا عَلى الكعبَةِ تَعظِيمًا لها[٢]، يَقولُ:

لَقَدْ عَلِمُـوا أَنَّ ابنَنَـا لا مُكَـذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَـى بِقَـوْلِ الأَبَاطِـلِ

يَعنِي لا هُو كاذِبٌ ولا سَاحِرٌ، ويَقولُ أيضًا[٣]:

وَلَقَـدْ عَلِمْـتُ بِـأَنَّ دِيـنَ مُحَمَّـدٍ ... مِـنْ خَـيرِ أَدْيَـانِ البَرِيَّـةِ دِينَـا

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٤/ ١٤٣).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

(٣) دلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ١٨٨)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦).

لَـوْلَا المَلامَـةُ أَوْ حِـذارُ مَسَبَّةٍ لوَجَـدْتَني سَـمْحًا بِـذَاكَ مُبِينـا

وَقِصَّتُه مَع النَّبيِّ ﷺ فِي نَصرِه إيَّاه والدِّفاعِ عَنه مَشهُورةٌ مُعلومَةٌ؛ ولهَذا حَرَصَ النَّبيُّ ﷺ أَنْ يَهديَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولَكِنْ قالَ ربُّ العِزَّةِ والجَلالِ: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف:١٨٦]. اللَّهُم اهدِنا فِيمَن هَديتَ.

جَاءهُ النَّبيُّ ﷺ وهُو فِي سِيَاقِ المَوتِ وقالَ لهُ بِكلامٍ رَقِيقٍ عَاطِفيٍّ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[1]، انظُر إِلَى الرَّسُول ﷺ كَيفَ تَحرّزه، يَقولُ: «أُحَاجُّ»، يَعنِي مَا جَزَمَ بأنَّها تَنْفَعُهُ؛ لأَنَّه قد حَضَرَه المَوتُ، وَكانَ عِندَه جُلسَاءُ السُّوءِ، جُلسَاءُ السُّوءِ الَّذِين وَصَفَ النَّبيُّ ﷺ إيَّاهُم بأَنَّهم كـ«نَافِخُ الكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[2]، كانَ عِندَه رَجُلان مِن قُريش، فَقَالا لهُ: أَترغَبُ عَنْ مِلَّة عَبدِ المُطَّلبِ، ومَا مِلَّةُ عَبد المُطَّلب؟ الشِّركُ واتِّخاذُ الأَصنامِ، فكانَ آخِرُ مَا قالَ: هُو عَلى مِلَّة عَبد المُطَّلبِ. أعُوذُ بِالله، اللَّهُم اختِم لنَا بالخَاتِمَة الحُسنَى يَا ربَّ العَالِمين، اللَّهُم أحسِن خَاتِمَتَنَا وَتوفَّنا عَلى الإِيمَان والتَّوحِيد، نَعُوذ بالله مِنَ الضَّلالِ، قالَ: هُو عَلى مِلَّةِ عَبدِ المُطلبِ. هَذا آخِرُ مَا قالَ، فَماتَ إِذَنْ عَلى الشِّركِ.

وَلا شَكَّ أنَّ الرَّسُولَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سوفَ يَتأثَّرُ، هَذا الرَّجُل الَّذِي دَافَع عَنِ النَّبيِّ ﷺ وَعَنْ دِينِ الرَّسُول وَنَصَرَهُ تكونُ خَاتِمَتُه خَاتِمَةَ سُوء، هَذا مِمَّا يُؤسَف

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٢١٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصَّالحين، رقم (٢٦٢٨).

لهُ، ويُحزَن عليهِ، فقالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَم أُنْهَ عَنْكَ**»[1]، فأنزَل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ مِثل عَمِّ الرَّسُول، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]. وَمَن مَاتَ عَلى الشِّركِ فقد تبيَّنَ لنا أنَّه مِن أصحَابِ الجَحِيمِ.

وبِالنِّسبَة لِلهِدَايَة قالَ الله لِرَسُولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الهِدايَة بِيَدِ الله، وَلَكِنْ عَلى الإنسَانِ أَنْ يَفعَلَ الأسبَابَ، ولهَذا لا يحتَجُّ عَلينَا أولئكَ الَّذِينَ أهملُوا أبناءَهُم وَبنَاتِهم، وَلَم يُربُّوهم، وَلَم يَرْعَوْهُمْ فَيَقُولُ: الهِدَايَة بِيَدِ الله. نَقولُ: افعَلِ السَّبَبَ، وَلَكِنْ إِذَا فعَلتَ السَّببَ، وَلَم يحصُل المَطلُوب، فحِينئذٍ سَلِّمِ الأَمْرَ لله كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[2].

المُهِمُّ افعَلِ السَّبَبَ، وإِذَا كَانَ الله لا يُريدُ هِدَايَتَهُمْ فَلَنْ تَهْدِيَهُمْ، فَكَمْ مِن إنسَانٍ كانَ عَلى ضَلالٍ ثُمَّ مَنَّ الله عَليه بِالهِدَايَةِ، يَسَّر الله لهُ قُرنَاء صَالِحِين فاهتَدَى عَلى أيدِيهِم، وهَذا -والحَمدُ لله- يُوجَد كثِيرًا فِي الشَّبابِ، اهتدَى كَثِيرٌ مِنَ الشَّبابِ -والحَمدُ لله- وصَارُوا مُلتزِمين، وصَارُوا يَأمُرُون بِالمَعرُوف، وينهَوْن عَنِ المُنْكَرِ بَعد أَنْ كَانُوا عَلَى مُنكَرٍ، ويَأمُرُون بالمُنكرِ، لَكِنْ فَضلُ الله يُؤتيهِ مَن يَشاءُ.

المُهِمُّ أنَّ اللهَ قالَ مُسليًا رَسُولَهُ ﷺ قالَ لهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

انظُر كَيفَ أنَّ الله يُسلِّي الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ كَما قالَ لهُ فِي المُشركِين: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام:١٠٧]. تَسلِيةً لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتَّى يَعلَم أنَّ مَا قَضَاهُ الله تَعالَى فَهُو فَوقَ كلِّ شَيءٍ لا مَانِعَ لِمَا أعطَى، وَلا مُعطِيَ لِمَا مَنعَ.



الدَّرس الخامس:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبِيِّينَ وإمام المتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأَصْحابِه ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦].

قوله: ﴿ إِنَّكَ ﴾ الخطاب للرَسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم، يقول الله له: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أي لا تملِك أن تهديَه، قال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف:١٨٦] لا رَسول الله ولا غيره، فلا يمكن أن تَهديَ من أضلَّه اللهُ أبدًا، حتَّى لو كنت تحبُّ أن يهتديَ فإنَّه لا يمكِن أن يهتديَ، فما دام الله قد قَضى عليه بالضلالةِ فلا يمكِن لأحدٍ أن يهديَه أبدًا.

وهذه الآيةُ نزلتْ في أبي طالبٍ عمِّ النبيِّ ﷺ شَقيقِ أبيه، وكان هذا الرَّجلُ قد نصرَ النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ وآواهُ ودافعَ عنه أشدَّ المدافعةِ، حتَّى إنَّه في قصيدته اللاميَّةِ المشهورةِ -الَّتي قال عنها ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَهِيَ أَفْحَلُ مِنَ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ، وَأَبْلَغُ فِي تَأْدِيَةِ المَعْنَى فيها جَمِيعًا»[1]؛ لأنَّ العربَ في الجاهليَّة اختاروا سبعَ قصائدَ عظيمةٍ فخمةٍ وعلَّقوها في الكعْبةِ- الَّتي قالها في ابنِ أخيهِ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم؛ من جُملة ما قال فيها[2]:

لقد علِمـوا أنَّ ابننـا لا مُكَـذَّبٌ لَدَيْنا ولا يُعْنَـى بِقَـوْلِ الأباطِـلِ

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٧٤).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

(لقد علموا) أي قريش (أن ابننا) يعني مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم (لا مكذَّب لدينا) بل هو مُصدَّق، (ولا يُعْنَى بقول الأباطل) أي بقولِ أهلِ الباطلِ، أو بقول السَّحَرة. فهذه شهادة بأن مُحَمَّدًا ﷺ صادق وعلى حقٍّ.

وقال أيضًا في دين الإِسْلام[1]:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارِ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

والمهمُّ أن الرَّجلَ أَسدَى مَعروفًا كبيرًا إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم، ولَمَّا حَضَرَتْه الوفاةُ كان عنده النبيُّ ﷺ ورجلانِ مُشركانِ من قريشٍ، فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم: «يَا عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ». فإذا هَمَّ أن يقولها قال له الرَّجلان المشركان: «يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟». وعبدُ المطلبِ زعيمٌ من زعماء قريش، له السيادة في قريشٍ، ولهذا انتسب النبي ﷺ إليه في غزوةِ حُنين دون أبيه، حيث قال[2]:

أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ

وأبوهُ المباشِرُ هو عبدُ اللهِ، لكنه لَمَّا كان عبد المطلب مَشهورًا في قُريش وسيِّدًا فيهم انتَسَبَ إليه، كما جرتِ العَادةُ أن الإِنْسانَ يَنتسِب إلى أشرفِ آبائِهِ وأجدادِهِ، وأبلغهم في السيادةِ.

---

(١) دلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ١٨٨)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦).

المهمُّ قالَ الرَّجلانِ المشركانِ لأبِي طالبٍ: «يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟» ومِلَّةُ عبدِ المُطَّلِبِ عِبَادةُ اللَّاتِ والعُزَّى ومَنَاة وهُبَل وما أَشْبَهَهَا. حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلمهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[1]. نسأل الله العَافية.

فهذه خـاتمة سيِّئة، ولو قالها لحَـاجَّ بها النبيُّ ﷺ عند اللهِ؛ لأن الأعمال بالخواتيم[2]. اللَّهُمَّ أحسِنْ خاتمتنا، اللَّهُمَّ أحسن خاتمتنا، اللَّهُمَّ أحسن خاتمتنا، اللَّهُمَّ اجعلها على الإيمانِ والتوحيدِ، اللَّهُمَّ اجعلها على الإيمانِ والتوحيدِ، اللَّهُمَّ اجعلها على الإيمان والتوحيد، اللَّهُمَّ أَمِتْنـا على كلمةِ الإخـلاصِ، وابعثنا عليها يا ربَّ العَالمينَ.

فالعِبرةُ بالخواتيمِ يا إخواني، ولكني أقـول: واللهِ! لَلهُ أكرمُ بعبادِه، واللهِ ما أحسنَ أحدٌ المعاملةَ مع اللهِ بإخلاصٍ إلَّا أحسنَ اللهُ له الخَاتمةَ، وإذا كان في القلبِ شيءٌ من الخُبثِ والبلاءِ فإنَّه حريٌّ أن يُحرَم من حُسْن الخَاتمةِ، أجارنا اللهُ وإياكم من هذا.

المهم أنَّ النَّبِيَّ ﷺ حزِن لهذا، أن يكونَ هذا العمُّ الشَّفيقُ الرفيقُ المدافِعُ الَّذِي يَحُوط[3] النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ وينصُره، يكون مآله أن يموتَ على الشِّرك، فلا شَكَّ أَنَّه سوف يهتمُّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويحزَن، فأنزلَ اللهُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

(٢) أخرج البخاري: كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم، رقم (٦٦٠٧) أنه ﷺ قال: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ**».

(٣) حاطه: رعاه. مختار الصحاح (حوط).

عليه هذه الآيةَ تسريةً له حتَّى لا يحزنَ، وهي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. اللَّهُمَّ اهدنا فيمَن هديتَ.

إن الهدايةَ بيدِ اللهِ، وكم من إِنْسانٍ تأتيهِ النصائحُ من كل جانبٍ ومن كلِّ شَفيقٍ عليه، ولكن لا يَهتدي، وكم من إِنْسانٍ يَهتدي بأدنى كلمةٍ، بل إني أعلم أن أُناسًا كانوا على جانبٍ من الفُسُوق، فأُصيبوا بمصائبَ، فكانت هذه المصائبُ فتحًا فهداهمُ اللهُ.

فالمهمُّ أن القلوبَ بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يستطيع أحدٌ أن يهديَ أحدًا من دونِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ لأن الحُكْمَ حُكْمُه تَعالَى، والمُلْكَ مُلْكُه، والأمرَ أمرُه، والتدبيرَ تدبيرُه، فلا أحدَ يستطيع أن يعملَ شيئًا دون الله عَزَّوَجَلَّ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: وهل يَهدي اللهُ الإِنْسانَ لمجرَّد المشيئةِ، وهل يُضِلُّه لمجرَّد المشيئةِ بدون حكمةٍ؟

فالجواب: لا، فلا يهدي إلَّا مَن هو أهلٌ للهدايةِ، ولا يُضِلُّ إلَّا مَن هو أهلٌ للإضلالِ، ولهذا ختمَ الآيةَ بقولِه: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أعلم بمَن يَسْتَحِقُّ الهدايةَ -اللَّهُمَّ اهْدِنا فيمن هديتَ- قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩]، أي أنَّهم لم يَتوَلَّوْا إلَّا لأنهم فَعَلوا ما يَسْتَحِقُّون أن يَتوَلَّوْا من أجْلِه.

وقال تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فلا يُرسِل إلَّا مَن علِم أنَّه أهلٌ للرسالةِ، ولا يَهدي للرسالةِ إلَّا مَن علِم أنَّه أهلٌ للهدايةِ، قال الله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

إن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أكرم من أن يُضِلَّ أحدًا ليس أهلًا للإضلالِ، بل هو جَلَّوَعَلَا يهدي مَن يشاء، إذا كان هذا المهديُّ أهلًا للهدايةِ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: ما الجمع بين هذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وبين قوله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]؟ أثبت له الهدايةَ بعد أن نفَى عنه الهدايةَ، فكيف نَجمَع بينهما؟

قلنا: هناك قاعدة قبل أن نُجيبَ عن هذا السؤالِ، وهي أن تَعلموا -بارك الله فيكم- أَنَّه لا يمكِن أن يكونَ في القُرآنِ تناقُضٌ أبدًا؛ لأن الَّذِي نزَّله هو الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أصدقُ القائلينَ، والتناقُض يَلزَم منه تكذيبُ أحدِ الأمرينِ، والله عَزَّوَجَلَّ أصدقُ القائلينَ، فلا يمكِن أن يكونَ في كلامِه تناقُض، وإذا قُدِّرَ أن إِنْسانًا توهَّم التناقُضَ فالبلاءُ في فَهْمِه، وليس البلاءُ بحسَب الواقِع، فالواقعُ أن القُرآنَ ما فيه تناقُض، واسمع رب العَالمين يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢]، أما وهو من عند الله فلا اختلاف ولا تناقُض.

ثانيًا: صحيحُ السنَّة -وانتبه لقولي: صَحيحٌ- لا يُمكِن أن يكونَ فيه تناقُضٌ، أما الضعيفُ فيمكِن أن يكونَ فيهِ تناقُضٌ؛ لأن الضعيفَ لا يصِح أن يُنسَب إلى الرَّسُول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، لكن صحيحَ السنَّةِ لا يمكِن أن يكون فيهِ تناقضٌ.

فالقُرآنُ الكرِيمُ لا يُمكِن أن يكونَ فِيه تناقُضٌ، وصحيحُ السنَّة لَا يُمكِن أن يكُونَ فِيه تناقُضٌ.

وكذلك القُرآنُ وصحيحُ السنَّةِ لا يمكِن أن يكونَ بينهما تناقضٌ؛ لأنَّ الكلَّ شرعُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإذا علِمتَ هذا فاعلمْ أن قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

لا يناقض قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾؛ لأن الهدايةَ نوعانِ:

النوعُ الأولُ: هداية دَلالةٍ وبَيان، وهذه تكون للرَسول ﷺ ولغيره، وتكون أيضًا للكافِر والمؤْمِن، حتَّى الكَافِر مهديٌّ بهذه الهدايةِ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:١-٢] فالَّذِي جُعل سميعًا بصيرًا هو الإِنْسانُ، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]. فكلهم هُدُوا السبيلَ، وكلهم بُيِّنَ لهم، وكلهم لم يكن لهم على الله حُجَّة؛ لأن الله بَيَّن.

وقال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ بعدها؟ ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]. ومعنى هديناهم: بَيَّنَّا لهم، ووضَّحنا لهم الآياتِ، ولكنَّهم لم يَهْتَدُوا والعياذُ باللهِ.

إذن فهداية الدلالةِ والبيانِ تكون للرَسولِ ﷺ ولغيرِه، وتكونُ منَ اللهِ ومن غيرِه، وتكونُ للمؤمنِ والكَافِرِ.

النوعُ الثَّاني: هدايةُ توفيقٍ، بمعنى أن يهتديَ الإِنْسانُ بهدايةِ اللهِ ويُوفَّق للعملِ بها، وهذه لا يَملِكها إلَّا ربُّ العَالمينَ، الَّذِي نسأله تَعَالَىٰ أن يَهدِيَنا، ولا تكون للرَسولِ ولا لغيرِه من الرسلِ، ولا تكون للأبِ الشَّفيق على ابنِه، ولا للقريبِ على قريبِهِ أبدًا، فما تكون إلَّا للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يُوَفَّقُ لها إلَّا المؤمِن.

ولهذا لو سألَنا سائلٌ فقال: هل الكَافِر مهديٌّ أم غير مهديٍّ؟

فإننا نقول: أما هداية البيانِ والإرشادِ فقد هُدِيَ وبُيِّنَ له، وأما هدايةُ التوفيقِ فإنَّه لم يُوَفَّق لها ولم يَهتدِ.

والهداية المُثْبَتَةُ للرسولِ هي هدايةُ الدلالةِ والبيانِ، والهداية المنفيَّة عن الرَّسُولِ وغيرِه إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ هي هداية التوفيق.

إذن ليس في الآيتينِ تناقُض أبدًا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي هداية تَوفيق، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي هداية بَيان ودلالةٍ.

النبي ﷺ قد بَيَّن للأُمَّة كلَّ ما تحتاج إليه:

وإنني بهذه المناسبة أقول: إن النبي ﷺ قد بَيَّن للأُمَّة كلَّ ما تحتاج إليه، بَيَّنه إما بقولِه، وإما بفعلِه، وإما بإقرارِه، بيَّن ذلك بيانًا واضحًا، فما ترك شيئًا تحتاجُ الأُمة إليه إلَّا بيَّنه، واسمع قولَ اللهِ تَعَالَى الَّذي نزلَ والنبيُّ ﷺ واقفٌ بعرفةَ يومَ الجُمُعَة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فكلُّ شيءٍ بيَّنَه الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكلُّ ما تحتاجُ الأُمة إليه بيَّنه.

فقد بَيَّنَ آدابَ الأكلِ والشربِ القوليَّة والفعليَّة: كُلْ باليمينِ، وسَمِّ اللهَ عند الأكلِ، واحْمَدِ اللهَ عند الأكلِ.

وبَيَّن الرَّسُولُ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم- الآدابَ القوليَّة والفعليَّة عند إخراجِ هذا الطَّعامِ؛ أي عند البولِ والغائطِ، فإذا دخلتَ الخَلَاء فقلْ: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الخُبْثِ وَالخَبَائِثِ**»(١)، وإذا خرجتَ فقلْ: «**غُفْرَانَكَ**»(٢) «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما يقول عند الخلاء، رقم (١٤٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب ما يقول إذا أراد دخول الخلاء، رقم (٣٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب ما يقول الرَّجل إذا خرج من الخلاء، رقم (٣٠)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم (٧)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم (٣٠٠).

الأَذَى وَعَافَانِي»[١].

وبَيَّنَ آدابَ النومِ، فهناك أذكارٌ عند المَنام، وهناك أذكار عند الاستيقاظِ، بل بَيَّنَ أذكار إتيانِ الرَّجلِ لامرأتِه: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ**» أي ذكَر أو أُنثى «**لَم يَضُرَّهُ**»[٢].

وبيَّن آدابَ الدخولِ، وآدابَ الخروجِ من البيتِ، وكل شيءٍ بَيَّنَه، قال أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْمًا**»[٣].

فكلُّ شيءٍ بَيَّنَه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبهذا نعرِف أن الَّذِينَ يَبتدِعون في دينِ اللهِ ما لم يأتِ عن رَسولِ اللهِ قد ضَلُّوا، حتَّى ولو كان أصلُ البدعةِ ثابتًا.

والتَّسبيحُ حقٌّ، والتَّحميدُ حق، والتَّكبيرُ حق، والتَّهليلُ حق، فإذا ركَّبنا هذه الأشياءَ على صفةٍ معيَّنة لم تَرِدْ بها الشريعةُ صارتْ بدعةً في وصفها وليس في أصلها، والأصلُ في العِبادَاتِ التحريمُ إلَّا ما ثَبَتَتْ به الشريعةُ؛ لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[٤].

فهذه قاعدة: الأصلُ في العِبادَاتِ التحريمُ حتَّى يقومَ دليلٌ على أنَّها مشروعةٌ،

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم (٣٠١).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، رقم (١٤١)، ومسلم: كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، رقم (١٤٣٤).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣).
(٤) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

والأصل في غيرها الحِلُّ حتَّى يأتيَ دليلٌ على التحريمِ. واحفظْ هذا البيت[١]:

والأصلُ في الأشياءِ حِلٌّ وامْنَعِ عبـــادةً إلَّا بـــإذنِ الشَّـــارعِ

فهذانِ أصلانِ: الأصل في الأشياء الحِلُّ إلَّا ما وردَ تحريمُه، والأصلُ في العِبادَاتِ المنعُ إلَّا ما وردتْ شَرعِيَّتُه.

فصار القُرآن الكريم، وما صحَّ عن النبيِّ ﷺ لا يمكِن أن يكون فيه تناقضٌ.

إذن الهدايةُ نوعانِ: هدايةُ دلالةٍ وبيانٍ، وهذه تكون من الله، ومن رُسُل اللهِ، ومن العُلَماء الَّذِينَ ورِثوا الأنبياء. وهداية توفيق، وهي للهِ وحدَه، لا يملِكها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرسَلٌ.

إذن فلا يجوز أن يقف إِنْسان على قبر النبيِّ ﷺ ويقول: يا رَسول الله، اهدني، فهذا شِركٌ أكبرُ مُخرِج عنِ المِلَّة، يعني مَنِ اعتقدَ هذا فإنه لا تنفعُه صلاةٌ ولا صدقاتٌ ولا صيامٌ ولا حجٌّ، فكيف يقول: يا رَسولَ اللهِ اهْدِنِي، والله يقول له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾؟! ولو وقَف على قبر وليٍّ؛ رجلٌ معروف بالصَّلاح والاستِقامَة والخيرِ، وقال: يا سيدي، اهدني إلى الحقِّ، فهذا حرامٌ وشِركٌ أكبرُ، وهذا المسكينُ الَّذِي يأتي إلى القبرِ ويقول: اهدني أو ارْزُقْنِي أو هاتِ لي الولدَ أو هات لي زوجةً، هذا لو صلَّى فما تنفعه صلاتُه؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]. فإذا كان جاهلًا، فعَلِّمْه حتَّى تُبْرِئَ ذِمَّتَكَ ويَنتفِعَ أخوك.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصَّالحَاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَم على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

---

(١) من منظومة أصول الفقه وقواعده لفضيلة شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الدَّرس السادس:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبيِّينَ وإمام المتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأصْحابِهِ ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قَالَ اللهُ تَعالَى لِنَبِيِّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ والنَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم يُحِبُّ أَنْ يَهْدِيَ كُلَّ مَنْ يستطيعُ أَنْ يَهْدِيَه ولِذَلِكَ كَانَ يدعو النَّاسَ ليهتدوا، وَهُوَ لَا يمكنُ أَنْ يَهْدِيَ مَنْ أَحَبَّ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩].

ومِنْ أخصِّ ذَلِكَ عَمُّه أبو طالبٍ، فعمُّه أبو طالبٍ دَافَعَ دُونَهُ وحَمَاهُ ونَصَرَه حَتَّى كَانَ يقولُ فِي قصيدتِه اللاميةِ المشهورةِ الَّتِي قَالَ عنها ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَذِهِ قَصِيدَةٌ عَظِيمَةٌ فَصِيحَةٌ بَلِيغَةٌ جِدًّا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولها إِلَّا مَنْ نُسِبَتْ إِلَيْهِ، وَهِيَ أَفْحَلُ مِنَ المُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ، وَأَبْلَغُ فِي تَأْدِيَةِ المَعْنَى مِنْهَا جَمِيعًا[1]. قَالَ فيها يخاطبُ أو يتحدثُ عن قريشٍ[2]:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

لقد عَلِمُوا: يَعْنِي قريشًا، أَنَّ ابنَنَا لَا مكذبٌ لدينا، وابنُه: محمدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لِأَنَّ اللهَ أَلْقَى فِي قلبِ أبي طالبٍ محبةَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والأباطلُ: أي قولُ السحرةِ، وَهَذَا تصديقٌ منه.

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٤/ ١٤٣).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

ويقولُ أيضًا[(١)]:

وَعَرَضْتَ دِينًا قَـدْ عَرَفْـتُ بِأَنَّـهُ ... مِـنْ خَـيْرِ أَدْيَـانِ البَرِيَّـةِ دِينَـا

لَـوْلَا المَلَامَـةُ أَوْ حَـذَارِيَ سُبَّةٍ ... لوَجَـدْتَني سَـمْحًا بِـذَاكَ مُبِينَـا

وَهَذِهِ شهادةٌ بأنَّ دينَ محمدٍ حقٌّ لَكِنَّه لم يَقبَلْه وَلَم يُذْعِنْ لَهُ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي حَالَ بينه وبينَ التوفيقِ، هَذَا الرَّجلُ -أبو طالبٍ- لَهُ يَدٌ فِي الدفاعِ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَفِي نصرَتِه، ولَكِنَّ الأمرَ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦- ٩٧].

هَذَا الرَّجلُ لما حَضَرَتْه الوفاةُ كَانَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعنده رجلان مشركان مِنْ قريشٍ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يقولُ لَهُ بِتَلَطُّفٍ: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، ثُمَّ يقولُ لَهُ هذان المشركان: أترغبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطلبِ؟ ومِلَّةُ عبدِ المطلبِ هِيَ الشِّرْكُ، فَكَانَ آخرُ مَا قَالَ: عَلَى مِلَّةِ عبدِ المطلبِ.

فحَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ وقَالَ: «**أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَم أُنْهَ عَنْكَ**». فأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[(٢)] [التوبة:١١٣].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٨)، وبلفظه في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

ثُمَّ أجابَ الربُّ عَزَّوَجَلَّ عَنِ استغفارِ إبراهيمَ لأبيه، وإبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إمامُ الحنفاءِ قَالَ لأبيه حِينَ حَاوَرَه فِي التوحيدِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧] ولَكِن لما تبين لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ منه، ولِهَذَا أجابَ اللهُ عَنْ هَذِهِ المشكلةِ لما أَنْزَلَ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وكنّا مأمورين أَنْ نَتَّبِعَ ملةَ إبراهيمَ، أجابَ اللهُ تَعالَى عن استغفارِ إبراهيم لأبيه فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة:١١٤] والمؤمنُ يُوفِي بالوعدِ، والمَوْعِدَةُ فِي قولِه تَعالَى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

وهنا اختبارٌ للذكاءِ: هل أُمُّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مؤمنةٌ أو غيرُ مؤمنةٍ؟

والجوابُ: أنها مؤمنةٌ، والدَّليلُ فِي قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَنْ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١] فنهاه اللهُ عَنِ استغفارِه لأبيه وسَكَتَ عَنِ استغفارِه لأمِّه، إذَنْ فَهِيَ مؤمنةٌ.

هل أَبَوا نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أعني أمَّه وأَبَاه هل هما مؤمنانِ أو كافِرَان؟

الجوابُ: مؤمنان، والدَّليلُ عَلَى أنهما مؤمِنَان قولُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨] مثلُ هَذَا الاستنباطِ يحُثُّ طالبَ العلمِ عَلَى تدبرِ القرآنِ، والعلمُ كُلُّ العلمِ فِي القرآنِ الكريمِ، حَتَّى مَا بَيَّنَته السُّنَّةُ مِنَ القرآنِ فَهُوَ مِنَ القرآنِ.

نَرْجِعُ إِلَى قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، قُلْنَا: أولُ مَنْ يَدْخُلُ فيها أبو طالبٍ، مات أبو طالبٍ عَلَى الشركِ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى

آله وسلم: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[١]، أعوذُ باللهِ، وَإِنَّهُ لأهونُ أهلِ النَّارِ عَذَابًا[٢].

قال بَعْضُ النَّاسِ: مَا الجمعُ بَيْنَ قولِه تَعالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦] وقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]؟ الآيةُ الأولى نَفْيٌ والثَّانية إثباتٌ مؤكدٌ أيضًا؟

فالجوابُ: الهدايةُ المنفيةُ هدايةُ التوفيقِ، يَعْنِي أَنَّك يا محمدُ مَا يمكنُ أَن تُوَفِّقَ إِنْسانًا لِيَهْتَدِيَ، هَذَا بِيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ.

أما هدايةُ الدِّلَالَةِ فالنَّبِيِّ ﷺ يَهْدِي، وَلهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي تَدُلُّ إليه، وَهَذَا يكونُ للنبيِّ وللعلماءِ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ فهم يهدونهم إِلَى الصراطِ، فصارت الهدايةُ المثبتةُ هدايةَ الدِّلَالَةِ، والمنفيةُ هداية التوحيدِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

(٢) لحديث: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ». أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أهون أهل النَّار عذابا، رقم (٢١٢).

الدَّرس السَّابع:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبيِّينَ وإمام المتَّقينَ، وعلى آلِهِ وأصْحابِه ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

قَالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥] هَذِهِ الآيَةُ تَحْتَاجُ إِلَى كَلَامٍ كثيرٍ لَكِن أُلَخِّصُ:

في يومِ القيامةِ مَا يسألُ الإِنْسانُ ماذا أجابَ به العَالِمَ الفلانيَّ أو العَالِمَ الفلانيَّ لِأَنَّ «**العُلَماءَ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ**»[1]، يُبَلِّغُونَ عَنِ الأنبياءِ، وَلَيْسَ يُوحَى إليهم، ولِذَلِكَ لَا يُسْأَلُ النَّاسُ عن علمائِهم، فَلَا يقالُ: ماذا أَجَبْتُمُ العَالِمَ الفلانيَّ والعَالِمَ الفلانيَّ؟ بل يقالُ: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وعَلَى هَذَا لو احتجَّ عَلَيْكَ متعصبٌ وقال: هَذَا مذهبُ فلانِ بْنِ فلانٍ. تقولُ له: يا أخي أَنْتَ لن تُسألَ عن مذهبِ فلانٍ وفلانٍ، أَنْتَ مسؤولٌ عن مذهبِ مُحَمَّدِ بْنِ عبدِ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لِأَنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

لو قَالَ إِنْسانٌ مِنْ هَذِهِ الأمةِ، مِنْ أمةِ محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: هَذَا قولُ أبي بكرٍ الصديقِ أَسَدِّ الأمةِ رَأْيًا وأَهْدَاهُم سَبِيلًا بَعْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ماذا تقولُ إِذَا كَانَ قولُ أبي بكرٍ يخالفُ قولَ النَّبِيِّ ﷺ؟ نردُّ قولَ أبِي بكرٍ الخليفةِ الأولِ لهذه الأمةِ، نَعَمْ، نردُّه لقولِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لَا نردُّه مطلقًا وإلا فقولُ أبي بكرٍ أقربُ أقوالِ الصَّحابةِ إِلَى الصَّوابِ، لَكِن

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء فِي فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: كتاب الإيمان وفضائل الصَّحابة والعلم، باب فضل العُلَماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

إِذَا خالفَ قولَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ، لَكِن قُلْ لي يا أخي: هل يمكنُ أَن يقولَ أبو بكرٍ قولًا يخالفُ قولَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟

الجوابُ: نَعَمْ، قد يقولُ قولًا يخالفُ قولَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لَكِن عَنِ اجتهادٍ، لِأَنَّهُ قَدْ يَخْفَى عَلَيْهِ قولُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أو يَخْفَى عَلَيْهِ المعنى، إنما يقولُ العُلَماءُ: إِنَّهُ لم يُحْفَظْ لأبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قولٌ خَالَفَ فِيهِ النصَّ الصريحَ.

لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ مَهْمَا كَانَ القائلُ غَيْرَ الرَّسُولِ إِذَا خَالَفَ قولَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَإِنَّهُ يُطْرَحُ قولُه، وَلَيْسَ لَنَا حجةٌ عِنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِأَنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فقط، فاستعدَّ لجوابِ هَذَا السؤالِ لَا يَضِيعُ عنك الجوابُ.

قَالَ تَعالَى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص:٦٦] لأَنَّهُمْ لَيْسَ عندهم حجةٌ، فهم لم يجيبوا المرسلين، عَمِيَت عَلَيْهِمْ الأنباءُ وعَجَزُوا عَنِ الجوابِ الصَّحِيحِ، وَهُوَ دليلٌ واضحٌ عَلَى تحريمِ تقديمِ قولِ الإمامِ عَلَى قولِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّى يُرْوَى عَنِ ابْنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»[1]، مَعَ أننا نعلمُ فِي قلبِ ابْنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنْ تعظيمِ أبي بكرٍ وعمرَ مَا لَيْسَ فِي

(١) أورده بهذا اللفظ شيخ الإسْلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١٥)، وابن القيم في زاد المعاد (٢/ ١٩٥)، وشيخ الإسْلام محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد، باب من أطاع العُلَماء والأمراء في تحريم ما أحلّ الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله (ص:١٠٢)، وهو عند الإمام أحمد (١/ ٣٣٧)، رقم (٣١٢١) بلفظ: «أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَيَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

قلوبنا، وَمَعَ ذَلِكَ يقولُ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

ونأسَفُ لبعضِ النَّاسِ إِذَا قيلَ له: هَذَا قولُ الرَّسُولِ. قَالَ: نَعَمْ قولُ الرَّسُولِ لَكِن هَذَا قولُ فلانٍ، فهل أَنْتَ أعلمُ مِنْ فلانٍ؟ وَهَذَا جوابٌ غَيْرُ سديدٍ، نَقُولُ: أقوالُ العُلَماءِ يحتجُّ لها وَلَا يحتجُّ بها، ولَكِن قولي هَذَا لإِنسانٍ لَهُ قدرةٌ عَلَى الاجتهادِ أما العوامُّ فليس لهُمْ إِلَّا أقوالُ العُلَماءِ فَلَا يأتي واحدٌ عاميٌّ لَا يعرفُ كوعَه من كُرْسُوعِه يقولُ: قَالَ الرَّسُولُ كذا وكذا، وَهُوَ مَا يدري شيئا عن الحديثِ، وَلَا عن صحةِ الحديثِ، وعاميٌّ يقولُ: خَيْرُ الأسماءِ أحمدُ وحمدٌ ومحمدٌ وعبدُ اللهِ وعبدُ الرَّحمنِ، والدَّليلُ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «خَيْرُ الأَسْمَاءِ مَا حُمِّدَ وَعُبِّدَ»[1].

فهَلْ قَالَ الرَّسُولُ هذا؟ مَا قَالَهُ، لَكِن هَذَا عاميٌّ، وَلهَذَا مِنَ القواعدِ المقررةِ المعروفةِ المألوفةِ: (العوام هوام)، والهوامُّ قد تأتي بالطَّوامِّ، إنما الإِنْسانُ المجتهدُ إِذَا بَانَ لَهُ الحقُّ فَقَدْ أَجْمَعَ العُلَماءُ عَلَى أَنَّ مَنِ استبانت لَهُ سنةُ الرَّسُولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يعارضَها لقولِ غَيْرِه.

العوامُّ فِي الحقيقةِ يَتَّبِعُون علماءَهم ولو قُلْنَا: إِنَّ العَاميَّ لَهُ أَن يجتهدَ لَفَسَدَتِ الأمورُ، لَكِن إِذَا تبين أَنَّ عالمَه الَّذِي يقلدُه عَلَى غَيْرِ صوابٍ بدليلِ القرآنِ والسنةِ فعليه أَن يعودَ إِلَى الكتابِ والسنةِ.



(١) ذكره العجلوني فِي كشف الخفاء، رقم (١٢٤٥)، وقال: قال النجم: لا يعرف. وقال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي الضعيفة (٤١١): لَا أصل له.



سورة الروم

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبيِّين، وإمَام المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم:٢٠].

إن ذلك واللهِ! مِن آياتِهِ، فإن التُّرابَ شيءٌ جامِدٌ لا يتَحَرَّكُ، وليسَ فيه حياةٌ، ولكِنَّ هذا البَشَرَ الذي خُلِقَ منْه يكونُ بَشَرًا ينتَشِرُ في أرضِ اللهِ، يَسْعَى لرِزْقِ اللهِ، ويسْعَى لحياتِهِ في الدُّنيا والآخِرَةِ، هذا مِنْ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١] هذا أيضًا مِن آياتِ اللهِ؛ أنْ خَلَقَ لنا مِنْ أَنْفُسِنَا أزْواجًا، وقولُهُ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: مِنْ جِنْسِكُم ومِنْ شَبَهِكُم، حتى لا يحْصُلَ التَّنَافُرُ بينَ الإِنْسانِ وبينَ زَوجَتِهِ، فجعلَ اللهُ الزوجَةَ مِنْ جِنسِ الإِنْسانِ، وذكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الحِكْمَةَ من ذلكَ لأجلِ أن يَسْكُنَ إليهَا، ولا ينْفُرَ منْها وتَصَوَّرْ لو كانَتِ الزوجَةُ من غيرِ جِنْسِ الذكَرِ، لكان بذلك تَنَافُرٌ، ولم يحصَلِ ائتلافٌ ولم يحصُلْ سكونٌ، وبالتَّالي لا يمكِنُ أن تَبْقَى الخَلِيقَةُ؛ لأنها لا تَبْقَى إلا بالتَّوالُدِ.

ثم قال تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، ﴿بَيْنَكُم﴾ يعْنِي: بينَ

هؤلاءِ الأزواجِ جَعَلَ بينكُم وبينَهُنَّ مودةً، فالأُنْثى تَوَدُّ زوجَها، والزوجُ يَوَدُّ زوجته، وهكذا ينْبَغِي أن تكونَ الحياةُ الزوجيةُ مبنِيَّةً على هذينِ الأمْرَينِ: على المودَّةِ المتبادَلَةِ، وعلى الرحْمَةِ، وجعَلَ بينكم مودَّة ورَحْمَةً. هذا من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولا يَرِدُ على ذلك من يَشِذُّ من بَنِي آدم حيثُ يكونُ بينَهُم وبين زَوْجاتِهِمْ تباغُضٌ وحِقْدٌ وعَداوةٌ، حتى إن الرَّجُلَ ليتَمَنَّى أن يفارِقَ زَوْجَتَهُ، وحتى إن بعضَ بَنِي آدمَ إذا حصَلَ بينَهُ وبينَ زوجِهِ أقل مشكلةٍ ذَهَبَ يُطَلِّقُها، ويَبُتُّ طلاقَهَا من غيرِ تَروٍ، ومن غيرِ نظَرٍ في حدودِ اللهِ، قد يُطْلِّقُها وهي حائضٌ، وقد يُطَلِّقُها في طُهْرٍ جامَعَها فيهِ وليستْ بحامِلٍ، وقد يُطَلِّقُها مرَّتينِ وقد يُطَلِّقُها ثَلاثًا، كل ذلك بسببِ الغَضَبِ الذي يحصُلُ بأدْنَى مشكِلَةٍ، والواجبُ على الرَّجلِ أن يكون متَّصِفًا بمَعْنى هذِه الكلِمَةِ، بمعنى الرُّجولَةِ، كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء:٣٤] وأن يَصْبرَ على ما يَرَى مِنِ امرأتِهِ من تقْصِيرٍ، وكذلك يجبُ على المرأةِ أن تَصْبرَ عَلَى ما تَرَى مِنْ زَوْجِهَا من تَقْصِيرٍ حتى يحصُلَ الالتِئامُ ويحصُلَ البقاءُ بينَهما.

وللتَّنْبيهِ فإنه لا يجوزُ للإنْسانِ أن يُطَلِّقَ زوجتَهُ في حالَيْنِ:

إحداهما: أن يُطَلِّقَها وهِي حائضٌ، والثَّانية: أن يُطَلِّقَها في طُهْرٍ جامَعَها فيه إذا لم يتبيَّنْ حمْلها، فإن هذا الطّلاقُ يُعَدُّ طلاقًا بِدْعِيًّا محرَّمًا، يجِبُ على الزوجِ إذا وقَعَ منه في هاتَينِ الحَالين أن يَرُدَّ الزوجَةَ إلى عِصْمَتِه، ثم يدَعَها حتى تَطْهُرَ من حَيضَتِها إن كانَ طلَّقَها في حالِ الحيضِ، ثم تحيضَ مرَّةً ثانية، ثم تَطْهُرَ، وبعد ذلك إن شاءَ أمسَكَ وإن شاءَ طلَّقَ، كما أمر بذلِكَ رَسولُ اللهِ ﷺ عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ حين طلَّقَ زوجَتَهُ وهي حائضٌ، فأخْبرَ عُمَرُ النبي ﷺ بما وقَعَ فتَغَيَّظَ رَسولُ اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ

أنْ يأمُرَ ابنَ عُمَرَ بِمُراجَعَةِ زَوْجَتِهِ[١]. أي: بِرَدِّهَا إلى عِصمتِهِ حتى يُطَلِّقَهَا طَلاقًا شَرْعِيًّا، ثم يتْرُكُها حتى تَطْهَرَ، ثم تَحيضَ، ثُمَّ تَطْهُرَ، ثم إن شاءَ أمسَكَ بعدُ وإن شاءَ طلَّقَ، قال النبيُّ ﷺ «**فَتِلْكَ العِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُطَلَّقَ لها النِّسَاءُ**».

كذلك أيضًا: لا يجوزُ أن يُطَلِّقَها الإِنْسانُ في طُهْرٍ جامِعَها فيهِ حتَّى تحيضَ وتَطْهُرَ أو يتبَيَّنَ بها حَمْلٌ، وعلى هذا فإذا ولَدَتِ امرأةٌ مَثلًا وطَهُرَتْ مِنَ النِّفاسِ وجامَعَها زوجُها بعدَ ذلك، وأرادَ أن يُطَلِّقَها بعدَ هذا الجِماعِ فإنه لا يجوزُ أن يُطَلِّقَها حتى يعودَ عليهَا الحَيْضُ.

ونحنُ جميعًا نعرفُ أن المرأةَ إذا كانَتْ تُرْضِعُ فإن الحيضَ لا يأتِيهَا في الغالِبِ إلا بعدَ السَّنَةِ الأُولى، على هذا نقولُ لهذا الرَّجُلِ: انتَظِرْ حتى تأتِيَ السنَةُ أو ما بعدَ السنَةِ، ويرجِعُ الحيضُ إلى امرأتك فإذا طَهُرَتْ مِنَ الحيضَةِ فلكَ أن تُطَلِّقَها.

والطَّلاقُ المباحُ يكون في حَالَيْنِ:

الحَالِ الأولى: إذا كانَتِ المرأةُ حامِلًا، فإن الإِنْسانَ يُطَلِّقُها ولو كان قد جَامَعَها الآن، فإنه لا حرَجَ عليه ما دامَتْ حامِلًا، فله أن يُطَلِّقَها حتى وإن كان لم يغْتَسِلْ مِن جِماعِهَا؛ لأن الحَامِلَ تُطَلَّقُ في كلِّ وقتٍ.

الحَال الثَّانية: إذا طَلَّقَها في طُهْرٍ لم يجامِعْهَا فيه.

فَفِي هاتَينِ الحَالَينِ يكونُ الطّلاقُ شَرْعِيًّا، ولا بُدَّ أيضًا أن يكونَ الطَّلاقُ مَرَّةً واحِدَةً، فإن طَلَّقَها أكثرَ مِنْ مرَّةٍ واحدة فإن ذلك طلاقٌ محرَّمٌ، لأنه تَعَدٍّ لحدود الله،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطَّلاق، بابٌ، رقم (٥٢٥١)، ومسلم: كتاب الطَّلاق، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، رقم (١٤٧١).

يعْنِي مثلًا: لا يجوزُ للإنْسان أن يقولَ لزَوجَتِه: أنتِ طالِقٌ أنتِ طالِقٌ، أو: أنتِ طالِقٌ أنتِ طالقٌ أنتِ طالِقٌ، ولا يجوز له أن يقولَ لها أيضًا: أنتِ طالِقٌ طلْقتَيْن، أو أنت طالِقٌ ثلاثًا؛ لأن ذلِكَ كلَّه طلاقٌ بِدْعِيٌّ محرَّمٌ، لا يجوزُ للإِنْسان أن يُوقِعَهُ، وإنما إذا أراد أن يطلِّقَ زوجته، وعَرَفَ أنه لا يمكنُ أن يصبِرَ معَهَا، أو أنها هي تَرْغَبُ أن يُطَلِّقَهَا، فإنه يطلِّقُها مرَّة واحِدَةً في الحَالَيْنِ السَّابقتينِ، وهما إذا كانَتْ حامِلًا، وإذا كانت طاهِرَةً في طُهْرٍ لم يجامِعْهَا فيهِ.

والمهم: أننا دائما نسألُ عَنِ الطَّلاقِ؛ لأن الإِنْسانَ إذا غَضِبَ لأدْنَى شيءٍ طلَّقَ زوجَتَهُ؛ وهذا في الحقيقَةِ خطأٌ، خطأٌ في التَّفْكِيرِ، فأنتَ أيها الرَّجُلُ تَرَوَّى في الأمرِ وتأَنَّى واصْبِرْ لا سيَّما في مثلِ وقْتِنَا هذا، الذي لا يكادُ الإِنْسان يجِدُ زوجَةً إذا خَطَبَ، فينبَغِي أن تَتَرَوَّى؛ لأنك قد تُطَلِّقُها ولا تحصُلُ بعد ذلِكَ على زَوْجَةٍ فتكون أعْزَبَ، قد تُطَلِّقُها ومعَهَا أولاد منك، فيتَوَلَّى أولادَك غيرُك، إلى غيرِ ذلك من المفاسِدِ التي تحصُلُ بسببِ الاستِعْجَالِ.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فالمؤمنون همُ الَّذين ينْتَفِعُونَ بالآياتِ ويعْرِفُونَها ويَرَوْنَها، أما غيرُ المؤمِنِ فإنَّه في إعراضٍ -والعياذ بالله- ولا ينتَفِعُ بالآياتِ كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

مسألَةٌ في مضاعَفَةِ الأعمالِ الصَّالِحَةِ:

مضاعفَةُ الصَّلاةِ بمئةِ أَلْفٍ خاصٌّ بالمسجِدِ الحرامِ نَفْسِه، مسجِدِ الكعْبَةِ[1]،

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب إقامة الصَّلاة، باب ما جاء في فضل الصَّلاة في المسجد الحرام، رقم (١٤٠٦).

و هذا هو ظاهر كلام أصْحابِ الإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما ذَكَرَ ذلك عنْهُم صاحِبُ الفُروعِ تلميذُ شيخِ الإسْلامِ ابن تَيمِيَةَ[١]. وهذا هو مقتضى ظاهر النصوص.

والأعمالُ وإن كانَتْ لا تَتَضاعَفُ هذا التَّضاعُفَ خارِجَ المسجِدِ، لكنها تَتَضَاعَفُ بحسبِ المكانِ، ولا رَيْبَ أن حُدودَ الحَرَمِ فيما سِوَى المسجِدِ أفضَلُ من غيرِهِ، لأن له أحْكامًا كثيرَةً يختَصُّ بها، كتَحْرِيمِ صيدِهِ مثلًا، وغير ذلك مما لا مجالَ لِذِكْرِهِ هنا، لكنَّ أسبابَ مضاعَفَةِ الأعمالِ متَعَدِّدَةٌ منها:

شَرَفُ المكانِ؛ كالحَرمينِ حَرَمِ مكَّةَ وحرَمِ المدينَةِ، فإنهما مكانان فاضلانِ تُضَاعَفُ فيهما الحسناتُ، ولا يُوجَدُ في الدُّنْيا حرَمٌ سِوَى هذَينِ الحَرَمَينِ لا المسجدُ الأقْصى ولا غيرُهُ، لا يوجدُ حرَمٌ إلا هذان الحرمانِ فَقَطْ، ولهذا ينْبَغِي أن لا نُعبِّرَ بالعبارَةِ الموهِمَةِ، وهي ما يُعَبِّرُ به بعضُ النَّاسِ حيثُ يقولُ عن المسجِدِ الأقْصَى: إنه ثالِثُ الحرَمَيْنَ، فإن بعضَ من يسمَعُهُ يظنُّ أنه حرَمٌ، وليس حرَمًا بإجماعِ المسلِمِينَ، ولكنه مسجدٌ مفضَّلٌ على غيرِه، ولهذا قال رَسول الله ﷺ: **«لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»**[٢]، فتُضَاعَفُ الحسناتُ بحَسَبِ شَرَفِ المكانِ.

كذلك أيضًا تُضَاعَفُ بحسَبِ شرَفِ الزَّمانِ، فقَدْ ثبَتَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قالَ: **«مَا مِنْ أَيَّامِ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ»**. **قَالُوا: يَا** رَسُولَ اللهِ، وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: **«وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ**

---

(١) الفروع (٢/ ٤٩١، ٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب فضل الصَّلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم (١٣٩٧).

بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَم يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»[١]، فَهُنا تَشْرُفُ الأعمالُ في عَشْرِ ذِي الحِجَّةِ، وهي أَحَبُّ إلى اللهِ مِنْ أيِّ زَمَنْ عُمِلَتْ فيه بسَببِ شَرَفِ هذا الزَّمانِ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ومن هذا قولُهُ تَعالَى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٣]، فإنها خَيْرٌ مِن ألفِ شَهْرٍ، حيث إنَّ من قامَهَا إيمانًا واحتِسَابًا غُفِرَ لَه ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِه، فهذانِ أمرانِ تُضاعَفُ بِهِما الأعمالُ.

الأمرُ الثَّالِثُ: تُضَاعَفُ الأعمالُ بحَسبِ جِنْسِ العبادَةِ، فإنَّ العبادَةَ أجناسٌ، بَعْضُها أفضلُ من بَعْضٍ، وفي حديث ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سألَ النَّبيَّ ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي[٢]. فالعبادَةُ هنا اختَلَفَتْ أَفضَلِيَّتُهَا بحَسَبِ جِنْسِها.

الأمرُ الرَّابِعُ: أن العبادَةَ تختَلِفُ بحَسَبِ التكْلِيفِ بِها، فما كُلِّفَ به على سَبِيلِ الوجوبِ فَهُو أفضَلُ مما يفْعَلُه المرءُ على سبيلِ التَّطَوُّعِ، ولهذا ثَبَتَ بالحدِيثِ الصَّحيحِ أن اللهَ تَعالَى قالَ في الحديث القدسي: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، أبواب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، رقم (٩٦٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب وسمى النبي ﷺ الصَّلاة عملا، رقم (٧٠٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله -تعالى- أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[١].

الشَّاهِدُ قولُهُ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»، فأَنْتَ تُصَلِّي ركْعتينِ تَطَوُّعًا، وتُصَلِّي صلاةَ الفَجْرِ المفروضَةَ، فصلاةُ الفَجْرِ أحبُّ إلى اللهِ تَعالَى مِنَ الرَّكعتينِ، وإن كانَ كلٌّ مِنْهُما رَكعتينِ.

الأمرُ الخَامِسُ: تختَلِفُ العبادَةُ أيضًا بحَسَبِ العَامِـلِ؛ بحسَبِ إخلاصِهِ وبحَسَبِ متابَعَتِه لرَسولِ اللهِ ﷺ، ولهذا قَدْ يُصَلِّي رجلانِ أحدُهُما إلى جنبِ الثَّانِي يصلِّيانِ صلاةً واحِدَةً، وبإمام واحِدٍ، ويكونُ بينَهُما من الفَرْقِ مثلُ ما بينَ السماءِ والأرْضِ بسببِ اختِلافِ نِيَّتِهِمَا وحسنِ عَمَلِهِمَا.

ومن هذا النوعِ: أنَّ الصحابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أفضَلُ من غيرِهِمْ فيما يَفْعَلُونَهُ من العِبادَاتِ كما ثَبَتَ في الصَّحيحينِ وغيرِهِمَا أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لخالدِ بن الوليدِ: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ»[٢]، قوله: «مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ»: مِنَ الذَهَبِ أو مِنَ الطعامِ؟

يُحْتَمَلُ هذَا وهذا، والأقربُ أنه مِنَ الطَّعامِ لأنه هو الذي يُكالُ عادَةً بالمُدِّ والصَّاعِ، فإذا كانَ الواحدُ من الصَّحابَةِ إذا تَصَدَّقَ بمُدٍّ من طعامٍ أو بنَصِيفِ المدِّ من الطَّعامِ لا يبْلُغ مَن بَعْدَهُم أو مَن سِواهم مِثْلَهُ فيما لو تَصَدَّقَ بمِثْلِ أُحُدٍ ذَهَبًا؛ فدَلَّ ذلك على أن الأعمالَ تَتَفاضَلُ أيضًا بحسْبِ العَامِلِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، بَابُ التَّوَاضُعِ، رقم (٦١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصَّحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب تحريم سب الصَّحابة، رقم (٢٥٤٠).

والمهم: أنه ينْبَغِي للإِنْسانِ أن يعْرِفَ تفاضُلَ الأعمالِ وأسبابَ هذا التَّفاضُلِ ليكونَ على بَصِيرَةٍ من أمْرِهِ، وأسألُ اللهَ تَعالَى أن يُوَفِّقَنَا جميعًا لما فيه الخَيرُ والصَّلاحُ، وأن يجعَلَنَا من المتَسابِقِينَ إلى الخيراتِ التَّارِكِينَ للمَنْهياتِ، إنَّه جوادٌ كريمٌ.





سورة لقمان

الدَّرس الأوَّل:

إنَّ الحَمْدَ للهِ تَعَالَى؛ نَحْمَدهُ ونَسْتَعِينهُ ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذ باللهِ من شرورِ أنفسنا وسَيِّئات أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشْهَد أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ، وَأشهد أن مُحَمَّدا عبده ورَسولهُ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

لقمانُ رَجلٌ آتـاه اللهُ الحكمةَ، وليسَ من الأنبياءِ، والله تَعالَى يقول: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة:٢٦٩].

ثمَّ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان:١٤]؛ وذلك لأن أعظمَ حقوقِ المخلوقينَ بعد حقِّ الأنبياءِ حقوقُ الوالدينِ؛ الأمِّ والأبِ.

قـوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ هـذا كالتعليل للوصيةِ؛ فالأمُّ تحمِل ابنَها في بَطنها تسعةَ أشهرٍ وهنًا على وهنٍ؛ أي ضعفًا على ضعفٍ، وتعبًا على تَعَب، ثمَّ بعد ذلك تَضعُه على تعبٍ، كما في الآيةِ الأخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ

شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]؛ يعني هو بعد أن يُوضَع تحضنُه الأمُّ، وينفصِل عنها في عامينِ؛ لأن من أراد أن يُتِمَّ الرَّضاعة فإنَّه يُرضِعُ ولدَه حولينِ كاملينِ.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:١٤-١٥]، جاهداك؛ أي بَذَلا الجهدَ معك من أجل أن تشركَ باللهِ؛ يعني يقول الأبُ لولدِه: أَشرِك يا ولدي، والأمُّ كذلك تقول: أَشرِكْ باللهِ، وربما يُغري الأبُ ولدَه تارَةً، ويتوعَّده تارةً، فهل إذا جاهدا الولدَ على الشركِ يُشرِك، أو يَعصي الوالدينِ؟

نقول: يعصي الوالدين؛ لأنَّه عَصاهما في طاعةِ الخَالقِ عَزَّوَجَلَّ، ولا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخَالِقِ؛ ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

فإنْ قِيلَ: ما مفهوم قوله تَعَالَى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؟ هل يعني إن جاهداه على أن يشركَ باللهِ ما له به علمٌ فإنه يُطيعُهما؟

قلنا: هَذَا بيانٌ للواقعِ، وصفةٌ كاشفةٌ؛ لأنَّه لا يُمكِن لإِنْسانٍ أن يشركَ باللهِ شَريكًا له به علمٌ، وهَـذَا كقوله تَعَالَى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ [الأعراف:٣٣].

إذن لا يمكن لإِنْسانٍ أن يُشرِك بالله إلَّا وهو جاهل.

قال: ﴿فَلَا تُطِعْهما﴾، وما موقفه منهما في معاملة الدُّنْيَا؟ ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا

مَعۡرُوفٗاۖ﴾ سبحان الله! والدَّاه يأمرانه أن يشرك، ويبذُلَا الجهد أو الجُهد في إشراكِه، ويقول الله: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾، وهَذَا لِعِظَمِ حق الوالدينِ.

قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ من الأمِّ أو الأبِ، فإذا قُدِّرَ أن الأبَ فاسِقٌ يأمرُ بالفِسقِ، والأمَّ صالحةٌ تأمرُ بالخيرِ، فإنَّه يطيع الأمَّ وإن عَصَى الأبَ، فلو قال الأبُ لابنِه: يا وَلَدِي، لا تذهبْ إلى عَمِّكَ، عمُّكَ بيني وبينه مشكلةٌ، لا تذهبْ إليه، لا تَصِلْهُ، فقالتِ الأمُّ: يا بنيَّ، صِلْ عَمَّكَ؛ فإنَّه من أقاربِكَ، وصلةُ الرحِم واجبةٌ، فقال: أمي وأبي، نقول له: زِدْ؛ أُمِّي وأَبِي وربِّي، فأطِعِ الربَّ عَزَّوَجَلَّ، ربُّك أمرَكَ بصلةِ الرحِم، وأبوكَ نهاكَ عن صلةِ الرحِم، وأُمُّكَ أمرتْك بصلةِ الرحِم، فأطِعْ أمكَ طاعةً للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهَذَا يقع كثيرًا بين النَّاسِ الآنَ؛ فتجد الشخصَ يكون بينه وبين أخيهِ مشكلةٌ دُنيوية، فيهجره ويأمرُ أبناءَه أن يهجرُوه، وهو عمُّهم، وربما يكون جدَّهم، وهَذَا غلطٌ عظيمٌ، ولا يجوز للأبناءِ أن يطيعوا أحدًا من والديهم بقطيعةِ الرحِم، أبدًا؛ لأن قطيعةَ الرَّحمِ من كبائرِ الذنوبِ، قال النَّبِيّ ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ**»(١). وتكفَّل الله عَزَّوَجَلَّ للرحِم أن يَصلَ مَن وَصَلها، ويَقطَع مَن قَطَعَها، فلا نُطيعه.

قال: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، إلى أَنْ قَال، وهو ما أريدُ الكلام عليه:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان:١٧]، فهذهِ أربعةُ أوامرَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم (٥٩٨٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرَّحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٦).

فالأول: إقامة الصَّلاة.

ثم الأمر بالمعروف، والمعروفُ الَّذي يجب الأمرُ به هو كلُّ ما أمرَ به الشرعُ؛ فالصَّلواتُ من المعروفِ، فإذا رأيتَ أحدًا يضيِّعُ الصَّلاةَ فمُرْهُ بها.

والمنكَرُ كلُّ ما نَهى عنه الشرعُ في الكتابِ أوِ السنَّةِ، فإذا رأيتَ أحدًا يتعامَلُ مع النَّاسِ بالغشِّ والخيانةِ فانْهَهُ؛ قل: يا أخي، هَذَا حرامٌ عليك، لا يحلُّ لك.

والأمر الرَّابع: اصبِرْ على ما أصابَك؛ لأن الآمِرَ والنَّاهيَ لا بُدَّ أن يُصِيبَه أذًى؛ إما بالقول وإما بالفعل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٠]، يَتَغَامَزُونَ سخريةً بهِمْ.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ المؤمنون إذا مرُّوا بالكُفَّارِ يتغامَزُ الكفارُ بهم، والآيَةُ تحتملُ وجهًا آخَرَ، وهو أن المارَّ هم الكفارُ؛ فإذا مرَّ الكفارُ بالمؤمنينَ وهم جالسونَ تَغامزوا بالمؤمنينَ.

فإنْ قِيلَ: وهل في الآيَة ما يُرجِّح أحدَ الاحتمالينِ؟

قلنا: الأظهرُ أن الآيَةَ لا ترجِّحُ أحدَهما على الآخرِ؛ قال: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾؛ لأنَّه من الممكِنِ أن يمرَّ هؤلاءِ المجرمُونَ بالمؤمنينَ يتغامزون بهم، ثمَّ وهم مُنْطَلِقون إلى أهليهم يَتَفَكَّهون بما صنعوا مع هؤلاء المؤمنينَ، أو بالعكس، والقَاعِدةُ: إذا كان النصُّ يحتمِل معنيينِ، لا يَتَرَجَّحُ أحدُهما على الآخَرِ، وجبَ حَمْلُه على المعنيينِ جَميعًا.

فقولُه تَعالَى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ فيه إشارة إلى أن الآمرَ بالمعروفِ والنَّاهيَ عن المنكرِ سوفَ يناله أذًى؛ إما بالقولِ و إما بالفعلِ، قد يُؤذَى بالفعلِ؛

فيُضرَب، ويُحرق مالُه، ويُضرَب ولدُه، ويُنهَب مالُه، المهمُّ لا بُدَّ من أذيَّة.

قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧] والصبرُ على ما أصابه ليسَ معناه أن يصبرَ على المصيبةِ الَّتي مضتْ ثمَّ يُحْجِم عن الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ؛ بل المعنى: اصبرْ على الأمر بالمعروفِ وإن أصابك ما تكرهُ، اصبرْ فالعَاقبةُ للمتَّقينَ، ولا بُدَّ أن تكونَ العَاقبةُ للآمِرِ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكرِ، مع الإخلاص والتقوى.

وهنا ثلاثةُ أمورٍ تَشتبِه على كثيرٍ من النَّاسِ؛ الدعوة، والأمرُ، والتغييرُ، وكلُّ هذهِ الأمورِ الثَّلاثةِ بيَّن الله تَعالَى حُكمَها في القُرآن، وبعضُها في السنَّةِ؛ فالدَّعوةُ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥] ما فيها ذكْرُ (أمر) أبدًا، بل فيها دعوةٌ بأن ترغِّبَ النَّاسَ بالخيرِ وتحذِّرَهم من الشرِّ، فتقوم مثلًا في جمعٍ منَ المُسْلِمينَ وتحثُّهم على عملٍ صالحٍ؛ كالصَّلاة، والزكاةِ، والصِّيامِ، وغيرِ ذلك، فهَذَا يُسمَّى دعوةً.

فلو وجدتَ إِنْسانًا أخلَّ في شيءٍ لا تأمره بأن يفعلَه، بل تقول: إن الإِنْسَانَ الَّذي يفعلُ كذا يناله من الثوابِ كذا، وتذكِّره بالثوابِ، وبالعقابِ إذا خالفَ، فهذهِ دعوةٌ، وهذهِ قالَ فيها اللهُ تَعالَى: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾.

والحكمةُ هي أن يضعَ الشَّيْءَ مواضعَه.

ويختلف المَدْعُوُّونَ في المخاطَبةِ، فمِنَ النَّاسِ مَن تَقتضي الحَالُ أن يُخاطَبَ بالأدلَّةِ السَّمعيةِ؛ وهي القُرآنُ أوِ السنَّة، ويَقتنَعَ بها، ومنَ النَّاسِ من لا تَكفيه الأدلةُ السَّمعيةُ، ولا يَقتنِعُ بها، فهَذَا يُخاطَبُ بالأدلَّةِ العقليةِ. ولهَذَا نجد في القُرآنِ الكريمِ آياتٍ كثيرةً كلها تُقنِعُ المعارضين بالعقلِ، نذكُرُ بعضَها، والآياتُ كثيرةٌ.

قال تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] فهَذَا دليلٌ عقليٌّ على إمكانِ الإعادةِ؛ فالَّذي يبدأُ الخلقَ لا يَعجِز عِن إعادَتِه؛ إذِ الإعادةُ أهونُ، وهَذَا دليلٌ عقليٌّ لا يَمترِي فيه أحدٌ.

ولو نظرنا أيضًا إلى قوله تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، فهَذَا دليلٌ عقليٌّ؛ هل الإِنْسَانُ خُلِقَ من غَيرِ خالقٍ؟ الجواب: لا؛ لا بُدَّ أن يكون له مُحْدِث.

فمَن الَّذي أحدَثَه قبل أن يكُونَ؟ هَل هُو أحدثَ نفسه؟ ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؟ الجواب: لا؛ لم يُحْدِث نفسَه؛ لأنَّه قبلَ أن يوجدَ عدمٌ، والعدمُ لا يُوجِد نفسَه.

فهل أحدثَه أبُوه وأمُّه؟ الجوابُ: لا.

لَكِن أليسَ لَولا أنَّ أبَاه غشيَ أمَّه لم يأتِ الولدُ؟

الجوابُ: بَلى، لكن هَذَا سبب، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٥٠]، فأمُّه وأبُوه لم يُوجِداهُ.

إِذَنِ الَّذِي أوجدَهُ هو خالقُ كلِّ شيءٍ، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولهَذَا لـمّا سمِعَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مِن أَسرَى بدرٍ، لـمّا سمِع النَّبيَّ ﷺ يقرأ في المغرب بهذهِ السورة، ووصل إلى هذهِ الآيَة، قَالَ: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»[1]، من شدة اليقين والتصديق، ووقر الإيمان في قلبه، وأسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ. فهَذَا دليلٌ عقليٌّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب سورة والطور، رقم (٤٨٥٤)، ومسلم: كتاب الصَّلاة، باب القراءة في المغرب، رقم (٤٦٣).

مثال ثالث: قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم:٧٧]، وكان يعرّض بالنَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن أولاده الذكور كلّهم ماتوا، وقال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٧٨]. فهَذَا دليل عقليٌّ؛ يُعرَف بالسَّبْر والتقسيم: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ يعني هل عنده علم من غيبٍ بأن الله تَعَالَى سيؤتيه المال والولد ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾؛ أعطاه الله عهدًا بأنه سيُؤْتِيهِ مالًا وولدًا؟

الجواب: لا هَذَا ولا هَذَا، إذن دَعواهُ باطلةٌ؛ لأَنَّه ليسَ لها دليلٌ.

الخُلاصة: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] الحكمةُ وضعُ الشَّيْءِ في مَوضِعِه.

ومِن النَّاسِ مَن تكونُ الحكمةُ في دعوتِه بِذِكرِ الأَدلَّةِ السَّمعيةِ؛ القُرآنِ والسنَّةِ، ويَقتنِعُ ويقول: سَمِعنا وأَطَعْنا، ومِنَ النَّاس مَن لا يَقتنعْ بهَذَا، فلا بُدَّ من أن نذكرَ الأدلَّةَ العقليةَ.

ولهَذَا أحُثُّ إخواني طلبةَ العلمِ على أن يكونَ لهم عنايةٌ بالأدلَّةِ العقليَّةِ، لا سيَّما في هَذَا الزمنِ الَّذي كثُر فيه الإلحادُ، وصار غالبُ المعانِدِينَ يَعتمدُون على الأدلةِ العقليةِ، لكن إذا كانَ الشعبُ شعبَ إيمانٍ واستسلامٍ فيُكْتَفَى فيه بالأدلةِ السَّمعيةِ.

سألتِ امرأةٌ عائشةَ أمَّ المؤمنينَ -رَضِي اللهُ تعالَى عَنها- قالت: مَا بَالُ الحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ، وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ فَقَالَتْ: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟ قالتْ: لَسْتُ بِحَرُورِيَّـةٍ، وَلَكِنِّـي أَسْأَلُ. قَالَتْ: «كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمَـرُ بِقَضَـاءِ الصَّـوْمِ،

وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ»(١).

فالحَائِضُ تقضِي الصَّومَ ولا تقضِي الصَّلاةَ، والخوارجُ يقولون: تقضِي الصَّومَ والصَّلاةَ؛ لأنَّهم مُتَشَدِّدُونَ. والحرورِيةُ لَقَبٌ للخوارجِ؛ لأنَّهم خَرجوا من مكانٍ يُسَمَّى حَرُوراءَ بظاهرِ الكُوفة.

هَذَا دليلٌ سمعيٌّ، فاقتنعتِ المرأةُ؛ ولهَذَا قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

أمَّا الَّذي يقول: لماذا يكون هَذَا واجبًا؟ ولماذا يكون هَذَا مُحَرَّمًا؟ ثمَّ إذا قلتَ: أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ بكذا؛ قَالَ: هل الأمرُ للوجوبِ أو للاستحبابِ أو للإباحةِ؟ سبحان الله! يقال: أَمَرَ الرَّسُول، فتقول: الأمر للاستحباب أم للوجوب؟ الواجب على العبدِ أنْ يقولَ: سَمِعنا وأطعنا، فافعلْ ما أمر به الرَّسُول، ثمَّ الثواب عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

نعم، إذا وقع الإنْسَانُ في المخالفةِ حينئذٍ له أن يسأَلَ؛ يقول: هل الأمرُ للوجوبِ فيحتاجُ إلى توبةٍ واجبةٍ أو للاستحبابِ؟ أما حينما يُقال له: أَمَرَ الرَّسُول بكذا، فالواجب الاستسلامُ.

ولهَذَا لمَّا حدَّث عبدُ اللهِ بنُ عمرَ أن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ المَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَّكُمْ إِلَيْهَا**». فَقَالَ بِلَالُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بن عمر: وَاللهِ لَنَمْنَعُهُنَّ. فَأَقْبَلَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصَّلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصَّلاة، رقم (٣٣٥).

عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ فَسَبَّهُ سَبًّا سَيِّئًا، يقول الرَّاوي: مَا سَمِعْتُهُ سَبَّهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَقَالَ: أُخْبِرُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ وَتَقُولُ: وَاللهِ لَنَمْنَعُهُنَّ![١]. ومَا كَلَّمهُ عَبْدُ اللهِ حَتَّى مَاتَ[٢].

وإنما قال ذلك ابنه بناءً على ما رأى من النِّساءِ من التبرُّجِ، وعدم التقيُّدِ بما أمرَ به النَّبِيُّ ﷺ في قوله: «**لِيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلَاتٌ**»[٣].

فشدّدَ عليه في ذَلك لأنّ الواجبَ على المؤمِنِ إذا سمِعَ عنِ اللهِ ورَسولِه، أن يقولَ: سمِعْنَا وأطعْنَا. فإذا أمرَ الرَّسُولُ بكَذَا، فَعَلَى العَينِ والرأْسِ، لكن حينما يقعُ في المخَالفةِ؛ فلهُ الحقُّ أن يقولَ: أواجبٌ هو فأجدِّد توبةً واجبة أم هو أمرٌ على سبيلِ الاستحبابِ فيكون أمرُه أخفَّ.

فإنْ سأل سائل فقال: لحمُ الإِبلِ إذا أَكلتُ منه وأنا على وضوءٍ، هل يجبُ عليَّ أن أُجدِّدَ الوضوءَ؟

قلنا له: نعم، يجبُ عليك أن تتوضأَ؛ لأن النَّبِيَّ ﷺ أمرَ بالوُضوءِ.

فقال: الأمرُ للاستحبابِ، فنقولُ لهُ: ما الَّذي أَعْلَمكَ أَنَّه للاستحبابِ؟

قَالَ: واللهِ لأني لا أعرِفُ معنًى مَعقولًا؛ لماذا أتوضأُ مِن لحمِ الإبلِ وُجوبًا ولا أتوضأُ من لحمِ الغَنَمِ؟ ما الفرق؟ فما جوابُنا على هَذَا؟

جوابُنا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فرَّقَ بينهما، ومـا دامَ قـدْ فرَّقَ بينَهما رَسولُ اللهِ ﷺ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصَّلاة، باب خروج النِّساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، وأنها لا تخرج مطيبة، رقم (٤٤٢/ ١٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصَّلاة، باب ما جاء في خروج النِّساء إلى المسجد، رقم (٥٦٥). وتفلات: غير متطيبات.

فلا بُدَّ أن يكونَ بينَهما فرقٌ؛ والفرقُ أنَّه سُئِلَ: أَأَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الغَنَمِ؟ قَالَ: **«إِنْ شِئْتَ فَتَوَضَّأْ، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَوَضَّأْ»**. قَالَ: أَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الإِبِلِ؟ قَالَ: **«نَعَمْ فَتَوَضَّأْ مِنْ لُحُومِ الإِبِلِ»**[١].

أخذْنا من هَذَا أن قولَه في لحمِ الإِبلِ: **«نَعَمْ»** يعني الوجوب؛ لأَنَّه قال في لحمِ الغنمِ: **«إِنْ شِئْتَ»**، ولو كان الأمرُ لغيرِ الوجوبِ في لحمِ الإبلِ لكان دَاخلًا تحتَ المشيئةِ؛ إن شاءَ الإِنْسَانُ توضَّأ وإنْ شاءَ لم يتوضَّأْ؛ لأن الأمرَ المستحبَّ ليسَ أمرًا حتمًا على الإِنْسَان، بل له أن يتركَهُ.

إذن لا حاجةَ أن نقول: ما الفرقُ؛ لأَنَّنا لو فَتَحْنا على أنفسِنا هَذَا البابَ لَقالَ قائلٌ: لماذا كانت الظُّهْرُ أربعَ ركعاتٍ، ولم تكن ثمان ركعاتٍ؟ فهذهِ أمورٌ علينا فيها الاستسلامُ والسَّمعُ والطَّاعةُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٣٦٠).

الدَّرس الثَّاني:

إن الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنَّا، منْ يهدهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورَسولهُ، أَرسلَهُ اللهُ بالهدَى ودينِ الحقِّ.

والهُدى هوَ العلمُ النَّافعُ، ودينُ الحقِّ هوَ العملُ الصَّالحُ.

فبلّغَ الرِّسالَةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأمةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلهِ وأصْحابِه ومَن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ. وأسألُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يجعلَنَا ممَّن اتبعُوهم بإحسانٍ.

أيها الإخوةُ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان:٣٤].

هذهِ خمسةُ أشياءَ اختصَّ اللهُ بها، وهيَ مفاتحُ الغيبِ التي قالَ اللهُ فيها: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

إن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وَسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، خلقَ الإنْسانَ ويعلمُ ما تُوسوسُ بهِ نفسُه، ويعلمُ مِن حالِ العبدِ ما لا يَعلمُه العبدُ -اللهمَّ إني أستغفرُك لما لا أعلمُ- قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ

﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

إن اللهَ يعلمُ مِن حالِك ما لا تَعلمُه أنتَ، إن اللهَ يعلمُ مستقبلَك وحاضرَك وماضيكَ، ولمّا قالَ فرْعونُ لموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:٥١]؟ أجاب: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، لا يَضلُّ يعني لا يجهلُ، فهو عالمٌ بها تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا ينسى ما علم، فعلمُه عَزَّوَجَلَّ أزَليٌّ أبديٌّ، أزلي في السَّابقِ، أبديٌّ في المستقبلِ، فهو جَلَّ وَعَلَا بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والأرْضُ إما برٌّ وإما بحرٌ، فالله تعالى يعلمُ ما في البرِّ والبحر، و(مَا) هنا اسمُ موصولٍ، تفيدُ العمومَ، أي إنهُ يعلمُ كلَّ شيءٍ في البرِّ والبحرِ، قَرُبَ أو بَعُدَ.

قولُه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أيُّ ورقةٍ تسقطُ من أيِّ شجرةٍ كانتْ في أيِّ مكانٍ كانتْ، وفي أيِّ زمانٍ، فإن اللهَ تعالى يعلمُها، وإذا كانَ اللهُ تعالى يعلمُ الأوراقَ السَّاقطةَ من أشجارِها، فعِلمُه بالأوراقِ المخلوقةِ من بابِ أولى، فإذا كانتِ الورقةُ إذا سقطتْ علِمَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ متى سقطتْ، وفي أيِّ مكانٍ سقطتْ، فهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالمٌ بالأوراقِ المخلوقةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى خالقُ كلِّ شَيءٍ.

قولُه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي مَا مِنْ حَبَّةٍ في ظلماتِ الأرْضِ إلا ويعلمُها عَزَّوَجَلَّ. و(ظلماتُ الأرْضِ): ظلمةُ اللَّيلِ، وظلمةُ البحرِ، وظلمةُ القاعِ، وظلمةُ السحابِ، وظلمةُ المطرِ، فإذا فرضنَا أن حبةً صغيرةً لا يُدركُها الطرَفُ، قد غاصتْ في قاعِ البحرِ، في ليلةٍ مظلمةٍ، في ليلةٍ ممطرةٍ، فالظلمةُ الأولى في هذهِ الحبةِ هيَ ظلمةُ الطينِ التي هيَ غائصةٌ فيهِ، والظلمةُ الثَّانيةُ ظلمةُ ماءِ البحرِ، والظلمةُ

الثَّالثةُ ظلمةُ اللَّيلِ، والظلمةُ الرَّابعةُ ظلمةُ السحابِ، والظلمةُ الخَامسةُ ظلمةُ المطرِ، فهذهِ الظلماتُ، وربما يكونُ هناك ظلماتٌ أخرى، فإذا كانَ هناكَ حبةٌ في هذهِ الظلماتِ فإن اللهَ يَعلمُها، فما بالُكَ بما كانَ ظاهرًا.

إذنْ علمُ اللهِ تعالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ.

وفي آخرِ الآيةِ قالَ: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ومعلومٌ أن الأشياءَ إما رطبةٌ وإما يابسةٌ، فما مِن رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ. والكتابُ المبينُ هوَ اللوحُ المحفوظُ، وهو لوحٌ عظيمٌ، لا نعلمُ مِن أيِّ مادةٍ هوَ، ولا يَعلمُ قدرَهُ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لكنهُ لوحٌ عظيمٌ واسعٌ، كتبَ اللهُ فيهِ مقاديرَ كلِّ شيءٍ إلى يوم القيامةِ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَم، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ**»[1].

لا إلهَ إلا اللهُ، القلمُ مِن أيِّ مادةٍ هوَ؟ اللهُ أعلمُ، هذا مِن أمورِ الغيبِ التي لم نُخبَرْ عنها، والواجبُ على العبدِ أن يُصدقَ بما أخبرَ اللهُ بهِ ورَسولُه، سواءٌ علمَ وجهَ ذلكَ أم لم يعلمْ، واللوحُ المحفوظُ أيضًا ما نَدري مِن أي مادةٍ هوَ؛ لأن علمَ هذا عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

القلمُ أُمرَ بالكتابةِ، قالَ: ربِّ وماذا أكتبُ؟ والقلم لم يتأخرْ عن تنفيذِ الأمرِ، والأمرُ هنا مجملٌ: اكتبْ، فيحتاجُ إلى بيانٍ: ماذا أكتبُ، فهذا يعني أنهُ مستعدٌّ للكتابةِ لكنهُ لا يَدري ما الذي يكتبُ، قالَ: اكتبْ ما هوَ كائنٌ إلى يومِ القيامةِ، فجرى في تلكَ السَّاعةِ بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ.

هذا الكتابُ -أعني اللوحَ المحفوظَ- كُتبَ فيهِ كلُّ شيءٍ، فما أصابَ الإِنْسانَ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ن، رقم (٣٣١٩).

لم يَكنْ ليخطئَهُ، وما أخطأَهُ لم يَكنْ لِيُصيبَهُ، فإذا نزلَ القضاءُ والقدرُ فلا تقلْ: لَيتني لم أفعلْ، ولا تقلْ: لو أني فعلتُ كذا لكانَ كذا، إن الأمرَ لا يمكنُ أن يتغيرَ عما وقعَ، فما كانَ فلن يتغيرَ ولنْ يتقدمَ ولن يتأخرَ.

والإِنْسانُ مأمورٌ بفعلِ الأسبابِ الواقيةِ قبلَ وقوعِ الشيءِ، أما بعدَ وقوعِ الشيءِ فليسَ لهُ إلا التسليمُ، ولا يمكنُ أن يتغيرَ، فتغييرُ الحَالِ الواقعِ منَ المُحالِ، ولكنِ الإِنْسانُ مأمورٌ بأن يفعلَ الأسبابَ.

ولهذا قالَ النبيُّ صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وسلمَ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»[1].

والآنَ إلى الآيةِ التي نحنُ بصددِها:

فسرَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مفاتحَ الغيبِ فقالَ: «**خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ**». وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[2].

قالَ: ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ والمرادُ السَّاعةُ العظمى، السَّاعةُ التي قالَ اللهُ عنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب: لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، رقم (١٠٣٩)، واللفظ لأحمد (٢/ ٢٤).

سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢].

يَعني النَّاس في انزعاجِهِم واختلافِ تصرفِهِم تراهُم سكارى؛ أي كالسكارَى، وما همْ بسُكارى، ولكنْ أذهلَهُمُ العذابُ الشديدُ.

وهنا قالَ: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾، والمعروفُ أن الوصفَ الخَاصَّ بالمرأةِ لا يحتاجُ إلى ذكرِ التَّاءِ، وهذهِ قاعدةٌ نحويةٌ عربيةٌ: كلُّ وصفٍ يختصُّ بالمرأةِ لا يحتاجُ إلى التَّاءِ الفارقةِ؛ لأن تاءَ التأنيثِ يُؤتى بها للفرقِ بينَ المذكرِ والمؤنثِ، فالوصفُ الخَاصُّ بالأُنثَى لا يَحتاجُ إلى التَّاءِ، فالمرأةُ يكونُ في بطنِها الجنينُ نقولُ: هيَ امرأةٌ حاملٌ، وليسَ حاملة؛ لأن الوصفَ مختصٌّ بالأُنْثَى، فلا يوجدُ رجالٌ يحملونَ أبدًا، وهذا خاصٌّ بالأُنْثَى. ولا تقولُ: امرأةٌ حاملٌ متاعَها، فهذا خطأٌ، بل نقولُ: امرأةٌ حاملةٌ؛ لأن حملَ المتاعِ مشتركٌ بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ.

وكذلكَ مرضعٌ، فالمرضعُ خاصٌّ بالمرأةِ، فلماذا قالَ هُنا: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، مع أن المرضعَ خاصٌّ بالأُنْثَى، قالَ العُلَماءُ: إذا قُصِدَ الفعلُ دونَ الوصفِ جاءتِ التَّاءُ، فالمعنى: كلُّ مُرضِعةٍ أي تُرضعُ طفلها بالفعلِ، تذهَلُ عنهُ، ومع أنهُ يَرضعُ منها فإنها تَذهلُ، لكنِ امرأةٌ مرضعٌ وإن كانَ الولدُ بعيدًا عنها نقولُ: هيَ مرضعٌ، وهذا وصفٌ، فإذا قُصِدَ الفعلُ جاءتِ التَّاءُ.

أقولُ: هذهِ السَّاعةُ التي عِلمُها عندَ اللهِ، لو أن أحدًا منَ النَّاسِ ادَّعى أن السَّاعةَ سوفَ تقومُ في القرنِ العشرينَ فإن هذا لا يصحُّ، ونقولُ لهُ: كاذبٌ، كاذبٌ، فلا يمكنُ لأحدٍ أن يعلمَ متى تقومُ السَّاعةُ أبدًا؛ لا مَلَكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ، ولهذا لما سألَ جبريلُ النبيَّ ﷺ عنِ السَّاعةِ قالَ: «**مَا المسؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَم مِنَ السَّائِلِ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم السَّاعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

فإذا كانَ أشرفُ البشرِ لا يعلمُها، وأشرفُ الملائكةِ لا يعلمُها، فمَن دُونَهما من بابِ أَوْلى، إذنْ علمُ السَّاعةِ عندَ اللهِ وحدَه عَزَّوَجَلَّ، ولا أحدَ يمكنُ أن يعلمَ السَّاعةَ متى تقومُ، ومنِ ادَّعى علمَ السَّاعةِ فهوَ كافرٌ كاذبٌ؛ لأنه مكذبٌ للقرآنِ.

قولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي المطرَ الذي يُغاثُ بِهِ النَّاسُ، فهناكَ مطرٌ لا يغاثُ بِهِ النَّاسُ؛ قالَ النبيُّ ﷺ: **«لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ شَيْئًا»**[1]، سبحانَ اللهِ! ولهذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ دونَ: وينزلُ المطرَ؛ لأن المطرَ قد ينفعُ وقد لا ينفعُ.

ولهذا أحيانًا تجدُ الأمطارَ تكثرُ ولكن لا تُنبتُ الأرْضُ شيئًا، أو تنبتُ شيئًا قليلًا لا يقابلُ ما حصلَ منَ الأمطارِ، وأحيانًا تنزلُ أمطارٌ قليلةٌ ويجعلُ اللهُ فيها بركةً كثيرةً فتنبتُ الأرْضُ وتخصبُ.

إذنْ ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ يعني: ينزلُ المطرُ الذي يُغاثُ بهِ النَّاسُ، ولا أحدَ يَقدرُ على هذا، قيلَ: إنهم حاولُوا أن يُنشئُوا سحابًا صناعيًّا كما صنعوا اللبنَ الصناعيَّ، فيحاولونَ أن يَجعلوا سحابًا صناعيًّا، ولو قُدر في سنواتٍ مستقبلَةٍ أن ذلكَ كان فلا يكونُ بهِ الغيثُ، ولا ندري الآنَ ماذا يكونُ، لكن لو فُرِضَ أن أحدًا من هؤلاءِ آتاهُ اللهُ علمًا في أمورِ الدُّنيا واستطاعَ أن ينشئَ بخارًا ويكثفَه ثم يسلطُ عليهِ موادًّا تُنزلُ الماءَ، لو فُرِضَ هذا فنقولُ: هذا الماءُ الذي يَنزلُ لا يمكنُ أن يكونَ به الغيثُ، وهذهِ هيَ الحكمةُ في قولِه جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾.

قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ (ما) اسمُ موصولٍ يفيدُ العمومَ، أي يعلمُ كلَّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل السَّاعة، رقم (٢٩٠٤).

ما في الأرحامِ، و(أل) في الأرحامِ تفيدُ التَّعريفَ، لكن منْ حيثُ المعنى تفيدُ العمومَ، أي كلَّ رحمٍ. فالذي يعلمُ جميعَ ما في الأرحامِ وفي كلِّ رحمٍ هوَ اللهُ، ولا أحدَ يعلمُ ما في الأرحامِ.

لكنْ ما هيَ جهةُ العلمِ المقصودةُ؟ هلِ المرادُ: ذكرٌ هوَ أو أنثى؟

الجوابُ: لا؛ لأنهُ لا يعلمُ أَذكَرًا هوَ أم أنثى في الرَّحمِ مَن سوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فالملَكُ الموَكلُ بالأرحامِ إذا أرادَ اللهُ أن يخلقَ الجنينَ ووَكَّلَ بهِ الملَكَ يقولُ الملَكُ: يا ربِّ، أَذَكَرٌ أم أنثى؟ فيقولُ: ذكرٌ أم أنثى، وحينئذٍ يكونُ عندَ الملَكِ علمٌ أيضًا.

وتَوصلَ النَّاسُ الآنَ بواسطةِ الأشعةِ الدقيقةِ إلى أن يَعلمُوا أن الذي في الرَّحمِ ذكرٌ أو أنثى، وحينئذٍ تبينَ أنهُ ليسَ المقصودُ منَ الآيةِ الذكورةَ والأنوثةَ، لكنِ المقصودُ شيءٌ آخرُ؛ فهذا الذي في الرَّحمِ هلْ أحدٌ يعلمُ أنه سَيخرجُ حيًّا أو ميتًا؟ فهذا لا يمكنُ، وهل أحدٌ يعلمُ أنهُ إذا خرجَ ستطولُ مدتُه في الدُّنيا أو تَقصُر؟ لا، وهلْ أحدٌ يعلمُ أن هذا الجنينَ سيكونُ غنيًّا أو فقيرًا؟ وهلْ يعلمُ أنهُ سيكونُ بارًّا أو فاجرًا؟ لَا، إذنْ متعلقاتُ العلمِ كثيرةٌ ولا يَعلمُها إلا اللهُ.

قولُه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ نفسٌ نكرةٌ في سياقِ النَّفي، وقدْ قالَ العُلَماءُ: إن النكرةَ في سياقِ النَّفي تفيدُ العمومَ، إذنْ أي نفسٍ لا تَدري ماذا تكسبُ غدًا، أي ماذا تحصلُ عليهِ، وإن كانَ الإِنْسانُ يَقدرُ أنهُ سيفعلُ غدًا كذا وكذا، ولكنهُ ليسَ عندَه علمٌ بأن ذلكَ سيحصلُ، ومِن ثم جاءَ التعبيرُ بالكسبِ دونَ الفعلِ.

ولذلكَ كانَ لا يجوزُ للإِنْسانِ أن يقولَ: إني فاعلٌ ذلكَ غدًا إلا مقرونًا بمشيئةِ اللهِ، يعني لا تَجزم وتقولُ: غدًا سأفعلُ كذا، على أنكَ ستفعلُه فعلًا، بلْ قلْ: إن شاءَ

اللهُ، فإن لمْ تقلْ: إن شاءَ اللهُ فقد عصيتَ ربَّك: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]، أما إذا كنتَ تخبرُ عما تريدُ أن تفعلَ فلا بأسَ، فإذا قالَ لكَ مثلًا: متى تسافرُ؟ قلتَ: تسافرُ غدًا تخبرُ خبرًا فليسَ معنى ذلكَ أنكَ تجزمُ بأنكَ ستسافرُ؛ لأنهُ ربما يَعرضُ لكَ عارضٌ فتسافرُ قبلَ غدٍ، وربما يَعرضُ لكَ عارضٌ فتتأخرُ عن غدٍ، فأنتَ الآنَ مخبرٌ عما في ضميرِك، فلا يَلزَمُك أن تقولَ: إن شاءَ اللهُ.

وانتبهُوا لهذا الفرقِ؛ لأن بعضَ النَّاسِ يَشتبهُ عليهِ، فإذا أردتَ أن تخبرَ عن شيءٍ ستفعلُه غدا فَلا يَلزَمُكَ أن تقولَ: إن شاءَ اللهُ؛ لأنكَ تخبرُ عما في ضميرِكَ، وما في ضميرِك أمرٌ كائنٌ، لكنْ إذا قلتَ: إني فاعلٌ ذلك غدًا بمعنى أنكَ ستفعلُه فعلًا، فهذا لا يجوزُ، إلا أن تقولَ: إن شاءَ اللهُ؛ لأنكَ قد تحصلُ على هذا وقدْ لا تحصلُ.

إذنْ لا تعلمُ نفسٌ ماذا تكسبُ غدًا، فالإِنْسانُ يَقدرُ ويقولُ: سأفعلُ وسأفعلُ وسأفعلُ، وإذا بهِ تُصرفُ همتُه عما أرادَ، أو يُحالُ بينَه وبينَ ما أرادَ.

فأنتَ الآنَ تقدرُ أنكَ ستفعلُ كذا وكَذا، لكنْ أنتَ لا تجزمُ بأنكَ ستفعلُ؛ لأنهُ ربما تُصرفُ الهمةُ؛ كما هوَ مجربٌ؛ يكونُ الإِنْسانُ جازمًا على أن يفعلَ كذا ويفعلَ كذا، وإذا بهِ يُصرفُ، ويكونُ جازمًا على الفعلِ مستعِدًا له وإذا بالمانعِ يحصلُ، وهذا المانعُ إما قدَريٌّ وإما شرعيٌّ. فإذنْ لا تقولنَّ لشيءٍ: إني فاعلٌ ذلكَ غدًا إلا أن يشاءَ اللهُ.

سُئلَ أعرابيٌّ -والأعرابيُّ هوَ البدويُّ، والغالبُ على أهلِ البدوِ أنهم على فطَرِهم- قيلَ لهُ: بمَ عرفتَ ربَّك؟ قالَ: بنقضِ العزائمِ وصرفِ الهممِ.

يعني الإنسَان دائمًا يَعزمُ على الشيءِ وإذا بهِ تَنتقضُ عزيمتُه بدونِ أي سببٍ ظاهرٍ، والذي نقضَ العزيمةَ هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وكذلكَ صَرفُ الهممِ، فيكونُ الإنسانُ هامًّا بشيءٍ وإذا بهِ ينصرفُ عنهُ بدونِ سببٍ معلومٍ، وهذا من علاماتِ أن للكونِ مدبرًا فوقَ إرادةِ العبدِ.

وسئلَ أعرابيٌّ آخرُ: بمَ عرفتَ ربَّك؟ فقالَ: «الأثرُ يدلُّ على المسيرِ» يعني إذا وجدتَ على الأرْضِ أثرَ قدمٍ عرفتَ أنه قد سارَ على هذا سائرٌ منَ النَّاسِ، «والبَعرةُ تدلُّ على البعيرِ» إذا وجدتَ بعرةً عرَفتَ أنهُ قد مرَّ بهذا بعيرٌ، «فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وبحارٌ ذاتُ أمواجٍ، وأرضٌ ذاتُ فجاجٍ، ألا تدلُّ على السميعِ البصيرِ؟»[1]

الجوابُ: بلى واللهِ.

فالحَاصلُ أنَّ كلَّ نفسٍ لا تدرِي ماذا تكسبُ غدًا.

قولُه: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ فلا أحدَ يدري أنهُ سيموتُ في المكانِ الفلانيِّ، ولا يمكنُ أن يَعلمَ، فلا يدري أيموتُ في بيتِهِ أو في السوقِ أو في المسجدِ، أو في بلدٍ آخرَ، أو في الجوِّ أو في البحرِ، وكثيرٌ منَ النَّاسِ يكونُ في بلدِه آمنًا مطمَئنًا، ولا يطرأُ على بالِه إطلاقًا أن يسافرَ عنهُ، وإذا حانَ الأجلُ نُقلَ قهرًا عليهِ إلى المكانِ الذي قَدرَ اللهُ أن يموتَ فيهِ، والإنْسانُ ما يَدري، فقد تحصلُ حواصلُ في الطرقِ فيموتُ الإنْسانُ في الطَّريقِ؛ هذا الطَّريقُ الذي ليسَ يعرفُه، ولا قُدرَ أنهُ يَبقى فيه، فيتغدَّى أو يَتعشى الإنْسانُ في مكانٍ ما قُدرَ أن يَبقى فيهِ وإذا بالمنيةِ توافيهِ في هذا المكانِ.

إذنْ لا أحدَ يدري بأيِّ أرضٍ يموتُ، ولا أحدَ يدري بأيِّ زمنٍ يموتُ؛ لأنهُ

---

(١) تفسير الرَّازي (٢/ ٣٣٤).

إذا انتَفى علمُ الإِنْسانِ بمكانٍ وفاتِه فانتفاءُ علمِه بزمانٍ وفاتِه من بابِ أولى؛ لأن المكانَ يتصرفُ الإِنْسانُ فيهِ، فيُمكن أن يمكثَ هنا أو هنا، لكنِ الزَّمانُ ما يتصرفُ فيه.

فالحَاصلُ أن اللهَ تعالى عندَهُ مفاتحُ الغيبِ في هذهِ الخمسِ.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ عليمٌ من أسماءِ اللهِ، وخبيرٌ من أسماءِ اللهِ، والفرقُ بينهما أن الخبرةَ هيَ العلمُ ببواطنِ الأمورِ، والعلمُ يشملُ العلمَ بالظواهرِ والبواطنِ، فتكونُ الخبرةُ أخصَّ منَ العلمِ.

نسألُ اللهَ تعالى أن يَنفعَنَا بما علمَنَا، والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصَّالحَاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبينَا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِهِ.



الدَّرس الثَّالث:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فهَذِه هِي مَفَاتِحُ الغَيبِ؛ وَسُمِّيت مَفَاتحَ؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ مِنْها فَاتحةٌ لِشيءٍ بَعْدَه. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ فَالسَّاعةُ، فَاتحةٌ لِلآخرةِ التِي هِيَ النِّهايةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ والغيثُ، فَاتحةٌ لحياةِ النباتِ. وَقوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ فَاتحةٌ لحَيَاة كلِّ شيءٍ. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ فاتحةٌ لِلزَّمنِ المستقبلِ. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فاتحةٌ لِقِيامة كلِّ إنسانٍ بِحَسبه.

فَعلمُ السَّاعةِ هُوَ القيامَةُ العَامةُ، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قيامَةُ كلِّ إنْسانٍ؛ لأنَّ مَن مَاتَ قَامتْ قِيامتُهُ.

أوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾.

علمُ السَّاعةِ لَا يُمكنُ لِأحدٍ أَنْ يُدركَهُ إِلَّا الربُّ عَزَّوَجَلَّ فهَا هُوَ أَفضلُ الرسلِ منَ الملائكةِ جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَسألُ أفضلَ الرسلِ مِنَ البَشَرِ مُحَمَّدًا ﷺ، وَيقُولُ لَهُ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ»، فَيقـولُ النبيُّ ﷺ لهُ: **«مَـا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَم بِهَا مِنَ السَّائِلِ»**[1]، أَي: عِلْمي وَعِلمك فِيها سَواءٌ، فَكَما أَنَّك لَا تَعْلمها، فأنَا كَذلك لَا أَعْلَمها؛ وَلِهذا مَنِ ادَّعى عِلمَ السَّاعَةِ فَهوَ مُكذبٌ للقرآنِ، وَمُكذبٌ لِلسنةِ، ومُكذبٌ لِإِجماعِ المسلمينَ، وَخَارجٌ عنِ المسلمينَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨).

فمنْ يَدَّعي أَنَّه يَعلم مَتَى تكونُ السَّاعَةُ فَهو كَافرٌ؛ لِتكْذيبهِ القرآنَ وَالسَّنةَ وَإِجْماعَ المسلمينَ[1]، يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وَقالَ تَعالَى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف:٨٥]، وتَقديمُ الخبرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يُفيدُ الحصرَ؛ لأنَّ مِن طُرقِ الحصرِ تَقديمَ مَا حقُّهُ التَّأخيرُ.

أمَّا مَن يُصدِّقُ مَنِ ادَّعى عِلمَ السَّاعةِ فإنَّهُ يَكفر؛ لأنَّ مَن صدَّقَ مَا يُكذِّبُ القرآنَ أَوِ السنةَ فقَد كَذَّبَ القرآنَ وَالسنةَ، وعَلَى هَذا فَلا يُمْكن أَنْ نُصدقَ شَخْصًا يَدَّعي أَنَّه يَعْلم مَتَى تكونُ السَّاعةُ، وَمَنْ صَدَّقه فَهو كَافرٌ لِتكْذيبهِ الكتابَ والسنةَ وَإِجماعَ المسلمينَ.

فإنْ قِيل: هَلْ لِلسَّاعةِ عَلاماتٌ؟

قلنَا: نَعَمْ، قَالَ تَعالَى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٨].

ثَانيًا: قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾.

وَاللهُ لَم يَقلْ: «يَعْلم نُزُولَ الغيثِ»، بَل قالَ تَعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، وإِذَا كانَ تَنْزيلُ الغيثِ لَيس لِأَحدٍ سِوَى اللهِ، فَعِلْمُ نُزُولهِ لَيسَ لأحدٍ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإنْ قِيلَ: مَا الحكمةُ فِي أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قالَ فِي السَّاعةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، وفِي الغيث قال: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ دُون أَنْ يَقولَ: «وَيَعلم نُزُولَ الغيثِ»؟

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٥١٨).

قُلْنا: الحكمةُ -وَاللهُ أَعْلمُ- أنَّ الذِي يَنْفعُ النَّاسَ، وَيَسْتفيد مِنهُ النَّاسُ وَيَلْمسونه بِأَيْديهم هُوَ الغيثُ، وَنُزُولُ الغيثِ يَكونُ مِفتاحًا لِحَيَاةِ الأرْضِ، فَلَا يَعْلمُ مَتَى يَنْزِلُ المطرُ إِلَّا اللهُ؛ لأنَّ الذِي يُنْزِلُ المطرَ وَيُنزلُ الغيثَ هوَ اللهُ.

فإنْ قَال قَائلٌ: نَسْمعُ فِي الإِذَاعاتِ أنَّهم يَقُولون: سَيَنْزل غَدًا مَطرٌ فِي جِهَاتٍ مُعينةٍ، فَهَل هَذا يُنَافي أَنَّ عِلمَ نُزولِ الغيثِ خَاصٌّ بِاللهِ؟

فالجَوَابُ: هذَا مِمَّا يُشكَلُ عَلى كَثيرٍ منَ النَّاسِ، فيظنُّ أنَّ هَذِهِ التَّوقُّعاتِ التِي تُذَاعُ فِي الإِذَاعاتِ تُعَارض قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩]، وَالحقيقَةُ أنَّها لَا تُعارضُ ذَلِك؛ لأنَّ عِلْمَهم بِهَذا عِلمٌ مُسْتندٌ إِلى مَحْسوس لَا إِلَى غيبٍ، وَهَذَا المحسُوسُ هُوَ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حَكيمٌ، ومِنْ حِكمتِهِ أنَّ الأشياءَ مَرْبوطةٌ بِأَسْبابِها، لكنْ قَد تَكونُ الأَسبابُ مَعْلومةً لكلِّ أحدٍ، وَقَدْ تَكونُ مَعلومةً لِبَعضِ النَّاسِ، وَقَدْ تَكونُ غَيْرَ مَعلومةٍ لِأَحدٍ، فَإِنَّنا لَا نَعْلمُ سَببَ كلِّ شيءٍ وَحِكمةَ كلِّ شيءٍ.

فَالمطرُ إِذَا أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِنزالَهُ، فإنَّ الجوَّ يَتَغيرُ تَغيرًا خَاصًّا يَتكون مَعه السَّحَابُ، ثُمَّ نُزُولُ المطرِ، كَما أنَّ الحَامِلَ عِنْدَما يُريدُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنْ يُخرجَ مِنْهَا الولدَ يَنْشأُ الجنينُ فِي بَطْنها شَيْئًا فَشَيْئًا حتَّى يَصلَ إِلى الغايَةِ، فَهؤلاءِ عِنْدهم مَرَاصدُ دَقيقةٌ يَعْلَمون بِهَا أنَّه سَيكون مَطرٌ؛ وَلِهَذا نَجِدهم لَا يَتَجاوز عِلْمُهم أكثَرَ مِن ثَمانٍ وَأَرْبعين سَاعةً، أَو عَلَى مَدَى ثَلاثةِ أيامٍ، فَعِلْمهم مَحْدُود؛ لأَنَّه مَبْنيٌّ عَلَى أَسْباب حِسيَّة لَا تُدْرك إِلَّا بِوَاسطةِ هذِهِ الآلاتِ.

ونحنُ بِحسِّنا القَاصِر إِذَا رَأَيْنا أنَّ السَّماءَ مُلبدةٌ بِالغُيوم، ورَأَيْنا هَذَا السَّحابَ

يَرعدُ ويَبرقُ فَتَتوقع نُزولَ المطرِ، وهُم كَذَلك يَتَوقعون إِذَا رَأَوا منَ الجوِّ تكيفًا مُعينًا يَصْلحُ مَعَه أنْ يَكونَ المطرُ، وَحِينئذٍ لَا مُعَارضةَ بَيْنَ الآيةِ وَبيْنَ الواقِعِ، وهُم أَيضًا يَتَوَقعون تَوْقعًا رُبَّما يُخْطِؤُون فِيه وَرُبَّما يُصِيبونَ.

ثَالثًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، (مَا) اسمٌ موصولٌ يُفيدُ العمومَ، وَتَعلقُ العلمِ بهَذَا العَامِّ هُو تَعلقٌّ عَامٌّ أيضًا، فعِلمُ مَا فِي الأرحامِ لَا يَقْتصر عَلَى عِلْمِ كَونـهِ ذكرًا، أَو أُنْثى، واحدًا أَمْ مُتعددًا، بَلْ علمُ مَـا فِي الأرحَامِ أَشْملُ مِن ذَلكَ، فَيَشملُ كَونَه ذَكرًا أَو أنثى، واحدًا أَوْ مُتعددًا، وَيَشْمل كَونَه يَخْرجُ حيًّا أَو يَخْرجُ ميتًا، وَيَشْمل أَيضًا أَنَّ هذَا الجنينَ سَيَبْقى مدةً طويلةً فِي الدُّنْيَا، أَو مدةً قَصيرةً، وَيَشْملُ أَنَّ هذَا الجَنينَ سَيكُون ذَا مالٍ كثيرٍ، أَوْ فَقرٍ مُدقعٍ، وَيَشْمل أَنَّ هذَا الجنينَ سَيكونُ عَالِمًا أَو جَاهلًا، فكلُّ مَا يَتعلقُ بِهَذا الجنينِ يَدْخل فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ فَهُوَ شَاملٌ عامٌّ، وهذَا العلمُ خَاصٌّ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويُشكلُ عَلى هَذَا أَنَّه فِي عَصْرنَا الحَاضرِ توصَّل الطبُّ إِلى أَنْ يَعلمَ مَا فِي بَطْنِ الأُنْثى، أنَّ الجنينَ ذَكرًا أَوْ أُنثى، فَهل يُعَارضُ هذهِ الآيَةَ؟

الجوابُ: إِذَا عُلم بِمَا فِي بطنِ الحَاملِ أَنَّه ذكرٌ أو أُنَثى، فإِنَّه لَا يُعارضُ الآيَةَ؛ لأَنَّهم لَا يَعْلمون أَنَّه ذكرٌ أَو أُنثَى إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكونَ ذكرًا أَو أُنثى، أَمَّا قَبل ذَلِك فَلَا يَسْتَطيعونَ العلمُ بأَنَّهُ ذَكرٌ أَو أُنْثَى.

فإِنْ قِيلَ: إِذَا خُلِّق ذكرًا، أَو أُنْثى، فَهَل يَكونُ مِن عالمِ الغيبِ، أَمْ مِن عَـالمِ الشهادَةِ؟

قُلْنَا: هُو مِن عَالمِ الغيبِ عِنْد أَكثرِ النَّاسِ، ومِنْ عَالمِ الشَّهادَةِ عِند مَن يَحْصُل لَهُ العِلمُ بِذلكَ، فَالمَلَكُ يُرْسلهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى الرَّحمِ، فَيَقولُ الملكُ: يَا ربِّ، ذَكرٌ

أَم أنثَى؟ ويُعلمهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّه ذكرٌ أو أنثَى، فيَأْمرهُ اللهُ تعَالَى بِمَا أَرَاد، فَصارَ هذَا علمَ شهادةٍ بِالنسبةِ للمَلَك، لَكن قَبل أَنْ يَكونَ ذكرًا أَو أُنثى، فَهُو علمُ غيبٍ حتَّى لِلْمَلائكةِ، فكونه يَكون عِلْمَ شَهَادةٍ بِوَاسطةِ تَقدمِ الطبِّ لَا يُعَارِضُ الآيةَ الكريمَةَ.

ثَانيًا: ذَكرنا أنَّ عِلمَ مَا فِي الأرحامِ لَا يَختصُّ بِعِلْمِ كَونِهِ ذَكرًا أَو أُنْثَى؛ وَلهَذَا لَا يُمْكنُ لأَحدٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامةِ أَنْ يَقولَ: هذَا الجَنِينُ سَوْفَ يَخْرجُ وَيَبْقى مُدةً طَويلةً أَو قَصيرةً، وَيَكون غنيًّا أَو فقيرًا، عَالِمًا أَوْ جَاهلًا، طَويلًا أو قَصيرًا؛ لأَنَّ هذَا أمرهُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَفِي هذَا تبيَّنَ أَنَّ مَا يَتحدثُ عنهُ الأطباءُ اليومَ مِنْ إِمكانِ مَعْرفةِ الجنينِ أَنَّه ذَكرٌ أَوْ أُنْثى، لَا يُعَارِضُ الآيةَ.

فَائدةٌ:

مَا صحَّ منَ السُّنَّةِ والقرآنِ فإِنَّهُ لَا يُمكنُ أَنْ يُعارِضَ الواقعَ، فكلُّ مَا جَاء بِهِ القرآنُ وَصَحَّت بِهِ السُّنَّةُ، فإِنَّهُ لَا يُمكن أَنْ يُعارضَ الواقعَ.

فإِنْ قيلَ: هَل تَعبيرُ (مَا صحَّ منَ القرآنِ والسُّنَّةِ)، صَحيحٌ أَمْ خطأٌ؟

قلنَا: التَّعبيرُ سليمٌ، لَكن معَ ذَلك خَوفًا مِنْ أَنْ يَقولَ أَحدٌ منَ النَّاسِ: إنَّ هذَا التعبيرَ مُوهِمٌ، نَقولُ: كلُّ مَا جَاء بِهِ القرآنُ وَصَحت بِهِ السنةُ، فإِنَّهُ لَا يُمْكن أَنْ يُعارضَ الواقعَ، أبدًا؛ لأَنَّ الواقعَ شيءٌ مُتيقَّنٌ، وَدِلَالةُ الكتابِ وَالسُّنَّةِ لَا يُمكنُ أَنْ تُعارِضَ الشّيءَ المتيقَّنَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ انظرْ إِلَى التَّعبيرِ: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ فَقد يُرتبُ الرَّجلُ عَمَله فِي المكتبِ، وَيُرتب شُؤُونَه، وَيَقول: غدًا أَنَا إِنْ شاءَ اللهُ

آتِي أَول سَاعةٍ منَ العملِ، مِنْ وقتِ الدَّوَامِ، وعِنْدي المعامَلةُ الفُلانيَّةُ، وَالمعاملَةُ الفُلانيةُ، وَالمعاملَةُ الفُلانيَّةُ، يُرتِّبهَا، لكِن لَا يَعلمُ هَل يَكسبُ هَذا الذِي عَلِمه، وَيَحصل لَه، أَو لَا؟ فَأَنت قَد تُخطِّط لِعملٍ مُستقبليٍّ لَكن لَا تكسبهُ، وَيَحول بَيْنك وَبَيْنه مَانعٌ مِن مَوتٍ، أَو مرضٍ، أَو شُغلٍ آخرَ تَرى أَنَّه أفضلُ مِنْهُ، أَو مَا أَشْبهَ ذَلك؛ وَلِهَذا يَقولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

قَولهُ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، فَلا أَحدَ يستطيعُ أَنْ يَحكمَ بأَنَّه سَيموتُ فِي الأَرْضِ الفلانيَّةِ، وَقَد يَقولُ الإِنسانُ: لَنْ أَخرجَ مِنْ بَلدِي، وَسَأَموتُ بِهَا، ولَكِن هذَا لَا يَتِمُّ أبدًا، فأَحيانًا يَكونُ الإِنْسانُ فِي بلدٍ وَلَا يَخرجُ أبدًا مِنْ بَلدِهِ، فَيَمْرضُ، وتُحدِّثُه نَفْسُهُ أَنْ يُسافرَ لِلعلاجِ، فإِذَا وَصلَ البلدَ الذِي قَرَّر أَنْ يَتعالجَ فِيه، ماتَ فَوْرَ وُصولِهِ.

فَإِذا كُنت لَا تَدْري بأيِّ أَرضٍ تَموتُ، فَمِن بابِ أَوْلى لَا تَدْري بِأيِّ زَمنٍ تَموتُ؛ لأَنَّ الإِنْسانَ قَدْ يَكونُ لَه تَصرفٌ فِي المكانِ، فَيُحددُ الأَرْضَ الَّتِي يُحبُّ أَنْ يَموتَ فِيها، فَإِذَا كانَ لَا يَعلمُ هذَا، فَما بَالك بِالزَّمنِ الذِي لَا يُمْكن تَحديدُه أبدًا، فَالَّذي لَا يَعْلمُ المكانَ لَا يَعْلمُ الزَّمانَ مِن بَابِ أَوْلَى؛ وَلِذَلكَ أَمْثلةٌ:

المثالُ الأولُ: رَاكبانِ عَلَى درَّاجةٍ نَاريَّةٍ يَمرانِ بِشارعٍ فَرْعيٍّ، وهنَاكَ سَيَّارةٌ تَمرُّ بِالشَّارعِ العَامِّ، فَلما رَأَى صَاحبُ السيَّارةِ هذهِ الدَّراجَةَ، وَقَفَ مِن أَجلِ أَنْ تعْبرَ الدراجَةُ، والرَّاكبان عَلَى الدَّراجةِ النَّاريةِ لَما رَأَيا السيارَةَ وَقَفَا لِتَعبرَ السَّيارةُ، لكِنَّه فِي خلالِ دَقِيقةٍ أَو دَقيقتينِ، تَحركتِ السيارَةُ، وتَحرَّكتِ الدَّراجةُ النَّاريةُ وَاصطَدما، فَماتَ أَحَدُ الرَّاكبينَ، وَنُفسّر هَذا بأَنَّ الرَّجلَ الذِي مَات بَقِيَ لَهُ مِنْ عُمْرِهِ دَقِيقَتان أَو دَقِيقة،

وَلَوْ شَاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَعَبَرَ كلٌّ منَ السَّيارةِ وَالدَّراجةِ النَّاريةِ بِسَلامٍ، وهذِهِ منْ آيَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قَالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «...**أَنَّـهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَـهَا وَأَجلها**»[1].

المثالُ الثَّاني: كَانَ النَّاسُ قَدِيمًا يَأْتُون إِلَى مَكةَ عَن طَرِيقِ البَرِّ عَلى الجِمالِ، وكانَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الوقتِ يَنْزِلون جميعًا، وَيَسِيرون جَمِيعًا؛ لأنَّ البِلادَ غَيرُ آمنةٍ، فَخَرَج الحُجاجُ إِلَى مَكَّةَ، وكَانُوا يَمْشون فِي الرِّيعانِ -جِبَالٍ وَأَوْديةٍ- عَلى حُدُودِ الحِجازِ مِنْ نَجْدٍ، وكَانَ أَحدُ القومِ مَعَهُ أُمُّه مَرِيضةٌ وَهو يُمرِّضهَا، فَسارَ النَّاسُ مِنْ مَكانِ نُزُولِهم لَيْلًا، وهوَ جَالسٌ يُمَرِّض أُمَّهُ، وَيمهِّد لها الفِراشَ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَنامَ عَلَى الرَّاحِلةِ مُستقرَّةً، فصارَ القومُ، وَلَـما اطمَأنَّ منْ إِصلاحِ الرَّحلِ لِأُمِّهِ مَشى، ولكنَّهُ أَخْطأَ القومَ؛ لأنهمَّ تَجاوزُوا كَثِيرًا.

فَدخلَ فِي طَرِيق جَادةٍ صغيرةٍ مَعَ أَحَدِ الرِّيعانِ، وصَارَ يَمْشي وهوَ يَظنُّ أَنَّه عَلى إِثْرهم حتَّى ارتَفَعتِ الشَّمْسُ، وخَافَ عَلَى نَفْسه مِنَ العطشِ، فتَبَدى لَه خِباءُ بدوٍ -يَعْنِي: خيمةٌ صغيرةٌ- فَاتَّجه إِلَيْها، وَوَصَل إِلَيْهم، وقالَ: أَيْن طريقُ الحجاجِ؟ قَالُوا لَه: طَرِيقُ الحجَّاجِ وَرَاءك، لكنِ انزِل أَنْتَ والمرأةُ مَعَكَ حَتَّى تَسْتريحَ، وَنَدُلك، فَنزَلَ بِأمِّه، ومَا أَنْ وَضعَ أُمَّه علَى الأرْضِ حَتَّى فَاضَتْ رُوحُهَا.

فَمَنْ يَقولُ: إنَّ امرأَةً منَ القَصيمِ تَأْتِي إِلَى الحِجازِ، إِلى هَذِه الأماكنِ الَّتِي قَد لَا يَحلمُ أَنْ يَصلَ إِلَيْها، فَتموتُ فِي هذَا المكانِ، لَا يَحْدث ذَلِكَ إِلَّا مِصداقًا لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

---

(١) جامع الأصول من أحاديث الرَّسول، لابن الأثير (١٠/ ٧٥٨٦)، رقم (٧٥٨٦).

الدَّرس الرَّابع:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالِمين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبِيِّين، وإمَامِ المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

هَذِهِ خمسةُ أشياءَ هِيَ مفاتحُ الغيبِ المذكورةُ فِي قولِ اللهِ تَعَالَى فِي سُورةِ الأنعامِ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

فَهاتانِ الآيتانِ دَلَّتا عَلَى مَرْتَبتين منْ مَرَاتبِ القضاءِ وَالقدرِ؛ لِأَنَّ منْ أَرْكانِ الإيمانِ أَنْ تُؤْمنَ بالقدرِ، أَي: بِتقديرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلأَشياءِ قَبل وقُوعِها، والإيمانُ بِالقدرِ لَه مَراتبُ أربعٌ:

المرتَبَةُ الأُولَى: الإيمانُ بالعلمِ.

المرتبَةُ الثَّانيةُ: الإيمانُ بِالكتابةِ.

المرتبَةُ الثَّالِثةُ: الإيمانُ بالمشيئةِ.

المرتبةُ الرَّابعةُ: الإيمانُ بالخَلْقِ.

فهَذِهِ مراتبُ أربعُ لا يتمُّ الإيمانُ بالقدرِ إلَّا بِهَا.

المرتبةُ الأُولَى: الإيمانُ بالعلمِ:

الإيمانُ بالعلمِ: أَنْ تُؤْمِنَ بأنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلِمَ كُلَّ مَا يَكون فِي الأزلِ، أَي:

الماضِي، وفِي الأبـدِ، أي: فِي المستقبلِ، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَالِمُ بكلِّ شيءٍ: الماضِي والمستقبلِ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ وهَذَا المستقبلُ، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ وهَذَا الماضِي.

وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ مُوسَى حِين سألَهُ فِرْعَونُ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه:٥١] أي: مَا شَأْنها، وَمَا حَالها؟ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] مَعْنَى: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ أَيْ: لَا يَجْهلُ، فَهو لَا يَضلُّ المستقبلَ، ولَا ينسَى الماضِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ بالأدلَّةِ الَّتِي ذَكَرْتُ لكمْ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، [طـه:١١٠] ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

وهَذَا العلمُ إذا آمَن بِهِ الإِنْسَانُ أَوْجب لَه مُراقبةَ اللهِ فِي ظاهرِهِ وبَاطِنه؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَم مَا يَكُون فِي ظَاهِرك مِن قَول وعَمَل، ومَا فِي بَاطِنك مِن عَقِيدة وغَيْرها، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق:١٦].

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمانُ بِالكتابَةِ:

الإِيمانُ بِالكتابَةِ: أَنْ تُؤمنَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ فِي اللَّوحِ المحفوظِ مقَاديرَ كُلِّ شيءٍ، وليسَ لنَا أَنْ نَسألَ مِن أَيِّ مَادةٍ كَانَ هَذَا اللَّوح، هَلْ هُوَ مِن ذَهب أَو فضةٍ أَو زُمردٍ أَو مَرجانٍ، أو غيرِ ذلكَ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لَم يَسْألوا النَّبِيَّ ﷺ عَن ذَلِكَ، لَكننا نُؤمن بِأَنه لَوحٌ عَظِيم كُتِبَ فِيهِ مقَاديرُ كُلّ شَيْءٍ إلى أَنْ تَقومَ السَّاعةُ.

خَلَقَ اللهُ القلمَ، وهوَ قلمٌ لَا نَدْري مِن أَيِّ مَادةٍ هُو، قَالَ اللهُ لَهُ: «اكْتُبْ»؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (اكْتبْ) لَم يُذكر فيهَا المكتوبُ، فَالقلمُ مُسْتَعِدٌّ لِلتنفيذِ، لَكنهُ قَالَ: «اكْتُبْ

فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[١]، فكتب هَذَا القَلمُ بِأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مَا هُوَ كَائنٌ إِلى يَوْمِ القيامةِ، فَما قُدِّر فَلَن يَرْتفعَ، ومَا لَم يُقَدَّر فلن يَكون؛ وَلهَذَا أجمعَ المُسْلِمُونَ عَلَى هَذِهِ الكَلِمَةِ العظيمةِ (مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لم يَشَأْ لَم يَكُنْ).

فَالقلمُ كتبَ مَا هُوَ كائنٌ إلى يومِ القيامةِ، وانتهَى كُلُّ شَيءٍ، (مَا أَصاب الإِنْسَانَ لَم يَكن لِيُخطئهُ، ومَا أَخطأه لَم يَكن لِيُصيبه)؛ وَلهَذَا إِذا أَصَابتك مُصيبة «**فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا**»، فَما وَقَع لَا يُمكن أَنْ لَا يقعَ، وكُلُّ مَا وَقعَ فإِنَّنا نَعلمُ أَنَّ اللهَ قد قَدَّرَهُ، وأَنَّه لَا بُدَّ أن يَكونَ، فعلَيْنا بالرِّضا والتَّسليمِ.

المرتبةُ الثَّالِثةُ: الإيمانُ بالمشيئةِ.

والإيمانُ بالمشيئةِ: هُوَ أَنْ نُؤمنَ بِأَنَّ مَا فِي الكونِ كُلِّهِ بِمَشيئةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكذلكَ أفعالهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى، كالإحياءِ والإماتَةِ وإنزالِ المطرِ وهُبوبِ الرِّياحِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فلَا شَكَّ أنَّها بمشيئتِهِ؛ لِأَنَّها فعلُه، ولَا مُكْرِهَ لَه، ولَا أَحدَ يُجْبِرُه، بَل هُوَ الفَعَّالُ لِما يُرِيدُ، فتَعَلُّقُ المشيئةِ بِفعلِ اللهِ أمرٌ واضحٌ ولَا أَحدَ يُنْكرهُ.

فَإِنْ قِيلَ: هلْ أَفعالُ العبادِ بِمَشيئةِ اللهِ؟

قُلْنَا: نَعم، يَجب أَنْ نُؤمنَ بِأَنَّ حَرَكاتِنا وسَكَناتِنا بِمَشيئةِ اللهِ، والأدلَّةُ عَلَى ذلك كَثيرةٌ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٣] فَالاقتتالُ فِعْـلُ العبدِ، ومعَ ذلكَ قـالَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ إِذَنْ، اقتِتالُهم بِمَشيئةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهوَ فِعلُ العبدِ.

---

(١) أخرجه أحمد: (٣٧/ ٣٧٨، رقم ٢٢٧٠٥).

فإنِ احتجَّ العَاصِي وَقَالَ: إذَا كانتْ مَعْصيتي بِمَشيئةِ اللهِ، فكَيْف يُعَاقِبَني علَيْها وهِيَ بِمَشيئتهِ؛ فَلا يُمكنُ للإِنْسَانِ أَنْ يُعارِضَ مَشيئةَ ربِّه، فكَيْف يُعَذبُني علَيْها؟

وجَوابُ هَذِهِ الشبهةِ: منْ عندِ اللهِ تَعَالَى: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨] فَأَبْطَلَ اللهُ حُجَّتهم، فَقَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] أَيْ: عَذابُنا، ولَوْ كَانتِ الحُجَّةُ صحِيحةً مَا أَذَاقهمُ اللهُ بَأسَهُ؛ لِأَنَّ اللهَ لا يَظلِمُ أحدًا.

فَإِنْ قِيلَ: هلِ العَاصِي أقدمَ عَلَى المعصيةِ باختِيَاره، أَم هُوَ مُجبرٌ علَيْها؟

قُلْنَا: العَاصِي أَقـدمَ عَلَى المعصيةِ باخْتِيَاره لا شَكَّ، فيَمرُّ الرَّجـلُ بِحَاناتِ الخمورِ، وَبُيوتِ البغايَا، فإنْ شَاءَ مَالَ إِلَيْها وشرِبَ الخمرَ وزَنَا، وإِنْ شَاءَ استمرَّ فِي مَسِيرِه، إِذَنْ فعلُ المعصيةِ يَكُونُ بِاختِيَاره.

وَلهذَا لَو أُكْرِهَ الإِنْسَانُ عَلَى المعصيةِ لَم يَكن عَلَيْه إِثْمٌ، فَلو أَنَّ شخصًا أُكْرِهَ عَلَى الزِّنَا، بأنْ قِيلَ لَه: إِمَّا أَنْ تَزْنِيَ بهَذِهِ المَرْأَة أَو قَتَلْتُكَ، فزَنَا فلَا شَيْءَ علَيْه؛ لِأَنَّ هَذَا الفعلَ بغَيْرِ اخْتِيَارِهِ.

وكذلكَ لَو أُكْرِهَتِ المَرْأَةُ عَلَى الزِّنَـا، فزَنَـا بِها رجـلٌ، فلَيْس علَيْها شيءٌ، ولَو أُكْرِهَ رجـلٌ عَلَى أنْ يَسْجُدَ للصنَمِ فَسَجَدَ؛ خشيةَ أَنْ يُقْتَـلَ، فـلَا شَيْءَ علَيْه، ولَوْ أُكْرِهَ رجلٌ عَلَى أَنْ يَقُولَ: إِنَّ فِرْعونَ رَبٌّ، فقالها، فلَا شَيْءَ علَيْهِ.

والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ المكرهَ لَا شَيْءَ علَيْه قـولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل:١٠٦]، قَوْلُهُ: ﴿ مَن كَفَرَ

بِٱللَّهِ﴾ بِأيِّ نَوعٍ من أَنْواعِ الكُفْرِ؛ القوليِّ أو الفعليِّ، ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ﴾ فإنَّهُ لَا يَكفرُ، وليسَ علَيْه عذابٌ؛ لِأَنَّ هَذَا بِغَيرِ اختيارِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا أَمْكَنَ المُكْرَهُ أَنْ يَصْرِفَ القَولَ أوِ العملَ إِلى وجهٍ صحيحٍ، بأنْ أُكرِهَ عَلَى أن يَسْجُدَ للصنمِ، فَهَل يَلْزمُه أَنْ يَنويَ بِسُجودِهِ أنَّه سَجدَ للهِ وليسَ للصنمِ؟

قُلْنَا: إذَا أَمْكنَه ذَلك فَيكون واجبًا علَيْهِ، لَكن قَد تَغِيبُ عنْهُ هَذِهِ النِّيَّةُ، وقَد يكونُ عاميًّا لَا يَعْلمُ، فَنَقول: إِذَا سَجدَ لِلصنمِ مُكْرَهًا فلَا شَيْءَ علَيْه، وإذَا قِيل لَه: قُـلْ: إنَّ فرْعونَ رَبٌّ، فأُكْرِه عَلَى هَـذَا، وَقَالَ: إنَّ فرْعونَ ربٌّ، فلَا يَلْزمه أنْ يَتَأَوَّلَ فيَقُولُ: إنَّ فرْعَونَ ربُّ أسرتِهِ؛ وَلهَذَا يجب أَنْ نُطلقَ مَا أَطْلَقه اللهُ: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

ومَا قُلْناه أَرَدنا بهِ أَنْ يَتبينَ لِلْعاصِي الَّذِي يَعْصِي اللهَ بِاختِيارِهِ، أَنَّه لَيْست له حجةٌ، لِأَنَّهُ حِين إِقْدامِه عَلَى المعْصِيةِ لَا يَعْلَم أَنَّ اللهَ قَدَّرَهَا علَيْه إِلَّا بَعْدَ الفعلِ، فالقدرُ سِرٌّ مَكتومٌ لَا يُعلَم.

المَرْتبَةُ الرَّابِعَةُ: الإيمانُ بالخَلْقِ.

والإيمانُ بالخَلْقِ: مَعناهُ أَنَّ اللهَ تَعالَى خَالقُ كُلِّ شَيءٍ، خلقَ السماواتِ والأَرْضَ والشَّمْسَ والقمرَ والنجومَ والإِنْسانَ والدوابَّ، فالخَالقُ هُوَ الله، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد:١٦]، وَقَالَ تَعالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:١٠١]، فَالسَّماواتُ مَخْلوقةٌ، والأَرْضُ مَخْلوقةٌ، والشَّمْسُ مخلوقَةٌ، والنُّجُوم مَخْلوقةٌ، والقمرُ مخلوقٌ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيف يَكونُ فِعْلُ العبدِ مخلوقًا لله، أَلَستُ أَنَا الصَّائم، أَنَا المُصَلِّي، أَنَا المُزَكِّي، أَنَا الحَاجُّ، فكَيْف نَقول: هَذَا الفعلُ للهِ؟

قُلْنَا: الفعلُ مخلوقٌ لله؛ لِأَنَّ فعلكَ هَذَا ناشئٌ عَن مَشِيئة مِنك، وعنْ قُدْرةٍ عَلَى الفعلِ، فالَّذِي جَعَلك تَشاءُ هُوَ اللهُ، والَّذِي أَقْدَرَك عَلَى الفعلِ هُوَ اللهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافات:٩٦]، إِذَنْ أَعمالُ العبادِ مَخْلوقةٌ لله؛ لِأَنَّ فعلَ العبدِ وعملَهُ مَبْنيٌّ عَلَى أَسَاسِ الإرادةِ والقدرَةِ، والإرادةُ والقدرةُ صِفَتانِ لِلْمخلوقِ، وصِفَةُ المخلوقِ مَخْلوقةٌ.

إِذَنْ مَراتبُ القدرِ أَربعٌ: الإيمانُ بالعلمِ، الإِيمانُ بالكتَابةِ، الإيمانُ بِالمشيئَةِ، الإِيمانُ بِالخلقِ.

يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩] يَعْني: الورقةُ الصَّغيرةُ فِي غُصْنٍ صَغيرٍ تَسقطُ عَلَى الأَرْضِ يَعلمهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي أيِّ مكانٍ، وعلَى أيِّ قَدْر كَانتْ.

ومَا يَكونُ منْ ورقةٍ إِلَّا يَعْلمُها فَإِذا كَانَ يعلمُ السَّاقِطَ، فَإِنَّهُ يعلمُ الكائنَ من بابِ أولَى، إِذَا خَرجت ورقةٌ فِي غُصن فَاللهُ عَالمٌ بِهَا، إِذَا يَبِست وسقَطت فَاللهُ عالمٌ بِهَا: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩]، سُبْحان مَن وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا.

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٥٩] أَي: إِلَّا يَعْلمها، فَالحَبةُ فِي ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلَو صَغُرت مَعْلومةٌ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾، وكُل شَيْءٍ فَهو إِمَّا رَطبٌ وَإِمَّا يابسٌ. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾، فَالظُّلُماتُ كَثيرةٌ، ظُلماتُ اللَّيْلِ، وظُلُماتُ الأرْضِ، وظلماتُ الكهوفِ، وظُلُماتُ البحرِ، فاللَّيْلُ إذَا أَظْلم لَا تُرى الأشياءُ.

والثَّانِي: إذَا قَدَّرْنَا أنَّ هَذِهِ الحبةَ فِي قاعِ البحرِ مُنْغرزة فِي الطينِ، فتكونُ الظلماتُ، ظُلمةُ الطينِ مَعَ ظلمةِ اللَّيْلِ وظلمةِ البحرِ، وَلنفرضْ أنَّ الجوَّ مُغيمٌ فتكونُ الظلماتُ؛ ظُلمةَ الغَيْمِ، وظُلمةَ المطرِ، وظُلمةَ العواصِفِ.

هَذِهِ الظلماتُ -وَرُبَّما ظُلُماتٌ أُخْرى- لَا نَعْرُفها، لَكن أيُّ حَبةٍ صَغُرت أَم كَبُرت فِي ظُلُماتِ الأرْضِ، فإنَّ اللهَ تَعَالَى يَعْلمها.

مَفَاتِحُ الغيْبِ:

الأُولَى: علمُ السَّاعةِ:

مَفاتِحُ الغيبِ: فسَّرهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالخمسِ المذْكُورةِ فِي سُورَةِ لُقْمانٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤] أَيْ: عِلْمُ السَّاعَةِ الكبرَى، وهيَ يَومُ القيامةِ الَّتِي يُبْعَثُ فيهَا النَّاسُ منْ قُبُورهم بَعْثَةً لَا مَوت بَعْدها، وَهَذَا هُوَ المثوَى الأَخيرُ، ولَيْسَ المثوى الأَخِير أَنْ يَموتَ الإِنْسَانُ؛ ولِذَلك مَا تَراه فِي بعضِ الصُّحفِ أنَّ فُلانًا انتقَل إِلَى (مَثْوَاهُ الأخيرِ) كَلِمَةٌ خطأً، كَلِمَةٌ لَو اعتقَدَ الإِنْسَانُ مَدْلولها لَكَان مُنْكِرًا لِلبَعْثِ؛ لِأنَّك إذَا قُلتَ: إِنَّ القبورَ المثوى الأخيرُ، فيَعْني ذَلك أَنَّه لَيْسَ بَعْدها شيءٌ، فَكَيْف نَقولُ: إنَّ القبورَ هِيَ المثوى الأَخيرُ وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

هَذِهِ الكَلِمَةُ لَو أَنَّ الكاتبَ أَوِ القائلَ لها اعتَقَد مَعْناها، لَقُلْنَا: إِنَّه كَافرٌ بالبعثِ،

لَكنَّ النَّاسَ يَقُولونَهَا وَيُرِيدونَ بِهَا أَنَّه مَاتَ، وأنَّ هَذَا المثوى الأخيرَ بِاعتبارِ مَنَازلِ الدنيَا، لَكن مَا دَامت الكَلِمَةُ تَحْتمل مَعنًى فاسدًا، فَالوَاجبُ تَجَنُّبُهَا.

ومَا أَظنُ هَذِهِ الكَلِمَةَ إلَّا وَرَدت مِن قَومٍ يُنْكِرُونَ البعثَ، فَتَلقاها بعضُ الكُتَّابِ، أو بعضُ الصُّحفيينَ، أَو بَعضُ الَّذِينَ لَا يَعرفون مَدلولاتِ الكَلامِ، تَلَقفوها، وصَاروا يَنْطقون بِها بِدُون أَنْ يَتَفهموا مَعناها؛ ولِذَلك يَجب إِنْكارُها، فَكَيف تَكُونُ القُبورُ هِيَ المثوى الأخيرَ مَعَ أَنَّ هناكَ بَعثًا.

إِذَنْ، علمُ السَّاعةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ وحدَهُ، ولَا أحدَ منَ الخلقِ يَعلمهَا؛ وَلهَذَا سأَلَ أعلمُ الملائكةِ وهُو جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ أعلمَ البشرِ، وهُوَ الرَّسُولُ ﷺ، فقالَ: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ»، فقالَ ﷺ: «مَا المَسْؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَم بِهَا مِنَ السَّائِلِ»[1].

ومَا يَذْكره هَؤُلاءِ المُخَرِّفُونَ الَّذِينَ يَقُولونَ: عُمْرُ الدنيَا كذَا مِليون سنةٍ، وأنَّ قيامَ السَّاعةِ سَيكون بَعد كَذَا وكذَا منَ الملايينَ! فكلُّ هَذَا خَرْصٌ منَ القولِ، وهُراءٌ، ولَا يَجُوز أَنْ يُصدَّق؛ لِأَنَّنا نَعلمُ علمَ اليقينِ أنَّه لَا يَطَّلِعُ عَلَى السَّاعةِ إلَّا مَنْ يقيمُ السَّاعةَ، حتَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ قَالَ للرَّسُولِ ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ [النَّازعات:٤٢-٤٣] مَا لكَ فيهَا شَأْنٌ، ولَا لَكَ دَخْلٌ فِيها إِلَى رَبِّك وَحْده مُنْتَهاها، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النَّازعات:٤٤-٤٦].

إِذَنْ، عِلْمُ السَّاعةِ لَا يُمكنُ أَنْ يَطَّلِعَ علَيْه أحدٌ، ومَا يَذْكرهُ الدَّجَّالونَ فِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسْلام، والقدر وعلامة السَّاعة، رقم (٨).

الصحفِ أوِ المجلاتِ فهوَ كذبٌ، ولَا يَحلُ لِأَحدٍ أنْ يُصَدِّقَهُ، عَكسُ ذَلك مَن يَتَشاءمونَ أَو يَتَفاءلونَ بِالأَنواء، يَقُولونَ: هَذَا وُلِد فِي نَوْءِ سعدِ السعودِ، إِذَنْ هُوَ سعيدٌ، وهَذَا وُلِد فِي بُرجِ العقربِ، إِذَنْ هُوَ عقربٌ، وهَذَا فِي بُرجِ الحملِ، إِذَنْ هُوَ خَروف، هَـذَا كُله دَجَـلٌ وكَـذِبٌ، ومـعَ الأسفِ أَنَّهُ يُنْشَرُ فِي بَعْضِ الصحُفِ والمجلاتِ، وتُقرأُ بَيْنَ أيدِي المُسْلِمِينَ، وهُو منَ الكذبِ الواضحِ.

ودَليلُ هَذَا الكذبِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ ذاتَ يومٍ فِي الحديبيَةِ، والحُدَيْبيةُ مَوقعٌ بَيْن مَكَّةَ والمَدِينَةِ، صلَّى النَّبيُّ الفجرَ عَلَى إثرِ مطرٍ، فقالَ لِأَصحابهِ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم، قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ»[1]، فالكواكِبُ لَيْسَ لها دَخلٌ فِي سَعَادةِ الإِنْسَانِ أَوْ شقاوتِهِ، ولَا يَجُوزُ أَنْ نَربطَ سَعَادةَ إِنْسَانٍ أو شقاوتِهِ بِالأنواءِ أوِ البروجِ.

والحوادثُ الفَلكيَّةُ لَا علاقةَ لها بِالأَحْوَالِ الأَرْضيةِ، فالفَلَكُ مُسْتَقِلٌ؛ وَلهَذَا أَبطَلَ النَّبيُّ ﷺ هَذِهِ العقيدةَ حِين كسفتِ الشَّمْسُ يوم مَات أحدُ أَبنائه، وهُو إِبراهيمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَما ماتَ إِبْراهيمُ كَانَ منْ قدرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَن كَسَفَتِ الشَّمْسُ يومَ موتِهِ، وكانُوا فِي الجاهليَّةِ يَعْتقدونَ أَنَّ الشَّمْسَ تَنْكَسِفُ إذَا ماتَ عظيمٌ، ويَنْخسفُ القمرُ إذا ماتَ عظيمٌ، فأبطلَ النَّبيُّ ﷺ هَذِهِ العقيدَةَ، وَقَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام النَّاس إذا سلم، رقم (٨٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، رقم (٧١).

آيَتَانِ مِنْ آيَـاتِ اللهِ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَـاتِهِ»[1]، فالأحوالُ الفلكيَّةُ لَا عَلَاقَةَ لها بِالحوادثِ الأَرضيَّةِ.

حتَّى لَا يَخْتَلَّ تَوْحيدكَ وأَنْت لَا تَشعرُ، فلَو مَاتَ مَيتٌ وصادَفَ يومَ مَوتهِ أَنْ نزلَ المطرُ بِغزارةٍ، فلَا تَقولُ: إنَّ هَذَا المطرَ نَزلَ لِمَوتهِ، ولوْ أنَّ رجلًا قَدِمَ البلدَ، وَلما قدمَ البلدَ نـزلَ المطرُ بِغزارةٍ، لَا نَقُولَ: هَذَا مِن أَجْله، فَالأحـوالُ الفَلكيةُ لَا عَلَاقة لها بالحوادثِ الأرْضيةِ.

وهَؤُلاءِ الكُتاب فِي الصُّحفِ الَّذِينَ يُرِيدون أَنْ يَمْلؤوا الصُّحفَ بِالكَلامِ الهُراءِ، الَّذِين يَقُولونَ: فُلانٌ وُلد فِي بُرج كَذا، فَهو سَعِيد أَوْ شَقِيٌّ، كُلُّ هَذَا حَرامٌ، وَلَا يَجُوزُ اعتقادهُ، ولَا نشْرُهُ بَيْنَ النَّاسِ، والمسلمُ عَلَى عقيدةٍ راسخةٍ، ويعلمُ أنَّ هَذَا لا صِحَّةَ لَه، وَلا حَقيقةَ لهُ، ولَا يَجُوزُ اعتقادُهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطيَّرَ أَوْ تُطيِّرَ لَهُ»[2]، فكُن عَلَى عقيدةٍ راسخةٍ، بأَنَّ الأمرَ بيَدِ اللهِ ولا عَلاقةَ لِلحوادثِ الأرْضيَّةِ بِالأحوالِ الفَلكيةِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أيْ: المطرُ، وسُمِّيَ المطرُ غيثًـا؛ لِأَنَّهُ بِه يَحصلُ الغوثُ، وهوَ إِزالةُ الشدَّةِ، فَالنَّاسُ يَكُونونَ فِي شدَّةٍ إذَا قَلَّ المطرُ، فَتمسكُ الأرْضُ، وتَجُوعُ المواشِي، ورُبَّما تَهلك، وَيَحصلُ بِذَلك ضَررٌ عَلَى النَّاسِ، فَإِذَا نَزل المطرُ، وأحيَا بِهِ اللهُ الأرْضَ بَعد مَوْتها، زَالتِ الشدةُ.

وهنَا مَسألةٌ نَذْكرها فَنقولُ: هَل نُزولُ المطرِ المجردِ يَكون غَوْثًا؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم (١٤٠٤)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: (٥/ ١١٨، رقم ٤٨٤٤).

الجَوَابُ: قَد يَنزلُ المطرُ ولَا يَكونُ بِهِ الغوثُ، دَليلُ هَذَا مَا أَخْرجه مُسلم فِي صَحِيحهِ عنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَيْسَ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَنْ تُمْطَرُوا، ثُمَّ تُمْطَرُوا، وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ شَيْئًا**»[1]، وهَذَا يَقع، فأحيانًا تَنزل أَمطارٌ كَثِيرةٌ ولَكنَّ الأَرْضَ لَا تُنْبت.

فالَّذِي يُنزلُ الغيثَ -أَي: المطرُ- الَّذِي تَزولُ بِهِ الشدةُ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولَا أَحد يَسْتطيعُ أَنْ يُنزلَ الغيثَ إِلَّا اللهُ.

وهنَاكَ قِصة حَدَثت فِي عهدِ النَّبِيِّ ﷺ، فقدْ دَخل رَجلٌ يومَ الجُمُعَةِ والنَّبِيُّ ﷺ يَخْطبُ النَّاسَ عَلَى المنبرِ، فَقالَ: «**هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعْتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا**»، فرفعَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ يدَيْه، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا**» ثَلَاثَ مرَّاتٍ، قَالَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهوَ راوِي الحديثِ، «مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلا قَزَعَةً» السَّماء صَحو، «وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ، وَلا دَارٍ قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ، انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ-، ثُمَّ لَم يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ ﷺ، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ البَابِ فِي الجُمُعَةِ المُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: هَلَكَتِ الأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللهَ يُمْسِكْهَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلا عَلَيْنَا، اللهُمَّ عَلَى الآكَامِ[2] وَالجِبَالِ وَالآجَامِ[3] وَالظِّرَابِ[4] وَالأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**»، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ، وَخَرَجْنَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل السَّاعة، رقم (٢٩٠٤).

(٢) جمع أكم، وهي الرَّابية. انظر: النهاية (أكم).

(٣) أي: الحصون. انظر: النهاية (أجم).

(٤) الظراب: الجبال الصغار، واحدها: ظَرِبٌ بوزن كتف. وقد يجمع في القلة على أَظْرُب. النهاية (ظرب).

نَمْشِي فِي الشَّمْسِ»[١] بِيَده هَكَذا، فَينجابُ السحابُ، وكُلَما أَشَارَ إِلى نَاحيةٍ انْفَرَجت.

ولَيْسَ الرَّسُولُ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرها، ولَكِنَّ الَّذِي يُدَبِّرُها هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّ هَذِهِ علامةَ حَوالينا تَنْفرجُ السَّحَاب، «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالجِبالِ وَالآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالأَوْدِيَةِ وَمَنابِتِ الشَّجَرِ**»، فأقلَعَ المطرُ عنِ المَدِينَةِ فقطْ، وصارَتْ حَوبةً، يَعْني: صَارت كالإكليلِ، والسَّحابُ مدورٌ، فَما عَلَى المَدِينَة لَا يُمطر، ومَا حَوْلها يُمْطر، وصَار الوادِي يَسِيل شهرًا كاملًا وادِي قَنَاة -وهُو معروفٌ الآنَ بهَذَا الاسمِ-. فتأمَّلْ كيفَ كَانتْ قُدرةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِإِنْزالِ الغيثِ فِي دقائقَ، فَالَّذِي يُنَزِّلُ الغيثَ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فَلَا يَسْتطيعُ أَحد مِنَ البشرِ أَنْ يَنزلَ مطرًا؛ لِأَنَّ الَّذِي يُنْزِلُ المطرَ الَّذِي بِهِ الغوثَ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

قَولهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ (مَا) اسمُ مَوصولٍ لِلْعُموم؛ لِعُمومِ المعلومِ وعُمُومِ العلمِ.

والَّذِي فِي الأرحَامِ هِيَ الأَجِنَّةُ، أَرْحامُ بَنِي آدمَ، وأَرْحامُ كُلِّ الإناثِ، فَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي رَحمِ الإناثِ منْ بَنِي آدمَ، ومنَ الإبلِ والبقرِ والغنَمِ، وَغَيْرِها، وكُلُّ ما فِي أَرْحامِها يَعْلمهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يَسْتطيع أَحَدٌ أَنْ يَعلمَ مَا فِي الأَرْحام إِلَّا اللهُ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: إنَّ البَشَّرَ الآنَ وَبِوَاسطةِ مَا عَلمهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ منْ علُومِ الكونِ، مَا يَسْتَطيعون بِهِ أَنْ يَعْرفوا أَنَّ فِي الرَّحمِ ذكرًا أَوْ أُنثَى؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

قُلْنَا: إِنَّهُمْ علِمُوا أَنَّه ذَكَرٌ أَمْ أُنْثى بَعد تَخْليقِهِ، ونحنُ نُؤْمنُ بأَنَّ المَلَكَ الموكَّلَ بِما فِي الأرحامِ، يَعلمُ أَنَّ الَّذِي فِي الرَّحِمِ ذَكرٌ أَوْ أُنْثى؛ لِأَنَّهُ يَسْأَلُ اللهَ فيَقُولُ: «**أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى**»، فيَقُول اللهُ تَعَالَى مَا شَاءَ، إِذَنْ هَؤُلاءِ عَلِموا أَنَّهُ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثى بعدَ أَنْ كَانَ ذكرًا أَوْ أُنْثَى.

ثُم إنْ عِلمَ اللهُ تَعَالَى بِمَا فِي الأَرْحامِ لَا يَتَناوَلُ كَوْنَهُ ذكرًا أَوْ أُنْثَى فَقَطْ، فَالعلمُ بِما فِي الأرحامِ يَتناوَلُ كونَهُ ذكرًا أَمْ أُنْثى، وَيَتَناوَلُ هَل يَخْرج حيًّا أَمْ مَيتًا، وَيَتناول هَل يَطُولُ عُمْرهُ بَعد خُرُوجه أَمْ يَقْصر، وَيَتَناول هَل يَكُون وَاسعَ الرزقِ أَمْ ضَيِّقَ الرِّزقِ، وَيَتَناول هَلْ يَكُونُ عَالِمًا أَمْ جَاهلًا، وَيَتَناوَلُ هَلْ يَكُونُ شقيًّا أَمْ سَعيدًا، فالعلمُ بِما فِي الأَرحامِ كَونُه ذَكرًا أَو أنثى عِلمٌ مَحْسوسٌ يُمْكنُ الاطلاعُ عَلَيْه، لكنَّ العلمَ بِالغيبِ لَا يَكُونُ إِلَّا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، وَالمرادُ بِالغدِ هُنَا المستقبلُ، سَواءٌ الغدُ القريبُ أمِ البعيدُ، كُلّنا لَا نَعْلَم مَاذا نَكْسب غدًا، فَنحن نَعلَم مَا نَعْلَمه تقديرًا لا تحقيقًا، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ومَا قالَ: مَاذَا تَنْوِي غدًا، فأَنَا أَعلم مَا أَنْوِي غدًا، لكنْ لَا أَجْزم بِأَنِّي سَأَفعلهُ؛ لِأَنَّهُ رُبَّما تَتغيرُ النِّيَّة، ورُبَّما أَعْجزُ عَما كُنت مقدرًا وَلَا أَسْتطيع؛ وَلهَذَا قَالَ اللهُ لِنبيهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]، فلَا تَقل: سَأَفعل، وقلْ: أَنَا نَاوٍ أَفعل، فَفرْقٌ بَيْن مَنْ يَنْوي، وبَيْن مَن يَقُولُ: أَنَا سَأفعلُ، فإنْ قُلتَ: أَنَا سَأفعلُ، فقُل: إِنْ شَاءَ اللهُ، وإِنْ قُلتَ: أَنَا نَاوٍ أَنْ أَفعلَ، فَهَذَا جائزٌ وإِنْ لَم تَقلْ إِنْ شاءَ اللهُ؛ لِأَنَّكَ تُخْبرُ عنْ نيَّةٍ واقعةٍ فَلَا حاجةَ إِلى أَنْ تَقولَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنْسَانٌ عاشَ فِي بلدِهِ مدَّةً طويلةً، فَهَلْ يُمْكنُ أَن يَقُولَ: أنَا سَأَموت فِي هَذَا البلَدِ، لَا يَدْري، فَرُبما يَنْتقل إِلَى مَكانٍ آخرَ ويَمُوت؛ وَلهَذَا يُوجدُ بَعضُ المرضَى يَمْرض وَيَبْقى فِي بَلَدهِ، فَإِذَا قَرُبَ أجلهِ نُقِلَ إِلَى المكانِ الَّذِي يَموتُ فِيه، ورُبما يَحْصلُ لِلإِنْسَانِ حَادثٌ فِي البَرِ الَّذِي مَا كَانَ يَعْلَمه، ولَا يعرفُه، فَيَحصلُ علَيْه الحَادثُ، وَيَموت فِي مَكانِ الحَادثِ، فِي بَرٍّ مَا كَانَ يَدْري أَنَّه سَيَكونُ فِيه، فلا يَدْري الإِنْسَانُ فِي أَيِّ أرضٍ يَموتُ.

وَإِذَا كُنَّا جَاهلينَ بِالمكانِ، فَجَهلُنا بِالزَّمان منْ بابِ أَوْلى، فَلَا تَدْري نَفسٌ مَتَى تَموتُ، فَنَحن جُهَّالٌ لَا نَدْري مَتَى نَموتُ، ولَا نَدْرِي فِي أَيِّ مَكانٍ نَموتُ، والَّذِي يَعلمُ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.



الدَّرس الخَامس:

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ، والعَاقبةُ للمتَّقِينَ، ولا عُدوانَ إلَّا على الظَّالمينَ، وأشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، إلهَ الأولينَ والآخرينَ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عبدُه ورَسولُه، سيدُ المرسلينَ، وإمامُ المتَّقينَ، وعلى آلهِ وأصْحابه ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أمَّا بعْدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان:٣٤].

هذه خمسٌ هي مَفاتِحُ الغيبِ المذكورة في قولهِ تَعالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

الأوَّل: عِلم السَّاعةِ، والسَّاعةُ نوعانِ:

ساعةُ كلِ إنْسانٍ، والسَّاعةُ العَامَّةُ.

وساعةُ كلِّ إنْسانٍ موتُه، والسَّاعةُ العَامةُ هي الَّتي يموتُ فيها الخلائقُ كلهم. والذي عنده علمُ ذلك هو اللهُ جَلَّجَلَالُهُ، ولا أحدَ يَعلَم متى يموتُ، ولا أحدَ يعلمُ متى يموتُ غيرُه، حتَّى لو رأينا المريضَ مُدْنِفًا[1] مُغْمًى عليه لا يَتحَرَّكُ، فلا يمكِنُ أن نقولَ: سيموتُ بعد ساعةٍ أو ساعتين أو يومٍ أو يومينِ، وقد نتوقَّعُ أنَّ موتَه قريبٌ، ولكن قد لا يموتُ، وكم من إنْسانٍ دُعي إليه الغاسِلُ وأُحضرَ الكفنُ وحُفرَ القبرُ ثمَّ

(١) أدنف المريضُ: ثقُل.

يَعيش بعد ذلك طويلًا! وهذا شاهدناهُ، وكم من إنْسانٍ صحيحِ البدنِ قويٍّ يموت فجأةً.

إذن لا أحدَ يعلمُ متى تكونُ ساعتُه، وكذلك لا أحدَ يعلمُ متى تكونُ السَّاعةُ الكبرى العظمى، ولذلك لما قال جبريلُ للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم: «**مَتَى السَّاعَةُ؟**» وجبريلُ أفضلُ الرسلِ من الملائكةِ، ومُحَمَّدٌ أفضلُ الرسلِ من البشرِ، فكان الجوابُ: «**مَا المسؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَم مِنَ السَّائِلِ**»[١].

فإذا كان المسؤولُ ليس أعلمَ من السَّائلِ، والسَّائلُ يَجهلها، فصارَ الجميعُ يَجهلونَها، فإذا كان مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ وجبريلُ لا يَعلمان متى تكون السَّاعةُ فغيرُهما من بابِ أَولى، ولذلك يجبُ أن نكذِّبَ وبملءِ أفواهنا وبكل ألسِنتِنا أولئك الَّذِينَ يَقولون: عُمُرُ الدُّنيا كذا وكذا من السَّنواتِ، وباقٍ على الدُّنيا كذا وكذا، نقول: هذا كَذِب كَذِب.

وأما قولُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو يحدِّثُ أَصْحابَه من بعد العصرِ ويقولُ: «**أَلَا إِنَّهُ لَم يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ**»[٢]، فالنبي ﷺ لم يحدِّد، لكنه أخبرَ أنَّها قَريبة، لكن لم يحدِّدْ.

وهناك أناسٌ دجَّالون كذَّابون قد يَكتبون في الصحُف أن عمرَ الدُّنيا بعد ألفيْ سنةٍ، أو بعد مليون سنةٍ، وما أشبهَ ذلك، وهؤلاء كَذَبَة كَهَنَة، مَن صَدَّقهم في نَقْضِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسْلام، والإحسان، وعلم السَّاعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصْحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة، رقم (٢١٩١).

ما أخبرَ اللهُ به ورَسولُهُ فهو كافِرٌ مكذِّبٌ للهِ ورَسولِهِ.

إذن السَّاعةُ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ نوعان: ساعةٌ كُبرى عُظمَى لجميعِ النَّاسِ، وساعةٌ لكلِّ شخصٍ معيَّنٍ، الأُولى هي القِيَامَةُ، والثَّانيةُ موتُ الإِنْسانِ، ولا يعلمُ ذلك إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ وينزلُه من السَّماءِ، والغيثُ ما تَزولُ به الشدةُ، وهو المطرُ، والذي يُنزِلُه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والذي يَجعلُه غَيثًا هو اللهُ، وكم من مطرٍ نزلَ ولم يكنْ غَيثًا، ولهذا جاءَ في صحيحِ مسلمٍ: «**لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمْطَرُوا، وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا، وَلَا تُنْبِتُ الأَرْضُ شَيْئًا**»(١). والسَّنَة: الجَدب وعدم الربيعِ.

والنَّاسُ يذكرون لنا أشياءَ عجيبةً في هذا البابِ، يذكرون أنَّه في سنةٍ من السَّنواتِ كان المطرُ ينزل طَلًّا، لا وَابِلًا، يعني رَذاذًا خَفيفًا، حتَّى إن بَعْرَةَ البعيرِ أو دِمْنَة الشَّاةِ لا يَبتلُّ أسفلها، وهذا يدلُّ على خِفَّة المطر، لكن قالوا: إن هذه السنةَ صارت أوفرَ ما تكون رَبيعًا، سُبْحَانَ اللهِ! ولهذا يُضرَبُ بها المثلُ فيقال: سَنَةُ الدِّمنة؛ لأن اللهَ بَارَكَها. وأحيانًا تأتي أمطارٌ غزيرةٌ ولا تُنبِتُ الأرْضَ، فمَنِ الَّذي يُنزِل الغيثَ؟ اللهُ، فإذا كان اللهُ هو الَّذي يُنزِلُ الغيثَ فمَن يعلمُ متى يُنزلُ الغيثَ؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقد يُشكِلُ علينا أننا نسمعُ في الإذاعاتِ مَن يقولُ: سيكونُ مطرٌ خلال أربعٍ وعشرينَ ساعةً، فهل هذا يُناقضُ ما في الآيةِ؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّ ما يقولونَه إنَّما هو أشياء استنتجوها من تغيُّرِ الجوِّ بآلاتٍ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل السَّاعة، رقم (٢٩٠٤).

دقيقةٍ، والجـوُّ يتغيَّرُ فيكونُ قابلًا للسحابِ والمطرِ، ويكون أحيـانًا جافًّا، فهم يَستنتجون هذا من الأحوالِ الجويةِ، على أنَّهم في بعضِ الأحيانِ يُقَدِّرون ولكن لا يكونُ، فلا إشكالَ الآن والحمدُ للهِ؛ لأنَ ما يُذكَرُ في هذه الإذاعاتِ ليس مبنيًّا على غَيبٍ وإنما هو على أمورٍ محسوسةٍ لكنَّها دقيقةٌ لا يَعرِفُها كثيرٌ من النَّاسِ، على أن هذا التقديرُ قد يُخطِئ.

قوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ وليس أرحامَ بناتِ آدمَ فقطْ ولكن كلُ أُنثى؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ [الرعد:٨]، فيعلمُ الله عَزَّوَجَلَّ ما في أرحامِ الإناثِ من البشرِ وغيرهم، ولا يعلمُه أحدٌ إلا اللهُ.

وهنا يُشكِلِ أنَّهم الآن قد يَعلمون ما في رَحِم الأُنْثَى أَذَكَرٌ هو أم أُنثى، فهل يناقضُ الآيةَ؟

نقول: لا يناقضها؛ لأنَّهم لا يَعلمونه إلا بعدَ أن يكونَ ذَكَرًا أو أُنثى، وقبل أن يكون ذكرًا أو أُنثى لا يعلمونه، وإذا كان ذَكَرًا أو أُنثى فالمَلَكُ الموكَّلُ بالأرحامِ يعلمُه، وكذلك أيضًا البشرُ بحَسَبِ تقدمِ الطبِّ الآن، فيعلمون أنَّه ذَكَرٌ أو أنثى.

وهل الأفضل للإنْسانِ أن يذهبَ إلى الطبيبِ ويقول: أَخبِرني عما في بطنِ زوجتي؟

أقول: الأحسن ألا يفعلَ؛ لأنَّه إذا أخبره أنَّه ذَكَرٌ وهو يحبُّ الذكورَ ثمَّ ماتَ ازدادَ حسرةً، فخَلها للهِ، ومتى خرجَ عرفتَ أنَّه ذكرٌ أو أُنثى، ولا تُنقِّب ولا تُفتِّش.

فإذا قال الإِنْسانُ: كيف نُجيب عن الآية الكريمة، مع وجود العلمِ بأنه ذَكَرٌ أو أنثى؟

نقول: المعلوماتُ الَّتي تتعلق بالحملِ لا تَنحصِرُ في كونهِ ذكرًا أو أنثى، فهناك معلوماتٌ؛ وهي أولًا هل يخرج حيًّا أو ميتًا؟ وهل يتأخَّر في الخروج أو يتقدَّم؟ وهل يَطُول عُمُرُهُ بعد أن يخرج أو لا؟ وهل يكون رِزقُه واسعًا أو ضيِّقًا؟ وهل يكون عمله صالحًا أو سيئًا؟ وهل يكون سعيدًا أو شقيًّا؟

فكل هذه معلومات تَتَعَلق بالجنينِ وتتعلقُ بالحملِ، فإذا قُدِّر أنَّه عِلِمَ أنَّه ذَكَرٌ أو أنثى فهناك معلوماتٌ أُخرى لا يَعلمُها العِبادُ، فمَن يعلمُ أنَّ هذا الحملَ سيُولَد ويبقى سنةً أو سنتينِ أو سِنينَ؟ لا أحدَ يعلمُ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ومَن يعلمُ أنَّه سيُرزَقُ ويأتيه الرزقُ كثيرًا أو سيكون فَقيرًا؟ اللهُ وحدَه، ومن يعلم أنَّه سَيُيَسَّرُ لليسرى ويعمل بعملِ أهلِ السَّعادةِ؟ الله، ومَن يعلمُ أنَّه سيُيسرُ للعسرَى ويعملُ بعملِ أهلِ الشَّقاوةِ؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ. إذن يعلمُ ما في الأرحامِ؛ كلُّ متعلِّقاتِ العلمِ.

قوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ انتبه يا رجلُ، لا يَدري الإِنْسانُ ماذا يَصير غدًا، ولا أحدَ مِنَّا يدري ماذا يكسِب غدًا.

فإذا قال إِنْسانٌ: أنا أعلمُ ماذا سأفعلُ غدًا؛ سأطبخُ الغداءَ، وأدعو إخواني، وغدًا سيكون عيدُ الفِطر، ونفرحُ ونعمَل ما يجوز لنا عَمَلُه من إظهارِ الفرحِ والسرورِ، فأنا أعلمُ هذا، فما الجوابُ؟

الجوابُ: أن الآيةَ الكريمةَ فيها: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، فهل أنت إذا كنتَ قَدَّرت أن تفعل كذا وكذا في يومِ العيدِ فهل أنت ستفعلُه؟ قد يَحُولُ بينك وبينه القَدَرُ؛ إما موتٌ، أو مرضٌ، أو سَفَرٌ، أو عائِقٌ آخرُ، فلا أحدَ يعلمُ ماذا يَكسِب غدًا، ولهذا قال اللهُ لنبيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ

ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

صحيح أن الإِنْسانَ يُقدِّر أنَّه سيعملُ كذا وكذا غدًا، ويخبرُ ويقولُ: سأفعلُ كذا وكذا، وسأسافرُ غدًا، وسأسافر بعد غدٍ، يخبر، لكن هل هو على يَقينٍ أن الأمرَ يقعُ يا إخواني؟ لا، إذنْ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي ماذا يكونُ من كَسْبِها غدًا؛ لأن الإِنْسانَ قد يقدِّر ولا يحصلُ.

قولُه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ اللهُ أكبرُ! إِنْسانٌ مولودٌ في بلدِه، ومن نِيتهِ ألا يغادرَ البلدَ إلا في حجٍّ أو عمرةٍ أو جهادٍ في سبيل اللهِ، وعازِمٌ على هذا عَزمًا أكيدًا، ويقدِّرُ أنَّه سَيمُوتُ في أرضٍ أُخرى، فهو لا يعلمُ بأيِّ أرضٍ يموتُ، فإذا أرادَ اللهُ تَعَالَى أن يموتَ في أرضٍ جعلَ له إليها حاجةً، وذهبَ لهذه الحَاجةِ ويموتُ.

فنجدُ أُناسًا قابعينَ في بلادهم لا يسافرونَ عنها إلا في حجٍّ أو عمرةٍ، ولا يحبون السفرَ، فإذا دنا الأجلُ يُسِّرَ لهم أن يسافروا لِيموتوا في الأرْضِ الَّتي أرادَ اللهُ أن يَموتوا فيها، وهذا شيءٌ مُشاهَدٌ، ونجدُ بعضَ النَّاسِ يُصابُ بحادثٍ أثناءَ الطَّريقِ في أرضٍ لم يكنْ يَعرِفُها، ولا يعرفُ أنَّه سيموتُ فيها، فيموتُ في مكانِ الحَادثِ في أرضٍ فلاةٍ، ولم يكنْ يعلمُ هذا قبلُ.

وحدَّثني رجلٌ أثِق به أنَّهم خَرجوا من مَكَّةَ بعد الحجِ في وقتٍ كان النَّاسُ يحجونَ فيه على الإبلِ، وفي أثناء الطَّريقِ مَرِضت أُمه، وجعلَ يُمَرِّضها فيُصلِحُ لها المكانَ على الرَّاحلةِ بالفِراش اللَّيِّنِ الطيِّبِ، وفي يومٍ من الأيامِ بَقِيَ يَشتغِل بهذا فمَشَى القومُ وهو ما زال يُصلِحُ ويُوَطِّئُ لأُمِّه، فلمَّا انتهى سارَ على إثرهم، وكان في

مَنطقةٍ جبليَّةٍ، والقومُ انصَرفوا إلى الطَّريق الصَّحيحِ وهو تاهَ وضلَّ الطَّريقَ، فانخرطَ في رَوْعٍ من بين هذه الجبالِ، وطلعتِ الشَّمسُ وارتفعتْ وخافَ على نفسِه، فأَوَى إلى بيتٍ من الشعرِ لقومٍ من البدوِ، فلما سلَم قال لهم: أين الطَّريقُ إلى كذا وكذا؟ قالوا: الطَّريقُ بعيد، وليس هذا هو الطَّريقَ، ولكن أَنِخِ البَعِيرَ واسترِحْ قليلًا ثمَّ نَدُلُّكَ.

يقول: فلما أناخ بعيرَه وأنزلَ أمهُ في الأرْضِ فمن حين أن نزلتْ في الأرْضِ قَضَى اللهُ أَجَلها، سُبْحَانَ الله! أرضٌ بعيدةٌ وليستْ على الطَّريقِ، ولا مَعلومةٌ. كان اللهُ جَلَّوَعَلَا قدَّرَ أن تموتَ هذه العجوزُ في هذه الأرْضِ، فقدَّر أن ولدها يتأخَّرُ في تهيئةِ مَركَبها ويَضِلُّ الطَّريقَ حتَّى تموتَ في المكانِ الَّذِي أراد اللهُ أن تموتَ فيه، سُبْحَانَ اللهِ يا إخواني! ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

وقبل شهرٍ أو شهرينِ حدَّثني رجلٌ أن له والدًا كان مَريضًا فتعافى، فأراد أن يذهبَ به إلى الحِجازِ، وأخذَ حَجْزًا له ولِوَالدِه في الطَّائرةِ، يقول: بينما نحن في الطَّائرةِ إذا بالرَّجلِ الَّذِي هو والدُه يَرتخي فمات. فكانت مَنِيَّةُ هذا الرَّجلِ في الجوِّ بين السَّماء والأرْضِ، وهذه أمورٌ لا يُقَدِّرُها الإِنْسانُ، لكن قَدَّرَها العزيزُ العليمُ جَلَّوَعَلَا أن يموتَ الإِنْسانُ في مكانٍ لا بُدَّ أن يكون فيه.

وهل تَدري نفسٌ بأيِّ وقتٍ تموتُ؟

نقول: لا. ولنا طريقانِ في أخذها من الآيةِ؛ إما أن نقولَ: هي داخلةٌ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ كما قَسَّمنا السَّاعةَ إلى قسمينِ، أو نقول: إذا كان الإِنْسانُ لا يَعلَم بأي أرضٍ يموتُ فأن لا يعلمَ بأي زمنٍ يموتُ من باب أَولى.

فعليك -يا أخي- بتدبُّر القُرآنِ فستجد فيه العجائبَ من المواعظِ والأحكامِ والحِكم، فإن هذا القُرآنَ -يا إخواني- كلامُ ربِّ العالمينَ، الَّذِي أنزلهُ لنتدبرَ آياتِهِ ونتَّعظ به، والقُرآنُ خيرٌ وبركةٌ، فعليك بتدبرِ آياتِه، وتصديقِ أخبارِه، والعملِ بأحكامِه؛ إن كنتَ تريد السَّعادةَ في الدُّنيا والآخرةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣] قال ابن عباس: «لا يَضِلُّ في الدُّنْيَا، ولا يَشقَى في الآخِرَةِ»[1]، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ -وهو القُرآن كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء:٥٠]- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ محاورة مع اللهِ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

فكما عَمِي في الدُّنيا عن ذِكْرِ الله -عن كتابِ اللهِ- حُشِرَ يوم القِيَامَة أعمى..

اللَّهُمَّ بصِّرنا بكتابِك، واجعلنا عاملينَ به، مُصَدِّقينَ لأخبارِه يا ذا الجلال والإكرامِ.

والحمد لله الَّذِي بنعمته تتم الصَّالحَاتُ، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبِه.



(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٨١)، رقم (٦٠٣٣).



سورة الأحزاب

الدَّرس الأوَّل:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠]. ويَلْزَمُ من كَوْنِه خَاتَمَ النَّبِيِّينَ أنْ يَكونَ خَاتَمَ المُرْسَلِينَ، والعَكْسُ غيرُ صَحِيحٍ.

وهو أيضًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إمامُ المتَّقين، أي مَن يريدُ أن يكونَ مُتَّقِيًا فَلْيأتَمَّ بمُحَمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

والدَّليلُ على أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم إمامُ المُتَّقِينَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ**»[1]. والأتقى هو المُتَّبَع، أسأَلُ اللهَ أن يَجْعَلَنِي وإياكم من أَتْبَاعِه، وأن يَحْشُرَنا في زُمرتِه، وأن يَسْقِيَنا من حَوْضِه، وأنْ يُدْخِلَنا في شَفاعَتِه، وأَنْ يَرْزُقَنا الاجتماعَ به في جَنَّاتِ النَّعيمِ، إنه على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ. صلى الله عليه وعلى آلِه وأَصْحابِه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه واشتغال من عجز عن المؤن بالصيام، رقم (١٤٠١).

قال تَعالَى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الأحزاب:٦٣]، الخِطَابُ في قولِه: ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ للرَسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإن النَّاسَ كانوا يُحِبُّونَ الاطلاع على كلِّ شيءٍ، فكانوا يَسْألونَ النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن السَّاعةِ، فيقولون: متى تَكونُ؟ فأجابَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ:

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، فلا أحَدَ يَعْلَمها. و﴿إِنَّمَا﴾ هذه أداةُ حَصْرٍ، والحَصْرُ عِنْدَ العُلماءِ إثباتُ الحُكْمِ في المذكورِ، ونَفْيُه عما سِواه، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحَدَ يَعْلَمها، لا مِن البَشَرِ، ولا مِن الجِنِّ، ولا مِن الملائكةِ، ولا من الرُّسلِ، ولا مِن الأولياءِ، بل عِلْمُها عند ربِّها عَزَّوَجَلَّ. لكن يقولُ تَعالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: رُبَّما تكونُ السَّاعةُ قَرِيبًا؛ لأنَّ عَلامَاتِها وأشراطَها ظَهَرت كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد:١٨]، أي: عَلاماتُها الدَّالةُ على قُرْبِها.

ومن علاماتِها بَعْثَةُ الرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم حيث قال: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهاتَيْنِ**». وَقَرَنَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ، وَالوُسْطَى[1]. أي: قرينين، والإشارةُ في خَتْمِ الرِّسالةِ بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى قُرْبِ السَّاعةِ ظَاهِرةٌ، فالسَّاعةُ قَرِيبةٌ، ولكن لا أَحَدَ يَعْلَم مَتَى تكونُ، ولا تأتي النَّاسَ إلا بَغْتَةً، حتى إِنَّها تأتي والرَّجلانِ يَنْشُرانِ الثَّوْبَ بينَهما يَتَبايَعانِه فتقومُ السَّاعةُ، والرَّجلُ يُصْلِحُ حَوْضَ إبلِهِ لتَشْرَبَ منه، فهي تأتي النَّاسَ بَغْتَةً، ولا أَحَدَ يَعْلَم مَتَى.

وانْظُرْ إلى حَديثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المُطَوَّلِ الذي عَلَمنا فيه جِبْريلُ دِينَنا بواسطةِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصَّلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

أسئلتِه لرَسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإجابةِ النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم له، قال جِبْريلُ للنبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو أعْلَم الرسلِ مِن الملائكةِ في شَريعةِ اللهِ ووحي اللهِ فيما نَعْلَم، قال لِأَعْلَم البَشَرِ مُحَمَّدٍ ﷺ: أَخْبِرْنِي مَتَى السَّاعةُ؟ قال: «**مَا المسؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَم مِنَ السَّائِلِ**». يعني أنتَ إذا كنتَ لا تَدْرِي فأنا لا أَدْرِي. «**قال: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا**»[1]، فأَخْبَرَهُ.

فإذا كان رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم مُحَمَّدٌ، وهو أعْلَم البَشَرِ بوَحْيِ اللهِ، قال لجِبْرِيلَ، وهو أعْلَم الملائكةِ بوَحْيِ اللهِ فيما نَعْلَم: «**مَا المسؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَم مِنَ السَّائِلِ**».

فمَن سواهما لا يعلم، ومَن ادَّعى عِلْمَ السَّاعةِ، وأنها تكونُ في اليوم الفُلانِيِّ، أو الشهرِ الفلاني، أو السَّنةِ الفُلانيةِ، أو الأَلْفِ الفُلانيةِ، فهو كَافِرٌ، ومَن صَدَّقه فهو كَافِرٌ؛ لأنك إذا صَدَّقْتَ مَن يقولُ: إنَّ السَّاعةَ بعدَ ألفِ سَنَةٍ أو ألفين أو أكثرَ أو أقلَّ. فقد كذبتَ قولَ اللهِ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧].

وإِنِّي لَأَعْجَبُ من قَوْمٍ من الكفار أرجفوا وأجلبوا فيما يُسَمُّونَه الألفيةَ الثَّالثةَ، التي زَعَمُوا أنه سَيَكونُ فيها حوادثُ ومَشاكِلُ، وتشاءَمُوا منها، وأرجو اللهَ تَعالَى أن يكونَ شُؤْمُهم على أنفسِهم، وأن يكونَ شُؤْمُهم فَـأْلًا للمسلمين، آمين يـا رب العَالمين.

هؤلاء الرَّعاعُ خافوا مما يُسَمُّونَه الأَلْفيةَ الثَّالثةَ، ومن سَفَهِهم أنهم جعلوا خِتامَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسْلام والإحسان وعلم السَّاعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسْلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٠).

الألفين وابتداءَ الأَلْفِ الثَّالثِ بعدَ عامٍ الذي هو بعدَ أيامٍ قَلائِلَ، وإذا أرادَ اللهُ فَضِيحةَ أَقْوامٍ صارتْ عَلَمًا على رُءوسِهم، ونحن -مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ- لا يُهِمُّنا آلافُهم ولا مِئاتُهم ولا عَشَراتُهم ولا آحادُهم، نحن مُسْتَقِلُّونَ -ولله الحمدُ- بتاريخٍ بُنِيَ على أعظمِ مُناسبةٍ كانت في الإسْلامِ، وهو التَّاريخُ الهِجْرِيُّ الذي فيه هِجْرَةُ النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فتَكَوَّنت الدولةُ الإسْلاميةُ والأُمَّةُ الإسْلاميةُ، واختير أنْ يَكونَ أَوَّلُه المُحَرَّمَ؛ لأنَّه بعدَ انفضاضِ النَّاسِ من الحَجِّ، وبعدَ استكمالِ المُسْلِمِينَ للصَّوْمِ الذي هو أَحَدُ أركانِ الإسْلامِ، ثم الحج الذي هو الخَامسُ من أركانِ الإسْلامِ، فكأنَّ السَّنَة خُتِمَت، ثم في الشهرِ التَّالي من شَهْرِ الحَجِّ ابتدأت السَّنَةُ، فهي مُناسبةٌ شَرْعيةٌ هِجْريةٌ لا يَمْتَرِي فيها أَحَدٌ.

ولقد كان من فَضائلِ هذه الدولةِ السُّعوديةِ -ولله الحمدُ، زَادَها اللهُ شَرَفًا وعِزًّا ورِفْعَةً، ونَصَرَ بها الإسْلامَ ونَصَرَها بالإسْلامِ- أنْ جَعَلَتِ التَّاريخَ الرَّسْمِيَّ هو التَّاريخَ الهِجْرِيَّ، وهذه نِعْمةٌ على هذه البلادِ، أنها أَبْقَت التَّاريخَ الإسْلاميَّ المَبْنِيَّ على أعظمِ مُناسبةٍ، وتركت ما وراءَه، نحن أُمَّةٌ أَعَزَّنا اللهُ بالإسْلامِ، فلا يَنْبَغِي أن نُذِلَّ أنفُسَنا، وأن نكون أذنابًا لغيرِنا، إننا إذا أَرَّخنا بتاريخِ أولئك القَوْمِ فَرِحوا وفَخَروا وانتفخوا؛ لأننا كُنَّا أتباعًا وأذنابًا لهم.

لو كنتم تَشْعُرون بما يشعرون به من الفَرَحِ؛ أن تكونَ الأُمةُ الإسْلاميةُ -مع الأسف الشديد- تَبَعًا لهم في التَّاريخ، لرأيتم العَجَبَ العُجابَ؛ ولذلك تَبِعَ هؤلاء القوم على سَفَاهَتِهم مَن كان سَفِيهًا؛ حتى استعدوا لما يُسَمُّونَه الألفيةَ الثَّالثةَ، بعضُهم الآن يُعَلِّقُ الزِّيناتِ والقَنادِيلَ على المَتاجِرِ، وبعضُهم يُخَفِّضُ أسعارَ السِّلع، ويقول:

أَسْرِعوا واغتنموا الفُرْصَة، فمُدَّتُها أُسبوعٌ فَقَط! لكني أَتَوَقَّفُ في هذا الأمرِ: هل يَجُوزُ أن يَشْتَرِيَ الإِنْسانُ السِّلَعَ بهذا التخفيضِ لهذه المناسبة؟ أَتَوَقَّفُ فيه لأني إذا اشتريتُ منهم فقد رَضِيتُ بِفِعْلِهم، أم أني أقول: هذا رِزْقُ اللهِ، وهم في آثامهم يَرْكُضونَ؟ اللهُ أَعْلَم بما في حُكْمِه عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك في قُرْبِ خِتامِ السَّنةِ المِيلاديَّةِ يكونُ هناك احتفالٌ آخَرُ، احتفالٌ دِينِيٌّ بما يَدْعُونَه مِيلادَ المَسيحِ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي نَحْنُ نُؤْمِنُ به، وهم لا يُؤْمِنُونَ به، نعم المُسلِمُونَ يُؤْمِنونَ بالمسيحِ، والنَّصارَى لا يُؤْمِنونَ به، أقولُ هذا لأني أَمْلِكُ دَلِيلًا بذلكَ من كلامِ اللهِ، ودَلِيلًا من فعلِ النَّصارَى أنفسِهم، أما الدَّليلُ من كتابِ اللهِ فاسْتَمِعْ إلى قولِ اللهِ تَعالَى في سورةِ الصفِّ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦] وهذا الرَّسولُ الذي جاءَ من بعدِه اسمُه أحمدُ، هو مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فليسَ بينَ مُحَمَّدٍ وعيسى نَبِيٌّ ولا رَسولٌ، وما يُوجَدُ في بعضِ كُتُبِ التَّاريخِ من أن هناك أنبياءَ كخَالِدِ بنِ سِنَانٍ أو غَيْرِه فهذا كَذِبٌ، فليسَ بينَ محمدٍ وعيسى أحدٌ.

ثم قال تَعالَى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ بَشَّرَهم به ليتَلَقَّوْه بالبِشْرِ والسُّرورِ ويؤمنوا به، ولكنّهم كفرُوا به مع علمِهم بكونِ محمدٍ رَسُولًا من عندِ اللهِ، قال الله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]. وقال أيضًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعرف:١٥٧]، فهذا موجود في التَّوراة والإنجيلِ حتَّى الآنَ ومنقولٌ،

نقلَ ذلك صاحبُ المنارِ مُحَمَّد رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو عَالِمٌ شَهِيرٌ من عُلماءِ مِصْرَ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فهم بقولِهم هذا كَفَروا بما بَشَّرَهم به نَبِيُّهم عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإذا سألتَ النَّصارى هل اليهودُ كُفَّارٌ أم مؤمنون؟ فسيقولون: كفارٌ؛ لأنهم كفروا بالإنجيلِ الذي نَزَلَ بعدَ التوراةِ، ونحن نَستدِلُّ على كُفْرِهم بفعلِهم، فلما كَفَّروا اليهودَ لأنَّهم كَفَروا بالإنجيلِ، كَفَّرْناهم نحنُ؛ لأنهم كفرُوا بالقرآنِ، وكُفْرُهم بالقرآنِ كُفْرٌ بالإنجيل والقرآنِ.

وقد يقول مُتَحَذْلِقٌ من النَّصارى: إنَّ المسيحَ قال: اسْمُه أحمدُ. وهذا الذي بُعِثَ من العَرَبِ اسمُه مُحَمَّدٌ، وهذا غيرُ هذا، ونحن نَنْتَظِرُ الآن حتى يأتي أحمدُ؟ والجوابُ عليه أن نقولَ: أحمدُ اسْمٌ، ومُحَمَّدٌ اسمٌ، وللنبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أسماءٌ عَدِيدةٌ، وقد اختير اسْمُ أَحْمَدَ على اسمِ مُحَمَّدٍ الذي سَمَّاه به جَدُّه عبدُ المطلب؛ لأنه مِن حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فاسْمُ أحمدَ اسمُ تَفْضِيلٍ، أي: أَحْمَدُ الخَلْقِ للهِ، وأحمدُ الخَلْقِ خِصالًا، فهو أحمدُ بمعنى مَحْمودٍ، وأحمدُ بمعنى حامِدٍ، فهو اسْمُ تَفْضيلٍ من حامدٍ ومِن مَحْمودٍ، وإنما جاءَ بهذه الصِّيغةِ حتى يَعْرِفَ الَّذين بَشَّرَهم عيسى بأنَّ هذا الرَّجلَ أحقُّ النَّاسِ بالاتِّباعِ؛ لأنه أحمدُ النَّاسِ.

فالحمدُ للهِ ليسَ لهم حُجَّةٌ، واسْمَعْ قولَ النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم الثَّابِتَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ» يعني أُمَّةَ الدعوةِ التي دعاها الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهم جَميعُ الخَلْقِ بعدَ بَعْثتِه، «يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَم يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١)، صدقَ اللهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع النَّاس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٣).

وصدقَ رَسولُه ﷺ بلا يمينٍ، فهو الصَّادق المصدُوق.

فانظر كيف قال: «لا يَسْمَعُ بي... يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ». دون أن يقولَ: ويَفْهَم ما دَعَوْت إليه. فلا بُدَّ في إقامةِ الحُجَّةِ من فَهْمٍ، فمُجرَّد السماع ليسَ حُجَّةً حتى يكون هناك فَهْمٌ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤]، فلو أرسل عَرَبيًّا إلى عَجَمٍ ما قامتِ الحُجَّةُ، ولو أرسل أَعْجَمِيًّا إلى عَرَبٍ ما قامتِ الحُجَّةُ، لكنِ اليهودُ والنَّصارَى بمُجرَّدِ السماعِ قامتْ عليهم الحُجَّةُ؛ لأن اليهودَ والنَّصارى يَعرِفون الرَّسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما يَعْرِفون أبناءَهم، فمُجَرَّدُ السَّماعِ يُلْزِمُهم أنْ يَتَّبِعوه، وإذا كان لَدَيْهم جَهْلٌ كالعَوامِّ منهم يَجِبُ أن يَبْحَثوا؛ لأنهم قد بُلِّغوا عنه وبُشِّروا به، وذُكِرَت أوصافُه، فكانوا يَعْرِفونه كما يَعْرِفون أبناءَهم.

أعودُ إلى قضيةِ الأَلْفِيَّةِ الثَّالثةِ التي تُزْعِجُ النَّصارَى الآن، وهي عندَهم بُعْبُع، نعم هم الآن يَخافُون منها، ويَدَّعون أنه سَيَكُون كذا، وسَيَكُون كذا، وسيَنْزِلُ عِيسَى. لكن نقولُ: الحمدُ للهِ، إذا نزَلَ عِيسَى فسوفَ يَكْسِرُ الصَّلِيبَ الذي يَعْبُدونَه، ويَقْتُلُ الخِنْزيرَ، ولا يَقْبَلُ إلا الإسْلامَ، حتى الجِزْيةَ التي كنا نَأْخُذُها منهم ونُقِرُّهم على دِينِهم بها، سَوْفَ يَرْفُضها، ولا يَرْضَى إلا بالإسْلامِ، فإذا نَزَلَ كان عِقابًا عليهم، لكنَّنا لا نَعْلَم متى يَنْزِلُ، إذا كان الوَاحِدُ مِنَّا لا يَعْلَم ماذا يَكْسِبُ غدًا فكيفَ يَعْلَم ما يَفْعَلُه الله عَزَّوَجَلَّ في الغَدِ؟ إن كنتُ قد هَيَّأْتُ السُّحورَ مثلًا في رمضانَ، فلا أدرِي ربّما أموتُ ولا آكُلُه، ورُبَّما تَعَجَّلَ عنه ما هو لَازِمٌ، فالإِنْسانُ يَتْرُكُ الشيءَ إذا ماتَ، ربما يُعَجِّل عنه، ربما يَدْعُوه صاحبُه، ويَأْكُلُ شيئًا آخَرَ، أو يَجِدُ نفسَه ثَقِيلًا فيَتْرُكُ الأَكْلَ.

على كلِّ حالٍ الإِنْسانُ يُقدِّر أنه سيَفْعَلُ غدًا كذا وكذا، لكنْ لا يَعْلَم هذا يَقِينًا؛ ولهذا قال الله لنَبِيِّه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤] أي: لا تَجْزِمْ بفِعْلِ شيءٍ، فلا تَدْرِي أيها الإِنْسانُ ماذا سيَفْعَلُ رَبُّكَ.

قِيلَ لأعرابيٍّ: بم عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ قال: عَرَفْتُ ربي بنَقْضِ العَزَائِمِ، وصَرْفِ الهِمَمِ. سبحان الله، هذا أعرابيٌّ يَقولُ هذا الكلامَ.

ونَقْضُ العزائم معناه: أنَّ الإِنْسانَ يَعْزِمُ على الشيءِ، فإذا به يَتْرُكُه وهو عازم عليه. وصَرْفُ الهِمَمِ معناه أنَّ الإِنْسانَ يَتَّجِه إلى جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فإذا به يَتَّجِهُ إلى أُخْرَى، مُدَبِّرُ هذا القَلْبَ هو الله عَزَّوَجَلَّ، قال النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «قُلُوبُ بَنِي آدَمَ كُلها بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، يعني إن شاءَ أزاغَه وإن شاءَ أقامَه، ثم يقول: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[1].

وما أكثَرَ القومَ الَّذينَ كانوا مُنحرِفِينَ فأصبحوا مُلْتَزِمِينَ، وما أكثَرَ القومَ الَّذين كانوا مُلْتَزِمِينَ فأصبَحُوا مُنحرِفِينَ؛ لأنَّ القلوبَ بيَدِ اللهِ؛ ولذلك يَجِبُ علينا أن نسألَ اللهَ التثبيتَ دائمًا، وألا نَغْتَرَّ بما عليه قُلوبُنا من الالتزامِ، ونَظُن أننا لن نَضِلَّ أبدًا، فقد عَرَفْنا الحقَّ، ولن يُمْكِنَ أن نَتْرُكَه، فَلْنَسْأل اللهَ الثباتَ دائمًا. قال النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الدَّجَّالِ: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ» أي فليبتعد عنه «فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ، أَوْ لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»[2]، فلا تتعرَّض إلى الفِتَن.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله -تعالى- القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣١٩).

على كلِّ حالٍ بالنسبةِ للألفيةِ الثَّالثة أولًا: لا يجوزُ أنْ نَعْمَلَ عَمَلًا يَدُلُّ على الاحتفاءِ بها، أو أَنَّها قد أَهَمَّتْنا أبدًا، فهذا لا يجوزُ، فهي ليست طَرِيقًا لنا، بل طَرِيقُ الأمم الكَافِرة، التي أَرْغَمَتِ الأُمَّةَ الإسْلاميةَ في كثيرٍ من البلادِ الإسْلاميةِ على أنْ تُؤَرِّخَ بالتَّاريخِ الميلادي؛ لأنها استعمرتِ البلادَ، استعمرت الشَّامَ والعِراقَ ومِصْر، وأجبرت أهلها على أن يُؤَرِّخوا بالتَّاريخ المِيلادِيِّ، وإلا فَنَحْنُ نَرى أنَّ كلَّ العُلماءِ من تلك البلادِ قَبْلَ الاستعمارِ الغربيِّ الفاسدِ الغادرِ كانت تُؤَرِّخُ بالهِجْرِيَّةِ، يقولون: وُلِدَ العَالِمُ الفُلاني سَنَةَ كذا هِجْرِيَّة، ومات سَنَةَ كذا هِجْريَّة، وكان الفتحُ الفلاني سَنَةَ كذا هِجْرِيَّة، كلُّه كانَ بالسَّنةِ الهِجْرية.

وكذلك نحن لا نَعرِفُ هذه السَّنوات الميلادية، وكذلك شُهورها، فليست مَبْنِيَّةً على أصلٍ، فشهرٌ يكون ثَمانِيَةً وعشرين، وشهرٌ يكونُ ثَلاثِينَ، وشهرٌ يكون واحدًا وثَلاثِينَ، من أين هذا؟ وهو مُخالِفٌ لما وَضَعَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لعِبادِه، اسْمَعْ كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩]، والنَّاسُ هنا هُمْ كلُّ النَّاسِ من العَرَبِ وغَيْرِهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النِّساء:٧٩] أي: لكلِّ النَّاسِ، ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ وقد نَصَّ على الحجِّ؛ لأن العربَ في الجاهليةِ تَارَةً يَجْعَلُونَ الحَجَّ في ذي الحِجَّةِ، وتارةً يجعلونه في مُحَرَّمٍ، والحجُّ لا يَتَعَدَّى شَهْرَه.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ متى؟ ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة:٣٦] وهذه الشهورُ هي: مُحَرَّمٌ، وصَفَرٌ، ورَبِيع أَوَّل، ورَبِيع آخر، وجُمادَى الأُولى، وجُمادَى الآخِرة، ورَجَبٌ، وشَعْبانُ،

ورَمَضانُ، وشَوَّالٌ، وذو القَعْدةِ، وذو الحِجَّة. هذه عِدَّةُ الشهورِ عندَ اللهِ بإجماعِ المُفَسِّرِينَ، إذن لماذا نُؤَرِّخُ بأشياءَ وَهْمِيَّةٍ، وعندَنا أشياءُ حِسِّيةٌ يَعْرِفها الجميعُ، وليست خَفِيَّةً بجانبٍ من الأرْضِ، بل في السماءِ، وكلُّ النَّاسِ يُشاهدونها؟

وقد قال لي مَرَّة رَجُلٌ من النَّاسِ: يا فلان، هذه الشهورُ المِيلادية أَفْضَلُ لأهلِ الزَّرْعِ؛ لأنها مَضْبُوطةٌ بالفُصولِ، فأُغسطس يكونُ في الصَّيْفِ، فيَزْرَعون زَرْعَ الصَّيْفِ، ودِيسَمْبر يكونُ في الشِّتاءِ، فيَزْرَعونَ زرعَ الشتاءِ، لكنَّ الأَشْهُرَ العربية تَتَنَقَّلُ في الفصولِ.

قلنا: الحمدُ للهِ، إذا كان هذا هو المُرادُ فعندَنا ما هو أفضلُ من هذا، عندَنا البُروجُ، قال الله تَعالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١]، وهذه البروجُ مَضْبوطةٌ تمامًا، وهي اثنا عَشَرَ بُرْجًا، أَوَّلها الحَمَلُ، وآخِرُها الحُوتُ. وهي مَعْروفةٌ، فَلْنُؤَرِّخْ بها من أجلِ الزَّرْعِ.

أما أنْ نَجْعَلَ هذا الميقاتَ الذي ليسَ له أصلٌ فيما نَعْلَم هو الذي يَبْنِي عليه النَّاسُ وَثَائِقَهم وتاريخَ أَمْواتِهم؛ لتُحِدَّ المرأةُ أربعة أشهرٍ وعَشَرة أيامٍ، وغير ذلك، فلا.

ويَجِبُ على المسلمين أن يَكونوا أَعِزَّةً بدينِهم وتاريخِهم ولُغَتِهم ومَنْهجِهم وجميعِ شُؤونِهم، ولا يَلْتَفتوا إلى هذا إطلاقًا، كيف نكونُ أعِزَّةً أَعَزَّنا اللهُ بالإِسْلامِ، ثم نَخْذُلُ أنفُسَنا، ونكونُ تَبَعًا لغيرِنا، وهذا لا يَلِيقُ أبدًا بِنَا نحن المسلمين، لا يَجوزُ أبدًا أنْ نُتابِعَهم على هذا الاحتفالِ.

أما بالنِّسْبةِ لعيدِ الميلادِ فهو أَشَدُّ وأَفْظَعُ، ولا يَجوزُ أنْ نُهنِّئَهم به، قال ابنُ القَيِّمِ

رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِه (أحكام أهل الذمة): «وَأَمَّا التَّهْنِئَةُ بِشَعَائِرِ الكُفْرِ المُخْتَصَّةِ بِهِ فَحَرَامٌ بِالاِتِّفَاقِ مِثْلَ أَنْ يُهَنِّئَهُمْ بِأَعْيَادِهِمْ وَصَوْمِهِمْ، فَيَقُولَ: عِيدٌ مُبَارَكٌ عَلَيْكَ، أَوْ تَهْنَأُ بِهَذَا العِيدِ، وَنَحْوَهُ، فَهَذَا إِنْ سَلِمَ قَائِلُهُ مِنَ الكُفْرِ فَهُوَ مِنَ المُحَرَّمَاتِ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُهَنِّئَهُ بِسُجُودِهِ لِلصَّلِيبِ، بَلْ ذَلِكَ أَعْظَمُ إِثْمًا عِنْدَ اللهِ وَأَشَدُّ مَقْتًا مِنَ التَّهْنِئَةِ بِشُرْبِ الخَمْرِ وَقَتْلِ النَّفْسِ وَارْتِكَابِ الفَرْجِ الحَرَامِ وَنَحْوِهِ»[1].

وقال شيخُه شيخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِه (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصْحاب الجحيم): «إنَّ مُشابَهَتَهُم في بَعْضِ أَعْيادِهم يُوجِبُ سُرورَ قُلوبِهم بما هم عليه مِن البَاطِلِ، خُصوصًا إذا كَانُوا مَقْهُورِينَ تحتَ ذُلِّ الجِزْيةِ والصَّغَارِ، فرَأَوا المُسْلِمِينَ قد صاروا فَرْعًا لهم في خَصائِصِ دِينِهِم، فإنَّ ذلك يُوجِبُ قُوَّةَ قُلوبِهِم وانشراحَ صُدُورِهم، وربما أَطْمَعَهم ذلك في انتهاز الفُرَص، واستذلالِ الضُّعَفاء»[2] وذكَرَ كلامًا طَوِيلًا في كتابِه ذلك، وأُشِير على كلِّ مُسلِمٍ أن يَقْتَنِيَ ذلك الكتابَ.

إذن لا يجوز أن نُهنِّئهم بأعيادِهم أبدًا؛ لأن التهنئةَ بأعيادهم الدِّينية يعني الرِّضا بشعائرِ الكُفْرِ، وهذا خَطِيرٌ جدًّا.

فإذا قال قائلٌ: ألا يَجوزُ أن نُهَنِّئَهم مُجاملةً لهم، كما كانوا يُهَنِّئونَنا بأعيادِنا، إذا جاءَ عِيدُ الفِطْرِ هنؤونا، وكذلك عيدُ الأضحى؟ قلنا: لا نُهَنِّئهم؛ لأنَّ أعيادَنا -والحمدُ لله- أعيادٌ شَرْعِيَّةٌ، وأعيادَهم أعيادٌ بِدْعيَّةٌ؛ لأنها -إن صَحَّت المناسبة، وهو مِيلادُ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهي بِدْعيَّةٌ شَرْعًا؛ لأنَّ عيسى ما كان يَحْتَفِلُ

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ٤٤١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصْحاب الجحيم (١/ ٥٤٦).

بمِيلادِه، وإن لم يَصِحَّ أنها مناسبةٌ لعيدِ مِيلاده فهي بِدْعِيَّةٌ شَرْعِيَّة تَارِيخِيَّة، ليسَ لها أصلٌ، إذن كيف نهنئُهم بشيءٍ ليس عيدًا شَرْعًا ولا واقعًا؛ لأننا لا نَدْري هل وَافَقَ مِيلادَ المسيحِ أو لا؟ وإذا قيل: إنَّ هذا مَعْلومٌ بالتواتر. نقول: وَلْيَكُنْ مَعْلومًا، وليكن مُطابقًا لميلادِ المسيح، لكنه عِيدٌ بِدْعيٌّ شَرْعِيٌّ، إذن لا نهنئُهم به.

أما كونُهم يُهَنِّئُونَنا بعيدِنا فنَعَم، دِينُنا شَرْعِيٌّ والحمدُ للهِ، وحُقَّ لنا أن نُهَنَّأَ به. أمَّا عِيدُهم فليسَ بشَرْعٍ، لكن أرأيتم لو هم هَنَّؤونا بعِيدِهم، فهل يَجِبُ علينا أن نَرُدَّ عليهم؟ الجواب: لا، لا نَرُدُّ عليهم؛ لأنَّ الردَّ عليهم يَعْنِي الموافقةَ والرِّضا، فإذا جاءَ إِنْسانٌ كافرٌ يومَ الحَادي والثَّلاثين من دِيسَمبر، فقال: أهنئك، عِيدٌ مبارك، هَنَّأَكَ اللهُ، أَعَادَهُ اللهُ عليكَ بالخَيْرِ.

فلا يَجِبُ أن تَرُدَّ عليه، وقل: هذا ليسَ عِيدًا لنا، لكنْ دُعاؤُك لي لا أَرُدُّه، إنما أَرُدُّ التَّهْنئةَ فلا أَقْبَلها؛ لأنه ليسَ عِيدًا لنا. هذا وَاجِبٌ علينا إذا كُنَّا أَعِزَّةً، وإلا فهم كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، فلا بأسَ عندَهم أن يُهَنِّئوكَ بعِيدِكَ، لكن لا تُهَنِّئْهم أنت بعِيدِهم.



الدَّرس الثَّاني:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]؛ استَمِعْ يا أخِي المؤمِنِ إلى هذَا الخِطَابِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَوَجَّهَهُ إليكَ بهذَا الوصفِ الكَريمِ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فاستَمِعْ إليهِ، فإن هذا يدُلُّ على عِنَايَةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بما وجَّهَهُ إليكَ.

وذِكْرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ له أَقْسَامٌ كثِيرَةٌ تكَلَّم عليهَا العُلماءُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ، فمِنَ الذِّكْرِ مَا هو مُطْلَقٌ، تَذْكُرُ اللهَ في أَيِّ وقْتٍ شئتَ، قالتْ عائشَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ»[1]، وأَخْبَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن إبْراهِيمَ الخَلِيلَ عَلَيهِٱلسَّلَامُ قالَ للنَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»[2]؛ يعني: أَنَّكَ إذا قُلْتَ كَلِمَةً من هذه الكَلِماتِ غُرِسَ لكَ غَرْسٌ في الجَنَّةِ، غرْسٌ لا يَفْنَى، ولا يفسدُ، فهو دائمٌ، فما أهونَ هذا الكلامَ على بَنِي آدَمَ، يمكن أن تقول هذا آلاف المرات؛ (سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)، أربعُ كَلِماتٍ يُغْرَسُ لكَ بها شَجَرَةٌ في الجَنَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب هل يتتبع المؤذن فاه ها هنا وها هنا وهل يلتفت في الأذان، ومسلم: كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم (٣٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، رقم (٣٤٦٢).

ومن الذِّكرِ ما هو مخْصُوصٌ بشيءٍ مُعيَّنٍ، كالذِّكرِ بعدَ الصَّلواتِ الخَمْسِ؛ فقَدْ أمرَ الله به في كِتابِهِ، فقالَ عَزَّوَجَلَّ في صلاةِ الجُمُعَةِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النِّساء:١٠٣]، وهو أنواعٌ، فإذا سَلَم الإنْسانُ مِنْ صلاتِهِ قالَ: «أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ»[١]، وقال الأذكارَ الوارِدَةَ، وهِي أربعَةُ أنواعٍ:

النوعُ الأوَّلِ: أن تقول: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ» خمسًا وعِشرينَ مَرَّةً[٢]، فيكونُ من ذلِكَ مئة.

النوع الثَّاني: أن تقول: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ» ثلاثًا وثلاثينَ مرَّةً، وتختِمَ ذلك بقولِكَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لُه المُلْكُ وله الحَمْدُ وهُو عَلَى كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ»[٣].

النوع الثَّالث: أن تقولَ: (سُبْحَانَ اللهِ) ثلاثًا وثلاثِينَ مرَّةً، و(وَالحَمْدُ للهِ) ثلاثًا وثَلاثِينَ مرَّةً، و(اللهُ أَكْبَرُ) أربعًا وثلاثينَ مَرَّةً، فتكونُ مئةً[٤].

النوع الرَّابع: أن تقولَ: (سُبْحَانَ اللهِ) عشْرًا، و(وَالحَمْدُ للهِ) عشْرًا، و(اللهُ أَكْبَرُ) عشْرًا[٥]، فهذا ذِكْرٌ مقيَّدٌ بأدْبارِ الصَّلواتِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب استحباب الذكر بعد الصَّلاة وبيان صفة، رقم (٥٩١).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من عدد التسبيح، رقم (١٣٥٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب استحباب الذكر بعد الصَّلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٧).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٨)، رقم (٢١٧٤٠)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصَّلاة والسنة فيها، باب ما يقال بعد التسليم، رقم (٩٢٧).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء بعد الصَّلاة، رقم (٦٣٢٩).

ومن الأذكارِ المقيَّدَةِ: أن الإنسانَ إذا تَوَضَّأَ فأسبَغَ الوضوءَ، يقولُ بعدَ الفَراغِ مِنْ وضُوئِهِ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»، فإنَّه إنْ قالَ ذلِكَ «فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»، كما جاء في الحديثِ الشريفِ(١).

ومن الأذكارِ المقيَّدَةِ: الأذكارُ عندَ دُخولِ المسجِدِ، تقولُ: «بِسْمِ اللهِ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ»، وإذا خَرَجْتَ تقولُ كذلِكَ، إلا أنَّكَ تقولُ: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»(٢).

ومن الأذْكَارِ المقيَّدَةِ: التَّسْمِيَةُ عندَ الذَّبِيحَةِ، فإن النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قالَ: «ما أَنْهَرَ الدمَ وذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه فكُلْ، إلَّا السِّنَّ والظُّفْرَ». ثُمَّ قالَ: «إِنَّ السِّنَّ عَظْمٌ، وأَمَّا الظُّفْرُ فمُدَى الحَبَشَةِ»(٣)؛ وإنما قال: «إِنَّ السِّنَّ عَظْمٌ» ؛ لأن هذِه العظَامَ إما نَجِسَةٌ فلا يمكِنُ أن تكونَ مطَهِّرَةً، وإما طاهِرَةٌ كالعَظْمِ الذي ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليهِ، فهذِهِ للجِنِّ؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما قَدِمَ إليهِ وَفْدُ الجِنِّ قالَ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، تَجِدُونَهُ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقال بعد الوضوء، رقم (٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصَّلاة، باب ما يقول عند دخوله المسجد، رقم (٣١٤)، وابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، رقم (٧٧١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب إذا أصاب قوم غنيمة فذبح بعضهم غنمًا أو إبلًا بغير أمر أصحابهم لم تؤكل، رقم (٥٢٢٣)، ومسلم: كتاب الأضاحيّ، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام، رقم (١٩٦٨).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الصَّلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

وأنواعُ الذِّكْرِ كثيرَةٌ، مذْكُورَةٌ -والحمد لله- في كُتُبِ أهْلِ العِلْمِ؛ مثلُ كتابِ (الوابِلِ الصَّيِّبِ) لابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتاب (الأذْكَارِ) للنَّوَوِيِّ، وغير ذلك من كُتُبِ الأذكارِ المعروفَةِ المشهورَةِ عندَ أهلِ العِلْمِ.

المهِمُّ: استَمِعْ إلى قولِ ربِّكَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]؛ في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِهِ: سبِّحُوه؛ ومِنَ التَّسْبيحِ في ذلك الصَّلواتُ؛ صلاةُ الفَجْرِ وصلاةُ العَصْرِ؛ ولهذا قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**»[1].

قَال تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]؛ هو أي: اللهُ عَزَّوَجَلَّ، يُصَلِّي عَلَى المؤمِنِينَ ومَلائكتُهُ، كَمَا قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

ثُمَّ قالَ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤]، يعْنِي: الَّذين يُحَيِّيهِمُ اللهُ به يومَ القِيامَةِ إذا لاقَوْهُ: سَلَامٌ؛ أَيْ: كلُّ ما فِيهِ سلامٌ مِنَ العُقوباتِ والآفاتِ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي: واسِعًا عظِيمًا -جعلنا الله وإياكُمْ مِنْهُمْ بمَنِّهِ وكرَمِهِ-.



(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصَّلاة، باب فضل صلاة العصر، باب (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

الدَّرس الثَّالث:

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ، والعَاقبةُ للمتَّقِينَ، ولا عُدوانَ إلَّا على الظَّالمينَ، وأشهدُ أن لا إِلَهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، إلهُ الأوَّلين والآخِرين، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُه ورَسولُه، سيدُ المرسلين، وإمامُ المتَّقين، وعلى آله وأصْحابِه ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾. اعلمْ أن الله تعَالَى إذا صَدَّر الخطابَ بالنداءِ فإنه يدلُّ على أهمِّيَّة هذا الخطابِ؛ لأن النداءَ من جُملةِ فوائدِه تنبيهُ المخاطَبِ، والتنبيهُ للخطابِ يدلُّ على أهميتِه.

فإذا مرَّ عليك في القُرآن: يا أيها النَّاسُ، يا أيها الَّذِينَ آمنوا، فاعلمْ أن هذا الخطابَ ذو اهتمامٍ، فانتبِهْ له، ثمَّ إذا صَدَّره بالإيمانِ ووجَّه الخطابَ للمؤمنينَ دلَّ هذا على أن ما يأتي بعد هذا إما خيرٌ يُؤمَر به الإِنْسانُ، وإما شرٌّ يُنهَى عنه، ولهذا قال عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فَأَصْغِ لها سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ تُصْرَفُ عَنْهُ»[1].

والله تَعَالَى إذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فصَدَّر الخطاب بهذه الجملةِ فإن ذلك

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١/ ١٣٠)، رقم (٨٦٦)، وسعيد بن منصور في التفسير (١/ ٢١١)، رقم (٥٠).

يعني أن هذا الخطابَ مهمٌّ، وأنه من مُقتضياتِ الإيمانِ، وأن الإخلالَ به نقصٌ في الإيمانِ. فهذه ثلاثةُ أشياءَ: أن هذا مهم، وأنه من مقتضيات الإيمان، وأن الإخلال به نقص في الإيمان.

وفي هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ خيرٌ أُمِرَ به.

ومثال شرٍّ نُهِيَ عنه: قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ [الأحزاب:٦٩].

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ الذكرُ يكونُ بالقلبِ، ويكونُ باللسانِ، ويكونُ بالجوارحِ. فهذه ثلاثةُ أنواعٍ.

الذكر بالقلب:

يكون بالقلبِ بمعنى أن الإِنْسانَ يَستحضِرُ ربَّه دائمًا، وهذا الذكرُ هو الأهمُّ، وهو الأعظمُ، وهو الَّذِي يأمرُ الإِنْسانَ بالخيرِ، وينهاه عن الشرِّ؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ يعني بقلوبهم ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٣٥].

فذِكرُ اللهِ بالقلبِ هو الأصلُ، وكثيرٌ من النَّاسِ يذكر اللهَ بلسانِه وجوارحِه وقلبُه غافِلٌ، فهذا الذكرُ بالجوارحِ وباللسانِ ناقِصٌ جدًّا إذا لم يكنْ مَصحوبًا بذكرِ القلبِ.

ولهذا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف:٢٨] ما قال: لسانَه، ولا قال: جوارحَه، بل قال: ﴿قَلْبَهُۥ﴾، فالمهمُّ كلُّ المهمِّ ذِكر اللهِ بالقلبِ. أسأل الله تَعَالَى أن يُحْيِيَ قُلُوبنا جميعًا بذكرِه.

إذن ذكرُ اللهِ بالقلبِ هو الأهمُّ والأعظمُ، وهو الَّذِي يأمرُ الإِنْسانَ بالمعروفِ وينهاه عن المنكرِ، بمعنى أن يستحضرَ الإِنْسانُ ربَّه دائمًا بعلمِه، أي بعلمِ اللهِ، وسمعِه، وبصرِه، وعظمتِه، وجلالِه، ومحبتِه، وغير ذلك.

الذِّكر باللسان:

النوع الثَّاني: ذِكر الله باللسان؛ مثل: سُبْحَانَ الله، والحمدُ للهِ، ولا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، وما أشبهَ ذلك.

ويدخل في ذِكر اللهِ بالمعنى الأعمِّ كلُّ قولٍ يُقَرِّبُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكلُّ قولٍ يُقرِّب إلى اللهِ فهو داخلٌ في ذكرِ اللسانِ. ووجهُ هذا أن القولَ الَّذِي يقرِّبُ إلى اللهِ لا يقولُه الإِنْسانُ إلا وهو يذكرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وأنه يريدُ التقرُّبَ إليه بذلكَ، فيكونُ من هذا الوجهِ ذِكرًا للهِ.

ويدخلُ في هذا الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ، فكلُّ قولٍ يقرِّب إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنه يَدخُلُ في ذِكرِ اللهِ باللسانِ.

وكذلك قراءةُ القُرآنِ من ذِكرِ اللهِ؛ لأَنَّه قولٌ يقرّبُ إلى اللهِ، وأفضلُ قولٍ يقولُه الإِنْسانُ هو كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ القُرآنُ، فإذا قرأَهُ الإِنْسانُ فله بكلِّ حرفٍ حسنة، والحسنةُ بعشرِ أمثالها، فما أكثرَ حروفَ القُرآنِ، وما أكثرَ الحسناتِ في تلاوةِ القُرآن.

لذلك أُحُثُّ نفسي وإياكم على كثرةِ قراءةِ القُرآن؛ ولا سيَّما في شهرِ رمضان الَّذِي أُنزِل فيه القُرآنُ، فأقول لنفسي: انتهِزِ الفرصةَ، وأقول لإخواني: انتهزوا الفرصةَ في هذا الشهرِ المباركِ قبل أن يزولَ، وأَكثِروا من قراءةِ القُرآن.

ومَنْ مَنَّ اللهُ عليه بحفظِه فإنَّه يستَطيعُ أن يقرأه ماشيًا وقاعدًا ومُضْطَجِعًا على فِـراشِه، ومن كان لم يحفظْه فإنـه يحفظُ مِنه ما تيسَّرَ وليكـرِّر ما حفِظَـه من القُرآن.

الذكر بالجوارحِ:

والنوع الثَّالث من أنواعِ الذكرِ: الذكر بالجوارحِ. والذكر بالجوارحِ نستطيعُ أن نقول: كلُ فعلٍ يتقرَّبُ به الإِنْسانُ إلى اللهِ فهو من ذكرِ اللهِ. وعلى هذا فإذا كتبَ الإِنْسانُ مسألةً من مسائلِ العلمِ قيَّدها لِئَلَّا ينساها، فإن تَقييدَه إياها يُعتبَر ذِكرًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، وإذا ركعَ الإِنْسانُ أو سجدَ أو قامَ من الرُّكُوعِ أو من السُّجُودِ فإنَّ ذلك من ذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا لا تجدُ عبادةً مثل الصَّلاةِ مُشتمِلة على كلِّ أنواعِ الذكرِ، ففيها ذِكرُ القلبِ؛ لأنَّ الإِنْسانَ حينما يتوضأُ في بيته، ويأتي إلى المسجدِ، أو يتوضأُ في بيتِهِ ويصلّي في بيتِه -لأنَّ النوافلَ في البيتِ أفضلُ من النوافلِ في المسجدِ- حينما يأتي بهذه النيةِ يكون ذاكرًا للهِ بقلبِه، فإذا كبَّر وقرأ وسبَّح ودعا فهو ذاكرٌ لله بلسانِه، وإذا قام وركع وسجدَ وقعد فهو ذاكرٌ لله بجوارحِه.

إذن الصَّلاة في الحقيقةِ روضةٌ من رياضِ العِبادَاتِ، فيها من كل زوجٍ بَهِيجٍ، ولهذا كانت أوكدَ العِبادَاتِ بعد الشهادتينِ، ولهذا فَرَضَها اللهُ على رَسولِه منه إليه بدون واسطةٍ، ولهذا فرضَها اللهُ على رَسولِه في أعلى مكانٍ يَصِلُه البشرُ فيما نَعلَم؛ في السَّماءِ السَّابعةِ، ولهذا فرضَها اللهُ على رَسولِه في أشرَفِ ليلةٍ للرَسولِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ وهي ليلةُ المِعراج.

فالصَّلاةُ شأنُها عظيمٌ، ولهذا فرَضَها اللهُ أولَ ما فَرَضَها خمسينَ صلاةً، اللهُ أكبرُ! والآن خمسُ صلواتٍ ثقيلةٌ على بعضِ النَّاسِ، وكانت في الأولِ خمسينَ صلاةً لا بُدَّ أن تفعلها يا إِنْسانُ في أربعةٍ وعشرينَ ساعةً، ولكن اللهَ عَزَّوَجَلَّ بلُطفِه ورحمتِه وكرمِه يسَّر نبيَّ اللهِ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حينما مرَّ به النبي ﷺ نازلًا من عند الله، فمرَّ بموسى في السَّماء السَّادسة، فقال له: «مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟». قال: «خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ». وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقبَل الحقَّ من أي إِنْسان: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فرجع إلى الله وسألَه التخفيفَ، وسألَه التخفيفَ، فما زال يسألُ حتَّى كانتْ خمسًا بالفعلِ، وخمسين في الميزانِ[1]، فنحن لا نصلِّي إلا خمسَ صلواتٍ؛ لكنَّها خمسونَ في الميزانِ.

وخمسون في الميزانِ يعني كأننا صَلينا خمسينَ صلاةً، وليسَ من أجلِ أنَّ الحسنةَ بعشرِ أمثالها؛ لأن هذا الوصفَ -أعني أن الحسنةَ بعشرِ أمثالها- لجميعِ العِبادَاتِ، لكن في الصَّلاةِ أنت تُصَلِّي خمسًا وكأنما صليتَ خمسينَ، والخمسونَ الحسنةُ بعشرِ أمثالها تكونُ خمسَ مئةٍ؛ فهذه الخمسُ صلوات كأنما صليناها خمسينَ صلاةً والحمد لله، وهذه نعمةٌ؛ تخفيفٌ وثوابٌ، وكلُّ هذا ببركةِ المشورَةِ النَّافعةِ.

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رحمتُه سَبَقَتْ رحمةَ أيِّ راحمٍ، فخفَّفَ عن العبادِ وأمضى الفريضةَ وللهِ الحمدُ، وصارت الصَّلاةُ كأننا صَلينا خمسينَ صلاةً، وإنما صلينا خمسَ صلواتٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب المعراج، رقم (٣٨٨٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء، رقم (١٦٢).

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ربنا عَزَّوَجَلَّ أحقُّ أن يُثنى عليه، وأحقُّ أن يُذكرَ في كلِّ وقتٍ وحِينٍ، قال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ دائمًا بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ، فإذا هممتَ بسيئةٍ فاذكرِ اللهَ، اذكرِ الَّذِي يراكَ حين تفعلُ، ويسمعُك حين تقولُ، ويعلمُ بما في قَلبِك حين تَهِمُّ، فاذكر هذا، وإذا ذكرتَه فسوف تمتنع عن المعصيةِ، وإذا حدثَتْك نفسُك بالتراخي في فعلِ الواجبِ فاذكرِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حتَّى يَحْمِلَكَ هذا الذكرُ على القيامِ بالواجبِ.

وذكرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ذِكرٌ مُطلَق، وذِكرٌ له سَبَبٌ:

الذكرُ المطلقُ: أن تذكرَ اللهَ دائمًا بدونِ أي سببٍ؛ جاء رجلٌ إلى الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقال: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ -لأنه كبيرٌ في السن ولا يستطيعُ القيامَ بكلِّ واجبٍ- فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»[1]؛ يعني: أكثِرِ الذكرَ، ومعلوم أن الإِنْسانَ إذا كان لسانُهُ لا يزال رَطبًا فسوف يقوم بالواجباتِ عليه ما استطاعَ.

فالذكرُ المطلَق أن يذكرَ الإِنْسانُ ربَّه في كل وقتٍ وحينٍ، قِيامًا وقُعودًا وعلى جنبٍ.

الذكر المقيد: ومن أنواعه:

الذكرُ أدبارَ الصَّلواتِ المكتوبةِ:

والذكرُ أدبارَ الصَّلواتِ المكتوبةِ مُقَيَّدٌ بالصَّلواتِ المكتوبةِ، فإذا سلَم الإِنْسانُ

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر، رقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الذكر، رقم (٣٧٩٣).

من الصَّلاةِ المكتوبةِ أوّلَ ما يبدأ فإنه يقولُ: «أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ» ثلاثًا، «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ، وَمِنْكَ السَّلامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ» هذا قبل كلِّ شيءٍ، ثمَّ يذكرُ اللهَ ثلاثَ مراتٍ فيقول: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» في الظُّهْر والعصرِ والعشاءِ، ويقول: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» عشرَ مراتٍ بعد الفجرِ وبعد المغربِ، ثمَّ يُسبِّح. والتسبيحُ له أربعةُ أوجهٍ:

أولًا: تقول: سُبْحَانَ الله، والحمدُ للهِ، واللهُ أكبرُ، ثلاثًا وثلاثينَ مرةً، فيكون الجميعُ تسعًا وتسعينَ، واختِمْها بـ«لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وحدَه لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». فيكون الجميعُ مئةً.

ثانيًا: تقول: سُبْحَانَ اللهِ ثَلاثًا وثلاثينَ، والحمدُ للهِ ثلاثًا وثلاثينَ، واللهُ أكبرُ أربعًا وثلاثينَ، فهذه مِئة مرةٍ، فسقط من الأولِ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ..» واختلفتِ الصيغةُ، فالأول: سُبْحَانَ الله، والحمدُ للهِ، واللهُ أكبرُ جميعٌ، والآن كل واحدةٍ وَحدَها. هذان نوعانِ.

ثالثًا: تقول: سُبْحَانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، خَمسًا وعشرينَ، فيكون الجميعُ مئةً.

رابعًا: تقول: سُبْحَانَ الله عشرًا، والحمدُ للهِ عشرًا، واللهُ أكبرُ عشرًا، والجميعُ ثلاثونَ.

فهذه أربعةُ أنواعٍ، فافعلْ هذا مرةً، وهذا مرةً؛ لتأتيَ بالسنةِ على جميعِ وُجُوهِها؛ لأن القولَ الرَّاجِحَ الصَّواب الصَّحيح أن العبادةَ إذا وردتْ على وجوهٍ متنوعةٍ

فالأفضلُ والأوفقُ للسُّنة أن تأتيَ بها تارَةً كذا، وتارَةً كذا.

وخذْ هذه القَاعِدةَ انتفِع بها: السنةُ إذا وردتْ على وجوهٍ متنوعةٍ فلا تأخذْ بنوعٍ واحدٍ وتترك الباقيَ، بلِ افعلْ هذا مرة وهذا مرة؛ حتَّى تأتي بالسنة على جميع الوجوه.

فهذا ذكر مقيَّد بأدبار الصَّلاة.

طُرفة: سمِع رجلٌ خطيبًا يومَ عيدِ النحرِ يخطُب ويذكر شروطَ التزكيةِ وكيفية التزكيةِ، فقال: ويقولُ إذا أضجعها: باسمِ اللهِ وُجوبًا، واللهُ أكبرُ استحبابًا. والخطيبُ يريدُ أن يبينَ الحُكمَ، فلما أراد هذا الرَّجل أن يذبحَ الذبيحةَ وأضجعَ الذبيحةَ قال: باسمِ اللهِ وجوبًا، والله أكبرُ استحبابًا! ظنَّ أن هذا يقالُ عند الذبحِ، والخطيب يريد أن «باسم الله» واجبٌ، و«الله أكبرُ» مُستحَبٌّ.

الذكر عند الطعام:

وهناك ذِكرٌ مقيدٌ عند الأكلِ والشربِ، فعند الأكلِ تقول: «باسمِ اللهِ» وجوبًا، فيجب أن يسميَ الإِنْسانُ ربَّه عند الأكلِ، وأن يسميَ ربه عند الشربِ، فيقول: «باسم اللهِ» عند الأكلِ، و«باسمِ اللهِ» عند الشربِ، وجوبًا، يعني لو تَرَكَها الإِنْسانُ مُتعَمِّدًا أَثِمَ، ولو نَسِيَها ثمَّ ذَكَرَها في أثناء الأكلِ أو الشربِ فإنه يقول: «باسمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ». هذا عند البدءِ. وعند النهايةِ تَحمَد اللهَ، تقول: الحمدُ للهِ؛ لقول النبي صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ في الأول، وقد أكلَ معه غُلام، وهو عمرُ بنُ أبي سَلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ابن أُمِّ سَلَمَةَ، كان في حَجْرِ النبيِّ ﷺ، فقُدِّم الطعامُ، فجعلتْ يدُ الصَّبِيِّ تَطِيشُ يَمِينًا وشِمالًا، فعَلَمهُ مُعَلِّمُ الخيرِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال: «**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ**

وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»(١).

أما الثَّاني، وهو الحمدُ عند الفراغِ، فقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم: **«إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»**(٢) اللَّهُمَّ لكَ الحمدُ. والأكلُ منَ اللهِ، والشربُ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومع ذلك إذا حمدتَ اللهَ على ما أنعمَ به عليك، فإن ذلك سَبَبٌ لرضا اللهِ عنك.

إذن هذا ذِكرٌ مقيَّدٌ عند الأكلِ ابتداءً وانتهاءً، وكذلك عند الشربِ.

الذكر عند الخَلاء:

كذلك أيضًا من المقيَّد أنَّه لما كان عند الأكلِ والشربِ ذِكرٌ، كان عند إخراجِ الأكلِ والشربِ ذِكرٌ، فهذه نِعَمٌ عظيمةٌ؛ عند إخراجِ الأكلِ والشربِ ذِكرٌ، وإذا أردتَ أن تدخلَ الحمامَ فهناك ذِكر، وهو: **«بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبْثِ وَالخَبَائِثِ»**(٣). والبسملةُ واضحةٌ، والخُبْثُ: الشرُّ، والخبائثُ: النفوسُ الخبيثةُ الشِّرِّيرَة.

والمناسبةُ ظاهرةٌ جدًّا؛ فالحمامات؛ المراحيضُ وبيوتُ الخلاءِ مَقَرُّ الشياطين، والمساجدُ مَقَرُّ الملائكة، فهناك فرق؛ الخبيثاتُ للخبيثينَ، والخبيثونَ للخبيثاتِ، فهؤلاء الشياطين إذا لم تتعوَّذ بالله منهم فربما يُصِيبونك بأذى، ولهذا كثُر المسُّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم (٥٣٧٦)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم (٢٠٢٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما يقول عند الخلاء، رقم (١٤٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب ما يقول إذا أراد دخول الخلاء، رقم (٣٧٥).

بالجنِّ في عصرنا هذا؛ لأننا لا نَتَحَرَّزُ من الشياطين.

فلا تنسَ عند دخولِ الخلاءِ أو دخول المرحاض أن تقول: «**بِاسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ**»؛ لأن أمامَكَ شياطين عدوَّة لك، تريد أن تؤذيَك، فاستعِذْ باللهِ منها.

وإذا خرجتَ فقلْ: «**غُفْرَانَكَ**»[1]، وإن شئتَ أنْ تُكمِلَ فتقول: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الأَذَى وَعَافَانِي**»[2] فلا بأس.

ومعنى «**غُفرَانَكَ**»: أسألُكَ غفرانَكَ. قال بعضُ العُلَماءِ: لأنَّ الإِنْسانَ وهو على الخلاءِ لا يذكرُ اللهَ، فيستغفرُ الله أنَّه لم يذكرِ اللهَ في هذه الحَالِ، لكن هذا غَلَط؛ لأن إمساكَه عن ذِكر اللهِ في هذه الحَالِ ليس ذَنبًا، بل هو تَعظيمٌ للهِ، ولكن العُلَماءَ أبدوا حِكمةً واضحةً، قالوا: إن الإِنْسانَ إذا خرجَ من الخلاءِ أو من المرحاض فقد وضعَ عن نفسِه حِملًا ثقيلًا، فهو يدعو الله أن يضعَ عنه عبءَ الذنوبِ ويغفرها له.

فإذا خرجَ الإِنْسانُ من الخلاءِ فقد وضعَ عن نفسِهِ حِملًا ثقيلًا، وافرِضْ أنك تدافِع الأخبثَينِ؛ البولَ أو الغائطَ، فإذا يسَّر الله لك خُروجَهما وجدتَ خِفَّةً وراحة وأُنسًا وسرورًا، وبهذه الخفةِ بعد الحملِ الثقيلِ والعبءِ الثقيلِ يتذكرُ الإِنْسانُ عبءَ الذنوبِ وثِقَلها، فكأنك تقول: يا ربِّ، كما وضعتَ عني الحملَ الثقيلَ الجسديَّ، فَضَعْ عني الحملَ الثقيلَ والعبءَ الثقيلَ المعنويَّ. وهذه مناسبةٌ ظاهرةٌ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب ما يقول الرَّجل إذا خرج من الخلاء، رقم (٣٠)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم (٧)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم (٣٠٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم (٣٠١).

وهناك أيضًا ذِكرٌ مقيدٌ عند النومِ، وعند الاستيقاظِ من النومِ، وهناك ذكر عند دخولِ البيتِ وعند الخروجِ منه، وهناك ذِكرٌ عند دخولِ المسجدِ وعند الخروجِ منه، والأذكارُ المقيدةُ بأسبابها كثيرةٌ، وليس هذا محَلَّ استيعابها؛ لكن يمكن أن تُدرِكوها بمراجعة كتبِ الأذكارِ، وهناك كُتَيِّباتٌ صغيرةٌ تُوَزَّعُ فيها أذكارُ اليومِ والليلةِ، وهناك أيضًا كُتُبٌ أكبرُ مثل كتاب (الأذكار) للنوويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتاب (الوابل الصَّيِّب) لابن القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و(الكلِم الطيِّب) لشيخِ الإسْلامِ ابن تَيمِيةَ.

فالعُلَماء -جزاهم الله خيرًا- أوضحوا ذلك وبيَّنوه في كُتُبِهم. والذي ينبغي للإنْسانِ أن يَحرِص على هذه الأذكارِ، وأن يذكرَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها.

قوله: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾؛ سبحوا الله بكرةً يعني في أولِ النهارِ، وأصيلًا: آخر النهار.

ثم قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾: ﴿ هُوَ ﴾ أي الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أي: تُصَلِّي عليكم، فأنتَ أيها المؤمنُ أبشِر أن الله عَزَّوَجَلَّ وملائكته الكِرام يصلون عليك، فكل مؤمنٍ فاللهُ وملائكته يُصَلِّي عليه، لماذا؟ ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، من ظلمات الجهل إلى نورِ العلمِ، ومن ظلماتِ السفَه إلى نُورِ الرشدِ، ومن ظلماتِ الانحرافِ إلى نورِ الاستقامةِ، ومن كلِّ ظُلمةٍ إلى كُل نُورٍ، ﴿وَكَانَ﴾ أي الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

اللَّهُم كنْ بنا رَحيًما يا ربَّ العَالمينَ، وأحسِن عاقِبَتَنا في الأمورِ كلها، واجعلْ

خيرَ أعمالِنَا خواتيمَها، وخير أعمارنا آخِرَها، وخيرَ أيَّامِنا وأسعدَها يومَ نَلقاك، إنَّك على كلِّ شيءٍ قَدير.

وصلى اللهُ وسلَم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبِه ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.



الدَّرس الرَّابع:

الحمدُ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونَعُوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومِن سَيِّئَاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَرِيكَ له، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورَسولُهُ وخَلِيلُه وأَمِينُه عَلَى وَحْيِه، أَرْسَلَه اللهُ تَعالَى بالهُدَى ودينِ الحقِّ فَبَلَّغَ الرِّسالَةَ وأَدَّى الأمانةَ ونَصَحَ الأُمَّةَ، وتَرَكَهَا عَلَى مَحَجَّةٍ بَيْضاءَ لَيْلها كَنَهَارِها لا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، فَصَلَواتُ اللهُ وسَلامُهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِه وأَصْحَابِه، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤١]، وقد أُثِرَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِي قولِه تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قَالَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فَارْعَهَا سَمْعَكَ -يَعْنِي اسْتَمِعْ لها- فَإِنَّهُ خيرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أَمَرَ اللهُ تَعالَى عِبادَه المُؤْمِنِينَ بتوجيهِ الخطابِ إليهم بهذا الوصفِ الجليلِ، بالإيمانِ الَّذِي أَسْأَلُ اللهَ تَعالَى أن يجعلَني وإياكم مِمَّنْ حَقَّقَ الإيمانَ عقيدةً وقولًا وعملًا ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أَمَرَنا بذكرِه ذِكْرًا كثيرًا وأَثْنَى عَلَى الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيامًا وقُعُودًا وعلى جُنُوبِهم، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١] فقال: ﴿يَذۡكُرُونَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦)، رقم (١٠٣٧).

ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي في كلِّ حالٍ، وهنا يقولُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ واعْلَم أن ذِكْرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يكونُ باللسانِ ويكونُ بالقلبِ ويكونُ بالجوارحِ، يكونُ باللسانِ كقولِنا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، سُبْحَانَ اللهِ، الحمدُ للهِ، اللهُ أكبرُ، وبِتِلَاوَةِ القُرْآنِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذَا يكونُ باللسانِ.

ويكونُ بالقلبِ بأن يكونَ الإِنْسَانُ دائمًا مَعَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بقلبِه، يَذْكُرُ اللهَ تَعالَى دائمًا بقلبِه، يَذْكُرُ اللهَ بِعَظَمَتِه، ويَذْكُرُ اللهَ بِكِبْرِيَائِه، ويَذْكُرُ اللهَ بِسُلْطَانِه، وذِكْرُ اللهِ بالقلبِ أَشَدُّ تأثيرًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ باللسانِ، اسْتَمِعْ إِلَى قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:١٣٥] أي بقلوبِهم ذَكَرُوا عَظَمَةَ اللهِ ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٣٥].

ذِكْرُ اللهِ تَعالَى بالجوارحِ فكُلُّ حَرَكَةٍ تُقَرِّبُ إِلَى اللهِ فَهِيَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، هَذِهِ القَاعِدَةُ: كُلُّ حَرَكَةٍ تُقَرِّبُ إِلَى اللهِ فهي من ذِكْرِ اللهِ؛ فِي الصَّلاةِ: القيامُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، الرُّكُوعُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، السُّجُودُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، الجلوسُ فِي الصَّلاةِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، كُلُّ حَرَكَةٍ فهي مِنْ ذِكْرِ اللهِ، دليلُ هَذَا قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩] الصَّلاةُ والخطبةُ، وقولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥] أي لما فيها مِنْ ذِكْرِ اللهِ أَكْبَرُ من ذلك.

إذن الذِّكْرُ يكونُ باللسانِ ويكونُ بالقلبِ ويكونُ بالجوارحِ.

وذِكْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُطْلَقٌ ومقيدٌ، مُطْلَقٌ يعني كلَّ وقتٍ، ومقيدٌ يعني فِي حالٍ

معينةٍ أو فِي زمنٍ معينٍ أو فِي مكانٍ معينٍ، فعندما ندخُلُ المَسْجِدَ نقولُ: «**بِسْمِ اللهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِك**». وإذا خَرَجْنَا مِنَ المسجدِ نقولُ: «**بِسْمِ اللهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ**»(١). هَذَا ذِكْرٌ؛ لأنَّ الدُّعاءَ لا شَكَّ أنَّه ذِكْرٌ مُقَيَّدٌ بمكانٍ، عندما نَمُرُّ بالحجرِ الأسودِ حَوْلَ الكعبةِ المشرفةِ نقولُ: اللهُ أكبرُ. هَذَا مُقَيَّدٌ بمكانٍ، عندما نَصْعَدُ الصَّفَا والمَرْوَةَ نَذْكُرُ اللهَ ونَدْعُو، هَذَا أيضًا مُقَيَّدٌ بمكانٍ.

أما المقيدةُ بزمانٍ كَأَذْكَارِ المساءِ والصباحِ، هَذِهِ مقيدةٌ بزمانٍ، وهي معروفةٌ فِي كتبِ أهلِ العلمِ.

أما المقيدةُ بحالٍ فمَثَلًا عندما يصيبُ الإِنْسَانَ هَمٌّ أو غَمٌّ يَذْكُرُ اللهَ، قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَم كَلِمَةً لا يَقُولها مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ: كَلِمَةُ أَخِي يُونُسَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»(٢) هَذَا مقيدٌ بحالٍ، ومنه مَثَلًا عِنْدَما يَهُمُّ الإِنْسَانُ بالأمرِ ويُشْكِلُ عليه ويَتَرَدَّدُ فيه ماذا يصنعُ؟ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ فإذا سَلَم دَعَا بدعاءِ الاستخارةِ المعروفِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَم وَلَا أَعْلَم، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوب**»(٣) وهو معروفٌ، هَذَا مقيدٌ بحالٍ، كذلك أذكارُ النومِ إن شئتَ قُلْ مقيدةٌ بحالٍ وإن شئتَ قُلْ مقيدةٌ بزمانٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٤/ ١٥)، رقم (٢٦٤١٧)، وابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، رقم (٧٧١).

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم واللَّيلة، رقم (٣٤٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم (١١٠٩).

وإذا جاء ذِكْرٌ مطلقٌ وقَيَّدَه الإِنْسَانُ بحالٍ أو مكانٍ أو زمانٍ لم تَرِدْ به الشريعةُ صار بِدْعَةً، لا مِنْ حَيْثُ أصلِه، ولكن مِنْ حَيْثُ تقييدِه بهذا الزمنِ أو بهذا المكانِ أو بهذه الحَالِ؛ لأنَّ العِبادَاتِ يا إخوانَنا مقيدةٌ بها وَرَدَتْ به الشريعةُ فِي أصلها ووصفِها، فمثلًا لو قالَ قائلٌ: إنَّ الصَّلاةَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم مشروعةٌ فِي كلِّ وقتٍ. فَأَرَادَ أن يجعلَ الصَّلاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عندَ الأكلِ، صَارَ إذا قُدِّمَ الأكلُ قالَ: بسمِ اللهِ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ. نقولُ له: أصبتَ فِي (بسمِ اللهِ) وأخطأتَ فِي (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ) مَعَ أن الصَّلاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أفضلِ الأعمالِ، وهي مشروعةٌ كلَّ وقتٍ.

إذن، الأمرُ بالذكرِ عامٌّ فِي القلبِ والجوارحِ واللسانِ، ثمَّ إن الذكرَ نوعان: نوعٌ مقيدٌ، ونوعٌ مطلقٌ، والنوعُ المطلقُ لا يمكنُ أن تقيدَه إلَّا بدليلٍ من الشَّرعِ فقولُ اللهِ: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١] هُوَ غيرُ مقيدٍ لو تَبْقَى تَذْكُرُ اللهَ دائمًا فإنَّ ذلك مِنْ ذِكْرِ اللهِ، وفي الحَدِيثِ فِي الرَّجلِ الَّذِي قال: يَا رَسُولَ اللهِ إن شرائعَ الإسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَوْصِنِي، قال: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»[1].

واعْلَم أنَّ الإِنْسَانَ كلما أَكْثَرَ مِنْ ذِكرِ اللهِ بِلِسَانِهِ وقَلْبِهِ وجَوَارِحِه اطْمَأَنَّ قلبُه وانْشَرَحَ صَدْرُه ونَسِيَ كلَّ شَيءٍ من الدُّنيا؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] فإذا أَرَدْتَ طمأنينةَ القلبِ وانشراحَ الصدرِ وطيبَ العيشِ فعليك بذكرِ اللهِ.

فلَوْ سَأَلَنا سَائِلٌ فقَالَ: إنه طالبُ عِلْمٍ فهل طَلَبُ العلمِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ؟

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات عن رَسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الذكر، رقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الذكر، رقم (٣٧٩٣).

فالجوابُ: أنَّ طلبَ العلمِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ لا شكَّ، بل هُوَ من أفضلِ الذكرِ، وطلبُ العلمِ الشَّرعيُّ بنيةٍ صالحةٍ قَالَ فيه الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العِلْمُ لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ»(١)؛ كلامٌ من الإمامِ إمامِ أهلِ السُّنَّةِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالُوا: يا أبا عبدِ اللهِ كيفَ تَصْلُحُ النِّيَّةُ؟ قال: «يَنْوِي بِهِ رَفْعَ الجهلِ عَنْ نفسِه وعن غيرِه». هَذِهِ نيةٌ صالحةٌ؛ ولهذا نقولُ: إن طالبَ العلمِ حينما يُفَتِّشُ الكتابَ لِيُطَالِعَ فيه فهو ذاكرٌ للهِ، حينما يُرَدِّدُ مَحْفُوظَاتِه فهو ذاكرٌ للهِ.

وقد اختلف العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أَيُّهما أفضلُ العلمُ أو الجهادُ فِي سبيلِ اللهِ؟

فنقولُ: العلمُ من حيثُ هُوَ علمٌ أفضلُ من الجهادِ فِي سبيلِ اللهِ؛ لأنَّ العلمَ تحتاجُ إليه الأُمَّةُ الإسْلاميَّةُ كلها؛ ولأنَّ العلمَ يَدْخُلُ فِي كلِّ أحوالِ المُسْلِمِينَ من عبادةٍ ومعاملةٍ وأخلاقٍ وغَيْرِها، والجهادُ فِي صدِّ الأعداءِ لتكونَ كلمةُ اللهِ هِيَ العليا، هَذَا من حيثُ اعتبارِ ذاتَيْهما، أما باعتبارِ كلِّ شخصٍ بعينِه فقد يأتينا رجلٌ ويقولُ: أَيُّهما أفضلُ لي العلمُ أو الجهادُ؟ فنقولُ: الجهادُ، ويأتي آخرُ يقولُ: أَيُّهما أفضلُ لي العلمُ أو الجهادُ؟ نقولُ: العلمُ؛ للاختلافِ بينهما، فلو جَاءَنَا رَجُلٌ قويُّ البدنِ قويُّ العزيمةِ شجاعٌ وهو فِي العلمِ ضعيفٌ حِفْظُه رَدِيءٌ وفَهْمُه أَرْدَأُ وجَلَدُهُ عَلَى العلمِ أقلُّ، نقولُ له: جاهدْ، وبالعكسِ رجلٌ جَاءَنَا ضعيفُ البدنِ ولَيْسَ بشجاعٍ، لكنْ عِنْدَه حفظٌ وفهمٌ وجَلَدٌ عَلَى العلمِ قويٌّ جِدًّا، نقولُ له: الأفضلُ العلمُ. فإن تساوى الأمران يعني لم نَجِدْ مُرَجِّحًا لهذا ولا لهذا فالعلمُ، فالعلمُ النَّاسُ يحتاجون إليه.

---

(١) انظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/ ١١١).

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب:٤٢] سبحوه فِي أولِ النهارِ وفي آخرِ النهارِ، والتَّسبيحُ أنْ يَقولَ الإِنْسَانُ: سُبْحَانَ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ، وهنا كلمتانِ خفيفتانِ عَلَى اللسانِ ثقيلتانِ فِي الميزانِ حبيبتانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: «**سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِه، سُبْحَانَ اللهِ العظيمِ**»، وصَدَقَ رَسولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[1] هما خَفِيفَتَانِ عَلَى اللسانِ، هما ثَقِيلَتَانِ فِي الميزانِ، هما حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، يا أخي هَذَا الثوابُ لهاتين الكلمتين يجْعَلُ الإِنْسَانَ لَوْ بَقِيَ طولَ زَمَنِه يقولُ: سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِه، سُبْحَانَ اللهِ العظيمِ. لكان الزمنُ رَخِيصًا بالنِّسْبَةِ لهاتين الكلمتين، وفيهما هَذَا الفضلُ، ما فضلُهما؟ كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللسانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الميزانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، هاتان الكلمتانِ متى قلتَهما فهذا ثَوابُهُما.

(سَبِّحُوهُ) يعني قولوا: سُبْحَانَ اللهِ، ومن أفضلِ التَّسبيحِ هَاتَانِ الكلمتانِ، هناك تسبيحٌ مقيدٌ فِي الصَّلاةِ أدبارِ الصَّلواتِ المكتوبةِ، وهو أربعةُ أنواعٍ، أن تقولَ: (سُبْحَانَ اللهِ)، عَشْرَ مَرَّاتٍ، (الحَمْدُ للهِ) عَشْرَ مَرَّاتٍ (اللهُ أَكْبَرُ) عَشْرَ مَرَّاتٍ، هَذِهِ ثلاثون، هَذَا نوعٌ، النوعُ الثَّاني: أن تقولَ: «سُبْحَانَ اللهِ والحمدُ للهِ واللهُ أَكْبَرُ» ثَلاثًا وثَلاثِينَ فيكونُ المجموعُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وتختمُ المئة بقولِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الملكُ وَلَهُ الحمدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وهذا الَّذِي لا يعرفُ غَالِبُ النَّاسِ سِوَاهُ. النوعُ الثَّالثُ: أن تقولَ: «سُبْحَانَ اللهِ» ثَلَاثًا وثَلَاثِينَ سَرْدًا «الحمدُ للهِ» ثَلاثًا وثَلَاثِينَ «اللهُ أَكْبَرُ» أَرْبَعًا وَثَلاثِينَ، فيكونُ العددُ مئة. النوعُ الرَّابعُ أن

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن، رقم (٧١٢٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

تقولَ: «سُبْحَانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ» خَمْسًا وعِشْرِينَ مَرَّةً، فيكونُ الجميعُ مئة كل هَذَا وَرَدَ، فإذا كنتَ ضَبَطْتَ ذَلِكَ فَقُلْ هَذَا مَرَّةً وهَذَا مَرَّةً؛ لأَنَّ العِبادَاتِ الواردةَ عَلَى أنواعٍ مختلفةٍ ينبغي للإِنْسَانِ أَنْ يَقولَ هَذَا النوعَ مَرَّةً وهَذَا النوعَ مَرَّةً حتَّى يحفظَ السُّنَّةَ ويَعْمَلَ بكلِّ ما وَرَدَ فيها.

ومنَ التَّسبيحِ في تفسيرِ قولِهِ تعالَى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الصَّلاةُ، فهي من التَّسبيحِ؛ لأنها تَتَضَمَّنُ التَّسبيحَ؛ ولأنها تَنْزِيهٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قالَ بعضُ العُلَماءِ فِي قولِه تَعالَى: ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم:١٧-١٨] قَالُوا: إن هَذَا إشارةٌ إِلَى الصَّلواتِ الخمسِ، واعْلَم أن أفضلَ الصَّلواتِ الخمسِ صَلَاتَا الفَجْرِ والعَصْرِ، قالَ فيهما النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»[(١)].

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ، الفَجْرُ بَرْدُ اللَّيْلِ والعَصْرُ بَرْدُ النهارِ، وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»[(٢)]. الَّتِي قَبْلَ طلوعِ الشَّمْسِ الفجرُ، والتي قَبْلَ غُرُوبِهَا العَصْرُ، يا أخي هَذَا ثوابٌ عظيمٌ إذا حَافَظْنَا عَلَى هاتين الصلاتين مَعَ المحافظةِ عَلَى الصَّلواتِ الأخرى، هَذَا الثوابُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصَّلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الفجر والعصر، رقم (٦٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصَّلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

النظرُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ «سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»، وهذا التشبيهُ لتحقيقِ رؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا لتشبيهِ اللهِ بالقمرِ، حَاشَا وَكَلَّا، فإن اللهَ تَعالَى لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ، لَكِنْ شَبَّهَ الرؤيةَ بالرؤيةِ لِتَحْقِيقِهَا؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ لا يَشُكُّ فِي رؤيةِ القمرِ، لَكِنْ لا يَقَعْ فِي قلبِكَ أن الربَّ مشابهٌ للقمرِ أبدًا.

والدَّلِيلُ قولُه تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، لا يَقَعْ فِي قلبِكَ التمثيلُ إطلاقًا، مِنْ عَقِيدَتِنا أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُرَى يَوْمَ القيامةِ رُؤْيَةً حقيقيةً بالعينِ فِي جنةِ النعيمِ، نَسْأَلُ اللهَ لَذَّةَ النظرِ إِلَى وجهِه الكريمِ، ولكن هل إذا رَأَيْنَا رَبَّنَا عَزَّوَجَلَّ وَنَسْأَلُ اللهَ ذلك، هل إذا رَأَينا رَبَّنَا نُدْرِكُهُ؟ الجوابُ: لا، ما نُحِيطُ به لِقَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

واعْلَم أن اللهَ تَعالَى أَضَلَّ قَوْمًا فَأَنْكَرُوا أن يُرَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ وقَالُوا: لا يمكنُ رؤيةُ اللهِ، بل إنهم تجرَّءُوا وكَفَّرُوا -والعِيَاذُ باللهِ-، مَنْ يَقُولُ: إن اللهَ يُرَى. سُبْحَانَ اللهِ، أَنُنْكِرُ أن اللهَ يُرَى وهو الَّذِي أَخبرَ عن نَفْسِه بِذَلِكَ؟! أَنُنْكِرُ أن يُرَى والذي أَخْبَرَ بذلك رَسولُه مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟! أَيُمْكِنُ لمؤمنٍ أن يَشُكَّ فِي خَبَرِ اللهِ ورَسولِه؟!

أدلةُ رؤيةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يومَ القيامةِ:

الآيةُ الأولى: فِي القُرْآنِ الكريمِ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنهُمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ حسنةٌ بهيةٌ جميلةٌ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وآلةُ الرؤيةِ فِي الوجهِ العينُ؛

ولهذا جَاءَ التصريحُ بِذَلِكَ «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا»[١] عِيَانًا، أي: مُعَايَنَةً واضحًا جِدًّا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

الآيَةُ الثَّانية: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي سُورَةِ المطففين حين ذَكَرَ الفجارَ ومَا لَهُمْ من العذابِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] ذلك اليوم ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ قالَ الإمامُ الشَّافعيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: فِي هَذِهِ الآيةِ دليلٌ عَلَى أن المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ[٢]. لأَنَّه لَمَّا حَجَبَ هَؤُلاءِ فِي حالِ الغضبِ لَزِمَ أن يكونَ هَؤُلاءِ يَرَوْنَ فِي حالِ الرِّضَا، ولو كانَ الكلُّ محجوبِينَ عن اللهِ لم يكنْ لتخصيصِ الحجابِ عن هَؤُلاءِ فائدةٌ، وهذا استدلالٌ واضحٌ من الإمامِ الشَّافعيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ المُطَّلِبِيِّ القرشيِّ، ونَاهِيكَ به فَهْمًا ومعرفةً.

الآيَةُ الثَّالثة: قَالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]. فِي هَذِهِ الآيةِ دليلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ يُرَى، لأَنَّ نَفْيَ الإدراكِ دليلٌ عَلَى وُجُودِ أَصْلِ الرُّؤيةِ، ولو لم تَكُنِ الرُّؤيةُ موجودةً لَقَالَ: لا تَرَاهُ الأبصارُ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ فنَفْيُ الإدراكِ دليلٌ عَلَى وجودِ الرؤيةِ، وهذا واضحٌ، ومن العجبِ أن من له هَوًى فَهِمَ مِنْ هَذِهِ الآيةِ نَفْيَ الرؤيةِ، اللهُ أكبرُ، قالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُٱللَّهُ فِي النُّونِيَّةِ الَّتِي تُسَمَّى (الكافيةَ الشَّافيةَ فِي اعتقادِ الفرقةِ النَّاجيةِ) وهي نونيةٌ مِنْ أَحْسَنِ القصائدِ، قَالَ[٣]:

وَسَلِ العِيَاذَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالهَوَى ... فَهُمَا لِكُلِّ الشَّرِّ جَامِعَتَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٥).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم اللالكائي (٣/ ٤٦٨).
(٣) القصيدة النونية، لابن القيم (صـ ٢٨٧).

فكيفَ يقالُ: إن الآيةَ الكريمةَ ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ فيها دليلٌ عَلَى نفيِ الرؤيةِ؟ لا يقولُ هَذَا إِلَّا صاحبُ هوًى، وإلا من تأملَ القُرْآنَ عَلَى وجهٍ صحيحٍ متجردًا من الهوى فإنَّه يتبينُ له أن فِي هَذِهِ الآيةِ دلالةً واضحةً عَلَى إثباتِ الرؤيةِ.

الآيةُ الرَّابعةُ: قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦] ووجهُ الدلالةِ أن نبيَّنا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو أعلمُ النَّاسِ بمعنى كلامِ اللهِ فَسَّرَ الزيادةَ بأنها النظرُ إِلَى وجهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهو أعلمُ الخلقِ بمعنى كلامِ اللهِ لا شَكَّ، وهو ﷺ أنصحُ الخلقِ للخلقِ، ولا يمكنُ أن يفسرَ معنى القُرْآنِ بغيرِ ما أرادَ اللهُ وهو أفصحُ الخلقِ، لا يمكنُ أن يكونَ فِي كلامِه إلباسٌ ولا إلغازٌ، وهو أسلمُ النَّاسِ وأكملُ النَّاسِ إرادةً لهُدَى الخلقِ ﷺ لا شَكَّ في ذلك، قالﷺ: «الزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ»[1].

الآيةُ الخَامسة: ومن الآياتِ أيضًا قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي آخرِ سُورَةِ المطففين فِي ثوابِ الأبرارِ: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣] أولُ ما يدخُلُ فيها النظرُ إِلَى وجهِ اللهِ لقولِه فِي الفجارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] يعني لو نازع منازعٌ وقال: الآيةُ هَذِهِ لَيسَ فيها دلالةٌ؛ لأنَّهم ينظرون ما أعدَّ اللهُ لهم من النعيمِ. قلنا: وأول ما يدخُلُ فِي ذلك النظرُ إِلَى وجهِ اللهِ لقولِه فِي الفجارِ.

هَذِهِ خمسُ آياتٍ من القُرْآنِ من كلامِ اللهِ الَّذِي هُوَ أعلمُ بنفسِه من خلقِه، أما النَّبِيُّ ﷺ فقد كشف هَذَا بأبينِ قولٍ وأوضحِه، والأحاديثُ عنه فِي ذلك لا أقولُ كثيرةٌ ولا أقولُ مشهورةٌ، بل أقولُ: الأحاديثُ فِي رؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يومَ القيامةِ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، رقم (٢٥٥٢)، وابن ماجه: كتاب في الإيمان وفضائل الصَّحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٧).

مُتَوَاتِرَةٌ، والمتواترُ عندَ علماءِ الحَدِيثِ يفيدُ العلمَ اليقينيَّ، هنا بيتان فِي ذكرِ بعضِ المتواترِ[1]:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبْ وَمَنْ بَنَى للهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبْ

وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَالحَوْضُ وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

وهذانِ البيتانِ ذكرهما الحَافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إذن، الرؤيةُ ثبتت بالقُرْآنِ والسنةِ وإجماعِ الصَّحَابَةِ، وهذا الَّذِي سأقولُه إِنْ شَاءَ اللهُ، وهذه قاعدةٌ: عَلِمْنا إجماعَ الصَّحَابَةِ بأَنَّ الصَّحَابَة قرؤوا القُرْآنَ وقرؤوا الأحاديثَ ولم يَرِدْ عنهم حرفٌ واحدٌ يخالفُ ما جاء فِي القُرْآنِ، فإذا لم يكنْ عَلِمْنا أَنَّهم مُجْمِعُونَ، لأَنَّهم لو كانَ عندهم خلافٌ لذكروه، فمثلًا هل جاء عن أحدٍ من الصَّحَابَةِ نفيُ رؤيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ ما جاء أبدًا، إذا كانَ لم يجئْ وهم يتلون الكتابَ ويقرؤون السنَّةَ عَلِمْنا أَنَّهم مُجْمِعُونَ عَلَى ما دَلَّ عليه الكِتَابُ والسُّنَّةُ، وهذه القَاعِدةُ تطبقُ فِي بقيةِ صفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الواردةِ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فقد أجمع الصَّحَابَةُ عليها؛ لأَنَّه لم يَرِدْ عنهم مخالفٌ، فخذها قاعدةً تَنْفَعُك فِي مجادلةِ أهلِ التحريفِ والتعطيلِ، والشَّيْءُ بالشَّيْءِ يُذْكَرُ.

مسألةُ العُلُوِّ:

مسألةُ عُلُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قسمان:

الأول: عُلُوٌّ وَصْفِيٌّ، بمعنى أَنَّه عالٍ بصفاتِه، أي أن صفاتِه كلها عُلْيَا، وهذا

---

(١) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص:١٨)، نقلًا عن الشيخ أبي الله محمد التاودي (ت ١٢٠٩ هـ) في حواشيه على الجامع الصحيح.

متفقٌ عليه بين المُسْلِمِينَ، لا أحدَ يقولُ: إن صفاتِ اللهِ فيها نقصٌ، فهَذَا النوعُ من العلوِّ أجمعَ عليه المُسْلِمُونَ فيما نعلمُ، ولا يمكنُ أن ينكرَه أحدٌ، دليلُه قولُه تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] المثلُ يعني الوصفَ، وهل المثلُ يأتي بمعنى الوصفِ؟ نعم يأتي، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ [محمد:١٥] أي وَصْفُها.

الثَّاني: العُلُوُّ الذاتيُّ، يعني أن اللهَ نفسَه فوقَ كلِّ شيءٍ، أي إن اللهَ تَعالَى عالٍ بذاتِه فوقَ كلِّ شيءٍ، هَذَا النوعُ أو هَذَا القسمُ مِن العُلُوِّ أنكره بعضُ النَّاسِ الَّذِينَ يَسْتَقْبِلُونَ قِبلتَنا ويَنْسُكُونَ نُسُكَنا، قَالُوا: اللهُ لا يمكنُ أَنْ يكونَ فوقَ كلِّ شيءٍ. ثمَّ ذهب فريقٌ فقَالُوا: إنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسَه فِي كلِّ مكانٍ فِي السطحِ فِي الأسفلِ فِي الطَّاهرِ فِي القذرِ فِي كل مكانٍ -أعوذُ باللهِ-.

والحقيقةُ كيف تَرْسَخُ قدمُ مؤمنٍ باللهِ عَلَى هَذَا القولِ، مقتضى هَذَا القولِ أن الإنْسَانَ إذا كانَ فِي المرحاضِ فِي أقذرِ مكانٍ وأَنْتَنِه فاللهُ فيه -أعوذُ باللهِ- تَعالَى اللهُ عن قولِهم علوًّا كبيرًا، وسُبْحَانَ اللهِ بكرةً وأصيلا، هل يمكن لمؤمنٍ أن يعتقدَ هذا؟ أبدًا لا يمكنُ، وسُبْحَانَ اللهِ إذا كانَ اللهُ فِي كلِّ مكانٍ بذاتِه فإما أن يتجزأَ وإما أن يتعددَ ولا بُدَّ، إما أن يتجزأَ يكونُ بعضُه هنا وبعضُه هنا، لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ، أو يتعددُ، يقولُ: فِي كل مكانٍ، أي: نَحْنُ الآن فِي المَدِينَةِ هو في المدينةِ، وفِي مَكَّةَ هُوَ فِي مكةَ، وفِي الرياضِ هُوَ فِي الرياضِ، فِي كلِّ مكانٍ.

إذن، إما أن يكونَ متعددًا وإما أن يكونَ متجزِّئًا، وهم بذلك يعتقدون أنَّهم ينزهون اللهَ، ولكنهم أَبْعَدُوا شَطَطًا وارتكبوا خطأً، ولا يمكنُ أن تَثْبُتَ قَدَمَا شخصٍ

يؤمنُ باللهِ عَلَى هَذَا القولِ الباطلِ.

عُلُوُّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثابتٌ بكلِّ أنواعِ الأدلةِ فِي القُرْآنِ والسنةِ والإجماعِ والعقلِ والفطرةِ، كلُّ الأدلةِ تُثْبِتُ علوَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فِي القُرْآن:

قَالَ تَعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦].

وقَالَ تَعالَى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤].

والعروجُ معناه الصعودُ إِلَى اللهِ، إذن هُوَ فوق، عَلَى كلِّ حالٍ الأدلةُ تبلغُ المئاتِ.

في السنة:

كذلك في السنةِ أيضًا الأدلةُ كثيرةٌ، فمن الأحاديثِ التي دَلَّت على عُلُوِّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حديثُ معاويةَ بنِ الحكمِ السُّلَميِّ عندما غَضِبَ على جاريتِه فلَطَمَها فَجَاءَ إلى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسْتَفْتِيهِ فِي ذلك عَلَى أَنَّه سيعتقها كفَّارةً لِلَطْمِهِ إياها، قالَ هاتها فقال للجاريةِ: «أَيْنَ اللهُ؟» فهل قالَ: أين اللهُ أو قالَ من اللهُ؟! وأين فِي اللُّغَة العَرَبِيَّة للمكانِ، قالت: فِي السَّماءِ. سُبْحَانَ اللهِ جاريةٌ أَفْهَمُ مِنْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ سُدَّ عليهم بابُ الفهمِ -والعِيَاذُ باللهِ-، قالت: فِي السَّماء. فبنى رَسولُ اللهِ ﷺ عَلَى هَذَا الجوابِ فقال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[1]. ولم يقلْ: أَعْتِقْهَا فإنَّها كافرةٌ، قالَ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب تحريم الكلام في الصَّلاة، رقم (٥٣٧).

«**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**» هَذَا دليلٌ واضحٌ، ويسمى عندَ المحدثين دليلًا إقراريًّا، والنبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يمكنُ أن يقرَّ مُنْكَرًا.

فِي عرفةَ وهو أكبرُ اجتماعٍ اجتمعَ به النَّبِيُّ ﷺ مَعَ أَصْحابِه، خَطَبَ النَّاسَ ووعَظَهم موعظةً بليغةً ثمَّ قَالَ: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[1] وجَعَلَ يَرْفَعُ أُصْبُعَهُ إلى السَّماءِ ويَنْكُتُهَا لِلنَّاسِ. يعني اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ أنَّهم أَقَرُّوا بأني بَلَّغْتُ، وكَرَّرَ النبيُّ ﷺ «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يُجِيبُونَهُ: نَعَمْ. ثم قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**» وهذه دلالةٌ ثَبَتَتْ بالفعلِ فِي المشهدِ العظيمِ في المجتمعِ الكبيرِ يَرْفَعُ أُصْبُعَهُ إِلَى السَّماءِ يُشْهِدُ اللهَ عَلَى أَصْحابِه أنَّهم أَقَرُّوا بأنه بَلَّغَ، ونحن فِي هَذَا المَسْجِدِ النَّبَوِيِّ نُشْهِدُ اللهَ أن مُحَمَّدًا رَسولَ اللهِ بَلَّغَ البلاغَ المبينَ، وأنه تَرَكَ أُمَّتَه عَلَى محجةٍ بيضاءَ ليلها كنهارِها، نَسْأَلُ اللهَ أن يجعلَنا من المُسْتَضِيئِينَ بها، أحياءً وأمواتًا.

ومِنَ الأدلةِ أيضًا في السنةِ النبويةِ قولُ النَّبِيِّ ﷺ فِي صَلَاتِه: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»[2].

وقَالَ النبيُّ ﷺ عِنْدَمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**»[3]. وهذا إِقْرارٌ، وهذا قولٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشَّاهد الغائب، رقم (١٠٥)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة اللَّيل، رقم (٧٧٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥)، وأبو داود: كتاب الصَّلاة، باب ما يقول الرَّجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصَّلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧).

الإجماع:

الإجماع المعتبرُ هو إجماعُ السَّلفِ، والذي يأتي بعدَهم مخالفًا لقولِهم فهو خارجٌ عن الاجتماعِ، فالسَّلفُ الصَّحَابَةُ والتَّابعون وأئمَّةُ المُسْلِمِينَ من بعدِهم لم يَرِدْ عن واحدٍ منهم حرفٌ واحدٌ يقولُ: لَيْسَ اللهُ فِي السَّماءِ. أَبَدًا، وهذه كُتُبٌ، كُتُبٌ بأسانيدَ والصحاحُ والحسانُ كلها موجودةٌ معنا، لا يوجدُ أحدٌ يقولُ هَذَا القولَ عندَهم إجماعًا أو خلافًا؟ إجماعًا بناءً عَلَى القَاعِدةِ الَّتِي ذَكَرْتُها قبل قليلٍ أنَّه إذا لم يَرِدْ عن الصَّحَابَةِ ما يخالفُ القُرْآنَ، فهذا إجماعٌ منهم.

العقل:

لو سَأَلْنَا فَقُلْنَا: هل العُلُوُّ صفةُ كمالٍ أو صفةُ نقصٍ؟ لكانَ الجوابُ: العُلُوُّ صفةُ كمالٍ لا شَكَّ، إذا كانَ العلوُّ صفةَ كمالٍ فإن العقلَ يَدُلُّ دلالةً قاطعةً عَلَى أن اللهَ موصوفٌ بصفاتِ الكمالِ، وحينئذٍ يَثْبُتُ العُلُوُّ، الفِطْرَةُ أَدَلُّ، والدَّليلُ على ذلك أنَّ كلَّ إِنْسَانٍ لم يَطَّلِعْ عَلَى هَذَا القولِ الباطلِ -وهو زعمُهم أن اللهَ تعالى فِي كلِّ مكانٍ- إذا قالَ: يا رَبِّ يا رَبِّ. أَيْنَ يَذْهَبُ قلبُه؟ أين يَذْهَبُ؟ إلى السَّماءِ يذهبُ إلى السَّماءِ فِطْرَةً بدونِ تَعَلُّمٍ وبدونِ مراجعةِ كتبٍ، حتَّى العجوزُ الَّتِي لا تعرفُ الحروفَ الهجائيةَ إذا دَعَتِ اللهَ وقالت: يا رَبِّ، هَذَا دلالةُ فطرةٍ.

إذن، إن عقيدتَنا الَّتِي نَرْجُو اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يثبتَنا عليها إِلَى المماتِ أن اللهَ تَعالَى فوقَ سمواتِه مستوٍ عَلَى عرشِه، وأنه له العُلُوُّ المطلقُ فِي ذاتِه وصفاتِه، ونَبْرَأُ إِلَى اللهِ من قومٍ يقولون: إن اللهَ فِي كلِّ مكانٍ، ونسألُ اللهَ لهم الهدايةَ أن يهديَهم إلى الصَّوابِ حتَّى لا يلاقوا اللهَ عَلَى هَذَا المذهبِ الباطلِ، أيها المُسْلِمُونَ اثْبُتُوا عَلَى عقيدتِكم

اثْبُتُوا عليها، وهي أن اللهَ تَعالَى عالٍ بذاتِه فوقَ كلِّ شيءٍ، ولكنْ يجبُ أن تعلموا أن اللهَ لا يحتاجُ إِلَى العرشِ ولا إِلَى غيرِه من المخلوقاتِ، بل هُوَ جَلَّوَعَلَا فوقَ كلِّ شيءٍ ولَيْسَتِ السَّمَاءُ تُقِلُّه ولا العرشُ يُقِلُّه بل هُوَ جَلَّوَعَلَا مستغنٍ عن كلِّ خلقِه، وخلقُه كلُّهم مُفْتَقِرُونَ إليه.



الدَّرس الخَامس:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقـد قـالَ اللهُ تَعـالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَـذِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٥].

فأقولُ وباللهِ أقولُ، وأرجُو أنْ أكونَ فِي اللهِ أقولُ، وحينئذٍ، وقبلَ أنْ نشرعَ فِي التَّفسيرِ، أريدُ أنْ أبينَ الفرقَ بينَ قولنَا: «وباللهِ أقولُ»، وبينَ قولنَا: «وأَرجو أنْ أكونَ فِي اللهِ أقولُ»:

أمَّا قولنَا: «باللهِ أقولُ» فالمرادُ الاستعانةُ، ويجبُ أنْ يكونَ الإنسَانُ مُستعينًا باللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي جميعِ أَحوالهِ؛ لقولِ المصلِّي: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ ولقولِ النبيِّ ﷺ: «**وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»[1].

وأمَّا قولنَا: «فِي اللهِ أقولُ» أَي: إنِّي أرجُو أنْ يكونَ قَولِي فِي شريعةِ اللهِ، أَي: مُوافقًا لشرعِهِ، وقولُ الإِنسانِ قدْ يوافقُ الشرعَ وقَد لَا يوافقهُ، ودليلُ ذلكَ قولُ النبيِّ ﷺ: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»[2]، فجعلَ الحَاكمَ المجتهدَ لهُ حالانِ: إصابةٌ وخطأٌ، فأَرجُو اللهَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أنْ نقولَ: فِي اللهِ نقولُ، وباللهِ نقولُ.

---

(١) أخرجه أحمد: (١/ ٢٩٣، رقم ٢٦٦٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، باب، رقم (٢٥١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الحدود، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (١٧١٦).

قالَ اللهُ تعَالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥]، لَا يَخفى مَا فِي توجيهِ الخِطابِ إِلى رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ بصيغةِ النداءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾؛ لأنَّ هذَا يدلُّ عَلى التعظِيمِ، أَيْ: تعظيمِ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ، ولَا يَخْفى مَا فِي علوِّ المرتبةِ مِن قولهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ حيثُ وصفهُ بِالنبوةِ، ولَا يَخْفَى مَا فِي مسكِ الختامِ مِن قولهِ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾، فَجمعُ اللهِ فِي هذهِ الآيةِ لِرَسولهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ بينَ الوَصفينِ: النُّبوةِ، والرسالَةِ، وذلكَ أَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نُبِّئَ أَولًا، ثمَّ أُرْسِلَ ثانيًا، نُبِّئَ أَي: نزلَ عليهِ الوحيُ دُون أنْ يؤمرَ بِالتبليغِ.

فإنْ قيلَ: بأيِّ شيءٍ نبئَ ﷺ؟

فالجواب: نبئَ بـ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥]، فَهذهِ الآياتُ هِي أَوَّلُ مَا نزلَ عَلى رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ منَ الوحيِ، نُبئَ بِها، وقطعَ الوحيَ، ثمَّ نزلَ عليهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر:١-٢]، وبذلكَ صارَ رَسولًا؛ ولهذَا قالَ شيخُ الإسْلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوهابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قالَ فِي رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ: إنَّه نبئَ بِـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وأرسلَ بِالمدثرِ[١].

إِذنْ؛ مَا الفرقُ بينَ النبيِّ والرَّسولِ؟

عندَ جمهورِ العُلَماءِ أنَّ الفرقَ بَيْنهما أَنَّ النبيَّ أُوحي إِليهِ بالشرعِ لكنْ لمْ يكلَّفْ بِالإبلاغِ، وإِنَّما يتعبدُ بِهِ بِنفسهِ؛ إِحياءً لِشريعةٍ كانتْ قبلهُ، أَو لِشريعةٍ مُبتدأةٍ، أَمَّا

(١) انظر: أصول الدين الإسْلامي مع قواعده لمحمد بن عبد الوهاب: (ص١٧).

الرَّسولُ فإنهُ أُوحي إليهِ بالشرعِ، وألزمَ بالبلاغِ؛ ولذلكَ سُمي رَسولًا منَ الرِّسالةِ، وهيَ ندبُ الإنسَانِ إِلى أحدٍ يبلغهُ حاجةً مَا، وعَلى هذَا فكلُّ رَسولٍ نبيٌّ، وليسَ كلُّ نبيٍّ رَسولًا.

فقولهُ سُبحانهُ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، تَعني أَنَّه نبيٌّ ورَسولٌ، لَا شكَّ فِي هذَا، جمعَ اللهُ لهُ بينَ النبوةِ وَالرِّسالَةِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: مَا تقولونَ فِي حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ الذِي علمهُ النبيُّ ﷺ مَا يقولهُ عندَ المنامِ: «وَآمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»، ونبيكَ الَّذي أَرسلت، فَلما فرغَ النبيُّ ﷺ منَ الدعاءِ الَّذي علمهُ، أعادهُ عليهِ البراءُ، وقالَ: «آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»، فقالَ لهُ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ: «لَا، قُلْ: وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»[1]، وأنتمُ الآنَ تَقولونَ: إنَّ كلَّ رَسولٍ نبيٌّ ولَا عكسَ، فإذَا قالَ: «وَرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» فكأَنَّما قالَ: وَنبيك الَّذي أرسلتَ، ومعَ هذَا خطَّأَهُ النبيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقالَ قلْ: «وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»، لماذَا؟

قالَ بعضُ العُلَماءِ: إنَّه خطَّأَهُ محافظةً عَلى اللفظِ الواردِ فِي الأذكارِ، وأنَّ الإِنْسانَ لَا يَنْبَغي لهُ أنْ يبدلَ الألفاظَ الواردةَ فِي الأذكارِ بشيءٍ آخرَ وَلَو كَان مُتَضمنًا لها.

وهَذا القولُ وإنْ كانَ لهُ وجهٌ منَ النظرِ لكنْ أحسنُ منهُ الجوابُ الثَّاني، وهوَ: أنَّه إذَا قالَ: ورَسولكَ الَّذي أرسلتَ؛ فإنهُ يحتملُ أنْ يرادَ بِهِ الرَّسولُ الملكيُّ، أمَّا إذَا قالَ: ونبيكَ الذِي أرسلتَ؛ فإنهُ لَا يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بِهِ الرَّسولَ الملكيَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، رقم (٢٤٧).

ومنْ هنَا نعلمُ أنَّ المَلَك رَسولٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١]، وقالَ أيضًا فِي القرآنِ الكَريمِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠]، فالمرادُ بِالرَّسولِ هُنا هُو جبريلُ ملك، فإذَا قالَ: بِرَسولك الَّذي أرسلتَ؛ فإنهُ يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ برَسولهِ الَّذِي أرسلَ أَي: بِملك منْ ملائكتِهِ الَّذين أَرْسلهم، لكنْ إذَا قالَ: بِنَبيك؛ تعيَّنَ أنْ يكونَ المرادُ بهِ الرَّسولُ البشريُّ، وهذَا هوَ المطلوبُ.

وقدْ يمكنُ أنْ نقولَ بِالقولينِ: أَنَّهُ خطَّأه لِملاحظةِ أنَّ الذكرَ لَا ينبغِي أنْ يغيرَ لفظه، ولأجلِ أَلَّا يظنَّ الظَّانُّ أنَّ المرادَ بهِ الرَّسولُ الملكيُّ، فَبِإمكاننا أنْ نجمعَ بينَ الوجهينِ، ولَا منافاةَ فِي ذلكَ، وهذهِ قَاعدةٌ يَنْبغي لِطالبِ العلمِ أنْ يَفْهمها:

«إذا وُجد قَوْلان فِي مسألةٍ منَ المسائلِ فِي معنَى آيةٍ أَو حديثٍ، وكانَ اللفظُ يَحْتَملهما ولَا تناقضَ بَيْنَهما؛ فإنَّه يَحمل عَلى المعنيينِ، مَا دَام ليسَ بَيْنَهما مِن مُنافاةٍ واللفظُ يَحْتَملهما حمِلَ عَلى المعنَيينِ».

ولهذَا أَمثلةٌ كَثيرةٌ فِي القرآنِ الكَريمِ، مِنها قولهُ تَعالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧-١٨]، اللَّيلُ إِذَا عَسْعس مَعْناها: أَدْبَرَ، وقيلَ: مَعْناها أقبلَ، والإقبالُ غيرُ الإِدْبارِ؛ لكنْ هلْ بَيْنَهما مُنافاةٌ؟ يَعْني لَو قَال قَائلٌ: إنَّ اللهَ أَقسمَ باللَّيلِ حِين إِقبالهِ، وبِاللَّيلِ حينَ إدبارهِ، هَلْ هُناك تَنَاقض؟ لَا؛ لأنَّ إقبالَ اللَّيلِ أَو إِدبارهُ كِلَاهما مِن آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومنْ ذلكَ أيضًا قَولهُ تَعالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]، قالَ بعضُ المفسرينَ: الظَّالمُ لِنفسهِ: الَّذي يُؤخرُ

الصَّلاةَ عَن وَقتها، والمقتصدُ: الَّذي يُؤَديها فِي الوقتِ؛ لكنْ لَا فِي أولِه، والسَّابقُ بِالخيراتِ: الَّذي يُؤدي الصَّلاةَ فِي أولِ وَقْتها.

وقالَ آخرونَ: الظَّالمُ نَفسهُ: الَّذي يبخلُ بِالزكاةِ، وَالمقتصدُ: الَّذي يُؤَدي الزكاةَ وَلَا يَتطوعُ بِالصدقةِ، والسَّابقُ بِالخيراتِ: الَّذي يُؤَدي الزَّكاةَ ويتطوعُ بِالصدقةِ.

فَهَل يمكنُ أنْ نقولَ: إنَّ الآيَةَ تشملُ القولينِ؟ نَعم، يُمكن؛ وذلكَ لأنَّها تَحْتملها عَلى السواءِ، ولَا مُنافاةَ بَيْنهما.

الَّذي يُؤخّرُ الصَّلاةَ عَن وَقتها ظالمٌ لِنفسه، والَّذي يَمنعُ الزكاةَ الواجبةَ ظَالمٌ لنفسهِ، الذِي يُؤدي الصَّلاة فِي وَقتها ولكنْ لَيس فِي أولهِ، والَّذي يُؤدي الزَّكاةَ الوَاجبةَ ولَا يتصدقُ كِلاهما مُقتصدٌ، والَّذي يُؤدي الصَّلاةَ فِي أَول وَقْتها أَو فِي آخرهِ إذَا كانَ هوَ الأفضلَ، والَّذِي يُؤدي الزَّكاةَ الواجبةَ وَالصدقةَ كِلَاهما سَابقٌ لِلْخيراتِ، وهذَا قاعدةٌ يَنْبغي لِطالبِ العلمِ أنْ يَفْهَمها.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٥]، شَاهدًا عَلى الأمةِ بأَنَّهُ بِلغها رِسَالةَ اللهِ مُبشّرًا لِلمؤمنينَ بِما لَهم منَ الثوابِ العَاجلِ والآجلِ، ونَذيرًا لِلكافرينَ وَالمخالفينَ بِالعقوبةِ العَاجلةِ وَالآجلةِ، فَالنبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ شَاهدًا على أمّتهِ، شَاهد عَلى مَن أَطاعَ وعَلى مَن عَصَى، شاهدَ بأنَّ الرِّسالةَ بِلغتهم، مُبشرٌ لِمَن أَطَاع، ومُنْذرٌ لِمَن عَصَاه.

فإنْ قالَ قَائلٌ: فِي حَياته لَا شكَّ أَنَّهُ شَاهِدٌ أنَّ الرسالَةَ بَلغتِ الأمةَ، فَكَيف يَكونُ شَاهدًا عَلى الأُمةِ بِأَنه بَلغَها بَعد مَماته؟

فالجوابُ: نقولُ: يشهدُ لأنَّ اللهَ تعَالى قَال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فَما جَاء بِهِ النبيُّ ﷺ فِي حَيَاته مِن كِتابِ اللهِ فلا بدَّ أنْ يبلغَ الأمةَ؛ لأنَّ اللهَ تكفَّل بِحِفظِه، وهَذَا -والحمدُ للهِ- هوَ الوَاقعُ.

كِتابنا الَّذي أَنزلهُ اللهُ تَعَالى عَلَينا لَم يزلْ مَحْفوظًا مُنذ نَزل إِلى يَوْمنا هذَا، أَي خَمسةَ عشرَ قرنًا، والكتبُ السَّابقةُ حُرفت فِي أقلِّ مِن ذلكَ، مَع أَنَّ مَا بينَ عيسَى ومُحمد سِت مِئة سنةٍ تَقريبًا، ومعَ ذلكَ حرفَ الإِنجيلُ، وحرفتِ التوراةُ فِي أَقلِّ مِن هذهِ المدةِ الَّتي مَضَت عَلى هَذا القرآنِ، ولَم يَتجاسرْ أحدٌ أَن يُحرفهُ أَو يبدلهُ، وإِذَا أرادَ أحدٌ أنْ يحرفَهُ قيدَ اللهُ لهُ منْ يكشفُ حَقيقةَ أمرهِ، ويُبينُ عَوارَهُ، فيُفتضحُ بينَ الأمةِ، ويَكون شَاذًّا عنِ الأمةِ الإِسلاميةِ، إِذَا حاولَ أنْ يُخفيَ شيئًا منْ كتابِ اللهِ، أَو أَن يزيدَ شيئًا مِنْ كتابِ اللهِ.

فإِنْ قيلَ: وهلِ الشهادةُ فِي تبليغِ الرِّسالةِ خَاصةٌ بالرَّسولِ، أَو تَكونُ له وَلِغيره، يَعْني هَل أَحدٌ منَ النَّاسِ غَيرِ الرَّسولِ يَشهدُ عَلى أَنَّ الرَّسولَ بلغَ؟

قلنا: نَعَمْ، كلُّ الأمةِ، دَليلُ ذَلك قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، ولكنْ مِنَ الشهداءِ حَقيقةً أُولو العلمِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨]، وهذهِ مزيةٌ عَظيمةٌ لِأهلِ العلمِ أنْ يَكونُوا همُ الشهداءَ مَعَ الأنبياءِ والملائكةِ عَلى تَوحيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا﴾ [الأحزاب:٤٦]، دَاعيًا إِلى اللهِ، أَي: تَدْعو النَّاسَ إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ إِلى شريعتِهِ الموصلةِ إِلَيه؛ لأنَّ اللهَ تَعالى وضعَ طريقًا يُوصلُ إِليه،

لَا يوصلُ إِلَيْه شيءٌ سِوى هذَا الطَّرِيقِ، أَلَا وهُو دينُ اللهِ، فهذَا الدينُ إِذَا استمسكتَ بِهِ أَوْصَلك إِلى اللهِ؛ وَلهذَا قالَ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الإِنْسانَ إِذَا تمَسك بِما دَعا إِلَيه رَسولُ اللهِ ﷺ وصلَ إِلى اللهِ، إِلى ثَوابِهِ وَجنّتِهِ، والنظرِ إِليهِ؛ حتَّى يَحصلَ لهُ كمالُ النعيمِ.

وفِي قولهِ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ دَليلٌ عَلى الإخلاصِ فِي الدَّعوةِ إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ ذلكَ وصفُ رَسولِ اللهِ ﷺ، فَهل هذَا وصفٌ لكلِّ داعيةٍ أَو يَجبُ أَن يَكونَ وصفًا لكلِّ داعيةٍ؟ نقولُ: بَل يجبُ أنْ يكونَ وَصفًا لكلِّ داعيةٍ؛ لأنَّ منَ الدعَاةِ منْ يدعُو إِلى نفسهِ، لَا إِلى ربهِ، يُريدُ أنْ يكونَ قَولُه هوَ المهيمنَ عَلى كلِّ الأقوالِ، يُريدُ أنْ يَرَى النَّاسُ مكانَهُ.

منَ العُلَماءِ والدُّعاةِ منْ إذَا خُولفَ -ولَو بِحقٍّ- انتفخَ وغضبَ، فَيَرَى أَنَّ النَّاسَ خالفُوا الحقَّ، وهُو لَا يَدري أَنَّ الحقَّ بخلافِ مَا قالَ، فَمثل هَذا يكونُ داعيًا إِلى نَفسهِ، والذِي يَدعو إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ هوَ الَّذِي لَا يُبَالي بِما حَصل مِن مُخَالفته إِذَا كَان ذَلك هُوَ الحقَّ؛ ولِذَلك تَرى الَّذي يَدْعو إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ إِذا خَالَفه غيرُهُ بِمُقتضى الدَّليلِ يَشعر بأنَّ ذَلك الغيرِ لَم يُخالفهُ؛ بَل سلكَ سبيلَهُ؛ لأنَّ الكلَّ -الدَّاعيَ والمدعوَّ- إِنَّما يُريدان الوصولَ إِلى الحقِّ، فإِذَا خَالَفني فِي مُقْتضى الدَّليل عِنده فَليس مِن حقِّي أنْ أغضبَ، بَل أَرى أَنَّه مُوافق لِي فِيما دعوتُ؛ لأَنَّني إِنما أَدعو إِلى الحقِّ، وهُو يَرى أنَّ الحقَّ فِي خلافِ مَا أقولُ، وحِسابهُ عَلى اللهِ إِذَا كانَ مُفرطًا فِي طلبِ الحقِّ، غَيرِ مُستقسمٍ فِي التبينِ، فأمرهُ إِلَى اللهِ؛ لكنِّي مَا دُمت أَعرف أَنَّهُ خَالفني، لَيسَ للهوَى؛ ولكنِ اتباعًا لِلهُدى عِندهُ، فإِنَّه لَا يجوزُ لِي أنْ أَحملَ فِي نفسِي عَليهِ شَيْئًا.

وَلهَذَا تجدُ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يَخْتلفون؛ لكنَّ هذَا الاختلافَ لَا يحملُ اختلافَ القلوبِ، وتَجدُ الأئمةَ مِن صدرِ هذهِ الأئمةِ يَختلفونَ، وهمْ عَلى أكملِ مَا يَكونون منَ المحبةِ وَالتآلفِ؛ لكنَّ مَن كَان يَدعو لِغيرِ اللهِ وإِنما يَدعو لِنفسه فَسوف يَغْضب إِذَا خُولف ولَو فِي الحقِّ، إذن؛ لا بدَّ منَ الإخلاصِ فِي الدعوةِ إِلَى اللهِ.

وقَولُهُ: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ إِذْنُ اللهِ تَعالى يَنقسمُ إِلى قسمينِ:

القِسمُ الأولُ: إِذنٌ شرعيٌّ.

القسمُ الثَّاني: إذنٌ كونيٌّ.

فَما تعلقَ بالشرعِ فَهو إِذنٌ شرعيٌّ، مثلُ قولهِ تَعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩]، ومثلُ قولهِ تَعالى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:١٣]، أَيْ: لمْ يَأذنْ بِه شَرعًا؛ لأنهُ لَو أذنَ بهِ شرعًا وَقعَ.

وأمَّا الإذنُ الكونيُّ فهوَ الَّذي يَتعلق بِالخلقِ والكونِ، مثلُ هذهِ الآيةِ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾، وهذهِ الآيةُ نَحملها عَلى الإذنِ الكونيِّ والإذنِ الشرعيِّ؛ لأنهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إِنَّما يَدعو وفقَ شَريعةِ اللهِ، وَهَذَا هوَ الإذنُ الشرعيُّ، وقَد دَعا فعلًا بقدرِ اللهِ، وهَذَا هوَ الإذنُ الكونيُّ، فهوَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ الشرعيُّ والكونيُّ.

ثمَّ إنَّ الدعوةَ بِالإذنِ الشرعيِّ لا بدَّ فِيهَا مِنْ شُرُوطٍ:

الشَّرطُ الأولُ: الإخلاصُ، وهُو مَأخوذٌ مِن قولهِ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾.

واعلمْ أنَّك إذَا دعوتَ لغيرِ الإخلاصِ فإِنَّك فاشلٌ؛ حتَّى لَو نَجحت بُرهةً منَ الزمنِ فالفشلُ حليفكَ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى لَا يقبلُ شَيئًا لَا يرادُ بهِ وجههُ، فَيكونُ مَن دَعا إِلى اللهِ بغيرِ اللهِ فَاشلًا، وإِذَا ازدَانت لهُ الدنيَا يومًا منَ الدهرِ؛ فإِنَّ عَاقبتهُ الفشلُ.

الشرطُ الثَّاني: أنْ تكونَ دعوتُهُ وفقَ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ، وهذهِ مَأخوذةٌ مِن قَولِهِ: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، وكونهُ مُوافقًا لِلشَّريعة، وإذَا كَان لَا بدَّ أنْ يكونَ مُوافقًا لِلشَّريعةِ؛ فلا بدَّ أنْ تكونَ الدعوةُ مَسبوقةً بِعلمٍ بِالشَّريعةِ، وعَلى هذَا فَلنضفِ العِلْمَ، أَي: أنْ يكونَ الإنسانُ عَالمًا بِما يَدْعو إِلَيه شَرعًا، فلَا يحلُّ لِشخصٍ أنْ يقومَ دَاعيةً إلى اللهِ ولَيْس مَعه علمٌ؛ لأنَّ هذا يُفْسِدُ أكثرَ مما يصلحُ، وكَذَلك لا بدَّ لِلداعيةِ منَ العلمِ بِأحوالِ المدعُوِّينَ؛ حتَّى يكونَ عَلَى بَصيرةٍ مِن أَمْرهم؛ ولهذَا لَما بعثَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ مُعاذًا إلى اليمنِ قالَ لهُ: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ**»[1]، فَأخبرهُ بِحالهم؛ لِيكون مُستعدًّا لِمُقَابلتهم.

فلوْ كنتَ تَدعو أَحدًا إِلى شيءٍ مَا، وأنتَ لَا تَعرف عَن حَالهمْ شَيئًا؛ فَرُبما يَكون فِيهمُ الذَّكيُّ العبقريُّ الفصيحُ، فَيقومُ مُعارضًا لِما تَدْعو إِليه منَ الحقِّ، وتَنْهزمُ أَمامَه؛ لأَنَّهُ لَيس مَعك سِلَاحٌ واستعدادٌ لِمُقَابلته، ورُبَّما تَدْعوهم إِلى شيءٍ وهُم قَد قَاموا به؛ لكنَّكَ لَا تَعلم أَنَّهُم قَد قَاموا بِه، ورُبما تَنْهاهم عَن شَيءٍ هُم لَا يَفْعلونه، فَيَكون كَلامك لَا فائدةَ منهُ.

إِذن؛ لا بدَّ للدَّاعية منَ العلمِ بِالحكمِ الشَّرعيِّ، والعلمِ بأحوالِ المدعوينَ.

ولا بدَّ أيضًا فِي الدَّاعيةِ أنْ يكونَ عَلى جانبٍ كبيرٍ منَ الحلمِ والتأنِّي والتَّبصرِ؛ حتَّى يُقبل قولُه؛ لأنهُ إذَا لمْ يكنْ عندهُ حلمٌ فسيجدُ مُعارضًا بلاَ شكَّ؛ لأنَّ الدَّاعي إِلَى اللهِ لا بدَّ أنْ يجدَ مَن يُعارضهُ، فإذَا لمْ يكنْ معهُ حلمٌ واسعٌ يتسعُ صدرهُ فإِنَّه سوفَ يَستحسرُ ويقولُ: إنِّي لمْ أُقبَلْ، ويَدَعُ الدَّعوةَ إلى اللهِ، فلا بدَّ أنْ يكونَ عندَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

الدَّاعِي حِلْمٌ يتسعُ بِه صدرهُ لِمقابلةِ النَّاسِ ومَا يَخْشَى أنْ يوجهَ إليهِ منْ لومٍ أوْ عتابٍ أَو مُناظرةٍ فيقعُ فِي الاستحسَارِ، ويدعُ الدَّعوةَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقولهُ: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أَي: مُبشرًا المؤمنينَ، كَما قالَ تَعالى فِي آياتٍ أُخْرَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٧].

ولكنْ؛ مَا هِيَ العلامةُ الَّتي يُمكن أَن يُبَشَّر بِها المؤمنُ؟

فنقولُ: إذَا رأيتَ هَذا الرَّجلَ قَد يُسِّرَ لليُسْرَى، وسُهِّلَتْ لهُ الطَّاعةُ، فكانَ يقومُ بِطاعةِ اللهِ، فنبشرهُ بالخيرِ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى قالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل:٥-٧]، فأبشِّرهُ وأقولُ لهُ: أبشرْ بِالخيرِ، وإذَا رأيتهُ يُصلِّي، ويَتصدقُ، ويصومُ، ويحجُّ، ويحسنُ إِلى النَّاسِ نُبشرهُ بالخيرِ، كذلكَ أَيضًا إذَا رأيتَ شَخصًا مُصابًا بِمَصائبَ تَتَوالى عَليه فِي بدنهِ، أَو فِي أهلهِ، أَو فِي مالهِ، وهُو صَابرٌ مُحتسبٌ لَا يَتَشكى ولَا يَتضجر ولَا يَتسخط؛ فأَنَا أُبشرهُ بالخيرِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

كَذلك أَيضًا إِذَا رَأَيت فِيه رُؤيَا تَسُرُّكَ فإِنَّ الرُّؤيَةَ الصَّادقةَ جزءٌ منْ ستٍّ وأَربعينَ جزءًا منَ النُّبوةِ[١]، وأخبرَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ أَنَّ الرؤيَةَ الصَّالحةَ عَاجلُ بُشْرى المؤمنِ[٢]، فإذَا رأيتَ فِيه رؤيَا صالحةً فأَنَا أُبشرهُ، وأقولُ لهُ: أبشرْ، رأيتُ فِيكَ كَذَا وكَذَا، وهذهِ علامةُ خيرٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب الرؤيا الصَّالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، رقم (٦٥٨٨)، ومسلم: كتاب الرؤيا، رقم (٢٢٦٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثنى على الصَّالح فهي بشرى ولا تضره، رقم (٢٦٤٢).

فالمهمُّ أنَّ طرقَ البشارةِ كَثيرةٌ لِلْمؤمنينَ، وتعْلمُ بِالتتبعِ.

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ [الأحزاب:٤٧-٤٨]، لا تطعِ الكَافرينَ، ولَا تطعِ المنَافقينَ، والفرقُ بيْنَهما أنَّ الكَافِرَ يُصَرِّح بِكفرهِ، والمنافقَ يُخْفي كفرَهُ، مَأخوذٌ منَ النفقِ وهيَ جُحرُ اليَربوعِ، واليَرْبوعُ ذكيٌّ، يحفرُ لهُ جُحرًا فِي الأرْضِ، وَيجعل لهُ بابًا مَفتوحًا، منهُ يدخلُ، ومنهُ يخرجُ، ويَجْعلُ فِي أَقْصى الجحرِ بَابًا مُغلقًا بِطَبقة منَ الأرْضِ، يَعْني يَحفرُ حتَّى إذَا لمْ يبقَ عَلى خُروجهِ إلَّا قِشرةٌ رقيقةٌ تَوَقف؛ منْ أجلِ إذَا أتاهُ إِنْسانٌ يريدُ إِمساكهُ منْ بابِ الجحرِ؛ فإِنَّه ينفذُ منَ البابِ الآخرِ الَّذِي عليهِ قِشرةٌ رَقيقةٌ، يضربهُ بِرأسهِ ثمَّ يخرجُ.

فَالمنَافقونَ مثلُ هذَا اليَرْبوعِ؛ ذلكَ أَنَّهم: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤]، وهمْ فِي الحقِيقةِ معَ شَياطينِهمْ، يَقولونَ آمنَّا، وَمَا هُم بِمؤمنينَ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ [الأحزاب:٤٨]، اتركْ أَذِيتَهم، فإنَّ اللهَ تَعَالى يَتولى ذَلك، واصبرْ عَليها، واللهُ تَعَالى يَتوَلاهم، وهَذَا مِن بابِ التَّهديدِ لِلْكافرينَ وَالمنافقينَ الَّذين يُؤْذونَ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أَي: اعتمد عليهِ فِي جلبِ المنافِعِ ودفعِ المضارِّ.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾، تَأمَّلوا هَذهِ الآياتِ فِي أكثرِ مِن هذهِ العُجالةِ، وَتَأملوا أَيضًا بَقِية كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تجدوا الخيرَ الكثيرَ فِي كلام اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وتجِدوا العجائبَ الَّتِي لَا تَنْتهي ولَا تَنْقضي؛ وَلِهَذا قالتِ الجنُّ وهمْ أَقَلُّ عُقولًا منَ الإنسِ:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:١-٢]، هؤلاءِ همُ الجنُّ، وهمْ أَبلدُ منَ الإنسِ، وأَبعدُ مِنَ الصَّوابِ منَ الإنسِ؛ ومعَ ذلكَ أَقرُّوا بأنَّ القرآنَ عجبٌ يَهْدي إِلى الرُّشد وآمنوا بِهِ.

نَسأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يَرْزقنا جَميعًا حقَّ تِلاوتهِ، وأنْ يَرْزُقنا فَهمهُ فِقهًا وتَطْبيقهُ عَقلًا، إنَّه جَوادٌ كريمٌ، وصلَّى اللهُ وسلَم عَلَى نَبيِّنا مُحمدٍ وَعَلَى آلهِ وَأَصحابه أَجمعينَ.



الدَّرس السَّادس:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ هَذَا خبرٌ يرادُ به بيانُ رتبةِ النَّبِيِّ ﷺ ومنزلتِه عندَ اللهِ، وأن اللهَ وملائكتَه يصلونَ عليه -صلوات الله وسلامه عليه- حتَّى يكونَ فِي هَذَا حثٌّ عَلَى أن يُصَلِّيَ عليه المؤمنونُ به وبرَسولِه ولهذا قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ اللهُ إلهٌ واحدٌ لا شريكَ لـه فِي أُلُوهِيَّتِه ولا ربوبيتِه ولا أسمائِه وصفاتِه،

﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ جَمْعُ مَلَكٍ، والملائكةُ بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَظَائِفَهُمْ عَلَى وجهِ الإجمالِ فِي قولِه: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١] يرسلُهم اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إِلَى حيثُ شاءَ، فمَنْ هَؤُلاءِ الملائكةُ؟

الملائكةُ عَالَم غيبيٌّ من العوالمِ الَّتِي خَلَقَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَهُمُ اللهُ من نورٍ وجَعَلَهُمْ صمدًا، أي لا أَجْوَافَ لهم فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى أكلٍ ولا شربٍ، وإنما يُلْهَمُونَ التَّسبيحَ يسبحونَ اللَّيْلَ والنهارَ لا يَفْتُرُونَ، فعلينا أن نؤمنَ بهذا العَالَم بأنهم ممن خَلَقَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ونؤمنُ بأن اللهَ تعالَى جَعَلَهم رُسُلًا كما فِي سُورَةِ فاطر: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾.

هَؤُلاءِ الملائكةُ منهم من نَعْلَمهُم بأعيانِهم يعني بأسمائِهم، ومنهم من لا نعرفُهم، ومنهم من نعرفُ وظائفَهم الَّتِي كَلَّفَهُم اللهُ بها، ومنهم من لا نعلمُ، فممن عَلِمْنَاهُمْ بأعيانِهم أي بأسمائِهم جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَّلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالوَحْيِ ووصَفَه بأنه رَسولٌ كريمٌ وأنه ذُو قوةٍ وأنه أمينٌ فقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني القُرْآنَ ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠] أي صاحبِ قوةٍ ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿مَكِينٖ﴾ [التكوير:٢٠] يعني له مكانةٌ ومنزلةٌ عاليةٌ عندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ووَصَفَه بأنه ذُو هيئةٍ حسنةٍ فقال: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾ [النجم:٦] قالَ العُلَماءُ: المِرَّةُ الهيئةُ الحسنةُ أي أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ ذُو هيئةٍ حسنةٍ.

ورآه النَّبِيُّ -صلوات الله وسلامه عليه- مرَّتَيْنِ عَلَى الصورةِ الَّتِي خَلَقَه اللهُ عليها، له سِتُّ مِئة جَنَاحٍ اللهُ أَكْبَرُ قَدْ سَدَّ الأفقَ أي ملأ الأفقَ، رآه مرةً فِي الأَرْضِ وهو فِي غارِ حِرَاءَ، ورآه مرةً فِي السَّماءِ عندَ سِدْرَةِ المُنْتَهى، عَلَى هَذِهِ الصورةِ[1]، هَذَا عظيمٌ، عِظَمُ المخلوقِ يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ الخَالقِ جَلَّ وَعَلَا. فجبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُوَكَّلٌ بالوحيِ يُوَصِّلُهُ إِلَى الرسلِ الَّذِينَ يُرْسِلُهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقد يأتي جبريلُ عَلَى صورةِ إِنْسَانٍ مثلُ حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ**

(١) أخرجه الترمذي، تفسير القرآن، سورة والنجم، برقم (٣٢٧٨).

سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ قَالَ: «مَا المسؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَم مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ». قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1].

فقال: يا مُحَمَّدُ أخبرني عن الإسْلام. لم يَقُلْ: يَا رَسُولَ اللهِ. لِيَظْهَرَ مظهرَ الأعرابِ، والأعرابُ ينادونَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم باسمِه، فسأله عن أربعةِ أشياءَ، سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عن الإسْلامِ والإيمانِ والإحسانِ والسَّاعةِ، فأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بالإسْلامِ والإيمانِ والإحسانِ، أما السَّاعةُ فقالَ: «مَا المسؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَم مِنَ السَّائِلِ». يعني: لا أَعْلَمها كما أَنَّك أنت لا تَعْلَمها، فعِلْمُها عندَ اللهِ.

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧] وفي الآيةِ الأُخْرَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣]، فلما أَعْلَنَ النَّبِيُّ ﷺ أنَّه لا يَعْلَمها قال: أَخْبِرْنِي عن أَمَارَتِها. يعني علامَتَها فأَخْبَرَه، ثُمَّ انْطَلَقَ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» فقَالَ: اللهُ ورَسولُه أعلمُ. لأنَّه لا يُرَى عليه أثرُ السَّفَرِ، ولا يعرفُه الصَّحَابَةُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسْلام والقدر وعلامة السَّاعة، رقم (٨).

إذن، يمكنُ لِلْمَلَكِ أن يتكيفَ بكيفيةِ الإِنْسَانِ، كما فِي هَذَا الحَدِيثِ.

من الملائكةِ أيضًا مَنْ عَلِمْنَا أسماءَهم غيرَ جبريلَ، فمِيكَائِيلُ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بالقطرِ والنباتِ، فكلُّ شيءٍ عندَ اللهِ بمقدارٍ، كلُّ شيءٍ مُنَظَّمٌ، كلُّ شيءٍ عَلَى وفقِ الحكمةِ.

الثَّالثُ: إِسْرَافِيلُ مُوَكَّلٌ بنفخِ الصورِ، الصورُ ينفخُ فيه عندَ انتهاءِ الخلائقِ، ينفخُ فيه أولَ مرةٍ فيفزعُ العَالمُ؛ لأَنَّه صوتٌ لا يمكنُ إدراكُه، صوتٌ عظيمٌ يفزعُ، ثمَّ يُصْعَقُونَ، أي: يَمُوتُونَ ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] سبحانَ مَنْ هُوَ عَلَى كلِّ شيءٍ قديرٌ.

إذن، هَؤُلاءِ الثَّلاثةُ جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ كُلُّ واحدٍ مُوَكَّلٌ بما فيه الحياةُ، جبريلُ مُوَكَّلٌ بما فيه حياةُ القلوبِ، وهو الوحيُ، ميكائيلُ بما فيه حياةُ الأَرْضِ، وهو القطرُ والنباتُ، إسرافيلُ بما فيه حياةُ الأبدانِ يومَ القيامةِ؛ ولهذا كانَ النَّبِيُّ -صلوات الله وسلامه عليه- يذكر هَؤُلاءِ فِي استفتاحِ صَلَاة اللَّيْلِ، يقولُ إذا قامَ يَتَهَجَّدُ، يَسْتَفْتِحُ: «اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١).

وممن عَلِمْنَا اسمَه مِنَ الملائكةِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بالنَّارِ، وهو مَالِكٌ، ذَكَرَه اللهُ تَعالَى فِي القُرْآنِ الكريمِ فِي قولِه ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] يعني أهلَ النَّارِ، أي لِيُهْلِكْنَا؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ شدةِ العذابِ، وكأَنَّهم لِخِزْيِهم وذُلِّهم يَخْجلُونَ أن

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة اللَّيل، رقم (٧٧٠).

يَدْعُوا اللهَ بأنفسِهم؛ لأنَّهم لما دَعَوُا اللهَ وَقَالُوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧] قالَ لهم اللهُ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] فطلبوا من مَالِكٍ أن يكونَ شفيعًا لهم عندَ اللهِ، فقالوا: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ ما فيه خروجٌ.

وأَبْلَغُ من ذلك أنَّهم قَالُوا -أعني أهلَ النَّارِ- لخزنةِ جهَنَّمَ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] لما أَيِسُوا من الخروجِ وأَيِسُوا من أن يُقْضَى عَلَيْهِمْ فيموتون قَالُوا: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ اللهُ أكبرُ، ما قَالُوا: يُخَفِّفُ عنا العذابَ، أو يَقْطَعُ عنا العذابَ، بل قَالُوا: يُخَفِّفُ عنا يومًا واحدًا. فقالت لهم الملائكةُ: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ [غافر:٥٠] قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:٥٠].

اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ إِنَّا فِي الدُّنيا فِي زمنِ الإمهالِ والإمكانِ فَوَفِّقْنَا لعملٍ نَنْجُو به مِنَ النَّارِ، نارُ جهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا، لما قيل للمنافقين: اخْرُجُوا للجهادِ، فِي غزوةِ تَبُوكَ قالَ بعضُهم لبعضٍ: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة:٨١] فقال اللهُ تَعالَى لِنَبِيِّه: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة:٨١].

إذن، عَلِمْنا من أسماءِ الملائكةِ اسمَ مَالِكٍ، وهو الموكلُ بالنَّارِ.

ولو سَأَلَ سَائِلٌ: هل وَرَدَ أن مَلَكَ الموتِ يُسَمَّى عزرائيلَ؟ قلنا: لم يردْ أن مَلَكَ الموتِ اسمُه عزرائيلُ، إنَّما جَاءَ فِي بعضِ الإسرائيليات الَّتِي لا تصدقُ ولا تكذبُ، وكَفَى بنا أن نصفَه بما وَصَفَه اللهُ به، وهو مَلَكُ الموتِ، كما قالَ تَعالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١].

ولو سَأَلَ سَائِلٌ: هل خَازِنُ الجنةِ اسمُه رِضْوَانُ؟ قلنا: هل وَرَدَ فِي الآثارِ اسمُ رِضْوَانَ لِخَازِنِ الجنانِ؟ اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ سَاكِنِيها، فإنْ صَحَّ آمَنَّا بِهِ، وإن لم يَصِحَّ فإننا لا نُكَلَّفُ أن نؤمنَ بما لم يَثْبُتْ عندنا فِي كتابِ اللهِ أو سنةِ رَسُولِهِ ﷺ.

وأيضًا ممن عَلِمْنا أسماءَهم مِنَ الملائكةِ مُنْكَرٌ ونكِيرٌ للمَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ يَسْأَلَانِ الإِنْسَانَ عندَ دَفْنِه عَنْ رَبِّه ودينِه ونبيِّه، الإِنْسَانُ سُخِّرَتْ له الملائكةُ، إذا ماتَ الإِنْسَانُ ودُفِنَ وتَوَلَّى عنه أصْحابُه حتَّى إنه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِم مُنْصَرِفِينَ، يسمعُ قرعَ النعالِ وهو فِي القَبْرِ، لو رَجَعْنا إِلَى الأمرِ المحسوسِ لَقُلْنَا لا يمكنُ، ولَكِنْ هَذَا أمرٌ أَخْبَرَنَا به رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فنقولُ: سَمِعْنَا وَآمَنَّا وَصَدَّقْنَا، يسمعُ قرعَ النعالِ.

أما المؤمنُ «يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟» قَالَ: «فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ». اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عِنْدَ السُّؤَالِ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عِنْدَ السُّؤَالِ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عِنْدَ السُّؤَالِ، «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ». أما المنافقُ -والعِيَاذُ باللهِ- اللَّهُمَّ أَعِذْنَا مِنَ النفاقِ، المنافقُ الَّذِي يُظْهِرُ أَنَّه مسلمٌ وهو غيرُ مسلمٍ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨] لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ، هَذَا المنافقُ يُسْأَلُ هَذِهِ الأسئلةُ الثَّلاثةُ «يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ،

لَا أَدْرِي»[١].

وانْتَبِهِ لقولِه: هَاهْ هَاهْ. كأنَّه يَتَذَكَّرُ شيئًا فيُحَالُ بَيْنَه وبين تَذَكُّرِه، ومعلومٌ أن من يَذْكُرُ شيئًا ثمَّ يُحَالُ بينه وبين تذكُّرِه يكونُ أَشَدَّ حسرةً من الَّذِي لم يَتَذَكَّرْ أصلًا، كأنَّه غَنِمَ شيئًا ففَاتَه، سمعتُ النَّاسَ يقولون شيئًا فَقُلْتُه، إذْن هُوَ يقولُ بِلِسَانِه ما لم يصلْ إِلَى قلبِه، نَسْأَلُ اللهَ العَافيةَ، هذان مِنَ الملائكةِ.

أما الوظائفُ فإننا نعلمُ أن للهِ ملائكةً مُوَكَّلِينَ بعملِ الإِنْسَانِ يَكْتُبُونَه، قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩-١٢] وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٨] اللَّهُمَّ احْفَظْنَا، أيُّ قَوْلٍ يقولُه لديه رقيبٌ، أي مُرَاقِبٌ، عَتِيدٌ حَاضِرٌ لا يفارقُه، هذان مَلَكَانِ مُوَكَّلَانِ بحفظِ عَمَلِ العبدِ، ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ، ولا يستطيعُ أحدٌ مِنَ البشرِ أن يُحْصِيَ أقوالَه الَّتِي يَنْطِقُ بها بِلِسَانِه، إذن، أقوالٌ عظيمةٌ، ويَدُلُّك عَلَى هَذَا أَنَّك لو جَلَسْتَ تُحَاضِرُ محاضرةً ثمَّ نُقِلَتْ من التسجيلِ إِلَى الأوراقِ لَوَجَدْتَ المحاضرةَ الَّتِي استوعبت ساعةً من الزمنِ اسْتَغْرَقَتْ أَوْرَاقًا كثيرةً، فأنتَ لا تَلْفِظُ من قولٍ إِلَّا كُتِبَ.

ذَكَرُوا أن الإمامَ أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ مَرِضَ فَدَخَلَ عليه بَعْضُ أَصْحابِه وهو يَئِنُّ مِنَ المرضِ فقال: يا أبا عبدِ اللهِ إن طَاوُسًا -وهو أَحَدُ التَّابعين العُلَماءِ الفقهاءِ- يقولُ: إنَّ أَنِينَ المريضِ يُكْتَبُ- اللهُ أكبرُ، أَنِينُ المريضِ يُكْتَبُ؛ لِأَنَّ الأنينَ قولٌ-

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣)، وأحمد رقم (١٨٦١٤).

فَأَمْسَكَ أبو عبدِ اللهِ الإمامُ أحمدُ عن الأنينِ خَوْفًا من أن يكتبَ عليه[١]. وهَذَا غايةُ الورعِ.

إذن، هُنَاكَ ملائكةٌ نعرفُ أعمالَهم أنَّهم مُوَكَّلُونَ بكتابةِ أعمالِ العبدِ القوليةِ، والثَّاني: الفعلية، فهل يكْتُبُون الأعمالَ القلبيةَ؟ الجوابُ: فِي ذلك تفصيلٌ، أَمَّا ما رَكَنَ إليه العبدُ وأَثْبَتَه فِي قلبِه فإنَّهم يَكْتُبُونَه، وأَمَّا ما حَدَّثَ به نفسَه ولم يَرْكَنْ إليه فإنَّه لا يكتبُ، انْتَبِهْ لو أَضْمَرَ الإِنْسَانُ -والعِيَاذُ باللهِ- فِي قلبِه عقيدةً فاسدةً واعْتَقَدَها تُكْتَبُ لأَنَّه أَثْبَتَها وإِثْبَاتُها عَمَلٌ قَلْبِيٌّ، ولو طَرَأَ عَلَى قلبِه عقيدةٌ فاسدةٌ لَكِنَّه رَفَضَها حَدَّثَ بها نَفْسَه لا تكتبُ.

انْتَبِهْ يا أخي إن الشَّيْطانَ يَأْتِيكَ فيوسوسُ لك بأشياءَ لا يمكنُ أن تنطقَ بها ولو وُضِعَ الصَّمْصَامُ (السيف) عَلَى رقبتِك، لكنْ إياك أن تَرْكَنَ إليها، إياك أن تُؤْثَرَ عليك، لا تهتمَّ بها، فإن نبينَا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إِنَّ ذَلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»[٢] يعني هَذَا الشكُّ أو الأشياءُ الَّتِي تقعُ فِي القلبِ دُونَ أن يَرْكَنَ إليها الإِنْسَانُ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى أن الإيمانَ خالصٌ صريحٌ، ولهذا أرادَ الشَّيْطانُ أن يُكَدِّرَه، فَانْتَبِهْ لهذا.

فماذا تصنعُ؟ يعني كيف تُدَاوِي القلبَ إذا وَقَعَ فِي مثلِ هَذِهِ الورطةِ؟ الحمدُ للهِ إن نبينَا مُحَمَّدًا ﷺ عَلَمنا ماذا نصنعُ، قَالَ: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»[٣] جرعتانِ من

---

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢/ ١١٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣١٠٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

الدواءِ، **الأولى**: الاستعاذةُ باللهِ، فيقولُ: أَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرجيمِ، **والثَّانيةُ**: الانتهاءُ يعني الإعراضَ عَنْ هَذَا، أَلَّا يُفكِّرَ فيه وأَلَّا يَقْلَقَ منه؛ لأنَّه من الشَّيْطانِ، احْذَرْ أن تَزِلَّ، فتَحْتَ رِجْلِكَ هُوَّةٌ، احْذَرْ إذا وَقَعَ فِي قلبِكَ هَذَا الأمرُ ارْفُضْهُ، قُلْ: أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرجيمِ. وأَعْرِضْ عنه، وسيزولُ عنك؛ لأنَّ الَّذِي أَخْبَرَنَا بذلك هُوَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

إذن، ما حَدَّثَ الإِنْسَانُ به نفسَه فإنَّه إذا لم يَرْكَنْ إليه لا يَضُرُّه، وإذا أَثْبَتَه ورَكَنَ إليه يَضُرُّه، واسْمَعْ إِلَى قولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَم تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّم**»[١].

ولو أن رجلًا حَدَّثَ نفسَه فِي طلاقِ امرأتِه، لم يتكلمْ ولم يعملْ، يعني ما كتبَ بيدِه الطَّلاقَ ولا نَطَقَ به، ورَأَى من نفسِه القلقَ من هَذَا الوسواسِ أَنَّه طَلَّقَ زَوْجَتَه، فقال: إذن أستَريح هِيَ طَالِقٌ. قلتُ: هِيَ لا تُطَلَّقُ، والدَّلِيلُ قولُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**لَا طَلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ**»[٢]. هَذَا الرَّجلُ الآن كأَنَّه مُكْرَهٌ عَلَى الطَّلاقِ، انْتَبِهْ يا أخي لحالِ النَّفسيةِ، رجلٌ قَلِقٌ مُتْعَبٌ مِنْ هَذِهِ الوَسَاوِسِ، فقالَ: هِيَ طَالِقٌ. لو سَأَلْنَاهُ: هل طَلَّقْتَ باختيارٍ؟ لقال: لا، ولكنْ طَلَّقْتُ مِنَ الضيقِ الذي حَدَثَ فِي قَلْبِي كَأَنِّي مُكْرَهٌ عَلَى هذا. قُلْنَا: الحمدُ للهِ، أَبْشِرْ بالخيرِ، الدِّينُ دِينُ يُسْرٍ، ورَسولُ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقولُ: «**لَا طَلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ**».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطَّلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النَّفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٦، رقم ٢٦٤٠٣)، وأبو داود: كتاب الطَّلاق، باب في الطَّلاق على غلط، رقم (٢١٩٣)، وابن ماجه: كتاب الطَّلاق، باب طلاق المكره والنَّاسي، رقم (٢٠٤٦).

ولهذا قالَ العُلَماءُ: إن طلاقَ الموسوسِ لا يَقَعُ، هَذَا ضابطٌ من كلامِ العُلَماءِ مُسْتَنَدُهُ قولُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**لَا طَلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ**» (فِي إغلاقٍ) يَعْنِي مُغْلَقًا عَلَى الإِنْسَانِ ضَائِقًا.

نظيرُ هَذَا رجلٌ كثيرُ الشكوكِ إذا تَوَضَّأَ لا يَبْقَى زَمَنًا قليلًا إِلَّا شَكَّ هل أَحْدَثَ أو لا؟ فقال: بَلَى هَذَا الشَّكُّ لا يَلْزَمُ بِسْمِ اللهِ. وذَهَبَ يبولُ أو يتغوطُ أو أَحْدَثَ بريحٍ تخلصًا من هَذَا الوسواسِ، فهَذِهِ الطَّرِيقَةُ غيرُ صحيحةٍ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَصَفَ لك الدواءَ من هَذَا الدَّاءِ قَالَ: «**لَا يَنْصَرِفْ حتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»[1] نقولُ: يا أخي، الوسواسُ هَذَا لا يَضُرُّكَ حتَّى لو كانَ عِنْدَكَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ فِي المئة أنك أَحْدَثْتَ وواحدٌ فِي المئة أنك بَاقٍ عَلَى الطهارةِ فأنتَ عَلَى طهارتِك.

يا إخواني الدينُ الإسْلاميُّ يريدُ من أهلِه ألا يكونوا فِي قلقٍ ولا فِي تعبٍ بل يريدُ أن يكونوا مُطْمَئِنِّينَ.

إذن، مَتَى شَكَكْتَ وأنتَ عَلَى وُضُوءٍ هل أَحْدَثْتَ أو لَا؟ فماذا تصنعُ، هل تَذْهَبُ وتُحَدِّثُ نفسَك حتى تَتَيَقَّنَ أَنَّكَ أَحْدَثْتَ؟ لا، اتْرُكْ هَذَا الشكَّ وابْنِ عَلَى الأصلِ عَلَى اليقينِ أَنَّكَ لَم تُحْدِثْ.

وهذه المسألةُ الأخيرةُ يعاني منها كثيرٌ من النَّاسِ، فكثيرٌ من النَّاسِ رُبَّما يَتَوَضَّأُ عَشْرَ مَرَّاتٍ لصلاةٍ واحدةٍ؛ لأَنَّه كُلَما تَوَضَّأَ شَكَّ هل أَحْدَثَ أو لا، فنقولُ: الحمدُ للهِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لَا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم (١٣٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدَّليل على أن من تيقن الطهارة، ثم شك في الحدث فله أن يصلِّي بطهارته تلك، رقم (٣٦١).

إذَا شَكَكْتَ هل أَحْدَثْتَ أو لا فأنت طاهرٌ، واتْرُكْ هَذَا الشكَّ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قَالَ: «لَا يَنْصَرِفْ حتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدُ رِيحًا».

نعودُ إِلَى أصلِ المسألةِ، وهُوَ كَلَامُنا عَلَى الملائكةِ -عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ- هناك ملائكةٌ يَجُوبُونَ الأرْضَ يطوفون بها فإذا وَجَدُوا حَلْقَةَ ذِكْرٍ قَعَدُوا عندها حَضَرُوهَا لمَحَبَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِذِكْرِه، وَكَّلَ ملائكةً يبحثون فِي الأرْضِ يَجُوبُونَها إذا وَجَدُوا حَلْقَةَ ذِكْرٍ حَضَرُوه[1].

وهناك ملائكةٌ مُسَخَّرُونَ للإِنْسَانِ يَحْفَظُونَه مِنْ أَمْرِ اللهِ كما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١] ملائكةٌ فِي اللَّيْلِ وملائكةٌ فِي النهارِ، وانْظُرْ إِلَى لُطْفِ اللطيفِ الخبيرِ عَزَّوَجَلَّ يجتمعُ الملائكةُ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وصلاةِ العَصْرِ ملائكةُ النهارِ ينزِلُون فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وملائكةُ اللَّيْلِ يُوَدِّعُونَ، فِي صَلَاةِ العَصْرِ ملائكةُ اللَّيْلِ ينزِلُون وملائكةُ النهارِ يُوَدِّعُونَ عنايةٌ تَامَّةٌ بِبَنِي آدَمَ، الحمدُ للهِ عَلَى نِعَمِه ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.

قَالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦] النَّبيُّ هو مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأنَّ القُرْآنَ نَزَلَ عليه فهو المُخَاطَبُ به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ لَيْسَ المرادُ كلَّ نبيٍّ، بل عَلَى النَّبيِّ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا مِنْ رَفْعِ ذِكْرِه، أنَّ اللهَ وملائكتَه يُصَلُّونَ عليه للثناءِ والحمدِ لرَسولِ اللهِ ﷺ؛ لأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَحَمَّلَ أَعْظَمَ رسالةٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر، رقم (٢٦٨٩).

لو سُئِلْنَا: ما أعظمُ الرسالاتِ؟ لَقُلْنَا: رسالةُ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لأنها شُرِّعَتْ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ وأمةٍ، مُنْذُ بُعِثَ إِلَى قيامِ السَّاعةِ، الرسالاتُ الأخرى لا تَصْلُحُ إِلَّا للأقوامِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إليهم الرَّسُولُ، ولا تَصْلُحُ لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ. إذن، رَسولُ اللهِ ﷺ تَحَمَّلَ أعظمَ رسالةٍ؛ لذلك اسْتَحَقَّ الثناءَ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وملائكتِه، ولَما أَخْبَرَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦] فَأَمَرَنَا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْهِ ونُسَلِّمَ تسليمًا، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ، ولا سِيَّما فِي ليلةِ الجُمُعَةِ ويَوْمِها فإِنَّه يُتَأَكَّدُ الإِكثارُ مِنَ الصَّلاةِ والسَّلامِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لأَنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ أمرَ بالإكثارِ عليه من الصَّلاةِ يومَ الجمعةِ[1].

﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ فبعدَ أن رَفَعَ ذِكْرَه وأَخْبَرَ أَنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وملائكتُه يُصَلُّونَ عليه أَمَرَ المؤمنين أنْ يُصَلُّوا عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

فإنْ قالَ قائلٌ: كيف نُسَلِّمُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وكيف نُصَلِّي؟

قُلْنَا: الحمدُ للهِ القُرْآنُ أَمَرَ والرَّسُولُ بَيَّنَ، القُرْآنُ أَمَرَ بالصَّلاةِ والسَّلامِ، والرَّسُولُ ﷺ بَيَّنَ فَقَالَ فِي تعليمِه إيانا السَّلامَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**»[2]، هَذِهِ أفضلُ صيغةٍ فِي السَّلامِ عَلَى رَسولِ اللهِ ﷺ وَدَعْ عَنْكَ الصيغَ

(١) أخرجه أحمد (٢٦/ ٨٤)، رقم (١٦١٦٢)، وأبو داود: كتاب الصَّلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصَّلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصَّلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصَّلاة، باب التشهد في الصَّلاة، رقم (٤٠٢).

الكثيرةَ الَّتِي فيها الكلماتُ المنمقةُ الَّتِي أَكْثَرُهَا غُلُوٌّ برَسولِ اللهِ ﷺ.

لو سَأَلْنَا مَنْ أَعْلَم النَّاسِ بصيغةِ السَّلام عَلَى الرَّسُولِ؟ فإنَّه الرَّسُولُ ﷺ، وهل يمكنُ أن يكونَ الرَّسُولُ ﷺ يعلمُ صيغةً أحسنَ ممَّا عَلَم أُمَّتَه ثمَّ يَكْتُمُهَا؟! لا واللهِ؛ لأَنَّه لو كانَ هناكَ صيغةٌ أفضلُ من هَذَا لَعَلَمها الأُمَّةَ لِتَنَالَ فَضْلها ولِيَكْثُرَ السَّلامُ عليه، لكن قَالَ: «**قُولُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**».

أما ما نراه فِي بعضِ الكتبِ من الصيغِ الطويلةِ: «السَّلامُ عليك يا حبيبَ اللهِ السَّلامُ عليك يا نبيَّ اللهِ السَّلامُ عليك يا شفيعَ الخلقِ»، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَدَعْ عَنْكَ، لأَنَّه أنحن أعلمُ بما يُحِبُّه اللهُ ورَسولُه مِنَ اللهِ ورَسولِه أم اللهُ ورَسولُه أعلمُ؟ اللهُ ورَسولُه أعلمُ، إذا كانَ كذلك فَاعْلَم أن الرَّسُولَ ﷺ لِتَمَامِ نُصْحِه لن يَدَّخِرَ عنك صيغةً ويُعْطِيكَ ما هُوَ مَفْضُولٌ ومرجوحٌ أبدًا، هَذَا لا يمكنُ

فعليك يا أخي المسلمَ بالتزامِ الدينِ ودَعْ عَنْكَ البدعَ، دَعْ عنك مَا لَم يُعَلِّمْهُ الرَّسُولُ ﷺ أُمَّتَه، واللهِ ما أقولُ هَذَا إِلَّا لأني الآن أخبرُكم تحدثًا بنعمةِ اللهِ ﷻ أن نبينَا مُحَمَّدًا ﷺ أحبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، ولا يمكنُ أن أحجبَ عنه صيغةَ سلامٍ أو صَلَاةٍ تكونُ أفضلَ ممَّا قالَ أبدًا، وهذا فِي ظَنِّي ما تعتقدون أنتم أيضًا.

إذا كانَ هَذَا فلماذا أحملُ نفسي صيغَ سلامٍ لم تَرِدْ لا فِي القُرْآنِ ولا فِي السنةِ، وفيها أشياءُ قد يكونُ قُصُورُها ظاهرًا، مثلًا بعضُ النَّاسِ يقولُ: ثلاثةٌ من الرسلِ إبراهيمُ خليلُ اللهِ. صحيحٌ والدَّلِيلُ ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النِّساء:١٢٥]. ثمَّ يقولُ: وموسى كليمُ اللهِ، ومُحَمَّدٌ حبيبُ اللهِ. إذا قَالُوا مُحَمَّدٌ حبيبُ اللهِ. فهذا نقصٌ، نَحْنُ نقولُ: مُحَمَّدٌ خليلُ اللهِ ﷺ، دَلِيلُنا لهذا قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا**

كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»[(١)] والخُلَّةُ هِيَ أَعْلَى أنواعِ المَحَبَّةِ، الآن المتَّقُونَ يُحِبُّهُمُ اللهُ، أَلَيْسَ كَذِلَكَ؟ بلى، فهل يمكنُ أن نقولَ: المتَّقِي خَلِيلُ اللهِ؟ لا يمكنُ لأننا لا نعلمُ أَحَدًا مِنَ البشرِ خليلًا للهِ إِلَّا رَجُلَيْنِ إبراهيمَ ومُحَمَّدًا -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ- فتبَيَّنَ الآن أن مرتبةَ الخُلَّةِ أعلى من مرتبةِ المَحَبَّةِ.

إذن، إبراهيمُ خليلُ اللهِ ومُحَمَّدٌ خليلُ اللهِ ومُوسَى كليمُ اللهِ، ولا شَكَّ أَنَّه من أحبابِ اللهِ، لكنْ لا نستطيعُ أن نقولَ عن أحدٍ أنه خليلٌ للهِ إِلَّا ما بَلَغَنَا بالنصِّ، وهو إبراهيمُ ومُحَمَّدٌ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

إذن، عَرَفْنا كيفَ نُسَلِّمُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، وهو أن نقولَ: السَّلامُ عليك أيها النَّبِيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه. فكيف نُصَلِّي عليه؟ سَأَلَ الصَّحَابَةُ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: كيف نُصَلِّي عليك؟ فقال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[(٢)].

إذن، هَذِهِ هي الصيغةُ، ولم يَرِدْ من صيغةٍ أخرى عن الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهذه أفضلُ الصيغِ؛ لأنَّ صيغةَ الصَّلاةِ فيها أنواعٌ أخرى فهذه أفضلُ الصيغِ.

فإن سَأَلَنا سَائِلٌ: هل يُصَلِّي اللهُ وملائكتُه عَلَى غيرِ الرَّسُولِ؟

قلنا: نعم، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصَّلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصَّلاة، باب الصَّلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٥).

مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وصَلَاةُ اللهِ وملائكتِه عَلَى رَسولِه الحمدُ والثناءُ، أَمَّا صَلَاةُ المُؤْمِنِينَ عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ نَسْأَلَ اللهَ أن يُصَلِّيَ عليه بالثناءِ والحمدِ، فإذا قلتَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ.

فإِنَّكَ تَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُثْنِيَ عَلَى نَبِيِّه ﷺ وأَنْ يَذْكُرَه بالصِّفَاتِ الحميدةِ، وأما قولُ من قالَ من العُلَماءِ: إن الصَّلاةَ هِيَ الرَّحمةُ. فضعيفٌ -لَا شَكَّ- من وَجْهَيْنِ:

الوجهُ الأَوَّلُ: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧] فَفَرَّقَ بين الصَّلواتِ والرَّحمةِ.

الوجهُ الآخرُ: أن العُلَماءَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّه يجوزُ للإِنْسَانِ أن يَدْعُوَ للمسلمِ بالرَّحمةِ، واختلفوا هل يجوزُ أن يُصَلَّى عَلَى المسلمِ غير الأنبياءِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى الفرقِ بينَ الصَّلاةِ والرَّحمةِ.

تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾:

قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧] أَذِيَّةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يعترضَ المعترِضُ عَلَى تدبيرِ اللهِ أو عَلَى شرعِ اللهِ، فإنَّ هَذا أَذِيَّةٌ تُؤْذِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ اسْمَعِ الحَدِيثَ القدسيَّ، قَالَ اللهُ تَعالَى: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[١].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، رقم (٤٥٤٩)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

فقال: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ» وفَسَّرَ الأذيةَ بكونِه يسبُّ الدهرَ يعني ابنَ آدمَ يسُبُّ الدهرَ يقولُ: هَذِهِ السنةُ سنةُ شَرٍّ سنةُ بلاءٍ، لا يقصِدُ الخبرَ، لكن يقصِدُ القَدْحَ فِي السَّنَةِ، أو: هَذَا الشهرُ شهرُ جوعٍ شهرُ خوفٍ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لا يريدُ الخبرَ إذا أرادَ الخبرَ ما فيه شيءٌ لكن يريدُ القَدْحَ، هَذَا يُؤْذِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الدهرَ الذي يُصَرِّفُه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ فالدهرُ لا يُصَرِّفُ نفسَه، ولهذا قَالَ: «وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ».

يُؤْذُونَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأَذِيَّةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تكونُ بالقولِ وبالفعلِ، الَّذِينَ آذَوُا الرَّسُولَ -صلوات الله وسلامه عليه- بالقولِ قَالُوا: إنَّه سَاحِرٌ. قَالُوا: إنَّه كَذَّابٌ. قَالُوا: إنَّه كَاهِنٌ. قَالُوا: إنَّه مَجْنُونٌ. إلى غيرِ ذلك من الألفاظِ ألفاظِ السخريةِ الَّتِي تتضمنُ أذيةَ الرَّسُولِ ﷺ.

آذَوْه بالفعلِ فِي يومٍ من الأَيَّامِ كانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ساجدًا تحتَ الكعبةِ فِي آمَنِ مكانٍ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ فَجَاءَ بِهِ فَنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ[1]. فهذه أذيةٌ بالفعلِ.

وكذلك أيضًا كانوا يُلْقُونَ الأَذَى والقَذَرَ عَلَى عتبةِ بابِه، ومَنْ رَاجَعَ السيرةَ رَأَى العجبَ العُجَابَ -لَعَنَهُمُ اللهُ- هَؤُلاءِ الَّذِينَ يؤذونَ اللهَ ورسولَه ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلِّي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ يعني أَبْعَدَهم عن رَحْمَتِه، ولم يَرْحَمْهُمْ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، ولهذا كانَ الَّذِينَ تَصَدَّوْا لأذى رَسولِ اللهِ ﷺ كانوا حديثَ النَّاسِ بالهزيمةِ والخزيِ والعَارِ. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: يُهِينُهُمْ ويُذِلهُمْ، وهذا في الآخرةِ.

وهنا إشكالٌ فأذيةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واضحةٌ ممكنةٌ، كُلٌّ يعرِفُ أن البشرَ يؤذِي بعضُهم بعضًا، لكن ما موقِفُنَا من أذيةِ اللهِ؟ موقِفُنَا من أذيةِ اللهِ أن نؤمنَ بما جاء في الكِتَابِ والسُّنَّةِ ونقولُ: إن هَؤُلاءِ يؤذون اللهَ، والَّذين يَسُبُّونَ الدهرَ يؤذون اللهَ كما جاء في الكِتَابِ والسُّنَّةِ، فإذا قيلَ: أَلَيْسَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ في الحَدِيثِ القدسيِّ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي»[1].

فكيفَ يمكنُ الجمعُ بين هَذَا الحَدِيثِ وبين أن اللهَ أثبتَ أن هَؤُلاءِ يُؤْذُونَه؟ الجمعُ واضحٌ -والحمدُ للهِ- أَثْبِتْ ما أَثْبَتَه اللهُ وانْفِ ما نَفَاهُ اللهُ، هَذَا فالجمعُ أن تثبتَ ما أثبتَه اللهُ وتنفيَ ما نفاه اللهُ، أَثْبِتْ أن هَؤُلاءِ يؤذون اللهَ ورَسولَه وانْفِ أن يكونَ اللهُ يَتَضَرَّرُ بهذه الأذيةِ، يعني لن يتضررَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولو تأذى بهذا الفعلِ فإنَّه لن يتضرر.

فإنْ قالَ قائلٌ: أَلَا يَلْزَمُ مِنَ الأذيةِ الضررُ؟

فالجوابُ: لا يلزمُ، إن الإِنْسَانَ يَتَأَذَّى إذا صَلَّى إِلَى جنبه رجلٌ فيه رائحةٌ كريهةٌ، ولكن لا يتضررُ، فإذن يجبُ علينا أن نثبتَ ما أثبتَه اللهُ لِنَفْسِهِ وننفيَ ما نفاه اللهُ عن نفسِه، ونعلمُ أنَّه لا تناقضَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

ويوجدُ إشكالٌ يسيرٌ في الحَدِيثِ الَّذِي سُقْتُه وهُوَ قولُه تَبَارَكَوَتَعَالَى في الحَدِيثِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

القدسيِّ: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ» فهل الدهرُ من أسماءِ اللهِ؟ لا، لَيْسَ من أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] والدهرُ لَيْسَ مشتملًا عَلَى هَذَا الوصفِ؛ ولأن الَّذِينَ يسبونَ الدهرَ إنَّما أرادُوا سَبَّ الدهرِ لا سبَّ اللهِ. وهناك سببان على أن الدهرَ لَيْسَ من أسماءِ اللهِ:

السببُ الأَوَّلُ: أن اللهَ تَعالَى قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وكلمةُ الدهرِ لا تحملُ هَذَا المعنى.

السببُ الثَّاني: أن الَّذِينَ يسبونَ الدهرَ لا يُرِيدُونَ سبَّ اللهِ وإنما يسبونَ الدهرَ نفسَه يعني الزمنَ والوقتَ، فتبين أن من زَعَمَ أن الدهرَ من أسماءِ اللهِ فَقَدْ أَخْطَأَ.

بَقِيَ شَيْءٌ فِي الآيَةِ أريدُ أنْ أتكلمَ عَلَيْهِ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨] انظرْ للفرقِ بين الَّذِينَ آذَوُا اللهَ ورَسولَه وبينَ الَّذين يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ والمؤمناتِ، الأولون جَزاؤُهم اللعنةُ والعذابُ المهينُ، وهؤلاءِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وإثمًا مُبينًا، فهو أخفُّ أي الَّذِينَ يؤذون المُؤْمِنِينَ والمؤمناتِ، لأنه إمَّا أن يكونَ ذلك بسببٍ مِنَ المؤمنِ اكْتَسَبَه فهذا لا حَرَجَ فيه وممكنٌ أن يُؤْذَى، وإمَّا أن يكونَ بغيرِ سببٍ فهؤلاءِ هم الَّذِينَ احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا.

مثالُ الأَوَّلِ: رجلٌ قَذَفَ رجلًا بالزِّنَى قالَ: هَذَا رجلٌ زَانٍ. هَذَا القاذفُ يجبُ عَلَى وليِّ الأمرِ أن يقيمَ عليه الحدَّ ثمانين جلدةً سيتأذى بهذا، فإذا أقمنا الحدَّ عَلَى هَذَا لا يكونُ سببًا لأنْ نَحْتَمِلَ بهتانًا وإثمًا مبينًا؛ لأَنَّه هُوَ الَّذِي اكْتَسَبَ، فهُوَ الَّذِي تَسَبَّبَ لِنَفْسِهِ.

إذا سَرَقَ الإِنْسَانُ وتمَّتْ شروطُ قطعِ يَدِهِ ثمَّ قَطَعْنَا يدَه، فهو بذلك يتأذى بلا شَكٍّ، والتي تُقْطَعُ اليمنى وَلَيْسَ اليسرى، واليمنى الَّتِي هِيَ آلةُ الكتابةِ آلةُ الأكلِ آلةُ العملِ، فغالبُ بني آدمَ تكونُ أيديهم اليمنى هِيَ آلةُ العملِ، فإذا قطعت اليمنى إذن فيه أذيةٌ، وهي أذيةٌ بالغةٌ لَكِنَّنَا آذَيْنَاه بسببٍ منه، هُوَ الَّذِي اكْتَسَبَ هَذَا؛ ولهذا قَيَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ذلك بقولِه: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾.

هَؤُلاءِ الَّذِينَ يؤذون المُؤْمِنِينَ بغير ما اكْتَسَبُوا احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وإِثْمًا مبينًا، سَوَاءٌ آذَوُا المُؤْمِنِينَ بالقولِ أو بالفعلِ، فالذي يؤذي المؤمنَ بالقولِ؛ أن يغتابَه، فَيَذْكُرُه بعيبٍ فِي غيبتِه، أو يَذْكُرُه بعيبٍ فِي حضرتِه هَذَا يُؤْذِيه، أو يَسُبَّه فهذا يُؤْذِيه، والذي يعتدي عَلَى سيارتِه فيكسرُ الزجاجَ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ يُؤْذِي، والذي يَضَعُ القمامةَ عند بابِ جارِه يُؤْذِيه، والذي يَفْتَحُ آلاتِ اللهوِ حتَّى يَضْجَرَ منها جارُه يُؤْذِيه.

هَؤُلاءِ الَّذِينَ يُؤْذُون المُؤْمِنِينَ عَلَى هَذَا الوجهِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وإِثْمًا مُبِينًا؛ ولهذا يجبُ عَلَيْنَا يا إخواني أن يَتَحَاشَى الإِنْسَانُ أذيةَ إخوانِه بأي نوعٍ من أنواعِ الأذيةِ، لا بالقولِ ولا بالفعلِ، ولْيَعْلَم أنَّه إذَا آذَى أَخَاهُ المسلمَ فقد احتملَ بُهْتَانًا وإِثْمًا مبينًا، قالَ النَّبِيُّ -صلوات الله وسلامه عليه-: «**وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ**» قَالُوا: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «**مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[1]. وقَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ**»[2]. وقَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم (٦٠١٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، رقم (٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»[1]. وقَالَ: «إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»[2]. فاحْذَرْ أن تُؤْذِيَ أَخَاكَ لا بالقولِ ولا بالفعلِ حتَّى تَسْلَم مِنِ احْتِمَالِ البهتانِ والإثمِ المبينِ.

اللَّهُمَّ اشْفِ بِلُطْفِكَ مَرْضَانَا ومَرْضَى المُسْلِمِينَ، واشْفِ مَنْ أَوْصَانَا بالدُّعاءِ لَهُ بذلِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار، والإحسان إليه، رقم (٢٦٢٥).

الدَّرس السَّابع:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقينَ، وعَلى آلِهِ وَأصحَابِهِ ومَن تَبِعَهم بإِحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٥٦-٥٨].

في هَذِه الآياتِ الكريمَةِ يُخْبِرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنه ومَلائكتَهُ يُصَلُّونَ على نَبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ؛ ليُنوِّه بذلِكَ على فضْلِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وأنَّه تَعالَى وملائكتَهُ يُصلُّونَ عليهِ في الملأ الأعْلَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، وقَدَّمَهُ على الأمرِ بالصَّلاةِ عليهِ؛ ليكونَ ذلِكَ توطئةً وتمهيدًا لمن أُمِرُوا أن يُصَلُّوا على رَسولِ اللهِ ﷺ ويُسَلِّمُوا تَسْليمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾.

مَعْنَى الصَّلاةِ عَلَى النَّبيِّ:

«اللهُمَّ صَلِّ عَلَى محمَّدٍ» معناه: اللَّهُمَّ أَثْنِ عليهِ في الملأ الأعْلَى، أي: كَرِّرْ مدْحَهُ في المَلأ الأعْلَى، بالصِّفاتِ الكامِلَةِ الحميدَةِ، والخِصالِ الحسَنَةِ، أي: وَصْفُهُ بصِفاتِ الكَمالِ، وبالثَّناءِ الحَسَنِ عندَ الملائكَةِ.

ثم أمَرَ اللهُ المؤمنينَ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

في قولِهِ تَعالَى: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ أمْرٌ، والأمرُ للوُجوبِ، ونَقَلَ بعضُ العُلماءِ ومنهم القُرْطُبِيُّ الإجماعَ على أنه يجِبُ علَى الإِنْسانِ أنْ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ في عُمُرِهِ ولو مرَّةً واحِدَة، وهذا حَقٌّ لأن قولَهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ هذا أمْرٌ والأمْرُ للوُجوبِ[١].

والأمرُ المطْلَقُ كما هُو معْروفٌ عندَ علماءِ الأُصُولِ إذا امتَثَلَهُ الإِنْسانُ مرَّةً واحِدَةً بَرِئتْ مِنه الذِّمَّةُ، وعلى هذا فيجِبُ على كلِّ مؤمِنٍ أن يُصَلِّيَ ويُسَلِّمَ على رَسولِ الله ﷺ في عُمُرِهِ ولو مرَّةً واحِدَةً.

واختَلَفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هل تَجِبُ الصَّلاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ في الصَّلاةِ؟

فمِنَ العُلماءِ من يقُولُ: إن الصَّلاةَ على النَّبِيِّ ﷺ في الصَّلاةِ واجِبَةٌ، وإنها ركْنٌ من أركانِ الصَّلاةِ، وهذا هو المشهورُ من مذْهَبِ الإمامِ أحمدَ، وهو الذي عليه علماءُ هذِهِ البلادِ، أنه يجِبُ أن يُصَلِّيَ على الرَّسولِ ﷺ في كُلِّ تشَهُّدٍ يعقُبُه سلامٌ، سواء كان في الفَريضَةِ أو في النَّافِلَةِ. وأما الذي لا يُصَلِّي على النَّبِيِّ ﷺ في صلاتِهِ فإن صلاتَهُ باطِلَةٌ؛ لأن الصَّلاةَ عليه رُكْنٌ من أركانِ الصَّلاةِ[٢].

وذهبَ بعضُ أهْلِ العِلْمِ إلى أنَّ الصَّلاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلاةِ واجِبَةٌ، وليستْ بِرُكْنٍ، فيأثَمُ الإِنْسانُ إذا تَرَكَها، ولكن لا تَبطُلُ صلاتُهُ بذلِكَ[٣].

وذَهَبَ بعضُ أهْلِ العِلْمِ وهو الَّذِي حُكِيَ عن جمهورِ العُلماءِ: أن الصَّلاةَ عَلَى النبيِّ ﷺ فِي الصَّلاةِ سُنَّةٌ وليسَتْ بواجِبَةٍ؛ ولكِنَّ الأحوط أن الإِنْسانَ لا يَدَعَها، وأن

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٢) المبدع في شرح المقنع (١/ ٤٤٤)، المغني لابن قدامة (١/ ٣٨٨).

(٣) المبسوط للسرخسي (١/ ٢٩).

يُصَلِّيَ على نَبِيِّهِ ﷺ في كلِّ صلاةٍ فريضَةٍ أو نافِلَةٍ، وهذَا هو المشهورُ من مذْهَبِ الإمامِ أحمدَ، وعليهِ علماءُ هذِهِ البلادِ أو غالِبُهم.

واختَلَفَ العُلَماءُ أيضًا فِيما إذا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ عندَ الإِنْسانِ، هَلْ يجبُ عليه أن يُصَلِّيَ عليه أو لا يَجِبُ؟

فقالَ بعضُ العُلَماءِ: إذا ذُكِرَ اسمُ النَّبِيِّ ﷺ وجَبَ على مَنْ سَمِعَهُ أن يُصَلِّيَ عليهِ، واستَدَلُّوا لذلِكَ بما رُوِيَ عن أبي هريرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ المنبرَ ذاتَ يومٍ فقَالَ: آمِين آمِين آمِين، فلما نَزَلَ قالُوا: يا رَسولَ اللهِ إنك صَعِدْتَ المنبرَ فَقُلْتَ: آمِينَ آمِينَ آمينَ، قال: نَعَمْ، «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَم يُصَلِّ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ، أَوْ أَحَدَهُمَا، فَلَم يُدْخِلاهُ الجَنَّةَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَم يُغْفَرْ لَهُ، فَقُلْتُ: آمِينَ»[1].

ومَعْنَى «رَغِمَ»: أي وقَعَ في الرُّغامِ وهُو التُّرابُ، وهو كنايَةٌ عن الذُّلِّ والهَوانِ لمن ذُكِرَ عندهُ الرَّسولُ ﷺ ولم يُصَلِّ عليه.

ومَعْنَى: «أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَم يُغْفَرْ لَهُ» أنَّه أدرَكَهُ فصامَهُ؛ ولكنه صِيامٌ لا تَحْصُلُ به المغْفِرَةُ لكَثْرَةِ خَلَلِهِ والنُّقصانِ فيهِ، وقَامَهُ ولكنه قيامٌ لم تحْصُلْ بِهِ المغفِرَةُ لكثرَةِ خَلَلِهِ والنقصانِ فيهِ، ولهذا جاء في الأَثَرِ: «رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الجُوعُ وَالعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم (٦٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٣)، رقم (٨٨٤٣)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، رقم (١٦٩٠).

وأما الأمْرُ الثَّالِثُ: فقالَ ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ، أَوْ أَحَدَهُمَا، فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الجَنَّةَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»، والمعنى: أَنَّه أدرَكَ أبويهِ أو أحَدَهُما، فلم يَقُمْ بِبِرِّهِمَا وإنما قابَلَهُمَا بالعُقوقِ والقَطِيعَةِ، وحينئذ لا يدخُلُ الجَنَّةَ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ»[1]، يعني: قاطِعَ رَحِمٍ.

فهؤلاءِ الثَّلاثَةُ دَعَا عليهِمْ جبريلُ بأن تُرْغَمَ أُنوفُهُم، وأمرَ النَّبِيَّ ﷺ أن يقُولَ: آمِينَ، فيؤَمِّنَ على هذَا الدعاءِ، فأَمَّنَ النَّبِيُّ ﷺ على هذَا الدُّعاءِ.

قالَ هؤلاءِ الَّذين يَقُولونَ بوجوبِ الصَّلاةِ على النَّبِيِّ ﷺ عندَ ذِكْرِه قالوا: والوعِيدُ لا يكونُ إلا على تَرْكِ واجِبٍ، وهذا دليلٌ على أن من ذُكِرَ عندَهُ رَسولُ الله ﷺ ولم يُصَلِّ عليه كانَ آثِمًا عاصِيًا؛ لأنه دَعَا عليه بأن يُرْغِمَ اللهُ أنفَهُ، وهذا قولٌ ليسَ ببعيدٍ، وأنه يجِبُ على المَرْءِ إذا ذُكِرَ عندَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ أن يُصَلِّيَ على رَسولِ اللهِ ﷺ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، فإنْ قالَ قائلٌ: بدأَ اللهُ تَعالَى بالصَّلاةِ قبلَ السَّلامِ، ونحنُ في صَلاتِنَا نبدأُ بالسَّلامِ قبلَ الصَّلاةِ؟

فالجوابُ: أن الواو هُنَا لا تَقْتَضِي التَّرتِيبَ، ولا تَستَلْزِمُ التَّرْتِيبَ، فالواوُ لمطلَقِ الجَمْعِ، يعْنِي: اجمَعُوا بينَ الصَّلاةِ والسَّلامِ عليهِ، وقد بَيَّنَ رَسولُ اللهِ ﷺ أن السَّلامَ عليهِ في الصَّلاةِ يكونُ قبلَ الصَّلاةِ عليهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم (٥٨٨٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرَّحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٦).

ثُمَّ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧].

وإيذاءُ اللهِ ورَسولِهِ يكونُ بالمحادَّةِ في قَدَرِ اللهِ، أو في شَرْعِ اللهِ، فكُلُّ من حَادَّ اللهَ في شَرْعِه، أو حَادَّ الله في قَدَرِهِ، فقد آذَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ، قالَ اللهُ تعالَى في الحديثِ القُدُسِيِّ: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ»[1]، فهذِهِ من مُحادَّةِ الله في قَدَرِهِ، فمَنْ حَادَّ اللهَ في قَدَرِهِ، وسَبَّ قَدَرَ اللهِ وقضَاءَهُ فقَدْ آذَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ لِكَعْبِ بْـنِ الأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ قَـدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ»[2]، وكَعْبُ بن الأَشْرَفِ رجلٌ مِنَ اليهودِ مُؤذٍ للهِ ورَسولِهِ لمحادَّتِهِ لشريعَةِ اللهِ، فمن حَادَّ اللهَ في شَرْعِهِ، أو حادَّ الله في قَدَرِهِ، فقد آذَى الله ورَسُولَهُ.

وعلى هذا فإنَّ في المعَاصِي ما فِيهَا مِنْ أَذِيَّةِ اللهِ ورَسولِهِ، ولكن يجبُ علينا أن نَفْهَمَ أنه لا يَسْلَم مِنْ أَذِيَّةِ اللهِ تَعالَى، ولا مِنْ أَذِيَّةِ رَسولِهِ أن يلْحَقَهُما بذلِكَ ضَرَرٌ، فالأَذِيَّةُ قد تَحْدُثُ ولكِنْ بدونِ ضَرَرٍ علَى المُؤْذَى؛ ولهذا ثَبَتَ في الحديثِ القُدْسِيِّ أن اللهَ تعالَى قالَ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»[3]، فـلا أَحَـدٌ يَضُرُّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، والنَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يَضُرُّهُ العَاصِينَ بمَعاصِيهِم وإنَّما يؤذُونَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، رقم (٤٥٤٩)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرهن، باب رهن السلاح، رقم (٢٥١٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، رقم (١٨٠١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

كذلك اللهُ عَزَّوَجَلَّ لا يَضُرُّهُ العَاصِينَ بمَعاصِيهِمْ ولكنهم يؤذُونَهُ، ولا يَسْلَم من الأذِيَّةِ أن يكونَ اللهُ تَعالَى متضَرِّرًا بذلِكَ.

مثال ذلكَ: ابنُ آدَمَ يتعَذَّبُ مِنَ الشيءِ ولا يَضُرُّه ذلكَ الشيءُ، ربما يكونُ إلى جانِبِكَ رَجُلًا قدْ أكَلَ بَصَلًا أو أكَلَ ثُومًا فتَتَأذَّى برائحَتِهِ؛ ولكن ذلِكَ لا يَضُرُّكَ، وكذلك أيضًا ربما تَسْمَعُ قَوْلًا مُنْكَرًا فتَتأذَّى به؛ ولكنَّكَ لا تَتَضَرَّرُ به، فلا يلْزَمُ مِنَ الأذِيَّةِ أن يقَعَ الضَّرَرُ.

قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي طردهم وأبعدهم عن رَحْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في الدُّنيا والآخِرَةِ، فلا رَحمَةَ لهُم في الدُّنْيا، ولا رَحْمَةَ لهُمْ في الآخِرَةِ، ولكن ينْبَغِي أن نعْلَم أن رحمَةَ اللهِ تَعالَى في الدُّنْيا تنْقَسِمُ إلى قسْمَيْنِ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: رَحْمَةٌ عامَّةٌ شاملة للكافِرِ والمؤمِنِ.

القِسْمُ الثَّانِي: رَحْمَةٌ خاصَّةٌ بالمؤمِنِ.

أما العَامَّةُ فإنها الرِّزْقُ، والصِّحَّةُ والعَافِيَةُ، والعَقْلُ المعِيشِيُّ، فهذِهِ عامَّةٌ شامِلَةٌ كلَّ العبادِ، يَعِيشُونَ برحمَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى على هذَا الوجْهِ، وأمَّا الرَّحْمَةُ الخَاصَّةُ فَهِي للمؤمِنِينَ كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، وهَذِه خاصَّةٌ بمَنْ آمَنَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ متَّصِلًا برَحمَةِ اللهِ تعالَى في الآخِرَةِ.

قولُهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨]: دلَّتْ هذِهِ الآيَةُ الكريمَةُ على أن أذِيَّةَ المؤمِنينَ تَنقَسِمُ إلى قِسْمينِ:

أوَّلًا: أذِيَّةٌ هُمُ الذِينَ اكتَسَبُوهَا وتَسَبَّبُوا فيهَا، فهذِهِ حَقُّهُم، والعَدْلُ هو الَّذِي

أوجَبَ أذِيَّتَهُم فيهَا.

ثانيا: أَذِيَّةٌ أُخْرَى فيؤذَى المؤمنونَ بغَيرِ ما اكتَسَبُوا، فهؤلاءِ هم الَّذِينَ لهم نَصِيبٌ من هذا الذنْبِ وهذِهِ العُقوبَةِ ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، فالَّذِي يؤْذِي المؤمِنينَ والمؤمناتِ بغيرِ كَسْبٍ منْهُم أي لم يكونُوا سَبَبًا للأذِيَّةِ، فالذي يؤذِيهِمْ احتَمَل بهتَانًا وإثمًا مُبِينًا.

ومن الأَذِيَّةِ أن يتَخَطَّى الإنْسانُ رقابَ النَّاسِ، وهُمْ في المساجِدِ ينتَظِرُونَ الصَّلاةَ، أو ما أشبه ذلِكَ، فإنَّ تَخَطِّيَهُم مِنْ أذِيَّتِهِمْ، ولهذا رُوِي أنه: جَاءَ رَجُلٌ يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ**»(١).

وتكونُ هذه الأَذِيَّةُ مضاعَفَةً إذا تَخَطَّى الإنْسانُ رِقابَ النَّاسِ لأجْلِ أن يحصُلَ على مكانٍ بغَيرِ حَقٍّ، فإن بعضَ النَّاس يحتَجِزُونَ الأماكِنَ التي تكونُ في الصفِّ الأوَّلِ، وهم ليسوا في المسجِدِ، وهم خارِجُونَ إلى أهْلِهِمْ يتَمَتَّعُونَ بنِسَائِهِمْ، ويُمَتِّعُونَ بطُونَهُم بشَهَواتِهِمْ، والمسلمونَ متأخِّرُونَ عن الصفِّ الأوَّلِ، وهم في المسجِدِ وهُمْ أَحَقُّ به مِنْهم، هؤلاء الَّذين يحتَجِزُونَ الأماكِنَ، ويخْرُجونَ مِنَ المسجِدِ هم الَّذين يتَخَطُّونَ رِقابَ النَّاسِ ورُبّما يُقِيمونَ من وَجَدُوه في هذا المكانِ، هؤلاءِ احتَمَلُوا بهتَانًا وإِثْمًا مُبِينًا، وهم آثمونَ وعاقُّونَ للهِ، وواقِعُونَ فيما حَرَّمَ اللهُ عليهِمْ، وليس لهُمْ أجْرُ القُربَةِ؛ لأنهم لم يتَقَدَّمُوا والأجرُ إنما يكونُ للمتَقَدِّمِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٨، رقم ١٧٧١٠)، وأبو داود: كتاب الجمعة، باب تخطي رقاب النَّاس يوم الجمعة، رقم (١١١٨)، والنسائي: كتاب الجمعة، النهي عن تخطي رقاب النَّاس والإمام على المنبر يوم الجمعة، رقم (١٣٩٩).

ولهذا قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الأَحْلَامِ وَالنُّهَى**»[١]، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يحتجزَ مَكَانًا في المسجدِ الحَرَامِ، ولا في غيرِهِ مِنْ مساجِدِ اللهِ وهو خارِجُ المسجدِ، ثم يأتِي بعدَ ذلِكَ يَتخطّى رِقابَ المؤمنينَ ويؤذِيهِمْ، هذا قَدْ احتَمَلَ بُهْتَانًا وإِثْمًا مُبينًا؛ لأن تَخطِّي الرِّقابِ مِنَ الأذِيَّةِ بنَصِّ رَسولِ اللهِ ﷺ، وأذِيَّةِ المؤمِنِينَ بغيرِ ما اكتَسَبُوا يحتَمِلُ بها الإِنْسانُ بُهْتَانًا وإثمًا مُبينًا، كما في هذِهِ الآيَةِ الكريمَةِ.

ومن الأذِيَّةِ التي تحصُلُ من بعضِ النَّاسِ للمؤمنينِ بغيرِ ما اكتَسَبُوا؛ ما يحصُلُ مِنْ بعضِ الجيرانِ الَّذين يؤذُونَ جِيرَانَهُم، فتَجِدُهُم يفتَحُونَ الرَّاديو، أو المسَجِّلَ، أو التلِيفزيونَ بصوتٍ عالٍ يُقْلِقُ الجِيرانَ ويؤذِيهِمْ، ويمنَعُ المُتهَجِّدَ من إتمامِ تهجُّدِهِ، ويمنَعُ النَّائمَ من التَّلَذُّذِ في نومِهِ، ويَمْنَعُ طالِبَ العِلْمِ من الانشِغَالِ بمطالَعَةِ كتُبِهِ ودراسَتِهِ، فهؤلاء يُؤذُونَ جِيرَانَهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

فَحَتَّى لو فُرِضَ أن الإِنْسانَ فتحَ الرَّادَيو أو المسَجِّلُ أو التليفزيونَ على كتابِ اللهِ، وعلى قراءَةِ القرآنِ بصوتٍ عالٍ يُؤذِي النَّاسَ فإن ذلِكَ حرامٌ عليه، لا يجوزُ له، وإذا كان يُحِبُّ أن يسمَعَ تلاوَةَ القرآنِ فلْيَجْعَلها بقَدْرِ ما يسمَعُهُ، ولا يُؤذِي النَّاسَ بهذَا الصوتِ.

فإن قيلَ: كيفَ تُنكِرُ على مَنْ أسمَعَ المسلِمينَ كَلامَ رَبِّهِمْ؟

قلنا: لا نَسْتنْكِرُ ذلِكَ، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ خرجَ على أصْحابِهِ وهُمْ يُصَلُّونَ ويجْهَرُونَ بالقُرآنِ، فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا،**

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصَّلاة، باب تسوية الصفوف، رقم (٤٣٢).

وَلَا يَرْفَعَنَّ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي القِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ»[(١)]، فيَجِبُ علَى المرءِ أن ينتَبِهَ لهذَا الأمْرِ، وأن لا يجْهَرَ بالقرآنِ على وجْهٍ يُشَوِّشُ به على غيرِهِ من المصَلِّينَ وغيرِهِم، فإنه يكونُ بذلِكَ مُؤْذِيًا للناسِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

ومن الأَذِيَّةِ أن يَسِيرَ النَّاسُ في الأسواقِ على وجْهٍ يُزْعِجُهم، كما يوجَدُ في بعضِ المنبِّهَاتِ القويَّةِ في السياراتِ التي تُزْعِجُ النَّاسَ، فإن هذا مِنْ أذِيَّةِ المؤمِنِينَ، والواجِبُ أن يتَّخِذَ الإِنْسانُ منبِّهًا بقدرِ ما يحْصُلُ به التَّنْبِيهُ، لا مُزْعِجًا يؤذِي المؤمِنِينَ.

كذلك أيضًا مِنْ أذِيَّةِ المؤمِنِينَ ما يحصُلُ من بَعْضِ السَّائِقِينَ الَّذينَ يُوقِفُونَ السيَّاراتِ على الأرصِفَةِ المُعدَّةِ للمُشاةِ، فإذا أُوقِفَتْ فيها السيَّاراتُ تَأذى المسلمونَ الَّذِينَ يَمْشُونَ على هذه الأرصِفَةِ، بالنُّزولِ عن هذِه الأرْصِفَةِ ثم الصعودِ إليهَا من وراءِ السيارَةِ، أو ربما يكونُ الخَطُّ مشْغُولًا بالسيَّاراتِ الأخْرَى فيتأَذَّوْنَ بمُخَالَفَتِهَا.

فيجب على المؤمِنِ أن يكونَ منْتَبِهًا لهذه الأمورِ، وألا يكونَ أنانِيًّا لا يهمُّه إلا نَفْسُه، عليه أن يُراعِيَ إخوانَهُ فقَدْ قالَ رَسولُ الله ﷺ: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[(٢)].



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصَّلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة اللَّيل، رقم (١٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدَّليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه، رقم (٤٥).

الدَّرس الثَّامن:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتمِ النَّبِيِّين، وإمَامِ المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧-٥٨].

بيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذهِ الآيةِ ثلاثةَ أنواعٍ منَ الإيذاءِ:

الأولُ: أذيةُ اللهِ.

الثَّاني: أذيةُ رَسولِه ﷺ.

الثَّالثُ: أذيةُ المؤمنينَ.

أما أذيةُ اللهِ ورَسولِه ﷺ فجعلَهُما اللهُ عَزَّوَجَلَّ في حُكمٍ واحدٍ، وفي نَسقٍ واحدٍ؛ لأن أذيةَ رَسولِ اللهِ ﷺ أذيةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وأذيةُ اللهِ أذيةٌ لرَسولِه ﷺ، فالَّذينَ يُؤذونَ اللهَ ورَسولَه ﷺ يستحقونَ اللعنةَ والعذابَ المهينَ، واللعنةُ: هيَ الطردُ، والإبعادُ عن رحمةِ اللهِ.

وتكونُ أذيةُ اللهِ، بوصفِه بما لا يليقُ بهِ، وسبِّهِ، والاستهزاءِ بهِ، والسخريةِ بهِ، فمَن وصفَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بأنهُ ليسَ بسميعٍ، ولا بصيرٍ، ولا عزيزٍ، ولا حكيمٍ، ولا رحيمٍ، وما أشبهَ ذلكَ، مما وَصَفَ اللهُ به نفسَه من صفاتِ الكمالِ، فإن هذا مِن أذيةِ اللهِ.

ومَنِ اعترضَ على اللهِ في شرعِه أو قدَرِه، فإن ذلكَ مِن أذيةِ اللهِ، ولهذا جاءَ في

الحديثِ الصَّحيحِ أن اللهَ تعالى قالَ: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»(١)، فمثالُ سبِّ الدهرِ: أن يقولَ: هذهِ سَنَةٌ سيئةٌ، وهذا فَصلٌ سيئٌ، وما أشبهَ ذلكَ، مما يَنمُّ عن سبِّ القَدَرِ، فإن ذلكَ أذيةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وأشدُّ مِن ذلكَ: أن يَسُبَّ الدِّينَ، ويستهزئَ بهِ، ويُوردَ الشبهاتِ عليهِ، ويصفَه بأنهُ متناقضٌ، فإن هذا أشدُّ مِن سبِّ الدهرِ، ولهذا قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

وهنا يَردُ سؤالٌ: كيفَ أثبتَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الأذيةَ لهُ، معَ أنهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يضرُّهُ أحدٌ مِن خلقِه، ولا تضرُّه معصيةُ العَاصينَ، فكيفَ تثبتُ الأذيةُ معَ انتفاءِ الضررِ؟

الجوابُ: أن يقالَ: لا يلزمُ منَ الأذيةِ الضررُ، **ومثالُ ذلكَ**: الإنْسانُ يتأذَّى منَ الرَّائحةِ الكريهةِ، ولكنْ لا تضرُّه، ويتأذَّى أن يسمعَ كلمةً نابيةً، ولكنْ لا تضرُّه، فلا يلزمُ منَ الأذيةِ الضررُ، فابنُ آدمَ يُؤذِي اللهَ بأن يَسبَّ الدهرَ، ولكن لا يضرُّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ شيئًا؛ لأن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا تضرُّهُ معصيةُ العَاصينَ، كما لا تنفعُه طاعةُ الطَّائعينَ.

ومِن أذيةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أن يَسُبَّ سُنتَه وشَريعتَه، ويَصفَها بالقُصورِ، وأنها لم تستوعبِ الأحكامَ التي يحتاجُها النَّاسُ.

ومِن أذيةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أن يُسَبَّ آلُ بيتِه مِن قرابتِه، أو زوجاتِه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، رقم (٤٥٤٩)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

فإن هذَا مِن أعظمِ أذيتِه، فمَن سَبَّ واحدةً مِن أمهاتِ المؤمنينَ، أو جميعَ أمهاتِ المؤمنينَ، فقدْ آذَى رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ ومَن سبَّ أحدًا مِن أقاربِه المؤمنينَ بهِ، فقدْ آذَى رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ.

أما أقاربُه الَّذينَ لم يُؤمنُوا بهِ، فليسَ سَبُّهمْ مِن أذيةِ الرَّسولِ ﷺ فإن اللهَ تعالى سَبَّ أبا لهبٍ وهوَ عمُّ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأنزلَ في سَبِّه سورةً كاملةً يتلُوها النَّاسُ إلى يومِ القيامةِ في صلواتِهم، الفرضِ والنفلِ، وفي قراءتِهم التي يتقربونَ بها إلى اللهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد:١-٥].

ومِن أذيةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: سَبُّ أصْحابِه الَّذينَ دافعُوا عنهُ، وناصَرُوهُ، وعزَّرُوهُ، وقامُوا بالجهادِ معهُ حتى أظهرَ اللهُ الإسْلامَ على يدِه وأيدِيهم، فإن سَبَّهُم بلا شكٍّ إيذاءٌ للرَسولِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾، عذابًا يُهينُهم يومَ القيامةِ، فاللعنةُ في الدُّنيا والآخرةِ، والعذابُ المهينُ في نارِ جهنمَ، وربما يكونُ في الدُّنيا أيضًا، يُعذَّبونَ على أيدي المؤمنينَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ [التوبة:١٤-١٥].

فسبُّ اللهِ تعالى وصْفُهُ اللهَ بما لا يليقُ بهِ شرعًا أو قدرًا، هذا مِن أذيةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإيذاءُ الرَّسولِ ﷺ كذلكَ أن يَنسبَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ أو إلى أهلِه ما لا يليقُ

بهِمْ شرعًا أو قدرًا، فإن اللهَ تعالى لم يختر لرَسولِه ﷺ إلا خِيارَ الخَلق يَنْصرونَ اللهَ ورَسولَه ﷺ.

القسمُ الثَّالثُ: أما القسمُ الثَّالثُ منَ الأذيةِ فهوَ أذيةُ المؤمنينَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ هؤلاءِ ﴿ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا﴾ أي: كذبًا، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، أي: عقوبةً، وهنا لم يذكرِ اللعنةَ، ولم يذكرِ العذابَ المهينَ؛ لأن سَبَّ اللهِ ورَسولِه ﷺ أعظمُ مِن سَبِّ المؤمنينَ بلا شكٍّ، فسبُّ المؤمنينَ لا يُوصلُ إلى الكفرِ، لكن سَبَّ اللهِ ورَسولِه ﷺ كُفرٌ، حتى إن بعضَ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يقولونَ: إن سبَّ اللهِ ورَسولِه ﷺ لا تُقبلُ فيهِ التوبةُ، فلو تابَ وجبَ أن يُقتلَ(١).

والصَّحيحُ أن مَن سَبَّ اللهَ قبلتْ توبتُه ولم يقتلْ، وإن كانَ قد سَبَّ الرَّسولَ ﷺ قُبلتْ توبتُه وقتلَ، مع أن سبَّ اللهِ أعظمُ مِن سبِّ الرَّسولِ ﷺ، وهذا أمرٌ مستغرَبٌ، فكيفَ يُرفعُ القتلُ عمنْ ذنبُه أعظمُ وأشدُّ؟

الجوابُ: أن مَن تأملَ الأمرَ رأى أن ذلكَ ليستْ فيهِ غرابةٌ؛ لأن سَبَّ اللهِ حقٌّ للهِ، وقدْ أخبرَ اللهُ عن حقِّه، أن مَن تابَ إليهِ ورجعَ إليهِ، فقدْ عفَا عنهُ، قالَ تَعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

أما مَن سَبَّ الرَّسولَ ﷺ فإن سَبَّهُ رِدَّةٌ عنِ الإسْلامِ، فإذا تابَ منها السَّابُّ

---

(١) انظر الصَّارم المسلول(١/ ٣).

قُبلتْ تَوبتُه، وصَارَ مُسلمًا، لكن يُقتلُ لِحَقِّ الرَّسولِ ﷺ، فحَقُّ الرَّسولِ حقُّ آدميٍّ لا يسقطُ بالتوبةِ، فيُؤخَذُ بالثأرِ لرَسولِ اللهِ ﷺ مِن هذا الذي سَبَّهُ، ويُقتلُ، وإذا قُتلَ فيُغسَّلُ، ويُكفنُ، ويُصلى عليهِ، ويُدفنُ معَ المسلمينَ؛ لأنهُ قد تَطَهَّرَ.

وأذيةُ المسلمينَ ليستْ كأذيةِ اللهِ ورَسولِه ﷺ، قالَ تَعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ فإن كانَ رجلٌ آذَى المؤمنَ، لكن بسببِ فعلِ المؤمنِ، فلا نقولُ: إنهُ آذاهُ بغيرِ حقٍّ، بل نقولُ آذاهُ بحقٍّ.

مثالُ ذلكَ: لو أن جارَكَ آذاكَ في جوارِه، فآذيتَه بمثلِ ما آذاكَ بهِ، فإنهُ ليسَ عليكَ إثمٌ؛ لأنكَ آذيتَه بما اكتسبَ، وقدْ أمرَ اللهُ تعالى بإيذاءِ مَن فعلَ أو أَتى الفاحشةَ فقالَ: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء:١٦]، فأَمَر اللهُ بأذيتِهما؛ لأنهما اكتسبَا ذلكَ، فصارَا هما السببَ في الأذيةِ، فليسَ في أذيتِهما عدوانٌ عليهِما.

إذن، الَّذينَ يؤذونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، إن كانَ بكسبِ المؤمنينَ والمؤمناتِ، فهذا منهمْ، ولا إثمَ على مَن آذاهُم؛ لأنهُ أخذَ بحقِّه، أو أخذَ بحقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فالرَّجلُ إذا أُقيمَ عليهِ الحدُّ، يؤذَى لكن بحقٍّ.

ومِن أذيةِ المؤمنينَ: شَتمُهُم، أو سَبُّهُم، أو القدحُ فيهم، أو ما أشبهَ ذلكَ، بل مِن أذيةِ المؤمنينَ: أن يتخطَّى رقابَهم في أوقاتِ الصَّلاةِ يومَ الجمعةِ، أو غيرِ الجمعةِ، ولهذا رأَى النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ رجلًا يمشِي في الصفوفِ

يومَ الجمعةِ والنبيُّ ﷺ يخطبُ، فقالَ لهُ: «اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ»[١].

ومِن أذيةِ المؤمنينَ: أن يأتيَ الإِنْسانُ إلى مجتمعِ المسلمينَ برائحةٍ كريهةٍ تُؤذي النَّاسَ، مثل أكلِ البصلِ والثُّومِ وغيرِهما من ذواتِ الروائحِ الكريهةِ، فإن الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ: «مَنْ أَكَلَ البَصَلَ وَالثُّومَ وَالكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»[٢].

فبيَّن الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن في ذلكَ أذيةً، فإن كثيرًا منَ النَّاسِ إذا قامَ إلى جنبِ مَن أكلَ شيئًا مِن هذهِ المُؤذياتِ لا يستطيعُ أن يؤديَ الصَّلاةَ على الوجهِ المطلوبِ، فتكونُ في ذلكِ أذيةٌ باكتسابِ المؤمنِ، فالمُؤذَى لم يفعلْ شيئًا يستحقُّ أن يُؤذَى عليهِ.

فأذيةُ المؤمنينَ لا شكَّ أنها مُحرمةٌ، ولهذا كانَ الصَّحابةُ إذا رأَوا أحدًا قد أكلَ بصلًا، أو ثُومًا في المسجدِ، أخرجُوه منَ المسجدِ، وطردُوه إلى البَقِيعِ، ليبتعدَ عن أذيةِ النَّاسِ.

ومِن أذيةِ المسلمينَ: أن يضعَ في طُرقاتِهم ما يؤذِيهم من قُشورِ البرتقالِ، أو مِن قُشورِ الموزِ، أو قِطعِ الزجاجِ، أوِ الثِّيابِ الباليةِ، أوِ الأحجارِ، أو المساميرِ،

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٨)، رقم (١٧٨٢٦)، وأبو داود: كتاب الصَّلاة، باب تخطي رقاب النَّاس يوم الجمعة، رقم (١١١٨)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب النهي عن تخطي رقاب النَّاس والإمام على المنبر يوم الجمعة، رقم (١٣٩٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصَّلاة والسنة فيها، باب ما جاء في النهي عن تخطي النَّاس يوم الجمعة، رقم (١١١٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوها، رقم (٥٦٤).

أو المياهِ، أو غيرِ ذلكَ. قالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»[١].

ومنَ الأذيةِ العظيمةِ: أن يُنْسبَ إلى الشخصِ ما لم يَقلْه، ولا سيَّما إذا نَسَبَ إليهِ قولًا شرعيًّا بأن يقولَ: قالَ العَالِمُ الفلانيُّ كذا وكذَا، وهوَ لم يَقلْهُ، فإن هذا مِنِ افتراءِ الكذبِ العظيمِ؛ لأنهُ ليسَ كذبًا على العَالِمِ فقطْ، بل هو كَذبٌ على الشريعةِ التي يَحمِلها هذا العَالِمِ.

ولذلكَ نقولُ: إذا كانَ الكذبُ على الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليسَ ككذبٍ على أحدِنا، كما قالَ ﷺ: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[٢].

فالكذبُ على العُلَماءِ ليسَ كالكذبِ على العَامةِ؛ لأنكَ لو قلتَ: قالَ العَاميُّ كذا وكذَا في حكمِ مسألةٍ شرعيةٍ، فإن كنتَ كاذبًا فعليكَ إثمُ الكذبِ، لكن ليسَ كما إذا قلتَ: قالَ العَالمُ الفلانيُّ كذا وكذا؛ لأن النَّاسَ سوفَ يأخذونَ بما نَسبتَ إلى العَالِمِ، على أنهُ قولُ عالمٍ يُقتدَى بهِ، لكنِ العَاميُّ لا يهمُّهُ، سواءٌ نَسبتَ إليهِ القولَ أم لم تنسِبْ.

ولذلكَ يجبُ أن نحذَرَ مِن أن ننسبَ إلى العُلَماءِ شيئًا يُنقلُ عنهم إلا إذا تأكدنَا مِن هذا؛ حتى لا نعتديَ على مقامِهم، وحتى لا نُضِلَّ النَّاسَ بسببِ هذا النقلِ؛ لأن النَّاسَ إذا قلتَ: قالَ العَالمُ الفلانيُّ وهمْ يثقونَ بهِ، أخذُوا قولَكَ على

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم (٢٩٨٩)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، رقم (١١٠)، وصحيح مسلم، باب في التحذير من الكذب على رَسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، رقم (٣).

القَبولِ، وجعلُوا ذلكَ حجةً، وهذا خطرُهُ عظيمٌ.

ومِن أذيةِ المؤمنينَ: التَّحريشُ بينَ المؤمنينَ، وإلقاءُ العَدَاوةِ بينهُم، إما بالنَّميمةِ أو بغيرِ ذلكَ من أسبابِ التَّفرقِ؛ ولهذا نرَى أن ما يتناقلُه بعضُ النَّاسِ، وينقلونَهُ أو يقولونَهُ في بعضِهم، نرى أنهُ فتنةٌ عظيمةٌ ومحنةٌ كبيرةٌ، وأنها سببٌ لقتلِ هذهِ الصحوةِ المباركةِ، التي كانتْ وللهِ الحمدُ في عصرِنا الحَاضرِ.

فإنهُ إذا حُرِّشَ بينَ العُلَماءِ، وضُربتْ أقوالُ بعضِهم ببعضٍ، نقصَ قَدْرُ الجميعِ، فينقصُ قَدْرُ هذا وهذَا، ولا يُوثقُ بقولِ أحدٍ منهمْ، وهذا خَطَرٌ عَظيمٌ، فإذا لم يثقِ النَّاسُ بِعُلمائِهم، ولم يَنصاعُوا لقولِهم، لأصبحتِ الدنيَا كلها فَوضى في الشَّرعِ والنِّظامِ، فلا يقبلونَ مِن علماءٍ تضاربتْ أقوالُهم، أو يُسَبُّ بعضُهم، أو يَشتُم بعضُهم، ولا ينصاعونَ إلى أوامرِ ولاةِ الأمورِ، إذنْ أصبحَ النَّاسُ في فوضى، وهذا خطرُه عظيمٌ.

ولهذا نجدُ الفقهاءَ من هذهِ الأمةِ، وهمُ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يحرصونَ غايةَ الحرصِ على البعدِ عنِ المخالفةِ والاختلافِ، حتى إن أميرَ المؤمنينَ عثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكانتْ مدةُ خلافتِه نحوَ اثنتَي عشْرةَ سنةً، كان يحجُّ بالنَّاسِ، لأن الخلفاءَ همْ أمراءُ الحجيجِ، فكانَ في أولِ خلافتِه يُصلِّي في مِنًى ركعتينِ، وبقيَ على ذلكَ نحوَ ستٍّ، أو ثماني سنواتٍ، يصلِّي ركعتينِ، كما كانَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ، وأبو بكرٍ وعمرُ يصلونَ في مِنًى ركعتينِ، ثم صارَ يُصلِّي أَربَعًا.

فذُكِر ذلكَ لعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقالَ: إنا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ، فرأَى أن مخالفةَ عثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما كانَ عليهِ النبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ وعمرُ، مصيبةٌ

تستحقُّ أن يسترجعَ الإِنْسانُ عليهَا، ومعَ ذلكَ كان يُصلِّي خلفَ عثمانَ، ويصلِّي أربعًا، وهوَ يرى أن ذلكَ مصيبةٌ، فقيلَ لهُ: يا أبا عبدِ الرَّحمنِ، كيفَ ذلكَ، فقالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الخِلافُ شَرٌّ(١).

انظرْ كيفَ الصَّحابةُ يوافقونَ على شيءٍ يرونَهُ منكرًا في رأيِهم، ولكن لأجلِ أَلا يقعَ الخلافُ بينَ المسلمينَ، معَ أنهُ يوجدُ مَن ينتسبونَ للخيرِ، ولكنهُم يُوقِدونَ نارَ الفتنةِ بينَ العُلَماءِ وطلبَتِهم، والدعاةِ، بل عامة النَّاسِ، وهذا مِن أكبرِ الجنايةِ والإيذاءِ للمؤمنينَ.

فعلى مَنِ ابتُلِيَ بهذا الأمرِ عليهِ أن يتوبَ إلى اللهِ، وأن يرجعَ إلى ربِّه، وأن يتأملَ النتائجَ السيئةَ التي تترتبُ على هذا، ونحنُ لا نقولُ: إن أحدًا لا يخطئُ، فكلُّ بني آدمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخطائينَ التوابونَ، ولكننا نقولُ كما قالَ ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في أولِ كتابِه (القواعدِ الفقهيةِ): «يأبَى اللهُ العِصمةَ في كتابٍ غيرِ كتابِه، والمنصفُ مَنِ اغتفرَ قليلَ خطأِ المرءِ في كثيرِ صَوابِه»(٢).

فالصَّوابُ واحدٌ وعشرونَ، والخطأُ تسعةَ عشرَ، فعلى المنصف أن يزنَ، فإذا وزنَ واحدًا وعشرينَ وتسعةَ عشرَ، فيَتَّرجحُ الواحدُ وعشرونَ، إذن هذا الرَّجلُ أصابَ في واحدٍ وعشرينَ، وأخطأَ في تسعةَ عشرَ، فيُغتفرُ الخطأُ.

لكنْ أن يجيءَ عالمٌ يُصيبُ في ألفٍ، ويُخطئُ في واحدةٍ، ثم يُطمسُ على الألْفِ كلِّه وكأنهُ لم يُصِبْ فيهِ، ويُؤخذُ بواحدةٍ منَ الخطأِ، وتُنشرُ، ويقالُ عنهُ ما يقالُ فهذا خطأٌ، وليسَ منَ الإنصافِ، وليسَ من دأبِ المسلمينَ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب الصَّلاة بمنى، رقم (١٩٦٠).

(٢) القواعد لابن رجب (١/ ٣).

ومعَ ذلكَ إذا رأيتَ من أخيكَ خطأً فلا تُقرُّهُ عليهِ، اتصلْ بهِ وناقشْهُ، فقد تكونُ أنتَ المُخطئَ والصَّوابُ معهُ، وبيِّنْ لهُ، والإنْسانُ المؤمنُ حقًّا هوَ الذي إذا بَانَ لهُ الصَّوابُ رجَعَ إليهِ، وتركَ قولَه، وسيكونُ الخيرُ لو أننا استعملنَا هذهِ الطَّريقةَ أن مَن أخطأَ منا نتصلُ بهِ، ونبينُ له سِرًّا لا علنًا، ونُبينُ لهُ ما أخطأَ فيهِ، ونُنَاقشُه، فقدْ يَتبينُ الحقُّ معهُ فنتبعهُ، أو معنا فيَتبَعُنا.

أما أَن يفرحَ الإنْسانُ بخطأِ أخيهِ حتى يَنشرَهُ يمينًا وشمالًا، فهذا ليسَ مِن دأبِ المسلمينَ، ولا مِن طريقةِ المسلمينَ، بل هو مما يُؤذِي المسلمينَ، فكلُّ إنْسانٍ يتأذَّى بأن يجدَ إخوانًا له يَنبذُ بعضُهم بعضًا بالألقابِ السيئةِ في أمورٍ محلها اجتهاديٌّ، ويمكنُ تدارُكُها.

ثم اعلمْ أن طبيعةَ البشرِ إذا عُوندَ فإنهُ يُعانِدُ، ويزدادُ ويُصرُّ على رأيِه، لكن إذا أُوتِيَ بالحكمةِ وبُيِّنَ لهُ الخطأُ، وصَلحتِ النِّيةُ، حصلَ بهذا خيرٌ كثيرٌ، والأمرُ بأيدِينا ويمكنُ تدارُكُه بالرجوعِ إلى الصَّوابِ؛ حتى يزولَ ما بأذيةِ النَّاسِ. فأذيةُ المؤمنينَ بما اكتسبُوا حلالٌ مباحٌ، بل قد يكونُ مأمورًا بها؛ لأنها بالحقِّ.

قيلَ: إن قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء:١٦]، إن هذهِ الآيةَ منسوخةٌ بقتلِ اللوطيِّ -قتل الفاعلِ والمفعولِ بهِ-؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ بِهِ**»[1]، وقيلَ كذلكَ: إنهُ لا يوجدُ مثالٌ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمِل عمَل قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من عَمِل عَمَل قوم لوط، رقم (٢٥٦١).

صحيحٌ لنسخِ القرآنِ بالسنةِ، وإن هذا من بابِ نسخِ القرآنِ بالسنةِ؛ لأن القرآنَ يدلُّ على مَن فعلَ الفاحشةَ: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ﴾ فجاءتِ السُّنَّةُ بأن نقتلَ الفاعلَ والمفعولَ بِهِ، فهلْ هذا صحيحٌ ونأخذهُ مثالًا لنَسخِ القرآنِ بالسنةِ؟

الجوابُ: يمكنُ اعتبارُ أن هذا المثالَ صحيحٌ، والقولُ بأنها جَاءتْ في الزنَا غيرُ صحيحٍ؛ لأن الآيةَ التي قبلها هيَ التي في الزنَا: ﴿وَٱلَّـٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ۝١٥ وَٱلَّذَانِ﴾ [النِّساء:١٥-١٦]، يعني: منكمْ، وهذهِ لصيغةِ المذكرِ، والفاحشةُ باللواطِ أعظمُ منَ الفاحشةِ بالزِّنا، ولهذا عبَّرَ اللهُ عنِ الزِّنا بأنهُ فاحشةٌ، وعبرَ لوطٌ عنهُ بأنهُ الفاحشةُ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء:٣٢]، أما لوطٌ فقالَ لقومِهِ: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠] يعني: التي استقرَّ فُحشُها في النفوسِ السليمةِ، واشتهرَ عندَ كلِّ أحدٍ، ولهذا كانَ القولُ الرَّاجحُ أن الفاعلَ والمفعولَ بهِ كلاهُما يُقتلانِ إذا كانَا بالغيْنِ، ولم يُكرَهِ المفعولُ بهِ على الفِعلِ، فيقتلُ كلٌّ منهما، حتى وإن لم يتزوجَا، بخلافِ الزِّنَا، فالزِّنَا لا يُرجمُ إلا المتزوجُ، أما اللواطُ فيقتلُ وإن لم يتزوجْ.

قالَ شيخُ الإسْلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الصَّحابةَ أجمعُوا على قتلِ اللوطيِّ الفاعلِ والمفعولِ بهِ، لكنِ اختلفُوا كيفَ يقتلانِ، فمنهمْ مَن قالَ: يُحرقانِ بالنَّارِ، ومنهمْ مَن قالَ: يُرجمانِ بالحجارةِ، ومنهمْ مَن قالَ: يُلقَيانِ مِن أعلى شيءٍ في البلدِ،

ويُتبعانِ بالحجارةِ، والمهمُّ أن الصَّحابةَ -أجمعُوا على قتلِ الفاعلِ والمفعولِ بهِ- نسألُ اللهَ الحمايةَ والسَّلامةَ»[١].



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٤٣)، (٢٨/ ٣٣٥).

الدَّرس التاسع:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورَسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧].

قوله تعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يقولُون ما يُؤذِي اللهَ، أو يفعَلون ما يُؤذِي اللهَ، فمِن ذلك أن يَسُبَّ الإِنْسانُ الدهرَ، فإذا سبَّ الإِنسانُ الدهرَ لكثرةِ مصائبِه في هذا الدهرِ، أو لكثرةِ الفِتن أو ما أشبهَ ذلك، فسبَّه وقال: هذا دهرٌ سَيِّئٌ، وهذا دهرٌ تَأَذَّيْنَا منه، وهذا دهرٌ لا خيرَ فيه، وما أشبهَ ذلك، فهذا يُؤذِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لقول الله تَعَالَى: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ»[1].

ولكن هل يَلزَم من أذيَّة الله عَزَّوَجَلَّ أن يَتَضَرَّرَ اللهُ؟

الجواب: لا يَلزَم؛ فإن الله تَعَالَى لا يضرُّه شيءٌ، فلا يَنتفع بطاعةِ الطَّائعينَ، ولا يتضررُ بمعصيةِ العَاصينَ، بل هو عَزَّوَجَلَّ غنيٌّ عمَّا سِواه، وكلُّ ما سِواه مُفْتَقِرٌ إليه.

إذن لا يَلزَم من كونِ اللهِ يَتأذَّى بسبِّ الدهرِ أن يَتَضَرَّرَ به؛ لأن الله تعَالَى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

لا يُمكِن أن يتضررَ بشيءٍ. وفي الحديثِ القُدُسي قال الله عَزَّوَجَلَّ: «**يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنفَعُونِي**»(١).

وقوله: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: ويؤذون رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم، وقد أُوذِيَ النبيُّ ﷺ بالقولِ وبالفعلِ، فأوذي بالقولِ ووُصف بأنه ساحِر، وأنه شاعِر، وأنه كاهِن، وأنه مجنون، وأنه كذَّاب، وأنه مَسحور، ولا شَكَّ أن هذا يُؤذِيه، ولكن هل ضَرَّه ذلك شيئًا؟

الجوابُ: لا، بل صبرَ وانتظرَ الفرجَ، وصار له النصرُ على أعدائِه، فلم يَتَضَرَّرْ، لكنه لا شَكَّ أَنَّه يتأذى كما يتأذَّى بنو آدَمَ، ولكن ذلك لم يَضُرَّهُ وللهِ الحمدُ، حتَّى السُّمُّ الَّذِي وضعتْه اليهوديَّةُ في لحمِ الذِّراعِ عام فتحِ خيبرَ ليأكلَه النبيُّ ﷺ فيموت لم يضرَّه، فلم يَمُتْ في الحَالِ، مع أن الَّذِينَ أكلوا منه ماتَ بعضُهم، أما النبيُّ ﷺ فلم يمت في الحَالِ، لكنه كان يقول مرض موته: «**مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَم الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ**»(٢). والأبهرُ عِرقٌ يتصلُ بالقلبِ، إذا انقطعَ هَلَكَ الإِنْسانُ.

ولهذا قال بعضُ التَّابعينَ: إنَّ النبيَّ ﷺ قتلَه اليهودُ، عليهم لعائنُ اللهِ المتتابعةُ إلى يومِ القِيَامَةِ.

أسأل اللهَ في هذا المقامِ، وفي هذه اللَّيلةِ المباركةِ أن يدمِّر اليهودَ، اللَّهُمَّ دمِّرِ اليهودَ، ومَن ساعدَ اليهودَ مِنَ النَّصارَى والمنافقينَ وغيرهم، يا ربَّ العَالمينَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلات والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٢٨).

فإنهم آذَوُا المسلمينَ واعتدوا عليهم، وأخرجوهم من دِيارهم، وخرَّبوا بلادَهم؛ ولكن الله تَعَالَى بالمرصادِ، لنا أملٌ كبيرٌ في أن نَرجع إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ حتَّى يكتبَ لنا النصرَ.

أما ما دُمنا نُقاتِل حَمِيَّةً، ونقاتل عصبيةً، فاللهُ أَعْلَم هل نُنصَر عليهم أو لا ننصَر، لكن لو قاتلناهم باسمِ الإسْلامِ وأسلمنا نحنُ قبلَ ذلكَ، وحسُن إسلامُنا، فالنصرُ لنا بلا شكّ.

إذنِ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يؤذَى بالقول؛ مثل قولهم: ساحرٌ، وكذّابٌ، وكاهنٌ، ومجنونٌ، ومَسحورٌ، وما أشبهَ ذلكَ، وبالفعلِ أيضًا آذَوُا النبيَّ ﷺ، حتَّى كانوا يُلقُونَ القاذوراتِ على عتبةِ بابِه في مكةَ، وحتى كان ذاتَ يومٍ ساجدًا تحت بيتِ اللهِ، فقالت قُرَيْشٌ بعضُهم لبعضٍ: ألا أحدٌ يذهبُ إلى جَزور بني فُلانٍ فيأتي بِسَلَاهَا[1] فيضعه على ظهر مُحَمَّد، فانتدبَ أشقاها لذلك، وأتى بالسَّلَى وفَرْثِه[2] ودَمِه ووضعه على ظهرِ النبيِّ ﷺ وهو ساجدٌ[3]. وأنواع الأذى الحَاصل للرَسولِ ﷺ كثيرة.

قوله: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ معنى لعنهم: أي طردَهم وأبعدَهم عن رحمةِ اللهِ. ومَن لعنهُ الله فلا خيرَ يُرجَى من ورائِه؛ لأنَّه مَطرودٌ من الرَّحمةِ. وأولُ مَن لُعِنَ فيما نَعْلَم إبليسُ.

---

(١) السلى: هو اللفافة الَّتي يكون فيها الولد في بطن النَّاقة وسائر الحيوان، وهو من الآدمية: المشيمة.

(٢) الفرث: هو ما في كرش الحيوان.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلِّي قذر أو جيفة، لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

واليهودُ والنَّصَارَى ملعونونَ؛ لعنهمُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم، وقَالَ اللهُ تَعَالَى في القُرآن: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [المائدة:٧٨]، والنبيُّ ﷺ في آخر حياتهِ يقول: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(١).

فالنَّصَارَى مَلعونون، واليهودُ مَلعونونَ، ولم يُسَلَّطُوا على المسلمينَ إلَّا بتفريطِ المسلمينَ في دِينهم، وبُعدِهم عن دِينهم، فسُلِّط عليهم حَفنة منَ اليهودِ بمساعدةِ النَّصَارَى لهم، وحصلَ ما حصلَ ممَّا تشاهدونه كلَّ يومٍ في الجرائدِ، أو تَسمعونه في الإذاعاتِ.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ الجزاءُ من جِنس العملِ، لَمَّا كان هَٰؤُلاءِ يقصدون بأذيةِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ إهانتَه أُهينوا، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ أي ذا إهانةٍ وذُلٍّ وخِزْيٍ وعارٍ.

لا يَلزَم من الأذية الضررُ:

ذكرنا أنَّه لا يَلزَم من الأذيَّة الضرر، فنُمثِّل بمثالٍ يَنطبِق عليه هذا الحكمُ:

فالإِنْسان يَتَأَذَّى من الرَّائحةِ الكريهةِ، ولكنه لا يَتضَرَّر، ولهذا نهى النبيُّ ﷺ مَن أكلَ بَصَلًا أو ثُومًا أن يقربَ المساجدَ، وأخبرَ أن ذلك يُؤذِي الملائكةَ، وأن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصَّلاة، باب الصَّلاة في البيعة، رقم (٤٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٣١).

الملائكة تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدمَ[١]، وعليه فإذا أكلتَ بصلًا أو ثُومًا أو غيرهما من ذات الروائحِ الكريهةِ، وبَقِيَتِ الرَّائحةُ فلا تقرب المسجدَ، ولا تُصَلِّ مع الجماعةِ.

وهذا ليس إسقاطًا للجماعةِ عنك، ولكن اتقاءً لأذيَّته، ومعلومٌ أن الإِنْسانَ إذا عرَف نفسَه أنَّه محرومٌ من حضورِ الجماعةِ فإنه سوف يُدبِّر أمرَه؛ فإما أن يأكلَ البصلَ والثومَ في وقت مبكِّرٍ بحيث تزولُ رائحتُه، وإما أن يستعملَ روائحَ قويةَ الرَّائحةِ وهي طيِّبة حتَّى تقضيَ على رائحةِ الثومِ والبصلِ.

المهمُ أن الإِنْسانَ يتأذَّى بالشيءِ ولا يتضرَّرُ به، وحينئذٍ نَعرِفُ أنَّه لا يَلزَم من أذيةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من هَؤُلاءِ المؤذِينَ أن يَتَضَرَّرَ بذلك، وكذلك النبيُّ ﷺ.

ثمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

الَّذِينَ يؤذون المؤمنينَ بالقولِ أو بالفعلِ، وسواءٌ كان القولُ مواجهةً أو كان القولُ في الغَيبةِ، فإن كان القولُ مواجهةً سُمِّيَ سَبًّا وشتمًا، بأن يقولَ أمامَه: أنت كذَّابٌ، أنت خدَّاعٌ، أنت آكِلُ رِبًا، وهو بريءٌ من ذلك، فهو يتأذَّى بهذا، أو يتكلمُ في مجامع النَّاسِ بأن يقول: فلانٌ فيه كذا وكذا، وهذه هي الغِيبة، والغِيبةُ: هي ذِكرُكَ أخاكَ بما يَكرَهُ، وهي -أي الغيبة- من كبائر الذنوب.

وكبائرُ الذنوبِ لا تكفِّرها الصَّلاةُ، ولا الصيامُ، ولا الصدقةُ، ولا الحجُّ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب نهي من أكل ثُومًا أو بصلًا أو كراثًا أو نحوها، رقم (٥٦٤).

ولا العمرةُ، وتحتاج إلى توبةٍ خاصةٍ، والغيبةُ من كبائرِ الذنوبِ؛ لأن الله تَعَالَى شَبَّهَها بأقبحِ تشبيهٍ فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢].

واعلمْ أن الغِيبةَ يَشتدُّ إثمُها ويَعظُمُ قُبحُها إذا كانت آثارُها سيئةً، فإذا كانت الغيبةُ لأهلِ العلمِ، صارت أشدَّ قُبحًا من غِيبة العوامِّ؛ لأنك إذا اغتبتَ العامِّيَّ فقد أسأتَ إليه فقطْ، لكن إذا اغتبتَ العَالمَ فقد أسأتَ إليه وإلى ما يَحمِله من شريعةِ اللهِ، وحينئذٍ لا يبقى للشريعةِ الَّتي يَحمِلها هذا العَالمُ كبيرُ تعظيمٍ في القلوبِ، فيَزهَد النَّاس بعلمِه، ولا يَنتفعون به، ويُفْقَد جانبٌ كبيرٌ من الشريعةِ.

إذن غِيبةُ العُلَماءِ أعظمُ إثمًا وأكبرُ جُرمًا، وأشدُّ قُبحًا من غِيبةِ العوامِّ؛ لما يَتَرَتَّبُ على ذلك منْ الِاستخفافِ بالشريعةِ الَّتي يَحمِلها هذا العَالمُ.

والعجبُ أن أولئك الَّذِينَ يَغتابون العُلَماءَ هم أسوأُ حالًا منَ العُلَماءِ:

أولًا: لأنهم لا يُساوونهم في العلمِ والإدراكِ.

وثانيًا: أن عندهم من العُنف والكبرياءِ، والإعجاب بالنَّفسِ، وتكفيرِ غيرِهم ما هو معروفٌ.

كذلك غِيبةُ الأُمراءِ وغِيبةُ الحُكَّامِ أشدُّ جُرمًا وأعظمُ إثمًا من غيبةِ العَامَّة؛ لأنك إذا اغتبتَ الأميرَ أوِ الحَاكمَ أو السلطانَ نَقَصَ قَدْرُهُ في قلوبِ الشعبِ والرَّعِيَّةِ، وإذا نَقَصَ قدرُه في قلوبِ النَّاسِ أصبحت أوامرُه لا شيءَ، ولا يهتمُّون بها، ولا ينظرون إليها، وحينئذٍ تُصبِح البلادُ فوضى، وكلُّ إِنْسانٍ أميرَ نفسِه، ولا يصلُحُ أبدًا أن يكونَ النَّاسُ فوضى كلُّ إِنْسانٍ أميرَ نفسِه.

ولذلك أمر النبيُّ ﷺ المسافرينَ إذا كانوا ثلاثةً أن يُؤَمِّرُوا أَحَدَهم[١]، وهم ثلاثةٌ، وفي سفرٍ مؤقَّت لا دائم، لكن إذا كانت الأمةُ بلا أميرٍ صارتْ فوضى.

ولهذا قال الشَّاعر[٢]:

لا يَصلُحُ النَّاسُ فَوضى لا سَراةَ لَـهُم ... وَلَا سَراةَ إِذا جُهَّالُهُم سَادُوا

فغِيبة الأمراءِ وذوي السلطانِ أشدُّ وأعظمُ وأقبحُ من غِيبة عامةِ النَّاسِ؛ لما يَترتَّب عليها من الفَوضى.

فإذا قال قائل: إذا قيل لي عن عالمٍ ما يَقدَح فيه، فهل أسكت أم ماذا؟

قلنا: لا تسكُتْ، لكنِ استعمِلْ مراتبَ:

أولًا: تَحقَّقْ منَ النقلِ؛ لأنَّه -والله يا إخواني- أحيانًا يُنقَل إلينا عن شخصٍ من العُلَماءِ أنَّه أَفتى بكذا أو قال كذا، فإذا سألناهُ قالَ: أبدًا ما جَرَى مني هذا، فبعضُ النَّاسِ يَكذِبُ على العُلَماءِ، فإذا كان يرى شيئًا فهو يَعرِفُ أنَّه لو قال: أنا أرى كذا أنَّه لا يقبلُه النَّاسُ، لكن يجعلها في ظهرِ العَالمِ، يقول: قال العَالمُ الفلانيُّ كذا وكذا؛ لأجل أن النَّاس يَقبَلونه، فيكذبُ على العُلَماءِ من أجلِ أن يُقْبَلَ ما يريدُ.

وربَّما يكون ليس عنده قَصدٌ سيِّئ، ولا يريد الإساءةَ إلى العَالمِ ولا تشويه سُمعتِه، لكن يفهمُ الجوابُ خطأً، وهذا واردٌ. وربما لا يفهم الجوابَ خطأً لكن يُورِدُ السؤالَ على وجهٍ يفهمه المفتي على خلافِ ما في نفسِ المُستفتِي، وهذا أيضًا واقِعٌ، فيورِدُ عليك السؤالَ مُجْمَلًا مثلًا، وتجيبُه وهو يَرى أنك أجبتَه عما في ضميرِه، فيذهبُ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، رقم (٢٦٠٨).

(٢) البيت للأفوه الأودي. انظر الشعر والشعراء (٢/ ٢١٧).

يقول للناسِ: قال فلانٌ كذا وكذا.

المهمُّ المرتبةُ الأُولى فيما إذا سمِعتَ عن عالمٍ ما لا ترضاه هي التحقُّق، وإذا تحققتَ ففكِّرْ هل ما قاله العَالمُ له وجهٌ؛ لأَنَّه أحيانًا يأتي الإِنْسانَ الشيءُ بغتةً فيُنكِره في قلبِه، وعند التأمُّل يرى أَنَّه غيرُ منكَرٍ، وأنه صحيحٌ، ففكِّرْ أَوَّلًا قبل أن تُخاطِبَ العَالِمَ؛ هل له وِجهةُ نظرٍ، فإنْ كان له وجهةُ نظرٍ فالواجبُ عليك أن تَذُبَّ عن العَالمِ، وأن تؤيِّد قولَه، وأن تُدافِعَ عنه؛ لأَنَّه قال صوابًا، لكنه غير مَعروف عند العَامَّةِ. والذي لا يُعرَف عند العَامةِ يَرونه خَطَأً مُنكَرًا.

إذن المرتبة الثَّانية: التأمُّل فيما صَحَّ نقلُه عن العَالمِ؛ هل له وجهة نظر أو لا، فإن كان له وجهةُ نظرٍ فالواجبُ الدفاعُ عنه، وأن يُبيِّنَ للناسِ أن هذا هو الصَّوابُ، وإنْ لم يكنْ له وِجهةٌ نظرٍ، أو لم تعرفْ وجهةُ نظرِه، فالواجبُ أن تتصلَ بالعَالمِ وتبحثَ معه.

ولكن كيف تبحث؟ بعضُ النَّاس المغرورينَ الَّذِينَ ليس لهم من العلمِ إلَّا القليل، لكنَّه يرى نفسَه أكبرَ من الأئمَّةِ، يأتي للعالمِ الَّذِي يرى أَنَّه أخطأَ ويقول: يا فلان، بَلَغَنِي عنك أنك قلتَ كذا وكذا، وهذا خطأٌ، وهذا مُصادِمٌ للنصِّ، ولا عِبرةَ بما صادمَ النصَّ، وأنت أخطأتَ.

فهذا لا يَليقُ بالعَالِمِ أبدًا، فالعَالمُ له حُرمتُه، والعَالمُ بَشَرٌ ربما تَأخُذُه العِزةُ بالإثم، ويُصِرُّ على قولِه، وهو باطِلٌ، لكن تأتي إليه بتأدُّب، تقول: بلغني عنك كذا وكذا، وثبت عندي هذا، فأريدُ -جزاكَ اللهُ خيرًا- أن تُبيِّنَ لي وجهَ ذلك.

حدثني أحدُ العُلَماءِ الكِبارِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: يأتي العَامِّيُّ ما يعرِف الخَاءَ من الحَاءِ،

فيُفتيه الإِنْسانُ ثمَّ يقول: ما دَلِيلُك. قالَه لي هذا العَالم رحمةُ اللهِ عليه، فيأتي العَامِّيُّ يَستفتي ولا يَعرِف كُوعَه من كُرسُوعِه، فإذا أفتيتَه قال: ما الدَّلِيل.

والكُوعُ ما يلي الإبهام، والكرسوع ما يلي الخِنصرَ. وعليه أنشد القائل[1]:

وعَظْمٌ يَلِي الإبهامَ كُوعٌ وما يَلِي ... لِخنصره الكُرسُوع والرُّسْغُ ما وَسَطْ

على كلِّ حالٍ أنا أقصِد أن بعض النَّاسِ يخاطِبُ العُلَماءَ الأجِلَّاءِ مخاطبةَ الندِّ للندِّ، بل أردأ، وهذا غلطٌ، فالعَالمُ الكبيرُ له وَزنُه، وله احترامُه.

إذن الآن ذكرنا عِدَّةَ مَراحلَ:

الأُولى: التحقُّق والتثبُّت من صحَّة النقلِ.

والثَّانية: التأمل؛ هل له وجهةُ نظرٍ أو لا.

والثَّالثة: مخاطبةُ العَالمِ إذا تبيَّن أنَّه ليس له وجهةُ نظرٍ، لكن بأدبٍ واحترامٍ واسترشادٍ، لا بانتقادٍ.

فإذا كنا نستعملُ هذا في معاملتنا لأهلِ العلمِ حصل خيرٌ كثيرٌ.

وكذلك بالنسبةِ للأمراءِ، فقد ينفِّذ الأميرُ شيئًا فيأمرُ بحبسِ فلانٍ أو فلان، أو ضرب فلانٍ أو فلان، والنَّاسُ لا يعلَمون له خَطَأً، فيقولون: هذا الأميرُ ظالمٌ، وهذا الأميرُ فيه كذا وكذا، مع أنَّ الأمراءَ تأتيهم الأخبارُ من عدةِ قنواتٍ، وليس قناةً واحدةً، فنحن مثلًا فيما بيْننا تأْتِينا الأخبارُ مِن قناةٍ واحِدَةٍ، لكِن الأمراءُ لهم قنواتٌ مُتَعَدِّدةٌ تُوصِل لهم الأخبارَ، فقد يكون هناك أشياءُ أوجبتْ أن يُعاقبَ هذا

---

(١) انظر غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/ ٢٣٦).

الَّذِي نرى أَنَّه غيرُ مستحِقٍ، لكن عند وُلاةِ الأمورِ من الأسبابِ المُوجِبَةِ للعقوبةِ ما لا نَعلَمه، فإذا علِمنا أن وليَّ الأمر ظلَم بشيءٍ فأولًا لا بُدَّ أن نتحققَ هذا، فكم من مرةٍ يقولون: فلانٌ حُبس، فلانٌ ضُرب، وإذا تبيَّنَّا لم نجدْ لهذا أصلًا، فإذا تحققنا ذلك فإننا ننظرُ السببَ، فإذا كان السببُ مُسَوِّغًا لتلك العقوبةِ فعلينا أن ندافعَ عن وُلاةِ الأمورِ، ونقول: هذا الرَّجلُ يَستحِقُّ هذه العقوبةَ؛ لأن جُرمَه يَزِنُ هذه العقوبةَ، وإذا كانتِ العقوبةُ مُوازِنةً للجُرم فليس فيها ظُلمٌ، بل العدل، فإذا تبيَّن لنا أن العقوبةَ أكثرُ من الجُرم، فحينئذٍ نتدخَّلُ في الشفاعةِ، ومَن شفعَ شفاعةً حسنةً فله نَصيبٌ منها.

والحدودُ عدلٌ، ولا يُمكِن أن نَشفعَ في إسقاطِ العدلِ؛ ولهذا نذكرُ لكم هذه القصةَ لنختمَ بها هذا الكلامَ: كانت امرأةٌ من بني مَخزوم -وبنو مَخزومٍ من أعزِّ قبائلِ العربِ- تَستعيرُ المتاعَ، فتأتي مثلًا لصاحبِ البيتِ وتقول: يا فلانُ، أريدُ القِدرَ فعندي ضُيوفٌ لأطبخَ فيه للضُّيوفِ، فيُعطونَها القَدْر، فإذَا جاؤُوا يطلُبونَ القدرَ منْها أنكَرتْ، قالَت: ما عنْدِي شيءٌ، فأمرَ النبيُّ ﷺ أن تُقطَعَ يدُها؛ لأن هذه سارقة، لكن بحِيلَة، فبدل أن تدخلَ الدَّارَ وتأخذ القِدر فإنها تطلب إعارتَه، فأحسنَ أهلُ القِدر إليها وهي أساءتْ إليهم.

فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدُها لأنها سارِقة، لكن بحيلةٍ، فأَهَمَّ قُريشًا أمرُها واهتموا لذلك، وقالوا: كيف تُقطَع يدُ امرأةٍ من بني مَخزومٍ، انظروا أحدًا يَشفع، فاختاروا أسامةَ بنَ زيدٍ، شابٌّ يحبُّه النبيُّ ﷺ ويحبُّ أباهُ، ولعلَّه يَرِقُّ له لكونِه شابًّا، والشَّبابُ ينبغي للإِنْسانِ أن يَرِقَّ لهم تأليفًا لهم، ثانيًا أَنَّه حِبُّ رَسولِ اللهِ ﷺ

يحبه وأباه حبًّا كبيرًا، فشفع أسامةُ في شأنِ المَخزوميَّة أَلَّا تُقطَعَ يدُها، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟». وأغضبه ذلك، وقام وخطبَ النَّاسَ وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ» فيفرِّقون في حدودِ الله بين الغنيِّ والفقيرِ، ثمَّ قال: «وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»(١).

اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم عليه، اسمعوا العدلَ: أقسم وهو الصَّادقُ البارُّ بلا قَسَمٍ، قال: «وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ» وهي أشرفُ من المَخْزُومِيَّة بلا شَكٍّ «سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ» أنا «يَدَهَا»، ولم يقلْ: لأمرتُ مَن يَقطَع يدَها، بل قال: «لَقَطَعْتُ يَدَهَا». وهذا يَحتمل أن المعنى: لأمرتُ مَن يقطع يدها، ويحتمل أن المعنى لَبَاشَرْتُ قَطْعَ يدِها، وأيًّا كان فالحدودُ لا يمكِن أنْ يُشفَعَ فيها.

فلو أن رجلًا زنَى، وثبتَ ذلك عندَ القاضي، وحكَم برَجْمِه، فلا يجوزُ أن نشفعَ فيه.

ولو أن رجلًا قتلَ شخصًا عمدًا، وتمَّت شروطُ القِصاصِ، وحكمَ القاضي بقتل القاتلِ، فإنه يجوزُ أن نشفعُ؛ لأن هذا ليس بحدٍّ، فالقصاصُ ليس بحدٍّ، ولذلك لو شاء أولياءُ المقتولِ لَعفَوْا عنه؛ إما إلى دِيَةٍ أو أكثر أو مجَّانًا، لكن الحد لله عَزَّوَجَلَّ، وعلى هذا فالشفاعةُ في رجلٍ ثبت عليه القتلُ قِصاصا جائزةٌ.

والشفاعةُ في رجلٍ وجبَ عليه القتلُ رَجْمًا لأنَّه زانٍ مُحْصَنٌ لا تجوزُ؛ لأنها حدٌّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، رقم (٦٧٨٨)، ومسلم: كتاب الحدود، باب قطع السَّارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، رقم (١٦٨٨).

أقولُ كل هذا تفريعًا على أن الأمراءَ قد يَتصرَّفون تصرفًا نظنُّه ظلمًا، ولكن عندما نتتبَّع الأمورَ نجد أنَّه عدلٌ؛ لأنَّه قد يصل إلى وُلاةِ الأمورِ من قنواتٍ أخرى ما لا نَعلَمه نحن، لا سيَّما إذا عُلم من وُلاة الأمورِ أنَّهم ذَوو عدلٍ، وأنهم يَحكُمون بالشريعةِ، أما وُلاةُ الأمورِ الَّذِينَ لا يَحكمُون بالشريعةِ فهؤلاء قد يحكمون بالظلمِ، ويحكمون بغير حقٍّ.

والحمد لله ربِّ العَالمينَ، وصلَّى الله وسلَم على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.



الدَّرس العاشر:

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ، والعَاقبةُ للمتَّقِينَ، ولا عُدوانَ إلَّا على الظَّالمينَ، وأشهد أنْ لا إِلَهَ إلَّا اللهُ وحده لا شريك له، إله الأوَّلين والآخِرينَ، وأشهد أن مُحَمَّدًا عبده ورَسولُه، سيد المرسَلِين، وإمام المتَّقين، وعلى آلِهِ وأصْحابِهِ ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣].

قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ يعني متى تكون؛ لأن السَّاعةَ أمرُها مهمٌ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، والذي عَظَّمَهُ هو العظيمُ عَزَّوَجَلَّ، وتعظيمُ العظيمِ للشيءِ يدلُّ على أنَّه عظيمٌ، عظيمٌ، عظيمٌ.

واسمع ما يكون فيها: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢]. فالمرضعةُ في حَجْرِها الرضيعُ تَذهَل عنه، ولا أحدَ من الخلقِ أشفق من المرضعةِ على رَضيعِها في حَجرِها، إنَّما تريدُ أن تهَبَ له الدُّنيا كلها من شَفَقَتِها عليه، ولذلك تَذْهَلُ في ذلك اليوم عمَّا أَرْضَعَتْ؛ من شدة الهَول.

وقد أورد بعضُ النُّحاة إشكالًا على هذه الآيةِ في قولِه: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، والمعروف أن الوصفَ إذا كان خاصًّا بالإناثِ فإنه لا يَحتاج إلى تاءِ التأنيثِ؛ لأن تاءَ

التأنيثِ يُؤتَى بها للفرقِ بين الذكورِ والإناثِ، وإذا كان الوصفُ خاصًّا بالأُنثى اكْتُفِيَ به عن تاء التأنيثِ، فتقول: امرأةٌ مُرْضِعٌ، ولا تقول: امرأةٌ مُرضِعةٌ، وتقول: امرأةٌ حامِلٌ لما في بطنها، ولا تقول: امرأةٌ حاملةٌ، فلماذا قال هنا: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾؟

نقول: لأنَّ المقصودَ هنا الفعلُ، لا الوصف، يعني الَّتي تُرضِع بالفعلِ، ومعلومٌ أن الَّتي تُرضِعُ بالفعلِ أشدُّ شوقًا وشَفَقَةً على ابنِها ممَّن ليس ابنَها في حجرِها تُرضِعُه.

قال: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾، ومعلومٌ أن المرأةَ الحامِلَ إذا خافتْ من شيءٍ أَفزَعها كثيرًا فإنها تُسقِطُ الحملَ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ عُمومًا ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ مندهشينَ من شدةِ الهَول ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ لم يَشرَبوا خمرًا ولم يشربوا حَشيشًا ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فمن شدَّتِه صاروا كالسكَارى.

اللَّهمَّ أَنْجِنا من عذابِ يومِ القِيامَةِ، اللَّهُمَّ أَنجِنا من عذابِ يوم القِيامَة، اللَّهُمَّ أنجنا من عذاب يوم القِيامَة.

ولهذا يتساءلُ النَّاسُ عن السَّاعةِ، يقولون للرَسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم: متى السَّاعةُ؟ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ مُجيبًا لهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذه الجملةُ فيها حصرٌ طريقُه (إنما) يعني: ما عِلمَها إلَّا عنْدَ اللهِ، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يعْلمَها، إن أفضلَ رَسولٍ بشريٍّ لم يَعلَمها، وأفضلُ رَسولٍ مَلَكِي لم يَعْلَمها؛ وقد جاءَ ذلك في حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جاء جِبريل إلى النبيِّ ﷺ بصورةِ رجلٍ شديدِ سوادِ الشعرِ شديدِ بياضِ الثِّيابِ، وجبريلُ مَلَكٌ رآه النبيُّ صلى اللهُ عليهِ

وعلى آله وسلمَ على خِلقتِه، له ستُّ مئة جناحٍ قد سدَّ الأُفُقَ[1]، أي ملأَ الأفقَ كلَّه، وهنا يأتي بصورةِ إنسانٍ شديدِ بياضِ الثِّيابِ، شديدِ سوادِ الشعرِ، لا يُرى عليه أثرُ السفرِ، وإذا لم يُرَ عليه أثرُ السفرِ فمعناه أنَّه مَدَنِيٌّ من أهلِ المدينةِ، لكنَّه يقولُ: ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ.

فجلسَ إلى النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ جِلسةَ المتأدِّب، فوضع كفيْه على فخِذيه، وأسندَ رُكبتَيْه إلى ركبتَيْهِ وقال: يا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عنِ الإِسْلَامِ. وما قال: يا رَسولَ اللهِ؛ حتَّى يَظهَرَ لمَن سَمِعَ أن الرَّجلَ من الأعرابِ؛ لأن الأعرابَ ليس عندهم ذاك الأدبُ الرفيعُ، فيخاطبون الرَّسُولَ: يا مُحَمَّدُ، ويَصرُخ البدويُّ من أقصى المكانِ: يا مُحَمَّد أَخبِرني عن كذا.

قال: يا مُحَمَّد، أخبرني عن الإسْلامِ. فقال: «الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. والقائلُ إلى الآنَ ما عرفنا أنَّه جبريل.

قال عمرُ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ. معناه أنَّه عندَه علمٌ، فكيف يسأل!

قال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». فهذه ستةٌ. قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، ركنٌ واحدٌ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» هذا فيه كمالُ الشوقِ، «فَإِنْ لَم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤).

يَـرَاكَ» فيه كـمالُ المراقبةِ والخوفِ، والدرجةُ الثَّانيةُ دون الأولى. فالإحسانُ إذن مَرتبتان.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا المسؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَم مِنَ السَّائِلِ». يعني أنا لا أدري عنها، وأنتَ لا تدري، والمسؤولُ هو مُحَمَّدٌ رَسول الله عَلَيهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ، والسَّائلُ هو الرَّجلُ، فلم يعلمْ لا هذا ولا هذا، وهما أشرفُ الرسلِ، جبريلُ أشرفُ الرسلِ من الملائكةِ، ومُحَمَّدٌ أشرفُ الرسلِ من البشرِ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ».

«أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا» فتلدُ الأمةُ مَن تكونَ سيدةً عليها، **«وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ»** حفاةٌ: ليس عندَهم نِعالٌ، عُراةٌ: ليس عندَهم ثيابٌ، عالةٌ: ليس عندَهم مالٌ، فُقراءُ، **«رِعَاءَ الشَّاءِ»** يعني في الباديةِ، لا يَعرفون شيئًا، **«يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»** إذن صاروا حاضرةً؛ لأن البنيانَ في الحَاضرةِ، فتجدهم يسكنون المدنَ، ويتطاولون في البنيانِ، فهذا من العلاماتِ.

ثم انطلق الرَّجلُ، فلَبِثوا ما شاءَ اللهُ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: **«يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟»**. قال: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قال: **«فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»**[1].

إذن دينُنا في ضمنِ هذا الحديثِ، فإذا أردتَ يا أخي أن تَعرِفَ دينَكَ فاعرِفْ هذا الحديثَ؛ فإن الدينَ كلَّه في هذا الحديثِ.

ولهذا أرجو من إخوانِنا في مشارقِ الأرْضِ ومغاربِها، ولا سيَّما القائمونَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسْلام والقدر وعلامة السَّاعة، رقم (٨).

على الثقافةِ والتعليمِ، أن يركزوا على هذا الحديثِ، وأن يجعلوه في مُقَرَّراتِ الصِّبيان حتَّى يَحْفَظُوه ويَعُوه ويَعرِفوه؛ لأنَّه مهمٌ «أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينكُمْ».

ونعودُ إلى أصلِ البحثِ أن علمَ السَّاعةِ لا يعلمُه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والذي يقيمُ السَّاعةَ هو الَّذِي يعلمُه، والسَّاعةُ لا تأتي إلا بغتةً بعد أن تُوجَدَ أشراطُها، فإذا تمَّتِ الأشراطُ جاءتْ بغتةً، حتَّى إن الرَّجلَ يُحسِّنُ حوضَ إبلِه لِيَسْقِيَها فتقومُ السَّاعةُ قبل أن يَسقِيَها، وحتى إن الرَّجلَ رافِعٌ لقمتَه ليأكلها فتقومُ السَّاعةَ قبل أن يُوصِلها إلى فمِه، وحتى إن الرَّجلين يتبايعانِ الثوبَ يَنشُرانه بينهما فتقومُ السَّاعةُ قبل أن يتمَّ العقدُ[1].

إذن تأتي بَغتةً، ولكن بعد أن تتمَّ أشراطُها. ومَنِ ادعى علمَ السَّاعةِ كما يدَّعي المُخَبَّلُونَ فيما يُكتَب في بعضِ الأحيانِ في الصحفِ أن عمرَ الدُّنيا كذا وكذا ألف سنةٍ، والباقي كذا وكذا ألف سنة، فهذا مُخَبَّلٌ مجنونٌ ليس عنده علمٌ من الشريعةِ، ولا عنده من العقلِ شيءٌ، فلا أحدَ يعلمُ ما يكونُ في المستقبَل، ولو سألتَ هذا الرَّجلَ: ماذا سيكونُ غداؤُك غدًا ما يستطيعُ أن يَجزِمَ بأنه يكونُ خُبزًا ولحمًا، فقد يكونُ خبزًا ولحمًا، وقد يَعزِمُه صاحبُه ويجعل له رُزًّا وكبسةً، إذن كيف يَدَّعِي هذا المجنونُ المخبَّلُ أن السَّاعةَ تكونُ في كذا وكذا. ومَن صَدَّقَه في ذلك فقد كَذَّبَ القُرآن؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرج البخاري: كتاب الفتن، باب خروج النَّار، رقم (٧١٢١)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط السَّاعة، رقم (٢٩٥٤) أن النبي ﷺ قال: «..وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلا يَتَبَايَعَانِهِ وَلا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلا يَطْعَمُهَا».

وهذا مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ، أعلمُ الخلقِ بما عند الله تَعَالَى من أحكامِ الشريعةِ، يقول لجبريلَ أعلمِ الملائكةِ بما عند الله عَزَّوَجَلَّ مِمَّا يُوحَى إليه، يقول: «مَا المسؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَم مِنَ السَّائِلِ».

أرجو يا إخواني ألا يَغُرَّنَّكُمْ أولئكَ الَّذِينَ يَكتبون في الصحفِ عن مثلِ هذه الأمورِ يَتَخَبَّطُونَ خبطَ عشواء، وإن شئتَ فقل: خَبطَ عَمياء، أو يكتبون عن الطَّالِعِ، وحُسنِ الطَّالِعِ؛ بُرجُ الحملِ فيه كذا وكذا، وبُرجُ الثَّورِ فيه كذا وكذا، وما أشبهَ ذلك. والظَّاهِرُ أنَّهم ثِيران! لأنَّه لا يعلمُ ما في المستقبَل إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فمَن زعمَ أن الطوالعَ والنجومَ لها تـأثيرٌ في الحوادثِ الأرْضيَّة فهو من المُنَجِّمِينَ، الَّذِينَ لا يجوز إطلاقًا أن نُصدِّقَهم فيما قالوا، بل نكذبُهم ونقول: كذبتمْ، وصدقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل:٦٥] فما أحدٌ يعرِف ذلك إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

لذلك -يا إخواني- لا تغترُّوا بهؤلاءِ ولا بكلامهم، وما أصابَ ما أصابَ من المسلمينَ اليومَ من التخيُّلات والأفكارِ والأزماتِ النَّفسيَّة إلا بمثل هذا التصديقِ، وما أكثرَ الأزماتِ النَّفسيةَ الآنَ؛ لأنَّه أصبحَ النَّاسُ قُلوبُهم فارغةٌ من التوكُّل على الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المنافقون:٤]، كلما أصابَهم شيءٌ قالوا: هذا مسٌّ مِنَ الجنِّ، ولو يُزكَم الإِنْسان زُكامًا عاديًّا قال: هذا مَسٌّ من الجنِّ، أو هذا عينٌ من حاسدٍ، أو هذا سِحرٌ، لكن لو أن النَّاسَ تَركوا هذه الأمورَ، وتوكلوا على اللهِ حقَّ التوكُّل، لَكفَاهُم؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطَّلاق:٣].

فتوكَّلْ على اللهِ يا أخي ولا تُطِعْ هَؤُلاءِ المشعوِذينَ، وهؤلاء الأفَّاكين، وهؤلاء الجمَّاعين، الَّذِينَ يريدون أن يَبْتَزُّوا أموالَ البشرِ بما لم يُنْزِلِ اللهُ به سُلطانًا، قال تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل:٦٥].

واقرأْ آياتِ السحرِ؛ لَمَّا ذكرَ اللهُ تَعَالَى السحرَ، وأن هَؤُلاءِ السحرةَ يتعلمونَ ما يفرقونَ بينَ المرءِ وزوجِه قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:١٠٢]، فتوكَّلْ على اللهِ يا أخي، واصدُقْ معَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في التوكُّل عليه، واترك هَؤُلاءِ المشعوِذينَ، واترك هَؤُلاءِ الأفَّاكين، واترك الطَّالِعَ؛ فهؤلاء يلعبونَ بعقولِ النَّـاسِ، فدَعوا هَؤُلاءِ يا أيها المسلمونَ، وواللهِ لن يُصِيبنا إلا ما كَتَبَ اللهُ لنـا. ولم يُصِبِ الإِنْسانَ مثلُ هذه الأمورِ المكذوبةِ المفتراةِ إلا بسببِ ضعفِه النَّفسيِّ، وضعفِه في توكلِه على اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ونَرجِعُ إلى الآيةِ: قال تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي ما يُعْلِمُكَ أيها الإِنسانُ بأن السَّاعةَ قريبٌ، وصَدَقَ ربُّنا عَزَّوَجَلَّ فالسَّاعةُ قريبةٌ، ويدلُّ لِقُرْبها أنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَاتمُ الأنبياءِ، إذن ليس هناك طُول، فالمسألةُ قريبةٌ، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**» وقال بالسبابة والوسطى[1]، يعني الفرق بين الوسطى والسبابة يَسِير، فبَعثة النبيِّ ﷺ من أشراطِ السَّاعةِ وتُعلِمُ بِقُربها.

ومع ذلك -يا إخواني- فـإن مَدَى عُمُر الإِنْسان الـواحد -وليس الجِنس- لا يمتدُّ إلى السَّاعة الكبرى، فعمر الإِنْسانِ أقرب من السَّاعةِ، يعني ساعةُ كلِّ واحدٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطَّلاق، باب اللعان، رقم (٥٣٠١)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط السّاعة، باب قرب السَّاعة، رقم (٢٩٥٠).

أقربُ من السَّاعةِ العظمى الكبرى، وهذا مُتأَكَّدٌ؛ لأنَّه لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يَصْعَقَ النَّاس ويموتوا.

فإذا كان كذلك أفلا يَجْدُرُ بنا -أيها المسلمون- أن نستعدَّ لهذه السَّاعةِ؛ ساعةِ الإِنْسانِ، الَّذِي لا يَدري متى تأتيه، فقد يخرجُ الإِنْسانُ من بَيتِه ولا يَرجِع إليه.

اللَّهُمَّ إنا نسألُك أن تجعلنا مستعدينَ لهذه القِيامَة، وأن تَرزقنا الإنابةَ إليك دائمًا.

ولهذا ينبغي للإِنْسانِ أن يُكثِرَ من ذكرِ اللهِ، حتَّى إذا أتاه اليقينُ فإذا هو على ذِكر اللهِ، وأن يُكثِرَ من التوبةِ والاستغفارِ، ولهذا قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي اليَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ**»[1].

ولهذا فكِّر يا أخي في نفسِكَ: هل أنت تفعلُ هذا؟ فإذا أردتَ أن تنامَ وأنت لم تُحِط علمًا بما استغفرتَ وتبتَ إلى اللهِ فاجلِسْ عَشْرَ دقائقَ أو أقلَّ، وقلْ: أستغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه مِئَةَ مَرَّةٍ، حتَّى تموتَ وقد فعلتَ ما فعله إمامُ المتَّقينَ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

فلنستعِدَّ للساعة الصغرى؛ ساعةَ كلِّ إِنْسانٍ، وهو لا يدري متى يموتُ، بل ولا يدري بأيِّ أرضٍ يموتُ، وليس الشأنُ أن تعرفَ متى تموتُ، ولا أن تعرفَ أين تموتُ، ولكنَّ الشأنَ كلَّ الشأنِ على أيِّ شيءٍ تموتُ؛ أَعَلَى الإيمانِ أم على الكفرِ. أمَّا أن تموتَ في أرضِكَ أو في أرضٍ أخرى، أو في شهرِك أو في شهرٍ آخرَ؛ فهذا لا يُهِمُّ كثيرًا، المهمُّ على أيِّ حالٍ تموت، أعلى الإيمانِ أو الكفرِ؟ أعلى التوحيدِ أو الشركِ؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢).

أسألُ الله تَعَالَى أن يَتَوَفَّاني وإياكم على الإيمانِ، وعلى التوحيدِ، وأن يَتَوَفَّانا وهو راضٍ عنَّا، إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ونعوذُ باللهِ من فِتنةِ المحيا والمماتِ، ومن فتنةِ المسيحِ الدجَّالِ.

ففكِّر يا أخي في قلبك، وانظر في القلبِ أمُخبت إلى الله أم لا؟ أصالِح أم فاسد؟ فإذا صلُح القلبُ صلحَ الجسدُ كله.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤]، لعنهم: أي طَرَدَهم وأبعدَهم عن رحمةِ اللهِ.

وأولُ الكَافِرينَ الَّذِينَ لُعِنوا هو إبليسُ، لعنه اللهُ، وطردَه، وأخرجَه من الجنةِ.

والكَافِرون ملعونونَ، لعنَهم الله، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهل الكَافِرُ هو المشرِك المُلْحِد أو اليهوديُّ أو النصرانيُّ؟

نقول: كلُّهم مَلعونونَ، فاليهودُ ملعونونَ، والنَّصَارَى ملعونونَ، والمشركون ملعونون، والشُّيُوعِيُّونَ الَّذِينَ لا يؤمنون بربٍّ ملعونونَ، وجميعُ الكفارِ ملعونونَ، ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أيّ كافرٍ، على أن اليهودَ والنَّصَارَى وردتْ فيهم اللعنةُ بخُصوصهم، قالَ النَّبِيُّ ﷺ وهو في مرض موتِه: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد**»[1]. إذن كلُّ كافرٍ ملعونٌ.

ومعنى اللعنُ: الطردُ والإبعادُ عن رحمةِ الله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصَّلاة، باب الصَّلاة في البيعة، رقم (٤٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٣١).

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أعدَّ: هَيَّأَ، وهيأَ لهم سَعيرًا أي: نارًا ذات سَعِير، وهذا يدلُّ على أن النَّارَ موجودةٌ الآن؛ فأعَدَّ الشيءَ أي: هيَّأه.

وهكذا جاءتِ السُّنَّة: كَسَفَتِ الشَّمسُ -والكسوفُ هو انحجابُ ضوءِ الشَّمسِ أو القمرِ- في عهد النبي ﷺ، فلمَّا ارتفعتْ قِيدَ رُمْحٍ -يعني مِقدارَ رُمحٍ- كَسَفَت كُسُوفًا كُلِّيًّا، حتَّى صارت كأنها قِطعة نحاس، فاضطربَ النَّاسُ، وخرجَ النبيُّ ﷺ فَزِعًا حتَّى لحِق بردائِه، وأمرَ مناديًا ينادي: الصَّلاةَ جامِعَة، فاجتمعَ النَّاسُ من رجالٍ ونساءٍ، وامتلأ المسجِدُ، وصلى بهم النبيُّ ﷺ صلاةً طويلةً غريبةً؛ أما كونها طويلةً فلأنه قرأَ فيها سُورَةً طويلةً جدًّا بقدْر سُورَةِ البقرةِ، حتَّى إن بعضَ الصَّحَابَة خرَّ مغشيًّا عليه من طُولِ الوقوفِ، فركع وأطالَ الرُّكُوع، ثمَّ رفع وقرأ الفاتحةَ وسورةً طويلةً، لكن دُونَ الأولى، ثمَّ ركعَ رُكوعًا طويلًا لكن دون الأولِ، ثمَّ رفع، وقام بقدر ركوعِهِ قِيامًا طويلًا، لكن ليسَ كقيامِ القراءةِ، ثمَّ سجدَ سجدتينِ طويلتينِ بقدْر الرُّكُوعِ، وبينهما جلوسٌ بقدْر السجدةِ. فصلى ركعةً واحدةً بركوعينِ وسجودينِ.

وقام إلى الركعة الثَّانيةِ وفعل كالأولى، إلا أنَّها أخفُّ في كلِّ ما يفعلُ، وسلَم، وخطبَ خطبةً عظيمةً، أود أن تَقْرَءُوها في (زاد المَعاد)[1] لابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له.

وفي صلاتِه هذه تأخَّرَ عن مكانِهِ حتَّى كادَ يبلغُ الصفَّ، وتقدَّم أيضًا، وأخبرَ -صلَّى اللهُ عَليهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّم- أنَّه تأخرَ لأنَّه عُرِضَتْ عليه النَّارُ وشاهدَها،

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٤٥٠ وما بعدها).

وخاف من لَفْحِها فتأخَّر[1].

ورأى فيها رجلين؛ أما الأولُ فهو عَمْرُو بنُ لُحَيٍّ الخُزَاعِيُّ رأسُ الكفرِ والعياذُ باللهِ، وهذا أولُ مَن أدخلَ الشركَ في العربِ، وسَيَّبَ السَّوَائِبَ، رآه يجرُّ أمعاءَه في النَّارِ. نسأل الله العَافيةَ، والثَّاني صاحبُ المِحْجَن، والمِحْجَنُ عَصًا طويلةٌ محنِيَّة الرأسِ، وكان يقف للحجَّاج؛ فإذا مرَّ الحَاجُّ شبكَ العصا في متاعِه، فإن فطنَ له الحَـاجُّ قال: والله المِحْجَنُ أمسكَ المتـاع وسقط، أما أنا فلم أعملْ شيئًا، وإن لم يشعرْ به الحَاجُّ ذهب به، إذن هو يسرِق الحجاجَ بمِحجنه، فرآه يُعَذَّب في ذلك.

وأما تقدُّمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فأخبرَ أنَّه تقدم لأنَّه عُرضت عليه الجنةُ فتقدَّم ليأخذَ منها عنقودًا من العنبِ ولكنه لم يأخذْ، وفي الحديث: «إِنِّي أُرِيتُ الجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا»[2] اللهُ أكبرُ، يعني لَكان باقيًا إما هو بذاتِه أو ما ينمو منه، اللهُ أَعْلَم. على كل حال هو لم يأخذْه، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَأُرِيتُ النَّارَ، فَلَم أَرَ مَنْظَرًا كَاليَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ». وصدق الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الشَّاهد من هذا أنَّه رأى الجنة ورأى النَّارَ، إذن الجنةُ والنَّارُ الآن موجودتان.

وقال تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٥] يعني لا يجدون أحدًا يتولَّاهم ويَرأَفُ بهم ويرحمُهم، ولا نصيرًا يَدفَعُ عنهم العذابَ، انتبه:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنَّار، رقم (٩٠٤).

(٢) أخرجه البخاري: أبواب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة، رقم (١٠٥٢)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنَّار، رقم (٩٠٧).

قال الربُّ عَزَّوَجَلَّ، وهو أعلمُ: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي: إلى الأبدِ، ولا نهاية.

وقد غلط مَن قال من النَّاسِ: إن عذابَ النَّارِ مؤقَّتٌ، وتفنَى النَّارُ ومَن فيها، وسُبْحَانَ الله! كيف يَجرُؤ إِنْسانٌ على هذا القولِ وربُّ العَالمينَ يقول: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾، ولكن كما قال شيخُنا عبدُ الرَّحمنِ بنُ السِّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَعليقٍ علَّقه على كتاب ابنِ القيِّم (شفاء العَليل في القضاء والقَدَر والحِكمة والتعليل) قال: «لكل جَوَادٍ كَبوةٌ، ولكلِّ صَارِمٍ نَبْوَة»(١).

والجملةُ الأخيرةُ «لكل صارمٍ نبوة» أنا في شكٍّ منها.

فهل يمكن أن نقولَ: عذابُ النَّارِ مُؤَقَّتٌ، والربُّ العليمُ عَزَّوَجَلَّ الخَالِقُ يقول: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾؟! فكيف نواجِهُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يومَ القِيامَةِ ونعتقدُ أنَّها غيرُ مؤبَّدةٍ وأنها مؤقَّتةٌ! لا يمكنُ أن نواجِهَ الله فنقول: إن عذابه مؤقَّت والله يقول: أبدًا.

وقد ذكر اللهُ تأبيدَ الخلودِ في النَّارِ في غير هذه الآيةِ؛ في آيتينِ أُخريينِ من كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أولاهما في سُورَة الجن: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

والثَّانية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [النِّساء:١٦٨-١٦٩].

فإذا كان الله صرَّح في كتابِهِ العزيزِ الَّذي ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢] في ثلاثِ آياتٍ من كتابِه عَزَّوَجَلَّ؛ أن أهلَ

(١) الصَّارم: السيف، ونبا السيف عن الهدف أي تجافى وبعد عنه. ويستعار هذا التركيب لمن يخطئ وليس من شأنه أن يخطئ ولا من عادته.

النَّارِ خالدون فيها أبدًا، فهل يَحِقُّ لنا أن نقول: إن عذابَ النَّارِ مؤقَّتٌ؟!

لا والذي فَلَقَ الحبَّةَ وبَرَأَ النسَمَةَ، لا يَحِقُّ لنا هذا. وهؤلاءِ جزاؤهم الخلودُ المؤبَّدُ؛ لأنهم أَفْنَوْا حياتَهم كلها بالتّكذيبِ والاستِكْبارِ، بعد أن جاءتهم الرسلُ، وقامت عليهم الحجَّة، فخسِروا الدُّنيا، فأضلَّهم اللهُ عن الآخِرة، وخسِروا الآخرةَ، ولا إشكال. يعني الأثر والنظر كِلاهما يدلُّ على أن الكَافِرين مُسْتَحِقُّونَ للعذاب المُؤَبَّدِ، أجارني الله وإياكم من النَّار. اللَّهُمَّ أجِرنا من النَّار، اللَّهُمَّ أجرنا من النَّار.



الدَّرس الحادي عشر:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبِيِّين، وإمَامِ المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قالَ اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٥٩] كانَ المنافقُونَ فِي المدينةِ إذَا مرَّت بِهمُ المرأةُ الحرَّةُ سَخِروا منْهَا إذَا كانتْ لم تسترُ وَجْهَها بِالجلبَابِ، وقَالوا: هذهِ أمةٌ، ولكنَّ اللهَ تَعالى بيَّنَ حكمَ ذلكَ، وأنَّه يجبُ عَلى المرأةِ أنْ تُدنيَ عَليها مِن جَلَابِيبِها، والجلبابُ عِبارةٌ عَن لفافةٍ تَشملُ المرأةَ كلها، فإذَا خرجتِ المرأةُ الحرةُ وعلَيْها جلبابٌ احتَرَمُوها، وعَرفوا أنَّها حرةٌ، ولَمْ يُؤْذُوها، ولمْ يُلَاحقُوها، بخلافِ مَا إذَا كانتْ غيرَ مُستترةٍ بِجلابيبَ.

ولهذَا لما حثَّ النبيُّ ﷺ النِّساءَ عَلى حضورِ صلاةِ العيدِ، قالتْ إِحداهنَّ: يَا رَسولَ اللهِ، المرأةُ ليسَ لها جِلبابٌ؟ قالَ: «**لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**»[1]، وهذَا يـدلُّ عَلى أنهُ لا بـدَّ عَلى المرأةِ أنْ تسترَ جميعَ بدنهَا لأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لها بِذلكَ.

وليُعْلَم أنَّ مَا ابتليَ بهِ كثيرٌ منَ النِّساءِ اليومَ مِن محبَّةِ التَّبرجِ وَالدعوةِ إلَيْه مخالفٌ لِما تَقتضيهِ الشَّريعةُ الإِسلاميةُ، والواجبُ عَلى المرأةِ أنْ تَتقيَ اللهَ فِي نَفسِها أَولًا، وفِي بِناتها ثَانيًا، وأنْ تحثَّ عَلى التسترِ وعدمِ التبرجِ بِالزينةِ، لَا منْ جهةِ الطِّيبِ، ولَا منْ جهةِ لونِ الثِّيابِ، ولا مِن جهةِ التجملِ بِالكحلِ وغيرِهِ، فإنَّ ذلكَ أحصنُ لها فِي دينهَا وَدُنْياها.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النِّساء في العيدين، رقم (١٤٨١).

ومَا هذهِ الحملةُ الَّتي يَشنُها اليومَ كثيرٌ منَ النَّاسِ فِي تبرجِ المرأةِ واتِّساعِها إلَّا مُخَالفة لِكتابِ اللهِ وسنةِ رَسولهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ، فَالواجبُ عَلى المرأةِ أنْ تتقيَ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وألَّا تخرج بِجمالٍ يفتنهَا ويفتنُ غيرها، فإنَّ الواجبَ أنْ تكونَ المرأةُ حييةً؛ لأنَّ الحياءَ منَ الإيمانِ[1]، كمَا قالَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ؛ ولِهَذا كانتِ المرأةُ مَضربَ المثلِ فِي الحياءِ، فتَرَاهم يَقولونَ: هذَا الرَّجلُ أشَدُّ حياءً منَ المرأةِ فِي خِدْرِها.

كذلكَ أيضًا يَتطلعُ بعضُ النِّساءِ الآنَ إلَى قيادةِ السيَّارةِ فِي البرِّ وفِي البلدِ، وهذَا غلطٌ عَلَيها؛ لأنَّه يَترتبُ عَلى تمكينها مِن ذَلكَ مَفاسدُ كثيرةٌ، وقَد كَتب فِي هذَا بعضُ أهلِ العلمِ وبينَ مفاسدَ ذلكَ، وأنَّه لَا يمكنُ أنْ تجابَ المرأةُ إلى قيادةِ السَّيارةِ، والحمدُ للهِ قَد أكثرَ اللهُ الرزقَ عَلى العبادِ فِي هذَا الوقتِ، كلُّ امرأةٍ تَستطيعُ أنْ تأتيَ بمنْ يقودُ لها سيَّارَتها، إمَّا مِن أَقَاربها وَمحَارمها، وإمَّا منَ الأجانبِ بِشرطِ ألَّا يَخلوَ بِها؛ لأنَّ الخلوةَ بالمرأةِ الأَجنبيةِ مُحرمةٌ كَمَا قالَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ»، قَالوا: يَا رَسولَ اللهِ أَرأيتَ الحموَ؟ قالَ: «الحَمْوُ المَوْتُ»[2]، والحموُ هُو قريبُ الزَّوجِ، وإنَّما قالَ ﷺ: «هُوَ المَوْتُ»؛ لأنَّ الحموَ إذَا دخلَ عَلى بيتِ حميمهِ لَم يُسْتَنْكَرْ ولمْ يُعْتَبْ عليهِ؛ لأنَّه منَ الأقارِبِ، فصارَ هوَ الموتَ، أيْ: صارَ أشدَّ منَ الرَّجلِ الَّذي يميتُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وفضلها، رقم (٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، رقم (٤٨٥٧)، ومسلم: كتاب السَّلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، رقم (٤٠٤٤).

كذلكَ أَيضًا فِي اللباسِ بعضُ النِّساءِ الآنَ تُحاوِلُ أنْ يكونَ لِبَاسُها فوقَ رُكْبَتِها، فَتكون كَنساءِ الكفارِ الَّذينَ نزعَ منهمُ الحياءُ، ولَم يُبالوا بعدمِ السَّترِ وَالحجابِ، وهذَا منَ المنكراتِ الظَّاهرةِ.

واللباسُ المشرُوعُ لِلمرأةِ مِن رَأسهَا إِلى إِبْهَامهَا، هذَا هوَ المشروعُ، وهذَا هوَ الذِي يَكون فِيهِ السترُ، وَالسَّلامةُ منَ الإِثمِ، والبعدُ عنِ الفاحشَةِ، فعلَى النسَاءِ أنْ يتقينَ اللهَ، وألَّا يَستمعنَ إِلى مَا يَدعو إِلَيْه بعضُ النَّاسِ اليومَ منْ تَساهلِ المرأةِ فِي لِبَاسهَا، وتَوسعهَا فيهِ، وفِي مُعَاملاتها، ومَا أَشْبَهَ ذلكَ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يَعْني أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بمغفرتِهِ وَرَحمته سَدَّ هَذا البابَ، أَيْ: بابَ تبرجِ النِّساءِ، وتَوسُّعهم فِي اللِّباسِ، وفِي قَولِهِ تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ دليلٌ عَلى أنَّ هذَا الفعلَ منَ الذَّنبِ الَّذي يَحتاجُ إِلى إِنابةٍ وتوبةٍ، وإِذَا تابتِ المرأةُ إِلَى اللهِ وغفرَ اللهُ لها زَال عَنْها الإِثمُ، ولمْ يكنْ عَلَيها أَي شيءٍ مِمَّا فَعلته منَ المحظُوراتِ.

وفِي الآيةِ دليلٌ عَلى أنَّ مَن تَسبَّب لِشخصٍ بذنبٍ؛ فإنَّ لهذَا المتسببِ فِي الإِثمِ نَصيبًا؛ لِقولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ثمَّ قالَ عزَّوَجلَّ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾، فَقولهُ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ يَعني عنْ إِيذاءِ المؤْمنينَ، والمنافقُ أشدُّ النَّاسِ عَداوةً لِلمؤمنِ، كَما قالَ عزَّوَجلَّ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤].

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يَعني وَينتهِي الَّذين فِي قُلُوبهم مَرضٌ، مَن لَيس مُنافقًا، وقد توعّدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذينِ الصِّنفينِ: المنافقينَ، والَّذين فِي قُلوبهم مَرض ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أَيْ: لنشدنكَ عَلَيهم حتَّى تُخرجَهم منَ المدينةِ ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ﴾ يَعْني المنافقينَ ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾، وفِي هذهِ الآيةِ التَّحذيرُ منْ إيذاءِ المنافقينَ، وألَّا يَنخدعَ الإِنسانُ فِي أَقْوالهمْ، وحُسْنهمُ المتغيرِ؛ كَما قَال عَزَّوَجَلَّ فِي سُورةِ المنافقينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ مِن حُسن نَظَرها وَهَيْئتها، حتَّى يقولَ قائلٌ: هذَا مِن أفضلِ عبادِ اللهِ، ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ منْ حسنِ بَيَانِهِمْ، وطَلَاقةِ أَلْسنِهم، فَيغترُّ فِيهمُ المغترُّ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يَعني يَظنونَ أنَّ كلَّ صَيحةٍ عَليهمْ، فَتجدهمْ فِي ذعرٍ وخوفٍ دائمًا ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بكَ منَ النفاقِ والشَّقاقِ، وسوءِ الأخلاقِ، اللَّهم إنَّا نَسألكَ يَقينًا لا شكَّ معهُ، وإِيمانًا لا كفرَ معهُ، وإِخلاصًا لا إشراكَ معهُ، ونَسألكَ اللَّهمَّ الفوزَ بِالجنةِ والنجاةَ منَ النَّارِ.



الدَّرس الثَّاني عشر:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، الحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ، وأُصلِّي وأسلِّم عَلَى نبينا مُحَمَّد خاتم النبيِّين وإمام المتَّقين، وعلى آله وأصْحابه ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ.

أيُّها الإخوة المؤمنون، إنَّ الله تَعَالَى بعثَ مُحَمَّدًا ﷺ بالهُدى ودينِ الحقِّ لِيُظْهِرَه عَلَى الدِّين كلِّه، بعثه الله عَزَّوَجَلَّ عَلَى حين فَترةٍ منَ الرسُل، وانطماسٍ من السُّبُل، فبصَّر اللهُ به أعيُنًا عُميًا، وفتَّحَ به آذانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلفًا، فبلَّغَ الرِّسالَة، وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأُمَّة، وجاهد فِي الله حقَّ جهادِه، حتَّى أتاه اليقينُ، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، وعلى آله وأصْحابِه ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ**:

فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قالَ فِي كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، ففي هَذِهِ الآية أخبرَ الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه وملائكته يصلون عَلَى النبيِّ -وهو مُحَمَّد ﷺ- هُوَ وملائكته كلهم.

ومعنى الصَّلاةِ عليه: أن الله يُثنِي عليه فِي المَلأِ الأعلى؛ كما قاله أبو العَالِيَةِ الرِّيَاحِيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: «صَلاةُ اللهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ المَلائِكَةِ»[1]. ولا شَكَّ أن هَذَا من رفعِ الذِّكرِ الَّذِي خصَّ اللهُ به مُحَمَّدًا ﷺ فِي قوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح:١- ٤].

ولما أخبرَ اللهُ عن هَذِهِ المَنقبةِ العظيمةِ لرَسولِه ﷺ وجَّه النداء إِلَى الَّذِينَ آمنوا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٥٤ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٤-٥٥].

واعلمْ يا أخِي المؤْمِنَ أن اللهَ تَعَالَى إذا قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فإن الأمر كما قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، يقول: «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فَأَصْغِ لها سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ تُصْرَفُ عَنْهُ»[1].

ويُصدِّر اللهُ عَزَّوَجَلَّ ما يُصدِّره من الأحكامِ أو الأخبارِ بهذا النداءِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ إشارةً إِلَى الاعتناءِ به والاهتمامِ به؛ لأنَّ توجيهَ الخطابِ إِلَى المخاطَبِ بالنداءِ يعني أن المتكلِّمَ يريدُ من المخاطَبِ أن يَنتَبِهَ.

ولهذا تجدُ الفرقَ بين أن أقولَ لك: مُحَمَّدٌ قائمٌ، وبين أن أقولَ لك: يا فُلَانُ، مُحَمَّدٌ قائمٌ، فإن هَذِهِ الجملةَ الأخيرةَ أشدُّ من الأُولى؛ لأنَّ ندائي إياك يعني أني أطلبُ منك الانتباهَ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: آمنوا بما يجب الإيمان به، وقد بيَّن رَسولُ الله -صلَّى اللهُ عليهِ وعَلى آلِهِ وسلَّم- الإيمانَ حين سألهُ عنه جبريل؛ قال: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[2]. فهذه ستَّةُ أصولٍ، فمَن لم يُؤمِن بهذه الأصولِ الستَّةِ فإنَّه لا إيمانَ له.

يقول الله تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ صلوا عليه يعني قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وسَلِّمُوا تسليمًا يعني قولوا: اللَّهُمَّ سَلِّمْ عَلَى

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١/ ١٣٠، رقم ٨٦٦)، وسعيد بن منصور في التفسير (١/ ٢١١، رقم ٥٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسْلام والقدر وعلامة السَّاعة، رقم (٨).

مُحَمَّدٍ، أو قولوا كما علَمنا رَسول الله ﷺ: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**»(١).

والإِنْسَانُ إذا سلَم عَلَى رَسولِ اللهِ ﷺ فِي أيِّ مكانٍ من الأَرْضِ فإنَّ تسليمَه يبلغُ النَّبيَّ ﷺ فِي أي مكانٍ، سواء سلَمتَ عليه عند قبرِه، أو فِي مَسْجِدِه، أو فِي مكةَ، أو فِي أي بُقعةٍ من الأرْضِ، فإن تَسليمَك يبلُغُ النَّبيَّ ﷺ، وهناك ملائكةٌ سيَّاحون فِي الأَرْضِ إذا سمِعوا مَن يُسلِّم عَلَى النَّبي ﷺ نقلُوه إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ وهذا الأمرُ للوجوبِ، فيجب علينا أن نصليَ عَلَى رَسولِ اللهِ ﷺ ونسلِّم عليه، وهو فرضٌ علينا فِي كل صلاةٍ، قالَ عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فقال النَّبي ﷺ: «**لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**»(٢).

والسَّلامُ إنَّما يُدعَى به مَن يَحتمل أن يكون ناقصًا، واللهُ عَزَّوَجَلَّ سالمٌ من كل نقصٍ، ولهذا كانَ من أسمائِه السَّـلام: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٣].

«**وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ للهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، رقم (٨٣٥)، ومسلم: كتاب الصَّلاة، باب التشهد في الصَّلاة، رقم (٤٠٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب صفة الصَّلاة، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، رقم (٨٣٥).

وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

إذن نقول: السَّلامُ عليك أيها النبيُّ. والمعنى: ندعو بالسَّلامِ عَلَى الرَّسُول بأن يَسْلَم من كلِّ آفةٍ، ومن كلِّ نقصٍ، ومن كلِّ أذًى فِي الدُّنيا وفِي الآخِرةِ. والنَّاسُ فِي الآخرةِ يحتاجون إِلَى السَّلامِ والسَّلامةِ؛ كما جاء فِي الحَدِيثِ الصَّحيح عنِ النَّبيِّ ﷺ حين تكلّم عن عبورِ الصراطِ: قال: «**وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»[1].

كذلك من السَّـلام عَلَى الرَّسُول ﷺ سـلامةُ شَريعتِه من أن يُنقِصها أحدٌ أو يَزيدُ فيها أحد، فإنك إذا قلتَ: السَّلامُ عليك أيها النَّبيُّ لا تعني السَّلام عَلَى شخصِه فحَسْب، بل حتَّى عَلَى سُنتِه؛ فإن سنةَ الرَّسُولِ ﷺ لها أعداءٌ كثيرون؛ أعداءٌ يصرِّحون بالعَداوَةِ وإنكارِ السنَّةِ، وأعداءٌ لا يصرِّحون بذلك، لكن مُقتضَى أعمالِهم ومُسْتَلْزَمات أعمالِهم تَعني أنَّهم يُنكِرون هَذِهِ السنَّة.

قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ قالَ بعض العُلَماء: إنَّه تجب الصَّلاة عَلَى النَّبي ﷺ فِي مَواضعَ:

منها: إذا ذُكر اسمُه، فإذا ذُكر اسمُ الرَّسُولِ عندك فصلِّ عليه؛ لأنَّ جبريلَ أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: «**رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِـرْتَ عِنْدَهُ فَلَم يُصَـلِّ عَلَيْكَ**» قال ﷺ: «**فَقُلْتُ: آمِينَ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصَّلاة، باب فضل السجود، رقم (٨٠٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص:٣٣٨، رقم ٦٤٦).

فإذا ذُكر الرَّسُولُ ﷺ عندك فصلِّ عليه، فإنْ لم تفعلْ فإن جبريلَ قد دعا عليك بأن يُرغَم أنفُك وأمَّن عَلَى هَذَا رَسولُ اللهِ ﷺ.

والثَّاني من المواضع الَّتِي تجب فيها الصَّلاة عَلَى النَّبِي ﷺ: التَّشَهُّد الأخير، فإن الصَّلاة عَلَى النَّبِي ﷺ فِي التَّشَهُّدِ الأخيرِ ركنٌ عند بعض العُلَماءِ؛ ركنٌ من أركانِ الصَّلاةِ لا تصحُّ الصَّلاةُ إِلَّا به، وواجبٌ من واجباتِ الصَّلاة عند آخرينَ، لا تصحُّ الصَّلاةُ إِلَّا به ما لم يسهُ الإِنْسَانُ عنه، وسُنةٌ من السُّنَنِ عند آخرينَ؛ ففي المسألةِ ثلاثةُ أقوالٍ:

والفرقُ بين الرُّكنِ والواجبِ فِي الصَّلاة أن الركنَ لا تصحُّ الصَّلاةُ إِلَّا به، حتَّى لو سهوتَ عنه وجبَ عليك أن تأتيَ به، وتسجدُ للسهوِ، والواجبُ إذا تركتَه سهوًا لم يجبْ عليك الإتيانُ به، ووجبَ عليك سجودُ السَّهْوِ، هَذَا هُوَ الفرق بينهما.

ثمَّ قالَ الله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هل أحد يستطيع أن يؤذيَ اللهَ ورَسولَه؟

الجوابُ: نعم؛ لأنَّ الله أثبتَ ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

وكيف هي أذيَّة الله؟ استمع إليها من كلام الله؛ قالَ النَّبِيُّ ﷺ فيما يَرويهِ عن ربِّه: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(١). فقال الله تَعَالَى فِي الحَدِيث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

أما أذيَّة الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقد أُوذِي ﷺ من المشركينَ، ومنَ المنافقينَ أذًى عظيمًا، فسُبَّ، ووُصفَ بأنه ساحِرٌ، وشاعرٌ، وكاهِنٌ، ومجنونٌ، وأُوذِيَ حتَّى فِي الأمورِ الَّتِي لا يُؤذَى بها أحدٌ دونه؛ كما كانت قُرَيْشٌ يَضَعُون القاذوراتِ عند عَتَبَةِ بابِه، وكما وَضَعُوا عليه سَلَى[1] الجَزُورِ[2] وهو ساجدٌ تحت الكعبةِ. فهم بلا شَكٍّ يُؤذُونَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وأذيَّةُ اللهِ ذكرتُ لها مثالًا، وهو سبُّ الدهرِ، يقول الإِنْسَانُ مثلًا: ما أقبحَ هَذَا الدَّهْرَ، ويسبُّه ويَلعَنُه فيقول: لعنةُ الله عَلَى هَذَا الدهرِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وما يَدري المسكينُ أَنَّه بسبِّه هَذَا قد سبَّ اللهَ؛ لأنَّ مدبِّرَ الدهرِ هُوَ اللهُ، فالدهرُ زمنٌ من الأزمانِ مخلوقٌ للهِ، يفعل اللهُ فيه ما يشاءُ، فإذا سببتَ الدهرَ فقد سببتَ ربَّك. ولهذا قالَ الله تَعَالَى: «**يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ**».

ومعنى قوله: «**أَنَا الدَّهْرُ**» ما ذكره بقوله: «**بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، وإلا فإن الله لَيْسَ هُوَ الدهر؛ لأنَّ الدهرَ هُوَ الزمنُ والوقتُ، ولكن اللهَ ربُّ الدهرِ الَّذِي يتصرَّف فيه كما يشاءُ ويدبِّرُه كما يشاء، ولهذا قال: «**بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**».

فإنْ قالَ قائلٌ: كيف تجمعُ بين إثباتِ الأذيَّةِ وبين قولِه تَعَالَى: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ**

---

(١) السلى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفا فيه، وقيل: هو في الماشية السلى، وفي النَّاس: المشيمة. النهاية (سلا).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلِّي قذر أو جيفة، لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي»(١) فنفى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبلغَ أحدٌ ضرَّه، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٤٤]، فنفى الله الضررَ عن نفسِه، وأثبتَ الأذيَّة، فهل بين هَذَا وهذا تناقضٌ؟

فالجوابُ: لا؛ لأنَّه لا يَلزَم من الأذيَّةِ الضررُ، فقد تحصل الأذيةُ ولا يحصلُ الضررُ، أرأيتَ لو أن شخصًا صَلَّى إِلَى جنبك وقد أكلَ ثُومًا أو بَصَلًا، فإنك تتأذى برائحتِه، ولكن لا تَتَضَرَّر.

ولهذا قالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيمن أكلَ بصلًا أو ثُومًا: «فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا؛ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»(٢)؛ لأنَّ الَّذِي أتي إِلَى المَسْجِدِ وقد أكلَ بَصَلًا أو ثُومًا ولم تذهبْ رائحتُه فإنَّه يُؤذي الملائكةَ؛ لأنَّ الملائكةَ فِي مساجدِ اللهِ، ولهذا نهى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يدخلَ الرَّجلُ المَسْجِدَ وفيه رائحةُ البصلِ والثومِ والكُرَّاثِ وما أَشْبَهَهَا؛ لئلَّا تتأذَّى منه الملائكةُ.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ قالَ العُلَماءُ: اللَّعنُ هُوَ الطردُ والإبعادُ عن رحمةِ الله، فإذا قلتَ: لعنَ اللهُ فُلَانًا فقد دعوتَ اللهَ أن يطردَه عن رحمتِه، وهذا من أعظم ما يكون عَلَى المدعوِّ عليه، ولهذا جاء فِي الحَدِيثِ «لَعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»(٣) يعني أن اللعنَ يؤدِّي

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب نهي من أكل ثُومًا أو بصلًا أو كراثًا أو نحوها، رقم (٥٦٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم (٦١٠٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإِنْسان نفسه، وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النَّار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١١٠).

إِلَى هلاكِ الملعونِ، وإلى فسادِ أمرِه؛ كما أن القتلَ يؤدِّي إِلَى هلاكِه وفسادِ أمرِه.

إذن لعنَهم اللهُ يعني طَرَدَهم وأبعدَهم عن رحمته فِي الدُّنيا والآخرة، ولهذا مَن آذى اللهَ عَزَّوَجَلَّ فإن الغالبَ عليه أَلَّا يهتديَ والعِيَاذُ باللهِ، ومَن آذى رَسولَ اللهِ فإن الغالبَ عليه أَلَّا يهتديَ، وإنْ كانَ الإِنْسَانُ قد يَهتدي، واللهُ عَلَى كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ كما هدى اللهُ تَعَالَى أقوامًا كثيرينَ من المشركينَ الَّذِينَ يؤذون اللهَ ورَسولَه، والقلوبُ بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

مَا حُكْمُ لعنِ المؤمنِ؟

لعنُ المؤمنِ من كبائرِ الذنوبِ، ولهذا جاء فِي الحَدِيث أن اللعنةَ إذا وُجهت لشخصٍ فإن كانَ أهلًا لها فهو أهلٌ لها، وإن لم يكن أهلًا لها عادتْ إِلَى قائلها(١)، فاحذرْ أن تلعنَ شخصًا لَيْسَ بأهلٍ للعنِ.

ولَعْنُ المعيَّنِ حرامٌ، حتَّى ولو كانَ كافرًا، فإنَّه لا يجوزُ لك أن تَلْعَنَهُ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى قد يرحمُه ويهدِيه إِلَى الإِسْلامِ.

ولـمَّا لعنَ النَّبِيُّ ﷺ أبا جهلٍ وغيرَه من أئمَّة الكُفر؛ قالَ اللهُ تَعَالَى له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨].

أما إذا كانَ المعيَّنُ قد ماتَ عَلَى الكُفرِ، فلا بأس بلعنِه، كما لو علِمتَ أن شخصًا من النَّاسِ ماتَ عَلَى الكفرِ فإن لعنَه جائزٌ، ولكن مَعَ ذلك لَيْسَ من الأفضلِ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في اللعن، رقم (٤٩٠٥)، أن رَسول الله ﷺ قال: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا».

أن تَلعَنه؛ لأنَّ المؤمنَ لَيسَ باللَّعَّانِ ولا بالطَّعَّان[1]، وقد كفاك اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الكَافِرَ إذا مات عَلَى كفرِه فهو مَلعونٌ، كما قالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

ثمَّ قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٨].

أذيَّةُ المُؤْمِنِينَ تكون بالقولِ، وتكون بالفعلِ.

فأذية المُؤْمِنِينَ بالقولِ مثل: السَّبّ، والشَّتم، واللَّعن، والرَّمي بالكذِب، وغير ذلك، فهَذَا من الأذيَّة القوليَّة.

والأذيَّةُ الفعليَّةُ مثل: الضربِ باليدِ، أو بالرِّجلِ، أو بغيرِ ذلك ممَّا تُؤذيه، ومن ذلك أيضًا: أخذُ مالِه، وكتمُ حقِّه، وغيرِ هَذَا من أنواعِ الأذيَّةِ، فمن آذى المُؤْمِنِينَ فقدِ احتملَ بُهتانًا وإثمًا مبينًا.

وأسألُ اللهَ تَعَالَى أن يجعلَنا وإياكم منَ المتَّعِظِينَ بكلامِه.



(١) أخرج الترمذي: أبواب البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة، رقم (١٩٧٧)، أن رَسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الفَاحِشِ، وَلَا البَذِيءِ».

الدَّرس الثَّالث عشر:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالِمين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقِينَ، وعَلى آلِهِ وَأصحَابِهِ ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب:٦٦].

قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ يعني الكَافِرين، ويقلَّبُ وجوهَهم خَزَنَةُ النَّارِ، وليس الأمرُ باختيارهم إنْ شاؤوا صَدُّوا وإن شاؤوا أَقْبَلوا.

قوله: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ ولكن فات الأوانُ، يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

وقال تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨].

المشْركونَ لهم رُءوسَاءُ يَأْمُرُونهم بالمنكَرِ، ويَنْهَوْنَهم عن المعروفِ، وهؤلاء الكَافِرونَ في النَّار يقولون: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾، والكبراءُ: الأُمَرَاء ومشايخُ الضلالِ، والسَّادةُ الأشرافُ، فكل قومٍ لهم شَرِيفٌ، ولهم سيِّدٌ، والكُبراءُ علماءُ الضلالِ وأمراءُ الضلالِ، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

فكان الجزاءُ أن قالَ المتبِّعون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ هذا يقولُه التَّابعون يومَ القِيَامَة للمتبوعينَ، لكن الآن ما يَنفعُهم، فلو قالوا

لِكُبرائِهم وساداتِهم في الدُّنيا هذا القولَ، وتركوهم وتجنَّبُوهم، واتَّبعوا الهدَى دون الهوَى؛ لَسَعِدُوا، لكن فات الأوانُ.

أسأَلُ اللهَ تَعَالَى أن يُحسِنَ لي ولكم الخَاتمةَ، وأن يجعل العَاقبةَ للمسلمينَ عُمومًا حميدةً، إنَّه على كل شيء قديرٌ.

والحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصَّالحَاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَم على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدَّرس الرَّابع عشر:

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا، ومنْ سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ.

أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ أي: أقرُّ بلسانِي وأومنُ بقلبِي أنهُ لا إلهَ -أي لا معبودَ حق- إلا اللهُ.

وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورَسولُه، أرسلَهُ اللهُ تعالى إلى العَالمينَ كافةً بشيرًا ونذيرًا، فبشرَ وأنذرَ، وبلّغَ وبصَّر، وتركَ أمتَه على بيضاءَ نقيةٍ، لا يزيغُ عنها إلا هالكٌ، فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلى آلهِ وأصْحابِه، ومَن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وأسألُ اللهَ تعالى أن يجعلَني وإياكُم ممن يتبعونَ بإحسانٍ.

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢].

أخبرَ اللهُ تعالى في هذهِ الآيةِ خبرًا مؤكدًا، وطريقُ التوكيدِ فيهِ كلمةُ (إن)؛ لأن كلمةَ (إن) تفيدُ التوكيدَ، وأتى بـ(إنا) بضميرِ الجمعِ الدَّالِّ على العظمةِ لأن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعظمُ من كلِّ عظيمٍ، وسلطانُه أقوى من كلِّ سلطانٍ.

قولُه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ عرضَهَا اللهُ تعالى على السَّماواتِ والأرْضِ عرضًا حقيقيًّا، وإن كانتِ السَّماواتُ والأرْضُ والجبالُ جمادًا ليسَ لها عقولٌ، لكنها بالنسبةِ للخالقِ لها عقولٌ وإدراكٌ، فتدركُ وتَعقلُ وتفهمُ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

فخاطبَهُما اللهُ عَزَّوَجَلَّ بخطابٍ واضحٍ بيِّنٍ: ائتيا طوعًا أو كرهًا، فقالتَا: أتينا طائعينَ للهِ عَزَّوَجَلَّ متذللينَ لهُ.

وقالَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَم، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟» فخاطبَ اللهُ تعالى الجمادَ قالَ لهُ: اكتبْ، ورد الجوابُ بقولِه: ماذا أكتبُ؟ يعني أنهُ مستعدٌّ للكتابةِ لكنهُ لا يَدري ماذا يكتبُ، قالَ اللهُ تعالى «اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[1]. فجرَى في تلكَ السَّاعةِ بما هوَ كائنٌ إلى يومِ القيامةِ.

والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا؛ أن اللهَ تعالى يخاطبُ مَن ليسَ لهُ عقلٌ وإدراكٌ، لكنهُ بالنسبةِ لخطابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يكونُ عاقلًا مُدركًا، ممتثلًا مطيعًا.

الأمانةُ في حقِّ اللهِ:

قالَ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾، والسَّماواتُ والأرْضُ والجبالُ مخلوقاتٌ عظيمةٌ، عرضَ اللهُ عليها الأمانةَ لتتحملها، ولكنها أبتْ لأنها لا تستطيعُ، ولهذا قالَ اللهُ: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾؛ لعدمِ استطاعتهنَّ لحملِ الأمانةِ، ولكن حملها الإِنسانُ الضعيفُ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ن، رقم (٣٣١٩).

ظلومًا لنفسِه، جهولًا بحقِّ ربِّه، فالإنْسانُ في الأصلِ ظلومٌ، والإِنْسانُ في الأصلِ جهولٌ، لكنِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوفِّقُ مَن شاءَ مِن عبادِه حتى يكونَ عدلًا في حكمِه، عليمًا بفعلِه، وإلا فإن الأصلَ في الإِنْسانِ أنهُ ظلومٌ جهولٌ.

فما هذهِ الأمانةُ؟ الأمانةُ تتعلقُ بحقِّ اللهِ، وتتعلقُ بحقِّ المخلوقِ:

منَ الأمانةِ في حقِّ اللهِ أن تَعبدَ اللهَ تعالى بشرعِهِ:

أما تعلقُها بحقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فالأمانةُ في حقِّ اللهِ أن تعبدَ اللهَ تعالى بشرعِه، مخلصًا له الدينَ؛ فمنِ ابتدعَ في الدينِ فإنهُ لم يَقمْ بالأمانةِ، ومنِ ابتدعَ في دينِ اللهِ ما ليسَ منهُ فإنه لم يتحملِ الأمانةَ، ولم يقمْ بحقِّ الأمانةِ، ولم يقمْ بمسؤوليَّتِها؛ لأن الواجبَ على العبدِ ألا يَمشيَ إلا على الطَّريقِ الذي رُسمَ لهُ، أما أن يعبدَ اللهَ بهواهُ فإنهُ ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١]، ولوِ اتبعَ الحقُّ أهواءَهم لتنازعَ النَّاسُ، ولتفرقُوا في دينِ اللهِ، ولكانَ هذا يختارُ هذا، وهذا يختارُ هذا، ولم يكنْ للناسِ دينٌ قويمٌ.

ولذلكَ شدَّدَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ في التحذيرِ من البدعةِ؛ حتى إنهُ ليقولُ ذلكَ في خطبِ الجمعةِ، يقولُ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**»(١).

فلا يوجدُ في الأمورِ شيءٌ أشدُّ منَ البدعِ شرًّا، هكذا قالَ المعصومُ ﷺ: «**شَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**» يقولها إعلانًا على المنبرِ في كلِّ جمعةٍ، تحذيرًا منها؛ لأن البدْعةَ ضلالةٌ كما قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**». حتى وإنِ استحسنَ المبتدعُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصَّلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

بدعتَه، ولو لانَ لها قلبُه، ولو دمعتْ لها عينُه، فإنها باطلةٌ، لا تزيدُهُ منَ اللهِ إلا بعدًا، ألم ترَوْا أن المبتدعَ حقيقةُ فعلِه أنهُ لم يُصدقْ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ لأنهُ اتخذَ دينًا لم يأتِ بِهِ اللهُ ورَسولُه، وإذا اتخذَ دينًا لم يأتِ بِهِ اللهُ ورَسولُه، فمقتضَى ذلكَ أن الدينَ لم يَكملْ إلا ببدعةٍ، وهذا يتضمنُ أن قولَه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ليسَ كذلكَ، وهذَا أمرٌ خطيرٌ.

ألم ترَوا أن البدعةَ خروجٌ عن سبيلِ رَسولِ اللهِ ﷺ وعن سبيلِ الصَّحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن الرَّسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والصَّحابةَ لم يفعلُوها، إذنْ إذا فعلتَها متقربًا بها إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنكَ خارجٌ عن سبيلِ اللهِ، وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّساء:١١٥]، ولكنِ الشَّيْطانُ يزينُ لأهلِ البدعةِ بدعتَهم، ويحسِّنُها في قلوبِهم، ويَركنُ إليها، ويطمئنونَ إليهَا، كما يزينونَ الفسوقَ والفجورَ لأهلِ الفسقِ والفجورِ ولا فرقَ، بل إني أقولُ: إن ضررَ الفتنةِ وشرَّ الفتنةِ أعظمُ مِن شرِّ الفجورِ والفسوقِ؛ لأن البدعةَ يتخذُها صاحبُها دِينا، ويغترُّ بها مَن يغترُّ بها منَ النَّاسِ، وتبقى سنةً متبوعةً إلى ما شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

لذلكَ يا أخي المسلمُ احذرِ البدعةَ؛ فإن البدعةَ تُخلُّ بمسؤوليةِ الأمانةِ.

منَ الأمانةِ في حقِّ اللهِ: الإخلاصُ:

كذلكَ أيضًا منَ الأمانةِ في حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الإخلاصُ لهُ، فلا تعبدِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مِن أجلِ أنْ يراكَ النَّاسُ، فيمدحُوك، فالمخلصُ لا يهمُّه النَّاسُ مدحُوه أو ذمُّوه،

وإنما يعتني بما يُرضي اللهَ عَزَّوَجَلَّ سواءٌ مَدَحَهُ النَّاسُ أو لم يمدحُوه، وسواءٌ ذمَّهُ النَّاسُ أو لم يَذمُّوه، فهو لا يريدُ إلا شيئا واحدًا، وهوَ رضَا اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والوصولُ إلى كرامتِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فالمخلصُ لا يهمُّهُ النَّاسُ، فيصلِّي حيثُ يراهُ النَّاسُ ويصلِّي حيثُ لا يراهُ النَّاسُ، ويقنتُ في صلاتِه ويخشعُ ويطمئنُّ، سواءٌ رآهُ النَّاسُ أو لمْ يَروْهُ. والمخلِصُ يتصدقُ ويتقربُ إلى اللهِ تعالى ببذلِ ماله المحبوبِ إليهِ، سواءٌ رآهُ النَّاسُ أو لم يرَهُ النَّاسُ. والمخْلِصُ يصومُ سواءٌ علِمَ النَّاسُ بصيامِه أو لم يَعلمُوا.. إلى آخرِ ما يكونُ من العِبادَاتِ؛ لأن المخلصَ لا يريدُ بعملِه إلا وجهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ورضوانَه.

واستمعْ إلى وصفِ الرَّسولِ ﷺ وأصْحابِه؛ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لماذا؟ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩]، لا يريدونَ سِوى ذلكَ.

وهذا الإخلاصُ صعبٌ على النفوسِ، أعانني اللهُ وإياكُم على تحقيقِه، قالَ بعضُ السَّلفِ: «ما جاهدتُ نفسي على شيءٍ مجاهدتَها على الإخلاصِ».

فيستطيعُ الإنْسانُ أن يقومَ ويُصلِّي ولا يَتحركُ إلا بحركاتِ الصَّلاةِ، ويستطيعُ أن يتصدقَ ويبذلَ المالَ، ولكن الإخلاصُ محلُّه القلبُ، والإخلاصُ صعبٌ، ولذلكَ كانَ الحسابُ يومَ القيامةِ على ما في القلبِ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطَّارق:٨-٩].

فالحسابُ يومَ القيامةِ على ما في القلبِ، والحكمُ في الدُّنيا على ما في الجوارحِ، ولهذا عاملَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ المنافقينَ معاملةَ المسلمينَ، معَ

أَنَّهمْ مُنافِقونَ، ويعلمُ بنفاقِهم، لكن ظاهرُهم الإسْلامُ، فتركَهُم على الظَّاهرِ، أما يومُ القيامةِ فالعملُ على ما في القلبِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطَّارق:٨-٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ [العاديات:٩-١١]. أسألُ اللهَ أن يُخلصَ سريرتي وسريرَتكم.

فالمدارُ على الإخلاصِ صعبٌ، لكنهُ يسيرٌ على مَن يَسرَهُ اللهُ عليهِ.

إذنْ منَ الأمانةِ في حقِّ اللهِ الإخلاصُ، فلا تَبتغي في عملِ الآخرةِ شيئًا مِن عملِ الدنيَا، فعملُ الآخرةِ للآخرةِ، وعملُ الدنيَا للدنيَا.

الأمانةُ في حقِّ الخلقِ:

أما الأمانةُ في حقوقِ الخلقِ فما أكثرَها؛ فمنهَا مثلًا الأمانةُ في البيعِ والشراءِ، والأمانةُ في البيعِ والشراءِ أن يكونَ الإنْسانُ صادقًا، وأن يكونَ مُبينًا صادقًا فيما يخبرُ بهِ عن صفاتِ المبيعِ، مُبينًا ما في المبيعِ مِن صفاتِ العيبِ حتى يكونَ المشتري على بصيرةٍ منَ الأمرِ؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «**البيِّعَانِ بالخِيَارِ ما لَم يَتفرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»[1].

فعليكَ بالصدقِ، وعليكَ بالبيانِ، فإذا قالَ لكَ قائلٌ: هذهِ السلعةُ بكم سِيمَتْ؟ وقد سِيمَتْ بمئةٍ، فلا تقلْ: سِيمَتْ بمئةٍ وعشرةٍ، بل قلْ: سِيمَتْ بمئةٍ، فاصدقْ، والرزقُ الحلالُ وإن قلَّ خيرٌ منَ الحرامِ وإن كثُرَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، رقم (٢١١٠)، ومسلم: كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان، رقم (١٥٣٢).

وإن قالَ لكَ رجلٌ وأنتَ تَعرِضُ السلعةَ: هل فيها عيبٌ؟ وأنتَ تعلمُ أن فيها عيبًا، ولكنكَ قلتَ لهُ: هذا المنظورُ ولا تَسألنِي، فهذا حرامٌ عليكَ؛ لأنكَ لم تُبينْ، فيجبُ عليكَ البيانُ.

ولهذا يُخطئُ كثيرٌ من باعةِ السياراتِ في المعارضِ تحتَ الميكروفون كما يقولونَ، فتجدهُ يعرضُ السيارةَ ويعرفُ أن فيها العيبَ الفلانيَّ ثم يسومُ عليها، فإذا قالَ الزبونُ: هل فيها عيبٌ؟ قالَ: أبدًا، أنا ما أبيعُ لكَ إلا الكفرات[1] الأربعةَ فقطْ، أو الكبُّوت، أو الهَيْكل، وهُو يعلمُ أنَّ فيها عيوبًا، لكنهُ يكتمُها عنِ المشتري.

فهذا لا شكَّ أنهُ حرامٌ، وللمشتري الخيارُ فيها بعدُ إذا علمَ أن البائعَ قدْ علمَ بالبيعِ وكتمَهُ؛ لأنهُ مغرورٌ مخدوعٌ، لكن لو قالَ البائعُ: أنا ما قلتُ شيئًا، أنا قلتُ: أنا بعتُ عليكَ الكفرات، فيقولُ: لو أنكَ بيَّنتَ العيبَ لوجدتَ أن القيمةَ سوفَ تهبطُ بلا شكٍّ، فالمشتري إذا لم تُبينْ لهُ العيبَ سيشترِي وهو مُخاطِرٌ، ويزيدُ في الثمنِ، لكن إذا تبينَ العيبُ لهُ لا بدَّ أن يعطيَ هذه السلعةَ ما تستحقُّه من قيمةٍ.

ومنَ الأمانةِ أيضًا أن الإِنْسانَ إذا اشترى شيئًا بعشرةٍ مثلا وقيلَ لهُ: بكمْ اشتريتَه؟ فقالَ: بعشرينَ، لأجل أن يكسبَ، فهذا حرامٌ، وهذا خلافُ الأمانةِ.

ومنْ ذلكَ أيضًا أن البائعَ يكونُ لهُ عندَ البيعِ ثمنانِ، ثمنٌ للشطارِ الَّذينَ يماكسُونه، وثمنٌ للبسطاءِ، فإذا سألَه الغلامُ أو المرأةُ: كم قيمةُ هذهِ السلعةِ؟ قالَ: مئةٌ، وإذا أتاهُ الرَّجلُ الشَّاطرُ يقولُ: كمْ قيمةُ هذهِ السلعةِ؟ قالَ: مئةٌ، ثم لا يزالُ بهِ حتى يبيعَها عليهِ بخمسينَ أو بستينَ، وقد باعَها على الغلامِ والمرأةِ بمئةٍ، فهذا منَ

---

(١) أي إطارات السيارة.

الحرامِ، ولا يحلُّ لهُ أن يستغلَّ غفلةَ النَّاسِ وجهلَهُم.

نعمْ لو فُرِضَ أن شخصًا قالَ للمشتري: هذهِ بمئةٍ، وهوَ سَيبيعُها بثمانينَ، لكنْ قالَ: بمئةٍ لأن بعضَ النَّاسِ يماكسُ حتى تصلَ إلى ثمانينَ، فهنا إذا قالَ: بمئةٍ بناءً على أن أكثرَ النَّاسِ يماكسُ، يعني ينزلُ وينزلُ، ثم تهيأَ المشتري لشرائِها بمئةٍ، فهنا يجبُ عليهِ أن يقولَ: يا أَخي، أنا قلتُ لكَ: بمئةٍ لأن بعضَ النَّاسِ إذا حددتُ لهُ الثمنَ نازلَني في الثمنِ حتى يصلَ إلى ثمانينَ، وأنا أبيعُها عليكَ بثمانينَ، فهذا جائزٌ ولا بأسَ بهِ، أما أن يستغلَّ غفلةَ النَّاسِ وجهلَهم بالثمنِ، ويَبيعُ عليهمْ ما يُساوي ثمانينَ بمئةٍ، فهذا لا يجوزُ، فعليكَ بالأمانةِ.

الأمانةُ في الولايةِ:

ومنَ الأمانةِ العظيمةِ أداءُ الأمانةِ بالنسبةِ للولايةِ، ومنَ المعلومِ أن النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ قالَ: «لا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ»[1]، وأن المرأةَ مهما بلغتْ منَ العقلِ والذكاءِ فإنهُ لا يمكنُ أن تُزوجَ نفسَها، سواءٌ كانتْ بكرًا أم ثيبًا، فلا بدَّ من أن يَتولى عقدَ النكاحِ عليهَا وليٌّ مِن أوليائِها، وبعضُ النَّاسِ -والعياذُ باللهِ- يخونُ الأمانةَ في هذا الأمرِ، فيأتيهِ الرَّجلُ الكفءُ في دينِه وخُلقِه، وترضاهُ المرأةُ، ولكنهُ يحجزُها ويقولُ لهذا الخَاطبِ: إنها قدْ فاتتْ، وهوَ يريدُها لابنِ صديقِه، أو لابنِ عمِّه، أو لأحدٍ يَزيدُه مالًا؛ لأنهُ يعلمُ أن هذا الخَاطبَ صاحبُ الخلقِ والدينِ إذا أعطاهُ مهرًا سيعطِيهِ مهرًا متواضعًا، لكنهُ ينتظرُ شخصًا يعطيهِ مهرًا عاليًا رفيعًا، فيريدُ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب في الولي، رقم (٢٠٨٥)، والترمذي: أبواب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي، رقم (١١٠١)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، رقم (١٨٨١).

شخصًا يعطيهِ مِئةَ ألفٍ، ويعطيهِ سيارةً كاديلاك، وما أشبهَ ذلكَ، فهذا لا يريدُ أن يزوجَ ابنتَه صاحبَ الخلقِ والدينِ لأنهُ يريدُ أن يَبيعَها كأنها سلعةٌ.

فهذا -واللهِ- منَ الخيانةِ العظيمةِ؛ ولهذا قالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال:٢٧-٢٨].

خيانةُ الوظيفةِ:

ومنَ الخيانةِ ما يَفعلُه بعضُ النَّاسِ بالنسبةِ لوظائفِ الدولةِ، فتجدهُ موظفًا حُدِّدَ لهُ زمنُ العملِ منَ السَّاعةِ الفلانيةِ إلى السَّاعةِ الفلانيةِ، ثم يتأخرُ في المجيءِ، ويكتبُ في زمنِ الحضورِ أنهُ أتى في الوقتِ المحدَّدِ، وليكنِ الوقتُ المحدَّدُ السَّاعةَ السَّابعةَ والنصف صباحًا، فيأتي السَّاعةَ العَاشرةَ والنصف، فيكونُ بَخَسَ[1] منَ الوقتِ ثلاثَ ساعاتٍ، ومعَ ذلكَ يقيِّدُ أنَّهُ أتى في السَّاعةِ السَّابعةِ والنصفِ، فتضمَّنَ هذا كذبًا وخيانةً وأكلًا للمالِ بالباطلِ؛ لأنهُ سوفَ يأخذُ راتبَه تامًّا، معَ أنهُ ناقصٌ، فيكونُ أخذَ مالا بغيرِ حقٍّ، ومعَ ذلكَ لا يهتمُّ بهذا الأمرِ، ولو نَقصَ مِن راتبِهِ ريالٌ واحدٌ لطالبَ بهِ، وهوَ يُنقصُ من وظيفتِه السَّاعاتِ الكثيرةَ ولا يهتمُّ بذلكَ، فهذا ليسَ منَ الأمانةِ، بلْ إنهُ -واللهِ- مسؤولٌ عن ذلكَ يومَ القيامةِ، وما اكتسبَه منَ المالِ بغيرِ الحقِّ فإنما يأكلُه سحتًا والعياذُ باللهِ.

كذلكَ أيضًا منَ الموظفينَ مَن يخونُ الأمانةَ في التوظيفِ، فتجدهُ يتقدمُ إلى الوظيفةِ عددٌ منَ النَّاسِ، فينظرُ ابنَ صديقِه، أو ابنَ قريبِه، أو ينظرُ مَن يعطيهِ مالا

---

(١) بخس: نقص.

فيُقدمهُ في الوظيفةِ، معَ أن غيرَه قدْ تقدمَ قبلَه لكن يحابي هذا ويُراعي قرابتَه أو صداقتَه أو غناه، أو ما أشبهَ ذلكَ، فهذا -واللهِ- ليسَ منَ الأمانةِ، بل هذا منَ الخيانةِ العظمَى، وهوَ في الحقيقةِ ظلمٌ للدولةِ، وظلمٌ لنفسِ المتقدمِ؛ لأنهُ تبوأَ مكانًا لا يستحقُّه وحَرَمَ منهُ مَن يستحقُّه، وهذا لا شكَّ مِن أعظمِ الخيانةِ. وقدْ وردَ الوعيدُ الشديدُ في مَن ولاهُ اللهُ أمرًا فولى عليهِ مَن ليسَ أهلا لَهُ[1].

حفظُ الأسرارِ:

كذلكَ أيضًا منَ الأمانةِ في معاملةِ الخلقِ الرَّجلُ يُفضي إليكَ بكلامٍ ويقولُ: هذا بيني وبينكَ، يعني سرًّا، فيصبحُ الرَّجلُ يتحدثُ بهذا الكلامِ؛ قالَ لي فلانٌ وقالَ لي فلانٌ، وبعضُ النَّاسِ يتحدثُ بمثلِ هذا فيتزينُ بهِ عندَ النَّاسِ، كأنهُ يقولُ للناسِ: أنا رجلٌ يأتيني النَّاسُ ويستشيرُونَني ويخبرُوني، أنا أتصلُ بالمسؤولينَ وأقولُ لهمْ كذا ويقولونَ لي كذَا، وما أشبهَ ذلكَ، لكنِ المسكينُ قد خانَ الأمانةَ، وليسَ منَ الحكمةِ أبدًا أن يتكلمَ أحدٌ معَ المسؤولينَ في أمرٍ منَ الأمورِ ثم يصبحُ يحدثُ بهِ النَّاسَ، فهذا ليسَ منَ الأمانةِ، وليسَ منَ الحكمةِ، وليسَ من طريقِ السَّلفِ.

ولهذا لما قيلَ لأسامةَ بنِ زيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ألا تحدثُ فلانًا مِن ولاةِ الأمورِ بكذا وكذا، فقالَ: «أَتَرَوْنَ أَنِّي لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا أُسْمِعُكُمْ؟ وَاللهِ لَقَدْ كَلَمتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٦)، وفيه: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلا عَدْلاً حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ، وَمَنْ أَعْطَى أَحَدًا حِمَى اللهِ فَقَدِ انْتَهَكَ فِي حِمَى اللهِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، أَوْ قَالَ: تَبَرَّأَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، رقم (٢٩٨٩).

وهذهِ هيَ الحكمةُ، فاجعلِ الكلامَ بينَك وبينَ ولاةِ الأمورِ سرًّا، سواءٌ رضيَ النَّاسُ أم لم يَرضَوا، فقدْ يُلقي بعضُ النَّاسِ باللائمةِ على شخصٍ منَ النَّاسِ يقولُ: إنكَ ما تكلمتَ، ولا أنكرتَ، ولا فعلتَ، ولا تركتَ، نقولُ: سبحانَ اللهِ! أتريدونَ كلَّ مَن كلمَ المسؤولينَ في مسألةٍ أن يُعلنَها للناسِ، فهذهِ مَفسدةٌ، وليسَ منَ المصلحةِ في شيءٍ، فالمصلحةُ والحكمةُ هيَ الوصولُ إلى المقصودِ بأيِ وسيلةٍ، أما الإعلانُ والإشهارُ وما أشبهَ ذلكَ فهذا ليسَ منَ الحكمةِ، بلْ قدْ تكونُ النتيجةُ عكسيةً.

مَن يُحدثُ النَّاسَ بما كانَ بينَه وبينَ أهلِه:

كذلكَ منَ الأمانةِ ما يكونُ بينَ الرَّجلِ وبينَ أهلِه، وقدْ جعلَ النبيُّ ﷺ ذلكَ مِن شرِّ المنازلِ يومَ القيامةِ: **«إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»**(١).

وهذا قدْ يفعلُه بعضُ السفهاءِ ويتبجحُ بهِ، يقولُ: فعلتُ في امرأتي كذا وكذَا بينَ أصْحابِهِ؛ تبجحًا واستهتارًا، وهذا -والعياذُ باللهِ- مِن شرِّ النَّاسِ منزلةً يومَ القيامةِ، فلا يحلُّ للإنسانِ أن يتحدّثَ بما يجري بينَه وبينَ أهلِه مهما كانتِ الظروفُ؛ لأنهُ منَ الأمورِ السريةِ التي لا يجوزُ لأحدٍ أن يَطلعَ عليهَا، لذلكَ لا يجوزُ للإنْسانِ أن يُحدثَ بما صنعَهُ معَ أهلِه.

الغشُّ في الاختباراتِ:

ومنَ الأمانةِ العظيمةِ مسألةُ الاختباراتِ في وضعِ الأسئلةِ، وفي المراقبةِ، وفي التصحيحِ، فهذهِ ثلاثةُ مواضعَ: في وضعِ الأسئلةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم (١٤٣٧).

الأمانةُ في وضعِ الأسئلةِ:

فيجبُ على واضعِ الأسئلةِ أن يختارَ مِن الأسئلةِ ما كانَ مُتوسطًا، لا صعبًا فيعجِز التلاميذُ، ولا سهلًا فينجحَ بهِ مَن لا يستحقُّ النجاحَ. ومنَ الأمانةِ في وضعِ الأسئلةِ ألا يشيرَ المدرسُ إلى مواضعِ الأسئلةِ منَ الكتابِ، فإن بعضَ المدرسينَ -نسألُ اللهُ لنا ولهمُ الهدايةَ- يقولُ: هذا مهمٌّ، هذا غيرُ مهمٍّ، يعني الأسئلةُ تكونُ منْ هذا المهمِّ، وغيرُ المهمِّ ليسَ فيهِ أسئلةٌ، فهذا حرامٌ، ولا يجوزُ؛ لأن هذا إشارةٌ إلى موضعِ السؤالِ.

الأمانةُ في المراقبةِ:

كذلكَ أيضًا في حينِ المراقبةِ بعضُ النَّاسِ يتغافلُ عن بعضِ التلاميذِ؛ إما لقرابتِه منهُ، أو لصداقتِه لأبيهِ، أو لغناهُ ويرجُو مِن ورائِه شيئًا، أو لفقرِه؛ فقدْ يرحمُ الطَّالبَ لفقرِه، يقولُ: دعوهُ ينجحُ. واستمعْ إلى قولِ اللهِ تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النِّساء:١٣٥]، فلا تراعوا الغَنِيَّ لِغِناهُ، ولا الفقيرَ لفقرِه، واللهُ أولى بهما.

إذنْ في المراقبةِ يجبُ على الإِنْسانِ أن يكونَ فطنًا قويَّ الملاحظةِ، وليعلمْ أن للتلاميذِ طرقًا كثيرةً في مسألةِ الغشِّ، ولا أحبُّ أن أشرحَها الآنَ، أو أشيرَ إليها؛ لأني أخشَى أن يَعلمَ بها مَن لا يعلمُ ثم يأتي بها.

قيلَ: إن بعضَ المراقبينَ سألَهُ أحدُ التلاميذِ فقالَ لهُ: يا أستاذُ، ما تقولُ في جوابِ هذَا؟ فقالَ المراقبُ: انتبهْ، ليس هناكَ غِشٌّ. فقالَ التلميذُ: أعوذُ باللهِ! «مَنْ

سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)]. ما شاءَ اللهُ! التلميذُ في هذا الموضعِ يعرفُ كيفَ يستدلُّ، ولا يجبُ على المراقبِ في هذهِ الحَالِ إذا سُئِلَ عن مسألةٍ أن يجيبَ، بلْ يقولُ لهُ: أهلا وسهلًا، أنا أجيبُكَ ولكنْ فقطْ سلّمِ الورقةَ، فإذا سلّمَ الورقةَ فإنهُ يجيبُه، لكنْ في حالِ كتابةِ الجوابِ لا يُجيبُه أبدًا، ولا يحلُّ لهُ أن يُجيبَه، وإذا أوردَ عليهِ هذا الحديثَ يقولُ: مرحبًا، أنا أخبرُكَ بهذا بعدَ تسليمِ الورقةِ.

الأمانةُ في التصحيحِ:

كذلكَ أيضًا الموضعُ الثَّالثُ في مسألةِ الأسئلةِ: التصحيحُ، فيجبُ على المصحح أن يعلمَ أنهُ كالقاضِي بينَ يديِ الخصمينِ؛ لأن أوراقَ الطلبةِ كحججِ الخصومِ، فأنتَ بينَ هذهِ الأوراقِ كالقاضِي بينَ أيدِي الخصومِ، فيجبُ عليكَ ألا تراعيَ أحدًا، فمَن أجابَ بالصَّوابِ قُيدَ مُصيبا، ومنْ أجابَ بالخطأِ قَيدْه خطأً.

أحيانًا يعرفُ المصححُ الطَّالبَ وأنهُ جيدٌ، ويعرفُ أنهُ أجابَ بالصَّوابِ، لكنهُ فهمَ السؤالَ على غيرِ المرادِ، وأجابَ جوابًا صوابًا مئةً بالمئةِ لكن بناءً على فهمِه للسؤالِ الفهمَ الخَاطئَ، فهل يعطِيه درجةً كاملةً، أو يعطِيه ما يستحقُّ؟

مثالُ ذلكَ: جاءَ في السؤالِ: كمْ أقسامُ الحديثِ باعتبارِ وصولِه إلينَا؟ وأقسامُ الحديثِ باعتبارِ وصولِه إلينَا متواترٌ وآحادٌ، والآحادُ إما مشهورٌ أو عزيزٌ أو غريبٌ، فالطَّالبُ كتبَ أقسامَ الحديثِ باعتبارِ المرتبةِ، وهوَ باعتبارِ المرتبةِ صحيحٌ وحسنٌ وضعيفٌ، والصَّحيحُ صحيحٌ لذاتِه ولغيرِه، والحسنُ حسنٌ لذاتِه وحسنٌ لغيرِه،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم (٣٦٥٨)، وابن ماجه: افتتاح الكتاب، باب من سئل عن عمل فكتمه، رقم (٢٦٦)،

والضعيفُ ما ليسَ بصحيحٍ ولا حسنٍ.

فهلْ يُعطَى هذا الطَّالبُ الذِي أجابَ بالصَّوابِ مئةً بالمئةِ من جهةِ مرتبةِ الحديثِ، أو لا يُعطيه شيئًا؟ والسؤالُ: كمْ أقسامُ الحديثِ باعتبارِ طرُقِه، وهنا أجابَ الطَّالبُ باعتبارِ المرتبةِ، لكنهُ أجابَ باعتبارِ المرتبةِ مئةً بالمئةِ، فهلْ يُعطيهِ درجةً كاملةً؟

الجوابُ: لا يُعطيهِ؛ لأن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ: «**إِنَّمَا أَقْضِي لَكُمْ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْكُمْ**»[1]. فهذا أيضًا يَقضي بنحوٍ مما أَمامَه مما كتبَ، فلا يعطيهِ شيئًا، وإن كانَ يعلمُ أن هذَا التلميذَ جيدٌ، وأن جوابَه صوابٌ لكنْ أخطأَ في فهمِ السؤالِ.

ونقولُ: اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هوَ الذِي حرَّمَهُ، حيثُ فهمَ السؤالَ على غيرِ وجهِه، ولعلَّ هذا يكونُ سببًا لكونِه يتفهمُ السؤالَ قبلَ أن يجيبَ؛ لأن بعضَ التلاميذِ تأخذُه السرعةُ والعجلةُ والدهشةُ فيجيبُ فورًا بدونِ أن يتأملَ.

فعلى كلِّ حالٍ يجبُ أداءُ الأمانةِ حينَ التصحيحِ، وأن يكونَ المصححُ مدققًا، وأن يُصححَ على حسبِ ما أمامَه مما كتبَ، دونَ ما يعلمُه مِن حالِ التلميذِ.

والأمانةُ أمرٌ واسعٌ، ولعلَّ ما ذكرنَاهُ فيهِ الكفايةُ إن شاءَ اللهُ تعالى.

والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتمُّ الصَّالحَاتُ، وصلى اللهُ وسلم على نبينَا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِه.



---

(١) أخرجه النسائي: كتاب آداب القضاة، باب ما يقطع القضاء، رقم (٥٤٢٢)، وابن ماجه: كتاب الأحكام، باب قضية الحاكم لا تحل حراما ولا تحرم حلالا، رقم (٢٣١٧).



سورة فاطر

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١]. (السَّماوات) جَمْعٌ، وَ(الأرْض) مُفْرَدٌ، فعددُ السَّماواتِ سَبْعٌ، وَذَلِكَ بنصِّ القُرآنِ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ [المُؤْمِنُونَ:٨٦]، وَعَدَدُ الأَرَضِينَ سَبْعٌ كَذَلِكَ، لقولِه تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق:١٢]. أي مِثْلَهُنَّ فِي العَدَدِ، لَا فِي الكَيْفيَّةِ والوَصْفِ، لأنَّ السماءَ أعظمُ مِنَ الأرْضِ، وَقَدْ جَاءَتِ السُّنَّةُ صَرِيحَةً فِي ذَلِكَ فِي قولِ النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

وقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١] أي: مُصَيِّرِ الملائكةِ رُسُلًا، وَاعْلَم أَنَّ (جَعَلَ) إن تَعَدَّت إِلَى مَفْعُولَيْنِ فَهِيَ بمعنى (صَيَّر)، وَإِنْ تَعَدَّت إِلَى مفعولٍ واحدٍ فَهِيَ بمعنى (خلَقَ). قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]. (جعل) هنا تَعَدَّت إِلَى مَفْعُولَيْنِ، فتكونُ بمعنى (صَيَّر) أي: صَيَّرْنا القُرآنَ باللُّغةِ العربيةِ، وَلَيْسَتْ هُنَا بمعنى (خَلَقَ) كما قال الجَهْمِيَّةُ، فَقَدْ جَعَلُوا كَلَامَ اللهِ مَخلوقًا كالصُّخُورِ وَالجِبَالِ والأنهارِ والأشجارِ، وَلَيْسَ هَذَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٠).

صحيحًا، بل (جَعَلَه) أي: صَيَّرَه قُرآنًا عَرَبِيًّا، والقَاعِدةُ مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَنَّ (جَعَلَ) إِذَا تَعَدَّت إِلَى مَفْعُولَيْنِ تَكُونُ بمعنى (صَيَّرَ)، وَإِذَا تَعَدَّت إِلَى مفعولٍ واحدٍ تكونُ بمعنى (خَلَقَ).

إِذَنْ، قولُه: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١] أي: مُصَيِّرِ الملائكةِ رُسُلًا، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر:١]، يعني: لهُمْ أجنحةٌ يَطِيرونَ بِهَا. ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، يعني: اثنين وثلاثة وأربعة، ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر:١]، أي: يَزِيدُ عَلَى الأَرْبَعَةِ مَا يَشَاءُ، وَقَدْ جَاءَ فِي الحديثِ: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَم يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً عِنْدَ سِدْرةِ المُنْتَهَى، ومَرَّةً فِي جِيَادٍ، لَهُ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ، قَدْ سَدَّ الأُفُقَ**»[1]، حَدَّثنا بذلك الصَّادقُ المَصْدُوقُ مُحَمَّدٌ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

وَهُمْ يَطِيرونَ بتلك الأجنحةِ، وَلَيْسَت السرعةُ كالسرعةِ التي نَعْهَدُ فِي الطَّائراتِ والصواريخِ، بل هِيَ أعظمُ وأعظمُ، وَلِهَذَا قال سُلَيمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَما جَاءَهُ الهُدْهُدُ الطَّائِرُ المعروفُ بِخَبَرٍ مِنَ اليمنِ وسُلَيْمانُ آنذاكَ بِالشَّامِ، وَقَالَ لَهُ: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٢٣]، أي: كلُّ مُقوِّمات المُلْكِ عندَها، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، أي: كُرْسِيٌّ عَظِيمٌ، والكُرْسِيُّ الَّذِي يَجْلِسُ عليه المَلِكُ يُسَمَّى عَرْشًا، ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل:٢٤] إِلَى آخرِ القصةِ، وفيها قال سُلَيْمانُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨] تَوَجَّهَت إِلَى سليمانَ الآن

---

(١) أخرجه الترمذي، تفسير القرآن، سورة والنجم، برقم (٣٢٧٨).

مِنَ اليمنِ إِلَى الشَّامِ، فقال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [النمل:٣٨- ٣٩]، أي: شديدٌ عاتٍ: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:٣٩]، وَكَانَ سُليمانُ قد رَتَّب الوقتَ، فكَانَ لَهُ وقتٌ مُعَيَّنٌ يجلسُ فيه، ووقتٌ مُعَيَّنٌ يقومُ فيه، قَالَ: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩]، فِي الآيةِ وصفانِ لِلْعِفْرِيتِ:

الأول: قَوِيٌّ لَا يَعْجِزُ عَنِ الإتيانِ بالعَرْشِ.

الثَّاني: أَمِينٌ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْئًا. وضِدُّ القُوةِ والأمانةِ العَجْزُ والخيانةُ.

فَقَوْلُهُ: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩]. أي: لَا آخُذُ مِنْهُ شَيْئًا، ولا أَفْقِدُ مِنْهُ شَيْئًا، ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠]. فكَانَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكتابِ أَسْرَعَ، لقولِه: ﴿آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠]. وَقَدْ جَاءَ بِهِ كَمَا قَالَ.

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ [النمل:٤٠]. قَالَ هنا: ﴿مُسْتَقِرًّا﴾، مَعَ أَنَّ الجارَّ والمجرورَ يَتعلَّقُ بمحذوفٍ تَقْدِيرُهُ مُسْتَقِرٌّ، قَالَ العُلَماءُ: لِأَنَّهُ جاءَ به مُسْتَقِرًّا، أي: ذَا قرارٍ، لَم يَتَحَرَّكْ، ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل:٤٠].

ولماذا أَتَى بِهِ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكتابِ قَبْلَ أَن يأتِيَ بِهِ العِفْرِيتُ مِن الجِنِّ؟ قَالَ العُلَماءُ: لِأَنَّ هَذَا دَعَا اللهَ تَعالَى باسْمِهِ الأَعْظَمِ أَنْ يُحْضِرَ هَذَا العرشَ، فحَمَلَته الملائكةُ وَجَاءَتْ به، وبهذا يَتبيَّنُ أَنَّ قُوَّةَ الملائكةِ أعظمُ مِن قُوةِ الجِنِّ بلا شَكٍّ، فالمسافةُ مِنَ اليمنِ إِلَى الشَّامِ مسافةٌ طويلةٌ، وَقَدْ جاءت بِهِ الملائكةُ فِي لحظةٍ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إليه طَرْفُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إِذَنِ، الملائكةُ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لهم أجنحةٌ مُنوَّعَةٌ ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [فاطر:١].

وَفِي هَذِهِ الآيةِ الكريمةِ دليلٌ واضحٌ دامغٌ عَلَى أَنَّ الملائكةَ أجسامٌ، لِأَنَّنَا لَا نَعْقِلُ الأجنحةَ إِلَّا بأجسامٍ، فالملائكةُ أجسامٌ، والأصلُ فِيهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُرَوْنَ، لأنهم مِن عالَم الغَيْبِ، لَكِنْ قد يُرَوْنَ عَلَى خِلْقَتِهِمُ الَّتِي خَلَقَهُمُ اللهُ عَلَيْهَا، كَمَا رَأَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم جِبْرِيلَ، أو مُتَمَثِّلِينَ بصُورٍ أُخْرَى، كَمَا رَأَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم جِبْرِيلَ عَلَى صُورةِ دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ، وكما جَاءَ فِي حديثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ الطويلِ: «**بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ**». وسأل النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أسئلةً، وَفِي النهايةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**». قَالَ عُمَرُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[1]. فَفِي هَذَا الحديثِ أَنَّهُ جَاءَ بصُورةِ رَجُلٍ.

إِذَنْ، عَلَيْنَا أَن نُؤْمِنَ بالملائكةِ وَأَنَّهُمْ أجسامٌ، وَلَا يجوزُ إِطْلَاقًا أَنْ نَقولَ: إِنَّ الملائكةَ هِيَ قُوى الخيرِ، وَالشَّيَاطِينَ قُوى الشَّرِّ. بَلِ الملائكةُ أجسامٌ، وَالشَّيَاطِينُ أجسامٌ أيضًا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا فِي قِصَّةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَعَ الشَّيْطانِ، قال: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة السَّاعة، برقم (٨).

شَدِيدَةٌ. قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟**». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ**». فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ. فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**».

فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ. قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا. قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]. حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «**مَا هِيَ؟**». قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِها حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]. وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ -وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟**».

قَالَ: لاَ. قَالَ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ**»[1].

فآيَةُ الكُرْسيّ هَذِهِ هِيَ أعظمُ آيةٍ فِي كِتَابِ اللهِ، إِذَا قَرَأْتَها فِي لَيْلَةٍ لَم يَزَلْ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حافظٌ، وَلَا يَقرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصبِحَ، فَانْظُرْ لَوْ أَنَّكَ استأجرتَ شَخْصًا يَحْرُسُكَ فِي اللَّيلِ حَتَّى مِنَ الشياطِينِ الَّتِي لَا تُرى فَكَمْ كُنْتَ تُعْطِيهِ؟! فَهَذِهِ آيةٌ وَاحِدَةٌ اقرَأْهَا كلَّ ليلةٍ يَحْفَظْكَ اللهُ بِهَا.

وَأَمَّا قَوْلُه: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ**». فَمَعْنَاهُ: أَخْبَرَكَ بِالصِّدْقِ، فَأَقَرَّ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم- قَوْلَ الشَّيْطانِ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا قَرَأَ الإِنْسانُ هَذِهِ الآيَةَ فِي ليلةٍ لَم يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حافظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ الشَّيْطانُ حَتَّى يُصْبِحَ، فَاللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ.

تَبَيَّنَ إِذَنْ أَنَّ الشَّياطِينَ أجسامٌ تُرَى، وَأَنَّهُمْ إِذَا لَم تُسَمِّ اللهَ عَلَى الأكلِ أَوْ عَلَى الشربِ يَأْكُلُونَ مَعَكَ، أَفَتَرْضَى أَنْ يكونَ عَدُوُّكَ شَرِيكًا لَكَ فِي أَكْلِك وشُرْبِكِ؟! لِذَلِكَ أَقُولُ: إِنَّ القولَ الرَّاجحِ مِنْ أقوالِ العُلَماءِ أَنَّ التسميةَ عَلَى الأكلِ واجبةٌ، وَأَنَّ مَنْ تَرَكَها فَقَدْ عَصَى اللهَ ورَسولَهُ، وَأَنَّهُ يُفْسِحُ المجالَ فِي أَنْ يُشارِكَهُ عَدُوُّهُ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ عَصَى الرَّسُولَ فَوَاضِحٌ، لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ لعُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: «**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ**»[2]. فَهَذَا أَمْرٌ، وَكُلُّ مَنْ عَصَى الرَّسُولَ فَقَدْ عَصَى اللهَ، لقولِه تَعالَى: ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ**﴾ [النِّساء:٨٠]، يَعْنِي: ومَن يَعْصِ الرَّسُولَ فَقَدْ عَصَى

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رَجُلًا، فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مُسَمًّى جاز، رقم (٢٣١١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب التسمية عَلَى الطعام والأكل باليمين، رقم (٥٠٦١)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها، رقم (٢٠٢٢).

اللهَ، وَجاءَ ذَلِكَ صريحًا فِي قولِ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ»[1]. لِذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْنَا إِذَا سَمِعْنَا أَمْرًا مِنَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَنْ نعتقدَ بِأَنَّ مخالفةَ هَذَا الأمرِ مخالفةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَبِهِ يَتبيَّنُ أَنَّ السُّنةَ دليلٌ مُسْتقِلٌّ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا حاجةَ إِذَا اسْتَدَلَّ عَلَيْنَا مُسْتَدِلٌّ بالسُّنةِ أَنْ نقولَ: أَيْنَ الدَّليلُ فِي القرآنِ؟ وَلهَذَا لما حَدَّث ابنُ مَسْعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ المُتنمِّصاتِ والنَّامِصاتِ مَلْعُوناتٌ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَقالَتْ: «أَشَيْءٌ تَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللهِ، أَمْ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: أَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللهِ، وَعَنْ رَسُولِ اللهِ، فَقَالَتْ: وَاللهِ لَقَدْ تَصَفَّحْتُ مَا بَيْنَ دَفَّتِي المُصْحَفِ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ الَّذِي تَقُولُ. قَالَ: فَهَلْ وَجَدْتِ فِيهِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧]؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنِ النَّامِصَةِ وَالوَاشِرَةِ[2] وَالوَاصِلَةِ وَالوَاشِمَةِ»[3].

وقولُ اللهِ تَعالَى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر:١] الزيادةُ هُنَا زيادةُ كَيْفِيَّةٍ وكَمِّيَّةٍ، فِي القُوةِ، وَفِي ضَخامةِ الجسمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فالأمرُ راجعٌ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١]، قديرٌ بلا عَجْزٍ، كما قَالَ تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب قوله الله تَعالَى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّساء:٥٩]، رقم (٧١٣٧)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٨٣٥).

(٢) هي التي تحدد أسنانها وترقق أطرافها. (النهاية وشر).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤١٥)، (٣٩٤٥) واللفظ له، والنسائي: كتاب الزينة، باب المستوصلة، رقم (٥٠٩٨).

فَلَا تَسْتكثِرْ شَيْئًا عَلَى قُدرةِ اللهِ، وَلَا تَسْتَعْظِمْ شَيْئًا عَلَى قُدرةِ اللهِ، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

قالت جُنودُ الشَّيْطانِ للشَّيطانِ: مَا بَالُكَ تَفْرَحُ فَرَحًا عظيمًا إِذَا ماتَ العَالِمُ، وَإِذَا ماتَ العَابِدُ لَا تَفْرَحُ كما تَفرَحُ فِي فَقْدِ العَالِمِ؟ قال: لأنَّ العَالِمَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنَ العَابِدِ، العَالِمُ مُتَحَصِّنٌ بعِلْمِه فِي نَفْسِه، ومُعَلِمُ لِغَيْرِه، فموتُه أشدُّ عِنْدِي فَرَحًا مِنْ مَوْتِ العَابِدِ، وَسَأُرِيكُمْ. فَقَالَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ: اذْهَبْ إِلَى العَابِدِ الَّذِي فِي مكانِ عِبَادَتِهِ لَا يَبْرَحُ، وَاسْأَلْهُ عَنْ هَذَا السؤالِ: هَلْ يَسْتَطِيعُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَ السَّماواتِ والأَرْضَ كُلَّهُنَّ فِي بيضةٍ؟ فقال العَابِدُ: لَا يستطيعُ. فَرَجَعَ مَنْدُوبُ الشَّيْطانِ -وَبِئْسَ النَّادبُ والمندوبُ- إِلَى مَنْ نَدَبَهُ، وَقَالَ لَهُ: هَكَذَا قَالَ العَابِدُ، قال: لَا يستطيعُ. وذَهَبَ المندوبُ إِلَى العَالِمِ، وَقَالَ لَهُ: هَلْ يَسْتطيعُ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ السَّماواتِ والأَرْضَ فِي بيضةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

فَرَجَعَ المندوبُ إِلَى الشَّيْطانِ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْطانُ: مَا الجوابُ؟ قَالَ: الجوابُ أَنَّهُ قَالَ: نَعَمْ يَسْتَطِيعُ، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. فَقَالَ: انْظُرُوا كَيْفَ تَخَلَّصَ العَالِمُ، وَكَيْفَ قَاسَ الأمورَ بعَقْلِهِ هَذَا العَابِدُ المِسْكِينُ[١].

فَاعْلَم أَنَّ اللهَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَمِنْ قُدْرَتِهِ إِذَا مَاتَ النَّاسُ كُلهُمْ، وَمِنْهُمْ المَدْفُونُ فِي الأَرْضِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَكَلَتْهُ الحيتانُ فِي البَحْرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَكَلَتْهُ الذِّئَابُ فِي البَرِّ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَهُمْ فَلَا يَنْتَظِرُ أَيَّامًا أَوْ دُهورًا لِبَعْثِهِم، بَلْ يَفْعَلُ

(١) ذكره ابن القيم في مفتاح دار السّعادة (١/ ٦٩) عن ابن عباس.

ذَلِكَ بكلمةٍ واحدةٍ: كُنْ. فَيَكُونُ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، وقَالَ تعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازعات:١٣-١٤] أي: عَلَى وَجْهِ الأرْضِ، فَكُلُّ الخلقِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَخْرُجُونَ وَيَحْضُرُونَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]. فَاللهُ تعالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَلَا تَستكثِرْ شَيْئًا عَلَى قُدرتِه وَلَا تَسْتعظِمْه.

ولما خَرَج المُسْلِمُونَ فِي غزوةِ حُنَيْنٍ -وَكَانَتْ فِي السَّنَةِ الثَّامنةِ مِنَ الهجرةِ، وَكَانَتْ عِدَّةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصْحابِه اثْنَيْ عَشَرَ ألفًا- قَالَ بعضُهم لبعضٍ: لَنْ نُغْلَبَ اليومَ مِنْ قِلَّةٍ. يَتفاخَرُون بِكَثْرَتِهِمْ، فلما قَالُوا ذَلِكَ أَرَادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُرِيَهم الأمرَ، فكَمَنَتْ لهُمْ ثَقِيفُ وهَوَازِنُ فِي بَطْنِ وَادِي حُنَيْنٍ، وَكَانُوا ثَلَاثَةَ آلَافٍ وخَمْسَ مئةِ جُنْدٍ كافرٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصْحابُه اثْنَي عَشَرَ ألفَ جُنْدٍ مُسلِمٍ، بقيادةِ أشرفِ قائدٍ، وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ فَلَما كَمَنَ هَؤُلَاءِ لهُمْ حَصَلَتِ الهزيمةُ، وَفَرُّوا جميعُهم عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَلَم يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا نحوُ مئةِ رجلٍ مِنَ الاِثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم عَمَّهُ العَبَّاسَ أَنْ يُنادِيَ: «**يَا أَهْلَ سُورَةِ البَقَرَةِ، يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ**»[1]. يَعْنِي الشجرةَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهَا بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ، فَتَرَاجَعَ النَّاسُ سريعًا، وَتَوَاثَبُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَفِي النهايةِ كَانَتِ الغلبةُ لرَسولِ ﷺ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

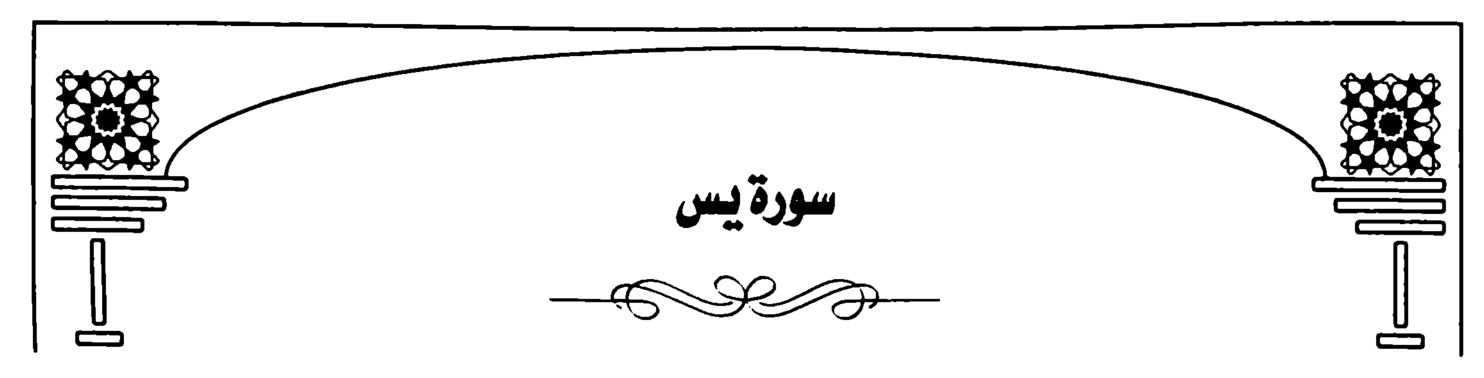
(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٩٦، رقم ١٧٧٥).

مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة:٢٥:٢٦].

هَكَذَا القُدرةُ، كَانَتِ الغَلَبَةُ أَوَّلًا لِلْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ صَارَتْ للمؤمنينَ بقَدَرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقُدْرتِه، فَاللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ، كَمْ مِنِ إِنْسانٍ كَانَ عَلَى فِرَاشِ الموتِ فَدَعَا اللهَ أو دَعَا لَهُ أهلُه فَأَنْجَاهُ اللهُ، وَهَذَا يَقَعُ كثيرًا، فَلَا تَستكثِرْ شَيْئًا عَلَى قُدْرةِ اللهِ، وَلَا تَسْتَعْظِمْ شَيْئًا عَلَى قُدرتِهِ -سُبْحَانَهُ- فاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ.

أَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنَا وَلَكُمُ الثَّبَاتَ فِي الأمرِ، والعزيمةَ عَلَى الرُّشْدِ، والغَنِيمةَ مِن كلِّ برٍّ، والسَّلامةَ مِن كلِّ إثْمٍ، والفوزَ بالجَنَّةِ، والنَّجاةَ مِنَ النَّارِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ.





سورة يس

الدَّرس الأوَّل:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:١٢].

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ الضَّميرُ يَعودُ عَلَى اللهِ، وصِيغةُ الجمعِ تُفيدُ التَّعظيمَ؛ فَاللهُ تَعَالَى واحدٌ لَا شَريكَ لهُ، لكنَّه يُسنِد الشيءَ إِلَى نَفْسهِ بِصِيغةِ التَّعدد؛ إِشَارةً إِلَى التَّعظيمِ.

﴿نُحْيِ الْمَوْتَى﴾ نُحْيِيهم بَعْدَ الموتِ؛ لِأَنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَى إِنْشَاءِ الخلقِ أوَّل مرةٍ قادرٌ عَلَى إعادتِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، يَعْني: إِعادتَه أَهْون عليْه منِ ابْتِدَائه، وهَذَا أمرٌ معلومٌ بالحسِّ والعقلِ، فَالقادرُ عَلَى أن يُنْشِئَ الخَلْقَ أوَّل مرةٍ قادرٌ عَلَى إعادتِهِ؛ وَلهَذَا لما قَالَ الخصمُ المبينُ: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، قَالَ اللهُ لَه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ يَعْنِي: الإِنْسَانُ، ﴿مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة:٣٧-٤٠]، **فَالجَوابُ:** بَلَى -وَاللهِ.

وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧].

فَيَجبُ أنْ نَعلمَ أنَّ الإِنْسَانَ سيمُوتُ، ولَو أنَّ أحدًا قَال: إنَّه لنْ يَموتَ لعُدَّ منَ المجانينَ، فنحنُ الآنَ نُصَلِّي عَلَى الموتَى وغدًا سَيصلون عَلَيْنا، فَاسْتَعد لهَذَا اليومِ الَّذِي تَنْتقل فِيهِ مِنْ دَارِ العملِ إِلَى دَارِ الجزَاءَ، الَّذِي تُفَارقُ فِيهِ الأهْلَ والأَصحابَ وَالأَموالَ، فَتَنفردُ بِعَملكَ قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ: «يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ»[١]، فَإِذا مَاتَ الميتُ دَفنَه أَقْربُ النَّاسِ إلَيْه وأَشْفقُهم عَلَيه، ثمَّ يَنْصرفون، ويَبْقى الميتُ وَلَيْس معهُ إِلَّا عَمَلُه.

وإِذَا دُفِنَ الميتُ وتَولى عنْهُ أَصْحابهُ حَتَّى إنَّه لَيَسمع قَرْع نِعَالِهم، أَتَاه مَلَكان يَسْأَلانه عَنْ ثَلاثةِ أُصُولٍ، يَقُولانِ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينكَ؟ مَنْ نَبيُّكَ؟ وقدْ جَاءَ الحديثُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ: مَا عَمَلُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، وَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَقْتُ بِهِ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي»[٢]، ويَكُون وُجودُه فِي القَبر أَسَرَّ عَلَيْه منْ بَقَائه فِي الدنيَا؛ لِأَنَّهُ يَنْتَقل منْ دَارِ الدُّنيا، الَّتِي كُلها نَكَد وتَنْغيص، وإِذَا سُرَّ الإِنْسَانُ فِيها يومًا سَاءَتهُ أَيَّام، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم (٦٥١٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٠).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

مَــنْ سَرَّهُ زَمَــنٌ سَــاءَتْهُ أَزْمَــانُ ....

وَقَالَ الشَّاعِرُ الجاهليُّ[1]:

فَيَـــوْمٌ عَلَيْنَـــا وَيَـــوْمٌ لَنَـــا وَيَـــوْمٌ نُسَـــاءُ وَيَـــوْمٌ نُسَـــرُّ

وبعدَ القبرِ يَأتِي البعثُ، الَّذِي جاءَ فِي وصفِهِ فِي الكتابِ والسُّنَّةِ مَا تَنْخَلعُ لَهُ القلوبُ، وبَابُ السَّمعياتِ فِي كتبِ العقائِدِ، فِيهِ الشيءُ الكثيرُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾.

﴿مَا قَدَّمُوا﴾ منَ العملِ الصَّالحِ، فكُلُّ مَا قَدمْتَ منَ العملِ الصَّالحِ مَكْتوبٌ ولنْ يَضِيعَ علَيْك، يَقُولُ اللهُ تَعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، فَكُلُّ مَا قدَّمت مِن خيرٍ أَوْ شرٍّ فَإِنَّهُ سَيُكتب، وكَلِمَة: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ هَذِهِ للعمومِ؛ لِأَنَّ (مَا) اسمُ مَوْصولٍ يُفِيد العمومَ، كُلُّ مَا قَدَّمتَ منْ خَيرٍ وشرٍّ.

فإِنْ كَانَ العملُ الَّذِي قَدَّمته عملًا خاصًّا بكَ لَا يَتعدى إِلَى غَيْرِكَ، فَلَك أجرُهُ إنْ كَانَ خيرًا، وعليكَ وزرُهُ إنْ كَانَ سوءًا.

قَوْلُهُ: ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾.

أَيْ: نَكتبُ الآثارَ الَّتِي تترتبُ عَلَى ما قَدمُوا من عَملٍ، فإذَا كَانَ الإِنْسَانُ قَدَّم خيرًا، واقْتَدى بِهِ النَّاسُ، كُتِب لهُ أجرهُمْ مَعَ أنَّه لَم يَعْمل، لَكِنه صَار أُسوةً وإِمَامًا فَيكتب لَه، وإِذَا كَانَ قَدَّمَ سوءًا وابْتَدعَ فِي دينِ اللهِ مَا لَيْسَ مِنْه، واتَّبعهُ النَّاسُ عَلَى

(١) البيت للنَّمِر بن تَوْلَب؛ ينظر: «ديوانه» (ص:٥٧).

ذلكَ، كُتِب له سُوءُ هَذِهِ البدعةِ، ويَدُلُّ لهَذَا قَول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَى وَعَلَى آلِهِ وسَلَم: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»(١).

ومَا أثقلَ الحِمْلَ عَلَى العُلَماءِ؛ لِأَنَّ العُلَماءَ يُهتدَى بِهِم إنْ كَانوا عُلَماءَ رَبَّانيينَ صَالحينَ، اقتَدَى النَّاسُ بِصَلاحهِمْ، وإنْ كَانوا بِالعَكسِ اقتدَى النَّاسُ بِسَيِّئاتِهم، فالحِمْلُ ثقِيلٌ عَلَى كُلِّ مَن لَه إمَامةٌ فِي قَومه، إِنْ دَلَّهُم عَلَى خيرٍ فَله خَيرٌ، وإِنْ دَلَّهُم عَلَى شرٍّ فلَه شرٌّ.

ومِما يُكتبُ منَ الآثارِ، مَا أَشَار إِلَيْهِ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ فِي قَوْلِهِ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(٢).

فأشارَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ فِي هَذَا الحديثِ إِلَى أَعمالٍ ثلاثٍ يَبقى أثَرُها ونفعُهَا لِلمَيِّت بعدَ مَوتِهِ وهيَ:

أَوَّلًا: صدقةٌ جاريةٌ: يَضَعُها الإِنْسَانُ فِي حيَاتِه، مثلُ أَنْ يَبْنِيَ لِطَلَبةِ العلمِ مساكنَ، أَو يَغْرِسُ نخلًا عَلَى طلبةِ العلمِ، أوْ عَلَى سُبُلِ الخيرِ، أَو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَتبقى بَعْد مَوْته، هَذِهِ الصَّدَقَة الجارِيَةُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النَّار، رقم (١٠١٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإِنْسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

ثَانِيًا: عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ: أَي أَنَّه يُعَلِّمُ النَّاسَ فَيَنتفعُ النَّاسُ بِعِلمِه، يَنْتفعُ مِنه واحدٌ، والواحدُ يَكون فِي مَجْلس فيَنْشُرُ مَا سَمِعه منَ العَالمِ، فَيَنتفع بهِ كُلُّ مَنْ فِي المجلسِ، ثُمَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ فِي المجلسِ يَكُون أَحَدُهم فِي مَجْلسٍ، فيُحَدِّثُ بِمَا سَمِعهُ، فَيَنتفع بِهِ أَهْلُ المجلسِ، وَإِذَا كَانَ الَّذِينَ فِي المجلسِ الأولِ عَشْرةً، وكُلُّ وَاحدٍ جَلَسَ فِي مَجلسٍ ونَشَرَ العلمَ، فَيَنتفعُ مِئَةٌ، وإِذَا كَانَ المِئَةُ كُلُّ واحدٍ نَشَرَ العلمَ فِي عشرةٍ صَارُوا أَلْفًا.

وَلِذلِكَ مَا أَكثرَ الَّذِينَ انتفَعُوا بِعِلْمِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ نَشَرُوا الشريعةَ، ومَا أكثرَ الَّذِينَ انتَفعوا بِعِلْمِ الأئمةِ كَالإِمَام أَحمدَ بنْ حَنْبَلَ، ومالكٍ، والشَّافعيِّ، وأَبِي حَنِيفةَ، ومَا أَكثرَ الَّذِينَ انتَفَعوا بِأَئمَّة أَصْحَابهم مِن بَعْدهم؛ وَلهَذَا نَقولُ: العِلْمُ أَفضلُ منَ الصَّدَقَةِ الجاريَةِ، وَالولدُ الصَّالحُ الَّذِي يَدْعو لَهُ.

فالعلمُ لَا مُنْتهَى لِفَائدتِهِ إِذَا صَدَرَ عنْ قَلبٍ مُخلصٍ يُرِيدُ بِنَشرِ العلمِ أَنْ تَنْتَشِرَ شريعةُ اللهِ، لَا يُريدُ بِنشرِ العلمِ أَنْ يَكونَ وجيهًا فِي قومِهِ، أَو أَنْ يَكونَ رأسَ فتنةٍ، **«فمنْ طلبَ عِلْمًا وهوَ مِما يُبتغَى بِهِ وجهُ اللهِ، لَا يُريد إِلَّا أَنْ يَنالَ عَرَضًا منَ الدنيَا لَم يَرِحْ رَائحةَ الجنَّةِ، ومنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجاريَ بِهِ العُلَماءَ، وَيُمارِيَ بِهِ السفهاءَ، فَلْيَتبوأ مَقْعدهُ منَ النَّارِ»**[1].

فَيجبُ إِخْلاصُ النِّيَّةِ فِي طلبِ العلمِ الشَّرْعِيِّ، حَتَّى نَنالَ إرثَ النبيينَ -عَلَيهِمُ الصَّلَاة والسَّلامُ-.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء فيمن يطلب الدُّنيا بعلمهن، رقم (٢٦٥٤)، وقال: غريب. وابن ماجه: المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (٢٥٩، ٢٦٠).

الثَّالِثُ: ولدٌ صَالحٌ يَدْعو لَهُ: فَإِذَا يَسَّرَ اللهُ لِلإِنْسَانِ ولدًا صالحًا، يَدعو لِأَبيه أَو أُمه، كُتِبَ لَه، وَتَأَملوا قَولَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»، وَلَم يَقُلْ: «أَوْ وَلِدٍ صَالحٍ يَعْتمرُ لَهُ، أَوْ يَحُجُّ لَهُ، أَوْ يَصُومُ لَهُ، أَوْ يُصَلِّي لَهُ»، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَتحدثُ عنِ الأعمالِ، فعدَلَ عنْ قَوْلِهِ: «يَعْمَلُ لَهُ» إِلَى قَوْلِهِ: «**يَدْعُو لَهُ**».

ولِذَلكَ يَجبُ عَلَى المعْتَمرِينَ وغَيْرِهِمْ، أَنْ يَجْعلُوا الأعمالَ الصَّالحَةَ لِأَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّهم فِي حَاجةٍ لها، وأَنْ يَجْعلُوا لِآبائِهِمْ وَأُمَّهاتهمُ الدُّعَاءَ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَرْشدَ إِلَيْه النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ؛ وَلِذَلك تَجِدُ العَاطفيينَ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدهم علمٌ مِنَ الشرعِ، يَعْتمرونَ عنْ آبائِهِمْ وأُمَّهَاتهم فِي سَفرْ واحدٍ مَرَّاتٍ عديدةٍ، فأوَّلُ مَا يَقْدُم يَعْتمرُ عَنْ نَفْسهِ، وثَاني يَومٍ عنْ أُمِّهِ، وثَالثُ يَومٍ عَنْ أَبِيهِ، ورَابعُ يَومٍ عَن جدتِهِ، وخَامسُ يَومٍ عَنْ جدهِ، وهكَذَا، وهَذَا أَمْرٌ لَم يَرِد بهِ الشَّرعُ.

وَلَم يَثْبُتْ عنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه اعْتَمر فِي سَفَرٍ واحدٍ مرَّتينِ، فهلْ أَنْتَ أَحْرَصُ عَلَى الخيرِ منْ رَسولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَوْ كَانَ هَذَا خيرًا لَكانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يفْعلُه أو يَأْمُر بِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ خيرًا كَانَ منَ الشرعِ، والشرعُ واجبٌ عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُبلغَه للنَّاسِ، فَهَلْ قَالَ للنَّاسِ: «كَرِّرُوا العُمْرَةَ فِي سَفَرٍ وَاحِدٍ»، لَم يَثْبت عنهُ ذَلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَتَحَ مَكَّةَ، وانْتَصَرَ عَلَى المشرِكينَ، وطَابَ لَهُ المقامُ، وبقيَ فِي مَكَّةَ تِسعةَ عشرَ يَوْمًا، منْهَا عشْرةٌ فِي رَمَضَانَ، وَلَم يَعْتمرْ، مَعَ أَنَّه يَقُولُ: «**عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ، تَعْدِلُ حَجَّةً**»[1]، ومنَ اليسيرِ عليْه جدًّا أَنْ يَركبَ نَاقتَهُ إِلَى التَّنعيمِ وَيَأْتِي بعُمْرَةٍ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أبواب العمرة، باب العمرة في رمضان، رقم (١٦٩٠)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل العمرة في رمضان، رقم (١٢٥٦).

ولَم يَعْتمرْ، ولَا اعْتمرَ أَحدٌ منْ أَصْحابِه معَهُ، مَعَ أَنَّهُ يَسِيرٌ عَلَيْهم أنْ يَأْتُوا بالعُمْرَةِ، لا سيَّما أَنَّهُمْ انْتَصَروا واطْمَأَنُّوا، والزَّمنُ زَمنٌ فاضلٌ -العشرُ الأواخرُ مِن رَمَضانَ- ومعَ ذلكَ مَا أَتَوْا بعُمْرَةٍ منْ مَكَّةَ، فثَبَتَ أنَّ هَذَا لَيْسَ منَ السُّنَّةِ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: أنَّ عائشةَ كرَّرتِ العُمْرَةَ؟

قُلْنَا: إنَّ عائشَةَ لَم تُكررِ العُمْرَةَ، وقصَّة عائشَةَ قِصةٌ مُنْفردةٌ ولَيْس فِيها تِكرارُ عُمْرَةٍ، والقصةُ هِيَ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ خرجَ مِنَ المَدِينَة إلى مَكَّة في حجةِ الوداعِ، وكانَ خُروجُهُ لِخَمسٍ بَقِينَ مِن ذِي القعدَةِ، وأحرَمَ بالحجِّ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: قُلْ عُمْرَةٌ وحجةٌ، فقرَنَ، وَقَالَ: «**لَبَّيْكَ عُمْرَةً، وَحِجَّةً**»، وأصْحَابهُ مِنْهم مَنْ أَحرمَ بِحَجٍّ وبَقِيَ عَلَى الحجِّ، ومنهمْ منْ أَحرمَ بعُمْرَةٍ يريدُ أَنْ يَتمتعَ، ومِنْهم منْ أَحرمَ بِحجٍّ وعُمْرَةٍ كَالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فِي أَثْناء الطَّرِيقِ حَاضتْ عَائشةُ، قَالتْ: «فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قَالَ: «**مَا لَكِ أَنُفِسْتِ؟**». قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ**»، أَرادَ بِذَلك تَسْليتَهَا، ثُمَّ أمَرَها أَنْ تُحْرِمَ بِحجٍّ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمكنُ أَنْ تُؤديَ العُمْرَةَ، حيثُ إنَّها إذَا وصَلت مَكَّةَ سَتكون حَائضًا، والحَائضُ لَا تَطوفُ ولَا تَسعَى، ثُمَّ أمَرَها أَنْ تُحرمَ بحجٍّ، وَقَالَ: «**فَاقْضِي مَا يَقْضِي الحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالبَيْتِ**»[1].

وفِي رِوَاية (الموطَّأ): «**وَلا بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، حَتَّى تَطْهُرِي**»[2] فَفَعلت، وصارَ نُسكهَا قِرانًا؛ لِأَنَّها أدْخَلتِ الحجَّ عَلَى العُمْرَة؛ وَلهَذَا قَالَ لها النَّبِيُّ صلى اللهُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب كيف كان بدء الحيض، رقم (٢٩٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١١).

(٢) أخرجه مالك: كتاب المناسك، باب دخول الحائض مكة والعمل عليها في ذلك، رقم (١٣٢٥).

عليهِ وعلى آله وسلمَ: «**يُجْزِئُ عَنْكِ طَوَافُكِ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، عَنْ حَجِّكِ وَعُمْرَتِكِ**»، فصَارتْ قَارنةً، والقارنُ لَا يَأْتي بعُمْرَةٍ مُستقلَّةٍ فَمَشتْ معهمْ وصَارَ عَملها كَعَملِ المُفْرِدِ تمامًا.

أَلَحَّتْ عَائشةُ، وَقَالَتْ: يَا رَسولِ اللهِ، يَرْجعُ النَّاسُ بِحجٍّ وعُمْرَة، وَأَرْجع بِحَجٍّ، خَافتْ منَ الغيرةِ، فَنِساءُ النَّبيِّ ﷺ كُلُّهنَّ أَتَيْن بِعُمْرَةٍ مُستقلةٍ، وحجٍّ مُستقلٍّ، وعَائشةُ بِأَفعالِ الحجِّ فَقَطْ، فَلَما رَآهَا النَّبيُّ ﷺ قَدْ أَلَحَّتْ قَالَ لِأَخيهَا عبدِ الرَّحمنِ: «**اخْرُجْ بِأُخْتِكَ مِنَ الحَرَمِ، فَلْتُهِلَّ بِعُمْرَةٍ**»، فَخَرج بهَا إِلَى التَّنْعيمِ؛ لِأَنَّ التَّنعيمَ بالنِّسْبَةِ لِلْمحصِّب أَقْرب الحلِّ، فَخَرج بهَا إِلَى التنعيمِ فَأَحرمت بعُمْرَةٍ[1].

فعبدُ الرَّحمنِ أَخُو عَائشة مَعَها، وَلَم يُحرم بِعُمْرَةٍ، مَعَ أَنَّ الأمرَ علَيْه سهلٌ، فالرَّجلُ خَرج لِلتَّنعيمِ وَلَم يُحْرم بِعُمْرَةٍ، وَإِنَّما أَحْرمتْ عَائشةُ فَقَطْ، مِمَّا يَدُلُّ دِلَالةً وَاضحةً عَلَى أَنَّه لَيْسَ مِن هَدْيِ الصَّحَابَةِ أنْ يَأتوا بِعُمرتَيْن فِي سَفرٍ واحدٍ.

فَنَقولُ: إِذَا وقعَ لامرأةٍ مثلُ مَا وَقَعَ لِعَائشةَ، وأَحبَّتْ أَنْ تَأْتيَ بَعْدَ الحجِّ بعُمْرَةٍ منَ التَّنعيمِ، فلها ذَلك ولَا يُعَدُّ بِدْعةً.

لكنَّ مَا نُنَبه عَلَيْه هُوَ أَنْ يَأتيَ رَجلٌ بِعُمَرٍ مُتعددةٍ فِي سَفَرٍ واحدٍ، وهوَ مَا لَم يَسنَّهُ مَن بَلَّغَ البلاغَ المبينَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقولٍ أَوْ فعلٍ أَوْ تقريرٍ.

ولذَلِكَ كَانَ الاستدلالُ بِقِصَّـةِ عَائشةَ -رضِي اللهُ تعالَى عَنْهَا- عَلَى تكرارِ العُمْرَةِ استدِلْالًا غير صَحيحٍ؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ أخصُّ منَ المدلولِ، وَالواجبُ أَنْ يَكونَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج، رقم (١٥٦١)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١١).

الدَّلِيلُ مساويًا لِلْمَدلولِ، أَوْ أعمَّ مِنهُ.

قَولُهُ: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾ كُلُّ شَيْءٍ منْ أَعمالِ الإِنْسَانِ، وأَجْيالِ النَّاسِ، وأَرْزَاقِهمْ، ومَا يحدثُ فِي السَّماءِ والأرْضِ.

﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ الإِحصاءُ هُوَ ضَبْطُ العددِ، وهُوَ مُشْتقٌّ منَ الحصَى؛ لِأَنَّ العربَ لَا يَكْتبونَ، فَهم أُمِّيُّونَ، لَكن يُحصونَ الشيءَ بالحصَى؛ وَلهَذَا قَالَ الشَّاعرُ:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

بِالأَكْثَرِ مِنهم حَصَى، يَعْني: بِأَكثرِهمْ عددًا؛ لِأَنَّ العددَ إِذَا أُريد أَن يُضْبَط ضُبِطَ بِالحصى، فَتَجدُ الإِنْسَانَ مِنهم أَخذَ كِيسًا منَ الحصَى يعدد بِه، فَمَعنى ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ أَيْ: ضَبطنا عَددهُ.

﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أَي: فِي كتابٍ، وسُمِّي الكتابُ إمامًا؛ لِأَنَّهُ يُؤخَذ بِما فِيه، ويُقْتَدى به، ويُتبَعُ، كَما قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡ﴾ [الإسراء:٧١].

وهَذِهِ الآيةُ رُبَّما تَكُونُ فِيهَا إِشَارةٌ إِلى الأَوْقافِ الخيريَّةِ، فالأوقافُ الخيريَّةُ يُوقِفها الإِنْسَانُ فِي أعمالِ الخَيْرِ، وتُكْتَبُ لِلإِنْسَانِ بَعدَ مَوتِه، فَتكونُ منَ الآثارِ.

ولِذَلِكَ نُشيرُ عَلَى إخوانِنَا الَّذِينَ وَهَبهمُ اللهُ مَالًا، وَلَهمْ ورثةٌ أغنياءُ لَا يَحْتَاجونهُ، أَنْ يُوقِّفوا جُزْءًا مِنه فِي أَعْمالِ الخيرِ، وليَكُن الجزءُ هُوَ الخُمسَ، خلافًا لِما يَفعلهُ النَّاسُ اليومَ، فَيُوقفونَ الثلثَ.

والثلثُ قَالَ فِيهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الثُّلُثُ كَثِيرٌ**»، وكأَنَّه ﷺ يُشِير إِلَى

أَنَّ الأَولى أَنْ يَنقصَ الإِنْسَانُ فِي وصيَّته عنِ الثلثِ، وَلهَذَا «قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثُّلُثِ إِلَى الرُّبُعِ»؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الثُّلُثُ كَثِيرٌ**»(١).

وَيُذكرُ عَنْ أَبِي بَكرٍ الصِّديقِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّهُ أَوْصى بالخُمسِ، وَقَالَ: أَرْضَى بِمَا رَضِيهُ اللهُ لِنَفسهِ؛ لِأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:٤١]، فَيَكون أَفضل مَا يُوصِي بهِ الإِنْسَانُ هُوَ الخمسُ، وإِن زادَ إِلى الرُّبع فَلَا بأسَ، وإِنْ زَادَ إِلَى الثُّلثِ فَلَا بَأسَ، ولَكِنَّه مَرْجوحٌ.

والنَّاسُ يُوصونَ بِالثُّلثِ إذَا فَارقُوا الدنيَا، ولَا شَكَّ أَنَّ الصَّدَقَةَ وإِنْ كَانتْ خيرًا لَكِنَّها لَيْست كَالصَّدَقَةِ فِي حَال الحياةِ، أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟ فقَالَ: «**أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الفَقْرَ وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلَا تُمْهِلَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ**».

أَي تَتصدَّق وأَنْتَ صَحِيحُ البدنِ، حَرِيصًا عَلَى المالِ، فَالشَّابُّ إِذَا كَانَ لَهُ عِشرونَ سنةً فيؤمِّلُ البقاءَ أَرْبعينَ سَنةً، وإِنْسَانٌ آخرُ لَهُ تِسعونَ سنةً، فلَا يُؤملُ البقاءَ كَثِيرًا.

ولَا تَنْتظرُ إِذَا قَرُبَ الأجلُ قُلت: لِفُلانٍ كذَا ولِفُلانٍ كذَا، وقدْ كَانَ لفلانٍ، فأكثرُ النَّاسُ لَا يَتصدقُ ولَوْ بِقرشٍ واحدٍ فِي حالِ حياتِهِ، ولكنْ يُوصِي بِالثلثِ؛ لِأَنَّ الثلثُ مَضرَّته عَلَى الورثَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا النَّاس، رقم (٢٥٩٢)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٩).

فَمَنْ أَراد أَنْ يَعملَ الخيرَ بِمالِهِ، أَنْ يَكونَ ذَلك فِي أعمالِ الخيرِ العَامَّةِ، وأَفْضلُ ذلكَ المساجدُ، فَالمساجدُ بُيُوتُ اللهِ، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور:٣٦]، فالمساجِدُ مَأوى لِكل مِنَ العَابدِينَ، والمُصَلِّينَ، والعَاكفِينَ، والدَّارسينَ، وقَارِئي القُرْآنَ، والمستضْعَفينَ، ومأْوَى الَّذِينَ لَا يَجِدون مَأْوًى فِي صَيْفٍ أَوْ شِتاءٍ، فَهِيَ مِن أَفْضل أعمالِ البِرِّ، فَالمسجدُ ثَوابهُ دَائمٌ كُلَّ وقتٍ، لَا يَأتِي دَاخلٌ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ إِلَّا كَانَ لعَامرِ المسجدِ مِن ثَوَابهَا.

وإذَا جَعلتَ عَمَلَ الخيرِ لِلمَساجدِ استرَحْت وأَرَحت؛ لِأَنَّك سَوفَ تُسَلِّم هَذِهِ المساجدَ إِلَى جِهَةِ مَسْؤُولةٍ فِي الدَّولةِ تَتَولى شُؤونَهُ، وأَرَحت منْ خَلْفكَ؛ لِأَنَّنا نَجِد الَّذِينَ يُوقِفون عَلَى الذُّرِيَّة يُوجِدُونَ مَشَاكل لِلذرِّية، فكَم مِن أَبْناء عَم تَقَاطعوا بِسَببِ الوقفِ، وَحَدَثت بَيْنهمُ العداوَةُ وَالبغضاءُ بِسَبب الوقْفِ، فَتَجدُ الواحدَ مِنْهم غنيًّا والوقفُ لَهُ مِئَةُ رِيَالٍ فِي السنةِ، وهوَ غَنِيٌّ عِنْدهُ مَلَايينُ، لَكِن إِذَا أخذَ ابنُ عمِّه مِئَة رِيَالٍ الَّتِي هِيَ نَصِيبُهُ فِي الوقفِ، غضِب علَيْه، ونَازَعهُ، وحصَلَت بِذَلك عَدَاوةٌ وبَغْضاءُ.

والأَوقافُ الخَاصَّةُ قَدْ يَكونُ ضَررُها أكثَرَ منْ نَفْعها، وقَدْ يَكونُ فِيهَا نَفْعٌ، أَمَّا الأَوقافُ العَامَّة: كَالمساجدِ، وَالمدارِسِ، وطِبَاعةِ الكتبِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ فَهَذِهِ أعمُّ نفعًا، وأَبعدُ منَ الضرَرِ.



الدَّرس الثَّاني:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس:٥١-٦٥].

في هذه الآياتِ العظيمَةِ يُذَكِّرُ اللهُ تَعالَى عبادَهُ بيومِ القِيامَةِ فإذا نُفِخَ في الصُّورِ، والنَّافِخُ فيه إسْرَافِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَحَدُ حَمَلةِ العَرْشِ، يَنْفُخُ فيه بإذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ النفخةَ الثَّانيَةَ، فإذا نَفَخَ فيه النفخَةَ الثَّانِيَةَ، يُبعثونَ مِنْ قُبورِهِمْ، فيقومُ النَّاسُ من قُبورِهِمْ مرَّةً واحدَةً.

قولُهُ: ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القُبُورُ، ﴿يَنسِلُونَ﴾ يخْرُجونَ مِنْها بسُرْعةٍ، فيقولونَ إذا رأَوْا هذا المشهَدَ العَظِيمَ، ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ أي: مِنْ مَنامِنَا، ثم يقالُ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهُنا أَتَى بالرَّحْمَنِ؛ لأن رَحْمَةَ اللهِ تَعالَى في ذلكَ اليومِ تَتَضاعَفُ تَضاعُفًا كَبيرًا، وقد أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أن لله مئةَ رَحْمَةٍ حيثُ قالَ: «إِنَّ للهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ بِهَا يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ بَيْنَهُمْ، وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ»[1]، ولهذا قالَ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الرجاء مع الخوف، رقم (٦٤٦٩)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (٢٧٥٢).

المرسلونَ الَّذينَ أرسلَهَمُ اللهُ فبلَّغُوا عبادَ اللهِ بهذَا اليومِ العَظِيمِ، يومِ الجَزاءِ، يومَ يُجزَى فيه كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، صيحةٌ واحِدَةٌ بالخَلائقِ أن يَخْرُجوا مِنْ قُبورِهِمْ فيخْرُجونَ بصَيحَةٍ واحِدَةٍ، كما قالَ تَعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازعات:١٣-١٤]، لأن هَذِهِ الصيحَةَ، وهذِهِ الزَّجْرَةَ، من قَوْلِ منْ يقولُ للشَّيْءِ كُنْ فيكونُ، أمَرَهُم اللهُ تعالَى مَرَّةً واحِدَةً أن يَخْرُجُوا فخَرَجُوا، قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

قولُهُ: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فجَمِيعُ الخَلائقِ مُحضَرُونَ عندَ اللهِ، ليُجازِيَ كلَّ إنْسانٍ بِما عَمِلَ، هذا المشهدُ العَظِيمُ حين تُحْشَرُ الخلائقُ كُلها، إنسِيُّها وجِنِّيُّها، بهِيمُهَا وناطِقُها، صغِيرُهَا وكبِيرُها، كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقالَ تَعالَى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥]، وقالَ تعالَى في هَذِهِ الآيَةِ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

قولُهُ تعالَى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾، اليوم يَعْنِي يومَ القِيامَةِ، لا تُظلَم نَفْسٌ شيئًا، لا في المعامَلَةِ بينَها وبينَ اللهِ، ولا في المعامَلَةِ بينَهَا وبينَ الخَلْقِ، وقد أخْبرَنَا النَّبيُّ ﷺ فيما صَحَّ عنه أنه: «يَقْتَصّ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ»[1] حتى لا تَبْقَى مَظلَمَةٌ لأحَدٍ عندَ أحَدٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢).

وأخبرَ النبيُّ ﷺ فيما صحَّ عنه حينَ قالَ لأصْحابِه: «مَنْ تَعدُّونَ المُفلِسَ فِيكُمْ؟» قَالوا: المُفلِسُ مَنْ لَا دِرهَم عِندَهُ وَلاَ مَتَاع قَالَ: «المُفلِسُ مَنْ يَأْتِي يَومَ القيامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الجِبَالِ، فَيَأَتِي وَقَد ضَرَبَ هَذا، وَشَتَمَ هَذا، وَأَخَذَ مَالَ هَذا، فَيَأخُذُ هَذا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِن لَم يَبقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيءٌ أُخِذَ مِنْ سَيئَاتِهِم فَطُرِحَ عَلَيهِ ثُمَ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١).

فالمسلِمُ المؤمِنُ باللهِ وباليومِ الآخِرِ، يعلَم أن هذا الوعْدَ حَقٌّ مثلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ، وسوفَ تُلاقُونَ رَبَّكُمْ فيُجازِيكُمْ بدونِ ظُلْمٍ.

قولُهُ تَعالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثُمَّ بيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى انقِسامَ الخَلائقِ في ذلِكَ اليومِ إلى قِسْمَيْنِ:-

القِسْمِ الأَوَّلِ: أصْحابُ الجنَّةِ، قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾، فأَصْحابُ الجنَّةِ الَّذين عَمِلُوا لها فِي الدُّنْيا؛ فآمَنُوا باللهِ وقامُوا بطاعَتِهِ، وأدَّوْا حُقُوقَهُ على الوجْهِ الأكْملِ، هؤلاءِ هُمْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]، هؤلاءِ هُمُ يوم القيامَةِ ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ قالَ بعضُ العُلماءِ: «المرادُ بالشُّغُلِ هنا أن يتَمَتَّعَ بزوجاتِهِ في ظِلالٍ وارِفٍ، وبنَعِيمٍ وافِرٍ».

قولُهُ: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾، وهَذِهِ الفاكِهَةُ كَما قالَ رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢]، كلُّ مَا يتفَكَّه بِهِ المرءُ فإنَّ فيه زَوجينِ أي: صِنْفينِ، لم تَرَهُما عَيْنٌ، ولم تَسْمَعْ بِهِما أُذُنٌ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

ولم تَخْطُرَ لذَّتُهَا وسرورُ العَيْنِ بِرُؤيتِهِمَا على قَلْبِ بشَرٍ، ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ لهم ما يطلُبُونَ، كلُّ ما تَمَنَّوْا مِنَ النَّعِيمِ فإنهم يُعطونَهُ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١].

قولُهُ: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، سلامٌ أي ليسَ فِيهَا تَنْغِيصٌ ولا كَدَرٌ، ولا مَرَضٌ، ولا هِرَمٌ، ولا مَوتٌ، ولا نَقْصٌ، وليس فيها أيُّ شيءٍ مِنَ المُنكِّدَاتِ، والمُنغِّصَاتِ، سلامٌ بكلِّ معْنَى السَّلامِ، من كلِّ نَقْصٍ، ومن كلِّ آفَةٍ، ولهذا تُسَمَّى الجنَّةُ دارَ السَّلامِ، كما قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [يونس:٢٥].

وفي الحديثِ الصحيحِ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا، فَلاَ تَمُوتُوا أَبَدًا، وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا، فلا تَسْقَمُوا أبدًا، وإِنَّ لَكمْ أَنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبدًا، وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنعَمُوا، فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَدًا»[1]، هذا واللهِ كمالُ النَّعِيمِ ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وما وَصَلُوا إلى هذِهِ المنازِلَ إلا برَحْمَةِ اللهِ لهُمْ ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

القِسْمِ الثَّانِي: أما الصِّنْفُ الثَّاني فهُمُ المجرِمُونَ، الَّذين قالَ اللهُ فيهِمْ: ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ تَميَّزُوا وانفصِلُوا وابْتَعِدُوا عن أهلِ الجنَّةِ، لأن هؤلاءِ المجرِمُونَ يُساقُونَ إلى النَّارِ، ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ويقالُ لهُمْ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ولكنَّهُم والعياذُ باللهِ ما وَفُّوا بهذَا العَهْدِ، ولا قامُوا بما أوجَبَ الله عليهِمْ؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، رقم (٢٨٣٧).

بل أضَلَّهُم الشَّيْطانُ كَما أضلَّ قبْلَهُم خلْقًا كَثِيرًا: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾، بسببِ كُفْرِكُم باللهِ، وغَفْلَتِكُم عن طاعةِ اللهِ، وتكْذِيبِكُم لرُسُلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قولُهُ: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾، فلا يَسْتَطِيعونَ الجوابَ، ولا يستَطِيعُونَ الدِّفَاعَ عن أنفسِهِمْ، ولا يستَطِيعُونَ التَّكْذِيبَ، ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾، فالأَيْدِي تنْطِقُ بما كَسَبَتْ، والأَرْجُلُ تنْطِقُ بما كَسَبَتْ، وحينئذٍ لا يُمكِنُهُم التكذيبُ، فلا يُمْكِنُ للواحدِ منْهُم أن يقولَ ليدَيهِ كَذَبْتِ، ولا لرِّجلَيْهِ كذَبْتِ، وإنما هو مستَسْلِمٌ؛ ولكن حينَ لا ينْفَعُ الاستِسْلامُ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

فتأمَّلُوا أيها المسلِمُونَ هذا المشْهَدَ، تأمَّلُوا هذا الأمْرَ العظِيمَ واستَعِدُّوا لَهُ، وقومُوا بطاعَةِ اللهِ، واسأَلُوا اللهَ تَعالَى العَوْنَ والسَّدَادَ والتَّوفِيقَ، فإن المسلِمَ يقولُ في كلِّ صلاةٍ، قولًا مَفْروضًا عليهِ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥].



الدَّرس الثَّالث:

إن الحمدَ للهِ نَحْمَدُهُ، ونستَعِينُهُ، ونستَغْفِرُهُ، ونتُوبُ إليهِ، ونعوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أَنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئاتِ أعمالِنا، من يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلَا هادِيَ لَهُ، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عبدُهُ ورَسولُهُ، صلى الله عليه، وعلى آلِهِ وأصْحابِه، ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٧-٧٨].

المرادُ بالإِنْسانِ هُنَا الإِنْسانُ المنْكِرُ للبَعْثِ، سواءٌ كان مُعَيَّنًا بشَخْصِهِ، أو معَيَّنًا بوَصْفِهِ. واعلم أن ما جاءَ في كِتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنه مُعَيَّنٌ بوَصْفِه غالِبًا، وإن جاءَ ذِكْرُ أحدٍ بِعَيْنِهِ فإنَّما ذلِكَ لمعنًى يقتَضِيهِ.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس:٧٧] أي: بعد أن خُلِقَ مِنْ هذه النطفَةِ الجامِدَةِ، التي ليس فيها إحساسٌ، وليس فيها بيانٌ ولا نُصْحٌ، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧] أي: يُخاصِمُ خصُومَةً بَلِيغَةً، ومن جُملَةِ ما يُخاصِمُ فيه أنه يقولُ: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]!! والرَّمِيمُ: هو العظَامُ البالِيَةُ النَّخِرَةُ.

فيقول هذا الإِنْسانُ المنكِرُ للبَعْثِ: كيفَ تُحيَا هذِهِ العظامُ الَّتِي رَمَتْ وبَلِيَتْ وتَلَفَتْ، مَن الَّذي يُحْيِيها؟ وجاءه الجوابُ، استمع إلى الجواب، ثم استَمِعْ إلى ما تَضَمَّنَهُ هذا الجوابُ من الأدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ البُرْهانِيَّةِ:

الدَّليلُ الأَوَّلُ: دليلٌ عَقْلِيٌّ بُرْهَانِيٌّ، لا يُمكِنُ أن يُنْكِرَهُ أحدٌ، يقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩].

فيقالُ لهذا الذي يقولُ: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]: مَنِ الذي أنشأَهَا أوَّلَ مَرَّةٍ؟ فسيقولُ: الله عَزَّوَجَلَّ. فُقَلْ: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]؛ لأن القادِرَ على ابتِدَاءِ الخَلْقِ قادِرٌ على إعادَتِهِ من بابِ أَوْلَى، كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] أي: إعادَتُهُ أهونُ عليهِ.

وهذا الدَّليلُ هو دليلٌ مَعْقُولٌ، لا يُمكِنُ أن يجادِلَ فيهِ المجادِلُ؛ لأن المعروفَ أن الإعادَةَ أهْونُ مِنَ الابتداءِ. أرأيتَ لو بَنَيْتَ قَصْرًا فَخْمًا مَشِيدًا، ثم انْهَدَمَ هذا البناءُ، ثم أرادَ أحدٌ أن يُعيدَهُ، أليستِ الإعادَةُ أهونُ مِنَ الابتداءِ؟ بلى؛ لأنها لا تحتَاجُ إلى تَخْطِيطٍ ولا إلى إنشاءٍ مِنْ جديدٍ، وإنما تحتاجُ إلى إعادَةٍ، والإعادَةُ أهونُ، ولهذا قالَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، وهذا دَلِيلٌ.

الدَّليلُ الثَّاني: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩] فالعَليمُ بكُلِّ خَلقٍ، الذي لا يَخْفَى عليه كيفَ يَخْلُقُ، ولا كيفَ يُنْشِئُ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بإعادَةِ الخَلْقِ، وكيف يُعادُ هذا الخَلْقُ، وهذا استِدْلالٌ بعُمومِ عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بكُلِّ خَلْقٍ. ولا يمكنُ أن يكونَ العَجْزُ عن الشيءِ إلا لأحدِ أمْرَيْنِ؛ إما الجَهْلُ وإما العَجْزُ.

ولهذا لو قيلَ لشخصٍ: اصنَعْ لنَا مُسَجِّلًا، وهو لا يَدْرِي كيفَ يصنَعُ، فلا يمكِنُ أن يصنَعَ المسجِّلَ، فهو لم يَدْرُسْ كيفَ يُنْشِئُ هذا المسجِّلَ، فلا يَعْلَم كيفَ يصنَعُ هذا المسَجِّلَ. وكذلك لو قيلَ لإنْسانٍ عالمٍ بهذِهِ الصَّنْعَةِ، لكنه غيرُ قادِرٍ عليها، كأن يكونَ أشَلَّ مَثلًا، لو قيل له: اصنَعْ هذا المسَجِّلَ. فلن يستَطِيعَ، فهو دَرَسَ كيفَ تُصَنَّعُ هذه المسجِّلاتُ، لكنه لا يستَطِيعُ أن يعمَلَ بيدَيْهِ، لذلك لن

يستطيعَ أن يفْعَلَ ذلِكَ؛ لأنه ليس بقادِرٍ، فالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩] وهو قادِرٌ عليهِ. فهذَا دليلٌ آخَرُ على إمكانِ إعادَةِ العِظَامِ الرَّمِيمَةِ.

الدَّليلُ الثَّالِثُ: قولُهُ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠]، ولم يَقُلْ: بِهِ. بَلْ قالَ: ﴿مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، وذلك أن هناك شَجَرًا مَعْروفا كانَ النَّاسُ يسْتَعْمِلُونَهُ قبلَ إيجادِ الوسائلِ الأخيرَةِ؛ شَجَرٌ يُضرَبُ بالزنْدِ -الزند: نوعٌ مِنَ الحديدِ يُضْرَبُ به هذَا الشَّجَرُ هكَذَا- ثم ينْقَدِحُ نارًا، فيوقِدُ النَّاسُ بِهَا. مع أن الشَّجَرَ الأخضَرَ ينَافِي النَّارَ؛ لأن النَّارَ حارَّةٌ ويابِسَةٌ، والشَّجْرُ الأخضَرُ رَطْبٌ بارِدٌ، ومع ذلك يُخرِجُ اللهُ هذِهِ النَّارَ الحَارَّة اليابِسَةَ من هذا الشَّجَرِ الأخضَرِ الرَّطْبِ البارِدِ، والقادِرُ على إيجادِ الشيءِ مِنْ ضِدِّهِ قادِرٌ على إعادَةِ هذِهِ العظامِ الرَّمِيمَةِ بعدَ أن كانَتْ رَمِيمَةً.

الدَّليـلُ الرَّابـعُ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١]، فخَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ أكبرُ مِنْ خَلْقِ الإِنْسانِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، فخَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ أعظَمُ من خَلْقِ الإِنْسانِ، فالَّذي قَدَّرَ على خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ وعلَى إيجَادِهِمَا، وما فيهِمَا مِنَ المصالِحِ والمنافِعِ، والكواكِبِ العظِيمَةِ الهائلَةِ، قادِرٌ على أن يُعِيدَ هذه العِظَامَ بعدَ أن كانَتْ رَمِيمَةً، ثم يأتِي الجوابَ وهُو ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١].

الدَّليـل الخَـامسُ: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١]، و﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ مِنَ النَّاحِيَةِ اللُّغوِيَّةِ صيغَةُ مبالِغَةٌ تَدِلُّ على كَثْرَةِ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهي مِنْ وجْهٍ آخَرَ صِفَةٌ مشبَّهَةٌ

تَدُلُّ على اتِّصافِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالخَلْقِ اتِّصافًا لا ينفَكُّ منه، ولهذا لم يَزَلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولا يَزالُ خَلَّاقًا عَلِيمًا، ولهذا قالَ: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١]، فالخَلَّاقُ القادِرُ على الإيجادِ، العَلِيمُ بذلِكَ، قادِرٌ على أن يُعِيدَ العِظامَ وهِي رَمِيمٌ حتى تكونَ خَلْقًا جَدِيدًا.

الدَّليـل السَّـادس: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ هذه الجملةُ جملةُ حَصْرٍ، يعني ما أَمْرُه إذا أراد شيئًا إلا أن يتكلَم بهذه الكلمة: (كن)، فيكون على مُراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بدون أن يُعيِّنَ اللهُ له ما يكون، ولكنَّه إذا قالَ: كُنْ فإنما يكون الشيءُ بإرادةِ اللهِ، وعلى حسبِ إرادتِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

إذن ليس هناك تعَبٌ، وليسَ هناك مشقَّةٌ، وليسَ هناك مُحاولةُ فعلٍ فيما يريدُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فليس هناك إلا كلمةٌ واحدةٌ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازعات:١٣-١٤]؛ يزجرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الخَلْقَ فيخرجونَ من قبورِهم بهذه الزَّجْرةِ الواحدةِ، فإذا هُم على سَطحِ الأرْضِ قِيامًا للهِ ربِّ العَالمينَ.

وكلمة (شيئًا) نكِرةٌ في سِيَاق الشرطِ، والنكرةُ في سياقِ الشرطِ تفيد العمومَ، إذن أيُّ شيءٍ يريده الله عَزَّوَجَلَّ فإنما يقول له: كن فيكون، على مرادِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

هذا هو الدَّليلُ السَّادسُ على إثباتِ قدرةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على إعادةِ الخلقِ.

الدَّليـلُ السَّابـعُ: قولُه تعـالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾. و(ملكوت) أي: مُلك، وزيادة الواو والتَّاء للمبالغة؛ لأنه لا مُلكَ أتمُّ من ملكِ الله عَزَّوَجَلَّ ولا أبلغُ من ملكِه، له مُلكُ السَّماواتِ والأرْضِ، حتَّى ما أضافَه اللهُ إلينا من

المملوكاتِ، فإنَّنا لا نَمْلِكُه ملكًا مُطْلَقًا، وإنما نملِكه ملكًا مُقَيَّدًا، فنتصرَّفُ فيه حَسَبَ شريعةِ اللهِ. حتى ما تملِكُه أيُّها العبدُ من المالِ، ومن الأرقَّاءِ، ومن الحيوانِ، فإنك لا تملكه ملكًا مطلقًا، إنما ملكُك إياه ملكٌ مقيَّدٌ بحسَبِ شريعةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالملكُ المطلَقُ للهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فكل شيء فَمُلكُه بيد الله عَزَّوَجَلَّ.

الدَّليلُ الثَّامنُ: نأخذُ من قولِه: ﴿فَسُبْحَـٰنَ﴾ أيضًا دليلًا على إمكانِ قُدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على إعادةِ الخَلْقِ؛ ذلك لأنَّ كلمةَ (سُبحان) معناها: تنزيهًا للهِ، وتنزيهُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يكونُ عن أمرينِ: عن كلِّ نقصٍ في صفاتِه، وعن مماثلةِ المخلوقينَ ومشابهتِهم، فهو مُنَزَّه عن كلِّ نقصٍ، ومنزهٌ عن مماثلةِ المخلوقينَ ومشابهتِهم، وإذا كان مُنزَّهًا عن كلِّ نقصٍ، فإنَّ عدمَ القُدرةِ نقصٌ، وعلى هذا فيكونُ في كلمةِ (سبحان) دليلٌ على إمكانِ إعادةِ الخلقِ، وأن ذلك لا يُعجِزُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لو كان يُعجِزُه لَكان نَقصًا، واللهُ تعالى مُنزَّهٌ عن النقصِ.

الدَّليلُ التَّاسعُ: قولُه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ فإن هذا دليلٌ على أن البَعْثَ لا بدَّ منه، وهو دليلٌ ليس على إمكانِ البَعثِ فقطْ، ولكن على وُجُوبِ البعثِ، وأنَّه لا بدَّ لهذه الخَليقةِ أن تُبعَثَ، وتُجازَى على أعمالها؛ لأنَّها لو لم تُبعَثْ، وكانت أرحامًا تَدفَعُ وأرضًا تبلَعُ؛ لم يكن لهذا الخلقِ من حكمةٍ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منزَّهٌ عن السَّفَهِ في فِعله؛ لأنه -جل في عُلاه- كاملُ الحِكمةِ.

وعلى هذا فيكون في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ دليلٌ على إمكانِ البَعْثِ، وعلى وجوبِ البعثِ، وأنه لا بدَّ أن يكونَ البعثُ حتَّى يجازَى كلُّ إنْسانٍ بما عمِل؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

المهمُّ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بيَّنَ في كتابِه الأدلةَ العقليَّةَ والحِسِّيَّةَ على إمكانِ البعثِ، وأنَّه أمرٌ لا بدَّ منه؛ لأنه إذا آمَنَ الإنْسانُ به، وتَقرَّرَ في ذِهنه فلا بد أنْ يَعْمَلَ لهذا اليوم الذي يُبعَث فيه، ويُجازَى على عملِه، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

وهذه الجملة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مُوجِبةٌ للبعثِ، فضلًا عن الدلالةِ على إمكانِ البعثِ.

وإذا شِئنا أن نكملَ العُقَد العشرةَ أمكننا أن نضيف ما قبل ذلك، وهو ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فإنَّ القادرَ على خَلْقِه من هذا الماءِ المهينِ، قادرٌ على أن يعيدَ خَلْقَه من عظامٍ هي رَميم، فتكون الأدلةُ هنا عشَرةَ أدلةٍ معقولةٍ بيِّنةٍ واضحةٍ.

والحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصَّالحَاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَم على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدَّرس الرَّابع:

إنَّ الحَمْدَ للهِ تَعَالَى؛ نَحْمَدهُ ونَسْتَعِينهُ ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذ بالله من شرورِ أنفُسنا، وسَيِّئات أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وحدَه لا شَريكَ له، وأشهدُ أن مُحَمَّدًا عبده ورَسولُه، بلَّغ الرِّسالَةَ، وأدَّى الأمانـةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وتركَها على بيضـاءَ نقيَّةٍ، لا يَزيغ عنها إلَّا هالِك، فصلواتُ الله وسلامُه عليه وعلى آلِه وأصْحابِهِ، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس:٥١-٥٤].

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هَذَا الفعلُ (نُفِخَ) مبنيٌّ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه، والفاعلُ الَّذي ينفخُ في الصورِ هو إسرافيلُ؛ أحدُ الملائكةِ الكِرامِ العِظامِ، وكَّلَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِنَفْخِ الصُّور، وهو ينفُخُ بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يَنتظِر متى يُؤمَر. والنفخُ في الصُّورِ مرَّتانِ؛ المرَّةُ الأُولَى: ينفخُ في الصورِ فتَفْزَع الخلائقُ، ثم تَصْعقُ؛ لأنَّه يُحدِثُ صوتًا عظيمًا يَفزَع منه النَّاسُ، ثمَّ تَتَقطَّعُ القلوبُ، فيَصْعَق النَّاسُ جميعًا، ثمَّ يَنفُخ فيه أُخرى فإذا هم قِيامٌ ينظرونَ، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

و(الصُّور) ذكرَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنَّه قرنٌ عظيمٌ واسِعٌ؛ سَعَتُه كما بين السَّماء والأرْضِ، تجتمع فيه الأرواحُ، فإذا نفخَ فيه النفخةَ الثَّانيةَ خرجتِ الأرواحُ منه، وحلَّتْ كلُّ رُوحٍ في جَسَدِها الَّذي كانت تَعْمُرُهُ في الدُّنْيا لا تُخْطِئُه؛ لأنَّها أُمرتْ بهَذا؛ بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾؛ (الأجداث) جمعُ جَدَثٍ، وهو القبرُ؛ أي فإذا النَّاسُ من قُبورِهم يُسرِعون إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يُسرِعون لأنَّهم يُدْعَوْنَ إلى المَحْشَرِ لِيُقْضَى بينهم، يقضي بينهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ قضاءً دائرًا بين العدلِ والفضلِ، بين العدلِ بالنسبةِ للكافرينَ، والفضلِ بالنسبةِ للمؤمنينَ؛ لأن الكافِرَ يُجزَى على حَسَبِ سَيِّئاتِه، والمُحْسِنُ المؤمنُ يُجزَى الحسنةَ بِعَشْرِ أمثالها إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

﴿قَالُواْ﴾ أي: المكذِّبون بالبَعْثِ ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ مَنِ الَّذي بَعثنا من المرقدِ؛ وهو مكانُ أَجداثِهم؟ فيُقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، ويَحتمِلُ أن يكون هَذَا الجوابُ من بعضِهم لبعضٍ، أو أن يكون من أحدِ الملائكةِ، إنما هو قولٌ يُقالُ لهم.

وبَعْثُ هذهِ الأُمَمِ العظيمةِ؛ الَّتي لا يَعلَم عَدَدَها إلَّا خالقُها جَلَّ وَعَلَا لن يَستغرق وقتًا كثيرًا؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ إن كانت إلَّا صيحةً واحدةً يُصاحُ بهم، فيخرجون من الأجداثِ، ويحضُرون جميعًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهَذَا كقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازعات:١٣-١٤]، أي على وجهِ الأرْضِ، صيحةٌ واحدةٌ يُصاحُ بهم،

فيَخرجون أحياءً بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهَذَا البَعْثُ ليسَ بصعبٍ، ولا بِعَسِيرٍ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان:٢٨]، وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق:٤٤]، فبكلمةٍ واحدةٍ يُحْيَا النَّاسُ، ويُبْعَثُون، ويأتون إلى ربِّ العَالمينَ للقضاءِ بينهم. نسألُ اللهَ تعَالَى أن يخفِّف عنَّا ذلك اليومَ.

وهَذَا اليومُ يومٌ عَسيرٌ على الكَافِرينَ؛ كما قال تَعالَى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦]، وقال تَعالَى: ﴿عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠]، فليس فيه يُسرٌ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ، بل هو عسيرٌ في جميعِ المواقفِ. نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعَافيةَ.

ثم قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس:٥٤]، لا تُظلَم بنقصٍ ولا زيادةٍ؛ بنقصٍ منَ الحَسَنات أو زيادةٍ في السَّيِّئاتِ؛ لقولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، حتَّى الكفارُ يُعذَّبون ولكنَّهم لا يُظلَمون؛ لأنَّهم هم الَّذين ظلموا أنفسَهم؛ كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧].

وفي هذهِ الآياتِ الكريمةِ دليلٌ على كمالِ قدرةِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه إذا أرادَ شيئًا قال له: كن فيكون، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤]، وقد ذكرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في القُرآنِ الكريمِ كثيرًا من الآياتِ الدَّالَّةِ على قُدرتِه على البَعثِ وعلى إحياءِ الموتَى بعدَ موْتِهم، وذكر أدِلَّةً حِسِّيَّة وأدلةً عَقليَّة، وذكر وقائعَ محسوسةً شُوهدت بإحياءِ الموتَى.

وفي سورةِ البقرةِ خمسُ قِصَصٍ فيها إحياءُ الموتى:

القصَّةُ الأولى: قصةُ بني إسرائيلَ؛ حين قالوا لمُوسَى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]، فأخذَتهم الصَّاعقةُ وماتوا، ثمَّ بعثَهم اللهُ تَعالَى بعد موتِهم، كما قال تَعالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٦].

القصَّةُ الثَّانيةُ: قصةُ قَتيلِ بني إسرائيلَ في قصةِ البقرةِ؛ قبيلتانِ من بني إسرائيلَ قُتل من أحدِهما رجلٌ، فاتهموا القبيلةَ الأخرى، وادَّارَؤُوا فيها، ثمَّ أمرَهم مُوسَى ﷺ أن يذبحوا بقرةً، وأن يضرِبوا هَذَا القتيلَ بجزءٍ منها، فيَحْيَا القتيلُ بإذنِ اللهِ، ويقول: الَّذي قتَلَني فلانٌ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]، فعَجِبُوا من ذلك؛ كيف نذبحُ بقرةً لِنَسْتَدِلَّ بِذَبْحِها على قاتلِ القتيلِ؟! وقالوا لمُوسَى: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛ أي: أتستهزئ بنا؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]؛ لأن مَنِ اتَّخذَ عبادَ اللهِ هُزُوًا فهو جاهلٌ، ظالمٌ، معتدٍ.

فلو أنهم ذبحوا أيَّ بقرةٍ لَحَصَلَ المقصودُ؛ لأن مُوسَى قَالَ: ﴿تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فلو ذبحوها مِن أولِ الأمرِ لَكَفَاهم أيُّ بقرةٍ يَذبحونها، ولكنَّهم قالوا تَعَنُّتًا وتَشَدُّدًا، فشَدَّد اللهُ عليهم: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ [البقرة:٦٨]؛ أي ما سِنُّها أكبيرةٌ هي أم صغيرةٌ؟ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:٦٨]؛ ولو ذَبَحوا أيَّ بقرةٍ لأجزأَتْ، على أيِّ لونٍ، لكنَّها بهَذَا السنِّ؛ سنٍّ وسطٍ؛ لا فارضٌ كَبيرةٌ، ولا بِكرٌ صغيرةٌ.

لكنَّهم لم يَكتفوا بهَذَا ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ

يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ [البقرة:٦٩]؛ شَدَّدَ عليهم حتَّى في اللونِ؛ ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ يعني أن صُفرتَها شديدةٌ، فاقعةٌ، الثَّالث: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ فليست صفراءَ تَسُوء مَن نَظَرَ إليها، وهَذَا فيه نوعٌ من التشديدِ.

ولكنَّهم ما اكتفَوا بذلك؛ بل طلبوا أيضًا تعنُّتًا وتَشَدُّدًا أوصافًا أخرى، فـ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٧٠]، كلام عَجْرَفَة، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] أوصاف ثلاثة: (لا ذَلُول) يعني ليستْ مُذَلَّلَةً، مُهانة، (تُثير الأرْضَ) فيُحرَث عليها، (تَسقِي الحرثَ) فيُستقَى بها، (مُسَلَمة) يعني سليمةً من كلِّ عيبٍ، (لا شِيَةَ فيها) لا عَيبَ فيها إطلاقًا.

بعدها قالوا: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ كلامُ كبرياء والعياذُ باللهِ، وكأنَّه قبلُ لم يأتِ بالحقِّ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي: ذبَحوها بعدَ أن بَعُدَ فِعلهم الذبحَ، (وما كادوا) أي ما قربوا أن يفعلوا إلَّا بعدَ الَّتي واللَّتيَّا.

قال: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣]، فضربُوه ببعضِها، هَذَا البعض ليسَ لنا حاجةٌ في أن نعرفَ ما هَذَا البعضُ أهو الرجْلُ أو اليدُ أو الضِّلَعُ أو غيرِ ذلك.

فضربُوه، فأحيا اللهُ هَذَا الميتَ القتيلَ، وقال: إن الَّذي قتَلَني فلانٌ، وهَذَا من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

القِصَّةُ الثَّالثةُ: قصةُ الَّذين خَرَجوا من دِيَارِهِم وهم أُلوفٌ؛ لأنَّه نزلَ في ديارهم وَبَاء، فقالوا: اخرجوا، فخرجوا حَذَرَ الموتِ، فقالَ اللهُ لهم: مُوتوا، فماتوا.

فإنْ قالَ قائلٌ: هل هَذَا القول كونيٌّ أو شرعيٌّ؟

فالجواب: أولًا الأقوالُ الإلهيةُ ثلاثة: كونيٌّ، وشرعيٌّ، وكونيٌّ شرعيٌّ، وهذهِ القسمةُ ليسَ لها رابعٌ.

فهَذَا الأمرُ أمرٌ كونيٌّ؛ لأنَّ الإِنْسَانَ لا يَملِكُ أن يُمِيتَ نفسَه، لكن يملك أن يقتلَ نفسَه؛ ولهَذَا كانت توبةُ بني إسرائيلَ أن يقتلوا أنفسَهم، قالَ اللهُ لهم: موتوا؛ وهَذَا أمرٌ كونيٌّ، فماتوا، ثمَّ أحياهم اللهُ لِيَتَبَيَّنَ لهم أنَّه لا مَفَرَّ من قضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وأن الإِنْسَانَ مهما فرَّ من قضاءِ اللهِ وقدرِه فاللهُ مُدْرِكُهُ، ولا محَالَةَ، فعَرَفوا الآن أنَّه لا مفرَّ من قضاءِ اللهِ وقدرِه، وأن الَّذي يريدُ أن يَفِرَّ من قضاءِ اللهِ وقَدَرِه جاهلٌ.

ولهَذَا قال النَّبِيّ ﷺ فيمَن وقَع في أرضِهم الطَّاعونُ: «**إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ، وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ**» لأنكم لا تفرون من قضاءِ اللهِ وقدرِه «**وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلا تَدْخُلُوا عَلَيْهِ**»[1].

وفي هَذَا قصةٌ وقعتْ في عهد عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فأميرُ المؤمنينَ عمرُ ابنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خرجَ مُتَوَجِّهًا إلى الشَّامِ، وفي أثناءِ الطَّريقِ بلغهُ أن الطَّاعونَ وقعَ في الشَّامِ، وهو طاعونٌ عظيمٌ يُسَمَّى طَاعون عَمْوَاس، فتوقَّف عنِ السَّير؛ لأنَّه بين أمرينِ؛ إما أن يَقْدُمَ على هذهِ البلادِ الوَبِيئَة، فيَهلِك النَّاس بذلك، أو يَرجِع فيكون في هَذَا شيءٌ من نقص التوكُّل على اللهِ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٨٢).

وكان من عـادةِ أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على سَدادِ رأيـه وموافقتهِ للصوابِ؛ أن يستشيرَ الصَّحابةَ في الأمورِ المهمَّة، فاستشارَ الصَّحابةَ، فاختلفوا على رأيينِ؛ منهم مَن قَالَ: نعتمِدُ على اللهِ ونَقْدمُ، ومنهم من قَالَ: نرجِعُ لِئَلَّا نُعرِّض أنفسَنا للهلاكِ؛ لأن اللهَ يقولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النِّساء:٢٩]، فاختلفوا على قولينِ، فجمعَ المهاجرينَ الأوَّلِينَ لأنَّه كان يَنْتَخِبُهم الأفضلَ فالأفضلَ، والأمثلَ فالأمثلَ، فاتفقَ المهاجرونَ على أن يَرجعَ، فوُفِّقُوا للصوابِ، فقرَّر الرجوعَ.

فأتى إليه أبو عُبَيْدَةَ عامرُ بنُ الجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذي سمَّاه النَّبيُّ ﷺ (أَمِينَ هذهِ الأُمَّة)، فقال: «أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟». وكان عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُجِلُّ أبا عُبَيْدَةَ إجلالًا عَظيمًا حتَّى قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين طُعِن: «لَوْ أَدْرَكْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ فَاسْتَخْلَفْتُهُ وَمَا شَاوَرْتُ فِيهِ فَإِنْ سُئِلْتُ عَنْهُ، قُلْتُ: اسْتَخْلَفْتُ أَمِينَ اللهِ وَأَمِينَ رَسُولِهِ»[١]؛ لأن النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ**»[٢].

فقال له عمر: «لَوْ غَيْرُكَ قَالها يا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ»؛ يعني: أتمنَّى أن غيرَك هو الَّذي قالها؛ لأن هذهِ الكلمةَ وإن كان ظاهِرُها أنها فِقه، لكنَّها ليستْ فِقهًا في الواقعِ؛ فالفقهُ في الواقعِ ما اتفقَ عليه المهاجرونَ الأوَّلون، وَوَافقَهم عليه سَديدُ الرأيِ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) أخرجه ابن الإمام أحمد في فضائل الصَّحابة (٢/ ٧٤٢)، رقم (١٢٨٥)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٤١٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم (٤٣٨٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه، رقم (٢٤١٩).

ثُمَّ ضربَ له مثلًا؛ قَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتْ لَكَ إِبِلٌ فَهَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ» أي شعبتان «إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ». فأقنع عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبا عبيدة بهَذَا المثالِ الحيِّ، وبينما هم كذلك إذ جاءَ عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان قد تَغَيَّبَ في حاجةٍ له، وسمِعَ بالخبرِ، فحَدَّثَهُم عن رَسول الله ﷺ أنَّه قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ». فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ انْصَرَفَ[1].

إذن صار رأيُ المهاجرينَ وعمرُ هو الرأيَ السديدَ؛ الموافِقَ للسنَّة. فهذه مصلحةُ المَشورةِ، والنَّاسُ إذا تَشاوروا بقصدٍ حَسَنٍ، مع كمالِ الرأيِ، فإنَّهم يُوَفَّقُونَ للصَّواب.

فإنْ قالَ قائلٌ: هل هَذَا يُعارِضُ ما ذكرَ اللهُ في الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٣]؟

فالجواب: لا مُعارضةَ؛ لأن الصورةَ مُختلِفةٌ، فالَّذين في الآيةِ خَرَجوا منَ البلادِ بعد أن وقعَ فيها الوباءُ، وأمَّا قصةُ عمرَ معَ الصَّحابةِ فامتنعوا عن دخولِ أرضٍ فيها الوباءُ.

ولهَذَا من قواعدِ الفقهِ الَّتي يَنبغي لكلِّ فقيهٍ أن يَعرِفها، وهي قاعدة معروفة: الدَّفْعُ أسهلُ منَ الرَّفع، يعني دفع الشَّيْءِ قبل وُقوعِه أسهلُ من رفعِه بعد وقوعِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب ما يذكر في الطَّاعون، رقم (٥٧٢٩)، ومسلم: كتاب السَّلام، باب الطَّاعون والطيرة والكهانة ونحوها، رقم (٢٢١٩).

وهناك قاعدةٌ طبيةٌ: يقولون: الوقايةُ خيرٌ منَ العِلاجِ.

القصَّة الرَّابعة: قصةُ الَّذي مرَّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عُروشها.

فهذا رجلٌ مرَّ على قريةٍ، والقريةُ في اللُّغَة العَرَبِيَّة ليستْ هي القريةَ في العُرف، فعندنا القريةُ هي البلدة الصغيرةُ، لكنَّها في اللُّغَة العَرَبِيَّة تُطلَق على أكبر المُدُنِ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣]، وعلى هَذَا إذا قالَ لك إِنْسانٌ: يا ابنَ القَريةِ، فلا تَغْضَبْ؛ لأَنَّه إذا قال: يا ابنَ القريةِ، فربما تكون هذهِ القريةُ مدينةً كبيرةً.

فهَذَا الرَّجلُ مرَّ على قريةٍ، وهي خاويةٌ على عُروشِها، ميتةٌ، هامدةٌ، أَوراقُها يابسةٌ، وأشجارُها مُحْتَرِقَة، فقال إمَّا بلسانِه أو بحالِه؛ يعني أَنَّه قدَّر في نفْسه أو قال بلسانِه: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩].

والقولُ في الآيَةِ يُحمَل على القولِ باللسانِ؛ لأن الأصلَ حملُ الكلامِ على ظاهرِه، وأنه قال بلسانِه، لا بحالِه.

فإذا قالَ إِنْسانٌ: كيف تقولون: قال بلسانِه، هل معه أحدٌ؟

قلنا: نعم، معه أحد، فقد يكونُ مع جماعةٍ ومرُّوا وتحدثوا، وقال: كيف يحيي الله الأرْض بعد موتها؟

أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بهَذَا الرَّجلِ الخيرَ ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة:٢٥٩] اللهُ أكبرُ! قال العُلَماءُ: إنما قَالَ: لَبِثْتُ يومًا أو بعضَ يومٍ؛ لأنَّ الله أماتَه في أوَّلِ النهارِ ثمَّ بعثَه في آخِرِه، فظنَّ أن هَذَا اليومَ هو اليومَ الَّذي مات فيه، فقال: لبثتُ يومًا أو بعضَ يومٍ.

وفي هَذَا دليلٌ على أن الموتَى في قُبورِهم؛ الَّذين لهم ملايينُ السنين لا يَحْسَبون أنهم أقاموا إلَّا يومًا أو بعضَ يوم. ونظير ذلك في المحسوسِ أن الإِنْسَان النَّائمَ إذا كان نومُه لذيذًا، ربما يَنام اثنتي عشْرة ساعةً، وإذا قام ظنَّ أَنَّه لم ينمْ إلَّا خمسَ دقائقَ، أما إذا كان نومُه غيرَ لذيذٍ، وكانت المرائي تَروحُ وتجيءُ في نَومه، ويتقلَّبُ في فِراشه، فسيكونُ النومُ طويلًا.

على كل حالٍ الإِنْسَانُ إذا غاب بنومٍ أو موتٍ، فإن الأيامَ ستمرُّ به سريعةً كأنها ساعةٌ واحدةٌ، انظر إلى أصْحابِ الكهفِ؛ لبِثوا في كهفهم ثلاثَ مئةٍ سنينَ وازدادوا تسعًا، ولما استيقظوا قال بعضهم لبعضٍ: كم لبِثتم؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعضَ يومٍ.

فهَذَا الرَّجلُ قَالَ: لبثتُ يومًا أو بعضَ يومٍ، فقالَ اللهُ له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:٢٥٩].

وهنا فائدةٌ: التَّاء في قولِه: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ بالفتحِ للمخاطَبِ، وفي قولِه: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ بالضم للمتكلِّم؛ فالتَّاء إذا كنتَ تخاطبَ أحدًا افْتَحْهَا، وإذا كنتَ تتحدَّث عن نفسِك ضُمَّها.

إذن ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ يخاطبه اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿قَالَ لَبِثْتُ﴾ يتحدَّث عن نفسِه ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:٢٥٩].

ثم أراه اللهُ تَعالَى آيَةً من آياتِ اللهِ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ يعني عِظام الحِمار ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يَتغيَّرْ، والهاءُ في قوله: (يتسنَّه) للسَّكت؛ وهاءُ السكتِ هي الَّتي يُؤتَى بها في آخِر الكلامِ ساكنةً. وفي سُورة الحاقَّة: ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥] فالهاء هنا للسكتِ، وليست ضميرًا.

أما قوله:﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة:٢٧] فليستْ هاءَ السكتِ، بل هي تاءٌ للتأنيثِ، و﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٨] للسكت، و﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٩] للسَّكت.

إذن ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ الهاء للسكت؛ أي لم يَتغيَّرْ؛ فالطعامُ والشرابُ بقيَ مئةَ سنةٍ على وجهِ الأرْضِ لم يتغيرْ، ولم يَجِفَّ، ولم يَتغَيَّرْ لونُه ولا طَعْمُه، ولا رِيحُه، مع أن الطعامَ عادةً إذا بقيَ يومًا وليلةً يفسَد، والماءُ كذلك إذا لم يكن جاريًا يفسَد، يكونُ آجِنًا[1]، وهنا مئة سنة ولم يتغيرْ، لا إله إلَّا الله! مئة سنةٍ من التعرضِ للشمسِ والرياحِ والغُبارِ، ولم يَتغيَّر هَذَا الطعام!

قال بعض العُلَماءِ: «إن الطعام كان من العِنَبِ»، ولكن هَذَا لا يُهِمُّنا من عنبٍ أو من غيرِ العنبِ، المهم أنَّه طعامٌ، ولم يتغيَّرْ.

قال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، نظر إلى الحمار فإذا الحمارُ قد ماتَ، ولم يبقَ من الحمارِ إلَّا عِظَامُه تَلُوح -سبحان الله- الطعامُ والشرابُ لم يتغيرْ، والحمارُ تغيَّر تَغيُّرًا عظيمًا، فما بقيَ إلَّا عِظامه.

قال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾؛ فنظرَ

(١) الماء الآجن: هو المتغير الطعم واللون. النهاية في غريب الحديث (أجن).

إلى العظامِ يركب بعضها ببعضٍ، ويخلق الله العصبَ فينشز بعضها ببعض، وهو يشاهدُ، ثمَّ يَكسُوها اللحمَ حتَّى تم الحِمار؛ فهذهِ من آياتِ اللهِ العظيمةِ الدَّالَّةِ على كمالِ قُدرتِه جَلَّ وَعَلَا.

فهنا مُتناقضانِ عظيمانِ؛ طعامٌ وشرابٌ لم يتغيرْ، وحمارٌ تغيَّر، ويشاهدُه وهو يُحْيِيه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أمامَ عينِه.

قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فمنّ الله على هَذَا الرَّجلِ بأنْ أراه آيَةً يصلُ بها إلى اليقينِ، وهذهِ من نعمةِ اللهِ عليك أيها الإِنْسَانُ، فإذا منَّ اللهُ عليك بشيءٍ يُوصِلُك إلى اليقينِ فاحْمَدِ اللهَ، فكم من أُناسٍ كانوا في شكٍّ وقلقٍ وريبٍ ولم يؤمنوا بالغيبِ، فإذا منَّ اللهُ عليك بالإيمانِ بالغيبِ، وكأنما تشاهدُ ما أخبرَ اللهُ به ورَسولُه، فاعلمْ أن هَذَا من نعمةِ اللهِ عليكَ.

القِصَّةُ الخَامسةُ: قصةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إمامُ الحُنَفاءِ، حتَّى قالَ اللهُ لنبيِّه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

قال إبراهيمُ يومًا من الأيامِ: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠]؛ لأنَّ الإِنْسَانَ يطمئنُّ إلى ما شاهَدَ أكثرَ مِمَّا يطمئنُّ إلى ما أُخبِر به، ولا شكَّ، كما قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ**»[1].

وإبراهيمُ واللهِ ما شكَّ، بل قد قال النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥).

مِنْ إِبْرَاهِيمَ»[1]. يعني إن كان شكٌّ من إبراهيمَ فنحن أَولَى مع أننا لم نشكَّ، ولكن إبراهيمُ أرادَ ذلك حتَّى يستقرَّ الإيمان في قلبِه استقرارًا بطمأنينةٍ تامَّةٍ، ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، فأمره الله فقَالَ: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ [البقرة:٢٦٠]؛ أي ضُمَّهُنَّ إليك؛ يعني بعد أن يذبحهنَّ، ويخلِط اللحمَ والريشَ والعظمَ ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة:٢٦٠]، وكان حوله جبالٌ أربعةٌ، فجعل على كلِّ جبلٍ جزءًا، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ [البقرة:٢٦٠]؛ يعني أيتها الطيورُ أَقْبِلي، فدعاهنَّ، فجاءت تسعى، اللهُ أكبرُ! لحمٌ وعظمٌ وريشٌ ودمٌ مخلوطة، ثمَّ اجتمعَ كلُّ جزءٍ إلى أصلِه وجاءت تسعَى إلى إبراهيمَ ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠].

فهذهِ خمسُ قصصٍ في سورةٍ واحدةٍ؛ وهي سورة البقرةِ، وقعتْ بالفعلِ، حيث أُحييَ الموتى في الدُّنْيَا.

أما الأدلَّةُ العقليَّةُ والحِسِّيَّةُ على إثباتِ البَعثِ فإنَّها كثيرةٌ في القُرآنِ، فمنها مثلًا أنَّ اللهَ استدلَّ على قُدرتِه على إحياءِ الموتَى بالأرْضِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، وهَذَا دليلٌ حِسِّيٌّ مُشاهَد، وأمَّا الأدلَّة العقليَّة فسبقَ لنا ذِكر شيءٍ منها فيما سبق.



(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ [الحجر:٥١ - ٥٢]، رقم (٣٣٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، رقم (١٥١).

الدَّرس الخَامس:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبِيِّين، وإِمَامِ المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧١-٧٣]؛ هذِهِ الآيَةُ الكريمَةُ يقرِّرُ اللهُ تَعالَى فيهَا مَا خَلَقَهُ لعبادِهِ وسَخَّرَهُ لهُمْ مِنَ الأنْعامِ؛ وهِيَ الإبلُ التي يَرْكَبُونَها ويشْرَبُونَ منْها، وهي مذَلَّلَةٌ لهم غايَةَ التَّذْليلِ، تجِدُ الصبيَّ الصغيرَ مِنَ البادِيَةِ أو غيرِ البادِيَةِ يقودُ هذا البعِيرُ الكبيرُ في السِّنِّ إلى ما يُريدُ؛ يقودُهُ ليذْبحَهُ ويأكلَ مِنْه، يقودُهُ ليشْرَبَ لبَنَهُ، يقُودُهَا لينْتَفِعَ بشُعورِهِ، وغير ذلك مِنَ المنافِعِ الكثيرَةِ، فمَنِ الَّذِي ذلَّلَ لنا هذهِ الأنعامَ؟ إنَّه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧٢-٧٣].

وقد استَمَعْنَا إلى تقْريرِ البعْثِ وجوازِهِ حسًّا وعَقْلًا، بما ذكَرَ في قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٧-٧٨]؛ يقولُ هذَا الإِنْسانُ المنكرُ: من يُحْيِي العظَامَ وهي رَمِيمٌ؟ يعْني: فتيت، لا رَوْحَ فيهَا، ولا ماءَ، ولا غيرَ ذلِكَ، أجابَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن هذَا بقولِ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩]؛ يعني: اسْأَلْ أيها الإنْسانُ نفْسَكَ؛ من الَّذِي أنشأَ هذِهِ العظَامَ؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنشْأَهَا أوَّلَ مرَّةٍ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، فمَنْ هو إلَّا اللهُ؟! والذي أنشْأَها

أَوَّلَ مرَّةٍ قادِرٌ على أن يُعِيدَهَا كما كانَتْ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧]، هذَا الدَّلِيلُ أن اللهَ تَعالَى قادرٌ على إحياءِ الأمواتِ؛ أنَّه أنشَأَ العِظامَ أوَّلَ مرَّةٍ، فمَنْ قَدَرَ عليهَا أوَّلَ مرَّةٍ؛ فهُو قادِرٌ عليها في المرَّةِ الثَّانِيَةِ، ثم قالَ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، هذا دليلٌ آخَرُ؛ يعنِي: أنَّه عَزَّوَجَلَّ لا يَخْفَى عليهِ كيفَ يَخْلُقُ حتَّى نقولَ: إنَّه عاجِزٌ، بل يَخلُقُ ما شاءَ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

ومن الأدِلَّةِ أيضًا قولُهُ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس:٨٠]؛ الشَّجَرُ الأخْضَرُ شجرٌ معْروفٌ بالحِجازِ، يُوقِدُ النَّاسُ منه النَّارَ؛ يضْرِبونَهُ بالزَّنْدِ، ثم يشتَعِلُ، ثم يوقِدُونَ، فالذي أخْرَجَ النَّارَ الحَارَّةَ اليابِسَةَ من هذا الشجَرِ؛ قادِرٌ على أن يُحْيِيَ الموتَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يعْجِزُهُ؛ لأن الشجَرَ الأخضَرَ رطْبٌ وبارِدٌ، والنَّارُ بالعَكْسِ، فالقادِرُ على أن يُخرِجَ النَّارَ قادِرٌ على أن يُحْيِيَ الموتَى بعدَ الموتِ.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١]؛ استِفهامُ تَقْرِيرٍ؛ يعْنِي: الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ قادِرٌ على أن يَخلُقَ مثلَ هؤلاءِ الَّذين يُنْكِرُونَ البَعْثَ؛ لأن خَلْقَ السَّماواتِ والأرْضِ أعْظَمُ من خَلْقِ النَّاسِ.

ثم قالَ: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨١-٨٢]؛ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ مهمَا كانَ، انظُرْ إلى البَعْثِ، قالَ اللهُ تعالَى فيهِ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]؛ صيحَةٌ واحِدَةٌ فيَحْضُرُ العالَم كلُّهُ، وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازعات:١٤]؛ أي: على سَطْحِ الأرْضِ.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣]؛ أي: إنَّ اللهَ نزَّهَ نَفْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن كلِّ نَقْصٍ، فقالَ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، إذن البعْثُ حقٌّ ثابتٌ بالقُرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأُمَّةِ، فمن أنْكرَهُ فهو كافرٌ مرْتدٌّ عن دينِ الإسْلامِ، كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].





سورة ﴿ص﴾

الدَّرس الأوَّل:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالِمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:١-٢].

قولُه تعالى: ﴿صٓ﴾، صاد حرفٌ منَ الحروفِ الهجائيةِ، والحروفُ الهجائيةُ هيَ: ألف، باء، تاء، ثاء، إلى آخرِه، وهيَ ثمانيةٌ وعشرونَ حرفًا، فكلُّ اللغةِ العربيةِ تتكونُ مِن ثمانيةٍ وعشرينَ حرفًا، وصاد أحدُ الحروفِ الهجائيةِ.

وقدِ اختلفَ العُلَماءُ في هذهِ الحروفِ هلْ لها معنًى، أو ليسَ لها معنًى، إلى ثلاثةِ أقوالٍ:

القولُ الأولُ: ذهبَ بعضُ العُلَماءِ إلى أن لها معنًى، وأن هذهِ الحروفَ الهجائيةَ التي في أوائلِ بعضِ السورِ رموزٌ لمعانٍ عيَّنُوها.

القولُ الثَّاني: أن هذهِ الحروفَ لها معنًى، لكنهُ ليسَ معلومًا لنَا، واللهُ أعلمُ بما أرادَ.

القولُ الثَّالثُ: أن هذهِ الحروفَ ليسَ لها معنًى في حدِّ ذاتِها، ذكرَهُ ابنُ كثيرٍ

عن مجاهدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهوَ الأقربُ للصوابِ، والدَّليلُ على ذلكَ أن القرآنَ جعلَهُ اللهُ تعالى باللسانِ العربيِّ، قالَ تَعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥]، وهذهِ الحروفُ الهجائيةُ باللسانِ العربيِّ ليسَ لها معنًى، وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]، وإذا كانَ كذلكَ، فإننا إذا رجَعنَا إلى اللغةِ العربيةِ وجدنَا أن هذهِ الحروفَ الهجائيةَ ليسَ لها معنًى، وهذا قولٌ قويٌّ ومناسبٌ تمامًا لكونِ القرآنِ عربيًا.

فإن قيلَ: كيفَ تأتي الحروفُ وليسَ لها معنًى؟

الجوابُ: هيَ ليسَ لها معنًى في حدِّ ذاتِها، ولكنْ لها مغزًى عظيمٌ جدًّا، وهوَ أن هذَا القرآنَ الذِي أعجزَكُم أيها العربُ الفصحاءُ البلغاءُ لم يأتِ بأشياءَ جديدةٍ مما تُركِّبونَ منهُ كلامَكم، وإنَّما أتَى بالحروفِ التي تُركبونَ منها كلامَكم، فلو أتى بحروفٍ جديدةٍ ليسَتْ معهودةً في كلامِكم لقلتُم هذا لا طاقةَ لنَا بهِ؛ لكنهُ أتى بالحروفِ التي تُركبونَ منها كلامَكم، ومعَ ذلكَ أعجزَكُم؛ ولهذا لا تَرى سورةً مبدوءةً بهذهِ الحروفِ الهجائيَّةِ إلا وبعدَها ذكرُ القرآنِ، أو ما يتعلقُ بهِ:

ففي سورةِ البقرةِ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢].

وفي سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران:١-٢].

وفي سورةِ الأعرافِ: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١-٢].

وفي سورةِ يونسَ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١].

وفي سورةِ هود: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

وفي سورةِ يوسفَ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:١].

وفي سورةِ الرعدِ: ﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرعد:١].

وفي سورةِ إبراهيمَ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١].

وفي سورةِ الحِجرِ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١].

وفي سورةِ مريمَ: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:١-٢]، وهذَا لا يكونُ إلا بالوحيِ.

وفي سورةِ طهَ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢].

وفي سورةِ الشعراءِ: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء:١-٢].

وفي سورةِ النملِ: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:١].

وفي سورةِ القصصِ: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [القصص:١-٢].

وفي سورةِ العنكبوتِ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

[العنكبوت:١-٣]، هذهِ ليسَ فيها ذكرٌ للقرآنِ، لكن فيها الجهادُ في سبيلِ اللهِ الذي بهِ إعزازُ القرآنِ، وإرغامُ النَّاسِ لأحكامِه.

وفي سورةِ الرومِ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:١-٣]، ليسَ فيها ذكرُ القرآنِ، لكن فيها ما يتعلقُ بأمورِ الغيبِ في المستقبلِ، وهذا لا يكونُ إلا بالوحيِ. وهلُمَّ جرّا.

فهذهِ الحروفُ الهجائيةُ لها مغزًى عظيمٌ، وهوَ أن هذا القرآنَ الذي أعجزَكُم معشرَ العربِ لم يأتِ بحروفٍ جديدةٍ، وإنما أتى بحروفٍ تُركبونَ منها كلامَكم، ومعَ ذلكَ عجزتُم عنِ الإتيانِ بمثلِهِ.

قولُه تَعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص:١-٢].

أقسمَ اللهُ بالقرآنِ لعظمتِه، واللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقسِمُ بكلماتِهِ، ويقسِمُ بمخلوقاتِه؛ لأنها دالةٌّ على عظمتِه عَزَّوَجَلَّ، فمنَ الإقسامِ بمخلوقاتِ اللهِ قولُه تَعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشَّمس:١]، فأقسمَ بالشَّمسِ وبالضحَى، ومنَ الإقسامِ بالآياتِ مثل هذهِ الآيةِ: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس:٢]، ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، واللهُ تعالى يُقسمُ بما شاءَ مِن خلقِهِ، ونحنُ لا نُقسمُ بالمخلوقاتِ، لقولِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ»(١)، وقالَ: «لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥)، (٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١).

ولا يجوزُ أن نحلفَ بالرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا يجوزُ أن أحلفَ بالنبيِّ فأقولُ: والنبيِّ لأفعلنَّ، فلا يجوزُ لنا أن نُقسمَ بالمخلوقاتِ مهما عظُمَ قدرُها وشرفُها؛ لأن ذلكَ منَ الشركِ.

فإن قالَ قائلٌ: أليسَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ قالَ: «**أَفْلَحَ، وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ**»[(١)]، في الرَّجلِ الذي ذكرَ عن نفسِه أنهُ يقومُ بشرائعِ الإسْلامِ قالَ: «**أَفْلَحَ، وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ**»، فحلَفَ بأبي الرَّجلِ، وأبو الرَّجلِ مخلوقٌ، والنبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أعظمُ النَّاسِ إخلاصًا للهِ وأبعدُهم عنِ الشركِ بهِ؟

فالجوابُ على ذلكَ مِن وجوهٍ:

الوجهُ الأولُ: أن هذا قبلَ النهيِ.

الوجهُ الثَّاني: أن هذَا القسمَ خاصٌّ بالرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنهُ وإن حلفَ بغيرِ اللهِ لا يمكنُ أن يقعَ في قلبِه تعظيمُ هذا المحلوفِ بهِ، كما يُعظمُ اللهَ بخلافِ غيرِه.

الوجهُ الثَّالثُ: أن هذا القسمَ مما يجرِي على اللسانِ بغيرِ قصدٍ، فهوَ من لغوِ اليمينِ، والذي يجري على اللسانِ بغيرِ قصدٍ لا يثبتُ لهُ حكمُ مَدلولِه.

ولهذا لما قالَ معاذُ بنُ جبلٍ للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يَا نَبِيَّ اللهِ وَإِنَّا لَمؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّم بِهِ؟ قَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟**»[(٢)]، فقولُه: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ**» ثكلتْكَ أي: فقدَتْكَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الصَّلوات التي هي أحد أركان الإيمان، رقم (١١).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦/ ٣٤٥)، رقم (٢٢٠١٦)، والترمذي أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصَّلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

وهلِ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يدعو على معاذٍ بالموتِ والهلاكِ قاصدًا ذلكَ، فيكونُ هذا مما يَجري على اللسانِ بلا قصدٍ فلا يكونُ مترتبًا عليهِ الحكمُ.

الوجهُ الرَّابعُ: أن في الكلمةِ تحريفًا وأن أصلها أفلحَ واللهِ، لما كانوا في أولِ الأمرِ لا يُشكِّلونَ الكتابةَ، ولا يَنْقِطُونها، فإن كتابةَ: واللهِ، و أبيهِ متقاربةٌ، ولكنْ هذا القولُ ضعيفٌ جدًّا، والصَّوابُ أن يقالَ هذا الحديثُ منَ المُشكلاتِ، والنهيُ عنِ الحلفِ بالآباءِ، أو بغيرِ اللهِ منَ الأمورِ المُحكماتِ الواضحاتِ، والواجبُ على المؤمنِ عندَ إيرادِ الأدلةِ المحكمةِ والمتشابهةِ، أن يأخذَ بالمُحكَمَةِ، كقولِ اللهِ تَعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ [آل عمران:٧]، فَيَرُدونَ المتشابهَ إلى المُحكَمِ ليبقَى كلُّه مُحكَمًا، فنخلصُ من هذا البحثِ والمناقشةِ إلى أن الحلفَ بغيرِ اللهِ شركٌ ولا يجوزُ.

فإن قالَ قائلٌ: الحلفُ بالقرآنِ حلفٌ بغيرِ اللهِ، ويجوزُ للإِنْسانِ أن يحلفَ بالقرآنِ، فيكونُ حلفًا بغيرِ اللهِ؟

فالجوابُ: أن القرآنَ كلامُ اللهِ، وكلامُ اللهِ صفةٌ منْ صفاتِه، وصفاتُ اللهِ تعالى يجوزُ القَسَمُ بها، كما يجوزُ القسمُ بذاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه تَعالى: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

ذي: بمعنَى صاحبٍ، أي صاحبِ الذكرِ، والمرادُ بالذكرِ التذكيرُ، فكأن القرآنَ يذكرُ النَّاسَ ويَعظُهُم.

وهناكَ معنًى آخرُ: وهوَ الثناءُ والرِّفعةُ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤]، فمَن أخذَ بهذَا القرآنِ فإنهُ يَنالُ الذِّكرَ الحسنَ، والثَّناءَ الحسنَ، ويَرفعُهُ اللهُ تعالى بهِ درجاتٍ.

قولُه تَعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾، فالقرآنُ ذو ذكرٍ وعظمةٍ وتذكيرٍ وموعظةٍ، ولكن الَّذينَ كفرُوا لا ينتفعونَ بهِ بل همْ في عزةٍ وأَنَفةٍ عنهُ، يحتقرونَهُ ولا يرجعونَ إليهِ ويشاقُّونَ فيهِ.



الدَّرس الثَّاني:

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين، وصلَّى اللهُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وإِمَامِ المُتَّقِينَ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ، وأسأَلُ اللهَ تَعالَى بمَنِّه وكَرَمِه أن يَجْعَلَنا وإياكم ممن اتَّبعوهم بإحسانٍ، وأن يَحْشُرَنا معهم يومَ الدِّينِ، وأنْ يَجْمَعَنا بهم في جَنَّاتِ النعيمِ، أَمَّا بَعْدُ:

فنحنُ في أَفْضَلِ بُقْعةٍ على وَجْهِ الأَرْضِ؛ في المَسْجِدِ الحَرامِ، الذي جَعَلَه اللهُ تَعالَى مَثابةً للناسِ وأَمْنًا، الذي يَأْمَنُ فيه حَتَّى الجَمادُ، فالأشجارُ لا تُقْطَعُ، والشَّوْكُ لا يُعْضَدُ.

نَتناولُ قِصَّةَ نَبِيٍّ من الأنبياءِ، افترى عليه اليَهودُ كَذِبًا، وما أَيْسَرَ الكَذِبَ عندَ اليَهودِ والخِيانَةَ، فهم أَهْلُ غَدْرٍ، وأَهْلُ خِيانةٍ، وأهلُ بُهْتٍ، كلما عَاهدوا عهدًا نَبَذَه فريقٌ منهم؛ ولهذا لا يُؤْمَنُ شَرُّهم إلا بالقضاءِ عليهم، ونسألُ اللهَ تَعالَى أن يُذِلَّهم ويَخْذُلَهم، ويَكْبِت دَوْلتَهم، إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

وَلِنَعْرِفَ هذا النبيَّ نَسْتَمِعُ إلى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١]، وهذا هو دَاوُدُ، وهم لا يَعترِفونَ له بنُبُوَّةٍ ولا رسالةٍ، ولكنه عندَهم مَلِكٌ.

قال تَعالَى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ الاستفهامُ هنا للتشويقِ، أي يُشَوِّقُكَ إلى استماعِ هذا النَّبأ، والخَصْمُ أي الخُصومُ، ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ المِحْرابُ: هو مكانُ الصَّلاةِ، وليسَ طَوْق القِبْلَةِ كما يَتوَهَّمُه بعضُ الجُهَّالِ، فيَظُنُّونه طَوْقَ القِبْلَةِ الذي يُجْعَلُ في القبلةِ عَلامةً عليها. ولذلك نَجِدُ في بعضِ المَساجِدِ يُكْتَبُ على

هذا الطَّوْقِ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران:٣٧]، وهذا من الجَهْلِ.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي مَكانَ صَلاتِها، وليسَ طَوْقَ القِبْلَةِ، فانْتَبِه أخي المسلم حَتَّى تَعْرِفَ أنَّ بعضَ المهندسين يَلْعَبون بعُقولِ النَّاسِ، ويَكْتُبونَ ما لا صِلَةَ له بذلك، على أنَّ كِتابةَ القرآنِ على الجُدْرانِ أَمْرٌ بِدْعِيٌّ، لا يَنْبَغِي أبدًا، وفيه نَوْعُ ابتذالٍ لكلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، حتى رَأَيْنا بَعْضَ النَّاسِ يَكْتُبُ سُورةَ الإخلاصِ، التي تُعَدُّ ثُلُثَ القرآنِ، على لَوْحةٍ على الجُدْرانِ تَراها كأنها رُموزٌ، فيَجْعَلُ كَلامَ العَظيمِ نُقوشًا على الجُدْرانِ.

فإنْ كانَ يَكْتُبُ الآياتِ على الجِدارِ لِيَتَبَرَّكَ بها، قُلْنَا: هذا ليسَ مِن هَدْيِ السَّلَفِ، وإنْ كانَ يَكْتُبُها يُرِيدُ أنْ يَتْلُوَها النَّاسُ إذا جَلَسوا، وَجَدْنَا أكثرَ النَّاسِ لا يَتْلُونَها، وإنْ كانَ يُرِيدُ أن تكونَ عِظَةً للناسِ يَتَّعِظونَ بها إذا جَلَسوا في هذا المكانِ، نَجِدُ النَّاسَ لا يَتَّعِظُونَ.

فنَرَى الرَّجُلَ يَكْتُبُ في مَجْلِسٍ ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٣]، وتَجِدُ النَّاسَ يَغْتابونَ عِبادَ اللهِ تحتَ الآيةِ الكريمةِ، كأنه تَحَدٍّ للقُرآنِ، ويَكْفِي أنْ يَكُونَ هذا ليسَ من هَدْيِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وهم أَشَدُّ مِنَّا تَعْظِيمًا لكتابِ اللهِ، لكنهم واللهِ يَرَوْنَ أنَّ التعظيمَ في القَلْبِ، وليسَ على الجُدْرانِ.

ولذا أنا أُحَذِّرُ من كتابةِ الآياتِ على الجُدْرانِ، ويكفي أنَّ ذلك ليسَ من هَدْيِ السَّلَفِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠]، وليسَ مُجَرَّدَ اتِّباعٍ وانتماءٍ إلى التَّابعين، ﴿وَٱلَّذِينَ

ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ﴾ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، وليستِ المَسألةُ عَاطِفِيَّةً، وميلًا إلى السَّلَفِ، وهو لا يَعْرِفُ كيف هَدْيُ السَّلَفِ.

نَعودُ إلى قِصَّةِ دَاوُدَ، ﴿تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ أي دَخَلُوا عليهِ من السُّورِ في مِحْرَابِهِ الذي يُصَلِّي فيه، ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ لأنَّ البابَ مُغْلَقٌ، ولهذا جَاؤوا من على الجِدَارِ، ففزِعَ منهم كعَادَةِ البَشَرِ، ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ﴾ أي نَحْنُ خَصْمانِ، ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ لا تُشْطِطْ، أي: لا تَشُقَّ علَينا، ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾.

وهذا مِن أَدَبِ الخَصْمِ، يقولُ: إنَّ هذا أخي. أمَّا خُصومُنا الآن -ونحن مسلمون، وقَد نَتَخاصَمُ على شيءٍ من الدُّنيا- يَقُولُ أَحَدُهم: هذا الرَّجُلُ الفَاجِرُ أَكَلَ مَالِي، ظَلَمنِي فَعَلَ وفَعَلَ. ولكنَّ هذا يَقولُ: هذا أَخِي.

﴿لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ والنَّعْجةُ: الشَّاةُ، أو الأُنْثَى من الضَّأْنِ، ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾، أي: اجعلني كافلًا لها، أي أَضُمَّها إلى غَنَمِي حتى تَتِمَّ مئة. ولكن هذا لا يَبْقَى عندَه ولا شاةٌ واحدةٌ، وهذا يكونُ عندَه مئة، ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ معناه أنه فَصِيحٌ، و(عَزَّني) أي غَلَبَنِي في الخِطَابِ، أي أَتَى بتَعْلِيلاتٍ أَوْجَبَتْ أَنْ أَنْقادَ له.

فقال دَاوُدُ: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾. فصَدَّقَ الخَصْمَ دُونَ أَنْ يَرْجِعَ إلى خَصْمِهِ، بقولِه: لَقَدْ ظَلَمكَ. وإنما حَمَلَ دَاوُدَ على ذلك -والله أعلم- أنه يُرِيدُ أنْ يَرْجِعَ إلى عِبادَتِه؛ لأنه أَغْلَقَ على نفسِه مِحْرَابَه لِيَتَفَرَّغَ للعِبادَةِ، فكأنه يُرِيدُ أنْ يَتخَلَّصَ مِن المَسْألةِ سَرِيعًا.

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

فإنه لَيَبْغِي بعضُهم على بعضٍ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يقولُ الحَقَّ ولو على رَأْسِه.

ثم قال تَعالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ و(ظَنَّ) بمعنى تيَقَّنَ؛ لأنَّ الظنَّ يأتي بمعنى اليقِينِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦] وقال عَزَّوَجَلَّ في المُجْرِمين حين عُرِضوا على النَّارِ: ﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣]، أي: أَيْقَنُوا، ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

إذن ظَنَّ داود: تيقَّنَ، أنَّما فتَنَّاهُ بهذه القِصَّةِ، ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، هذه القَضِيَّةُ واضحةٌ ليسَ فيها إشكالٌ، فدَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حكَمَ بينَ النَّاسِ، فهو قَاضٍ بينَهم، فكونُه يُغْلِقُ على نفسِه مِحْرَابَه، ولا يَبْقَى مع النَّاسِ يَحْكُمُ بينَهم، فهذا قد لا يكونُ جيِّدًا.

أيضًا لا يَنْبَغِي للحَكَمِ القَاضِي أن يَأْخُذَ بقولِ الخَصْمِ دُونَ أن يَرْجِعَ إلى خَصْمِه، فمثلًا إذا جَلَسَ إليك رَجُلانِ يَخْتَصِمانِ، فقال أحدُهما: أنا أطالبُ هذا الرَّجل بألفِ رِيَالٍ، ولكنه يأبَى أن يُعطِيَني إياها، مع قُدرتِه على الوفاءِ. فإن قلتَ: هو ظَالِمٌ لك. فقد أخطأتَ، بل يَجِبُ أن تَسْمَعَ كلامَ الخَصْمِ قَبْلَ الحُكْمِ وتَسْأَلَه عما ادَّعاه صَاحِبُه.

فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَعَجَّل لِيَتَفَرَّغَ للعِبادةِ، وهذا ليسَ مِن وَسائلِ الحُكْمِ، بل لا بُدَّ أن يَرْجِعَ إلى الخَصْمِ، وهذا لا شَكَّ أنه اخْتِبارٌ مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فعَلِمَ داودُ أنَّ اللهَ اخْتَبَرَه فتَفطَّنَ، وأنه يَجِبُ على الإِنْسانِ أن يَفْتَحَ بابَه للناسِ لِيَقْضِيَ حَوائِجَهم إذا كانَ مُلْزَمًا بذلك، وألَّا يَحْكُمَ على أحدٍ إلا بعدَ أَخْذِ الحُجَّةِ.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ

مَـَٔابٍ﴾. الرَّبُّ الكريمُ عَزَّوَجَلَّ بيَّن أنه غَفَرَ له، وإذا غَفَرَ كأن لم يُذْنِبْ.

ثانيًا: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، أي إن ذلك لم يَنْقُصْه؛ لأنه اسْتَغْفَرَ رَبَّه وتَابَ إليه، فله عندَ اللهِ حُسْنَ مآبٍ؛ لذلك انْطَوَى ذِكْرُ هذه القضيةِ تمامًا، ولكنَّ اليَهودَ -عليهم لَعائِنُ اللهِ المتتابعةُ إلى يوم القِيامةِ- قالوا: إن دَاوُدَ عَشِقَ امرأةَ أَحَدِ الجُنودِ، ففكَّرَ ماذا يَصْنَعُ، فهو لا يُمْكِنُه أن يَأْخُذَها منه قَهْرًا، فأَمَرَه أن يَذْهَبَ إلى الجِهادِ من أَجْلِ أن يُقْتَلَ، فيَأْخُذَ زَوْجَتَه، وكان عندَ دَاوُدَ تِسْعةٌ وتِسْعُونَ امْرأةً، وهذا الرَّجُل عندَه امرأةٌ واحدةٌ!

هكذا قال اليَهودُ، وهذا لا يُمْكِنُ أن يَقَعَ من آحادِ النَّاسِ، فكيفَ يُمْكِنُ لنَبِيٍّ من الأنبياءِ أن يَفْعَلَ هذا، فهُم واللهِ قد كَذَبوا، وكَذَّبوا، فالرُّسُلُ -عليهم الصَّلاة والسَّلام- مُبَرَّءونَ من مِثْلِ هذه الأخلاقِ، لكن ماذا نَصْنَعُ بأعداءِ الرُّسلِ؟ إنهم يُريدون أن يَتَّهِموا الرُّسَلَ بكلِّ سَيِّئةٍ: بالكذبِ، وبالسِّحْرِ، وبالجُنونِ، وبالكَهَانَـةِ، ولا يُبالونَ.

وهذه القِصَّةُ، وإنْ وَجَدْتُموها في بعضِ التَّفاسِيرِ، قِصَّةٌ مَكْذوبةٌ، فإذا قُدِّر لأَحَدِكم أن يَقْرَأَها في كتابٍ ما فَلْيُعَلِّق عليها قائلًا: هذه قِصَّةٌ مَكْذوبةٌ على نَبِيِّ اللهِ. حتى يُبَرِّئَ الرُّسلَ مما اتُّهِموا بهِ من أعداءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.



الدَّرس الثَّالث:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالِمين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾.

إن داودَ وسليمانَ -عليهما الصَّلاة والسَّلامُ- نبيانِ رَسولانِ مِن بَني إسرائيلَ، وداودُ هوَ أبو سليمانَ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في قصةِ داودَ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وصَفَهُ اللهُ تعالى أنهُ عبدٌ، وإن الوصفَ الإنسانيَّ بكونِه عبدًا للهِ لَمنْ أجلِّ أوصافِهِ، فمِن أجلِّ أوصافِ المرءِ أن يكونَ عبدًا للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فإن العبوديةَ للهِ أفضلُ وصفٍ يتصفُ بهِ الإنْسانُ؛ لأن الإنسانَ إما أن يكونَ عبدًا للهِ، وإما أن يكونَ عبدًا للشيطانِ ولا بدَّ، وما أحسنَ بيتًا قالَهُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِهِ (النونيةِ)، قالَ[1]:

هَربُوا مِنَ الرقِّ الذِي خُلقُوا لَه ... وبُلُوا برقِّ النَّفسِ والشَّيْطانِ

---

(١) متن القصيدة النونية لابن القيم (ص:٣٠٨)، ط مكتبة ابن تيمية.

يتكلمُ عن أهلِ التعطيلِ منَ الجهميةِ وغيرِهم، فما هوَ الرقُّ الذي خُلقنا لهُ؟

هوَ الرقُّ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أن نكونَ عبادًا للهِ، ومَن لم يكنْ عبدًا للهِ فإنهُ عبدٌ للشيطانِ وهواهُ، والعياذُ باللهِ، ولهذا قالَ: «بُلُوا برقِّ النَّفسِ والشَّيْطانِ».

أقولُ: إن وصفَ الإنْسانِ بكونِه عبدًا للهِ عَزَّوَجَلَّ لَمنْ أحسنِ وأفضلِ أوصافِه.

قولُه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ أي ذا القوةِ في عبادةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي رجَّاعٌ إلى اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى.

قولُه: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ سخرَ اللهُ معهُ الجبالَ تسبحُ لهُ بالعشيِّ والإشراقِ؛ لأن اللهَ تعالى أعطاهُ صوتًا حسنًا جميلًا، وأداءً فائقًا، حتى إن النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ لما سمعَ أبا موسَى يقرأُ القرآنَ قالَ: «**يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»[1] لحُسنِ صوتِه وأدائِه.

فداودُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أعطاهُ اللهُ تعالى صوتًا وأداءً حسنًا، فكانتِ الجبالُ تسبحُ معَهُ، والطيرُ محشورةٌ أيضًا تَأوِي إلى صوتِه وتسبحُ معَهُ، وهذا منْ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومن كرامةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه داودَ.

قالَ: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ إن اللهَ تعالى يسبح له كلُّ شيءٍ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ أي: وما شيء ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤] لا نَفقَهُ لكنِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يعلمُ ذلكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، رقم (٥٠٤٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم (٧٩٣).

أقولُ: إن داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سخرَ اللهُ لهُ الجبالَ تسبحُ معه والطيورَ.

قولُه: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ﴾ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاعٌ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قوَّينا ملكَه بما أعطاهُ اللهُ تعالى منَ السلطانِ والحُكمِ بينَ النَّاسِ والجنودِ، وغيرِ ذلكَ.

قولُه: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ آتيناهُ الحكمةَ وهيَ وضعُ الأشياءِ في مواضِعِها، وفصلَ الخطابِ أيِ الخطابَ الفصلَ الفاصلَ البيّنَ الذي يقتنعُ بهِ كلٌّ منَ الخصمينِ.

قولُه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾: (هل) هنا استفهاميةٌ، والاستفهامُ هنا للتشويقِ، واستعدادِ الفكرِ لما يُلقى إليهِ.

والخطابُ في قولِه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ هلْ للرَسولِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ أو لكلِّ مَن يتأتى خطابُه؟ يعني هلِ الخطابُ خاصٌّ بالرَّسولِ أو لكلِّ أحدٍ؟

الجوابُ: لكلِّ أحدٍ، يعني هلْ أتاكَ أيها المخاطَب نبأُ الخصمِ، ويجوزُ أن يُرادَ: هل أتاكَ يا محمدُ نبأُ الخصمِ.

قولُه: ﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ أي خبرُ الخَصمِ.

قولُه: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ والخَصمُ مفردٌ وليسَ جمعًا، فكيفَ يكونُ مفردًا ويعودُ الضميرُ عليهِ جمعًا: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾؟

الجوابُ: إنما كانَ كذلكَ لأن الخَصمَ صالحٌ للواحدِ والجماعةِ، ولأنهُ لا بدَّ مِن خاصمٍ ومخصومٍ، فلا بدَّ مِن جمعٍ، ولهذا قالَ: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾.

ونظيرُ ذلكَ مِن بعضِ الوجوهِ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات:٩] ولَمْ يَقلِ: اقتتلَتا؛ لأن الطَّائفةَ تُطلقُ على الجماعةِ، فطائفتانِ مُكونتانِ مِن جماعةٍ يصحُّ أن يعودَ الضميرُ إليهِما مجموعًا.

قولُه: ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ يعني دخلُوا منَ السورِ، والسورُ: الجدارُ، وكانَ داودُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد دخلَ محرابَه -يعني موضعَ صلاتِه- وأغلقَ البابَ؛ لأنهُ يريدُ أن يتفرغَ لعبادةِ ربِّه، فجاءَ الخصمُ ووجدُوا البابَ مُغلقًا فقفزُوا منَ الجدارِ.

قولُه: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ وهوَ يُصلِّي ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ خافَ؛ لأنهمْ جماعةٌ تَسورُوا المحرابَ، وهوَ خالٍ ووحيدٌ، والإنْسانُ بطبيعتِه البشريةِ في مثلِ هذهِ الصورةِ لا بدَّ أن يَلحقَهُ الخوفُ، وإن كان نبيًّا رَسولًا، أليسَ مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما أَلقَى السحرةُ سحرَهُم أوجَسَ في نفسِه خِيفةً، فالخوفُ الطبيعيُّ البشريُّ ليسَ مذمومًا؛ لأنهُ أمرٌ تفرضُه طبيعةُ الإِنْسانِ التي أَودَعَها اللهُ تعالى فيهِ.

فلما خافَ منهمْ وفزعَ ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. وهنا إشكالٌ: كيفَ قالَ: ﴿خَصْمَانِ﴾ وقبلها: ﴿لَا تَخَفْ﴾ والمعروفُ أن المثنَّى يُنصبُ بالياءِ، وهذا المثنَّى هنا بالألفِ.

والجوابُ: أن (خصمانِ) ليستْ مفعولةً لـ(لا تخفْ)، ولهذا ينبغِي الوقوفُ هنا، فإذا قرأتَ قلْ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ثم استأْنِفْ وقلْ: ﴿خَصْمَانِ﴾ أي: نحنُ خصمانِ.

قالَ: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ ثم عرَضُوا القضيةَ، وهيَ: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ هوَ خصمٌ ويقولُ: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾، وهذهِ جملةُ رقةٍ ولطفٍ، وليسَ كالخصومةِ التي تقعُ ما بينَ

كثيرٍ منَ النَّاسِ فإذا جاءَ الخصمُ إلى القاضي قالَ: هذا السَّارقُ المعتدِي الغشاشُ أكَّالُ المالِ بالباطلِ، وهذا ما يَصلحُ.

قالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ يعني مئةٌ إلا واحدةً ﴿وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أعطِني إياهَا ليُغلِق المئةَ، وغلبَهُ في الخطابِ؛ قالَ: أنتَ عندَكَ واحدةٌ تُتعبُكَ، وأنا عِندِي غنمٌ كثيرٌ تسعٌ وتسعونَ نعجةً، فأعطني هذهِ أُكمل بها المئةَ؛ حتى يَكملَ العددُ مني، وأنتَ تَسلمُ مِن هذهِ النعجةِ التي سَتُتعِبُك، وغلبَهُ في الحجةِ فهوَ صاحبُ بيانٍ، قالَ: ﴿وَعَزَّنِى﴾ أي غلبَنِي ﴿فِى ٱلۡخِطَابِ﴾ بأن قالَ: أنا عندِي تسعٌ وتسعونَ، وأنتَ عندَك واحدةٌ، وهذِه الواحدةُ ستتعِبُكَ لكنْ أعطِنيهَا أضمّها إلى غَنمِي حتى تُتمَّ المئةَ.

﴿قَالَ﴾ لهُ داودُ ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ ظلمَكَ أي: نقصَكَ حقَّكَ أن طلبَ أن يَضمَّ نعجتَكَ إلى نعاجِه، وتبقَى أنتَ بدونِ نعجةٍ، فهذا ظلمٌ، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ﴾ وانتهتِ القضيةُ.

لكنْ هذهِ القضيةُ إذا تأملتَها وجدتَ فيها نقصًا مِن بعضِ الوجوهِ:

أولًا: داودُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جعلَهُ اللهُ تعَالى خليفةً يحكمُ بينَ النَّاسِ بالحقِّ، والإنْسانُ الذي بوأَهُ اللهُ تعالى منزلةَ الخلافةِ ليحكمَ بينَ النَّاسِ لا ينبغِي أن ينفردَ في وقتِ الحكمِ بينَ النَّاسِ ليعبدَ اللهَ عبادةً خاصةً، وهذهِ نقطةٌ مهمةٌ، فالإنْسانُ الذي جعلَهُ اللهُ تعالى على عملٍ عامٍّ للمسلمينَ لا يَنبغي أن ينفردَ في عبادةٍ خاصةٍ.

ثانيًا: أنهُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يأخذْ حجةَ الخصمِ، بل حكمَ للمدعِي دونَ أن

يسألَ المدعَى عليهِ، ودون أن يكونَ هناكَ بينةٌ، وهذا نوعٌ منَ التقصيرِ. والحَاملُ لهذا حبُّ داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للتفرغِ للعبادةِ، ولذلكَ أَنهى القضيةَ فحكمَ للخصمِ بمجردِ دعواهُ، دونَ أن يأخذَ حجةَ الآخرِ.

ثم إن كونَ الثَّاني قد سكتَ ولم يعارضْ هذا ليبررَ الحكمَ الذي صدرَ مِن داودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ففيهِ مسألةُ تأويلٍ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي أننا اختبرناهُ في هذهِ القصةِ؛ أن اللهَ ساقَ إليهِ هذينِ الخصمينِ فاختصَما على الصفةِ التي ذَكرنَاهَا ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ أيْ طلبَ مغفرةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ راكعًا هنا بِمعنَى ساجدًا؛ لأن الخرورَ إنما يكونُ مِن أعلى إلى أسفلَ؛ كخرورِ الماءِ في السَّاقيةِ.

فهذهِ هيَ القصةُ، وهذا هوَ ظاهرُ القرآنِ، وأما ما ذُكرَ مِن أخبارِ بني إسرائيلَ في هذهِ القصةِ مِن أن داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَشِقَ امرأةَ أحدِ الجنودِ، وأرسلَ زوجَها لصفِّ القتالِ لعلَّه يُقتلُ فيَخلُفه داودُ على هذهِ المرأةِ[١]، فهذا واللهِ كذبٌ، وهذا مِن أكذبِ الكذبِ، وأبطلِ الباطلِ، وهذا لا يُستساغُ مِن رجلٍ عاميٍّ مِن سائرِ النَّاسِ، فكيفَ بنبيٍّ منَ المرسلينَ، لكن تعلمونَ أن اليهودَ أصْحابُ بهتٍ وكذبٍ وتلفيقٍ، وهمْ يَدعونَ أن داودَ نبيٌّ وليسَ رَسولًا، ولذلكَ ألصقُوا بهِ هذهِ التهمةَ التي لا تَصدُر مِن أيِّ إنسانٍ لهُ عقلٌ ولُبٌّ، فضلًا عن نبيٍّ منَ الأنبياءِ، فالقصةُ واضحةٌ.

وأنَا أقولُ لكمُ: احترسُوا احتراسًا تامًّا من كلِّ قصةٍ تخالفُ ظاهرَ القرآنِ؛

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ١٨٢).

لأن الأممَ السَّابقةَ مَن يعلمُهُم هوَ اللهُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]. فلا مصدرَ لعلمِ مَن سبقَ إلا الوحيُ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وإياكُم أن تَغترُّوا بما يُوجدُ في بعضِ كتبِ التفسيرِ منَ القصصِ الإسرائيليةِ التي تخالفُ ظاهرَ القرآنِ، فإنها باطلةٌ، ويجبُ علينا أن نُبطلها، وألا نصدقَ بها؛ لأن أخبارَ بني إسرائيلَ تنقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

الأولُ: ما شهدَ الوحيُ بصحتِه، فهذا مقبولٌ؛ لأن الوحيَ شهدَ بهِ.

والثَّاني: ما شهدَ الوحيُ بكذبِه، فيجبُ علينَا تكذيبُه وردُّهُ.

والثَّالثُ: ما لم يَرِدِ الوحيُ بتصديقِه ولا تكذيبِه، فهذا نتوقفُ فيهِ، ولكنْ لا بأسَ أن نقصَّهُ؛ لأن النبيَّ ﷺ يقولُ: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ**»[1].

وهذهِ القصةُ التي ذُكرتْ في بني داودَ هلِ القرآنُ يُكذبُها أو لَا؟

الجوابُ: نعمْ؛ لأن القرآنَ ما قَصَّهَا على هذا الوجهِ، ثم إن مقامَ النبيِّ داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أيضًا مُنزهٌ عنهُ؛ لأنهُ نبيٌّ رَسولٌ.

يقول تعالَى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص:٢١-٢٢]، والاستِفْهَامُ قد يكونُ استِخبارًا واستِعلامًا، وقد يكونُ -كما في هذِهِ الآيَةِ- للتَّشْوِيقِ، وإثارَةِ الذِّهْنِ؛ لأنَّ الإِنْسانَ إذا أُلْقِيَ إليهِ الكلامُ على صِيغَةِ الاستفهامِ اشْتاقَ إليهِ وانْفَتَحَ ذِهنُهُ لَهُ، ولهذا لَمَّا سُئلَ النَّبِيُّ ﷺ عن بيعِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١).

الرُّطَبِ بالتَّمْرِ، قال: «أَيَنْقُصُ إِذَا جَفَّ؟» قالوا: نَعَمْ. فنَهَى عَن ذَلِكَ(١).

وهذا الحديثُ له قِصَّة، فبيعُ التَّمْرِ بالتَّمْرِ لا بُدَّ فيه مِنْ شَرطَيْنِ:

الشرْطِ الأَوَّلِ: التَّسَاوِي.

والشِّرْطِ الثَّاني: القَبْض في مَجْلِسِ العَقْدِ.

فإذا بِعْتَ رَطْبًا بتَمْرٍ -والتمْرُ هو اليابِسُ- فإن الرَّطْب ينْقُصُ إذا جَفَّ، ويَصْغُرُ ويَنْقُصُ وزْنُهُ أيضًا، يَخِفُّ، وذلك عنْدَمَا سألَهُ الصحابَةُ: يا رَسولَ اللهِ، هل يُباعُ التَّمْرُ بالرُّطَبِ؟ لم يَقُلْ: لَا، لكن قال: «أَيَنْقُصُ إِذَا جَفَّ؟» قالوا: نَعَمْ. فنَهَى عن ذلِكَ. والرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعْلَم أن الرطَبَ يَنْقُصُ إذا جَفَّ بلا شَكٍّ، لكن أرادَ أن يُبيِّنَ العِلَّةَ على هذا الوجهِ الَّذِي يشَوِّقُ السَّامِعَ.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١]، وهنا جازَ أنْ يقُولَ: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ بضميرِ الجَمْعِ بالعَوْدِ إلَى ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ وهو مفرد، لكنه هنا مُفْرَدٌ في اللَّفْظِ جَمْعٌ في المعْنَى، وقد يكونُ اللَّفْظُ مُثنًّى في اللَّفْظِ، وجَمْعًا في المعنَى، قالَ الله تَعالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات:٩] فرَاعَى الجَمْعَ، ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩] راعَى اللفظِ، ولم يقُلْ: بينَهُم. إذَنِ: الخَصْمُ مفرَدٌ لفْظًا، جماعة مَعْنًى.

﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١]، ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ أي: صَعِدُوا السُّورَ، ولم يدْخُلوا مِنَ البابِ، والمحرَابُ ليس المقصودُ بِهِ محْرابُ المسجِدِ، إنما المحرابُ مكانُ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في التمر بالتمر، رقم (٣٣٥٩)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في النهي عن المحاقلة والمزابنة، رقم (١٢٢٥)، والنسائي: كتاب البيوع، باب اشتراء التمر بالرطب، رقم (٤٥٤٥)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب بيع الرطب بالتمر، رقم (٢٢٦٤).

العبادَةِ، ولهذا رأيتُ في بعضِ المساجِدِ كتبُوا على طاقِ المحْرابِ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران:٣٧] لكن ما كَتبُوا: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ يخافُونَ أن يُطَالِبُوهم برِزْقٍ في هذَا المكانِ!! ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران:٣٧] فقط!! يَظُنُّونَ أن المحْرابَ هو القِبْلَةُ، وليس كذلك، فالمحرابُ موضِعُ العبادَةِ.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص:٢٢] ووَجْه فَزَعِهِ أن هؤلاءَ دَخَلُوا من غيرِ البابِ، وتَسَوَّرُوا عليهِ وهو مشْتَغِلٌ بعبادَتِهِ، وهم جماعَةٌ، ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص:٢٢] كعادةِ الإِنْسانِ النَّفْسِيَّةِ، والأنبياءُ -عليهم الصَّلاة والسَّلام- لَا يختَلِفُونَ عن النَّاسِ في الطَّبائعِ البَشَرِيَّةِ، ولهذا قالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ**»[1].

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ [الذاريات:٢٨]: أي: ليسَ هناكَ داعٍ للفَزَعِ، ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص:٢٢] المعْنى واضِحٌ، وقولُهُ: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص:٢٢] أي: لا تَمِل ولا تَجُر، ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص:٢٢] أي: دُلَّنَا إلى الطَّريقِ السَوِيِّ الذي ليسَ فيهِ ظُلْمٌ ولا جَوْرٌ. ثم بَدَءوا القِصَّةَ، فقالَ أحدُ الخَصْمَينِ: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [ص:٢٣] والنَّعْجَةُ هي الشَّاةُ.

﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ [ص:٢٣] أي: خُصَّنِي بها، وأعْطِنِي إيَاهَا، فإذا أعْطاهُ إيَّاها ولَهُ تِسْعٌ وتِسْعونَ، صارَ له مئة، والآخَرُ لا شيءَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصَّلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب السهو في الصَّلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

له. فطَلَبَ هذا الَّذِي عندَهُ تسعٌ وتِسعونَ مِن صاحبِ الواحِدَةِ أن يُعْطِيَهُ شاتَهُ؛ ليُكْمِلَ بها المئةَ، ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] أي: غَلَبَنِي في الخِطابِ؛ لأنه رَجُلٌ فَطِنٌ، جيِّدٌ في الخُصومَةِ، وذاك ليس بحَسَنٍ، فقالَ داودُ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص:٢٤].

وهنا إشكالٌ، فـ (سأل) لا تَتَعَدَّى بـ (إلى)، وهنا حَدَثَ هذَا، ولكن ما تَمَّ هنا هُو التَضْمِينُ، أي أنَّ الكلِمَةَ تُضَم إلى معْنَى كَلِمَةٍ أخْرَى يدُلُّ على هذا المعْنى المتَعَلِّقِ، فضُمِّنَ معْنى السؤالِ: الضم. فهنا قوله: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ [ص:٢٤] أي: سألَكَ ليَضُمَّ نَعْجَتَكَ إلى نِعاجِهِ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤] وهذا القولُ قالَ عنه بعضُ المفَسِّرينَ: إنها مِنْ كلامِ اللهِ. وقال بعضهم: إنها مِنْ كلامِ داودَ.

ثم قالَ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩﴾ [ص:٢٤]، ﴿فَتَنَّٰهُ﴾ بمعنى: اختبَرْناهُ، ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩﴾ يعني: سَجَدَ وأنابَ إلى اللهِ. وهنا سجْدَةٌ نُبَيِّنُ حُكْمَها:

المشهورُ عندَ الفُقهاءِ أنه لا يُسْجَدُ في الصَّلاةِ في هذِهِ السجدَةِ؛ يقولُ: لأنها سَجْدَةُ شُكْرٍ، وسجدَةُ الشُّكْرِ إذا سَجَدَها الإِنْسانُ وهو يُصَلِّي بطَلَتْ صلاتُهُ، والصَّحيحُ أنها سجْدَةُ تِلاوَةٍ؛ لأنه لولا تِلاوَتُنا لكتابِ اللهِ ما سَجَدْناهَا، فهي سجدَةُ تلاوةٍ إذا تَلَاهَا الإِنْسان ولو في الصَّلاةِ؛ فإنه يسجُدُ.

والاختبارُ في هذه القِصَّةِ، حتى نعرف لماذا استَغْفَرَ داودُ وخَرَّ راكِعًا وأنابَ

إلى اللهِ، أن داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حكَمَ بدَعْوى الخَصْمِ بدونِ أن يَسأَلَ الخَصْمَ الآخرَ، وكأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فعَلَ ذلكَ ليعودَ إلى عبادَتِهِ الخَاصَّةِ؛ لأنه ما أغْلَقَ البابَ على نفْسِهِ، وخَلا بمِحْرابِهِ، إلا ليَتَعَبَّدَ عبادَةً خاصَّةً، وداودُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ له وظِيفَةٌ عظِيمَةٌ، وهي الحكمُ بينَ النَّاسِ، قال تَعالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [ص:٢٦] فهُو خَلا بعبادَتِهِ الخَاصَّةِ وترَكَ أمرَ النَّاسِ، فاختَبَرَهُ اللهُ بهذِهِ القِصَّةِ. وقد حَكَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأحدِ الخَصْمَيْنِ دونَ أن يسأَلَ الخَصْمَ الآخَرَ، وهذا غيرُ جائزٍ؛ فلا بد أن تَسْمَعَ مِنَ الخَصْمِ.

ولهذا كثيرًا ما يأتِي رَجُلٌ فيقول: فَعَل فلانٌ فيَّ كَذَا وكذَا. لا سِيَّما ما يقَعُ بين الزوجينِ، فتأتِي المرأةُ وتَشْكُو زوجَهَا حتى تقولَ: إن هذا الزَّوْجَ قد جارَ عليهَا جَوْرًا عظيما! ثم عِنْدَما تَسألُ الزَّوْجَ تجِدُ الأمْرَ بخلافِ ذلِكَ، أو بالعكس، يأتي الزوج ويشْكُو زوجتَهُ حتى تقولَ: هذه الزَّوجَةُ أضاعَتْ حَقَّ اللهِ وحقَّ زَوْجِهَا! وعند السؤالِ يكونُ الأمْرُ بالعَكْسِ، فلا بُدَّ من أن نَسألَ الخَصْمَ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لذَهَبَ دِمَاءُ قَوْمٍ وَأَمْوَالهُمْ، ولكِنَّ البيِّنَةَ عَلَى المُدَّعِي، وَاليَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ**»[1]. هذا وَجْهٌ.

والوجهُ الثَّانِي: أن داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَلَا في عبادَةٍ خاصَّةٍ، وأغْلَقَ المحْرابَ على نفْسِهِ، والدَّليلُ على أنه أغْلَقَهُ أنَّهم تَسَوَّرُوا المحْرابَ، فلَم يدخُلُوا مِنَ البابِ، والإِنْسانُ المكلَّفُ بالحُكْمِ بينَ النَّاسِ يجِبُ أن يكونَ مُفرِّغًا نفسَهُ للحُكْمِ بينَ النَّاسِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:٧٧]، رقم (٤٥٥٢)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، رقم (١٧١١).

هذا أيضًا فيهِ شيءٌ مِنَ الإخْلالِ باستِقْبَالِ أحكامِ النَّاسِ، ولهذا رآهُ داودُ ذَنْبًا، فقال: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩﴾ [ص:٢٤]، ولا يُلامُ داودُ على فَزَعِهِ مِنَ النَّاسِ، مع أَنَّه نَبِيٌّ، فالخوفُ من طَبيعَةِ البَشَرِ، ولا يُلامُ الإِنْسانُ عليهِ.

فهذَا موسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع قُوَّتِه وشِدَّتِهِ في ذاتِ اللهِ، خرَجَ من مِصْرَ وهو خائفٌ يترَقَّبُ.

الأمرُ الثَّالثُ: أن القِصَّةَ واضحَةٌ في القُرآنِ، لكِنْ مع ذلِكَ يوجدُ في كُتُبِ المفسِّرينَ التي تُعنَى بنقْلِ الإسرائيلياتِ، أن داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كانَ لهُ رجلٌ مَعَ الجُنْدِ، ولهذا الرَّجلِ زوْجَةٌ حسناءُ جميلَةٌ، وعندَ داودَ تِسْعٌ وتِسْعونَ امرأة، ففكَّرَ داودُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كيفَ يَصِلَ إلى هذِهِ المرأةِ الجميلَةِ، فدبَّرَ حيلَةً وكَيْدًا، فبعثَ هذا الرَّجلَ في جيشٍ لقتالِ الأعداءِ حتَّى يُقتَل، ثم يتَزَوَّجُ داودُ زَوْجَتَهُ!!

ولكن هذا لا يُنسَبُ إلى نَبِيٍّ من أنبياءِ اللهِ، هذا لا يمكِنُ لأيِّ عاقِلٍ، ولو لم يكن مؤمنًا أن يتَصَرَّفَ هذا التَّصرُّفَ. كلُّ إنْسانٍ يَرَى أن هذا التَّصرُّفَ من أشَدِّ الأمورِ نُكْرًا وخِداعًا، ولا يمكِنُ أن يَقعَ من نَبِيٍّ من أنبياءِ اللهِ، ولكنَّ اليهودَ -عليهِمْ لعائنُ اللهِ إلى يومِ القِيامَةِ- يستطيعونَ أن يُدَبِّرُوا مثل هذِهِ الأمورِ، وأن يَقْدَحُوا في الأنبياءِ بمثلِ هذِهِ الأمورِ، وقد عُلِمَ من حَالِهِمْ أنهم يقتُلونَ الأنبياءَ بغيرِ حَقٍّ، ويقتُلونَ الَّذين يأمُرُونَ بالقِسْطِ من النَّاسِ، وليس بغريبٍ عليهِمْ أن يُدَبِّرُوا هذه القصةَ -الكذبَ- على دَاود، ولهذا يُسَمُّونَ داودَ مَلِكًا!! يرون أنه ملِكٌ وليس بنَبِيٍّ، حتى إنهم يسمُّونَ نجمَةً عندهم باسم: نجْمَةِ الملكِ داودَ، فلا يُقِرُّونَ بأنَّه نَبِيٌّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ولكن دَاودَ أَطْهَرُ وأَزْكَى، وأَحْسَنُ أَخْلاقًا مِنْ أن يُدَبِّرَ هذِهِ المكيدَةَ العظيمَةَ، فعَلَيْنَا أن نعْرِفَ للأنبياءِ حَقَّهمْ، وأن نقولَ: إن داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اجتَهَدَ، وهذا الاجتهادُ الذي وقَعَ منْه على هذا النَّحْو الَّذِي سَمِعْتمُوهُ، والقصَّةُ واضحَةٌ -ولله الحمد-.



الدَّرس الرَّابع:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمةُ فِيهَا بيانُ هَذَا القُرْآنِ العظيمِ، الَّذِي أنزلَهُ اللهُ عَلَى مُحُمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ أفضلُ كتابٍ نزلَ عَلَى أفضلِ نبيٍّ، وآخرُ كتابٍ نَزَلَ عَلَى أهلِ الأَرْضِ؛ وذَلِكَ لأَنَّ النَّبيَّ ﷺ خاتَم النَّبيِّينَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]؛ وَلهَذَا كَانتْ شريعةُ النَّبيِّ ﷺ صَالحةً لكلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ، منذُ بُعِثَ إِلَى قيامِ السَّاعة، ولَوْلَا هَذَا لكانَ النَّاسُ فِي حَاجةٍ إِلَى رَسُولٍ بَعْدَ مُحُمَّد ﷺ ولكِنْ لَمَّا كَانَ خَاتَم الأنبياءِ صَارَت شريعتُه صَالحةً لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ.

الشَّريعةُ صَالحةٌ لكُلِّ زَمَانٍ ومكَانٍ:

وجملَةُ: «أَنَّ الشريعةَ صَالحةٌ لِكلِّ زَمانٍ ومَكانٍ»؛ بعضُ النَّاس أوَّلها عَلَى غيرِ معناهَا الصَّحِيحِ، فظنَّ أَنَّ معناها أَنَّ هَذِهِ الشريعةَ خَاضعةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ يَعْنِي أَنَّهَا تُطَوَّعُ للعصرِ ولاختلافِ النَّاسِ، فَإِذَا اختلفتْ أحوالُ النَّاس لَزِمَ أَنْ تختلفَ الشَّريعةُ تبعًا لاختلافِ أحوالِ النَّاسِ، وتمسَّكَ بقولِ بعضِ العُلَماء الأَجلاءِ المُحقِّقِين: إِنَّ الفَتْوَى تتغيَّرُ بتغيُّرِ الزَّمَانِ، وظنَّ أَنَّ معنَى هَذَا أَنَّهُ يجوزُ لنا أَنْ نتلاعبَ

بالشَّرْعِ، فنقولُ: هَذَا الشَّيْءُ حرامٌ فِي هَذَا المكانِ، حلالٌ فِي مكانٍ آخرَ، أَوْ حرامٌ فِي هَذَا الزَّمَنِ، حلالٌ فِي زمنٍ آخرَ، أَوْ حلالٌ لهَذِهِ الطَّائفةِ مِنَ النَّاسِ حرامٌ للطَّائفةِ الأُخْرَى.

ولا شَكَّ أَنَّ الَّذِي قَالَ هَذَا الكَلَامَ غَفَلَ أَوْ تغافلَ عَنِ المَعْنَى الصَّحِيحِ لهَذَا الكَلَامِ الَّذِي صدَر من بعضِ المُحقِّقِين، وأنَّ معنَى هَذَا الكَلَامِ أَنَّ تحقيقَ المَناطِ الَّذِي عُلِّق بِهِ الحكمُ الشَّرعيُّ هُوَ الَّذِي يختلِفُ، فَإِذَا اختلفَ فحينئذٍ يَكُونُ الحكمُ تابعًا للعلةِ الَّتِي مِنْ أجلها شُرِعَ ويختلفُ باختلافِ العلَّةِ الموجِبَةِ للحكمِ، وَلهَذَا **أمثلةٌ:**

المثالُ الأَوَّلُ: تحريمُ الخمرِ، لم ينزِلْ فِي الشَّريعةِ الإِسْلَاميةِ مَرَّةً وَاحدةً، وَلَكِنَّهُ تَدَرَّجَ تدرُّجًا انتهى إِلَى تحريمِه تحريمًا باتًّا، وتدرَّجَ هَذَا الحكمُ بالنِّسبة للخمرِ، إِلَى مراحلَ.

المرحلَةُ الأُولَى: نصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ حلالٌ، وآيةُ التَّحليلِ هِيَ قولُه تَعَالَى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:٦٧]، فإنَّ هَذِهِ الآيةَ سِيقَتْ مَساقَ المِنَّةِ؛ بما جعَلَ اللهُ تَعَالَى مِنْ ثَمَراتِ النَّخيل وَالأعنابِ، وَفِيهَا دلالةٌ وَاضحةٌ عَلَى أَنَّ السُّكْرَ مِمَّا يَكُونُ مِنَ التَّمْرِ أَوْ مِنَ العنبِ جَائزٌ.

المرحلة الثَّانية: التَّحذيرُ بدونِ تحريمٍ، فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، بيَّنَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ الخمرَ وَالميسرَ فيهما إِثمٌ، وفِيهِمَا منافعُ، ولكنْ إِثمُهُما أكبرُ مِنْ

نفعِهِمَا، وَهَذَا يقتضي للعاقلِ أَنْ يَتَجنَّبَهُمَا؛ لأَنَّ كُلَّ عَاقلٍ يعرِضُ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِيهِ إِثْمٌ ومنافعُ، ويُقال لَهُ: إِنَّ الإِثمَ أكبرُ مِنَ المنافعِ سَوْفَ يَتجَنَّبُهُ، فالعَاقلُ يُوازِنُ بَيْنَ الأشياءِ، بَيْنَ مَضَارِّهَا ومنافِعِهَا، فَإِذَا كَانَ الضررُ أكبرَ مِنَ النفعِ فلابدَّ أَنْ يتجنَّبَهُ بمقتضى العقلِ، وبمقتضى الشَّرعِ، وهَذِهِ الآيةُ التحريمُ فِيهَا لَيْسَ باتًّا.

المرحلةُ الثَّالثة: النَّهْي عَنِ الصَّلاة وقتَ السُّكْر، قَالَ تَعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النِّساء:٤٣]، وَالنَّهْي عَنْ قُربانِ الصَّلاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ يَستلزمُ أَلَّا يشربَ المسلمُ الخمرَ فِي وقتٍ قريبٍ مِنْ وقتِ الصَّلاةِ؛ لِئَلَّا يحضرَ الصَّلاةَ وهُوَ سكرانُ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ سيتركُونَ الخمرَ فِي وقتٍ كبيرٍ مِنْ أوقاتِهم.

المرحلةُ الرَّابعةُ: التَّحريم البَاتُّ فِي قولِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة:٩٠-٩١]. وبِهَذِهِ الآيةِ حُرِّم الخمرُ تحريمًا قاطعًا.

فنقولُ: إِنَّ الشَّرعَ صَالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وإِنَّ الفتوى تختلِفُ باختلافِ الأحوالِ، ولكِنْ هَذَا تابعٌ لتحقيقِ المَناطِ، وَلَيْسَ تابعًا للهَوَى، وإِلا لسلَّمنَا لقولِ بعضِ النَّاسِ: إِنَّ الرِّبا فِي هَذَا الزمنِ جَائزٌ إِذَا كَانَ للتنميةِ وَالاستثمارِ، وجائزٌ إِذَا كَانَ للاستغلالِ وَالظلمِ، ونحنُ لَا نُسلِّمُ بِهَذَا، فَلَا يُمكنُ لأحدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الرِّبا جَائزٌ وَلَوْ كَانَ للاستثمارِ وَلَوْ كَانَ للتنميةِ، بَلِ الرِّبا حرامٌ بكل حَالٍ، سواءٌ تضمَّنَ الظلمَ أمْ لَم يَتضمَّنْه.

القرآنُ الكَرِيمُ أشملُ كتابٍ نَزَلَ مِنَ الكتبِ السَّماوِيَّةِ:

القُرْآنُ الكَرِيمُ أفضلُ كتابٍ نزلَ عَلَى أفضلِ نبيٍّ أُرسل، وَهَذَا القُرْآنُ الكَرِيمُ أشمل كتابٍ نزلَ مِنَ الكتب السَّماوية؛ شاملٌ لجميع مَا يحتاجُ النَّاس إليه فِي معاشِهم ومعادِهم، فَإِنَّهُ مذكورٌ فِي القُرْآن، لَكِنْ ذكرُه قَدْ يَكُون بالنصِّ، وَقَدْ يَكُون بالتعميمِ، وَقَدْ يَكُون بالإِشارةِ وَالتنبيهِ، فلَازمٌ إِذَا قلنا إِنَّ القُرْآن بيَّن كُلَّ مَا يحتاجُ النَّاس إليهِ فِي معاشِهم ومعادِهم أَنْ تكونَ كُلُّ مسألةٍ وكلُّ قضيَّة ذُكرت بخصوصِها فِي القُرْآن الكَرِيم، ولننظرِ إِلَى مثال كونيٍّ، ومثال شرعيٍّ، فِيهِ التعميمُ الصَّالح لكلِّ مَا يمكن أَنْ يدخلَ فِي هَذَا العموم.

المثالُ الكونيُّ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، فجملةُ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تشملُ كُلَّ مَا يُمكن حدوثُه، بَلْ كُلَّ مَا يحدثُ مما يُركبُ و يزدانُ النَّاس به.

فَإِذَا وجدنا السياراتِ، وَالطَّائراتِ النفَّاثةَ، وَالمروحيةَ، وغيرَها فَهُوَ داخل فِي هَذِهِ الآيةِ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وسيحدثُ أَيْضًا أشياءُ أشدُّ مما رأيناه الآنَ مما يخلقُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ المركوباتِ، الَّتِي يركبُها النَّاسُ ويزدانونَ بها: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

المثالُ الشرعيُّ:

أَمَّا فِي الأُمُورِ الشرعيَّةِ، فقَدْ قَالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، فهَذِهِ الآيةُ تبيانٌ لكلِّ شَيْء

لَا يشِذُّ عَنْهَا شَيْء من أُمُور الشرعِ إِلَّا وَهُوَ مُبيَّن، ولكن كَمَا قلتُ لكم قَدْ يكُون عَلَى سبيل التفصيلِ، وَقَدْ يَكُون عَلَى سبيلِ الإِجمال وَالعمومِ، وَقَدْ يَكُون عَلَى سبيلِ الإِشارةِ وَالتنبيهِ.

ومما يُذكر أَنَّ بعضَ أهل العِلم كَانَ فِي مطعم مَعَ رجلٍ نصرانيٍّ، فَقَالَ النصرانيُّ للعَالِمِ: إِنَّ كتابكم يَقُولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، فَهَلْ فِي كتابكم بيانٌ كَيْفَ صُنِعَ هَذَا الطعامُ؟ فَقَالَ العَالم: هَذَا موجودٌ فِي كتابِ الله، ثُمَّ دَعَا بصاحب المطعمِ، فسأله: كَيْفَ يُصنعُ هَذَا الطعامُ، فشرح لهم صَاحبُ المطعم كَيْفَ يُصنعُ هَذَا الطعام، فَقَالَ العَالمُ المُسلمُ: هكذا جَاءَ فِي القُرْآن، فَقَالَ النصرانيُّ أينَ هو، فقَالَ: إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].فَهَذَا فِيهِ إِرشاد إِلَى أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي تجهلُه سَلْ عَنْهُ أهلَ العِلْم.

فَإِذَا كنتَ جَاهلًا الحكمَ فِي مسألة شرعيةٍ، فسَلْ عُلَماءَ الشرعِ عنها، وإِنْ خَفِيَ عَلَيْكَ أمرٌ فِي البناءِ، فسَلْ مهندسَ البناءِ، وإِنْ أُشكلَ عَلَيْكَ مسألةٌ تتعلَّق بالفَلكِ، فاسألْ عُلَماء الفَلك، كلٌّ يُسأل فِي اختصاصِه، وذَلِكَ مأخوذٌ من كتابِ اللهِ مِنْ قولِه تعَالَى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

القرآنُ مبيِّنٌ لكلِّ شيءٍ:

إِذَنِ القُرْآنُ مبيِّنٌ لكلِّ شيءٍ، لَكِنْ تخفَى عَلَيْنَا بعضُ المسائل؛ للعوائقِ الَّتِي تحولُ بَيْنَ الإِنْسَان وبين فَهمِ كتابِ الله، وَهِيَ ثَلَاثَة:

العَائق الأَوَّلُ: القصورُ.

العَائق الثَّاني: التقصيرُ.

العَائق الثَّالث: سوءُ القصد.

أمَّا القصورُ؛ فَهُوَ أنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ جَاهِلًا لَا يتمكَّنُ من فَهم المَعْنَى وَاستنباطِ الأَحكام منه؛ مثل أحوالِ العَامَّة، فهؤلاءِ عِندَهُم قصورٌ، وَلَا يمكنُ أَنْ يستنبطوا من كتابِ اللهِ مَا يستنبطه العُلَماءُ.

وأمَّا التقصيرُ فرجلٌ عنده فَهمٌ وقدرةٌ عَلَى العِلْم، لَكِنَّهُ مُقصِّرٌ يُرِيد أَنْ يأتيَه العِلْم، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يطلبَ العِلْم، وَهَذَا يوجدُ كثيرًا فِي بعض طلبةِ العِلم، ويجبُ أَنْ يُعلمَ أَنَّ العَلمَ لَا يأتي إِلَى النَّاس، وإِنما يطلبُه النَّاسُ، وَقَدْ قيل: «أعطِ العِلْمَ كُلَّكَ يُعْطِكَ بَعْضَهُ، وأَعْطِهِ بَعْضَكَ يَفُتْكَ كُلُّهُ»، فلابدَّ من مُثابرةٍ ولابدَّ من حِرصٍ ولابدَّ من تَعبٍ.

أما سوءُ القصدِ، فَهَذَا يقعُ من أهلِ البدعِ، فاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حَالَ بينَهُم وبينَ فَهم كتابِه؛ وذَلِكَ من أجلِ سوءِ قصدِهم، وعدمِ إِرادةِ الحقِّ، فتجدُ الإِنْسَانَ يُكابرُ فِي معنَى الآيةِ الكَرِيمةِ من أجلِ الانتصارِ لما هُوَ عَلَيْهِ مِنَ البدعةِ، أَوْ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الرأيِ المخالفِ لشريعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإِلا فإِنَّ القُرْآنَ فِيهِ بيانُ كُلِّ شَيْءٍ.

يقولُ اللهُ فِي الآيةِ الكَرِيمةِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ [ص:٢٩] سَمَّى اللهُ القُرْآن كتابًا؛ لأَنَّهُ مكتوبٌ فِي اللوحِ المحفوظِ، ومكتوبٌ فِي الصحفِ الَّتِي بأيدِي الملائكةِ، ومكتوبٌ فِي الصحفِ الَّتِي بأَيْدِينَا.

أَمَّا الأولُ؛ فدليلُه قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٨].

وَالدَّلِيلُ الثَّاني: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ

مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦].

وَالدَّلِيلُ الثَّالثُ: هَذَا الوَاقعُ، فإِنَّنَا نشاهِدُ أَنَّ كتابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ موجودٌ مكتوبٌ بينَ أيدِينَا.

وَقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾؛ قَالَ العُلَماءُ: يُستفاد من هَذِهِ الجملةِ فائدتانِ عَظِيمتَانِ:

الفَائدةُ الأُولى: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فوقَ كُلِّ شيءٍ؛ لأَنَّ هَذَا القُرْآنَ نَزَلَ منه، وَالنُّزولُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِن أَعْلَى.

الفَائِدَةُ الثَّانية: أَنَّ القُرْآن كَلَامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ؛ لأَنَّهُ نَزَلَ مِنَ اللهِ، وَالقُرْآنُ كَلَامٌ، وَالكَلَامُ وصفُ المتكلمِ، ووصفُ الخَالقِ غيرُ مخلوقٍ.

فإِنْ قَالَ قَائلٌ: مَا تقولُ فِي قولِه تَعالَى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، هَلْ تقولُ إِنَّ هَذِهِ الأزواجَ الثَّمانيةَ مِنَ الأنعامِ هَلْ غيرُ مخلوقةٍ؛ لأَنَّ اللهَ أَنْزَلها؟

فالجَوَابُ: لا، وَالفرقُ بينها وبينَ القُرْآنِ أَنَّ هَذِهِ الأزواجَ؛ أَيِ الأصنافَ مخلوقةٌ نُشَاهِدُهَا؛ وهي: الإِبلُ، وَالبقرُ، وَالضأنُ، وَالمَاعزُ، المذكورةُ فِي قولِه تَعالَى فِي سورة الأنعامِ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[الأنعام:١٤٣] يَعْنِي ذكرًا وأُنثى ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٤] هَذِهِ ثمانيةٌ.

فنقولُ: الفرقُ بَيْنَهَا وبينَ القُرْآنِ أَنَّ القُرْآنَ صفةٌ؛ لأَنَّهُ كَلَامٌ وَالصفةُ تابعةٌ للموصوفِ، فصفةُ الخَالقِ غيرُ مخلوقةٍ، وصفةُ المخلوقِ مخلوقةٌ، أَمَّا الأنعامُ فإِنَّها

أعيانٌ قَائمةٌ بنفسِها مخلوقةٌ مشاهَدَةٌ يحدثُ الولدُ مِنْ أُمِّهِ وأَبِيهِ، وهكذا نُشاهِدُه فِي كُلِّ وقتٍ وحينٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنزَلْنَهُ إِلَيْكَ﴾؛ يَعْنِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وهُنَا يَرِدُ سؤالٌ: اللهُ تَعَالَى أحيانًا يَقُولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النحل:٨٩]، وأحيانًا يَقُولُ: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ [النِّساء:١٠٥]، فَهَلْ بينهما فرقٌ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ بَيْنَهُمَا فرقٌ، ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ بالتشديدِ؛ تَدُلُّ عَلَى نزولِهِ شيئًا فشيئًا، و﴿أَنزَلْنَآ﴾؛ تَدُلُّ عَلَى نزولِهِ جملةً باعتبارِ النِّهايَةِ، فإِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ عِنْدَ انتهائِه يُقال إِنَّه أُنزل؛ لأَنَّ جملتَه كلها نزلَتْ، أَمَّا مَادامَ ينزلُ شيئًا فشيئًا فَإِنَّهُ يُقال يُنزَّلُ.

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان:٣٢]، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى ردًّا عليهم: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ فمِنْ بركاتِ القُرْآن:

أولًا: من بركةِ هَذَا القُرْآنِ أَنَّ مَن قَرأه فلَهُ بِكلِّ حَرْفٍ منه حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعشرِ أمثالها، فَإِذَا قرأتَ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، فكلمةُ (ربِّ) بِهَا ثَلَاثَة أحرفٍ، وهي: الرَّاء، وَالبَاءُ المشددةُ بحرفَين، كُلُّ حرفٍ منها بعشرِ حسناتٍ، فالجميعُ ثلاثون حسنةً.

ثانيًا: مَا رُتِّبَ عَلَيْهِ مِنَ الثواب فِي المنزلَةِ لَا فِي كثرةِ الأجرِ، فإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «المَاهِرُ بالقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب سورة عبس، رقم (٤٥٨١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر في القرآن والذي يتتعتع، رقم (١٣٣٥).

ثالثًا: أَنَّهُ يأتِي يَوْمَ القِيَامَة شفيعًا لأصْحابه، وَمَا أحوجَ الإِنْسَانَ للشُّفَعاء؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ محلُّ قصورٍ، فيحتاجُ إِلَى أَنْ يَشفعَ لَهُ عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

رابعًا: مِنْ بَرَكَتِهِ بيانُ أحكامِ الشَّريعةِ، وَهِيَ الأحكامُ الَّتِي يحتاجُ النَّاسُ إِليها فِي حياتِهِم.

خامسًا: مِنْ بركتِهِ مَا يحصلُ بِهِ مِنَ الشِّفَاءِ؛ **وَالشَّفَاءُ الحَاصلُ بالقُرْآن نوعانِ:**

النَّوعُ الأَوَّلُ: شفاءٌ معنويٌّ.

النوعُ الثَّاني: شفاءٌ حِسِّيٌّ.

أما الشفاءُ المعنويُّ: فَهُوَ الشفاءُ من أمراضِ القلوبِ؛ مِنَ الشُّبُهَاتِ، وَالشَّهَوَاتِ؛ فالقُرْآنُ الكَرِيمُ بِهِ العِلمُ؛ الَّذِي هُوَ شفاءٌ مِنَ الشُّبهة، وبه الإِخلاصُ؛ الَّذِي هُوَ شفاءٌ مِنَ الشَّهوةِ، وَهَذَا مِنْ بركَتِهِ وكَمْ مِنْ إِنْسَان صَلَحَ قلبُه بقِرَاءَة القُرْآن إما بنفسِهِ، وإِمَّا بسماعِهِ من غيرِه.

رُبَّمَا يَكُونُ الإِنْسَانُ أحيانًا يستمعُ للقُرْآنِ من غيرِه فيخشعُ فِيهِ أكثرَ مما لَوْ قَرَأَهُ بنفسِهِ، ويتبيَّنُ لَهُ مِنَ المَعَانِي وَالحِكمِ وَالأسرارِ أكثرُ مما لَوْ قرأه بنفسِه؛ «فَعَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: «**نَعَمْ**» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النِّساء:٤١]، قَالَ: «**حَسْبُكَ الآنَ**» فَالتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»(١).

أَمَّا الشِّفاء الحسيُّ: فمن بركتِه أَنَّهُ شفاءٌ للأمراضِ الحسيَّةِ؛ أمراضِ البدنِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك، رقم (٤٦٨٧).

وَهَذَا شَيْءٌ مُشاهَدٌ مُجرَّبٌ، فكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ مريضٍ عَجَزَ عَنْهُ الأطباءُ شفاهُ اللهُ بالقُرْآن الكَرِيمِ!

ومِنَ الأدلَّةِ عَلَى بركةِ القُرْآنِ أَيْضًا أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ بعثَ سريَّةً، فنزلوا ضُيوفًا عَلَى جماعةٍ، عَلَى أَنْ يُضيِّفُوهم ويُطْعِمُوهم يومًا وليلةً، لَكِنْ هَذِهِ الجماعةُ لم يُوفَّقوا، وأَبَوْا أَنْ يُضيِّفُوهم، فَتَنَحَّوْا نَاحيةً، فَسَلَّط اللهُ عَلَى رئيسِ هَؤُلَاءِ القومِ الَّذِينَ لم يُضيِّفوهم عَقربًا، فقالُوا: ابحثُوا مَنْ يَقْرَأُ، فَقَالَ بعضُهم لبعض: لعلَّ هَؤُلَاءِ القومَ الَّذِينَ نَزَلُوا فِيهِمْ مَنْ يَقرأُ، فَأَتَوْا إِليهِمْ، فقالُوا: إِنَّ سَيِّدَهم لُدِغَ، فَهَلْ فِيكُمْ قَارِئٌ؟ قَالوَا: نَعَمْ فينَا قَارئٌ، ولكنَّا لَنْ نقرأَ عَلَى سَيِّدِكُمْ إِلَّا بقطيعٍ مِنَ الغَنم، فقالُوا: نَعَمْ، خُذُوا قَطِيعًا مِنَ الغَنَمِ.

فذَهَبَ أحدُ الصَّحابةِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، وَجَعَلَ يقرأُ عَلَيْهِ سورةَ الفَاتِحَةِ، ولكن يَنْفُثُ[1] عَلَيْهِ، وَهَذَا الرِّيقُ اليسيرُ إِذَا تَسلَّط عَلَى محَلِّ الألمِ، شَفَاهُ اللهُ، فقام سيدُ القوم اللَّدِيغُ، كأنما نشِطَ من عِقالٍ[2]، فأخذوا القطيعَ مِنَ الغنم، فَلَما أخذُوه أُشْكِلَ علَيْهِم، كَيْفَ يأخذونَ أجرًا عَلَى كتابِ الله، فَلَما وصلُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وأخبرُوه بالقِصَّةِ، قَالَ: «اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ»[3]، تطييبًا مِنْهُ ﷺ لقلوبِهم حَتَّى تطمئنَّ، فأخذُوا وضَرَبُوا لَهُ معُهم بسهمٍ.

فكانَتْ سُورَةُ الفَاتِحَةِ رُقْيَةً، وَلهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ للذِي قَرَأَها: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟»[4] «وَمَا يُدْرِيكَ» يعني: مَا يُعْلِمُكَ أَنَّهَا رُقيةٌ؟،

---

(١) نفث نفثًا ونفثانًا: نفخ، يقال: نفث الرَّاقي في العقدة. المعجم الوسيط (٢/ ٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب النفث في الرقية، رقم (٥٧٤٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب النفث في الرقية، رقم (٥٤١٧).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب النفث في الرقية، رقم (٥٧٤٩).

ثُمَّ قَال: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ الله»(١).

خامسًا: مِنْ بركتِهِ أَنَّهُ حِصنٌ حصينٌ لقارئِهِ؛ قَالَ ﷺ «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ الله حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ»(٢)، وآيةُ الكرسي، وردَتْ فِي سورةِ البقرة، وَهِيَ قولُه تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾، فاقرأْ آيةَ الكرسيِّ فِي كُلِّ ليلةٍ، فَلَا يزالُ عليكَ مِنَ اللهِ حَافظٌ، وَلَا يقربُكَ شيطانٌ حَتَّى تصبحَ.

سادسًا: مِنْ بَرَكتِهِ أَنَّهُ يَهْدِي للتي هِيَ أقومُ؛ أَيِ الخَصْلةُ الَّتِي هِيَ أقومُ، وهَذِهِ تعتبرُ قَاعدةً فِيمَا يَهْدِي القُرْآنُ إِلَيْهِ، وَقَدْ ألقى فِيهَا الشَّيخُ مُحَمَّد الأمينُ الشَّنْقِيطيُّ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ- محاضرةً كاملةً وشَرَحهَا شَرحًا وَافيًا، فمن أرادَ الاطلاعَ عَلَيْهَا فَهِيَ منشورةٌ.

سابعًا: ومِنْ بركتِهِ مَا حصل بِهِ مِنَ المعارفِ العظيمةِ لهَذِهِ الأمةِ الإِسْلَامِيةِ ومن الآثارِ الحميدةِ؛ فإِنَّ هَذِهِ الأمةَ الإِسْلَامِيةَ كَانت قبلَ نزولِ القُرْآن فِي ضلالٍ مبينٍ فِي جهلٍ أعمَى، وفي ذُلٍّ، وفِي ضَعْفٍ، ولما نزَلَ القُرْآنُ وأخذَتْ بِهِ فاقَتِ الأممَ مِنْ كُلِّ نَاحيةٍ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم، رقم (٥٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٠٥٢).

مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة:٢].

ثامنًا: ومن بركتِهِ أيضًا، أَنَّهُ حَفظَ لسانَ العرب؛ يَعْنِي اللغةَ العربيةَ، فإِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ أفصحُ الكَلَام العربيِّ لَا شكَّ، وَهُوَ باقٍ إِلَى يَوْم القِيَامَة؛ لأَنَّ اللهَ تكفَّلَ بحفظِهِ، فحِفْظُهُ يستلزمُ حفظَ اللغةِ العربيَّةِ، وَلهَذَا يجبُ عَلَيْنَا -نحنُ المسلمين العربَ- أَنْ نفتخرَ بلغتِنَا؛ وأَنْ نكونَ ضِدَّ كُلِّ شخصٍ يُحاوِلُ أَنْ يسلُبَ الأمةَ العربيةَ لغتَها؛ الَّتِي هِيَ لغةُ القُرْآنِ وَالحديثِ.

ومِنَ العجبِ أَنَّ بعضَ السُّخَفاء المبهورين بتقدُّمِ الغربِ المَادِّي يُريدون أَنْ يمحُوا اللغةَ العربيةَ مِنَ الإِسْلَام وَالعربِ، فتُوجد فِي البلدان الإِسْلَاميَّة لافتاتٌ عَلَى بعض المطاعمِ، وَالمتاجرِ، ولافتات لتوجيهِ النَّاس فِي الطُّرُقِ باللغةِ الإِنجليزيةِ المحضةِ لَيْسَ معها لغةٌ عربيةٌ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى ضعفِ شخصيةِ الَّذِي وضعَ هَذِهِ اللافتةَ، وعَلَى سَفَهِهِ أيضًا، وعَلَى عدَمِ اهتمامِه وَاكتراثِه بلغته العربيةِ؛ الَّتِي هِيَ لغةُ القُرْآن وَالحديثِ.

والوَاجِبُ أَنْ يُتَتَبَّعَ هؤلاءِ، وأَنْ يُمنعُوا مِنْ كتابةِ اللَّافتاتِ باللُّغَةِ الإِنجليزيَّةِ إِذَا لَم يَصْحَبْهَا كتابةٌ باللُّغَة العربيَّةِ، نحنُ لَا نقولُ: لَا تكتبِ اللُّغَةَ الأجنبيةَ إِطلاقًا؛ لأَنَّ النَّاسَ اخْتلطوا بِنَا وكثيرٌ مِنْهُم لَا يعرِفُ إِلَّا الحروفَ اللاتينيَّةَ، لكنَّا نقول: لَا يمكِنُ إِطلاقًا أَنْ يُسمحَ لأناسٍ يكتبونَ لافتاتٍ عَلَى متاجرِهم وعَلَى مطاعِمِهم بلُغَةٍ غيرِ العَرَبيَّة غيرِ مصحوبةٍ باللُّغَةِ العَرَبيَّةِ.

ومِنَ المؤسفِ أَنَّ المريضَ يُعطَى وصفةً للدَّوَاءِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يستعملَه باللُّغَةِ الإِنجليزيَّةِ، ورُبَّمَا لَا يعرِفُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ، ويُعطَى باللُّغَةِ الإنجليزيةِ، فرُبَّمَا يكتبُ رقمَ اثنَين وَهُوَ يحسَبُه رقمَ أربعةٍ أَوْ رقمَ خمسة ثُمَّ يأخذ خمسَ حبَّات دَفْعَةً وَاحدة ويهلِك.

يذكرُ أَنَّ عربيًّا أعطاه الطبيبُ حبَّاتٍ يستعملها كُلَّ ستِّ سَاعَاتٍ حبَّةً وَاحدةً، فالأعرابيُّ قَالَ: آخذُ السِّتَّ حباتٍ مَرَّةً وَاحدةً لأطيبَ فِي الحَال، فأخذها مَرَّةً وَاحدةً، فقضتْ عَلَيْهِ.

فهَذَا أَيْضًا مِنَ البلاءِ أَنْ تكتبَ الوصفاتِ الطبيةَ لقومٍ عربٍ باللُّغَة الإِنجليزيةِ، لِمَاذَا لَا تكتبُ باللُّغَة العَرَبِيَّة ونعتزُّ بلغتنا ونخدُم قومنا بالتسهيل عليهم؛ لأَنَّ هَذَا الَّذِي لَا يعرِفُ اللُّغَة الإِنْجِلِيزيَّة إِذَا نَسِي مَا قَالَ لَهُ الطبيبُ، فسوف يمرُّ عَلَى كُلِّ أهل البيتِ، فَإِذَا كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ اللُّغَةَ الإِنْجِلِيزيَّةَ فَلَا يمُكن أَنْ يُرشدوه لما قَالَ الطبيبُ.

فيذهبُ إِلَى الجيرانِ، وإِلى جيرانِ الجيرانِ، وَإِذَا لم يجِدْ عِندَهُم فيذهبُ إِلَى الكليَّاتِ فِي الجَامعاتِ حَتَّى يُبيِّنُوا لَهُ معنى هَذِهِ الوصفةِ الطبيةِ، فمِنْ بَرَكَةِ هَذَا القُرْآنِ حفظُ اللُّغَة العَرَبِيَّة الَّتِي هِيَ لسانُ كتاب اللهِ وسنَّةِ رَسولِهِ ﷺ.

تاسعًا: ومِنْ بَرَكَاتِ هَذَا القُرْآنِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فتحَ بِهِ البلادَ فِي مشارقِ الأَرْض ومغاربها؛ فكانوا مُتمسكينَ بِهِ، فصاروا يفتحونَ البلادَ مِنْ كُلِّ نَاحية، ويدخل النَّاس فِي دينِ اللهِ أفواجًا، ولما أعرضوا عَنْهُ حصَلَ لهم مِنَ الذلِّ وَالخللِ بمقدارِ مَا أعرضوا عَنْ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثم بيَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحكمةَ من إنزال هَذَا القُرْآن، فقَالَ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ هَذِهِ الحكمةُ من إنزاله، بَلْ هَذِهِ أعظمُ الحكمِ مِنْ إنزالِه أَنْ يدبروا آياتِه، ومعنى يدبَّروها؛ أَيْ يتأمَّلُوها ويُرددوها فِي نفوسِهم، حَتَّى يعرفوا مَعْنَاهَا، وفي قَوْلِهِ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دليلٌ عَلَى أَنَّ آياتِ الكتابِ العزيز يُمكن الوصولُ إِلَى معناها، وأنَّه مَا مِنْ شَيْءٍ فِي القُرْآنِ إِلَّا ولَهُ معنًى، فيَكُونُ فِي هَذِهِ الآيةِ ردٌّ وَاضحٌ عَلَى مَن قَالَ: إِنَّ مَعَانِي أَسْمَاءِ اللهِ وصفاتِه الَّتِي فِي القُرْآن غيرُ معلومةٍ لنا.

فإذا سألتَهم: مَا معنى قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] يَقُولُ: لَا أدرِي مَعْنَاهَا وَلَا أحدَ يعلمُ مَعْنَاهَا إِلَّا اللهُ، فيَكُون عَلَى قولِهم هَذَا القُرْآنُ الكَرِيم مجهولَ المَعْنَى فِي أعظمِ شَيْء نَزَلَ من أجلِه، وَهُوَ معرفةُ أَسْمَاءِ اللهِ وصفاتِه، ويقولون: إِنَّ مذهبَ السَّلَفِ هُوَ عدمُ معرفةِ مَعَانِي أَسْمَاء اللهِ وصفاتِه، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا كذبٌ عَلَى السَّلَفِ، أَوْ جهلٌ بمذهبِهم؛ فإِنَّ السَّلفَ يفهمون مَعَانِي أَسْمَاءِ اللهِ وصفاته، لكنَّهُم يجهلونَ حقائقَها وكيفياتِها.

وَلِهَذَا سُئل الإِمَام مَالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، كَيْفَ استوَى؟ فأطرقَ برأسِهِ وعَرِقَ عَرَقًا عَظِيمًا، ثُمَّ رَفَعَ رأسَهُ، وقالَ للسَّائِلِ: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، وَالكيفُ غيرُ معقولٍ، وَالإيمانُ بِهِ وَاجبٌ، وَالسُّؤالُ عَنْهُ بدعةٌ».

فالاستواءُ غيرُ مجهولٍ؛ يَعْنِي مَعلومَ المعنَى، وَالكَيْفُ غيرُ مَعقولٍ؛ يَعْنِي لَا تُدرِكُه عُقولُنا، وَلَا يُمكنُ أَنْ نصلَ بعقولِنا إِلَى معرفةِ كَيْفَ استواءُ اللهِ عَلَى

العرشِ، وَإِذَا لم يكُنْ بالعقلِ مجالٌ فِي كيفيةِ صفاتِ اللهِ، ولم يأتِ بِهِ الشَّرعُ صَارَت مجهولةً لَنَا، وَلهَذَا لَا يُمكنُنَا أَنْ نعرفَ كَيْفَ استوَى اللهُ عَلَى العرشِ.

والإِيمانُ به؛ أَيْ بالاستواءِ وَاجبٌ؛ لأَنَّ اللهَ أخبرَ بِهِ عَنْ نفسِه، وَالسؤالُ عَنْهُ بدعةٌ؛ فالَّذِي يَسألُ كَيْفَ استوَى اللهُ عَلَى العرشِ **فَهُوَ مبتدِعٌ لسَبَبَيْنِ:**

السَّبَبُ الأَوَّلُ: أَنَّهُ لَم يكنْ مِنْ شأنِ السَّلَفِ الصَّالحِ أَنْ يَسألُوا عَنْ كيفيَّةِ الاسْتواءِ.

السَّبَبُ الثَّاني: أَنَّهُ لَا يَسأل هَذَا السُّؤَال إِلَّا أهلُ البدعِ؛ لأَنَّهُمْ همُ الَّذِينَ يأتونَ بهَذِهِ الأسئلةِ لِيُشَكِّكُوا أهلَ السُّنَّة فِيمَا ذهبوا إِلَيْهِ.

فيقولونَ مثلًا: هَلْ تعلمُ كَيْفَ استوَى اللهُ عَلَى العرشِ؟

السَّلَفِيُّ سيقُولُ: لَا أعلمُ كَيْفَ استوَى، لَكِنْ أعلَم أَنَّهُ استوَى، أَيْ علَا عَلَيْهِ عَزَّوَجَلَّ علوًّا يَليقُ بجلالِهِ وعَظَمتِهِ، وَلَيْسَ كَاستواءِ الإِنْسَانِ عَلَى الفُلْكِ، أَوْ عَلَى البعيرِ، بَلْ هُوَ استواءٌ يليقُ بِهِ لَا يتضمَّنُ نَقْصًا بوجهٍ مِنَ الوجوهِ.

وفِي قولِه تَعَالَى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دليلٌ عَلَى أَنَّ آياتِ الصِّفَاتِ معلومةُ المعنى؛ لِأَنَّهُ لَا يُمكنُ أَنْ يُتدبَّرَ الشَّيْءُ الَّذِي لَا يُمكنُ الوُصولُ إِلَى معناهُ، أَمَّا حقائِقُها فإِنَّها مَجهولةٌ لنا.

يتذكَّر؛ أَيْ يتَّعِظ، فالإِنْسَانُ العَاقلُ يتَّعِظُ بما يَعْلَم من مَعَانِي آياتِ هَذَا القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَالإِنْسَانُ السفيهُ هُوَ الَّذِي لَا يتَّعِظُ، فمَن قرأَ القُرْآنَ وتذكَّرَ، فَهُوَ من أُولِي الألبابِ، ومَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وقسَا قلبُه، فليسَ من ذَوِي الألبابِ.

الدَّرس الخَامس:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالِمين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّدٍ خَاتمِ النَّبيِّين، وإمَامِ المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تعالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

إن كتابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يُرادُ بِهِ مجردَ التلاوةِ فقطْ، بل يُرادُ بِهِ معَ أجرِ التلاوةِ وثوابِها أمرانِ عظيمانِ، ذكرَهُما اللهُ عَزَّوَجَلَّ في قولِه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، واللامُ هنَا للتعليلِ، وبيانِ الحكمةِ من إنزالِ هذا القرآنِ المباركِ، وهوَ التَّدبرُ، والتَّذكرُ.

والتَّدبرُ: هوَ التَّفكرُ في معاني الآياتِ الكريمةِ، إن كانتْ خبرًا أو طلبًا، أو أمرًا أو نهيًا، خبرًا عن شيءٍ مما غابَ عنا سابقًا، ومما يأتي لاحقًا، فالمهمُّ أن يتفكرَ الإِنْسانُ في معنى الآيةِ.

والإِنْسانُ إذا تفكرَ فلا يمكنُه أن يفسرَ الآيةَ بحسبِ ما أداهُ إليهِ تفكيرُه، بل لا بدَّ أن يرجعَ في تفسيرِ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إلى كتابِ اللهِ نفسِه، ثم إلى ما فسرَهُ بِهِ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ، ثم إلى ما فسرَهُ بِهِ الصَّحابةُ، ولا سيَّما العُلَماءُ منهمْ بالتفسيرِ: كابنِ عباسٍ، وابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثم إلى ما قالَهُ التَّابعونَ، الَّذين اشتُهرُوا بالأخذِ عنِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، **فهذهِ أربعُ مراتبَ:**

المرتبةُ الأولى: أن يُفسرَ كلامُ اللهِ بكلامِ اللهِ.

المرتبةُ الثَّانيةُ: أن يُفسرَ كلامُ اللهِ بكلامِ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ.

المرتبةُ الثَّالثةُ: أن يُفسرَ كلامُ اللهِ بكلامِ الصَّحابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنهُمْ، ولا سيَّما مَنِ اشتُهرَ منهمْ بعلمِ التفسيرِ.

المرتبةُ الرَّابعةُ: أن يُفسرَ كلامُ اللهِ، بما فسرَهُ بِهِ التَّابعونَ الَّذينَ اشتُهروا بالأخذِ عنِ الصَّحابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنهُمْ.

أما المرتبةُ الأولى: وهيَ تفسيرُ كلامِ اللهِ بكلامِ اللهِ، **فمثالها**:

قَولُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٨]، فهذَا استفهامٌ، وجوابُه، في قولِه تَعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩].

ومِن ذلكَ، أيضًا، أن يُذكرَ الشيءُ، ثم يُذكر ما يُقابلُه، فنعرفُ تفسيرَ المقابلِ، بذكرِ ما قابلَهُ، ومنهُ قولُه تَعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ [النِّساء:٧١]، فلو سألكَ سائلٌ ما معنَى ﴿ثُبَاتٍ﴾، قلنَا: يُفسرُها ما بَعدَها، وهوَ قولُه تَعالى: ﴿ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ فمعنَى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ يعني فُرَادَى مُتَفرِّقينَ أوِ ﴿ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ حسبَ ما تقتضيهِ المصلحةُ في الخُروجِ والنُفورِ إلى الجهادِ.

أما المرتبةُ الثَّانيةُ: وهيَ تفسيرُ القرآنِ بقولِ الرَّسولِ ﷺ **فمثالها**:

قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠]، فكلمةُ: ﴿قُوَّةٖ﴾، نكرةٌ لم تُبينْ ما هذهِ القوةُ؟ هلْ هيَ القوةُ الكلاميةُ؟ أوِ القوةُ البدنيةُ؟

أوِ القوةُ الماليةُ؟ أوِ القوةُ الدعائيةُ؟ فبيَّنَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معنى القوةِ في قولِه تَعالى: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»[1]، ففسرَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ القوةَ المذكورةَ في كتابِ اللهِ بأنها الرميُ.

وكلمةُ الرميِ لا يُرادُ بها الرميُ المعروفُ في عهدِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقوسِ والسهمِ، ولكنهَا عامةٌ وتشملُ: رميَ كلِّ وقتٍ بحسبِه، فالرميُ في عهدِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هوَ رميٌ داخلٌ في الآيةِ، والرميُ في وقتِنا الحاضرِ بالصواريخِ العَابرةِ للقاراتِ، والقذائفِ المُوجَّهةِ داخلٌ في الرميِ.

ولهذا يجبُ على المسلمينَ أن يتعلمُوا مِن هذهِ الأسلحةِ ما يكونُ بهِ الدفاعُ عن دينِهمْ وبلادِهم وأنفسِهم، بل ما يكونُ بهِ الهجومُ على أعداءِ اللهِ؛ لأنه يجبُ أن نقاتلَهم حتى لا تكونَ فتنةٌ؛ ويكونَ الدينُ كلُّهُ للهِ، حتى يُسلمُوا أو يُذعنوا للإسلامِ، كما كانَ الرَّسولُ ﷺ يبعثُ البُعوثَ ويأمرُهم بأن يَدعُوا عدوَّهُم إلى الإسْلامِ، فإن أَبَوْا فالجزيةُ، فإن أَبَوْا فليقاتلْهم، كما قالَ تَعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩].

وقالَ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ**»[2]،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم مَن علمه ثم نسيه، رقم (١٩١٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥]، رقم (٢٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال النَّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رَسول الله، رقم (٢١).

وما ضَرَّ المسلمينَ اليومَ إلا تخلفُّهم عنْ هذا الأمرِ الإلهيِّ، وهوَ إعدادُ القوةِ والمقاتلةِ، حتى تكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العليَا.

ومِن تفسيرِ القرآنِ بالسُّنَّة أيضًا، قولُه تَعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فالحُسنى هيَ الجنَّةُ، والزيادةُ فَسَّرَها النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ: بأنها النظرُ إلى وجهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وذلكَ أن المؤمنينَ في الجنةِ ينظرونَ إلى اللهِ تعالى بأبصارِهم نظرًا حقيقيًّا كما يرونَ الشَّمسَ صَحوًا ليسَ دونَها سحابٌ، وكما يرونَ القمرَ ليلةَ البدرِ لا يُضامُّونَ في رؤيتِه، قالَ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»[1].

وهذهِ الرؤيةُ أفضلُ شيءٍ، وأنْعمُ شيءٍ لأهلِ الجنةِ، لم يُعطوا منَ النَّعيمِ أكثرَ مما يحصلُ لهم بالنَّظرِ إلى وجهِ اللهِ، وقد جاءَ ذِكرُ هذهِ المسألةِ في القرآنِ في عدةِ آياتٍ منها هذهِ الآيةُ، حيثُ فسرَها النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ، وهوَ أعلمُ النَّاسِ بمرادِ اللهِ، بأنها النظرُ إلى وجهِ اللهِ، وثبتتْ بها السنةُ بل تواترتْ عن رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ، ومَن أنكرَها فإنهُ يوشِكُ أن يُحْرَمَها يومَ القيامةِ والعياذُ باللهِ، ويقالُ لهُ: أنتَ لم تُصدِّقْ بهذا، فلا نصيبَ لكَ فيهِ في الدَّارِ الآخرةِ.

والمرتبةُ الثَّالثةُ منَ التفسيرِ: أن نرجعَ إلى تفسيرِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومثالُ تفسيرِ الصحابيِّ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان:٦]، فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصَّلاة، باب فضل صلاة العصر، باب (٥٥٤)، مسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

قولِه تَعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ: «هُوَ وَاللهِ الغِنَاءُ»(١)

وكتبُ التفسيرِ التي تَعتني بالآثـارِ كثيرةٌ: كتفسيرِ ابنِ جريرٍ، وابنِ كثيرٍ، وغيرِهما مملوءةٌ بهذَا.

وإذا اختلفتْ آراءُ الصَّحابةِ في تفسيرِ آيةٍ مِن كتابِ اللهِ، فنرجعُ إلى مَن هوَ أعلمُ بكتابِ اللهِ، ولاشكَّ أن الخلفاءَ الرَّاشدينَ أعلمُ الصَّحابةِ بتفسيرِ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ثم يليهِمْ مَنِ اشتُهرَ عنهُ العنايةُ بتفسيرِ كتابِ اللهِ، ما لم يوجدْ مُرجِّحٌ للمَفضولِ منَ القرآنِ أوِ السنةِ، فإن وُجدَ مُرجِّحٌ فلا شكَّ أن القولَ معَ المُرجحِ.

أما المرتبةُ الرَّابعةُ فهيَ تفسيرُ التَّابعينَ، الَّذينَ اشتهرُوا بالأخذِ عنِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كمجاهدِ بن جبرٍ، الذي أخذَ التفسيرَ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقدْ عرَضَ عليهِ المصحفَ مِن أولِه إلى خاتمتِه، يوقفُه عندَ كلِّ آيةٍ ويسألُه عنْ تفسيرِها، وأما عامةُ التَّابعينَ الَّذينَ لم يشتَهرُوا بالعنايةِ بالتفسيرِ، فهؤلاءِ لا يُرجعُ إلى قولِهم؛ لأنهمْ كغيرِهم منَ العُلَماءِ.

قولُه تَعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، هذهِ هيَ الحكمةُ الثَّانيةُ منْ إنزالِ القرآنِ، أن يتذكرَ ويتعظَ أولُو الألبابِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩]، أي عِظُوا النَّاسَ حينَ ينتفعونَ بالموعظةِ، وقولُه: ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يعني أُولُـو العقولِ؛ لأن اللُّبَّ هوَ العقلُ، وغيرُ ذَوِي العقـولِ لا يَتذكرونَ بالقرآنِ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٥) رقم (٣٥٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٠٦) رقم (٤٧٤٣).

ولا يَنْتفعونَ بهِ، ولا يَهتدونَ بهِ، بل إذا ما أُنزلتْ سورةٌ فإنها تزيدُهم رجسًا إلى رجسِهم -والعياذُ باللهِ-، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

فهذهِ هيَ الحكمةُ مِن إنزالِ القرآنِ، أن تتفكرَ في معناهُ حتى تفهمَهُ، ثم تتعظَ بما فيهِ، وبهذا تكونُ منتفعًا بالقرآنِ الكريمِ.

أما مجردُ التلاوةِ فقطْ فلا شكَّ أن فيها خيرًا، وفيها بركةً، والحرفُ بعشرِ حسناتٍ، لكن ذلكَ ليسَ هوَ الغايةَ مِن إنزالِ القرآنِ، وكانَ الصَّحابةُ الَّذينَ تعلمُوا القرآنَ في عهدِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لا يتجاوزونَ عشرَ آياتٍ حتى يتعلمُوها، وما فيها منَ العلمِ والعملِ، فعلينا أن يَحثَّ بعضُنا بعضًا على تَعلُّمِ كتابِ اللهِ، وفهمِ معناهُ، والعملِ بهِ، حتى يكونَ نافعًا لنا في الدُّنيا والآخرةِ.

ثم قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

أما سليمانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقالَ اللهُ فيهِ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠] أي أعطيناهُ إياهُ هبةً، والهبةُ هيَ بذلُ الشيءِ بدونِ أخذِ عِوضٍ، وكلُّ ما أعطانَا اللهُ تعالى فإنهُ هبةٌ مِن هباتِ اللهِ؛ لأنهُ بدونِ عِوضٍ، ولا يريدُ منَّا اللهُ

عَزَّوَجَلَّ إذا أعطانَا عطاءً إلا أن نشكرَ، والشكرُ يكونُ للهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [لقمان:١٢] واللهُ غنيٌّ عنا عَزَّوَجَلَّ، سواءٌ أطعنَا أم عصينَا.

قولُه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ ثناءٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على سليمانَ بأنهُ نِعمَ العبدُ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

قولُه: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ﴾ يعني في آخرِ النهارِ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ يعني الخيلَ الجيدةَ، وكانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يحبُّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ، والجهادُ على الخيلِ فيهِ الخيرُ؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[1].

قولُه: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ عُرِضتْ عليهِ الصَّافناتُ الجيادُ وهوَ بشرٌ، فَلها عنِ الصَّلاةِ ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي الشَّمسُ ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ فلما أَلْهَتْهُ عنْ ذكرِ اللهِ أرادَ أن يُتلفَ هذا المالَ الذي ألهاهُ عن ذكرِ اللهِ، فقالَ: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ فردُّوهَا، وعرَفْنَا أنهمْ رَدُّوهَا لأنهُ قالَ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ السُّوقُ جمعُ ساقٍ، والأعناقُ جمعُ عنقٍ، أي بَعضها عقَرهُ، وبَعضهَا قطَعَ رَقبتَهُ.

هكذَا وقعَ مِن نبيِّ اللهِ سليمانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أتلفَ المالَ الذي ألهاهُ عن ذكرِ اللهِ، ونظيرُ ذلكَ ما جَرى لرَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ لكنهُ ليسَ مشابهًا لهُ مِن كلِّ وجهٍ، فقدْ أهدَى إليهِ رجلٌ منَ الصَّحابةِ خميصةً، والخميصةُ كساءٌ مُرقَّعٌ لهُ أعلامٌ، وفيهِ شيءٌ مِن الزركشةِ، فصلَّى بها وأثناءَ الصَّلاةِ نظرَ إلى أعلامِهَا -يعني الخطوطَ التي فيهَا- نظرةً واحدةً، فلما صَلى قالَ: «**اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، رقم (٢٨٥٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، رقم (١٨٧٣).

إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ[١] أَبِي جَهْمٍ؛ فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلاتِي»[٢]

فأخرَجَهَا النبيُّ ﷺ عنْ مُلكِهِ لأنهُ انشغَلَ بنظرةٍ واحدةٍ في صلاتِه، فأبعدَهَا عنهُ، وقد طلبَ أَنبِجانِيَةَ أبي جهمٍ لأن أبا جهمٍ هوَ الذي وهبَ لهُ الخميصةَ، ومِن حسنِ خلقِ الرَّسولِ ﷺ أنهُ لما ردَّ هذِهِ الهديةَ أرادَ أن يَجبرَ قلبَ صاحبِهَا بطلبِ أَنْبِجَانِيَةٍ، وأعطاهُ الخميصةَ.

فأقولُ: إذا رأيتَ في مالِكَ إشغالًا لكَ عَن ذكرِ اللهِ، فما أحسنَ التخَلي عنهُ؛ إما ببيعِهِ أو بهبتِهِ، أو بالصدقةِ بِهِ، أو ما أشبهَ ذلكَ؛ حتى لا يعودَ الانشغالُ مرةً أخرى، وهذِهِ طريقُ الرسلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ. ثم ذكرَ اللهُ تعالى بقيةَ القصةِ.

والحمدُ للهِ الذِي بنعمتِه تتمُّ الصَّالِحَاتُ، وصلَّى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِهِ.



---

(١) الأنبجانية: كساء غليظ لا علم فيه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصَّلاة، باب إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، رقم (٣٧٣)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب كراهة الصَّلاة في ثوب له أعلام، رقم (٥٥٦).



سورة الزمر

الدَّرس الأوَّل:

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الحَمْدُ للهِ ربِّ العَالمين، وأُصلِّي وأُسلِّمُ على نبيِّنا محمدٍ خَاتِمِ النَّبيِّين وإمامِ المُتَّقِين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣]، والمرادُ بأَحْسَنِ الحديثِ هو هذا الكتابُ العزيزُ القُرآنُ؛ لأنَّ اللهَ قال لرَسولِه ﷺ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف:٣].

فأحسنُ الحَديثِ هُو هذا القُرآنُ، اللهُ تَعالَى نَزَّله على محمدٍ ﷺ بوَاسِطَةِ الرُّوحِ الأَمِينِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل:١٠٢]، وقال تَعالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

فهذا القُرآنُ هو أحسنُ الحديثِ بلا شَكٍّ لفظًا ومَعْنًى، قَصَصًا وخَبَرًا وأَحْكَامًا، وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ وَصَفَ اللهُ القُرآنَ بأَنَّه مُنَزَّلٌ، ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣]، فاسْتَدَلَّ القُرآنُ بذلك على أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولا شَكَّ

في هذا؛ لأن اللهَ يقولُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التَّوبة:٦].

القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ:

وهل هو كلامُ اللهِ لفظًا ومَعْنًى، أو هو كلامُ اللهِ مَعْنًى والألفاظُ مَخْلوقةٌ لِتُعَبِّرَ عن ذلك المعْنَى القائمِ بنَفْسِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

نقول: هو كلامُ اللهِ لَفْظًا ومَعْنًى، كلامُ اللهِ تَعالَى مَسْمُوعٌ، سَمِعَه جِبْريلُ، ونَزَلَ به على مُحَمَّدٍ ﷺ وليسَ هو المَعْنَى القَائِمَ بنفسِ اللهِ المُعَبَّرَ عنه بالأصواتِ المخلوقةِ الَّتي سَمِعَها جِبْريلُ، لأنه لو كانَ كذلك لم يَكُن كَلامَ اللهِ، بل كانَ كلامًا مخلوقًا، وكلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ صِفَةٌ من صفاتِه، وليس بمَخْلوقٍ، وهذا الَّذي نَقولُه هو مَذْهبُ السَّلفِ الَّذين هم أهْلُ السُّنة والجماعةِ.

وفي هَذا أيضًا دَلِيلٌ على أنَّ القُرآن غيرُ مخلوقٍ، لأنَّ اللهَ قال: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وقُلنا: إنَّ الحديثَ كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فهو غيْرُ مَخْلوقٍ.

فإذا قال قائلٌ: كيف يكونُ غَيْرَ مخلوقٍ واللهُ تَعالَى يَقولُ: ﴿نَزَّلَ﴾ والتنزيلُ يَكُونُ في المخلوقاتِ، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال تَعالَى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام:٩٩]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى:٢٨]، وكلُّ هذه الأشياءِ مخلوقةٌ، فالحديدُ مَخْلوقٌ، والغَيْثُ مخلوقٌ، والماءُ الَّذي يَنْزِلُ مِن المَطرِ مَخْلوقٌ، وكذلك الأنعامُ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦] مخلوقةٌ، فكيفَ تَقولُ: إنَّ القُرآنَ غَيْرُ مَخْلوقٍ وهو مُنَزَّلٌ؟

فالجوابُ: لأنَّ القُرآنَ وَصْفُ الكَلامِ، والكلامَ وَصْفُ المُتكلِّمِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ بصِفاتِه هو الخَالقُ، وما سواهُ مَخْلوقٌ؛ ولأن المَخْلوقَ شيءٌ زائدٌ عن الخَالقِ -لأنه مَفْصولٌ، والمفصولُ دائمُ النُّقْصانِ- ومُنْقَسِمٌ منه، ولهَذا إذا صَنَعَ الحدادُ القِدْرَ مَثَلًا فلا يَكونُ من أَوْصَافِهِ، بل مُنْفَصِلٌ عنه، وكذلك البَنَّاءُ إذا بَنَى القَصْرَ، فالقَصْرُ مُنْفصِلٌ عنه، فَالمَخْلُوقُ شيءٌ مُنْفَصِلٌ عن الخَالقِ بائنٌ منه، بخلافِ الكلامِ، فإن الكلامَ وَصْفُ المُتكلِّمِ، والخَالقُ عَزَّوَجَلَّ بصِفاتِه كاملٌ ليسَ شيءٌ مِن صِفاتِهِ مخلوقًا.

وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ وصفُ القُرآنِ بأنه مُتَشابِهٌ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾، ولكن نَجِد أنَّ القُرآنَ الكريمَ وُصِفَ في بعضِ الآياتِ بأنه مُحْكَمٌ، وفي بعضِ الآياتِ بأنَّ بعضَه مُحْكَمٌ، وبَعْضَهُ مُتَشابِهٌ، قال تَعالَى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، وقال تَعالَى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وقال تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، فجعل اللهُ بَعْضَ القُرآنِ مُحْكَمًا، وبَعْضَه مُتشابِهًا، وحِينَئذٍ يَقِفُ الإنْسانُ مَوْقِفَ المُتأَمِّلِ في هذهِ الآياتِ، هل هي مُتعارِضَةٌ ومُتناقِضةٌ أم هي مُتَّفِقةٌ؟ فإن كان الأَوَّلَ، ففيهِ إشكالٌ، لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢]، وإن كانَ الثَّانِيَ فما وَجْهُ الجمعِ بينَ هذهِ الأوصافِ الثَّلاثةِ؟

أقولُ: يَجِبُ أنْ تَعْلَم قاعدةً مُهِمَّةً فيما يَتعلَّقُ بالنُّصوصِ الشَّرعيةِ: وهي أنَّ النُّصوصَ الشَّرعيةَ لا يُمكِنُ أن تَتناقَضَ أبدًا، لأنَّ التَّناقُضَ يعني الاختلافَ، فإن كان في الخَبَرِ، فهذا يَستلزِمُ أن يكون أَحَدُ الخَبَرَيْنِ كَذِبًا، وكلُّ الأخبارِ في النُّصوصِ

الثَّابتةِ لا يُمْكِنُ أن يُكَذِّبَ بعضُها بعضًا، وإنْ كان في الأَحْكامِ فإنه لا بُدَّ أن يكونَ أَحَدُ الحُكْمَيْنِ المُناقِضُ للآخَرِ مَنْسوخًا، أو أنه ليسَ هناكَ مُناقَضَةٌ والخطأُ من الفَهْمِ.

وكذلك أيضًا لا يُمْكِن أن يكونَ في النُّصوص الثَّابتةِ ما يُخالِفُ الوَاقِعَ المَحْسوسَ أبدًا، فإن وَجَدْتَ أو تَوَهَّمْتَ أنَّ في النُّصوص تناقُضًا أو مُخالَفَةً للواقعِ، فاعْلَم أن ذلك من قُصورِ فَهْمِكَ، أو مِن تَقْصيرِ بَحْثِكَ ونَظَرِكَ في الأدلةِ، وإلا فلا يُمْكِنُ أن يكونَ في الأدلةِ الصَّحيحةِ تَناقُضٌ ولا مخالفةٌ للواقعِ.

وحِينَئذٍ نقولُ في الجَمْعِ بينَ هذهِ الأوصافِ الثَّلاثةِ الَّتي وُصِفَ بها القُرآنُ: أمَّا وَصْفُه بأنه مُتشابِهٌ فالمرادُ به أنَّ بعضَه يُشْبِهُ بعضًا في الكمالِ والجَوْدةِ والإعجازِ وغيرِ ذلكَ من المعاني الَّتي يَشْتَمِلُ عليها القُرآنُ.

ونحن نقولُ: يُشْبِهُ بعضُه بعضًا، ولا نَقولُ: يُماثِلُ بعضُه بَعْضًا؛ لأنَّ بَعْضَ القُرآنِ أَفْضَلُ من بِعْضٍ لا باعتبارِ المُتكَلِّم به؛ لأن المُتَكَلِّمَ به واحدٌ، ولكن باعتبارِ ما تَحْمِلُه بعضُ الآياتِ من المعاني العظيمةِ الجليلةِ، ولهذا قالَ النَّبيُّ ﷺ لأُبَيِّ ابْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّ آيَةٍ مَعَكَ مِنْ كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ؟» يَسْأَلُه، فقال أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فضَرَبَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صَدْرِه وقال: «لِيَهْنِ لَكَ يَا أَبَا المُنْذِرِ العِلْمُ»[(١)]، فأَقَرَّه على أنَّ أعظمَ آيةٍ في كتابِ اللهِ هي آيةُ الكُرْسِيِّ.

وأَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ سورةَ الإخلاصِ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ[(٢)]، وأَعْظَمُ سُورةٍ في

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الوتر، باب ما جاء في آية الكرسي، رقم (١٤٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القُرآن، باب فضل قل هو الله أحد رقم (٥٠١٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد رقم (٨١١).

كتابِ اللهِ هي سُورةُ الفاتحةِ[(١)].

فالقُرآنُ يُفاضَلُ من هذا الوجهِ، لكنَّه لا يَتفاضَلُ باعتبارِ المُتكَلِّمِ به؛ لأنَّ المُتكَلِّمَ به هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

إذن معنَى وَصْفِ القُرآنِ بالتَّشابُهِ: أنَّ بعضَه يُشْبِهُ بعضًا في الكمالِ والجَوْدَةِ والإعجازِ وغيرِ ذلك مِن المعاني الَّتي يَشْتَمِلُ عليها القُرآنُ.

ومعنَى وَصْفِه بأنَّه مُحْكَمٌ أو أنه حَكِيمٌ كُلُّه: أنَّ القُرآنَ لا يَتَناقَضُ ولا يَتَعارَضُ، وهو مُحْكَمٌ في أَخْبَارِهِ، مُحْكَمٌ في أحكامِه، مُحْكَمٌ في أخبارِه لكونِها خاويةً من الكذبِ، بل هي غايةُ الصِّدْقِ والبَيانِ، مُحْكَمٌ في أحكامِه لكونِها خاليةً من الجَوْرِ والفَسَادِ، بل كُلها عَدْلٌ، وكُلها صلاحٌ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

أمَّا مَعْنَى وَصْفِه بأنَّ بعضَه مُحْكَمٌ وبعضَه مُتشابِهٌ، فنَقولُ: الإحكامُ غيرُ التَّشابُهِ، المُحْكَم ما اتَّضَحَ معناهُ وعَلِمَه العِبادُ، والمُتشابِهُ ما اخْتَلَفَ معناهُ، بحيثُ لا يَعْرِفُه إلا الرَّاسخون في العِلْمِ، ولهذا أَمْثِلةٌ كثيرةٌ في القُرآنِ:

إذا قال قائلٌ: إنَّ نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال لقَوْمِه وهو يَدْعوهم إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ① قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح:١-٤]، أليس في هذه الآيةِ شيءٌ من الإشكالِ، لأنه قالَ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القُرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم (٤٤٧٤).

﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وهذا يَدُلُّ على أن الإِنْسانَ قد يُؤَخَّرُ إلى أجلٍ مُسَمًّى، ثم قالَ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، فكيف يَتَّفِق الكلامُ الثَّاني معَ الأولِ؟ هنا يَقعُ اشتباهٌ عندَ العامَّةِ، كيفَ يقولُ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، ثم يقولُ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، إذنْ كَيْفَ يُؤَخَّرُ الأَجَلُ المُسَمَّى؟

نحتاجُ إلى جَمْعٍ بينَ هذين النَّصَّيْنِ، ووَجْهُ الجمعِ أنَّ أجلَ اللهِ بالعُقوبةِ إذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ، إذا نَزَلَ العَذابُ بنُزولِ أَسْبابِهِ فإنه لا يُؤَخَّرُ، لأن الإيمانَ بعدَ نُزولِ العذابِ لا يَنْفَعُ، قال اللهُ تَعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

وقال في آيةٍ أخرَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النِّساء:٤٢]، وفي آيةٍ أُخْرَى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، فكَتَمُوا ﴿قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي ما أَقَرُّوا بشِرْكِهم، وفي الآيةِ الأُولى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، فيَقَعُ الإِنْسانُ بين هاتَيْن الآيتَيْن، ويقولُ: كيف قالَ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، وقال: إنَّهم ﴿قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟ فيَقَعُ الإِنْسانُ في وَهْمِ أنَّ في ذلك تَعارُضًا، ويقولُ: الَّذي ليسَ وَاضِحَ المَعْنَى، لكن يَعْلَمه الرَّاسِخون في العِلْمِ، يعلَمون أنَّه لا تَناقُضَ ولا تَعارُضَ.

ووَجْهُ الجمعِ بين هاتَيْن الآيتَيْن بأنَّ يومَ القِيامَةِ ليسَ وقتًا قَصيرًا بل مِقْدارُه خمسونَ أَلْفَ سَنةٍ، ففي حالٍ يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وفي حالٍ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، ولو أرادوا أن يَكْتُموا ما اسْتَطَاعُوا ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ

وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]، حتى لو أنَّهم كَتموا بأفواهِهم لَخَتَمَ اللهُ عليها، وشَهِدوا جوابًا.

فإذن نَقولُ في الجمعِ: إنَّ يومَ القِيامَةِ يومٌ طويلٌ تَخْتَلِفُ فيه الأحوالُ، وتَخْتَلِفُ فيه الأقوالُ أيضًا بِناءً على اختلافِ الأحوالِ.

إذن في هذا الجمعِ صارَ القُرآنُ مُحْكَمًا؛ لأنَّنا إذا حَمَلْنا المُتشابِهَ على المُحْكَمِ صارَ الجَمِيعُ مُحْكَمًا، والأمثلةُ على هذا كثيرةٌ لا نُطِيلُ بها.

وهنا اشتباهٌ في الإعرابِ في القُرآنِ مَرَّ علينا في قولِه تَعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ قَالُواْ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص:٢١-٢٢]، فهذِهِ الآيةُ يَشْتَبِهُ إعرابُها على طالبِ العِلْمِ، يقولُ كيفَ قال: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْۖ﴾، والمَعْروفُ أن المُثَنَّى يُنْصَبُ بالياءِ، فلماذَا قال: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْۖ﴾، فصارَ بالألفِ هذا إشكالٌ؟

نقولُ: الفِعْلُ هنا لم يُسَلَّط على قولِه: ﴿خَصْمَانِ﴾ حتى يَنْصِبَه، بل ﴿خَصْمَانِ﴾ خَبَرٌ لمُبْتَدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: نحن خَصْمانِ، وهذا من المُشْتَبِه الَّذي لا يَعْرِفُه إلا طَلَبَةُ العِلْمِ الَّذين عِنْدَهم عِلْمٌ بالعَرَبِيَّةِ، أما الَّذي ليسَ عنده عِلْمٌ بالعَرَبِيَّةِ فهم نوعانِ:

- نَوْعٌ لا يَعْلَم المَرْفوعَ والمنصوبَ، وكُلُّه سواءٌ عندَه.

- نوعٌ آخَرُ يعلمُ المرفوعَ والمنصوبَ، فيَقِفُ حيرانَ أمامَ مثلِ هذا التعبيرِ؛ لأنه لا يَدْرِي أنَّ الفِعْلَ غَيْرُ مُسَلَّطٍ على قولِه: ﴿خَصْمَانِ﴾، فيقولُ: كيف رَفَعَ المُثَنَّى وهو مَنْصُوبٌ؟

نقولُ: هذا غَيْرُ مَنْصُوبٍ، فإنَّ الخبَرَ منه محْذُوفٌ.

لكن مع ذَلك هناكَ لغةٌ لِلْعَرَبِ يَجْعَلُون المُثَنَّى بالألفِ دائمًا، سواءٌ كانَ مَرْفوعًا أو مَنْصوبًا أو مجرورًا، فيقولون: قامَ الرَّجُلانِ، ورأيتُ الرَّجلانِ، ومَرَرْتُ بالرَّجلانِ.



الدَّرس الثَّاني:

الحمدُ لله ربِّ العَالمين، وأُصلِّي وأُسَلِّم عَلَى نبينا مُحَمَّد خاتَم النَّبِيين، وإمامِ المتَّقين، وعلى آله وأصْحَابه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يوم الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُخاطِب نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١].

والخطابُ فِي قولِه: ﴿إِنَّكَ﴾ للنَّبي صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم لا إشكالَ فِي هَذا، وقولِه: ﴿مَيِّتٌ﴾ أي: سَتَموت؛ لأنَّه يُخاطِبه فِي حالِ حياتِه، ﴿وَإِنَّهُم﴾ أي: هؤُلاءِ المكذِّبُون لك ﴿مَّيِّتُونَ﴾ أي: سيَمُوتونَ.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ مِن المعلُوم أَنَّ الغالِب فِي هَذِهِ الخصومَة هُوَ النَّبي ﷺ كما قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَة النِّساء: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء:١٤١] فالغالِب يومَ القِيامَة فِي الاختِصام عندَ الله عَزَّوَجَلَّ هم أهلُ الإيمان، وأهلُ الصَّلاح، أمَّا أهلُ الكُفر وأهلُ الفَساد، فإنَّهم لا شَكَّ مخصُومون، مغلُوبون.

الرَّسولُ ﷺ بشرٌ:

وفي هَذِهِ الآيَة الكَريمَة دليلٌ واضِحٌ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا رَسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَشَرٌ يَعْتَرِيه ما يَعْتَرِي البَشر، حتَّى إنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ عن نفسِه: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصَّلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب السهو في الصَّلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

فجميعُ خَصائصِ البَشر كُلها لاحِقةٌ بالنَّبي صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم ولكنَّه يمتازُ عن البَشر بأمرٍ لا يَشْرَكُه فيه غيرُه، إِلَّا إخوانُه مِن الأنْبياء والمرْسَلين، ألا وهو الرِّسالَة، كما قالَ الله تَعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠]، وقال اللهُ تعالَى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠]، بل هو بَشَرٌ، كغَيْرِه مِن البَشَر، ولكنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبدٌ مأمورٌ يَتبع ما أُنزل إليه مِن ربِّه، كما قالَ تعالَى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام:٥٠] هَذِهِ حقيقةُ النَّبي ﷺ أنَّه بَشَرٌ لا يَملك لِنَفْسِهِ ولا لِغَيْرِه نفعًا ولا ضَرًّا، وإنما هُوَ مُوحًى إليه، ويمتازُ بهذَا الوحي، ونِعم هَذِهِ المَيْزَة.

وفاةُ النَّبيِّ ﷺ:

وفي قولِه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ دليلٌ عَلَى ما أَعْلَنَه أبو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حينما جاء إِلَى المَدِينَة وكان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَدْ خرج إِلَى نخلٍ له فِي السُّنْحِ؛ لأنَّ النَّبي ﷺ صَبيحَةَ موتِه كانَ أحسنَ وأَنْشطَ عما كانَ مِن قبلُ، فاطمئنَّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَلَى صِحَّة النَّبي صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم ثمَّ خرج إِلَى مكانه فِي السُّنح، ولما جاءه الخَبَرُ دَخَلَ إِلَى المَدِينَة، وكان النَّاس قَدِ اجتمعوا فِي المَسْجِد؛ لأنَّ الأمرَ الَّذِي دَهَمَهُم أمرٌ عظيمٌ، قالَ أنسُ بنُ مالِك: «لما كَانَ اليَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَما كَانَ اليَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَم مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ»[1]، لأنها فَقَدَت نُور مُحَمَّد ﷺ وما جاءَ به مِن الوَحْيِ انقطَعَ بِمَوْتِه.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، بعد باب في فضل النَّبي ﷺ، رقم (٣٦١٨)، وابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، رقم (١٦٣١).

فجاءَ أبو بكرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ووجده مُسَجًّى مُغَطًّى مَيِّتًا، فكَشَفَ الغِطاء عن وجهِه، وقَبَّلَهُ، وقال: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثمَّ خرج إِلَى النَّاس وهم فِي المَسْجِد، وبينَهم عمرُ بنُ الخطَّاب يخطب النَّاسَ وهو يُنكر موتَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: وَاللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ. هكذا ظنَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولكنَّ أبا بكرٍ آمَنَ بمَوْتِه بقَلْبٍ مُوقِن.

ثم دخلَ المَسْجِد، وإذا عُمر يقولُ هَذَا الكلامَ، فقالَ له: أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَما تكلَم أَبُو بَكْرٍ جلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. سُبحانَه وبحمْدِه، هَذِهِ كلماتٌ عظيمةٌ جدًّا، مَن كانَ يَعبد مُحَمَّدًا فإن مُحَمَّدًا قَدْ مات، ولن يُغْنِيَ عنه شيئًا، أمَّا مَن كانَ يَعبُد اللهَ ربَّ مُحَمَّد، فإنَّه تَعالَى حيٌّ لا يموتُ[1].

ثم قرأَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، قالَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ، حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ**»[2]، وجلسَ، وعلِم أَنَّ الأمرَ حقٌّ، وأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ماتَ.

وبهَذا نعرِف ضلالَ مَن قال: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ حَيٌّ؛ لأنَّ هَذَا تكذيبٌ للقُرآنِ، ولأنَّه قدحٌ تامٌّ فِي الصَّحَابَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وكيف يَدْفِنُون نَبِيَّهُم وهو حَيٌّ! لكنَّه ﷺ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النَّبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، رقم (٣٦٦٧).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النَّبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٥٢).

وإخوانَه مِن المرْسَلين أحياءٌ فِي قُبُورِهم حياةً بَرْزَخِيَّةً أعلى مِن حياة الشُّهداء الَّذِينَ قالَ اللهُ فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، وهذه حياة بَرْزَخِيَّةٌ تُخالِف الحياةَ الدُّنيا، فالحياةُ الدُّنيا تحتاج إِلَى طعامٍ وشرابٍ وهواءٍ، وغيرِ ذلك، ممَّا هُوَ مِن مُقَوِّماتِ الحياة، أما الحياةُ البَرْزَخِيَّةُ، فعِلمُها عند الله، لا نعلمُ شيئًا عن كيفيَّتِها، لكنَّنا نؤمن بها حَسْبَ ما أخبرَنا الله تَعالَى عنْها، فهُو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَيِّتٌ لا شَكَّ، قَدْ فارَقَتْ رُوحُه جَسَدَه، ولكنَّه حَيٌّ فِي قَبْرِه حياةً بَرْزَخِيَّةً.

فالأنْبياءُ -عليهم الصَّلاة والسَّلام- أبقَى اللهُ أجسامَهم فِي الأرْض، فَحَرَّمَ اللهُ عَلَى الأرْض أن تأكُلَ أجسادَ الأنْبِياء، أَمَّا غيرُ الأنْبياء مِن الأوْلِيَاء والصَّالِحِين، فقد تأكُلُهم الأرْض، وقد لا تأكلُهم، لكن الَّذِينَ يُتحقَّق أَنَّ الأرْضَ لا تأكلُهم هُمُ الأنْبياءِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ»[1]

مِن مواقِف أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخالِدة:

وفي هَذَا المقامِ العظيمِ الَّذِي قامَه أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دليلٌ عَلَى أنَّ أبا بَكرٍ أقوى الصَّحَابَة قَلْبًا، وأَرْبَطُهُم جَأْشًا، حيثُ إنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي المواقِف العظيمةِ الكبيرَةِ، يكونُ هُوَ أثبتَ الصَّحَابَة.

ونحنُ نضرِبُ لذَلك أمثالًا:

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصَّلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصَّلاة على النَّبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصَّلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥)، وأحمد (٨/٤)، رقم (١٦٢٠٧).

الموقف الأول: صُلح الحُديبيَة:

تعلَمون ما وقَع فِي صلْح الحُدَيْبِيَة مِن الشُّروط القاسيَة عَلَى المُسْلِمِينَ، الهيِّنَة عَلَى الكافِرينَ، صُلح الحُدَيْبِيَة سببُه أن رَسولَ الله ﷺ اتَّجه من المَدِينَة بنحو أَلْفٍ وأرْبع مِئَة رَجُلٍ معهم الهَدْي مِن إبلٍ وبَقَرٍ وغيرِهما، يريدُ العُمْرَة، لا يُريد قتالًا، ولكنَّه لما وصل إِلَى حُدودِ الحرم فِي الحُدَيْبِيَة -والحُدَيْبِيَةُ مكانٌ بعضُه مِن الحِلِّ، وبعضُه مِن الحَرَم- لما وصل إِلَى ذلك، بَرَكَتْ ناقتُه، وأَبَتْ أَنْ تَتَّجِهَ إِلَى مكةَ، فقال الصَّحَابَة: خَلَأَتِ القَصْوَاءُ. خَلَأَت بمعنى: حَرَنَت، وبَرَكَتْ، والقَصْوَاء: اسمٌ لِنَاقَتِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فقالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا خَلَأَت القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لها بِخُلُقٍ**». حتَّى البهائم يُدافع عَنْهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فلَيْسَ مِن عادَتِها أَنْ تَحْرَنَ وتَبْرُكَ، «**وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ**».

وحابِسُ الفيلِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ حبسَ الفِيل الَّذِي قَدِمَ به أَبْرَهَةُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يهدم الكعبةَ المشرَّفة -زادَها الله تعالَى شَرفًا، وحماها مِن كُلِّ شَرٍّ- لكن الفيل أَبى أَنْ يَتَّجِهَ إِلَى مكَّة، فكانوا إذا وجَّهُوه إِلَى اليمن هَرْوَلَ وأَسْرَع، وإذا وَجَّهُوه إِلَى مَكَّةَ بَرَكَ، وأَبى أَنْ يدخُلَ إِلَى مكَّة، أو أَنْ يَتَّجِهَ إِلَى مكةَ، كذلك ناقةُ النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فعَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ ببُروكِها أَنَّ الأمرَ وراءه شيءٌ، ثمَّ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**». اللهُمَّ صَلِّ وسَلِّم عليه، لا يُريد أَنْ يَنْتَقِمَ لِنَفْسِهِ، ولو شاء أَنْ يدخُل مَكَّة بألفٍ وأربع مِئَة رَجُلٍ لَدَخَل، لكنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنده مِن خَشْيَةِ الله ما يمنعُه مِن ذَلك.

حَصَلَتِ المفاوَضَة بين النَّبي ﷺ وبين قُرَيْش، جاءَ رَسولُ قُرَيْش ليكتُبَ الكتابَ، فقال: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قالَ مَنْدُوبُ قُرَيْش: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، وقد قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد:٣٠] فأبَوْا. هَذِهِ واحدة، تَنَازُلٌ من الرَّسُولِ ﷺ لأنَّه أقسَمَ أَلَّا يسألُوه خُطَّة يُعَظِّمُون بها حُرماتِ الله إِلَّا أجابَهم.

ثمَّ قال: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ». فقال: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَم أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ. رَجُل مِن قُرَيْش، أما أن نُقِرَّ بِوَصْفِه بالرِّسالَة، فهذا حُجَّة علَيْنا، ولا يمكن.

وأَقِفُ عند هَذِهِ النُّقطة لِأُنَبِّهَ عَلَى ما يفعلُه بعضُ الكُتَّاب الآنَ إذا أراد أَنْ يقولَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، قال: قالَ مُحَمَّد بنُ عبدِ الله، ولا شَكَّ أَنَّه مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الله ﷺ لكن أَيُّها أفضلُ أَنْ نَنسِبَهُ إِلَى أبيهِ كغيرِهِ مِن النَّاس، أَمْ أَنْ نَنْسِبَهُ إِلَى عِبادة اللهِ ورسالَتِه؟ الثَّاني بلا شكٍّ.

ولهذا نقول: بدلًا مِن أَنْ تقولَ: «قالَ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الله». قل: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

هَذِهِ المسائِل -يا إخواني- يجب عَلَى طَلَبَةِ العِلم أَنْ يَنْتَبِهُوا لها؛ لأَنَّها قَدْ يَدُسُّها بعضُ النَّاس مِن غير شُعورٍ بمعناها أو مَغْزَاها، لكن نقولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، قالَ مُحَمَّدٌ رَسولُ الله، قالَ مُحَمَّدٌ عبدُ الله ورَسولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المهمُّ أنَّهم أبَوْا أَنْ يكتُب: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، اكتب: مُحَمَّد بنُ عبد الله. ثمَّ ذَكَرَ الشُّروطَ أن تُوضَع الحربُ بينَهم عَشْرَ سِنين، وأَلَّا يدخُلُوا

مَكَّة هَذَا العَامَ، يعني: الرَّسُول ﷺ وأَصْحَابه، وكانُوا مُحْرِمِين معَهم الهَدْيُ، يقولُ: لَبَّيْكَ عُمْرَة، وصُدُّوا عن البيتِ.

شُعورٌ عظيمٌ حين يَصُدُّكم صادٌّ عن البيتِ بَعْدَ الإحرام، ثقيلٌ عَلَى النَّفس، ومع ذَلك وافقَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى هَذَا الشَّرط أَنْ يرجع إِلَى المَدِينَة، وَأَنْ يأتيَ مِن العَامِ القادِمِ، وأيضًا يدخُل مَكَّة بغير السُّيوف المُسْلَتَّة، بالسُّيوف فِي غِمْدِها، وأَلَّا يَبقى فِي مَكَّة إِلَّا ثلاثةَ أيَّامٍ فقطْ، ووافق عَلَى هذَا، مَعَ أَنَّ فيهِ تنازلًا عظيمًا، لكِن لأجل تعظيمِ حُرماتِ الله.

ومِن الشُّروط: مَن جاء مِن قُرَيْشٍ مُسْلِمًا وجبَ عَلَى المُسْلِمِينَ رَدُّه، ومَن ذهبَ مِن المُسْلِمِينَ إِلَى قُرَيْش، لم يجب رَدُّه، وهذا الشَّرط صعبٌ جِدًّا، ليس فيه مُساواةٌ، كانَ المفروضُ أَنَّ مَن جاء مِن المشْركين إِلَى النَّبي ﷺ لا يُرَدُّ، كما أَنَّ مَن جاء مِن المُسْلِمِينَ إِلَى قُرَيْش لا يُرَدُّ، أو يُرَدُّ الجميعُ، لكنّ قُرَيْشًا باستِكْبارها وعلْيائِها أَبَت إِلَّا أَنَّ مَن جاء مِن المُسْلِمِينَ إِلَى قُرَيْش لا يُرَدُّ، ومَن جاء مِن قُرَيْش إِلَى المُسْلِمِينَ فإنَّه يُرَدُّ، ووافَق عَلَى هذا.

هذه الشُّروط قاسيةٌ. راجعَ عمرُ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَسولَ الله ﷺ فيها، وقال: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى». قَالَ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَنْ؟ حتَّى قالَ له الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**». فلما أَيِسَ عُمر مِن أَنْ يتراجَعَ النَّبِيُّ ﷺ ذهب إِلَى أبي بكرٍ يَسْتَنْجِدُه، فكان جوابُ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كجوابِ النَّبي ﷺ تمامًا، حَرْفًا بِحَرْفٍ[1]، وهذا يَدُلُّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشُّروط، باب الشُّروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشُّروط، رقم (٢٧٣١).

عَلَى أَنَّ أبا بكرٍ أقوَى مِن عُمرَ وغيرِه مِن الصَّحابَة فِي المقام الضَّنْكِ، وأَنَّه فِي المقام الضَّنْكِ يُوفَّق للصَّواب تمامًا أكثرَ ممَّا يُوفَّقُ له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذه واحدةٌ ثَبَتَ فيها أبو بكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُبوتَ الجِبال.

الموقف الثَّاني: فِي موت الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

فالصَّحَابَةُ كُلهم فَزِعُوا حتَّى سَمِعُوا الآيَةَ مِن أبِي بكر، وكأنَّها لم تَنزل مِن قبلُ، وثَبَتَ أبو بكر، مَعَ أني أعتقد أنَّه أشَدُّ الصَّحَابَة مُصيبةً برَسولِ الله ﷺ لأنَّه صاحبُه، ولأنه كانَ خَلِيلَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أي إنَّ أَبَا بَكْرٍ اتَّخَذَ الرَّسُولَ ﷺ خليلًا، أما الرَّسُول ﷺ فلم يتخذه خَلِيلًا، لأنَّه قال: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**»[(١)].

الموْقف الثَّالث: فِي إنفاذِ جيشِ أسامَةَ بنِ زَيْدٍ:

مِن المعلُوم أَنَّ زَيْدَ بنَ حارِثَةَ قُتل فِي غزوةِ مُؤتَة، فجَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ جيشًا بقيادةِ أُسامَةَ بنِ زَيْدٍ، وهو صغيرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتُوفي الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والجيشُ فِي ظاهِرِ المَدِينَة لِيَتَّجِهَ إِلَى الرُّوم، فلما مات النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واضطرَبَ النَّاس، وارْتَدَّ مَن ارْتَدَّ مِن العَرَب عَزَم أبو بكر عَلَى إنفاذِ هَذَا الجيش، فجاءه أُناس -ومنهم عُمر- يُشيرون عليه أَلَّا يُنْفِذَ الجيشَ، وَأَنْ يُبقِيَ الجيشَ فِي المَدِينَة؛ لِئَلَّا يَأْتمَّهَا أَحَدٌ، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَا كُنْتُ لَأَرُدَّ أَمْرًا أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٥/ ٤٨٢، رقم ٩٧٧٧).

ونَفَذَ الجيشُ فِي هَذِهِ الحَال الشديدة، فكان فتحًا ونصرًا، حيث قالَ العربُ المُرْتَدُّون: إن هَؤُلاءِ لَدَيْهِم قُدرة وقُوَّة، إنهم يُرِيدُون أَنْ يَغْزُوا الرُّوم.

فَلَحِقَهُم مِن الرُّعْبِ والخوف ما أوجب أَنْ يَكْبَحَ جِماحَهُم فِي الرِّدَّةِ، فكان ذلك نصرًا وفتحًا.

الموقِف الرَّابع: في حُروب الرِّدَّة:

ارتَدَّ كثيرٌ مِن العَرب بَعد موت الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقَالُوا: إنَّنا نؤمِن به، ونستجيبُ له ما دام حَيًّا، وأمَّا بعدَ مَوْتِه فلا، أَمَرَ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقِتَالهم، وراجَعَهُ مَن راجَعَهُ مِن الصَّحَابَة، ولكن أَبى، وقال: «**وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ**». وعزم عَلَى قِتالهم، وفِعلًا نَفَّذَ ذلك، فقال عمر: «**فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ**»[1].

عَلَى كُلِّ حَالٍ، نَحْنُ أتينا بأمِثلة عَلَى قُوَّةِ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقُوَّةِ جَأْشِه، وأنه أَصْبَرُ الصَّحَابَة عند الشدائد، وأَشَدُّهم عَزْمًا.

أما موتُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فكما عَلِمتم أَنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مات كما يموت البَشر، كما أَنَّه يحتاج إليه البَشَرُ مِن الطَّعام والشَّراب واللِّباس وغيرِها، وأنَّ جميعَ الخصائصِ البشريَّة ثابتةٌ للرَّسُول ﷺ يَمْرَضُ، ويجُوع، ويَعْطَشُ، ويَبْرَدُ، ويَحْتَرِزُ مِن العَدُوِّ، ويَلْبَسُ الدُّروع فِي القتال، إِلَى غير ذلك مِن الخصائِص البشريَّة، لكنَّه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال النَّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله، رقم (٢٠).

فُضِّلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالرِّسالَة؛ لأَنَّه أهلٌ لها، وقد قالَ الله تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فصلواتُ اللهِ وسلامُه علَيْه، وعلى آلِه وأصْحَابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ.



الدَّرس الثَّالث:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسَلَهُ اللهُ إلى العَالمِينَ بَشِيرًا ونَذِيرًا، صلَّى الله عليه، وعلَى آلِهِ، وأصْحَابِهِ، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

قولُهُ تعالَى: ﴿قُلْ﴾ أي: قُلْ مُبَلِّغًا عنَّا: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، والعِبادُ هُمْ عبادُ اللهِ، وليسُوا عبادَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم لأنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ عبدٌ لله، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، وقَالَ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]. وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، ولا يَذْكُرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبودِيَّةَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم إلَّا في مَقامَاتِ الشَّرَفِ، في مَقامِ إنْزالِ القُرآنِ، في مقامِ الإسْرَاءِ، في مقامِ التَحدِّي؛ وذلك لأنَّ أفْضَلَ وَصْفٍ يتَّصِفُ بِهِ الإنْسانُ أن يكونَ عَبْدًا للهِ -نسألُ اللهَ أن يجْعَلَنا مِن عِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ- فهذا أشْرَفُ وَصْفٍ يتَّصِفُ بِهِ، أن يكونَ عَبْدًا للهِ.

واستَمِعُوا إِلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ العَاشِقِ، يقُولُ(١):

لا تَــدْعُني إلَّا بِيَــا عَبْــدَهَا ... فَإِنَّــــهُ أَشْرَفُ أَسْـــمَائِي

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٢٠٥)، تفسير ابن كثير (١/ ١٣٦).

يقول: إذا نادَيْتَنِي فَلا تُنَادِنِي إلَّا بقَوْلِ: يا عَبْدَ فُلانَةَ!! فإنه أَشْرَفُ أَسْمَائي، لكِنَّ أَشْرَفَ أوصافِ الإِنْسانِ أن يكونَ عبْدًا للهِ.

الإسرافُ على النَّفْس:

﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تَجاوَزُوا الحَدِّ، وذلك بانتِهاكِ حُرماتِ اللهِ، أو بتَهاونٍ بأوامِرِ اللهِ؛ لأن الإسرافَ مجاوَزَةُ الحدِّ، ويكونُ هذا **بأمْرَينِ**:

الأمرِ الأوَّلِ: التَّهاوُنُ بالوَاجِبِ.

الأمر الثَّاني: انتهاكُ المحَرَّمِ.

فمَن لم يُقِمِ الصَّلاةَ، فهذا مِنَ التَّهاوُنِ بالوَاجِبِ، ومن زَنَى فَهو مِنَ انتهاكِ الحُرُماتِ، وكلاهُمَا إسرافٌ؛ لأن الإسْرافَ تجاوُزُ الحَدِّ، والإِنْسانُ المخالِفُ لأوامِرِ الله متَجَاوِزٌ للحَدِّ، إذَن: أَسْرَفُوا على أنفُسِهِمْ بتَرْكِ الوَاجِبِ، أو انتهاكِ المحَرَّمِ.

﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ والقُنُوطُ أشَدُّ اليأسِ، ولا يَقْنُطُ مِنْ رحمَةِ اللهِ إلَّا مَن لم يُقَدِّرِ اللهَ حَقَّ قدْرِهِ، كما قالَ إبراهِيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للمَلائكَةِ حينَ قالُوا لَهُ: ﴿**بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ**﴾ [الحجر:٥٥-٥٦] أي: لا يَقْنَطُ مِنْ رحمَةِ اللهِ وييأسُ مِنْها إلا الضَّالُّ، الَّذي لم يُقَدِّرِ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ.

ووَجْه ذلِكَ أن كلَّ قُلوبِ بَنِي آدَمَ بينَ أُصْبُعَيْنِ مِن أصابعِ الرَّحْمَنِ، يُقَلِّبُهَا كيفَ يشاءُ، فإن شاءَ أزاغَ القَلْبَ وإن شاءَ هَدَاهُ، وكَمْ من إِنْسانٍ كانَ زَائغًا فهَدَاه اللهُ، وكم من إِنْسانٍ كانَ مهتَدِيًا فأزَاغَهُ، لكِنْ لا يمكِنُ أن يُزِيغَ اللهُ مَن كان مهتَدِيًا

إلا وفِي قَلْبِهِ بلاءٌ، أما إن كانَ سَلِيمًا، فإنه لا يُمكِنُ أن يُزيغَهُ، ودليلُ هذا قولُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥]، والقَلْبُ السليمُ لا يُمكِنُ أن يُزيغَهُ اللهُ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى أكْرَمَ مِنْ أن يُزِيغَ هذا القَلْبَ السَّلِيمَ.

ولهذا أقولُ لكَ -ولنَفسِي قبْلَكَ-: فتِّشْ قَلْبَكَ، هل فِيهِ شَكٌّ، هل فِيهِ حِقْدٌ، هلْ فيهِ كَرَاهَةٌ لبعضِ شرائعِ اللهِ، هل فيه حَسَدٌ؟ هذه الأمورُ قد تَبْدُو سهْلَةً، لكنَّهَا في الحقِيقَةِ كالسُّوسَةِ في التَّمْرَةِ تقْضِي عليهَا، فتُعْدِمُها. طهِّرْ قَلْبَكَ مِنَ الشِّرْكِ، مِنَ الرِّياءِ، من الشَّكِّ، من النِّفَاقِ، مِنَ الغِلِّ، مِنَ الحِقْدِ، من كراهَةِ شيءٍ مما شَرَعَ الله، فإن لم تَفْعَلْ فإنك عَلَى شَفَا جُرُفٍ هارٍ، والعياذُ باللهِ، نسألُ اللهَ أن يُطَهِّرَ قُلُوبنَا جَمِيعًا.

ولكِنْ اعلَم أن الإِنْسانَ قَدْ يكونُ قَلْبُهُ سَلِيمًا فيأتِي الشيطَانُ ليَحْرِفَه، وقد يكونُ قَلْبُهُ صحِيحًا فيأتِي الشَّيْطانُ ليُفْسِدَهُ، وقد يكونُ القَلْبُ مُصْمتًا قَوِيًّا فيأتِي الشَّيْطانُ ليَخْرِقَهَ، وذلِكَ بأن يُلْقِي الشَّيْطانُ في قَلْبِ الإنْسانِ المؤمِنِ الشَّكَّ. فدَائمًا تَطْرَأُ على الإِنْسانِ هواجِسُ ردِيئَةٌ، لو نَطَقَ بها بِلِسَانِهِ أو أقرَّهَا بقَلْبِهِ لكانَ كافِرًا باللهِ، لكِنْ إذا طَرَدَهَا ولم يبالِ بِهَا، وأعْرَضَ عنْهَا، واستعاذَ باللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مِنْ شَرِّ الشَّيطانِ، فسَرْعانَ ما تَزُولُ.

ولهذا شَكَا الصحابَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ذلك إلى رَسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: «**أَوَجَدْتُمْ ذلِكَ؟**» قالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»[1]. أي: خالِصُ الإيمانِ، فَقَدْ يُلْقِي الشَّيْطانُ في قَلْبِ الإِنْسانِ ما يُحِبُّ أن يكونَ فَحْمَةً محْرَقَةً ولا يتكَلَم بِهِ، وما يُحِبُّ أن يسْقُطَ مِنَ السَّماءِ حتى يَهْلَكَ، ولا يتكَلَم بِهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٢).

وليسَ معْنى هذا أن الإِنْسانَ كَفَرَ، لكِنْ إياكَ أنْ تُقِرَّ ذَلِكَ بقَلْبِكَ، أو تُثْبِتَهُ. فاطْرُدْه، وانْفُضْهُ.

وقَدْ أعْطَانَا رَسولُ الله ﷺ دواءً ناجِعًا نافِعًا، فقالَ: «**إِذَا وَجَدَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ، وَلْيَنْتَهِ**»(١)، استعاذَةً باللهِ فِيما لا تَقْدِرُ عليهِ، وذلِكَ بطَرْدِ الشَّيطانِ، «**وَلْيَنْتَهِ**» أي: فيما تَقْدِرُ عليهِ، فتَقْدِرُ أن تَنْتَهِيَ عن هذِهِ الوَسَاوسِ وتُعْرَضَ عنْها، وتشتَغِلَ بعَمَلِكَ، وقُلْ لنَفْسِكَ إذا وَرَدَت عليكَ هذِهِ الوسَاوسُ: ألَم أتَوَضَّأْ في اللَّيلةِ البارِدَةِ، في الماءِ البارِدِ، وأخْرُجُ إلى المسجدِ في الرِّيحِ البارِدَةِ، وأُصَلِّي؟ فستقولُ النَّفْسُ: بَلى.

إذَن، لماذا أفعَلُ هذا الشَّيءَ؟ لماذا أشُقُّ على نَفْسِي هذه المشقَّةَ، إلا لأنِّي أومِنُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فيكونُ ما يُلْقِيهِ الشَّيطانُ مِنَ الوَسَاوسِ والشُّكوكِ مَطْرُودًا بهذَا، أُعْرِضُ عَمَّا وَقَعَ في قَلْبِي مِنَ الشَّكِّ، وأنظُرُ ما أنَا فيهِ مِنَ الأعمالِ، ولا يَهُمُّنِي ذلِكَ الشكُّ.

وهَذِه المسألَةُ يُبتَلَى بِهَا كثِيرٌ مِنَ الإخْوَةِ إذا التَزَمُوا، فإذَا التَزَمُوا ورَأى الشَّيْطانُ أنَّهُم ملْتَزِمُونَ، ذهبَ يُلْقِي الشُّكوكَ والكُفْرِيَّـاتِ في قُلوبِهِمْ، ومنهم مَنْ يُوفَّقُ لشَخْصٍ يسـألُهُ عن ذلِكَ، ويَهْدِيهِ إلى الصِّراطِ المستَقِيمِ، ومنهم مَـنْ لا يُوَفَّقُ، فينْتكِسُ -والعياذ بالله-.

التَّوبة وشُروطُها:

قولُهُ تعالَى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣]. أي: لا تَيْأَسُوا، فاليأسُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، وأخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

مِنْ رَحمَةِ اللهِ ضلالٌ وكُفْرٌ، وقَدْ قالَ الشَّاعِرُ في مَعْنَى ذلِكَ[1]:

وَلَا تَقْنُطَنَّ إِذَا أَوْجَعَتْكَ الذُّنُوبُ فَدَاوِهَا	**بِرَفْعِ يَدٍ فِي اللَّيْلِ وَاللَّيْلِ مُظْلِمُ**
وَلَا تَقْنُطَنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّمَا	**قُنُوطُكَ مِنْهَا مِنْ خَطَايَاكَ أَعْظَمُ**

وصدَقَ الشَّاعِرُ؛ فالقُنُوطُ ضَلالٌ، واليأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ كُفْرٌ، فلا تَقْنُطْ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الذُّنُوبُ من صِيَغِ العُمومِ، أي: كلُّ الذُّنُوبِ، والعمومُ كان بدُخُولِ (ال)، فَهِي إن لم تَكُنْ لبيانِ الحقِيقَةِ، ولم تكُنْ للعَهْدِ، فإنها تُفِيدُ العُمومَ والاسْتِغْرَاقِ، واستَمِعْ إلى قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر:١-٣] الإِنْسانُ هنا مُفْرَدٌ، وقد دَخَلَتْ عليهِ (ال) فيكونُ عامًّا، والدَّلِيلُ على ذلِكَ قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والاستِثْنَاءُ -كما قالَ العُلَماءُ-: مِعيارُ العُمُومِ. إذَن: يغْفِرُ كلَّ الذُّنوبِ، ثم أكَّدَ هذا العُمومَ بقولِهِ: ﴿جَمِيعًا﴾، فكُلُّ الذُّنوبِ يغفِرُهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فإذا قالَ قائلٌ: ما الجَمْعُ بينَ قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨] فهنا نَفَى أن يَغْفِرَ الشِّرْكَ، والآيَةُ الَّتي نتكَلَم عليهَا يقولُ: ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾؟

والجوابُ: إنَّ قولَهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨] فِي غَيرِ التَّائبِينَ، وأمَّا قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، فهذِهِ في التَّائبِينَ.

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢١٣).

فمَنْ تابَ مِنَ الذّنْبِ فاللهُ يغفِرُ ذنبَهُ مَهما عَظُمَ، ومَنْ لم يتُبْ، وماتَ على إصرارِ الذّنْبِ، فإن كانَ شِرْكًا فإنَّ اللهَ لا يغْفِرُهُ، وإن كانَ دونَ ذلِكَ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إن شاءَ غَفَرَهُ، وإن شاءَ لم يَغْفِرْهُ.

وإنما نَحتاجُ إلى بَيانِ الجَمْعِ بينَ الآيتَيْنِ؛ لِئَلَّا يظُنَّ أحَدٌ أن فِي القُرآنِ الكريمِ تَناقُضًا، والقُرآنُ الكَريمُ ليس بِه تَناقُضٌ أبَدًا، وإذا ظَنَنْتَ أن فِي القُرآنِ تَناقُضًا فاتَّهِمْ نفْسَكَ، إنما ظَنُّ التَّناقُضِ لسُوءِ فَهمِكَ، أو قِلَّةِ عِلْمِكَ، أو سُوءِ نِيَّتِكَ؛ لأن بعضَ النَّاسِ يكونُ سَيِّئَ النِّيَّةِ يتَتَبَّعُ الآياتِ الَّتي ظاهِرُها التَّعارُضُ في القُرآنِ؛ من أجْلِ أن يُشَكِّكَ بها النَّاسُ، وهذا لا يمكِنُ أن يهتَدِيَ للصَّوابِ، أو إنْسانًا يكونُ قاصِرَ العِلْمِ، أو إنْسانًا قاصِرَ الفَهْمِ.

والدَّليلُ على أنه لا يمكِنُ أن يُوجَدَ في القُرآنِ ما يَتَناقَضُ، قولُهُ تَعالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النِّساء:٨٢]، فإذَا ظَنَنْتَ أن فِي القُرآنِ تَناقُضًا فتدَبَّرِ القُرآنَ، وفكِّر في المعْنَى مَرَّةً بعدَ أخْرى؛ حتَّى يتبَيَّنَ لكَ.

ومن أحسنِ ما رأيتُهُ مِنُ الكُتُبِ الَّتي تَبحثُ في هذا الموضوعِ، كتابُ (دَفْع إيهَامِ الاضْطرَّابِ عَنْ آيِ الكِتَابِ) للشيخِ محمَّدِ الأمينِ الشِّنْقِيطِيِّ -رحمة الله عليه- صاحِبِ أضواءِ البيانِ، فهُو كتابٌ جيِّدٌ في بابِهِ.

والتوبَةُ يظُنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّها سَهْلَةٌ، ولهذَا إذا قُلْتَ له مَرَّةً مِنَ المرَّاتِ: عليكَ بهذَا الذَّنْبِ أن تَتُوبَ إلى اللهِ، وتَسْتَغْفِرَ. قالَ: ما عَلَيَّ إلا هذا؟ قُلْنَا: نَعَمْ، وليس فيه كفَّارَةٌ. فيظُنُّ أن الكفَّارَةَ مُدٌّ من طَعامٍ أصْعَبَ مِنَ التَّوبَةِ، وهذا خطَأٌ، فالتَّوبَةُ ليستْ

بالأَمْرِ السَّهْلِ، **فالتوبَةُ تحتاجُ إلى شُروطٍ خَمْسَةٍ لا بُدَّ مِنْهَا:**

الأوَّل: الإِخْلاصُ.

والثَّاني: النَّدَمُ على الذنْبِ.

والثَّالثُ: الإِقْلاعُ عنْه فَوْرًا.

والرَّابعُ: العَزْمُ على أَلَّا يعودَ.

والخَامِسُ: أن تكونَ في وَقْتٍ تُقبَلُ فيهِ التَّوبَةُ.

الشَّرْطُ الأولُ: الإِخْلاصُ:

ومعناه: أَلَّا يكونَ الحَامِلُ على التوبَةِ مُراءاةَ النَّاسِ، أو ابتِغَاءَ مالٍ، أو ابتغاءَ مَرْتَبَةٍ في الدُّنْيا، أو ما أشبَه ذلِكَ، فلا يحمِلُه على التوبَةِ إلا خَوفُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وابتغاءُ مَرضاتِ اللهِ، فلا يُريدُ بتَوبَتِهِ شيئًا مِنَ الدُّنْيا إطْلاقًا، فمَن تابَ أمامَ النَّاسِ رِئَاءً، فإن توبَتَهُ غيرُ مقْبُولَةٍ، وهو دليلٌ على سفَاهَتِهِ، وعلى نقْصِ دِينِهِ؛ إذ كيفَ يتُوبُ أمامَ النَّاسِ ولا يتُوبُ أمامَ اللهِ؟! فالأَوْجَبُ مراءَاةُ الخَالِقِ، وليسَ المخْلوقَ، فالمخلوقُ لا ينفَعُهُ، ولا ينْفَعُكَ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فراقِبِ اللهَ، وتُبْ إلى اللهِ، مخْلِصًا له التَّوبَةَ.

الشَّرْطُ الثَّاني: النَّدَمُ على ما فَاتَ:

أي: يتَأَثَّرُ، ويقولُ في قلبِهِ: ليتَنِي لَم أفعَلْ. لأنَّ بعضَ النَّاسِ قد يفعَلُ الذنْبَ، ولكن لا ينْدَمُ، أي: فِعْلُهُ وعدَمُه سِيانَ عندَه، لكن ينْدُمُ ويتأسَّفُ ويتحَسَّرُ، ويقول في قَلْبِه: ليتَنِي لم أفْعَلْ. وهذا هُو النَّدَمُ.

وقد أَشْكَلَ على بَعْضِ العُلَماءِ كيفَ يكونُ النَّدَمُ شَرْطًا والنَّدَمُ انفعالٌ نَفْسِيٌّ

لا يمكِنُ تطلُّبُه؟ فيقالُ: المرادُ بالنَّدَمِ أن يظهَر على الإِنْسانِ أثرُ فِعْلِ الذنْبِ، أي: إنه يتأسَّفُ، ويقول: ليتَنِي لم أفْعَلْهُ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: الإقْلاعُ عَنِ الذنْبِ:

فإن كانَ الذَّنْبُ تَرْكَ واجِبٍ بادَرَ إلى فِعْلِهِ، وإن كانَ فِعْلَ محرَّمٍ بادَرَ إلى تَركِهِ، وإن كان يتَعَلَّقُ بحُقوقِ النَّاسِ بادَرَ إلى استِحْلالِ النَّاسِ مِنْ هذَا الذَّنْبِ. فمثَلًا رَجُلٌ يتعامَلُ بالرِّبَا، ويأخُذُ الرِّبَا، وهو يعلَم أنه حرَامٌ، فتَابَ ونَدِمَ، ويُقْلِعُ عنه بأنْ يتَصَدَّقَ بها اكتَسَبَهُ مِنَ الرِّبَا تَخلُّصًا منْه؛ لأنه لو تَصَدَّقَ بها اكتَسَبَ من الرِّبَا تقَرُّبًا إلى اللهِ لم يُقبَلْ منْه، ولم تَبْرَأْ ذمَّتُهُ من الرِّبا لم يُقْبَلْ منْه، لقولِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**»[1]، وكَسْبُ الرِّبَا ليسَ بطيِّبٍ، ولا تبْرَأُ الذِّمَّةُ بذلِكَ، لأَنَّه تصدَّقَ به عَلَى أنه مُلكه لا عَلَى أَنَّه مُتبَرِّئٌ منْهُ.

ويتَصَدَّقُ به تخلُّصًا منه بأن ينْوِيَ بذلِكَ أنه يريدُ السَّلامَةَ مِنَ الإثْمِ، لا التَّقُرَّبَ إلى اللهِ بالصدقَةِ، وحينئذٍ يسْلَم مِنَ الإثْمِ.

أرأيتُمْ لو كانَتْ عندَهُ أموالٌ كثيرَةٌ مِنَ الرِّبَا، وقد تعامَلَ بِهَا وهو يعلَم أنها رَبًا، ثم هَدَاهُ الله، فبنَى بذلِكَ مساجِدَ بها اكتَسَبَهُ مِنَ الرِّبَا؛ تخلُّصًا من هذَا الرِّبَا، فالصَّلاةُ في هذِهِ المساجِدِ جائزَةٌ وصحيحَةٌ، فما ذَنْبُ المسجِدِ والرجُلُ قد أخْرَجَ هذَا المالَ؛ تخلُّصًا منه حتى يَسْلَم منْه.

ولو أعَانَ به شَخْصًا على الزَّواجِ، وقالَ: إنه يريدُ أن يتَصَدَّقَ بهذا الرِّبَا؛ تخَلُّصًا مِنْهُ، فيجوزُ للمُعَانِ أن يقبَلَهُ وهو فقِيرٌ محتَاجٌ، فهذا يجوزُ، كبِناءِ المساجِدِ؛ لأن

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٥).

هذَا الرَّجُلَ ليسَ لَهُ سَبِيلٌ إلى البَراءَةِ من اسمِ الرِّبَا إلا بهذِهِ الطَّرِيقَةِ، فأخْرَجَ الرِّبَا لأجْلِ التَّخَلُّصَ من إثْمِهِ.

فلو أن هذَا الرَّجُلَ الَّذي اكتَسَبَ الرِّبَا اكتَسَبَهُ قبلَ أن يَعْلَم أنه رِبًا، ثُمَّ مَنَّ اللهُ عليه وتابَ، فلا يلْزَمُهُ أن يُخرِجَ ما اكتَسَبُه بإجماعِ الفُقهاءِ، والدَّلِيلُ قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ﴾ بَعْدَ أن جاءَتْهُ الموعظَةُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥].

ولو أن رجُلًا سَرَقَ من شَخْصٍ مَالًا، وتابَ إلى اللهِ، فلا تَتِمُّ توبتُهُ إلا بِرَدِّهِ إلى صاحِبِهِ، فإن لم يَعْلَم صاحِبَهُ فإنَّه يتَصَدَّقُ به لصاحبِهِ واللهُ يعْلَمهُ، ثم إن جاءَ صاحِبُهُ يومًا مِنَ الدَّهرِ، فإنه يُخَيِّرُهُ يقولُ: أنا أَخرَجْتُ هذا صَدَقَةً عنْكَ، فإن شِئتَ فهُو لكَ، وإلا فهَذا مَالُكَ، وأجْرُ الصدقَةِ لِي.

ولو أنَّ رَجُلًا سَرَقَ من شخْصٍ مالًا، وتابَ إلى اللهِ، ولكن الَّذي سَرَقَهُ ماتَ، فعليهِ أن يَرُدَّهُ إلى ورَثَتِهِ، فإن لم تكُنْ له ورَثَةٌ رَدَّهُ إلى بَيتِ المالِ؛ لأن الأمْوالَ الَّتي تُورَثُ ممَّنْ لا وَراثَ له، تكونُ لبيتِ المالِ، ولكِنَّ بعضَ النَّاسِ يقولُ: أنا الآن تَائبٌ مِنَ السَّرِقَةِ، وأنا سَرَقْتُ مِن فُلانٍ، وأعرِفُ أني سَرَقْتُ منْهُ، لكن يشُقُّ عليَّ أن أذهَبَ إليهِ، وأقول: إني سَرَقْتُ منْكَ. أخشَى إذا قُلْتُ: أنا سَرَقْتُ منْكَ ألفَ رِيالٍ، وهذا ألفُ رِيالٍ. فإذا بِهِ يقولُ: أنا فَقَدْتُ من مَالي مِليون رِيالٍ! فيَتَّهِمُهُ بها، فهذا عليهِ أن ينظُرَ إلى شخْصٍ من أصْحَابِهِ الأمْناءِ، ويقولُ لَهُ: يا فُلانُ، في حالِ سَفَهي وجَهالتِي سَرَقْتُ مِن فلانٍ ألفَ ريالٍ، وأَنَا الآن تائبٌ إلى اللهِ، وهذه الألْفُ ريال. فالمُحسِنُ المصلِحُ يذهَبُ إلى صاحِبِ الدراهِمِ، ويقولُ: هذِه دارَهِمُ مسروقَةٌ منك، وقد أَتَانِي

السَّارِقُ تَائبًا، وهذِه دَرَاهِمُكَ، وبذلك يَسْلَم منْهُ.

وإذا سَرَقَ رجُلٌ مِنْ إنْسانٍ شَيْئا مُعَيَّنًا، كساعَةٍ مثَلًا، وتابَ إلى اللهِ، فعليهِ أن يَرُدَّهَا إليه، فإذا قالَ: أنا أخْشَى إذا رَدَدْتها إليه أن يُقِيمَ دَعْوى. فنقُولُ كما قُلْنَا في الأوَّلِ: اذهَبْ إلى رجُلٍ من أصْحَابِهِ، وأخبَرَهُ بالوَاقِعِ، والرجُلُ المصلِحُ النَّاصِحُ يرُدُّهَا إلى صاحِبِهَا، ويقولُ: هذِه سُرِقتْ منْكَ، والآن السَّارقُ تابَ، فهِي لَكَ.

ولو كان المسْرُوقُ قد نقَصَ عندَ السَّارِقِ، فالسَّاعَةُ حينَ سرَقَهَا جَدِيدَةً، ثم أصبَحَتْ الآنَ قديمَةً، ونقَصَتْ بالاستِعمالِ، فالسَّارِقُ يَضْمَنُ نقْصَها، ولا تَتِمُّ توبتُهُ إلا إذا ضَمِنَ النَّقْصَ؛ لأنها نقَصَتْ تحتَ يدِهِ، ويدُه يدٌ سارقةٌ ليستْ محتَرَمَةً، فتَضْمَنُ ما نقَصَ تحتَ يدِهَا.

المهِمُّ: أن التَّوبَةَ من حُقوقِ الآدمِيِّينَ لا تَتِمُّ إلا إذا وصَلَ الحَقُّ إلى مستَحِقِّهِ.

وإذا كانَ الذنْبُ في غيرِ المَالِ، وهو حَقُّ آدمِيٍّ، مثلُ أن يكونَ رجُلٌ اغتَابَ شخْصًا في مجلسٍ، سواءٌ اغتابَ عَالِمًا مِنَ العُلماءِ، أو اغتابَ إمامًا من أئمَّةِ المساجِدِ، أو اغتَابَ تاجِرًا من التُّجَّارِ، أو اغتابَ داعِيَةً من الدُّعاةِ، المهِمُّ أنه اغتابَ شخْصًا، والغِيبَةُ اعتِدَاءٌ على حقِّ الغَيْرِ، فلْيُكَلِّمْهُ، إذا كانَ الَّذي اغتِيبَ قَدْ علِمَ بالغِيبَةِ، فيذْهَبُ إليهِ، ويقولُ: لا بُدَّ أنَّكَ سَمِعْتَ عنِّي فيكَ كَذا وكَذَا، وأنا الآن جِئتُ معتَذِرًا تَائبًا. ونقولُ لصاحِبِه: إن مِنَ الخيرِ أن تَعفُوَ عنْه؛ لأن الرَّجُلَ التَّائبَ الَّذي جاءَ معتَذِرًا ينبَغِي أن يُقابَلَ بالمعروفِ والإحسانِ، وأن تَعْفُوَ عنْه، أما إذَا كانَ لم يعْلَم وأنتَ عَالِمُ أنه لم يَعْلَم باغتيابِكَ إياهُ، فيكْفِي أن تَدْعُوَ له، وأن تستَغْفِرَ لَهُ، وأن تُثْنِيَ عليه بما هو مِن وصْفِه في المجلسِ الَّذِي اغتَبْتَه فيهِ، ولا حاجة أن تذْهَبَ إليهِ؛ لأنَّكَ

رُبَّما لو ذَهَبْتَ إليه بَقِي في نفْسِهِ شيءٌ وهو لم يَعْلَم الآن أَنَّك اغتَبْتَهُ، فلا حاجَةَ لِأَن تذهَبَ إليهِ.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: العَزْمُ على ألا يعودَ:

أي: أن يعْزِمَ بقلبِهِ أنه لا يعودُ لهذِه المعصِيَةِ، فإن تابَ، ونَدِمَ، وأقْلَعَ، لكن في نفْسِه أنه لو سَنَحتْ له الفُرْصَةُ لعادَ لهذا الذَّنْبِ، فإن تَوبَتَهُ لا تُقْبَلُ، فإذا عَزَمَ أَلَّا يعُودَ، ثم سَوَّلَتْ له نفْسُهُ بعد ذلِكَ فعادَ، فإن توبتَهُ الأُولى تَبطُلُ، فيَجِبُ أن يشتَرِطَ أن يعْزِمَ أَلَّا يعُودَ، فلو سَوَّلَتْ له نفْسُهُ فعادَ، فتَوبتُهُ الأُولى صَحِيحَةٌ، باقِيَةٌ على صِحَّتِهَا، لكِنْ يُحْدِثُ للذنْبِ الثَّانِي تَوبَةً.

الشَّرْطُ الخَامِسُ: أن تكونَ التوبَةُ في زمَنِ قَبولِ التوبَةِ:

وزمَنُ قَبولِ التوبَةِ أن يكونَ قَبْلَ حُضورِ الموتِ بالنِّسْبَةِ لكلِّ فَرْدٍ، وقبلَ طُلوعِ الشَّمْسِ من مَغْرِبِهَا بالنِّسبَة للعُمومِ، فلو لم يَتُبِ الإِنْسانُ إلا حينَ حضَرَهُ الموتُ، فإن توبَتَهُ لا تُقبَلُ؛ لقولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النِّساء:١٨] لا ينْفَعُه هذَا، وقد تَابَ فِرعونُ حين أدركَهُ الغرَقُ، فلَم تُقبَلْ توبتُهُ، بَلْ قِيلَ لَهُ: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١].

ولا تُقْبَلُ التوبَةُ إذا طَلَعَتِ الشَّمْسُ من مَغْرِبِهَا، وهذا في آخِرِ الزَّمانِ، فالشَّمْسُ الآن تطلُعُ مِنَ المشْرِقِ، وتغْرُبُ من المغْرِبِ كلَّ يومٍ، فإذا قَرُبَ الزَّمانُ فإنَّ اللهَ تَعالَى يأمُرُها أن تَرْجِعَ، فتَخْرُجُ مِنَ المغْرِبِ، فإذا رآهَا النَّاسُ آمنُوا كلُّهُم، حتى إن الكفَّارِ سيُصْبِحُونَ مسلِمِينَ، والمذْنِبُونَ مستَقِيمِينَ، فمَن لم تكُنْ له توبَةٌ قَبْلَ طلوعِ

الشَمْسِ من مَغْرِبِها، فإنَّه لا ينْفَعُهُ.

ويجبُ على الإنْسانِ أن يُبادِرَ بالتوبَةِ؛ لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، ولأنَّ الإنْسانَ لا يأمَنُ، فالإنْسان ربما يَموتُ بغْتَةً، ورُبَّما يخرُجُ ولا يرجِعُ لبيتِهِ، ينامُ ولا يقومُ مِنْ فراشِهِ، فالوَاجِبُ المبادَرَةُ بالتوبَةِ.

وبهذه المناسَبَةِ، أقولُ لإخْوانِي الذِينَ عليهِمْ حقوقٌ لغَيرِهِمْ: بادِرُوا بالتوبَةِ مِنْهَا.

فمِمَّا يستَحِقُّ التوبَةَ: ما يفعَلُهُ بعضُ الأغنِياءِ، يماطِلُ بقضاءِ ما عليهِ مَعَ قدْرَتِهِ على ذلِكَ، فتَجِدُ صاحِبَ الحقِّ الَّذي باعَ عليه السِّلْعَةَ، يأتي إليهِ، ويقُولُ: يا فُلانُ، أعطِنِي حَقِّي. فيقُولُ: غدًا، فيأتِي غَدًا، فيقُولُ: بعدَ غَدٍ، ويجِيءُ بعدَ غَدٍ يقولُ: في الأسبُوعِ الثَّانِي، فيجِيءُ في الأسبوعِ الثَّانِي يقولُ: في الشَّهْرِ الثَّانِي! وهذَا حَرَامٌ، فكلُّ مَن كانَ قادِرًا على الوَفاءِ فإنَّ تأخِيرَهُ للوفاءِ ولو لحْظَةً، لا يزْدادُ بِهِ إلا إثْمًا وظُلْمًا؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَطْلُ الغنِيِّ ظُلْمٌ**»[١].

قولُهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] ومَعْنى قولِهِ: ﴿يَغْفِرُ﴾: يتَجاوَزُ ويستُرُ الذُّنُوبَ كلها، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣] والغَفُورُ الرَّحِيمُ اسمانِ مِنْ أسماءِ اللهِ، أحدُهُما يتَضَمَّنُ المغْفِرَةَ، والثَّاني يتَضَمَّنُ الرَّحْمَةَ، فالمغفِرُةُ للمُذْنِبِينَ، والرَّحْمَةُ للمطِيعِينَ، فالمذنبونَ يُغْفَرُ لهُمْ، والمُطِيعُونَ يُرْحَمونَ بمضاعَفَةِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب الحوالة، وهل يرجع في الحوالة؟ رقم (٢١٦٦)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني وصحة الحوالة، رقم (١٥٦٤).

الجزاءِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٥٤] أي: ارْجِعُوا إليهِ، والجَؤوا إليهِ، واجعَلُوهُ مرْجِعَكُم في كلِّ شيءٍ، ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: للهِ عَزَّوَجَلَّ أي: انقَادُوا لَهُ أتَمَّ الانقيادِ. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٤] أي: لا بُدَّ أن تَتُوبُوا إليهِ، وتُنِيبُوا إليهِ، وتلْجَؤوا إليهِ، وتعتَصِمُوا بِهِ.

وقَدْ هدَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ العُصاةَ بأن يأتِيَهُم العَذابُ إما وهُمْ نائمُونَ، وإما أن يأتِيَهُم ضُحًى وهُمْ يلْعَبُونَ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٨-٩٩].

يقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٤] أي: لا أحَدَ يمْنَعُكُم مِنْ عذابِ اللهِ؛ لأنَّ النَّاسَ إذَا لم يتُوبُوا إلى اللهِ، واستَمَرُّوا في معاصِيهِمْ، فإنَّ اللهَ تَعالَى يُنزِلُ بهِمْ بأسَهُ، الَّذي لا يُرَدُّ عن القَومِ المجْرِمينَ، نسأَلُ اللهَ تَعالَى أن يُوَفِّقَنَا وإياكُمْ للتَّوبَةِ.



الدَّرس الرَّابع:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالِمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبِيِّين، وإمَام المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣].

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ﴾ خطَابٌ مُوَجَّهٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم وكونُه يُوَجَّه إلَيْه خطابٌ فِي شَيْءٍ معينٍ، يَدُلُّ عَلَى أهميةِ هَذَا الشيءِ، وإلَّا فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ مأمورٌ أنْ يُبَلِّغَ الأُمة كُلَّ القُرْآنِ، ولكنْ تَأْتي بَعضُ الآياتِ وبعضُ الأحكامِ مُصَدَّرَة بـ ﴿قُلْ﴾ بِخُصُوصها؛ لِلْعِناية بِهَا.

قَوْلُهُ: ﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أَسْرَفوا أَيْ: تجَاوَزُوا الحدَّ إمَّا بالتفرِيطِ بِتَركِ الوَاجبِ، وإمَّا بِانتهاكِ المُحَرَّمِ، التَّفريطُ بِتَرك واجبٍ كَتَركِ صلاةِ الجماعةِ -مثلًا- وانتهاكُ المحرمِ كالزِّنَا وشربِ الخمْرِ.

قَـوْلُهُ: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ القُنُوط أشدُّ اليأسِ، أَيْ: لَا تَيْأسوا منْ رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أكرمُ منْ عِبادِهِ إذَا تَابُوا إلَيْهِ.

أقسامُ النَّاس بالنِّسبَة للذُّنوب:

والنَّاسُ أَمامَ الذنوبِ يَنْقَسمون إلَى ثَلَاثَةِ أَقسامٍ:

الأوَّلُ: منْ أَمِنَ مَكْرَ اللهِ.

الثَّاني: مَنْ قَنطَ منْ رَحمةِ اللهِ.

الثَّالِثُ: مَنْ كَانَ بَيْنَ هَذَا وهَذَا.

القسمُ الأوَّلُ: مَنْ أَمِنَ مكرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ:

بأنْ كَانَ يَنْتَهِكُ المحارمَ، وَيَترِكُ الوَاجباتِ وَلَا يُبَالي، واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُنْعِمُ علَيْه بِالنِّعم مَعَ إقامتِهِ عَلَى مَعْصية اللهِ، فَهَذَا أَمِنَ مكرَ اللهِ، يَظُنُّ أَنَّه رابحٌ، ولَكنه فِي الحقيقةِ خاسرٌ؛ وَلهَذَا قَالَ تعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

وَلْنَضربْ لهَذَا مثلًا من كتابِ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف:٩٧]، فهُم نَائمونَ لَا يَهتمون بِوَاجباتٍ، ولَا بِصَلاةِ ليلٍ، ولَا غيْر ذلكَ، بَلْ هُم مُتْرفونَ آمنونَ، نَائمونَ، ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ بأسنا أَي: عَذَابنَا، ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٨]، إِذَنْ، لَهوٌ فِي النَّهارِ وَنَوْمٌ فِي اللَّيْلِ.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩]؛ لِأَنَّ مَنْ هَذِهِ حالُهُ، مُقِيمٌ عَلَى مَعْصيةِ اللهِ، غافلٌ عنْ طَاعتهِ، قَد أَمِنَ مكرَ اللهِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قَدْ يَمْكُرُ بالعبدِ فَيُغدقُ عَلَيْه النِّعم، مَعَ إقامته عَلَى مَعْصيته؛ استِدْراجًا للإِنْسَانِ حَتَّى يَقعَ فِي عذابِ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَم يُفْلِتْهُ»، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1] [هود:١٠٢].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القُرآن، باب قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، رقم (٤٤٠٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

فلا تَغْتَرَ بالنِّعمِ إِذَا تَوَالت علَيْك وأَنْت مُقيمٌ عَلَى مَعْصيةِ اللهِ، فإنَّ ذَلِكَ استدِرْاجٌ منَ اللهِ لَكَ.

القِسْمُ الثَّاني: مَنْ يَقْنَطُ من رحمةِ اللهِ:

ويَسْتبعدُ أَنْ يَغفرَ اللهُ لهُ، ويَسْتبعد أَنْ يَقبلَ اللهُ توبتهُ، ويَسْتبعدَ أَنْ يَقبلَ اللهُ عِبَادتهُ، هَذَا أَيْضًا ضالٌّ لَم يَقْدُرِ اللهُ حقَّ قَدْره، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦] التَّائهونَ، الجاهلونَ، فَلا تَقْنط منْ رَحمةِ اللهِ، فَكَمْ من إِنْسَانٍ بَلَغَ فِي الكفرِ ما بَلَغَ، فـرَحِمَهُ ٱللَّهُ ومَنَّ علَيْه بالهِدَايةِ، وصَار منْ خِيَارِ المؤمنِينَ.

انظرُوا إِلى أَئِمة فِي الكُفرِ مَنَّ اللهُ علَيْهم بِالإِسْلامِ، فَكَانوا أَئِمةً فِي الإِيمانِ مِنْهُم: خَالدُ بنُ الوَليدِ كَانَ حَرْبًا عَلَى الإِسْلامِ، ولَا يَخْفى علَيْنا جَمِيعًا، مَا حَدث مِنه فِي غَزْوة أُحدٍ.

كَذَلك عَكْرِمَة بنُ أَبِي جَهلٍ كَانَ حربًا عَلَى الإِسْلامِ، وهَذَانِ الرَّجلانِ الشُّجعانِ صارَا منْ آسادِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الكُفَّارِ.

أميرُ المؤْمنينَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ قَبل أَنْ يُسْلِمَ كَانَ منْ أعداءِ الإِسْلامِ، ولكنَّ اللهَ تَعَالَى مَنَّ عليْه حَتَّى صارَ الخليفَةُ الثَّاني فِي هَذِهِ الأُمَّة، وحَتَّى كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ دائِمًا: أَتَيْت أَنا وأَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ، ذَهَبت أَنَا وَأَبُو بَكرٍ وعُمَرُ حَتَّى صارَا صاحبَيْه فِي الدُّنيا وفِي الآخِرةِ، ولَا يُوجدُ أَحدٌ منَ الصَّحابَةِ كَانَ قَبْرُهُ إِلَى جنبِ قَبْرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إِلَّا أَبُو بَكرٍ وعمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

القِسْم الثَّالِثُ: الَّذين لا يَأْمنون مَكْرَ اللهِ:

بَلْ يَخْشَوْنَ اللهَ ولَا يَقْنطون منْ رَحمةِ اللهِ، وهَؤُلاءِ همُ الخُلَّصُ منَ المؤمِنينَ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: هَلْ يُغَلِّب الإِنْسَانُ جَانبَ الرَّجاءِ أمْ جَانبَ الخوفِ، أَمْ فِي ذلكَ تَفْصيلٌ؟

قُلْنَا: قَالَ بعضُ أهلِ العلمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يَنْبغي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُغَلِّبَ جَانب الخوفِ، فَيَكون دائمًا خائفًا حَتَّى لا يَقَع فِي المخالفَاتِ.

وَقَالَ آخرونَ: بَلْ يُغَلِّب جَانبُ الرجاءِ حَتَّى لَا يَقعَ فِي القُنُوطِ منْ رحمةِ اللهِ، بَلْ يرجُو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَالَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَنْبغي أَنْ يَكونَ خَوفهُ وَرَجاؤُه واحدًا، فأيُّهما غَلَبَ عَلَى الآخرِ هلكَ صَاحبهُ، وَقَالَ بعضهُمْ: السيرُ إِلَى اللهِ كَالطَّيرِ فِي الهواءِ، إِذَا تَساوى الجناحانَ استَقَام طيرُهُ، وإِذَا اختلَفَا اختلَّ سَيْرُهُ.

وَفَصَّلَ آخرونَ، فقالُوا: يَنْبغي إِذَا فعلَ الطَّاعةَ أنْ يُغَلِّبَ جانبَ الرجاءِ، ويَقُولُ: إنَّ اللهَ سيَقبل العِبَادَةَ ويُثِيبه عليْها؛ وَلهَذَا قَالَ بعضُ السَّلفِ: مَن أُلهِم الدُّعَاءَ فَلْيثق بالإجابَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ قالَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، وإِذَا هَمَّ بالمعصيَةِ فيُغَلِّبُ جانبَ الخوفَ؛ لئَلَّا يُقْدِم عَلَى المعصيَةِ.

وَقَالَ بعضهمْ: يُغَلِّب جانبَ الرجاءِ فِي المرضِ، وجانبَ الخوفِ فِي الصحَّةِ؛ لِأَنَّ المريضَ قَدْ أَقبل عَلَى الآخِرةِ إِلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ، فَيُغلِّب جَانبَ الرجاءِ حَتَّى يموتُ وهوَ يُحْسِنُ الظنَّ باللهِ؛ وَلهَذَا جاء فِي الحدَيثِ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ

الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ»[١].

قالَ الحكيمُ فِي نَظْمه: إنَّ الشَّبابَ والفراغَ والجِدَةَ مَفسدةٌ للمرْءِ.

والإِنْسَانُ طَبيبُ نفسِهِ، فإِذَا رأَى منْ نَفسهِ أَنَّهُ يُغَلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ، ويَتَهاون فِي الطَّاعاتِ، ويَقُولُ: اللهُ غفورٌ رحيمٌ، فَليُحْجِم عنْ هَذَا الرجاءِ ويُغَلِّبَ جانبَ الخوفِ، وإِذَا كَانتْ عنْدَهُ وَساوسُ، وخَوْفٌ أَنْ لا يُقْبلَ عَمله، فليُغَلِّبَ جانبَ الرجاءِ، سَواء كَانَ ذلكَ فِي الصحَّةِ أَوْ فِي المرضِ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ هَذِهِ الآيَةُ تَعُمُّ جميعَ الذُّنوبِ حَتَّى الشِّركِ؛ لِقَولهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ بِدونِ استثناءٍ، لَكِنَّها -كَما قَالَ بعضُ السَّلف- فِي التَّائبين لَا فِي المُصِرِّينَ، فالمُصِرُّ لَو أَصَرَّ عَلَى الشِّرك لَم يُغْفَر لَهُ، لكنَّ التَّائبَ إِذَا تابَ ولَو كَانَ مُشْركًا بِاللهِ، ولَوْ كَانَ قاتلًا لِلنَّفسِ الَّتِي حرَّمَ اللهُ، ولَوْ كَانَ زانيًا، فإِنَّهُ إذا تَابَ تَابَ اللهُ عليْهِ.

فَإِنْ قِيلَ: هلْ هَذِهِ الآيَةُ عَامَّةٌ فيمَنْ تَابَ ومنْ لَم يَتُبْ، أم فِيمن تَاب فَقَطْ؟

قُلْنَا: فِي التَّائبين فَقَط، فَمَتى تابَ الإِنْسَانُ إلى ربِّه ولَو مِنْ أعظمِ الذُّنوبِ، فإِنَّ اللهَ تَعالَى يَتوب عَلَيْهِ، ويغْفرُ ذنبهُ، استَمِع إِلَى سُورةِ الفُرْقانِ ماذَا قَالَ اللهُ فيهَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان:٦٨]، فذَكَر انتفاءَ الشركِ مِنْهمْ، ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفرقان:٦٨]، فذكَرَ أَنَّ قَتلَ النَّفْسِ منتفٍ، ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾، فذكرَ أنَّ الزِّنَا منتفٍ، ثُمَّ قال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ۝٦٨

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧).

يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

ومهْمَا كَانَ الذنبُ إذا تُبْتَ إلى اللهِ، فـإنَّ اللهَ تَعَالَى يتوبُ علَيْكَ، ولا تَيْأَسْ ولَا تقنَطْ.

شُرُوطُ التَّوْبَةِ:

الشَّرطُ الأوَّلُ: الإِخْلَاصُ.

الشَّرْطُ الثَّاني: النَّدمُ.

الشَّرطُ الثَّالِثُ: الإقلاعُ.

الشَّرطُ الرَّابعُ: العزمُ عَلَى أنْ لَا يَعودَ.

الشَّرطُ الخَامسُ: أنْ تَكونَ قبلَ إِغْلاق أبوابِ التَّوبةِ.

الشَّرطُ الأوَّلُ: الإخلاصُ، فالإخلاصُ ضِدُّهُ الرِّياءُ، بأَنْ لَا يَحملَ الإِنْسَانُ عَلَى التوبَةِ إِلَّا التَّقربِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وابتغاءَ ثَوابِهِ.

الشَّرطُ الثَّاني: النَّدمُ، والندمُ يَعْنِي: الأسفُ والأَسَى أَنْ وَقَع مِنْهُ هَذَا الذَّنبُ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: الإقلاعُ، والإقلاعُ، أنْ يُقلعَ عنِ الذنبِ، فأمَّا مَعَ الإصرارِ علَيْه فهوَ استهزاءٌ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولَا تَصحُّ التَّوبةُ؛ لِأَنَّهُ لَم يُقلعْ عنِ الذَّنبِ، ولِذَلكَ أَمْثلةٌ:

المِثَالُ الأوَّلُ: رَجُلٌ قالَ: إنِّي تائبٌ منَ الربَا، ولكنَّه يُحاسِبُ كُلَّ يومٍ عُمَّاله عَلَى الرِّبا، ويَقُول: اللهُمَّ إني أَتوب إِلَيْك منَ الربَا.

المِثَالُ الثَّانِي: إِنْسَانٌ يغتابُ النَّاسَ، والغيبةُ هيَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»(١) بأنْ تَقولَ: هُوَ أَعْورٌ، أو أَعْمَى، أو أَعْرَجٌ، أو هُوَ قبيحُ الوجهِ، أو هُوَ أحمقُ، أَوْ هُوَ غشَّاشٌ، أو هُوَ كَذَّابٌ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا الرَّجلُ يَقُول: إِنَّني تُبتُ منَ الغيبةِ، ولكنْ بِمُجرد مَا يَجد رجلًا يَتَحدث إِلَيْهِ بغِيبةِ أَحد، يَفرحُ، ويَغتابُ.

المِثَالُ الثَّالِثُ: إِنْسَانٌ غصبَ ثوبًا، وَقَالَ: أستغفرُ اللهَ وأتُوبُ إِلَيْه منْ غصبِ أموالِ النَّاسِ، ثُمَّ لبسَ هَذَا الثوبَ المغصوبَ.

المِثَالُ الرَّابِعُ: رجلٌ غصبَ أرضًا، وبَيْنَما هُوَ فِي الأَرْضِ المغْصوبَةِ كَانَ مَعهُ جَليسٌ صَالحٌ، فَنَصحهُ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ الغصبَ شَديدٌ، وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم-: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(٢)، وجعلَ يَنْصحهُ، فقالَ الرَّجلُ: اللهُمَّ إِنِّي تَائبٌ إِلَيْك، ويَخرج منْ تِلكَ الأَرْضِ المغصُوبةِ، ومَا دَام يَخْطو هَذِهِ الخطواتِ، فَيُقال: إِنَّه مُقْلِعٌ عنِ الذَّنبِ؛ لِأَنَّهُ يُرِيد أَنْ يَخْرج لِيَتخلصَ مِنْها، فَيَكون سَيْره عَلَى الأَرْضِ داخلًا فِي مَضْمونِ التوْبةِ.

الشَّرطُ الرَّابِعُ: العزمُ عَلَى أنْ لَا يَعودَ، فهُو حِين تابَ منَ الذَّنبِ عزمَ بقَلْبه أنْ لَا يَعودَ إِلَيْه مدَى الدَّهرِ، فإِنَّ كَانَ منْ نِيَّتِهِ أَنَّه لَو تَيسرتِ المعصيةُ لِفِعل، فلَا تَصحُّ التَّوبةُ؛ لِأَنَّهُ لَم يَعْزمْ عَلَى أَنْ لَا يَعودَ، فإِنْ عزمَ عَلَى أنْ لَا يعودَ، ولكنْ سَوَّلَتْ لهُ نَفسهُ ففعلَ، فلَا تَبْطلُ التَّوبةُ، لكنْ علَيْه أنْ يُجددَ توبةَ للفعلِ الأَخِيرِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٠).

بعضُ النَّاسِ يَنْذُرُ أنْ لَا يَفعلَ مَعصيةً، فمنْ شِدةِ حِرصهِ عَلَى أنْ لَا يَعودَ، نَذَرَ أَنْ لَا يَفْعلها، ولكنَّه فعل، وهَذِهِ تَجْري لِصِنفينِ منَ النَّاسِ:

الصنفُ الأوَّلُ: بعضُ الشَّبابِ يُبتلى بِما يُسَمَّى (العَادَةَ السِّرِّيَّةَ)، ويَعرفُ أَنها حَرامٌ، فَيتجَنَّبُهَا، ويقُولُ: للهِ عليَّ نَذر أنْ لَا أفعَلها، ثُمَّ تَغلبه نفسُهُ، فَيفعلُ، فَتوبته الأُولَى لَا تَبْطل لِفِعله لكنْ عليْه تَجْديدُ التَّوبةِ، وكُلما أَذْنب فَلْيَتبْ إِلى اللهِ، ويَكفر عنْ نَذرهِ كفَّارة يَمِينٍ؛ لِأَنَّ هَذَا النَّذرَ يُقْصد بهِ الامتناعُ، وكُلُّ نَذرٍ يُقْصد بِهِ الامتناعُ فَإِنَّهُ تَكْفي فِيهِ كفارَةُ اليَمينِ.

الصِّنْفُ الثَّاني: الَّذِينَ يَشْربونَ الدُّخانَ، بعضُ النَّاسِ يَعْرفُ أَنَّ الدخانَ حَرامٌ، ويَعرفُ مَضرَّته، فَيُنذر أنْ لَا يَشربَ الدُّخانَ ويَتوب إِلى اللهِ مِن ذَلك، ثُمَّ يَرجعُ إِلَيْه، فلَا تَبطل تَوبتُهُ الأُولى، لَكن عليْه أَنْ يُجددَ التَّوبةَ ثَانيةً، ويَتُوبَ إِلَى اللهِ منْ شُربِ الدُّخانِ؛ لِأَنَّ شُربَ الدُّخانِ تَبين الآنَ لِلخَاصِّ والعَامِّ أَنَّهُ مِنَ المحرَّماتِ؛ لِضَرَرِهِ البدَنِيِّ، والمَاليِّ، وَالاجتِماعيِّ، وَالدِّينيِّ، فَالضَّررُ المَاليُّ: لِأَنَّ الإِنْسَانَ يَصرفُ عليْه الكَثيرَ منَ المَالِ، ورُبَّما يَكونُ فَقيرًا يُجوِّع أَهْلَه منْ أَجلِ أَنْ يَشْتريَ الدُّخانَ، فَهَذَا ضَررٌ مَاليٌّ وَاضحٌ.

أَمَّا الضررُ البدنيُّ: فَهُوَ أَنَّه مُضِرٌّ بالصحَّة عَامَّةً، فَتَجدهُ فِي فُتُور دَائِمًا، ويُحْدِثُ أمراضًا صَعْبَةَ الشفاءِ، كَالسَّرطان فِي الرِّئةِ، واللِّثةِ، والقلبِ.

أَمَّا ضررهُ الاجتماعيُّ: فإنَّ هَذَا الدخانَ يَضُرُّ بِالمجتمع؛ وَلِذَلك كَانتِ الأممُ الرَّاقيةُ طبيًّا يَمْنعون منْ شُربِ الدخانِ فِي التَّجمعَاتِ كَالأُتوبيساتِ وَالمقاهِي، وَمَا أَشْبهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَضُرُّ بِالنَّاسِ.

أمَّا الضررُ الشَّرْعِيُّ الدِّينيُّ: لِأَنَّهُ يُثْقِلُ العباداتِ عَلَى شَاربِهِ، ولا سيَّما الصِّيَامُ، فَتَجِدُ المُبتلَى بِشُربِ الدُّخانِ يَكونُ الصِّيَامُ علَيْه ثقِيلًا، وعندَ الإفطارِ رُبَّما يفطرُ عَلَى السجائِرِ دُونَ التمرِ والرُّطبِ، وَهَذَا شَيْءٌ نَعْلمه بِما نَسمعه منَ النَّاسِ، فهوَ بَلَاءٌ، وعلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَتوبَ إلى اللهِ.

الشَّرْطُ الخَامِسُ: أَنْ يَكونَ قَبلَ غلقِ أَبْوَابِ التَّوبةِ، وغَلق أَبْوابِ التَّوبةِ نَوْعَانِ:

الأَوَّل: عامٌّ.

الثَّاني: خَاصٌّ.

أمَّا العَامُّ: فهوَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِن مَغْربها، فَهَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي نَرَاها الآنَ تَخْرج منَ المشرقِ وتَغْربُ منَ المغربِ، سَيأتي اليَوْمَ الَّذِي تُشْرق منَ المغربِ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا خَرجتِ الشَّمْسُ منَ المغربِ، فكلُّ النَّاسِ يُؤْمنونَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلمونَ أَنَّهُ لَا يُمْكن لِأَحد أَنْ يَردَّ الشَّمْسَ منْ مَغِيبها إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيُؤمنون، ويَتُوبونَ من الذنوبِ، لكنْ لَا تَنْفعُ التَّوبةُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨]، وَفِي الحديثِ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(١).

أمَّا الخَاصُّ: فهوَ حضُورُ الأجلِ، فإِذَا حضرَ الموتُ لَا تَنْفعُ التَّوبةُ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النِّساء:١٨]، فَهَذَا لَيست له تَوبةٌ، بَعْدَ أَنْ حَضرهُ الأجلُ،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

وأَيِس منَ الدنيَا، وتَقَطَّعتِ العلائِقُ، فيَقُولُ: تُبْتُ.

وَمِثَالٌ تَطْبيقيٌّ لهَذَا فِي قصَّة فرْعونَ، لما أَدْركهُ الغرقُ تابَ، وَقَالَ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠] يَعْنِي: اللهُ، ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] فَقِيلَ لَهُ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تَتوبُ وتَقُولُ هَذَا القولَ، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١]، فَلَم تُقبلْ تَوبتُهُ، وَفِي قَوْلُهُ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ نُكْتةٌ غريبةٌ بأنَّ هَذَا القولَ هُوَ غَايةُ الذلِّ لِفِرْعونَ، فَهؤُلاءِ القومُ الَّذِينَ كَانوا يُقَتِّلهُمْ ويُذَبِّحهمْ؛ لِأَنَّهم آمَنُوا باللهِ، أصبحَ الآنَ يُقَلِّدهمْ، ويكونُ تابعًا لهُمْ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وإِذَا كَانتِ التَّوبةُ تَنْقطعُ بحضورِ الأجلِ، فَتَجب التَّوبةُ عَلَى الفورِ، فَمنْ كَانَ لِأَخيهِ حقٌّ علَيْه، فَلْيَتَخلصْ مِنهُ الآنَ قَبلَ أَنْ يَأتيَ يَومَ لَا يَسْتطيع الخلاصَ مِنْهُ، إِلَّا بأَخْذِ أغْلَى شَيْءٍ عندَهُ، وهيَ الأعمالُ الصَّالحةُ، فَإِنَّ الحقوقَ إِذَا لَم تُقضَ فِي الدُّنيا قُضِيَت فِي الآخِرةِ، وإِذَا قُضيَتْ فِي الدُّنيَا قُضيتْ بالدِّرهم وَالدِّينار، أَمَّا فِي الآخِرةِ فَلَا تُقْضى إِلَّا بِالأَعمالِ الصَّالحةِ.

قـالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم لِأَصحابـهِ ذَاتَ يوم: «أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ» يَعْني: مَن هُوَ الفقيرُ، المفلسُ الَّذِي أَخذ الغرماءُ مَالَهُ، «قَالُوا: **المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ**»، فَقَال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ**

طُرِحَ فِي النَّارِ»(١).

فيَا أَخي تَحلَّل مَا دُمْتَ فِي زَمنِ الإِمهالِ، تَخَلص مَا دُمت فِي زمنِ الخلاصِ، ثُمَّ إِنَّك إذَا لَم تَفْعل وَقَدَّرْنَا أَنَّك ظَلَمت شخصًا فِي مالِهِ، ولَم تَتَحلل منْهُ، فَالَّذِي سَيَخلفك فِي هَذَا المالِ همُ الورثَةُ، فيَكون هَذَا المالُ الحَرامُ لهُمْ غُنْمهُ، وعلَيْك غُرْمُهُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

الدَّرس الخَامس:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورَسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

كلُّ خِطابٍ مُصَدَّرٍ بـ(قُلْ) فإنَّه يدلُّ على العنايةِ به والاهتمام به؛ لأن الله أمرَ نبيَّه أن يقول، ومن المعلومِ أنَّ جميع القُرآنِ قد أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم أن يُبلِّغه كما قال تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧]، ولكن إذا جاءتْ بعض الآياتِ مُصدَّرة بـ(قُلْ) دلَّ هذا على كمالِ العنايةِ بها؛ كقولِهِ تَعالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، وقولِه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

وقوله الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني العَاصينَ الَّذِينَ أَسرفوا على أنفسهم بالمعصيةِ؛ إما بتركِ واجبٍ وإما بفعلِ مُحَرَّمٍ ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ يعني لا تَقولوا: قد أسرفنا على أنفُسِنا فلا نَرجِع إلى ربِّنا؛ لأننا مُسْرِفون، وعادةً إذا كثُر عِصيانُ الإِنْسانِ لشخصٍ فإنَّه يَخجَل أن يواجهَه، فهؤلاء الَّذِينَ أَسرَفوا على أنفسهم ربما تقـول لهم أنفسهم: لا تَرجِعوا إلى اللهِ؛ لأنكم مُسرِفـون على أنفسكم؛ مفرِّطون في الوَاجِبِ، فاعلون للمُحَرَّمِ، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن

رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ والقُنوط هو أشدُّ اليأسِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، يعني مهما عَمِلتُم منَ الذنوبِ والإسرافِ على أنفسكم فإن الله تَعَالَى يَغفِره؛ ولكن إن كان الذَّنبُ الكُفر فلا بُدَّ من توبةٍ، وإن كان دُونَ الكفرِ فإنَّ الله تَعَالَى قد يعفُو عنْه وإنْ لم تحصلْ توبةٌ، والدَّلِيل قول الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨].

فيا أخي المؤمنُ لا تَقْنُطْ من رحمةِ ربِّك، مهما عَمِلتَ من المعاصِي فإنك إن تُبتَ إليه تاب عليكَ مهما عَظُمَتِ المعصيةُ، وإن لم تتبْ إليه نظرنا إن كانتِ المعصيةُ شِركًا فإن اللهَ لا يغفِر أن يُشرَكَ به، وإن كانتْ دون الشركِ فإن الله يَغفِر ما دون ذلك لمن يشاء، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يعني مهما عَظُمَتْ؛ إذا تبتَ إلى ربك غفَرَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

والحَمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصَّالحَاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَم على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.



الدَّرس السَّادس:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبيِّين، وإمَام المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَعالَى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الزمر:٥٣-٦١].

هذه آياتٌ كَريمَةٌ من كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ الَّذي أنزَلَهُ على نَبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٥]، فربُّنا الَّذي هُو أرْحَمُ بِنَا مِنْ أنْفُسِنَا، وأرحَمُ بنا مِنْ وَالِدِيْنَا، يأمُرُ نَبيَّهُ محمَّدًا ﷺ أمرًا خاصًّا، أن يُبلِّغَ عبادَهُ هذِهِ الآياتِ وهِي قولُهُ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

إنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قد أُمِرَ أمرًا عامًّا أن يُبلِّغَ جميعَ القُرآنِ الذي أنْزَلَهُ اللهُ عليهِ،

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، ولكن بعض آياتِ القُرآنِ يأمُرُ اللهُ تعالَى نَبِيَّهُ محمَّدًا ﷺ أمْرًا خاصًّا أن يُبلِّغَهَا لعِبادِهِ؛ وذلك للعنايَةِ بها والاهتمامِ بشأنِهَا.

ومن هذِهِ الآياتِ قولُهُ تعالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أسْرَفُوا على أنْفُسِهِمْ بتجاوُزِ حُدودِ اللهِ تعالَى، إما بتَضْييعِ ما أوْجَبَ الله عليهِمْ، أو بالوُقُوعِ فيما حرَّمَ اللهُ عليهِمْ، فإن كلَّ هذَا إسرافٌ؛ لأنه مجاوَزَةُ العبدِ للحَدِّ الذِي حُدَّ له، فالعبدُ يجِبُ أن يكون ممتَثِلًا للأوامِرِ، مجتَنِبًا للنَّواهِي، فإذا لم يمتَثِلْ للأوامِرِ، أو لم يجْتَنِبِ النَّواهِي فقَدْ تجاوَزَ حدَّه، وصار بذلك مُسْرِفًا على نفْسِهِ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، وتأمَّلْ هذا اللُّطْفَ، وتأمَّلْ هذِه الرَّحْمَةَ، وتأمَّلْ هذا الإحسانَ، حيثُ ينادِي اللهُ قَومًا أسْرَفُوا على أنفُسِهِمْ، وتجاوَزُوا الحَدَّ، ينادِيهِمْ بهذَا النِّداءِ اللطِيفِ: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، ولم يقُلْ: يا أيها المسْرِفُونَ على أنفسِهِمْ، بَلْ قالَ: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، ليُحَبِّبَ إليهِمُ العُبودِيَّةَ، وليُحبِّبْ إليهِمُ الرجوعَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وليَتبيَّنَ لهم كمالُ لطُفْهِ، وكمالُ إحسانِهِ بعبادِهِ.

قولُهُ: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ لا تيأسُوا مِنْها، فإن رحْمَةَ اللهِ تعالَى وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ، كما قالَ اللهُ تعالَى عن الملائكةِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، فما وَسِعَهُ عِلْمُ اللهِ، وسَعِتْهُ رحمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

مِن أسْبابِ الرَّحمَةِ:

قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، يَغْفِرُ الذُّنوبَ والآثامَ الَّتي تَقَعُ مِنَ العبادِ،

يغْفِرُها جَميعًا كلها؛ لأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى واسِعُ المغْفِرَةِ، وواسِعُ الرحْمَةِ، ولهذا جعَلَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى من أسبابِ رَحمتِهِ أمورًا كثيرةً مِنْهَا:

أولًا: صِيامُ رَمَضانَ إيمانًا واحتِسَابًا.

ثانيًا: قِيامُ رمضانَ إيمانًا واحتِسَابًا.

ثالثًا: قيامُ ليلَةِ القَدْرِ إيمانًا واحتِسَابًا.

رابعًا: أن مَنْ سَبَّحَ الله وحَمِدَهُ وكَبَّره دُبرَ كلِّ صلاةٍ ثَلاثًا وثَلاثينَ مرَّةً، وقالَ: لا إِلَهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَه، لَهُ المُلْكُ ولهُ الحمْدُ وهو علَى كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ، وبذلك يُتِمُّ المئةَ، فإذا قالها غُفِرَتْ خطَاياهُ وإن كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ.

فإن قِيلَ: يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في هذِهِ الآياتِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ويقولُ تَعالَى في سورةِ النِّساءِ في مَوضِعينِ مِنْهَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨]، فهل بَينَ الآيتَينِ تَعارُضٌ؟ وهل نقولُ: إن قولَهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يُستَثْنَى منه الشِّرْكُ؛ لأن اللهَ يقولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؟

التَّوبة وشُروطُها:

قلنا: في قولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ليس فيهَا استِثْناءٌ، بَلْ هي شامِلَةٌ لكُلِّ ذَنْبٍ حتَّى الشِّرْك باللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّها إنما جاءَتْ في التَّائبينَ الَّذين يتُوبُونَ إلى اللهِ، فإن مَنْ تابَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، أيُّ ذَنْبٍ كانَ فإنَّ اللهَ تَعالَى يتُوبُ عليهِ، إذا كانَتْ توبَتُهُ نَصُوحًا، وتمَّتِ الشُّروطُ فيهَا الَّتي ذكَرَهَا أهلُ العِلْمِ، ودلَّتْ عليها

شَرِيعَةُ الله، وقد ذَكَرَ أهلُ العِلْمِ أن من **شُروطِ صِحَّةِ التوبَةِ خمسةُ شُروطٍ**:

الشَّرْطُ الأَوَّلُ: أن يَنْدَمَ الإِنْسانُ على ما سَلَفَ منه مِنَ الذُّنوبِ، ومعنَى النَّدَمِ: أن يتَمَنَّى أنه لم يفْعَلْهُ، وأن يقَعَ في نفْسِه أسفٌ وحُزْنٌ على ما فَعَلَ، بحيثُ يَعْرِفُ أنه أخْطَأَ، وأنه أَثِمَ فينْدَمُ على ذلِكَ؛ ولأنه إذا لم ينْدَمْ فإنه لا يتَبيَّنُ أن توبَتَهُ كانَتْ تَعْظِيمًا للهِ، ومحبَّةً لهُ، ولهذا لا بُدَّ أن يكونَ في قَلْبِهِ نَدَمٌ وحُزْنٌ على ما سلَفَ مِنَ الذَّنْبِ.

الشَّرْطُ الثَّاني: أن يُقْلِعَ عن الذَّنْبِ، فإن قالَ: إنه تَائِبٌ إلى اللهِ مِنْ هذَا الذَّنْبِ، وهو مُصِرٌّ عليهِ فإن هذِهِ التوبَةَ لا تَنْفَعُهُ، بل هذه التوبَةُ في الحقيقَةِ استِهزاءٌ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، كيف تقولُ إنَّك تائبٌ إلى رَبِّكَ، وأنت مُصِرٌّ على معصِيَةِ اللهِ، فالَّذين يقولونَ: نَسْتَغْفِرُ اللهَ ونتوبُ إليه من قَولِ الزُّورِ، ومن غِيبَةِ النَّاسِ، ومِنْ أكلِ لحُومِ المؤمنينَ وهم يغتَابُونَ النَّاسَ، ويأكلونَ لحُومَهُم، فإن هؤلاء لم يَتُوبُوا ولا تَصِحُّ توبَتُهُم؛ لأنه لا بُدَّ مِنَ الإقْلاعِ عن الذَّنْبِ.

والَّذي يقولُ: استَغْفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه من أكْلِ الرِّبَا، وهو مُصِرٌّ على أكلِ الرِّبا فإنَّ هذه التوبَةَ لا تَنْفَعُهُ، بل هي في الحَقِيقَةِ استِهزاءٌ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، والَّذي يقولُ: أَتُوبُ إلى اللهِ من إضاعَةِ الصَّلاةِ، وأتوبُ إلى اللهِ مِنْ تَرْكِ الجَماعَاتِ، وهو مُصِرٌّ على إضاعَةِ الصَّلاةِ، مُصِرٌّ على ترْكِ الجَماعات، فإن هَذَا لا تنْفَعُهُ توبَتُهُ لأنه مستَهْزِئٌ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا بُدَّ أن يُقْلِعَ الإِنْسانُ عن الذنْبِ الَّذي تاب مِنْهُ، أما أن يقولَ: استَغْفِرُ الله وأتوبُ إليهِ بلسانِهِ، وهو مُصِرٌّ بفعله على ذنْبِهِ، فإن هذا لا ينْفَعُهُ.

اقسامُ حُقوق العِباد:

مِنْ شُروطِ التَّوبَةِ أن يُقْلِعَ الإِنْسانُ عن المعصِيَةِ الَّتي هو عليهَا، فإن كانَ تَرْكُ

واجِبِ التزَمَ هذَا الوَاجِبَ، وإن كان فِعْلُ مُحرَّمٍ ترَكَ هذا المُحرَّمَ، ويدْخُلُ في ذلِكَ ما إذَا كانَتِ التَّوبَةُ مِنْ حُقوقِ العِبادِ، فإنه لا تَصِحُّ التوبَةُ إلا بالبراءةِ مِنْ هذِهِ الحُقوقِ، **وحقوقُ العبادِ ثلاثَةُ أنواعٍ:**

١- حُقوقٌ في النَّفْسِ.

٢- حُقوقٌ في المالِ.

٣- حُقوقٌ في العِرْضِ.

فحقوقُ النَّفْسِ: أن تَجْنِيَ على أحدٍ في نَفْسِهِ؛ فتَضْرِبُهُ أو تجْرَحُهُ أو ما أشبه ذلِكَ، فهنا يجِبُ عليكَ أن تمكِّنَهُ مِنَ القَصاصِ من نَفْسِكَ، أو أن تُصالِحَهُ على ما تُصالِحُهُ عليهِ، حتى يُبرِّئكَ من هذا الذَّنْبِ.

أما حقوقُ المالِ: وهي إذا أخَذْتَ مِنْ إنْسانٍ مالًا بغيرِ حقٍّ، سواء أخَذْتَهُ عن طريقِ القاضِي والمخاصَمَةِ، أو أخَذْتَهُ عن طريق القَهْرِ والغَلبَةِ، أو أخَذْتَهُ عن طريقِ الخِلْسَةِ، أو عن طريقِ السَّرِقَةِ، أو عن أيِّ طريقٍ محُرَّمٍ، فإنك لا تَبْرأُ منه حتَّى تُوَصِّلَ هذا المالَ إلى صاحِبِهِ إن كانَ حيًّا، وإلى ورَثَتِهِ إن كان مَيْتًا، فإن لم تَعْلَمه بأن نَسِيتَهُ مثلًا، أو كنتَ لا تَعرِفُهُ فتَصَدَّقْ بِهِ عنه، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يوصِّلُهُ إليهِ.

فإذا حاكَمْتَ إنسانًا في حقٍّ من الحُقوقِ، وطَلَبْتَهُ عندَ القاضِي، وحكَمَ القاضِي لكَ، وأنت تعْلَم أن الحقَّ عليكَ، فاعْلَم أنك لا تَبْرأُ بهذَا، وأنك ستُحَاسَبُ عليه يومَ القِيامَةِ، ولهذا قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فأَقْضِيَ لَهُ بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ**

أَخِيهِ، فَإِنَّمَا يَقْتَطِعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَذَرْ»[1]، فإنَّ أكلَ المالِ بالدَّعَاوَى الباطِلَةِ يكونُ على وجْهَيْنِ:

تارَةً يأخُذُ الإِنْسانُ ما ليسَ لَهُ ولكن بشهادَةِ زُورٍ، فيَحْكُمُ القاضِي لَهُ بمُقْتَضَى هذه الشَّهادَةِ، والقاضِي قد يكونُ مأجُورًا إذا لم يكُنْ يعلَم أن الأمرَ على خِلافِ الوَاقِعِ، وتارَةً يُنْكِرُ الإِنْسان ما وَجَبَ عليه، ويكونُ المدَّعِي لا بَيِّنَةَ له، وحينئذ تَتَوَجَّهُ اليمِينُ على المُنْكِرِ فيَحْلِفُ فإذا حَلَفَ فإنه يبْرَأُ من هذِهِ الدَّعْوى؛ ولكنَّه إن كانَ كاذِبًا فإنه لا يبْرأُ من ذلك عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

لقد كَثُرَتِ الحُجَجُ الباطِلَةُ، والدَّعَاوَى الكاذِبَةُ في هذا الزَّمانِ، ولا سِيَّما عنْدَمَا ارتفَعَتْ قيمَةُ الأراضِي، فتارَة بعْضُ النَّاسِ يدخُلُونَ على أمْلاكِ بعْضِهِمْ، ويَدَّعُونَ أنها لهم، وهم كاذِبُونَ في ذلِكَ، وهم يعْلَمونَ هذا، فرُبَّما يُحْكَمُ لهم بمُقْتَضَى دعْواهُمْ حسبَ ما يقتَضِيهِ سماعُ القاضِي، ولكن هذا لا ينْفَعُهم ولا يُبَرِّئُهُم عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وسيأْخُذُ ذلك يومَ القيامَةِ من حسنَاتِهِمْ، فإن لم يبْقَ مِنْ حسناتِهِمْ شيئًا أُخِذَ من سيئاتِ المظْلُومِينَ فطُرِحَتْ عليهم، ثُمَّ طُرِحُوا في النَّارِ، كما ثبتَ ذلك عنْ رَسولِ اللهِ ﷺ[2].

الأمرُ الثَّالثُ من الحُقوقِ: حُقوقُ الآدَمِيِّينَ العِرْضِيَّة الَّتي تكون في العِرْضِ، وذلك فيما إذا اغتَبْتَ إنْسانًا، أو سَبَبْتَهُ، أو قَذَفْتَهُ، أو ما أشبه ذلك، مما يُدَنِّس عِرْضَهُ فإنه لا تَصِحُّ توبَتُهُ حتى تستَحِلَّهُ من هذا الأمرِ، فإن لم تَسْتَحِلَّهُ فإنه سيأْخُذُهُ منك

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشَّهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، رقم (٢٥٣٤)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب الحكم بالظَّاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

يومَ القيامَةِ، اللَّهُم إلا أن تَتوبَ توبةً نَصُوحًا خالِصَةً، وتستغفرَ لمَنِ اغتَبْتَهُ واعتَدَيْتَ عليهِ، فهذا قد يتَحَمَّلُ اللهُ عنْك ذلِكَ، ويُرْضِي صاحبَكَ يوم القيامَةِ.

إلا أن أهْلَ العِلْمِ قالُوا: إنَّك إذا جَنَيْتَ على إنسانٍ في عِرْضِهِ، ولم يبْلُغْه ذلِكَ وخِفْتَ إن أخْطَرْتَهُ أن يكون في ذلِكَ شَرٌّ؛ فلا حرَجَ عليكَ حينئذ أن تكتُمَ ذلِكَ عنه، وأن تُكْثِرَ من الاستِغفارِ لَهُ، وأن تُكْثِرَ من الثَّناءِ عليهِ لا سِيَّما في المجلِسِ الَّذي اغتَبْتَهُ فيه، ولعَلَّ الحسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيْئَّاتِ.

الشَّرطُ الثَّالِثُ: أن يعزِمَ على أن لا يعودَ إلى الذنْبِ في المستَقْبَلِ، فإن قالَ إني تُبْتُ من هذا الذنْبِ وهو عازِمٌ على أن يعودَ إليهِ في المستَقْبَلِ فإن هذهِ التوبَةَ لا تنْفَعُهُ؛ لأن التوبَةَ هي الرُّجوعُ، والرجوعُ إنما يكونُ مع الإدبارِ الكامِلِ عما رجَعَ عنه العَبْدُ، أما أن يقولَ إني راجِعٌ ولكنَّه عازِمٌ على أن يفْعَلَ الذنْبَ في المستقبَلِ فإن هذَا لا ينْفَعُهُ.

مثالُ ذلِكَ: رجوعُ بعضِ النَّاسِ عن المعاصِي في شَهْرِ رمضانَ، فإذا خرَجَ شهْرُ رمضانَ عادُوا إلى المعاصِي، وعادُوا إلى المنْكراتِ، وعادُوا إلى الفَحْشَاءِ، هؤلاءِ في الحقيقةِ لا تنْفَعُهُم توبَتُهُم في رمضانَ، ما دامُوا يقولونَ لأنْفُسِهِمْ: إنَّنا بعد رمَضانَ سنرْجِعُ إلى ما كنَّا عليه، لأن ذلك ليسَ بتَوْبَةٍ منْهُمْ، إنما هي تَوبَةُ من يُريدُ أن يُنيبَ إلى الله في وقتٍ، وهو مُصِرٌّ على أن يستكْبِرَ عن عبادتِهِ في وقتٍ آخَرَ، أو أن يَظْلِمَ نفْسَهُ في وقتٍ آخرَ، فإذا كان الإنْسانُ لم يحُقِّقِ التوبَةَ، ولم يعزِمْ على ألا يعودَ فإن توبَتَهُ في رمضانَ لا تَنْفَعُهُ.

ولهذا كان شَهْرُ رمضانَ أيامًا مَعْدُوداتٍ، لكنَّه شَهْرٌ كامِلٌ وهو في الحقيقةِ

مدرَسَةٌ، وهو في الحقيقَةِ تمْرِينٌ على الطَّاعَةِ، فمن تمَرَّنَ فيه على طاعةِ اللهِ واتَّقضى الله فيهِ وأحسَنَ عمَلَهُ، صار ذلِكَ مؤثِّرًا على قلبِهِ، مؤثِّرًا على اتِّجاهِهِ، مؤثِّرًا على تفكيرِهِ، مُقَوِّمًا لِما أعْوَجَّ من منهاجِهِ، ولهذا كان رمضانُ مدْرَسَةً لمن أرادَ اللهُ هِدَايَتَهُ، وأما من كانَ عازِمًا أو يُحدِّثُ نفْسَهُ أن يعودَ إلى الفَحْشاءِ والمنكَرِ بعدَ شهرِ رمضانَ فإنَّ هذا لا تَنْفَعُهُ التوبَةُ، وقال أهلُ العِلْمِ: إن من شُروطِ التوبَةِ أن يعزِمَ الإِنْسانُ على ألا يعودَ في المستَقْبَلِ.

الشَّرطُ الرَّابعُ: أن تكونَ التوبَةُ في وَقْتِهَا، فإن لم تكُنِ التوبَةُ في وقْتِهَا فإنها غيرُ مقْبُولَةٍ، وفواتُ الوقتِ يكونُ بأمْرٍ عامٍّ، ويكونُ بأمرٍ خاصٍّ، أما فواتُ الوقتِ بالأمْرِ العَام: فهو طُلوعُ الشَّمْسِ منْ مَغْرِبِهَا، فإن الشَّمسَ الَّتي نشاهِدُهَا اليومَ هِي كما قالَ رَسولُ الله ﷺ فيما ثَبَتَ عنْه: حين غابَتِ الشَّمسُ، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْس «**أَيْن تَذْهَبُ؟**». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قَالَ «**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنُ فَيُؤْذَنُ لها، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنُ فَلَا يُؤْذَنُ لها وَيُقَالُ لها: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَذَلِكَ قولُهُ تعالَى ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾**» قَالَ: «**مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ العَرْشِ**»(١).

فإذا خَرَجَتِ الشمْسُ من المغرِبِ ورآهَا النَّاسُ آمنُوا أجمعُونَ حينئذٍ يعلَمونَ أن مُغَيِّرَ هذه الشَّمْسِ هو الخَالِقُ إذ لا يستَطِيعُ أحدٌ أن يُغَيِّرَ هذه الشَّمسَ لا بتَقَدُّمٍ ولا بتَأَخُّرٍ ولا برجوعٍ ولا بانْحرافٍ، ولهذا إذَا رآها النَّاسُ آمنوا أجمعونَ، قالَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشَّمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩).

رَسولُ اللهِ ﷺ «وَذلِكَ حينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾»[1].

وقالَ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[2]، هذا هو الوقتُ العَام الَّذِي إذا حَلَّ فاتَ وقتُ التوبَةِ، فَلَم ينفَعِ الإِنْسانَ توبَتُهُ حينئذٍ.

أما الوقتُ الخَاصُّ فهو حضورُ الأجَلِ، فإن الإِنْسان إذا تابَ عندَ حضورِ أجلِهِ فإن التوبَةَ لا تنفَعُهُ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النِّساء:١٨]، ولهذا قالَ النَّبِيُّ ﷺ لعَمِّهِ أبي طالِبٍ حينَ حضَرَتْهُ الوفاةُ: «أَيْ عَمِّ قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»، فلَم يجزِمْ رَسولُ اللهِ ﷺ بأن توبَتَهُ تُقبَلُ حينئذٍ؛ لأن الموت قد حَضَرَ، فأَبَى أبو طُالِبٍ أن يقولَ: لا إِلَهَ إلا اللهُ، وقال: «هو عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المطَّلِبِ»[3]، مِلَّةِ الشِّرْكِ والكُفرِ فماتَ كافِرًا، فكانَ مِنْ أهلِ النَّارِ.

وأَخْبَرَ رَسولُ اللهِ ﷺ عن عَمِّهِ أبي طالِبٍ فقَالَ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القُرآن، باب ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام:١٥٨]، رقم (٤٦٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٩٩، رقم ١٦٩٥٢)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟ رقم (٢٤٧٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[1]، فالتَّوبَةُ لا تنْفَعُ إذا حضَرَ الأجلُ، قال تَعالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

فيَجِبُ على المسلِمِينَ أن يَتُوبُوا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأن يُنِيبُوا إلى رَبِّهِمْ، قالَ تَعالَى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وقالَ أيضًا: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤]، أنِيبُوا إليهِ أي: ارْجِعُوا إليه بإنابَةٍ وخُشوعٍ وخُضوعٍ بين يدَيهِ؛ بتَرْكِ المحرَّماتِ، وأسلِمُوا له بفِعْلِ الوَاجباتِ.

من عُقوباتِ المعاصِي:

يقولُ تعالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٤]، لم يُبيِّنِ اللهُ تَعالَى نوعَ هذَا العذَابِ في هذِهِ الآيَةِ، ولكنَّه شامِلٌ لكُلِّ ما يعاقَبُ به العَبْدُ على ذنوبِهِ، وإن من أعظَمِ العُقوباتِ على العَاصِي أن يَقْسُوَا قلْبُهُ عن طاعَةِ الله، فإن قَسْوَةَ القَلْبِ توجبُ الإعراضَ، وتوجِبُ الغفْلَةَ، وبالتَّالي تُوجِبُ موتَ القلْبِ، وبالتَّالي توجِبُ الهلاكَ في الدُّنيا والآخِرَةِ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة:١٣].

فالمعاصِي سَبَبٌ لقَسْوَةِ القَلْبِ، وإن قَسوَةَ القَلْبِ الَّتي حدَثَتِ اليومَ في كَثِيرٍ مِنَ المسلِمِينَ هِيَ من أعظَمِ العُقُوباتِ، ولكننا لا نشْعُرُ بها، إنَّنا نظُنُّ أن العُقوباتِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النَّبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

هي العُقُوبـاتُ المادِّيَـةُ، هي الخَطَرُ، والجَهْـلُ، والمرَضُ، والمـوتُ، والخطْفُ، والدمـارُ، دمارُ الأمـوالِ، ودمارُ البِلدانِ، هكذا نظُنُّ أن هذه هي العُقوبَةُ وهو العذابُ، ولكن هذا ظنٌّ خاطِئٌ.

ومن أعْظَمِ العُقوباتِ، ومن أعظَمِ العَذابِ قَسْوَةُ القُلوبِ، ومرَضُ القُلُوبِ وإعرَاضُها عَن دِينِ اللهِ، وكونُها تلهَثُ وراءَ الدُّنْيا وحُطَامِهَا، حتى أصبَحَتْ غافِلَةً عما أوْجَبَ اللهُ عليهَا، ولهذا قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ، بل أقسَمَ وهو الصَّادِقُ المصدوقُ ﷺ في كُلِّ قَسَمٍ، فقالَ ﷺ: «**فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[1].

وصدَقَ رَسولُ اللهِ ﷺ فإنَّها لما فُتِحَتْ الدُّنْيا على النَّاسِ اليومَ تَنافَسُوها، وأصبحتْ هي غَايَةُ أمْرِهِمْ، وهي مبْلَغُ عِلْمِهِمْ، حتى إنك تجْلِسُ المجالِسَ العديدَةَ لا تَسْمَعُ فيها إلا التحدُّثُ عن الدُّنْيا، وعن المالِ، وعن البَنِينِ، وعن الرَّفَاهِيَةِ، وعن الطُمأنِينَةِ، وعن الأمْنِ وما أشبه ذلِكَ.

ونحن لا نُنكِرُ أن يسأَلَ الإنْسانُ عنْ هذَا؛ فإنه لا قَوامَةَ للدِّينِ إلا بالطُمأنِينَةِ والأمنِ، ولكنَّنَا نقولُ: يجِبُ أن لا يكونَ هذا أكْبَرَ همِّنَا، يجِبُ أن يكون هذا مِنَّا وسيلَةً نتَوَسَّلُ بها، ونتَوَصَّلُ بها إلى إقامَةِ دِينِنَا، وأن يكونَ أكبرُ همِّنَا ومبْلَغُ عِلْمِنَا هو دِينُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، الَّذي أمَرَنَا بِهِ، وأمرَنَا بالدَّعوةِ إليهِ، وأمَرَنَا بالتَّواصُلِ فيهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب، رقم (٤٠١٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١).

الدَّرس السَّابع:

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلَى نبيِّنا مُحَمَّدٍ خاتمِ النَّبيِّين، وإمامِ المتَّقينَ، وعلى آلِه وأصْحَابِه، ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلَى يوم الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٦٧-٧٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟﴾ الفاعل يعود عَلَى المشركين، ودليل ذلك هُوَ قوله تَعَالَى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يعني أن المشركينَ لم يُعظِّموا الله تَعَالَى حقَّ تعظيمِه، مَعَ أَنَّه جَلَّوَعَلَا أعظمُ من كل شيءٍ، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بما فيها من أشْجارٍ والبِحارِ والجِبالِ والأَنْهارِ، وغير ذلك كلها قبضته يوم القِيامَة، ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ السَّماوات السبعُ عَلَى عِظَمِها واتساعها مطويَّاتٌ بيمينِه، والَّذِي طواها هو اللهُ؛ كما قالَ تَعَالَى ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

فانظرْ إلى عظمتِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وكيف أن مخلوقًا حقيرًا لا يستطيع نفعًا ولا ضرًّا، ولا غيًّا ولا رشدًا يُشرك به، إن من أشركَ بهذا الربِّ العظيمِ مع كمال قُدرته لمن أسفهِ النَّاس؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]، ومِلَّةُ إبراهيمَ هِيَ ما ذَكَرَه الله فِي قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

ولهذا قالَ: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ و(سبحان) مفعول مُطلَق، وعامله محذوفٌ. وهو اسم مصدر؛ لأنه وافق المصدرَ فِي المعْنَى وخالَفَه فِي اللفظ.

وكلمة (سبحان) لا يمكن أن يُذكَر معها عامِلها؛ فكلَما جاءت فِي القُرْآن والسنَّة، فهي منصوبة دائمًا عَلَى المفعول المطلَق، ولا يُذكَر معها عاملها، ومثالها في السنة: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»[1]. فكلَما ذُكرت لا يُذكر معها العَاملُ، وتذكر بمثل هَذَا اللفظ عَلَى أنها مفعول مطلق: سبحانه أي: تنزيهًا له.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتَّوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

والَّذي نُزِّه الله عنه ثلاثةُ أشياءَ:

أوَّلًا: كل صفة نقص فاللهُ منزَّه عنها.

ثانيًا: كل نقصٍ فِي كمالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا نقص فِي عِلمه، ولا فِي قُدرته، ولا فِي قوَّته ولا غير ذلك.

ثالثًا: مماثَلة المخلوقينَ، فالله منزه عنها.

فما هُوَ الدَّلِيل عَلَى ذلك؟

الدَّلِيل عَلَى الأوَّل، قلنا: إنَّه مُنزَّه عن أيِّ نقصٍ، فليس موصوفًا بالعمى عَزَّوَجَلَّ، ولا بالصمَم، ولا بالخرس؛ لأنَّ إبراهيمَ أقام الدَّلِيلَ العقليَّ عَلَى أبيه بأن الصنم لَيْسَ بربٍّ فِي قولِه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٤٢] فدلَّ ذلك عَلَى أن الربَّ يجب أن يكون سميعًا بصيرًا ليغنيَ عن عابديه شيئًا. إذن الله تَعَالَى منزَّه عن كل نقصٍ في صفاته.

ثانيًا: مُنزَّهٌ عن كل نقصٍ فِي كمالِه، مثلًا: القوَّة من الكمال، وهو مُنزَّهٌ عن نقص هَذِهِ القوة، فمهما عظُم الفعلُ فإنَّه منزَّه عن نقصِ هَذِهِ القوة، ودليل ذلك قول الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾ [ق:٣٨] أي: من تعبٍ وإعياءٍ، وهذا نفيٌ لنقصِ كمالِه جَلَّوَعَلَا.

الثَّالث: منزَّهٌ عَن مُماثَلة المخلُوقينَ، والدَّلِيل قوله تَعَالَى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وهذا خبر، وقوله تَعَالَى ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]، فنفى المثَل، ثمَّ نهى أن نَضرِبَ الأمثالَ له ثانيًا.

إذن يُنزِّه اللهُ بهذه الأقسام الثّلاثةِ، فكلما تلوتَ (سُبْحَانَ اللهِ) فاستحضِرْ هَذَا المعْنَى؛ أَنَّه مُنَزَّهٌ عن كل نقصٍ في صفاته، ومُنزَّه عن النقصِ بكمالِه، ومنزَّه عن مماثلة المخلوقينَ.

قوله: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ يعني: ترفَّع وتعاظَم عن هَـٰذِهِ الأصنامِ؛ لأنَّ هَـٰذِهِ الأصنام لا تُغني من الحقِّ شيئًا.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النَّافخُ فيه إسرافيلُ، والصُّورُ قالَ العُلَماء: إنه قَرْنٌ عظيمٌ سَعَته كما بين السَّماء والأرْض، ينفخ فيه نفخةً واحدةً فيسمع النَّاس؛ لأنَّهم يَسمعون صوتًا عظيمًا، فيسمع النَّاس ثمَّ يَصْعَقُون فيموتون جميعًا، إلا من شاء الله، ولهذا قالَ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨]، وفي سُورَة النملِ ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل:٨٧].

والجمع بينهما أنها نفخة يحصل بها أوَّلًا فزع ثمَّ صَعْقٌ.

قالَ الله تَعالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ أي في الصُّور ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ و(إذا) قالَ علماءُ النحو: إنها للمفاجأةِ، أي تأتي المفاجأة، فهم قيام ينظرونَ بمجرَّد النفخ؛ كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، فسبحان القادر عَلَى كل شيء! ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] نفخة واحدة فإذا هم قيام لدينا محُضَرون.

قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر:٦٩].

(أشرقت) أي: مِن نور الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قالَ: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يَنزِل للقضاء بين عبادِه، فتتشقق السَّماء بالغَمام، والغمام هُوَ السحابُ الأبيضُ النيِّر، فيأتي الرَّب عَزَّوَجَلَّ للقضاء بين عباده، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وهو الكتابُ الَّذِي كُتبت فيه الأعمال، الَّذِي لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، فكل ما عمِله الإِنْسَان مُحصًى مكتوب، فإذا كانَ يومُ القِيامَةِ وُضع هَذَا الكتاب وأُعطيَ كلُّ إِنْسَانٍ كتابَه؛ إمَّا باليَمين وإمَّا بالشِّمالِ، أو من وراء الظَّهْر، وكل إِنْسَان يقال له: اقرأ كتابَك كفى بنفسِك اليومَ علَيْك حسيبًا.

قوله: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ ويأتي بالنَّبيينَ ربُّ العَالمينَ عَزَّوَجَلَّ، يُحضِرهم من أجلِ أن يَستشهِدَهم عَلَى إبلاغِ أُممهم؛ كما قالَ تَعالَى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، فيُؤتَى بالنَّبيين فيشْهَدون أنَّهم بلَّغوا رسالةَ اللهِ، وأن الحجَّة قامتْ عَلَى عبادِ اللهِ، ويؤتَى أيضًا بالشُّهداءِ، والشُّهداءُ هنا من باب عطفِ العَامِّ عَلَى الخَاصِّ؛ لأنَّ النَّبيين شهداءُ.

وهناكَ شُهداء آخرونَ وهم العُلَماء؛ فإن العُلَماء يَشهدون عَلَى الأمم بأنهم بلغوا رسالاتِ اللهِ؛ لأنَّ العُلَماء -جعلني الله وإياكم منهم- وَرَثَة الأَنبياءِ، ووالله هَذَا الإرث الَّذِي ينبغي التسابُقُ إليه، فالعُلَماء ورثة الأَنْبِياء، ولو سُئل مَن وارث الرَّسُول: أفاطمةُ أو أُمهات المُؤْمِنِينَ أو أعمامه؟ قلنا: لا، ورثة النَّبي مُحَمَّد ﷺ هم علماء الأُمَّة، فالعُلَماء شُهداء، يشْهَدون بأنَّهم بلَّغوا رسالاتِ اللهِ لعبادِ اللهِ، فيشْهَد العَالم

ويقول: أشهدُ يا ربِّ أني بلغتُ رسالة مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى قومه.

ومنَ الشُّهداء شهداءُ يشهدون عَلَى الإِنْسَان، وهم منَ الإِنْسَان، وهي الأعضاءُ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور:٢٤-٢٥] وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥] وحينئذ يقولون لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت:٢١]

والجَواب: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والَّذي خلقَكُم أوَّل مرة قادر عَلَى أن يُنطِق جلودكم لتشهَد عليْكُم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت:٢١].

إذن الشُّهداءُ هم الأَنْبياء، ثمَّ العُلَماء، ثمَّ جوارح الإِنْسَان.

فإذا قالَ قائل: النَّبيون عطف عليهم الشُّهداء، فنقول: هَذَا من باب عطف العَامِّ عَلَى الخَاصِّ.

قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قُضِيَ بين الخلائقِ بالحقِّ، والقَاضي هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، يقْضي بينَ الخلائقِ بالحقِّ فِي معاملتهم مَعَ الله، وفِي معاملتهم مَعَ عباد الله، ولهذا قالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ؟» قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ

قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

فيُقضى بين الخلائقِ بالحقِّ. وهذا بين المُكلَّفينَ من بني آدمَ والجنّ واضح، لكن هل يُقضَى بين البهائم؟

الجواب: نعم يُقضَى بين البهائمِ؛ كما أخبر بذلك النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ بأن البهائمَ تُحشَر؛ كما قالَ تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٤-٥]، فيُقضَى للشاةِ الجَلحَاء مِنَ الشَّاةِ القَرناءِ[2]، والجلحاء هي الجَمَّاء الَّتي ليس لها قُرُون.

والعَادةُ أن الشَّاةَ الَّتي لها قرونٌ تَنطَح الشَّاةَ الَّتِي لَيْسَ لها قرون، فإذا كانَ يوم القِيامَة قَضَى الله بينهما.

قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يُظلَم أحدٌ شيئًا؛ كما قالَ تَعالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢] فلا يُظلَم أحدٌ بنقصٍ من حسناتِه، ولا بزيادةٍ من سيئاتِه؛ لأنَّ الله تَعالَى كامل العدلِ، وهو يَقضِي بين عبادِهِ فِي ذلك اليومِ بالحقِّ.

قالَ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر:٧٠].

قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ يعني وفَّى الله تَعالَى كلَّ نفس ما عمِلتْ، لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبتْ. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ما أحسنَ هَذِهِ العبارةَ بعد قولِهِ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ لِئَلَّا يَظُنَّ الظَّانُّ أنَّه سَيخفَى شيءٌ من أعمال الإِنْسَان،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصَّلاة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢).

فلا يخفى شيءٌ من أعمال الإِنْسَان، وكلُّ شيءٍ معلوم عند الله مدوَّن لا يُزاد فيه ولا يُنقَص.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٧١].

قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ يُساقون سَوقَ إهانةٍ وإذلالٍ؛ كما قالَ تَعالَى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣] يُدفَعون بعنفٍ وشدَّةٍ، ولا رأفةَ بهم ولا رحمة لهم، نعوذ باللهِ!

يُساقُونَ إِلَى جهنَّم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وكأنَّها سَراب، والسَّراب هُوَ الَّذِي يبدو للإِنْسَان فِي البرِّ وكأنَّه ماء، ويعطشون عطشًا شديدًا، ثمَّ يُسرعون إِلَى هَذَا السَّراب؛ كما قالَ تَعالَى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ [مريم:٨٦] يريدون أن يشربوا، فإذا جاؤوا فإذا هِيَ النَّار تُفتح أبوابها أمامهم، ويُدفَعون فيها دفعًا، كلما دخلت أُمَّة لعنتْ أختها، فيدفعون فِي النَّار فيذوقون الألمَ والعذابَ فِي أجسامهم، ثمَّ يُوَبَّخون ليَذُوقُوا العذابَ فِي قلوبهم ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ مُقَرِّرين ومُقَرِّعين: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ والهمزةُ هنا يقول علماءُ النحوِ: إنها للتقريرِ، فهي بمعنى الفعل الماضي، فمعنى ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾: قد أتاكم، ونظيرها فِي المعْنَى قول الله تَعالَى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح:١] أي: قد شَرَحنا لك صدرك.

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ من عند الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مِّنكُمْ﴾ من قومكم، من إِنْسَانيتكم، ليسوا جنًّا أو ملائكةً، بل منكم، وكلُّ نبيٍّ يُبعَث إِلَى قومِه، ومُحَمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعِثَ إِلَى سائرِ النَّاسِ، فهو من النَّاس باعتباره بشرًا مثلهم.

قوله: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ﴾ يقرؤُونها عليكم ويعلِّمونكُم إيَّاها ويبيِّنونها لكم، ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يَعِظُونكم ويخوِّفونكم من هَذَا اليومِ، وقدْ قامَتْ عليْكُم الحُجَّة، ولهذا يُقِرُّون ويقولون: ﴿بَلَىٰ﴾ أتانا رسل منَّا وأنذرونا لقاءَ يومنا هَذَا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وإذا حَقَّتْ كلمةُ العذابِ عَلَى الكَافِرينَ فإنَّهم لا يؤمنون؛ كما قالَ الرَّب جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:٣٣].

وفِي آيةٍ أخرى أقروا بأنهم هم السَّبب ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٩] إذن هم السَّبب فِي دخول النَّار؛ لأنهُ قد قامتْ عليهم الحجَّة، ولكنَّهم رفضوها والعِياذُ باللهِ.

قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧٢].

قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ﴾ الفاعلُ هنا لا يُعلَم؛ لأنَّ الفعل هنا مبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه، فيَحتمِل أن القائل هُوَ الله، ويَحتمِل أنَّ القائِل الملائكةُ.

قوله: ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أبواب جمعُ بابٍ، وعددُ أبوابِ جهنمَ سبعةٌ، والدَّليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤].

فيدخلون أبواب جهنمَ داخرينَ(١) صاغرينَ ذَليلينَ والعِيَاذُ باللهِ، حتَّى إن الرَّب عَزَّوَجَلَّ مَعَ كمال رحمتِه ورأفته إذا قَالُوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧] فإنه يقول: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] وهذا أشدُّ شيءٍ عليهم أنْ يَقولَ الرَّب عَزَّوَجَلَّ: اخسؤوا فيها ولا تكلمون، اندحروا، كونوا أذلةً ولا تكلمون، فحينئذٍ يَيْأَسُونَ من كل خيرٍ، نسأل الله العَافيةَ، وأن ينجيَنا وإياكم من عذاب النَّارِ.

قوله تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وهل هَذَا الخلودُ أبديٌّ أو أمديٌّ؟ والأمدي هُوَ الَّذِي يكون إِلَى مدةٍ معينةٍ، والأبدي: الدَّائم؟

الجَواب: أبدي، والدَّليل هو خُلودُهم فِي النَّار؛ أليس الله يقول: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧].

فالقولُ الرَّاجحُ الَّذِي لا يَنبغي العُدولُ عنه أنَّ أهل النَّار مُخَلَّدون فيها أبدَ الآبدينَ، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥]، حتَّى إنَّهم يقولون لخزنة النَّار: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]، ما قَالُوا: يُرفع عنَّا العذابُ يومًا واحدًا، بل قَالُوا: يخفف، ولكن لا يُجابون ولا يُطاعُون؛ إذ هم خالِدونَ فيها أبدًا أبدَ الآبدينَ.

والدَّليل ثلاثُ آياتٍ من كلام الله؛ فقد قالَ الله تَعَالَى فِي سُورَة النِّسَاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النِّساء:١٦٨-١٦٩]. فهَذَا نصٌّ صريحٌ.

---

(١) الدَّاخر: الذليل المُهان. النهاية (دخر).

وقال تَعَالَى فِي سُورَة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

وقال تَعَالَى فِي سُورَة الجنِّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وإذا كانَ الله عَزَّوَجَلَّ قالَ ذَلك فِي كتابه فِي ثلاثِ آياتٍ من كتابِ اللهِ، فلا عُدُولَ لنا عن ذلك إطلاقًا.

فإنْ قالَ قائلٌ: ماذا نجيبُ عَن قولِهِ تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]؟

قلنا: الجوابُ عن هَذَا أن قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يعني أن مُكُوثَهم كانَ بمشيئةِ اللهِ، ولا يمكِن أن نَدَعَ هَذِهِ الآيةَ الَّتِي فيها احتمالٌ آخرُ، وندع آياتٍ صريحةً فِي التأبيد.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣].

قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ -اللهُمَّ اجعلنا منهم- السَّوْق هنا لَيْسَ كالسوقِ الأولِ للكافرينَ، فسوق الكَافِرينَ سوقُ إهانةٍ وزجرٍ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، وسوقُ هَؤُلاءِ المتَّقِينَ سَوق إكرامٍ، ويدل لذلك قوله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٥-٨٦]. فالمتَّقُون قال فيهم: (نحشر)؛ أي نجمعهم ويفِدون إِلَى اللهِ،

والوفدُ فِي العَادةِ يُكرَم ولا يُهان، فالفرْقُ بين السِّياقَينِ أنَّ الأوَّل -أعني سياق الكَافِرينَ- يكون للإهانةِ والذلِّ، وأما سوق المتَّقينَ فإنَّه للإكرامِ.

التَّقوى:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر:٧٣] وهنا نسأل: ما هِيَ التَّقوى الَّتِي تَرِد فِي القُرْآن كثيرًا؟

الجَواب: التَّقوى: أن يتَّخذَ الإنْسَان وقايةً من عذابِ اللهِ، ولهذا يقول علماءُ التصريفِ: إن تقوى أصلها وَقَى، منَ الوِقاية. والَّذِي يَقِي من عذابِ اللهِ هو امتثالُ أمرِه، واجتنابُ نهيِه، وتصديقُ خبرِه، فهَذه ثلاثَةُ أشْيَاء، وهَذَا أجمعُ ما قيل فِي التَّقوى: إنَّها اتِّخاذُ وِقَايةٍ مِن عذابِ اللهِ بفعلِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه، وتصديقِ أخبارِه.

وقيل فِي تعريفها: التَّقوى: أن تعْمَل بطَاعةِ اللهِ، عَلَى نُورٍ مِن اللهِ، ترْجُو ثوابَ اللهِ، وأن تتْرُك ما نَهَى اللهُ، عَلَى نورٍ مِن اللهِ، تخْشَى عِقابَ اللهِ.

وقيل فِي تعريفها[1]:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا	وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاعْمَلْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ	ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لا تَحْقِرَنَّ صَغيرةً	إنَّ الجِبالَ مِنَ الحَصَى

(١) الأبيات لابن المعتز، ذكرها البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٤٢٣).

ولكن أجمع ما قيل فيها هُوَ ما ذكرناه أوَّلًا: امتثالُ أمْر الله، واجتنابُ نهْيِه، وتصديقُ أخبارِه.

هَؤُلاءِ الَّذِينَ اتَّقوا ربهم يُساقون إِلَى الجنَّة زُمَرًا؛ أفواجًا، وقد أخبر النَّبِي صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم أن أوَّل زُمرةٍ تدخل الجنَّة عَلَى صورةِ القمرِ ليلةَ البدرِ[1]، أتجدون شيئًا أحسنَ من ذلك! أبدًا، ولهذا يُمثَّل للمرْأة الحسْناء بأنَّها بَدر، فلا أحسنَ من هَذَا المنظر.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ أي: جاؤوا الجنَّة بعد العبور عَلَى الصراط، ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ يا لها من تحية! تحية عظيمة، يقول: ﴿إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وفي أهل النَّار قال: ﴿إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧١]، والقُرْآن فصاحة وبيانٌ، فلماذا قالَ فِي أهل النَّار: ﴿إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ﴾ وفي أهل الجنَّة: ﴿إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾؟

قالَ بعض النحْويين: إن هَذَه الوَاو (واو الثَّمانية)؛ لأنَّ أبوابَ الجنَّة ثمانِية، كما قالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ، فُتِّحَتْ -أو: فُتِحَتْ- لَهُ ثَمانِيَةُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[2].

فقَالُوا: إن هَذِهِ واو الثمانية، وواو الثَّمانية تأتي فِي القُرْآن كثيرًا، واقرأ قول الله

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٦)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب أول زمرة تدخل الجنة، رقم (٢٨٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقال بعد الوضوء، رقم (٥٥).

تَعَالَى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢] جاءت الوَاوُ عندَ الوَصْف الثَّامن.

وقَالُوا أيضًا: اقرأ قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢].

واقرأ أيضًا: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم:٥] جاءت الوَاو عند الوصف الثَّامن.

ولكن هَذَا غلط، فليْسَ هُناك واوٌ تُسمَّى واوَ الثَّمانِيَة أبدًا؛ لأنَّ قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ إنَّما عطف ﴿وَأَبْكَارًا﴾ بالوَاو على ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ لأنَّه لا يمكن أن تكون المَرْأَة ثيبًا بِكرًا، فالأبكار مغايِرات للثيِّبات، بخلاف الصِّفَات الستِّ الأُولى، فإنَّها يمكن أن تجتمِعَ فِي امرأة واحدةٍ.

فنقول: إن الوَاوَ هنا فِي أهل الجنَّة لها معنًى أبعد غَوْرًا ممَّا ذكر هؤلاء من أنها واو الثمانية، فما هُوَ المعْنَى؟

المعْنَى أن أهل الجنَّة إذا وصلوا الجنَّة لا يجدون أبوابًا مفتوحةً، فيُحبَسون قليلًا حتَّى يشتدَّ شوقُهم إليها؛ لأنَّ الإِنْسَان كلما اشتدَّ شوقُه إِلَى الشَّيْء، صار إتيانه إيَّاه عَلَى شوقٍ أعظمَ، وانظر للجائع إذا طُوِّل عليه الجُوعُ، ثمَّ قُدِّم له الأكل، فيكون الأكلُ أشهَى له بلا شكٍّ، وكلَما طالَ الأمدُ بينَ الأكْلَتينِ صار أشدَّ شوقًا إِلَى الأكلةِ الثَّانيةِ.

فهم يُحبَسون عند أبوابِ الجنَّة ولا يجِدُونها مفتوحةً، بخلافِ أهلِ النَّارِ فإنَّهم يُبادَرون بِلَفْحِها -والعِيَاذُ باللهِ- وسَمُومها، لكن أهل الجنَّة يُحبسون إِلَى أن يظهرَ فَضْل مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم فيشفع النَّبِي ﷺ عند الله جَلَّ وَعَلَا أن يفتحَ أبوابَ الجنَّة لأهل الجنَّة، فتُقبل الشَّفاعةُ وتُفتح الأبوابُ، ويكون النَّبِي صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم أولَ مَن يدخل الجنَّة.

إذن الحكمةُ منَ الوَاوِ هنا أنَّهم ليْسُوا إذا جاؤُوها فُتحت، بل إذا جاؤُوها حُبِسوا ووَقَفوا عَلَى قنطرةٍ بين الجنَّة والنَّارِ، فيُهَذَّبون، ويُنزَع ما فِي قلوبهم من غِلٍّ، وتُطهَّر القُلوبُ حتَّى يَدخلوا هَذِهِ الدَّارَ عَلَى أكملِ حالٍ، كما قالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

أسأل الله تَعَالَى برحمتِه وفضلِه أن يجعلنا وإياكم منهم.

وهؤلاء لا يدْخُلون الجنَّة إِلَّا عَلَى أكملِ وجهٍ، فجميع الغلِّ الَّذِي كانَ فِي قلوبهم فِي الدُّنيا فإنَّه يُنزَع، مَعَ أنَّه قدِ اقتصَّ لبعضهم من بعضٍ فِي عَرَصَات القِيامَةِ، لكن هَذَا لإزالة ما فِي القُلوبِ، أو ما عَلِقَ بالقُلوبِ من الغلِّ والحِقد. ثمَّ يشفع النَّبِي ﷺ حتَّى تُفتح أبوابُ الجنَّة.

الشَّفاعَة:

وللرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثلاثُ شفاعاتٍ خاصَّاتٍ بِه، لا أحَدَ يَشفَع فيها:

الشَّفاعَة الأولى: شفاعَتُه فِي أهلِ الموقِفِ أن يُقضَى بينَهم؛ لأنَّ أهلَ الموقِفِ تَدنُو منْهم الشَّمْسُ حتَّى تكونَ قَدْرَ مِيلٍ من رؤُوسِهم، وحتَّى إنَّهم يَعرقُونَ مِن شدَّة الحرِّ، حتَّى يصل العرقُ إِلَى الكعبينِ، وإلى الرُّكبتينِ، وإلى الحقوينِ، وإلى الفمِ،

وبعضهم يُلجِمه العَرَق، ويَلحَقهم منَ الغَمِّ والكَرْبِ ما لا يُطيقون؛ لأنَّهم يَقفون خمسينَ ألفَ سنةٍ، لا طعام، ولا شَراب، ولا شيء، يقفون هَذَا الموقفَ العظيمَ، فيَلحَقهم منَ الكَرْب ما لا يُطِيقون، فيقول بعضهم لبعض: انظروا مَن يشْفَع لَنا إِلَى الله يُريحُنا مِن هَذَا الموقِف، فيُلهَمون أن يذْهَبوا إِلَى آدمَ أبي البَشرِ، خَلَقَه الله بيَدِه، وعلّمَه أسماءَ كلِّ شيءٍ، وأسْجَد له الملائِكةَ، فيصِفُونَه بهَذِه الأوْصافِ، ويقُولُون له: ألا تَرى إِلَى ما نَحنُ فيه؟ ألا تشفَعُ لَنا عند الله؟ فيقول: لسْتُ لذاك، ثمَّ يَعتذِر بأكْلِه من الشَّجرةِ؛ لأنَّ الله تَعالَى قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:٣٥] فوسْوَس لهما الشَّيْطان فأكلَا منها، قالَ الله تَعالَى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١-١٢٢] فصارت حالُ آدمَ بعد التَّوْبَة عليه أكْملَ مِن حالِه قبلَ أنْ يأْكُل من الشَّجرةِ؛ لأنَّه تابَ مِن أكْل الشَّجرةِ، وتعرِفُون أن الشَّافع إنَّما يشْفَع عنْد المشْفُوع عندَهُ إذا لم يكُنْ بيْنَه وبيْنَه ما يُوجِب الجفوةَ.

فيأْتُون إِلَى نوح، يقولون: ائْتُوا نُوحًا، أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ، فيطلبون منه أن يشفع، فيذكر أيضًا عذرًا، قال: إنِّي سألتُ اللهَ تَعالَى ما لَيْسَ لي به عِلم، ويَعتَذِر.

فيأْتُون إِلَى إبراهيم، خليل الرَّحْمَن عَزَّوَجَلَّ، وصلى الله وسلَم عليه، فيَعتذِر بأنه كَذَبَ ثلاثَ كَذَباتٍ، وهي ليستْ كذباتٍ فِي الوَاقعِ، لكن لشدَّة حيائه من الله عَزَّوَجَلَّ استحيا أن يكون شفيعًا وقد كذب هَذِهِ الكذبات، مَعَ أنها تَوْرِيَة، وليستْ بكذِبٍ.

فيأْتُون إِلَى مُوسَى، فيَعتذِر بأنه قتل نفسًا لم يُؤمَر بقتلها، فقد قَتَلَ قِبطيًّا استغاثَه عليه إسرائيليٌّ، فقتله مُوسَى، ومُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معروف بالشدةِ، فوكَزَه بيده فقضى عليه.

فيأتون إِلَى عِيسَى، وعِيسَى بن مَريمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يذكر شيئًا، لكن يعترف بالفضل لأهله، يقول: ائتوا مُحَمَّدًا عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

الله أكبر! انظروا كيف ألهم اللهُ الخلقَ أن يأتوا هَؤُلاءِ الأَنْبياء الكِرام، فمنهم مَن يَعتذِر، ومنْهُم مَن يعترف بالحقِّ لأهْلِه، والَّذِينَ اعتذَرُوا أربعةٌ: آدم، ونوح، وإبراهيم، ومُوسَى، ومَنِ اعترف هو عِيسَى، قال: ائتوا مُحَمَّدًا عبدا غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فيأتون إِلَى الرَّسُول -صلَواتُ اللهِ وسلامُه علَيْه- فيستأْذِن مِن الله أن يشْفَع للنَّاس، فيأذن له[1].

ومحمدٌ -صلَواتُ اللهِ وسلامُه علَيْه- لا يشْفَع إِلَّا بإذن الله، فيستأْذِن من الله عَزَّوَجَلَّ -وربُّ العزَّةِ والعظمَة أعظمُ مِن أن يشفْع أيُّ إِنْسَانٍ أو مخلوقٍ عندَه إِلَّا بإذنِه- فيرْحم الله الخلقَ، ويأذَن له فيشْفَع فِيهم، وبهَذا يظْهَر إكرامَ الشَّافِع، ورحْمة المشْفُوع إلَيْه.

مَعَ أنَّ الله قادِرٌ عَلَى أن يرْفعَ عنهُم بدُون شفاعةٍ، لكِن مِن أجْل أن يظهرَ فضلُ الشَّافعِ، ورحمةُ الله تَعَالَى بالعِبادِ وعظمَتِه وسُلطانِه، أنَّه لا يشْفَع أحدٌ عنْدَه إِلَّا بإذْنِه، فيقْضِي اللهُ بينَ العِبَاد.

وهَذِهِ الشَّفاعة العُظْمى خاصَّة بالرَّسُول -صلَواتُ اللهِ وسلامُه علَيْه- اعتذرَ عنْها أَبُو البشرِ وأُولو العَزْمِ من الرُّسلِ حتَّى وصلتْ إِلَى مُحَمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنَّار، رقم (٦٥٦٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

الشَّفاعة الثَّانية: شفاعَتُه لعمِّه أبي طالبٍ. ووجهُ خصوصيَّتِه فِي ذَلك أنَّ أبا طالبٍ ماتَ عَلَى الكفر، ولا غَرَابَةَ أن يمُوتَ عمُّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الكفرِ، كما أن آزَرَ أبا إبْراهيمَ مات عَلَى الكُفْر، بل فيه دلِيلٌ عَلَى كمالِ قُدرَة الله أن يُخرِج من أصْلاب الرُّسل مَن هُوَ كافر، وأن يخرُجَ مِن أصلابِ الكافِر مَن هُوَ رَسول.

والَّذِي خرَج من صُلبِه كافِرٌ وهُو رَسولٌ: نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، خرج مِن صُلبه ابنٌ كافِر، وهُو من أولي العزم من الرُّسل.

والَّذِي خرَج من صُلب كافِرٍ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قالَ لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٧٤]، والله عَلَى كل شيءٍ قديرٌ.

أبُو طالبٍ ماتَ عَلَى الكُفر، وقال الرَّسُول ﷺ: «أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَم أُنْهَ عَنْكَ»، فأنزَل الله تعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التَّوبة:١١٣][1].

ثمَّ أجابَ الله تَعَالَى عن استغفارِ إبراهيمَ لأَبيه، فقالَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ هَذا الَّذِي يحبّ الله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ مَنِ ادَّعى محَبَّة اللهِ ولم يَتَبَرَّأْ من أعداء اللهِ، فهو كافر، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التَّوبة:١١٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

نبيُّنا ﷺ شَفَعَ لعمِّه أبي طالبٍ، ولكن هَل شفَعَ له حتَّى خرَج من النَّار؟

الجَواب: لا واللهِ، شفعَ له حتَّى صار فِي ضَحضاحٍ من نارٍ، وعلَيه نعلانِ منَ النَّارِ يَغلي منهما دِماغهُ[1]، أعوذ بالله! وإنه لَيرى أنه أشدُّ النَّاس عذابًا، وهو أهونُهم، لكن يُرى أنَّه أشد النَّاس عذابًا لِئَلَّا يَتَسَلَّى بمَن هُوَ أشدُّ.

وذَلك أن الإِنْسَان إذا عُذِّب وقيل له: فُلَان عُذب أكثرَ منك، فإنه يُهَوَّن عليه العذابُ؛ لأنَّ مِنَ النَّاس مَن عُذب أكثرَ منه، لكِن إذَا رأى أنَّه أشدُّ النَّاسِ عذابًا لم يَتَسَلَّ.

إذَن هَذَا نفعَتْ فيه الشَّفاعة، وهذا خاصٌّ بالرَّسُول ﷺ؛ لأنَّ الكَافِر لا تنفع فيه الشَّفاعةُ، كما قالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، وكما قالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، والله تَعَالَى لا يَرْضى الكَافِر، لكِن هَذَا أَذِنَ الله لرَسولِه ﷺ أن يشْفَع فِيه، فيُخفِّف عنْه العذاب.

وحينئذٍ قدْ يقولُ قائِلٌ: لماذا خُصَّ أَبُو طالبٍ بجوازِ الشَّفاعَة لَه وهُو كافِر؟

فالجَواب: لما لَه مِن الأيادي البيْضاءِ فِي الدِّفاع عَن مُحَمَّد ﷺ وعن دينِ الرَّسُولِ ﷺ، نسألُ اللهَ السَّلامة، يُدافِع عن الرَّسُول ﷺ ويقول مخاطبًا قُرَيْشًا[2]:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

فلَيْس كذّابًا ولا ساحرًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أهون أهل النَّار عذابًا، رقم (٢١٢).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

ويقول فِي الدين الإِسْلاميِّ[١]:

وَلَقَـدْ عَلِمْـتُ بِـأَنَّ دِيـنَ مُحَمَّـدٍ ... مِـنْ خَـيْرِ أَدْيَـانِ الْبَرِيَّـةِ دِينَـا

لَـوْلَا الْمَلَامَـةُ أَوْ حِـذَارِ مَسَـبَّةٍ ... لَوَجَـدْتَنِي سَـمْحًا بِـذَاكَ مُبِينَـا

فالَّذي يقرأ هَذِهِ الأبيات يقول: الرَّجل مسلِمٌ، لكن العِبْرَة بالنِّهايةِ، فقد حضرَت أبا طالبٍ الوفاةُ، وكان رَسولُ الله ﷺ عنده يَعرِض عليه التَّوْحِيد، يقول: «يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» وكان عنده رجلانِ من قُرَيْش، وجَليس السَّوء كلُّه شرٌّ وسُوءٌ، فقالا له: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟!

وعبدُ المطَّلب أَبُـوه، فما جاؤُوا إِلَّا بأبيه؛ لأجْل أن يُوقِـدوا فِي قلبِه حَمِيَّة الجاهليَّة، فكان آخِرَ ما قالَ أَنَّه عَلَى مِلَّة عبد المطَّلب، وأَبَى أنْ يَقولَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ[٢].

اللَّهُم اختم لنا بشَهادَة التَّوْحِيد، اللهُمَّ اجعلنا ممن يكون آخِر كلامهم من الدُّنيا لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

المهمُّ أن أبا طالبٍ مِن أجل دِفاعِه عنِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ودفاعه عن الإِسْلام، أذِن الله للرَّسُول ﷺ أن يشْفَع فِيه.

الشَّفاعَة الثَّالثة: شفاعة الرَّسُول ﷺ لدُخولِ الجنَّة، فيشفع فِي أهل الجنَّة أن يدْخُلوا الجنَّة.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٨)، وبلفظه في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

أما الشَّفاعة فِي تخفيف العذابِ عن عُصاة المُؤْمِنِينَ، فهذه ثابتة للرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولغيره من النَّبيين، والشُّهداءِ، والصَّالِحِينَ، حتَّى الَّذِينَ يصلّون عَلَى الميتِ يَشفعون للميتِ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»[1] وذلك لأنَّهم يدعون له فيقولون: اللهُمَّ اغفِرْ له، اللهُمَّ ارحمْه، فإذا قبِل الله هَذَا الدُّعاء، فهذه هِيَ الشَّفاعة المقبولةُ.

وهنا نقطة يقولها بعض النَّاس، يقول: تُقدَّم جنائزُ فنَشُك فِي إسلام الميتِ؛ لأنَّهم يَعرِفون أنَّه لا يُصَلِّي مثلًا، فهل يجب علينا أن ننصرفَ ولا نصلِّي عليه؛ لأنَّ الَّذِي يموت وهو لا يُصَلِّي لا يُصلَّى عليه، أم نُصلِّي عليه، واللهُ يقول فِي المنافقينَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾ [التّوبة:٨٤]؟

والجواب أن يقال: إذا قُدِّم للصلاةِ عليه مَن تشكُّ فِي إسلامِه، أو من تشكُّ فِي رِدَّته، فاستثنِ، فقلْ: اللهُمَّ إنْ كانَ مؤمنًا فاغفرْ له وارحمْه، وإذا قلتَ هَذَا بَرِئَتْ ذِمَّتُك؛ لأنك لا تعلم، والله تَعَالَى يعلم.

وأنا أذْكُر قصَّةً فِي هَذا، يقول ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كتابه (إعلام الموقعين): إن شيخ الإِسْلام ابن تَيْمِيَّةَ قال: «كان يُشكِل عليَّ أحيانًا حال من أُصلِّي عليه الجنائز، هل هُو مؤمِنٌ أو منافِقٌ؟ فرأيْتُ رَسول الله ﷺ في المنام فسألتُه عن مسائلَ عدِيدَةٍ، منْها هَذه المسْألَة، فقَال: يا أحمدُ، الشَّرطَ الشَّرطَ. أو قال: علِّقِ الدعاءَ بالشَّرطِ»[2].

وأحمدُ هو ابن تَيْمِيَّةَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ٣٠٠) ط دار الكتب العلمية.

فإنْ قالَ قائلٌ: وهل يجوز الشَّرط فِي الدُّعاء؟

فالجَواب: نعم، يجوز الشَّرط فِي الدُّعاء، أليس الله تَعالَى قالَ فِي آية اللِّعان: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النور:٧] وهي تقول: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور:٩] وهذا دعاء معلَّق. وفي الاستخارة: «اللهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَم أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاقْدُرْهُ لِي...»[1]. وهذا دعاء معلَّق.

إذن ذكرنا لهذه الرؤية شاهدًا من القُرْآن ومن السنَّة:

والتَّعليق جائز حتَّى فِي العِبادَات؛ فضُباعَةُ بنتُ الزُّبَيْرِ جاءت تسأل الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تقول: إنها أرادت الحج وهي شاكية، قالَ لها الرَّسُول ﷺ: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي، وَقُولِي: اللهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي»[2]، وفي رواية: «فَإِنَّ لَكِ عَلَى رَبِّكِ مَا اسْتَثْنَيْتِ»[3].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ جمع: خازن، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلام من كلِّ آفةٍ؛ مثل المرض، والنَّصَب، والهَمِّ، والغمِّ، فأهل الجنَّة فِي سرورٍ دائمٍ، وفي نعيم، حتَّى الوَاحد الَّذِي يكونُ أدْنَى من غيرِه منزلةً لا يَرى أنَّ غيرَه أعْلَى منْه منزلةً؛ لأنَّه قدِ اطمأنَّ، قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨] أي: لا يطلبون تحولًا؛ لأنَّهم ناعمون مُنَعَّمون.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم (٦٣٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه، رقم (١٢٠٧).

(٣) أخرجه النسائي: كتاب مناسك الحج، باب كيف يقول إذا اشترط، رقم (٢٧٦٦).

قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ بعد التَّخليةِ: التَّحليةُ.

ونضْرِب مثلًا لتوْضِيح معْنَى التَّخلِيَة والتَّحلِيَة: زوَّجتُك عنْدَما تجمَّلُ لك فهي أولًا تُزيل الشَّعرَ من رأسها، فهَذَا يُسمَّى تخليةً، ثمَّ إنها تلبَسُ الحُليَّ، وهَذَا يُسمَّى تَحلِيَةً.

المهم أنَّهم يقولون بالأوَّل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهذا سلامٌ مِن كُلِّ الآفاتِ، ثمَّ يقولون: ﴿طِبۡتُمۡ﴾ وهذا يعني أنَّه يحصُل لهُم كلُّ ما يَطيب لقلُوبِهم.

قوله: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ أبدًا أم إِلَى أَمدٍ؟

الجَواب: أبدًا، كما جاءَ ذَلك فِي عدَّة آيَاتٍ.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر:٧٤].

قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ قَالُوا ذَلك حامِدينَ لله عَزَّوَجَلَّ الَّذِي صدَقَنا وعْدَه؛ وعدنا الجنَّة فحصلت ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُ﴾ والأرْضُ قِيل: إنَّها أرضُ الدُّنيا؛ لأنَّ الله تَعالَى نصَرهم، وأوْرثهم أرْضَ المشْرِكينَ وديارِهِم وأمْوَالهم، وقِيل: المرادُ أرْضُ الجنَّة، والأوَّل أصحُّ، أوْرَثهم الله أرْضَ الدُّنيا، فكانَت لهم، وجعلَهم يتبوَّؤُون مِن الجنَّة حيثُ يشاؤُونَ، فكلُّ واحدٍ يذهب إِلَى الثَّاني لزيارَتِه في أُنسٍ وسُرورٍ وحُبور.

قولُه: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ هَذَا ثناء عَلَى هَذَا الأجرِ الَّذِي حصلَ لهم، وهل هُوَ من الله، أم هم يَقولُونَ ذَلك إقرارًا به؟ يَحتمِل هَذَا وهذا، والآيَةُ صالحةٌ للجَميعِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

قولُه: ﴿وَتَرَى﴾ الخِطابُ هُنا هَل هُو للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أو للأُمَّة؟

نقولُ: هذا الخطابَ لَيْسَ فِيه ما يدلُّ عَلَى أَنَّه خاصٌّ بالنَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو عَلَى أَنَّه عامٌّ.

واعلَمْ أن الخِطابَ الموجَّه بمِثْل هَذِهِ الصِّيغةِ يَنقسم إِلَى ثَلاثَةِ أَقسامٍ:

القِسْم الأوَّل: أن يكون فِي السياقِ ما يدلُّ عَلَى العُمومِ.

والقِسْم الثَّاني: أن يكون دليلًا عَلَى الخُصوصِ.

والقِسْم الثَّالث: أَلَّا يكونَ فيه دَلِيل عَلَى الخُصوص أو عَلَى العُموم.

مثال الأول قول الله تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطَّلاق:١]، فهنا وجَّه الخطابَ أوَّلًا إِلَى الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم، ثمَّ قال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، والخطابُ هنا للعُمُوم، بدَلِيل الجَمْع، وعلى هَذَا فيكُون الخِطابُ الموجَّه للرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ له وللأُمَّة بالنصِّ.

والثَّاني: أن يكونَ هُناك دلِيلٌ عَلَى الخُصوصِ، فهُنا يختصُّ الحُكْم بالرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم، ومثالُه قوله تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧]، ومثل قوله تَعالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢] إِلَى آخِر السُّورة. فهذا يختصُّ بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

القِسْم الثَّالث: ما يكونُ لا دليلَ فِيه للخُصوصِ أو العُموم، مثل قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل:١٢٥] هل الخِطابُ موجَّه للرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وحده أو لكل من يصِحُّ خِطابُه؟

عَلَى قولينِ. واعْلَم أنَّ الخلافَ شبيهٌ باللَّفْظي فِي هَذِهِ المسْأَلَة؛ لأنَّ الَّذِينَ يقولون: إنه خاص بالرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقولون: إن أُمته يَشمَلها الحكمُ باعتبار الأُسوة؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١].

فإذا قالَ قائل: ما الأصْلُ: الخُصوصية أمِ العمومُ؟

قلنا: الأصلُ: العُمومُ، ولهذا لما أراد الله عَزَّوَجَلَّ الخصوصيَّة نصَّ عليها فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأحزاب:٥٠].

والدَّليل عَلَى الخُصوص قولُه: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ ﴾ يعني أباحَ اللهُ له أن يتزوَّج بالهِبَة.

إذن هَذَا يدل عَلَى أنَّه إذا لم يدلَّ دليل عَلَى أن الحُكمَ خاصٌّ بالرَّسُول وجبَ التعميمُ، وخذها قاعدة: كل حُكم ثَبَتَ للرَّسُولِ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم فهو ثابتٌ للأُمَّة إلَّا بدليلٍ.

قوله: ﴿حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ يعْنِي بذَلِك عرش الرَّحْمن جَلَّوَعَلَا؛ ذُلًّا لله عَزَّوَجَلَّ وتعظِيمًا له.

قولُه: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يعْني: يُنزِّهون اللهَ عَن كلِّ ما لا يَليقُ به. وسبَق أن التَّنزيهَ يكُون فِي أمورٍ ثلاثَةٍ.

قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: قُضِي بينَ الخلائقِ، وانْتَهى كلُّ شيءٍ؛ أهلُ النَّار فِي النَّار -والعِياذُ باللهِ- خالِدينَ مخلَّدينَ، وأهلُ الجنَّة فِي الجنَّة، خالِدينَ مخلَّدينَ.

اللَّهُمَّ إنا نسألك أن تجعلنا من الخَالدينَ فِي جنَّات النَّعيمِ.

قوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ مَن الَّذي يقولُ؟

كلٌّ يقولُ: الحمدُ لله ربِّ العَالمينَ؛ أهل الجنَّة والملائِكة.

وانظُرْ كيْف جاءَ الحمدُ فِي ابتداءِ الخلْق، وفي انتهاءِ الخلْقِ، ففِي ابتداءِ الخلْق قالَ الله تَعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، وفي النهاية عند دخول أهل الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهل النَّارِ النَّارَ، قال: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

وواللهِ إن الحمدَ للهِ أوَّلًا وآخِرًا، وهو ذو الثَّناءِ والمَجد، ولا نُحصي ثناءً عليه سبحانه، هُوَ كما أثنى عَلَى نفسِه.

والحَمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصَّالحَاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلم على نَبيِّنا محُمَّدٍ وعلى آلِه وصَحْبِه.



الدَّرس الثَّامن:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبيِّين، وإمَام المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

النَّفخُ في الصُّور:

قوله تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ﴾، الصُّورُ: شَيْءٌ يُشبِه القَرنَ، وَهُوَ وَاسعٌ جدًّا، يَنفخ فِيهِ إسْرافيلُ، فيَحدُثُ مِنْهُ صوتٌ عظيمٌ يفزَعُ مِنْهُ أهلُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ إلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَصْعقُونَ؛ أَيْ يَمُوتُونَ، ثُمَّ يُنفخُ فِيهِ مَرَّةً أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قيامٌ يَنْظُرُون؛ أَيْ يقومون مِنْ قبورِهم ينظرُون مَاذا حدَث.

والَّذِي يَنفُخُ فِي الصُّورِ أحدُ الملائكة العظامِ؛ وَهُوَ إِسرافيلُ، وَهُوَ أحدُ الملائكةِ الَّذِينَ يَذْكُرُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي دُعَاءِ افتتاحِ صَلَاة اللَّيلِ؛ فَإِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يفتتحُ صَلَاةَ اللَّيلِ بِهَذَا الدُّعاءِ «اللهُمَّ رَبَّ جِبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١).

وذكرَ هَؤُلَاءِ الملائكةَ الثَّلاثَ؛ لأَنَّ كُلَّ ملكٍ منهم موكَّلٌ بِمَا فِيهِ حياةٌ، ولكنَّها

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة اللَّيل وقيامه، رقم (١٢٩٥).

حياةٌ من نوعٍ غيرِ النَّوْعِ الَّذِي وُكِّل بِهِ الملكُ الآخر؛ فجِبريلُ مُوَكَّل بالوحيِ، وبالوحيِ حياةُ القُلوبِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فسَمَّى اللهُ القُرْآنَ رُوحًا؛ لأَنَّهُ تَحْيَا بِهِ القُلوبُ.

وإِسرافيلُ مُوَكَّلٌ بما فِيهِ الحياةُ؛ وَهُوَ الصُّورُ، فَإِنَّهُ يَنْفُخُ فيه، فتَخرج مِنْهُ الأَرْوَاحُ، وتَحُلُّ فِي أجسادِها حلولًا أبديًّا لَا مفارقةَ بعدَهُ؛ لأَنَّ الرُّوحَ فِي الدُّنْيَا حَالَّةٌ فِي البدنِ لكنَّها تُفارقه، أَمَّا إِذَا نُفِخ فِي الصُّورِ، فإِنَّها تَحُلُّ فِي البدنِ حُلُولًا لَا مفارقةَ بَعْدَهُ.

وميكائيلُ؛ مُوكَّلٌ بِمَا فِيهِ الحياةُ مُوكَّل بالقَطْرِ؛ أَيِ بالمطرِ، وَفِيهِ حياةُ الأَرْض بَعْدَ موتِها، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، فيَصعق مَن فِي السَّمَاوَاتِ، ومَن فِي الأَرْض عِنْدَ هَذَا النَّفخ فِي الصُّورِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ، وَهَذَا الاسْتثناءُ الَّذِي استثناهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الصَّعق يدخلُ فِيهِ الحُورُ اللَّاتِي فِي الجنَّةِ، فإِنَّهُنَّ خُلِقن للبقاءِ، ويدخلُ فِي ذَلِكَ أَيْضًا ولدانُ أهلِ الجنَّة؛ فإِنَّهُم خُلِقوا للبقاءِ؛ لأَنَّ الجنَّةَ بِمَا فِيهَا خُلِقت للبقاءِ لَا تَفْنَى أبدًا، وكلُّ مَا يدخُلها بَعْدَ البعثِ فَإِنَّهُ لَا يَفْنَى أبدًا يَكُونُ خَالدًا فِيهَا مخلدًا أبدَ الآبدينَ.

قولُه تعَالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾؛ وَهِيَ النفخةُ الثَّانيةُ.

قولُه تعَالَى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، ﴿هُمْ﴾؛ أَيِ المبعوثونَ ﴿قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، تَدْخُلُ أرواحُهم فِي أجسادِهم، ويقومُون مِنْ قُبورهم لربِّ العَالَمينَ، فهَذِهِ قدرةُ اللهِ العظيمة، نفخةٌ وَاحدة يَصعق فِيهَا من فِي السَّمَاوَات ومن فِي الأَرْض

إِلَّا من شَاءَ الله، ثُمَّ نفخةٌ أُخْرَى يَحيا فِيهَا الأمواتُ ويقومون من قبورهم بلحظة وَاحدة، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازعات:١٣-١٤].

فخَلْقُنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا يتطور، فيمْكُث الإِنْسَان فِي بطنِ أمِّه تسعةَ أشهُر، أَوْ أدنى، أَوْ أكثر، فَإِذَا نُفخ فِي الصُّور، فَإِنَّهُ بلحظةٍ وَاحدةٍ تقومُ الخلائق كلها أحياءً، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وَبِهَذَا يتبينُ تمام قدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأَنَّه إِذَا أرادَ شيئًا، فإِنَّما يَقُول لَهُ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠] وَاحدةٌ بدونِ تكرار، وبدون تأخيرٍ كلمحِ البصرِ.

فلَا يُوجد شَيْءٌ أسرعُ من لمحِ البصرِ، فأَمْرُ اللهِ مَهْمَا كَانَ المأْمُورُ مِنَ العظمةِ وَالكثرةِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَرَّةً وَاحدةً، وَالأمرُ الَّذِي يُوجِّهه اللهُ للخلائقِ يُوجِّهُه اللهُ تَعَالَى إِلَى مَن لَهُ عقلٌ وإِدراكٌ، وإِلَى مَن لَا عقلَ لَهُ وَلَا إِدراكٌ لَكِنَّهُ يَستجيبُ لأمرِ اللهِ، كَمَا فِي قولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١]، ففَهِمتَا الخطاب، فقالَتَا: أَتينا طَائِعِينَ، وَامتثلَتا لأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

أَمَّا النَّارُ الَّتِي أُوقدت لإِبراهيمَ فَقَالَ اللهُ لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فكانَتْ بَرْدًا وسلامًا.

والقلمُ الَّذِي كتبَ اللهُ بِهِ مقاديرَ الخلقِ خَلَقَهُ اللهُ، فَقَالَ له: اكتبْ. قَالَ: ربِّ وماذَا أكتبُ؟ قَالَ: اكتُبْ مَا هُوَ كَائنٌ، فجرَى فِي تلكَ السَّاعةِ بِمَا هُوَ كَائنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ[1]، فالمخلوقاتُ وَلَوْ كَانَتْ جمادًا تَعِي أمرَ اللهِ، وتمتثلُه، وتُطيعه عَزَّوَجَلَّ،

(١) أخرجه أحمد (١٧/ ٢٢٧ رقم ١١١٤٣).

وَيَكُونُ ذَلِكَ فوريًّا بدونِ تأخيرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر:٦٩].

قولُه تَعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾؛ يَعْنِي ضياءً بنورِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإِنَّ اللهَ تَعَالَى يأتِي يَوْم القِيامَة للقضاءِ بينَ عِبادِه؛ ليقضيَ للمظلومِ مِنَ الظَّالمِ؛ وليقيمَ العدلَ بينَ العِبادِ؛ ولتظهرَ فِيهِ آثارُ الثَّوابِ وَالعقابِ.

كُتُب الأعمالِ:

قولُه تَعَالَى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، المرادُ بالكتابِ هُوَ صحائفُ الأعمالِ، فإِنَّ لكلِّ وَاحدٍ مِنَّا كِتَابًا يلقاهُ يَوْمَ القِيامَة منشورًا، ويُقالُ لَهُ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، ويُكْتَبُ فِي هَذَا الكتابِ الحَسناتُ وَالسيِّئاتُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ تُكْتَبُ الأعمالُ الَّتِي لَيْسَتْ حَسَنَةً وَلَا سيئةً؟

قُلْنَا: اخْتلفَ العُلَماءُ فِي ذَلِكَ، فمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّها تُكْتَبُ، ومِنْهُمْ مَن قَالَ: إِنَّها لَا تُكْتَبُ؛ لِأَنَّهُ لَا يتعلَّقُ بِهَا ثوابٌ وَلَا جزاءٌ، ولقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ ق: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]؛ فأيُّ قولٍ يلفظ بِهِ الإِنْسَان فإِنَّ لديه رقيبًا مراقبًا، عتيدًا حَاضرًا لَا يُفارقه، يكتب كُلَّ مَا يلفظ به.

وظاهرُ الآيةِ الكَرِيمةِ أَنَّهُ يكتبُ كُلَّ قولٍ حسنًا كَانَ أم سيئًا، أَوِ الأَقْوَال الَّتِي لَا حسنةٌ وَلَا سيئةٌ، وَلِهَذَا دخل رجلٌ من أَصْحَابِ الإِمَامِ أحمدَ عَلَيْهِ وَهُوَ مريضٌ يَئِنُّ من مرضِه، فَقَالَ له: يَا أبا عبدِ اللهِ إِنَّ طاووسًا؛ وَهُوَ أحدُ كبارِ التَّابعين يَقُولُ: إِنَّ

الملكَ يكتبُ أنينَ المريضِ، فأمسكَ الإِمَامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَنِ الأنينِ؛ خشيةَ أَنْ يُكتبَ عَلَيْهِ.

فَلَوْ أَنَّنا أحصينا أَقْوَالَنَا لوجدْنَا أَقْوَالًا كثيرةً لغوًا لَا فائدةَ منها، بَلْ لوجدنا أَقْوَالًا كثيرةً كلها آثامٌ وكلها مما يَكْتَسِبُ بِهِ الإِنْسَانُ جرمًا يَنْقُص من حسناتِه، ويَنْقُص من إِيمانِه؛ لأَنَّ المعاصي تُوجب نقصَ الإِيمانِ.

فاللَّغْوُ مِنَ القَوْل الَّذِي لَيْسَ مِنَ الحسَناتِ وَلَا مِنَ السيِّئاتِ، لا بُدَّ أَنْ يُكْتَبَ عَلَى المرء؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[1]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإِنْسَان لَا يَقُولُ إِلَّا خيرًا وإِلا فليصمتْ.

والخيرُ فِي الكَلَام قَدْ يَكُون خيرًا لذاتِه، كَالأمرِ بالمعروفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المنكرِ، وَالذكر، وقِرَاءَة القُرْآن.

والكَلَام الَّذِي لَيْسَ مِنَ الحسَنات ولكن يقصد بِهِ إِدخالُ السرور عَلَى الجليس وتأنيسه وتأليفه يَكُون خيرًا لغيره، فقد يتكلم الإِنْسَان بكَلَام هُوَ فِي نفسه لَيْسَ مِنَ الحسَنات، لَكِنْ يَقصد بِهِ إِدخالَ السرور عَلَى جليسه وإِيناسَه وتأليفَ قلبه، فيَكُون خيرًا من هَذِهِ النَّاحية.

قولُه تَعَالَى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ يأتِ بهم اللهُ، وحُذِف الفَاعلُ للعِلمِ به، فإِنَّ الفَاعلَ يُحْذَف لأَسْبَابٍ متعددةٍ، منها أنْ يَكُونَ معلومًا، كَمَا فِي قولِه تَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّساء:٢٨]، فحُذِف الفَاعلُ للعلم به؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٥٥٨٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٧٠).

لِأَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، فقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، فالجائي بهم هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فيأتي بالنَّبِيِّينَ وَالشُّهداءِ.

أَمَّا النَّبيون؛ فإنَّهُمُ الرُّسُلُ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ- يُؤتى بهم ليشهدوا عَلَى أممهم بأنَّهم بَلَغَتْهُمُ الحجةُ وقامت عليهم، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، فالنَّبيون يَشهدونَ عَلَى الأُمَمِ بأنَّهم بُلِّغُوا، وقَامتْ عَلَيْهِمُ الحجةُ، وَالشُّهداءُ هم العُلَماء؛ لأَنَّ العُلَماء يَشهدونَ عَلَى الأممِ بِأَنَّ الرُّسُل بلغتهم، ويشهدون للرُّسل بأَنَّهم بَلَّغُوا الرِّسالَةَ، وَلهَذَا نقول: أعلمُ النَّاس بحال الرُّسُل همُ العُلَماء الَّذِينَ هم ورثة الأَنْبِياءِ.

قولُه تَعَالَى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾؛ أَيْ بالعدل، وَالقاضي بين العِبادِ هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فَهُوَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقضي بين العِبَادِ بالعدلِ؛ هَذَا باعتبارِ مَا بين العِبَاد مِنَ الحقوقِ، ويقضي بين العِبَادِ بالفضل؛ وَهَذَا باعتبارِ مَا بينه وبينَ عِبَاده، فإنَّ اللهَ تَعَالَى يَجزي المحسنَ الحسنةَ بعشرِ أمثالها، إِلَى سبعِ مِئَة ضعفٍ، إِلَى أضعافٍ كثيرة، ويَجزي المُسيءَ، إِمَّا بمثل إِساءَته، وإِمَّا بالعفو عنه، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨]، فَفِي حقوق العِبَاد يَكُونُ القضاءُ بالعدل، فلا بُدَّ أَنْ يؤخذَ للمظلوم مِنَ الظَّالم.

وَلهَذَا جَاء فِي الحَديث الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: **«أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ»** **«قَالُوا المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ»** فقال النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ**

هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1]، هَذَا هُوَ المفلسُ يأتي بالحسناتِ يَوْم القِيَامَة فإِذَا بِهَا قَدْ أُخِذَت لمن ظلمه فِي الدُّنْيَا.

أَمَّا بالنِّسبة لحقوقِ الله؛ فَإِنَّهُ يَقْضِي بين الخلقِ بالفضلِ وبالعدلِ، إِنَّ عذَّب المسيءَ فقد عدلَ، وإِنْ أنعم عَلَيْهِ بالعفوِ وأثاب المحسنَ، فإِنَّما ذَلِكَ بالفضل؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وَهُوَ الدَّائرُ بين الفضلِ وبينَ العدلِ.

قولُه تَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

لا يُمكن أبدًا أَنْ يُظْلَم أحدٌ فِي جزائه، بَلْ يُعطى جزاءَه كَاملًا، إِمَّا عدلًا وإِمَّا فضلًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر:٧٠].

قَوْلُهُ: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾؛ يَعْنِي أُعْطِيتْ، وَالموفِّي لها هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ المرادُ النَّفسُ الَّتِي تُوَفَّى وتُحاسب، وَأَمَّا البهائمُ وَالوحوش وَمَا أشبهَ ذَلِكَ ممن لَا حساب عَلَيْهِ، فإِنها لَا تُعطى شيئًا من جزاءِ العَمَل، بَلْ تكونُ ترابًا وتضمحلُّ.

قولُه تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ فاللهُ أعلم مِنْ كُلِّ أحد بِمَا يفعل الخلقُ.

وقد ذهبَ بعضُ المفسرين فِي تفسيرِ قولِه تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾، أَيْ وَهُوَ عَالمٌ، فيُحوِّل اسمَ التَّفضيل إِلَى اسمِ الفَاعِل، وعلةُ ذَلِكَ أَنَّ القَاعِدة فِي اسم التفضيل

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

أَنَّ المُفَضَّل وَالمُفَضَّل عَلَيْهِ يشتركان فِي أصلِ المَعْنَى، ويختلفُ المَفضَّل بالزيادة، وَلَا يمكنُ أَنْ يشترِكَ الخَالقُ وَالمخلوق فِي أَصْلِ المعنَى.

وهَذَا خطأٌ؛ لأَنَّ عَالِم اسمُ فاعلٍ، ويَشترِكُ فِيهَا كُلُّ مَن اتَّصف بالعِلْم، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ إِذَا قيل: فلانٌ أعلمُ من فلانٍ كَانَ أبلغَ فِي الثَّناء عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ: فلانٌ عَالم وفلانٌ عَالم، فاسمُ التفضيل -إِذن- عَلَى بابه وَهُوَ أدلُّ عَلَى الكَمال من اسم الفَاعل؛ فاللهُ تَعَالَى أعلمُ مِنْ كُلِّ أحدٍ بِمَا يفعلُ العِبَادُ، فيُجازِيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حسَبَ مَا يقتضيه العدلُ أَوِ الفَضْلُ.



الدَّرس التَّاسع:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبيِّين، وإِمَام المُتَّقين، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إِلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

(نفخَ) هنا مَبنيٌّ لما لَم يُسمَّ فاعلُه، وانتبهْ أيها النحويُّ فلا تقلْ: مَبنيٌّ للمجْهُولِ، بلْ قلْ: مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعلُهُ؛ لأنكَ إذا قلتَ: مبنيٌّ للمجْهُولِ انْتُقِضَ عليكَ بقولِهِ تَعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّساء:٢٨] فإن خلقَ هُنا فعلٌ مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعلُه، وهلْ فاعلُهُ معلومٌ؟

الجوابُ: نعمْ وهوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ. إذنْ فالتعبيرُ السليمُ أن تقولَ بدلَ (فعلٍ مبنيٍّ للمجْهُولِ): (فعلٌ مبنيٌّ لما لم يسمَّ فاعلُه).

قولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النَّافخُ هوَ ملَكٌ مِن ملائكةِ اللهِ، وهوَ إسرافيلُ، يأمرهُ اللهُ تعالى أن ينفخَ فِي الصُّورِ.

قولُه: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ﴾ أي هلَكَ، فصعقوا أي هَلكُوا؛ كما قالَ تَعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات:٤٤]. فصَعِقَ النَّاسُ الَّذينَ في السَّماءِ والَّذينَ في الأرضِ إلا منْ شاءَ اللهُ، فمنِ الَّذينَ استثناهمُ اللهُ؟

أَحسنُ ما قيلَ في ذلكَ أن نقولَ: اللهُ أعلمُ، وقالَ بعضُهم: إنهمُ الشُّهداءُ؛ لأن

الشُّهداءَ أحياءٌ عندَ اللهِ؛ كما قالَ تَعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

وذكرُوا في هذا حديثًا عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلمَ[1]، فإن صحَّ الحديثُ فلا مجالَ للقولِ في مخالفتِه، وإن لم يصحَّ فحسبُنا أن نقولَ: استثناءٌ أبهمَهُ اللهُ، فلا نعلمُ من المستثنى، وكفَى بنا أدبًا ودينًا واتباعًا أن نسكتَ عما أبهمَهُ اللهُ ورَسولُه.

قولُه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ النفخة الثَّانية ﴿فَإِذَا هُم قِيَامٌ﴾ قيامٌ منَ الأجداثِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي منَ القبورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١].

وذلكَ أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ كما جاءَ في الآثارِ يُنزلُ مطرًا غليظًا كمنيِّ الرِّجالِ، واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فتنبتُ الأجسامُ في القبورِ[2]، لكن بلا أرواحٍ، ثم إذا نفخَ في الصورِ تطايرتِ الأرواحُ منهُ وحَلَّتْ كلُّ روحٍ بجسدِهَا الَّذي كانتْ تعمرُهُ في الدنيَا، فلا تخطئُه قيدَ شعرةٍ، تعالى اللهُ! فلا تَزلُ روحٌ عَن جسدِها.

قولُه: ﴿يَنظُرُونَ﴾ ينظرونَ ماذا حدثَ، وإلى أي شيءٍ يَذهبونَ.

فعندنَا الآنَ نفختانِ في هذهِ الآيةِ: الأولى: نفخةُ الصعقِ، والثَّانيةُ: نفخةُ القيامِ للهِ ربِّ العَالمينَ، وهناكَ نفخةٌ أخرَى ذُكرتْ في سورةِ النملِ في قولِه تعالى في سورةِ النملِ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل:٨٧].

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في المسند (١/ ٨٤، رقم ١٠).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ١٩١، رقم ٣٨٧٩٢).

فهلْ هناكَ ثلاثُ نفخاتٍ أو نفختانِ؟ في حديثِ الصورِ الطويلِ [١] الَّذي فيهِ نكارةٌ وجهالةٌ لبعضِ رواتِه، وساقَهُ ابنُ كثيرٍ [٢] في صفةِ القيامِ على قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام:٧٣] أن النفخاتِ ثلاثٌ، فهناكَ نفخةُ فزعٍ، يفزعُ النَّاسُ ويَلحقُهُم مِنَ الفزعِ والخوفِ ما ذَكرَهُ اللهُ في قولِه: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[الحج:١-٢].

وقالَ بعضُ أهلِ العلمِ: بلْ هما نفختانِ، النفخةُ الأولى فيها الفزعُ والصعقُ، أي أن النَّاسَ يفزعونَ و ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾، ويمتدُّ النفخُ حتى يَصعقَهم ويُهلكَهم. والمسْألَةُ تحتاجُ إلى تحريرٍ ليسَ هذا موضِعُه.

قولُه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أشرقتِ الأرْضُ يعني استنارتْ بنورِ الربِّ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾[الفرقان:٢٥] لمجيءِ الربِّ جَلَّوَعَلَا للفصلِ بينَ عبادِهِ.

قولُه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وهو كتابُ الأعمالِ. وعلى هذا فـ(أل) هنَا للعمومِ، أي وُضعتِ الكتبُ الَّتي كتبتْ فيها أعمالُ العبادِ.

قولُه: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ جيءَ بالنَّبيينَ مِن أجلِ أن يَستشهدُوا على

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في المسند (١/ ٨٤، رقم ١٠).
(٢) تفسير القُرآن العظيم (٣/ ٢٨٢).

أُممِهم بأنهمْ بلغُوا الرِّسالَةَ، فيشهدُ الرُّسلُ على أممِهِم أن الرِّسالَةَ بلغَتْهُم واضحةً بينةً، لا حجةَ فيها لأحدٍ.

والشُّهداءُ هنا همُ العُلماءُ، ليسَ الَّذينَ قُتلوا في سبيلِ اللهِ؛ لأن المقامَ هنا مقامُ إقامةِ حجةٍ بتبليغِ الرُّسلِ، وأعلمُ النَّاسِ بتبليغِ الرُّسلِ للأممِ ورثَتُهم، وهمُ العُلماءُ، فيؤتَى بالشُّهداءِ -وهمُ العُلماءُ- فيشهدونَ أن الرُّسلَ بلغُوا البلاغَ المبينَ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ أعلمُ بذلكَ كلِّه، لكنْ مِن أجلِ إقامةِ الحجةِ الظَّاهرةِ على الخلقِ؛ حتى لا يَبقَى عذرٌ للمعتذرِ.

قولُه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي فُصلَ بينهُم بالحقِّ، وهمْ لا يُظلمونَ مثقالَ حبةِ خردلٍ؛ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:١٧].

قولُه تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر:٧٠].

ثم قالَ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (ووُفيتْ) يعني: وفَّى اللهُ تعالى كلَّ نفسٍ ما عملتْ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

قولُه: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ما أحسنَ هذهِ العبارةَ بعدَ قولِه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾! لئلا يظنَّ الظَّانُّ أنهُ سَيخفى شيءٌ من أعمالِ الإنْسانِ، فلا يَخفى شيءٌ مِن أعمالِ الإنْسانِ، فكلُّ شيءٍ معلومٌ عندَ اللهِ مُدونٌ لا يُزادُ فيهِ ولا يُنقصُ.

قولُه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ

يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٧١].

قولُه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ سِيقُوا إلى جهنم سياقَ إهانةٍ؛ كما قالَ تَعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، يَدفعُونَهم دفعًا، وهمْ معَ ذلكَ أيضًا يَلِجُونَ على جهنمَ -والعياذُ باللهِ- عطاشًا في أشدِّ ما يكونونَ حاجةً للماءِ؛ لأن جهنمَ تمثلُ لهمْ كالسَّرابِ يحسَبُهُ الظمآنُ ماءً وليسَ بماءٍ، فيَلِجُونَ إليها بشدةٍ وشوقٍ، فإذا بلغُوها فإذا هيَ النَّارُ، ولكنَّهمْ لو توقفُوا فإنهم يُدَعُّونَ دَعًّا ويُلقَونَ فيها إلقاءً.

مثالُ ذلكَ: لو كنتَ في سطحٍ وألقيتَ النَّاسَ منَ السطحِ فهذا إهانةٌ لا شكَّ وليسَ إكرامًا.

وكلما أُلقيَ فيها فوجٌ فإنهم يُدفعونَ دفعًا ويُلقونَ في النَّارِ إلقاءً ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك:٨].

قالَ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ وهذهِ الزُّمرُ ليستْ فوضويةً، ولكن كلُّ أحدٍ معَ جنسِه وصنفِه، والدَّليلُ قولُه تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصَّافات:٢٢-٢٣].

قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾، وهنا فرقٌ بينَ هؤلاءِ وبينَ المتَّقينَ؛ فقد قالَ في المتَّقينَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾، وفي الَّذينَ كفرُوا قالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ يعني حِينَما يأتونَ تُفتحُ الأبوابُ ويفاجِئُهمُ العذابُ والعياذُ باللهِ.

قولُه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ مُقرِّعينَ ومُوبخينَ ومُندِّمينَ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ

مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ رسلٌ منكمْ أي مِن جنسِكم، بشرٌ مرسَلٌ إلى بشرٍ.

ولما اقترحَ المعاندونَ المكذبونَ أن يكونَ الرَّسُولُ مَلَكًا قالَ اللهُ فِيهم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي بصورةِ رجلٍ؛ إذ لا يُمكنُ أن يتفقَ الملَكُ بصورتِه الَّتي هوَ عليها معَ البشرِ، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ وحينئذٍ تأتي المشكلةُ ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

إذنْ يقولُ لهم خزنةُ النَّارَ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أيْ مِن جنسِكُم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ ما قَصَّرُوا ولا اختفَوا، بل يعلنونَ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويتلونَها عليهمْ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ أي يخوفونكُم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾. فكان جوابُ الكافِرينَ الإقرارَ وليسَ الإنكارَ: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾.

وهذا كقولِهِ في سورةِ المُلكِ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٨-٩]، لكنَّهم في الآخرةِ يقولونَ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠-١١].

فيا أخِي، إياكَ أن تكونَ مِن هؤلاءِ، وإياكَ أن تعترفَ بذنبِكَ حينَ لا ينفعُ الاعترافُ، فالاعترافُ بالذنبِ الآنَ ينفعُ، وتُقبلُ التَّوبةُ، لكنْ يومُ القِيامَةِ لا ينفعُ الاعتذارُ.

هنا يقولُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي وجبت كلمةُ العذابِ، وهيَ أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعدَ الكافِرينَ بالنَّارِ، وهؤلاءِ كفرُوا باللهِ

فحقَّتْ عليهمُ الكلمةُ كما قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

فكانَ جوابُ خزنةِ النَّارِ: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، وقولُه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ﴾ ربما يكونُ القائلُ خزنةَ النَّارِ، وربما يكون كل الكونِ، قال ذلكَ لأن كلَّ الكونِ يشهدُ بأن أهلَ النَّارِ أهلٌ للنارِ مستحقونَ لها.

ولكنِ الظَّاهرُ أن القائلَ همُ الخزنةُ.

فإن قيلَ: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ خالدينَ أبدًا أم إلى أمدٍ؟

قلنَا: أبدًا، ودليلُ ذلكَ في القُرآنِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾، نقولُ ذلكَ بقولِ ربنَا، لا بقولِ فلانٍ وفلانٍ، وفي القُرآنِ الكريمِ ذكرُ التأبيدِ في ثلاثةِ مواضعَ:

الموضعُ الأولُ في سورةِ الجنِّ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

الموضعُ الثَّاني في سورةِ الأحزابِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

الموضعُ الثَّالثُ في سورةِ النِّساءِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [النِّساء:١٦٨-١٦٩].

فهذهِ ثلاثُ آياتٍ أخبرَ اللهُ تعالى فيهَا بتأبيدِ خلودِهم، أفبعدَ هذا يمكنُ لقائلٍ أن يقولَ: إن خُلودَ أهلِ النَّارِ غيرُ مؤبدٍ!

ولهذا كتبَ المصنِّفونَ في عقائدِ السَّلفِ أن الجنةَ والنَّارَ موجودتانِ الآنَ، وأنهما مؤبدتانِ، لا تفنيانِ، وهذهِ عقيدةٌ يجبُ على الإِنْسانِ أن يعتقدَها، وليستْ منْ رأيِ فلانٍ وفلانٍ، فهيَ مِن ربِّ العَالمينَ، ولا يُمكنُ أن يقولَ قائلٌ: إن الخلودَ في النَّارِ غيرُ مؤبدٍ واللهُ يقولُ في ثلاثِ آياتٍ منَ القُرآنِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

إذنْ يجبُ أن نعتقدَ بأن هؤلاءِ خالدونَ في النَّارِ أبدًا؛ كما قالَ ربُّنا عَزَّوَجَلَّ، ولسنَا أرحمَ مِنَ اللهِ بعبادِهِ، ومَن أصدقُ منَ اللهِ قيلًا، فليسَ هناكَ مَن هوَ أصدقُ منَ اللهِ قيلًا.

فإذا قالَ قائلٌ: كيفَ يُؤبدونَ دائما بالعذابِ؟

قلنَا: نعمْ، ألم يُبلَّغوا بذلكَ في الدنيَا أنهمْ إذا كفرُوا عُذِّبُوا بعذابٍ خالدٍ؟ بلى، إذنْ همُ الَّذينَ جَنَوا على أنفسِهم، والربُّ عَزَّوَجَلَّ ما أَبقَى لأحدٍ عذرًا ولا حجةً، فبيَّنَ كلَّ شيءٍ، فإذا اختارُوا لأنفسِهِمُ الكفرَ فقدِ اختارُوا لأنفسِهِمُ العذابَ الدَّائمَ المؤبدَ، ولم يَظلمِ اللهُ أحدًا شيئًا.

ثم قالَ في آخِرِ الآيةِ: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾، وهذا قَدحٌ في مثوَى هؤلاءِ المتكبرينَ؛ لأن الكَافِرَ مُتكبرٌ؛ إذ لو كانَ مُستَذلًّا مُستَصغرًا لآمَنَ بربِّه، لكنَّهُ مستكبرٌ.

وفي قولِه: ﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ إشارةٌ إلى ما سبقَ أن نبهنَا عليهِ مِن أنهُ توجدُ في الصحفِ وعلى ألسنةِ بعضِ النَّاسِ كلمةٌ وهيَ خطأٌ؛ حيثُ نقرأُ في الصحفِ في بعضِ الأحيانِ: «فلانٌ انتقلَ إلى مثواهُ الأخيرِ»، يعني القبرَ، وهذا غلطٌ عظيمٌ، وهذا لو اعتقدَ الإِنْسانُ معنَاهُ لكانَ كافرًا؛ لأنهُ إذا اعتقدَ أن القبرَ هوَ المثوى

الأخيرُ فهذا يتضمنُ إنكارَ البعثِ، وهوَ خطيرٌ جدًّا، لكن معَ الأسفِ أن بعضَ النَّاسِ يأخذُ الكلامَ على عِلاتِه، ولا يتدبرُ فيهِ ولا يتأملُ، وكلُّ إنْسانٍ مسلمٍ -والحمدُ للهِ- لا يمكنُ أن يُقرَّ بهذا، أي لا يُمكنُ أن يعتقدَ أن القبرَ هوَ المثوَى الأخيرُ، بل يؤمنُ بأن هناكَ بعثًا وراءَ هذا القبرِ، ولهذَا قالَ هُنا: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قولُه تَعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣]

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي أفواجًا، سِيقوا على وجهِ التَّكريمِ والتَّبجيلِ، والرفقِ والإكرامِ، وقولُه: ﴿ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي اتَّقَوا معاصيَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فقامُوا بما أوجبَ اللهُ عليهِمْ، وتركُوا ما حرمَ اللهُ عليهِمْ، وفقهوا في دينِ اللهِ، وأحسَنُوا في عبادةِ اللهِ، فهؤلاءِ المتقونَ، أسألُ اللهَ تعالى أن يجعلَني وإياكُم منهمْ، فهؤلاءِ يُساقونَ يومَ القِيامَةِ إلى الجنةِ سياقَ إكرامٍ وتبجيلٍ واحترامٍ؛ كما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم:٨٥].

قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾. المتأملُ يقولُ: في هذهِ الجملةِ فِعلُ الشَّرطِ وليسَ فيها جوابُ شرطٍ، قالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ فـ(إذا) أداةُ شرطٍ، وفعلُ الشَّرطِ (جاؤوها) عطفٌ عليهِ قولُه تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾، أيضًا عطفٌ على فعلِ الشَّرطِ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ مقولُ القولِ، فأينَ جوابُ الشَّرطِ؟

نقول لكَ جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، وحذفُ الجوابِ مِن أجلِ أن يَذهبَ الذهنُ كلَّ مذهبٍ في تقديرِهِ، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ، فنحنُ نعلمُ أنهم إذا جاؤوها وفُتحتْ أبوابُها، ورَحَّبَتْ بهمْ خزنةُ الجنةِ، وقالُوا لهمْ: طبتُم، أي طبتُم مقالا وفعالًا وثوابًا وأعمالًا، فادخلُوها خالدينَ؛ إذا كانَ ذلكَ فإنهُ سيحصلُ لهم منَ السَّعادةِ ما لا يخطرُ بالبالِ.

وعلى هذا فيكونُ جوابُ الشَّرطِ محذوفًا، والتقديرُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ حصلَ لهمْ منَ السَّعادةِ ما لا يخطرُ على البالِ.

ويشهدُ لهذا قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القُرآنِ الكريمِ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، لا تعلمُ نفسٌ ما أُخفيَ لها مِن قرةِ العينِ، أسألُ اللهَ أن يُقرَّ عيني وعينكُم بدُخولها.

وقالَ تعالى في الحديثِ القدسيِّ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1].

إذنْ -يا أخي المسلمُ- جوابُ (إذا) محذوفٌ، والتقديرُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ حصلَ لهمْ مِنَ السَّعادةِ ما لا يَخطُرُ على البالِ.

قولُه: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ للجنَّةِ ثمانيةُ أبوابٍ، ففِي حديثِ عُمرَ بنِ الخطابِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٢٤).

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسْبِغُ الوَضُوءَ» يعني يتوضأُ وُضوءًا كاملًا «ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ فِي الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ».

فكلُّ مَن كانَ أخصَّ في واحدٍ منْ هذهِ الأعمالِ كانَ دخولُه منَ البابِ الَّذي يكثرُ منهُ الفعلُ الَّذي هذَا البابُ لهُ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما حدَّثَ النَّبيُّ ﷺ بهذا الحديثِ: «يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلَى أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِها؟» يعني يُمكنُ أن الإِنسانَ يكونُ منَ الصَّائمينَ ويدخلُ مِن بابِ الصَّائمينَ، أو مِن أصْحَابِ الصدقةِ، يعني يدخلُ الإِنْسانُ من بابٍ واحدٍ، فهلْ يُدعَى أحدٌ مِن تلكَ الأبوابِ كلها: يا صائمُ أقبلْ، يا متصدقُ أقبلْ، يا مُصلِّي أقبلْ، يا مجاهدُ أقبلْ؟ فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»(٢).

إذنْ -يا إخوانُ- أبوابُ الجنةِ ثمانيةُ أبوابٍ، والنَّارُ لها سبعةُ أبوابٍ؛ لأن رحمةَ اللهِ أوسعُ مِن غضبِه، فأبوابُ عذابِه أقلُّ مِن أبوابِ رحمتِه وثوابِه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم (٢٣٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم (١٨٩٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة، وأعمال البر، رقم (١٠٢٧).

قولُه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ خالدينَ أبدَ الآبدينَ.

قولُه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٤-٧٥].

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ حمدُوا ربَّهم عَزَّوَجَلَّ الَّذي صدَقَهُم وعدَهُ، ونِعمَ الربُّ، فهوَ الصَّادقُ في وعدِه، الَّذي لا يُخلفُه عَزَّوَجَلَّ. وكانَ مِن ذكرِ الرَّسُولِ ﷺ على الصفَا والمروةِ أنهُ يقولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**»[1]. أنجزَ وعدَه يعني صدقَهُ فأنجزَهُ.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ فقدْ وعدَ اللهُ المتَّقينَ جناتِ النعيمِ ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ المرادُ هُنا إما أرضُ الجنةِ؛ لأن اللهَ أورثَ المتَّقينَ مكانَ المجرمينَ في الجنةِ، أوِ المرادُ أرضُ الدنيَا، يعني أورثَنَا الأرْضَ فنصرَنَا على أعدائِنَا لنتبوأَ منَ الجنةِ حيثُ نشاءُ؛ في ذلكَ قولانِ للعلماءِ.

قولُه: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾، وهـذا ثنـاءٌ في مقابـلِ: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

وانظرْ -يا أَخي- إلى الربِّ الكريمِ: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ جعلَ اللهُ تعالى ذلكَ جزاءً لعملِهم، معَ أن الذِي مَنَّ عليهِم بالعملِ هوَ اللهُ، فلهُ المنةُ أولا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النَّبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

وآخرًا، لكنَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِن حبِّه للكرمِ، وصفتُه الكرمُ، يجعلُ ثوابَ العَاملِ في منزلةِ الأجرِ، واستمعْ إلى قولِه تَعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢] سعيًا مشكورًا، والَّذي مَنَّ علينَا بالسعيِ هوَ اللهُ.

وانظرْ إلى قولِه تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرَّحمن:٦٠]، هل جزاءُ العملِ إلا الثوابُ، الإحسانُ الأولُ العملُ، والإحسانُ الثَّاني هوَ الثوابُ، ومعَ ذلكَ فالَّذي أحسنَ إلينَا بالعملِ الصَّالحِ هوَ اللهُ، لكن مِن كرمِهِ جعلنَا مستحقينَ بعملِنَا، ولهذا قالَ هنَا: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

فإنْ قالَ قائلٌ: أليسَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم قد قال: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»[1]؟ فكيفَ نجمعُ بينَ الآياتِ الدَّالةِ على أن الإِنْسانَ يُجازى بعملِه ثوابًا، وهوَ دخولُ الجنةِ، وبينَ هذا الحديثِ؟

يعني هذا حديثٌ يدلُّ على أن العملَ ما يُدخلُ الجنةَ، والآياتُ تدلُّ على أن العملَ يُدخلُ الجنةَ، فكيفَ نجمَعُ بينهُما؟ وانتبِهُوا إلى هذهِ المسْألَةِ حتى لا تعتقدَ أن نصوصَ الكتابِ والسنةِ تتناقضُ: كيفَ نجمعُ بينَ قولِه: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ» وبينَ قولِه تَعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وما أشبهَ ذلكَ؟

فالجوابُ: أولًا: يجبُ عليكَ -أيها الأخُ المسلمُ- أن تعلمَ أنهُ لا يمكنُ أن يقعَ التَّعارضُ بينَ الكتابِ بعضِه معَ بعضٍ، ولا يمكنُ أن يقعَ التَّعارضُ بينَ السنةِ بعضِها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٣)، ومسلم: كتاب صفة القِيامَة والجنة والنَّار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦).

معَ بعضٍ، فهذانِ شيئانِ، ولا يُمكنُ أن يتعارضَ الكتابُ معَ صحيحِ السنةِ، فهذهِ ثلاثةٌ.

فالتَّعارضُ في هذهِ الأمورِ امْحهُ مِن مُخيلَتِك، فلا يمكنُ أن يقعَ التَّعارضُ بينَ الكتابِ بعضِه معَ بعضٍ هذا واحدٌ، والثَّاني: لا يُمكنُ أن يقعَ التَّعارضُ بينَ السنةِ بعضِها معَ بعضٍ، والثَّالثُ: القُرآنُ معَ صحيحِ السنةِ. فهذا لا يمكنُ؛ لأن كلًّا مِن عندِ اللهِ، وقدْ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢].

فالكلُّ مِن عندِ اللهِ، فلا بدَّ أن يكونَ هناكَ جمعٌ، يعني لوْ وَردَ نصانِ ظاهرُهما التَّعارضُ فلا بدَّ أن يكونَ هناكَ جمعٌ يَنفي التَّعارضَ.

وهنا الجمعُ بينَ إثباتِ دخولِ الجنةِ بالعملِ، ونفيِ دخولِ الجنةِ بالعملِ أن يقالَ: العملُ سببٌ، وليسَ بعِوضٍ، والَّذي نفى أن يكونَ العملُ عوضًا أنهُ ما يمكنُ لأحدٍ أن يدخلَ الجنةَ عِوضا عن عملِه؛ لأنهُ لو قوبلَ العملُ بالثوابِ لم يكنِ العملُ شيئًا بالنِّسبَةِ للثوابِ؛ لأن نفسَ عملِ الإِنْسانِ العملُ الصَّالحُ مِن عندِ اللهِ، ولهذا قالَ بعضُ الشعراءِ[1]:

إذا كانَ شُكـري نعمةَ اللهِ نعـمةً ... علـيَّ لـهُ في مثلهـا يجـبُ الشـكرُ

فكيفَ بلوغُ الشـكرِ إلا بفضـلِهِ ... وإن طالتِ الأيامُ واتصلَ العمـرُ

فلو أن عملَنَا قوبلَ بنعمةٍ واحدةٍ مِن نعمِ اللهِ لاستغرقَتْهُ هذهِ النعمُ، فالآنَ كلُّنا -والحمدُ للهِ- يخرجُ منا النفَسُ بسهولةٍ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ قادرٌ على أن يجعلَ خروجَ

(١) قال ابن أبي الدُّنيا: أنشدني محمود الوراق. وذكره. الشكر لابن أبي الدُّنيا (ص:٣١، رقم٨٣).

النفَسِ صعبًا، ولو قوبلَ جميعُ عملِكَ بنعمةِ النفَسِ فقطْ لكانتْ نعمةُ النفَسِ أكثرَ مِن عملِكَ، فالنفَسُ نعمةٌ مستمرةٌ وأنتَ يقظانُ، أو نائمٌ، أو قائمٌ، أو قاعدٌ، أو ماشٍ، أو واقفٌ، ولو أن أحدًا أصيبَ بضيقِ النفَسِ لكانَ يبذلُ الدُّنيا كلها حتى يعودَ نفَسُه سهلًا.

إذنْ لو قوبلَ عملُنا -يا إخوانُ- بنعمةٍ واحدةٍ مِن نعمِ اللهِ، لاستوعبتْ هذهِ النعمةُ عملَ الإِنْسانِ، إذنْ لا يدخلُ الإِنْسانُ الجنةَ بعملِه، وليسَ دخولُ الجنةِ عوضًا عَن عملِه، ولكنِ العملُ الصَّالحُ سببٌ لدخولِ الجنةِ وليسَ عوضًا.

وهذا هوَ الجمعُ بينَ النَّفيِ والإثباتِ.

ثم قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ ترى أيُّها النَّاظرُ، أيها المخاطبُ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾. فهذا يا إخوانِي عالَم الغيبِ، ولولا أن اللهَ أعلمَنَا بهِمْ ما عَلِمنا عنهمْ شيئًا، فقدْ خلقَهُمُ اللهُ من نورٍ، وجعلَ أكلَهُم وشُربَهُم وطعامَهُم التسبيحَ، فهمْ لا يحتاجونَ إلى أكلٍ وشربٍ، فهمْ صُمُدٌ، قالَ العُلماءُ: أي ليسَ لهمْ أجوافٌ[1]؛ لأنهمْ يُلهمونَ التسبيحَ كما يُلهمونَ النفَسَ، فلا يحتاجونَ إلى طعامٍ وشرابٍ.

المهمُّ أنهمْ خُلقُوا مِن نورٍ، وهُمْ عددٌ لا يُحصيهِم إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قالَ النَّبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لها أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لله**»[2]. الله أكبرُ! سعةُ السَّماءِ لا يَعلمُها

---

(١) عزاه المناوي في فيض القدير (١/ ٩٣) لابن عبد الهادي في تذكرته.

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الزهد، باب في قول النَّبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا**»، رقم (٢٣١٢)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، رقم (٤١٩٠).

إلا اللهُ، ومع ذلكَ ما مِن موضعِ أربعِ أصابعَ إلا وفيهِ مَلَكٌ قائمٌ للهِ أو قاعدٌ أو ساجدٌ.

وقالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عنِ البيتِ المعمورِ الَّذي في السَّماءِ السَّابعةِ: «يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَم يَعُودُوا إِلَيْهِ»[1]. فهذَا عددٌ لا يُحصيهِ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ مُعظمينَ لربِّهم عَزَّوَجَلَّ خاضعينَ لهُ، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يُنزهونَهُ جَلَّوَعَلَا عن كلِّ نقصٍ، وعن كلِّ عيبٍ، ويُثنونَ عليهِ بصفاتِ الكمالِ.

قولُه: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بينَ النَّاسِ، قُضِيَ بالحقِّ بالعدلِ الَّذي لا جَورَ فيهِ ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَ أهلُ العلمِ: أَبهَمَ القائلَ؛ لأن كلَّ الكونِ يشهدُ بأن الحمدَ للهِ ربِّ العَالمينَ عَزَّوَجَلَّ بما قَضى بينَ عبادِه بالعدلِ والإنصافِ، وعدمِ الجورِ.

هذا ما يتعلقُ بهذهِ الآياتِ الكريماتِ، وأسألُ اللهَ أن يجعلَنَا وإياكُم ممنْ يُساقونَ إلى الجنةِ، إنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

والحمدُ للهِ الَّذي بنعمتِه تتمُّ الصَّالحَاتُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه.



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السَّماوات، وفرض الصَّلوات، رقم (١٦٢).

الدَّرس العَاشر:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبيِّين، وإمَام المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَما ذكَرَ مَآلَ أهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الجنَّةِ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]. لِأَنَّهُ جَلَّوَعَلَا أَهْلٌ لِلْحَمْدِ، لَا أَحَدَ يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ كُلَّهُ إلا اللهُ ربُّ العَالَمينَ عَزَّوَجَلَّ، وَحَمْدُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى **عَلَى شَيْئين:**

أَوَّلًا: عَلَى إِفْضَالِهِ وَإِنْعَامِهِ، فَأَنَا أَحْمَدُ اللهَ، وأنتَ تَحْمَدُ اللهَ عَلَى إِفْضَالِهِ وَإِنْعَامِهِ، فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْكَ لَا تستطيع أَن تُحْصِيَها، لقولِهِ تعالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وكم مِن نِقْمةٍ انْعقَدَتْ أسبابُها وَلَكِنْ يَرْفعُها اللهُ عَنْكَ.

مَا أَكْثَرَ النِّقَمَ الَّتي تَنْعَقِدُ أسبابُها وتُوجَدُ مُوجِباتُها، وَمَعَ ذَلِكَ يَرْفَعُها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، عَدِّدْ هَذَا فِي نَفْسِكَ، وعَدِّدْ هَذَا فِي غَيْرِكَ تَجِدِ الشَّيْءَ الكثيرَ.

إِذَنْ يُحْمَدُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى إفضالِه بالإنعامِ ودَفْعِ النِّقَمِ، وَلهَذَا جَاءَ فِي الحديثِ الصَّحيحِ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»[1]. إِذَا فَرَغْتَ مِنَ الطعامِ فقُلِ: الحَمْدُ للهِ. وَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الشَّرابِ فَقُلِ: الحمدُ للهِ؛ لِأَنَّ اللهَ يَرْضَى عَنِ العَبْدِ إِذَا أَكَلَ أَكْلةً أَنْ يَحْمَده عَلَيْها، وَإِذَا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالَى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤).

شَرِبَ الشَّرْبَةَ أَن يَحْمَدَه عَلَيْهَا.

نَعَمْ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسْتحِقُّ أَنْ يُحْمَدَ عَلَى هَذَا، فَهذَا الطعامُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، الخبزُ الَّذِي تأكُلُه، هَلْ سَبقَهُ شَيْءٌ مِنَ الأَعْمَالِ مِنْكَ، هَلْ عَمِلْتَهُ؟ فَقَدْ كَانَ حَبًّا بُذِرَ فِي الأَرْضِ، فأَنْبَته اللهُ عَزَّوَجَلَّ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤]. بل أَنْتَ يا رَبَّنا الَّذِي تَزْرَعُه، أَنْتَ الَّذِي تُنْبِتُه، أَنْتَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا صَارَ الحَبُّ شَيْئًا، وَبَعْدَ أَنْ يَخْرُجَ يُنَمِّيهِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ حتى يصيرَ سُنْبلًا، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة:٦٥-٦٧].

وَبعْدَ أَن صار حَبًّا يَسَّر اللهُ عَزَّوَجَلَّ لك أَنْ تمتَلِكَه بمالِكَ وكَدِّكَ، ثُمَّ هناك نِعَمٌ أخرى، منها النَّارُ الَّتي أَنْضَجتْه، وَهِيَ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة:٧١-٧٢].

بل أَنْتَ يا رَبَّنا الَّذِي أَنْشأتَها، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا مَلَكْنا لِأَنْفُسِنا شَيْئًا، وَهُنَاكَ مَنْ يقولُ: إِنَّ الطعامَ الَّذِي يُلْقى بَيْنَ يَدَيْكَ لَا يَصِلُ إلى مَا بَيْنَ يَدَيْكَ إلا بعدَ ثلاثٍ وسِتِّينَ نِعمةً.

ومِن تِلْك النِّعمِ أَيْضًا الماءُ، وَهُوَ أيضًا مِن خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَهُوَ الَّذِي أنزله مِن المُزْنِ وسَاقَهُ حتى صَار بينَ يدَيْكَ، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨- ٦٩]، فلو اجْتَمعَ الخَلْقُ كلُّهم عَلَى أَن يَخْلُقوا قَطْرَةً واحدةً مَا استطاعوا إِلى ذَلِكَ سَبيلًا، ولكنَّ الربَّ عَزَّوَجَلَّ بقُدْرتِه ونِعْمتِه وحِكْمتِه ورَحْمَتِه خَلَقه، قَالَ تَعالَى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠]،

لم يقل عَزَّوَجَلَّ: لو نَشَاءُ لم نُنْزِلْه، بَلْ قَالَ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، فلا تَسْتطيعون أَنْ تَشْربوه، وَهَذَا أَشَدُّ حَسْرةً عَلَى الإِنْسانِ، فحَسْرَتُه إِذَا وجَدَ الماءَ وَلَم يَسْتطِعْ شُرْبَه أَشَدُّ مِنْ أَنْ يكونَ الماءُ مَعْدُومًا أَصْلًا، فَانْتَبِهْ لِلْقُرْآنِ ففيه عَجَائِبُ.

إِذَنْ، تَعَيَّنَ عليك أَنْ تَحْمَدَ اللهَ إِذَا أكلتَ أو شَرِبْتَ، فعندما تريدُ أَن تأكُلَ وتَشْرَبَ تقولُ: باسْمِ اللهِ. تَقُولها وُجوبًا لَا استحبابًا، فيَجِبُ عليكَ أَنْ تقولَ عندَ الأكلِ أو الشُّربِ: باسْمِ اللهِ. فإِن لَم تفعلْ كُنْتَ عاصيًا للهِ ورَسولِهِ، وتكونُ بذلك قَدْ أَتَحْتَ الفُرْصَةَ لِعَدُوِّكَ لِيأْكُلَ معَكَ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦].

إِذَا لم تُسَمِّ اللهَ أَكَلَ الشَّيْطانُ معك، فهل تَرْضَى أَنْ يكونَ عَدُوُّكَ الَّذِي يُحِبُّ لك كُلَّ سُوءٍ شَرِيكًا لك فِي الأَكْلِ؟! لَا شَكَّ أَنَّكَ لَا تريدُ.

كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ رَبِيبُه، أي ابنُ زَوْجَتِه، واسمه عُمَرُ بنُ أبى سَلَمَةَ، وَكَانَ غُلامًا صغيرًا، فقُدِّم للنَّبِيِّ ﷺ طعامٌ لِيأكُلَه، والصَّبِيُّ لَا يَعْرِفُ أدبَ الطعامِ، فَجَعَلَ هَذَا الغلامُ تَتَخَبَّط يَدُه فِي القَصْعةِ، فقال له النَّبِيُّ المُرْشِدُ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم: «**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»[1]. أَرْشَدَه إِلى ثَلاثِ سُنَنٍ: (سَمِّ اللهَ)، و(كُلْ بيَمِينِكَ)، و(كُلْ مِمَّا يَلِيكَ).

هَكَذَا يكونُ أهلُ العِلْمِ بَرَكَةً عَلَى غَيْرِهِم، فَيُرْشِدُونَهم ويَدُلُّونَهم، وَهَذَا الَّذِي عَلَمه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لمحمدٍ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم وَلَم يَكُنْ يَعْلَمه، لِيُرْشِدَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم (٥٠٦١)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها، رقم (٢٠٢٢).

هَذَا الغلامَ الصغيرَ، فَلَا يُمْكِنُ لهَذَا الغلامِ أَنْ يَنْسَى هَذَا التعليمَ بِفَضْلِ تعليمِ النَّبِيِّ ﷺ له، وَلهَذَا تجدُ الشَّيْءِ الَّذِي مَرَّ عَلَيْكَ وَأَنْتَ صغيرٌ لَا تَنْسَاهُ، فَلَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ العِلْمِ، فَإِذَا كَانَ ابنُك الصغيرُ يأكُلُ مَعَكَ وتَتَخَبَّطُ يَدُه فِي الصَّحْفَةِ فلَا تَنْسَ أَن تُرْشِدَه كما أَرْشَدَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الغُلامَ السُّنَنَ الثَّلاثَ، وهي: (سَمِّ الله)، و(كُلْ بيَمِينِكَ)، و(كُلْ مما يَلِيكَ). فَإِذَا لم يَكُنْ معَك شريكٌ فِي الأكلِ جَازَ لَكَ أَنْ تَأْكُلَ مِن كُلِّ الجوانبِ، وَلَيْسَ مِنَ الأَعْلَى، إِلَّا إِذَا كَانَ الأَعْلَى نوعًا آخَرَ، كَمَا لَوْ كَانَ لحمًا فِي وَسَطِ الصَّحْفَةِ، فهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، أَمَّا إِذَا كَانَ طعامًا واحدًا فَلَا تَأْكُلْ مِنْ أعلَى الصَّحْفةِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم أَخْبَرَ أَنَّ البَرَكَةَ تَنزِلُ فِي أَعْلاها[1].

إِذَنْ، حَمْدُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَهُ سَبَبَانِ:

الأول: إِنْعامُه وإِفْضالُه وإِحْسانُه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

الثَّاني: كمالُ صفاتِه عَزَّوَجَلَّ فيُحْمَدُ عَلَى كمالِ صفاتِه، وَأَنَّهُ جَلَّوَعَلَا لَهُ المَثَلُ الأَعْلَى، أي الوَصْفُ الأكملَ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١].

فاسْتَشعر يَا أَخِي المسلمَ بقَلْبِكَ أَنَّكَ إِذَا قلتَ: الحمدُ للهِ. فأنت تعني: الحَمْدُ للهِ عَلَى مَا لَهُ مِن الإِفْضال والإنعامِ عليك، وعَلَى مَا لَهُ مِن صِفاتِ الكمالِ، لأنَّ اللهَ تَعالَى موصوفٌ بالكمالِ المطلقِ الَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ أي نَقْصٍ.



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الأكل من أعلى الصحفة، رقم (٣٧٧٤).



سورة غافر

الدَّرس الأوَّل:

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ، وأصلِّي وأسلِّم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وأصْحَابهِ، ومن تَبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر:١-٢].

(حم) حرفانِ هِجائيانِ، اختلفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ في الكلامِ فيهما، أي في هذينِ الحرفينِ وغيرهما من الحروفِ الهِجائيَّة الَّتي تُبتدَأ بها بعضُ السورِ، مثل (الم) (الر) (ن) (ق) (ص) وما أَشْبَهَهَا؛ هل لهذه الحروفِ معنًى أو ليس لها معنًى.

والصَّواب في هذا ما قاله مُجاهِد رَحِمَهُٱللَّهُ: إنَّه ليس لها معنًى[1]، بمعنى أن هذه الحروفَ حروف هِجائيَّة، ليس لها معنًى في اللغةِ العربيةِ، والقُرآنُ نَزَلَ باللغةِ العربيةِ، قال اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

وقال جلَّ ذِكره: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣].

---

(١) الطبري في التفسير (١/ ٢٠٨).

فإذا نظرنا إلى اللغةِ العربيةِ وَجدنا أن هذه الحروفَ الهِجائيَّةَ ليس لها معنًى، وإذن نقول: هي في حدِّ ذاتِها ليس لها معنًى بمقتضى اللغةِ العربيةِ؛ لكن لها مَغزًى عظيم، وهو أن هذا القُرآن الكريمَ لم يأتِ بحروفٍ لا تَعرِفونها أيها العربُ، وإنما أتى بحروفٍ تَعرفونها وتركِّبون منها كلامَكم، ومع ذلك أَعياكم وأعجَزكم، فهذه الحروفُ لها مغزًى، والمغزى هو أن إعجاز القُرآنِ لكم أيها العربُ ليسَ لأنَّه أتى بحروفٍ غرِيبةٍ، ولكن لأنَّه كلامُ ربِّ العَالمينَ؛ ولذلك لا تَكاد تجد سُورَةً مبدوءةً بهذه الحروفِ الهِجائيَّةِ إلا وجدتَ بعدها ذِكر القُرآنِ، ومن ذلك هذه السورةُ الَّتي نحن بصددِ الكلامِ بما تيسَّر عليها: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

و(تنزيل) مُبتدَأ، وهي مضافٌ و(الكتاب) مضاف إليه، وخبرُ المبتدأِ محذوف، والجارُ والمجرورُ متعلِّق بمحذوف خبر المبتدأ.

وتنزيل الكتاب منَ اللهِ لا مِن غيرِه؛ لأن الكتابَ العزيزَ كلامُ ربِّ العَالمينَ جَلَّ وَعَلَا، فهو نازِل منه.

قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾ العَزيز: الغالِب الَّذي لا يَغلِبه شيء، ولا يقومُ أمامَ قُدرته وقوتِه شيءٌ، فهو غالِب لكلِّ أحدٍ، ولما قال المنافقونَ: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] يَعنون بالأعزِّ أنفسَهم، وبالأذلِّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، يعني: وأما أنتم أيها المنافقونَ فليسَ لكم عِزة، ولهذا جاءتِ الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾، ولم تكن على هذا الَّذي يَتَوَقعه الإنْسان وهو أن

يقول: والأعزُّ سِواكم؛ لأنَّـه لو قال: الأعز سِوَاكم لَكان لهم شيءٌ مـنَ العِزة، وهم لا عِزة لهم؛ لأنهم مُنافِقون.

إذن العزيز بمعنَى الغالِبِ، الَّذِي لا يَقوم لعزتهِ شيءٌ.

والعليمُ: أي ذو العلمِ الوَاسعِ الَّذِي لا يَخفَى عليه شيءٌ؛ لا في الأرْضِ ولا في السَّماء، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطَّلاق:١٢]، يَعلَم ما كان، وما يكون لو كان كيف كان يكونُ، سُبْحَانَ الله! يعلم ما يَتعلَّق بفعلِه، وما يتعلق بفعلِ عِبَاده. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ توسوس: يعني تفكّر، فالله يعلم حتَّى ما في القلب ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٧].

في القُرآن العزيز قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]

قال: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحدَ يعلَمها ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فكلُّ ما في البرِّ والبحرِ فهو مَعلوم عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه مخلوق للهِ، والمخلوق لا بُدَّ أن يكونَ مَعلومًا للخالِقِ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]

قـال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، فالأوراقُ ولـو صَغُرَتْ إذا سقطتْ من الشَّجرةِ فاللهُ يَعلَمها، والأوراقُ الَّتي لم تسقطْ يعلمها من باب أَولى؛

لأنَّه إذا كانتِ الورقةُ إذا يَبِسَتْ وسقطتْ عَلِمَها، فكيف بالورقةِ الَّتي تَنمو، فلا بُدَّ أن يكونَ عالِمًا بها جَلَّوَعَلَا.

قال: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني إلا يعلمها، صغيرة أو كبيرة، ولو صغُرت جدًّا فإنه يَعلَمها.

وهل الأرْضُ لها ظُلُمات؟

الجَواب: نعم، لِنَفْرِضْ أن حبةً صغيرةً مُنغمِسة في قاعِ البحرِ، في ليلةٍ مظلمةٍ ممطِرة مُغيِّمَةٍ مُغْبَرَّةٍ، فهذه ظُلُمات:

أولًا: الطين الَّذي في قاع البحرِ.

ثانيًا: ماء البحرِ.

ثالثًا: ظُلمة اللَّيلِ.

رابعًا: ظُلمة المطرِ.

خامسًا: ظُلمة السحابِ.

سادسًا: ظُلمة الغُبار.

وربما يكون هناك ظُلُمات أُخرى لا نَعلَمها، فالحبةُ في هذه الحَالِ مَعلومة عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ!

قال: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾، وهذا يعمُّ كلَّ شيءٍ؛ لأن جميعَ الأشياءِ إما رَطبة وإما يابسة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي في مكتوبٍ بَيِّنٌ ظاهِرٌ، وهذا الكتابُ هو اللَّوح المحفوظُ، كَتَبَ الله فيه مَقاديرَ كل شيءٍ إلى قيامِ السَّاعةِ.

ثم قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾. استدلَّ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بهذه الآيةِ على مسألتينِ هامَّتينِ أو فائدتينِ عَظيمتينِ:

المسْألَة الأولى: عُلُو اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ في السَّماءِ؛ لأن كلمةَ (تنزيل) تـدلُّ على علوٍّ؛ إذ لا يكون شيءٌ نازِل إلا مِن أعلى؛ ففي الآيةِ دليلٌ على علـوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهذه الصِّفةُ من صِفاتِ اللهِ لا تَحتاجُ إلى عَناءٍ كبيرٍ في إثباتِها؛ وذلك لأن النفوسَ مَجبولة على ذلكَ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ فوقَ السَّماواتِ على العرشِ، وكل إِنْسانٍ يقول: يا ربِّ يشعرُ بأن الله فوق.

وهذا في الوَاقعِ أمرٌ فِطريٌّ لا يَحتاج إلى عناءٍ كبيرٍ في إثباتِه، ولكن لَمَّا زاغَ قومٌ من هذه الأمةِ وقالوَا: إن الله عَزَّوَجَلَّ في كل مكانٍ -نسأل الله العَافيةَ- حينئذٍ احتاج العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إلى كثرةِ الاستدلالِ على علوِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حتَّى لا يَضِلَّ النَّاسُ بهذا الرأيِ الضالِّ، وسُبحان الَّذِي وَسِعَ كُرسيُّه السَّماواتِ والأرْضَ، كيف يكون عَزَّوَجَلَّ في كل مكانٍ، وكرسيهُ وسِع السَّماواتِ والأرْضَ! فهذا لا يمكِن، وما المكانُ الَّذِي يسع الله؟ وكم الأمكنةِ؛ مكان واحد أم أكثر؟!

فهناك مَساجِدُ، وأسواقٌ، وبيوتٌ، وصحارٍ، وجِبال وأشياءُ مِمَّا لا يُحصيهِ الإِنْسانُ، فهل يكون اللهُ في كل مكانٍ؟! لا يُمكِن، إلا إذا قال هذا القائل: إن الله يَتَجَزَّأ، وحاشاهُ ذلك، أو قال: إن الله متعدِّد بتعدد الأمكنةِ.

ولذلك كان هذا القولُ من أضلِّ الأقوالِ والعياذُ باللهِ؛ أن يقول الإِنْسان: الله في كل مكانٍ، بل الله عَزَّوَجَلَّ في السَّماءِ.

استمِع إلى هذه القصة العجيبة:

أراد معاويةُ بنُ الحَكَم رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وهو غيرُ معاويةَ بنِ أبي سُفيانَ أميرِ المؤمنينَ، فمعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ مِن أُمراءِ المؤمنينَ الَّذِينَ مَلَكُوا مِن الدُّنيا ما شاء اللهُ، ومعاويةُ بنُ الحَكَمِ كان له جَارِيَة، يعني أَمَة مَمْلُوكَة، فغَضِبَ عليها يومًا من الأيامِ فصَكَّها، فأرادَ أن يُكفِّرَ عن نفسِه بإعتاقِ هذه الجاريةِ، فاستأذَنَ النَّبيَّ ﷺ في ذلك، فأمر بها النَّبي -صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم- فحَضَرَتْ، فقال لها: «**أَيْنَ اللهُ؟**». قَالَتْ: فِي السَّماءِ. وهي جاريةٌ لم تتعلمْ، ولم تدرسْ، قالت: في السَّماءِ، ما الَّذِي دَلها على ذلكَ؟ إنَّها الفِطرة ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم:٣٠]. قال: «**أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[1].

إذن مَن لم يكنْ كذلك فليسَ بمؤمنٍ، فمَن لم يَعتقِدْ أن اللهَ في السَّماءِ وأنه جَلَّوَعَلَا فوق كل شيءٍ فإنه ليسَ بمؤمنٍ؛ وذلك لأن الخطابَ له مَنطوقٌ ومَفهومٌ، فإذا قلنا: إذا أقرَّ الإِنْسانُ بأن الله في السَّماء فهو مُؤمِن، فهذا مَنطوق مَفهومُه: إذا لم يُقِرَّ فليس بمؤمنٍ، وهو كذلك.

إذن ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ تفيد فائدةً عظيمةً، وهي علوُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأن النزولَ لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل.

المسْألَة الثَّانية: أن هذا القُرآنَ كلامُ اللهِ، تكلَم به حقيقةً، وتلقَّاه جِبريل فنزلَ به على قلبِ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم، وهذا أمر أيضًا لا إشكالَ فيه، فلولا ما حَدَثَ من البدعِ الضالَّةِ -والعياذ بالله- ما احتاج النَّاسُ إلى عَناءٍ كبيرٍ في

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصَّلاة، باب تحريم الكلام في الصَّلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

إثباتِ أن الله تَعَالَى تكلَم بالقُرآن.

إذن القُرآن كلامُ اللهِ مُنزَل غير مَخلوقٍ، ابتدأ اللهُ تَعَالَى منه، وإليه يَنتهي، كما قال أهل السنَّة رَحِمَهُمُ اللَّهُ في عَقائدهم، فالقُرآنُ كلامُ اللهِ مُنزَل غير مَخلوقٍ، منه بَدَأَ وإليه يعودُ، هذه عَقيدة أهلِ السنَّة، أسألُ اللهَ تَعَالَى أن يَتوَفَّاني وإيَّاكم عليها، وألا يُزيغَ قُلوبنا بعد أن هَدانا، وأن يَهدِيَ مَن أرادَ الحقَّ إلى الحقِّ؛ لأننا لا نَتَّهِمُ أحدًا بنيتِه، فالنيةُ عند اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لكننا نقول: منَ النَّاس مَن يَنوي الخيرَ ولا يُوفَّق له، فنسأل الله أن يُوفِّقَ إخواننا المُسْلمينَ جميعًا إلى الخيرِ والهدى والصَّلاحِ والإصلاحِ.

والحمدُ لله الَّذي بنعمته تتم الصَّالحَات، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه.



الدَّرس الثَّاني:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبِيِّين، وإمَام المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر:١٦].

قَولُه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أَيْ: أَنَّهُ تَعالَى عَالي المقاماتِ؛ لِأَنَّهُ تَعالَى فوق كُلِّ شيءٍ، كَما قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وأمَّا مَنْ فَسَّرَهُ بأَنَّ معْنَاه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي: رَافعُ الدَّرجَاتِ، فلَيْس صوابًا؛ لِأَنَّ الآيَةَ سيَاقُها يَأبَى ذَلِكَ أشدَّ الإيباءِ.

قَوْلُهُ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ ذُو بِمَعنى: صَاحِبُ، أَي: أَنَّهُ صَاحبُ العرشِ المخْتَص بهِ، فإذَا ضَممنَا قَولَهُ تَعالَى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ إلَى قَولِه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ تبين لَنا أنَّ اللهَ نَفسه فَوقَ كُلِّ شَيءٍ، وهَذَا مُعْتقدُ السَّلفِ الصَّالحِ، فالصَّحَابَةُ، والتَّابعونَ لهُمْ بِإحسانٍ، وأَئِمةُ الهُدَى منْ بَعْدهم، يُؤْمنونَ إِيمانًا تامًّا بأنَّ اللهَ تَعالَى نفسَهُ فوقِ كُلِّ شيءٍ، كَما قَالَ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨].

وقوْلُهُ: ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ العرشُ هُوَ مخلوقٌ عَظِيمٌ لَا نَعلمُ كَيْفيَّته، وَلَا تُحِيطُ بِهِ عقُولُنا، اسْتَوَى اللهُ علَيْه كما يَلِيقُ بِجَلاله وعظمتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومنَ التكلُّف أَنْ نَسْأَلَ منْ أينَ مـادةُ العرشِ؟! لكنْ لنَا أنْ نَسأَلَ: مـا عِظم هَذَا العرشِ، ومَا سعتُهُ؛ لِأَنَّ النُّصوص بيَّنت ذَلك.

فقدْ جاءَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا السَّماوَاتُ السَّبْعُ عِنْدَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ

مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ».

والحلقَةُ: المرادُ بِهَا حَلقةُ المِغْفَرِ، وهوَ ثَوبٌ مَصْنوعٌ منْ حِلَقٍ مَرْبوطٍ بعْضُها ببعضٍ، يَتَّقِي به الإِنْسَانُ سِهامَ المقاتلينَ، وهيَ حِلقةٌ صَغيرةٌ، فإِذَا وضعتْ هَذِهِ الحلقةُ الصَّغيرةُ فِي فَلَاة منَ الأَرْضِ، فتكُون نِسبةُ هَذِهِ الحلقةِ إِلَى فَلَاةٍ منَ الأَرْضِ وَاسعَةٍ لَا تُساوي شَيئًا.

«وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ»(١) إِذَنِ، العرشُ لَا يَقْدِرُ قَدره أَحَدٌ؛ لِأَنَّهُ مَخلوقٌ عَظِيم لَا نَتَصوره، وإِذَا كَانَ الكرسيُّ قَد وسِع السَّماواتِ والأَرْض، فَما بَالكَ بِالعرشِ.

فالعرشُ هُوَ أَعْظَمُ المخلوقَاتِ الَّتِي نَعْلمها، وقَد وُصِفَ العرشُ بِالعظيم فِي كتابِ اللهِ، قَالَ تَعالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦]، وَقَالَ تَعالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التَّوبة:١٢٩].

ومنْ أُصُول أهلِ السُّنَّة والجماعَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مُسْتوٍ عَلَى العرشِ، أَيْ: عالٍ عَلَى العرشِ، ولَيْس كَاستِوَائنَا نَحن، فَالإِنْسَانُ -مثلًا- يَسْتوي عَلَى ظَهرِ البعيرِ فيَعلو علَيْه ويَسْتَقِر، يَسْتوي عَلَى الكرسيِّ فيَعلو علَيْه ويَسْتقر، يَسْتوي عَلَى السريرِ فيَعلو علَيْه ويَسْتقر، يَسْتوي عَلَى السَّفينةِ فيَعْلو عَلَيْها ويَسْتقر، لكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ اسْتَوَى عَلَى العرشِ استوَاءً لَا نَعْلم كَيْفيَّتَهُ، ولَا يُمْكنُ أَنْ نُحيطَ بِهِ، ونَعْلم أَنَّهُ لَيْسَ مثلَ استوَائنَا عَلَى ما ذَكَرْنَا عَلَى السريرِ، والكرسيِّ، والبعيرِ، والفُلكِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ودَليلُهُ قولُهُ تَعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وهَذِهِ الآيةُ قاعدةٌ فِي جميع مَا وصفَ اللهُ

---

(١) أخرجه ابن حبان: (٢/ ٧٧، رقم ٣٦١).

بِهِ نفسهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نفسهُ لَيْسَ مماثلًا لِصفاتِ المخلوقِينَ.

وقَد ذُكِر استواءُ اللهِ عَلَى عرشِهِ فِي القُرْآنِ الكريمِ فِي سَبعةِ مَواضعَ، حَتَّى لَا يَقُولَ قائِلٌ: إنَّ الاستواءَ لَا يُرادُ بِهِ العلوُّ؛ لِأَنَّ شَيئًا يُكرر سَبع مرَّات بِصِيغةٍ واحدةْ (اسْتَوَى عَلَى)، فَلَا يُمْكن لِأَحدٍ أَنْ يَقُولَ: إنَّ هَذَا الاستواءَ لَا يُرادُ بِهِ العلوُّ؛ وَلِهَذَا أَخْطأَ خطَأً بَيِّنًا ظاهِرًا مَنْ قَال: اسْتَوَى عَلَى العرشِ بِمَعنى استَوْلى عَلَى العرشِ، فَهَذَا تَحْريفٌ وجِنَايةٌ عَلَى كتابِ اللهِ منْ وَجْهينِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: صَرْفُهُ عَما أرادَ اللهُ بهِ، بأنْ صرَفهُ عنْ ظَاهرِهِ.

الوجهُ الثَّاني: إثباتُ معنَى لَيْسَ هُوَ ظَاهرَ اللَّفظِ، وليسَ مرادًا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

فظاهرُ اللَّفظِ فِي قولِهِ تَعالَى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] علَا عَلَى العرشِ، هَذَا ظاهِرُهُ فِي اللُّغةِ العربيةِ، والقُرْآنُ الكَريمُ نزلَ بِلِسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، وباللُّغةِ العربيةِ، ويُعلَم منْ هَذَا التَّعبيرِ (اسْتَوَى عَلَى) أَيْ: علَا علَيْه، والشَّوَاهد فِي القُرْآنِ كثيرةٍ، وكذَلِكَ فِي كَلامِ العربِ، فَاسْتَوَى عَلَى العَرْشِ بِمَعنَى: علَا وارْتفعَ عَلَى العرشِ.

فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: اسْتَوَى عَلَى العرشِ يَعْني استَوْلَى علَيْهِ؟

قُلْنَا: لَقَدْ حَرَّفْتَ كلامَ اللهِ؛ لِأَنَّ كلامَ اللهِ بِلسانٍ عربيٍّ، ولا يَعرفُ العربُ (اسْتَوَى عَلَى كذَا) بِمَعنى استَوْلى علَيْه أبدًا، فَفِي خطَبِ العربِ، وأَشْعارهِم، لَم تَجِدِ (اسْتَوَى عَلَى كَذَا) بِمَعْنَى: استَوْلى علَيْه، وَإِنَّما ادُّعِي، أَنَّه جَاءَ بِمَعْنَى اسْتَولى فِي قولِ الشَّاعرِ:

قَدِ اسْـتَوَى بِشْــرٌ عَـلَى العِـرَاقِ مِـنْ غَـيْرِ سَـيْفٍ وَلَا دَمٍ مِهْـرَاقِ

بِشْرٌ: هُوَ بشرُ بْنُ مَرْوَانٍ، وهَذَا الادِّعَاءُ بَاطِلٌ منْ وُجوهٍ:

أَوَّلًا: أنَّه لَا يُعْلَم قَائلُهُ.

ثَانِيًا: لَو عُلِمَ قَائلهُ، وأَنَّه منَ العربِ العرباءِ الَّذِين كَلَامهمْ فَصِيح يحتجُّ بِهِ، فإنَّ قَولَهُ: «اسْتَوَى عَلَى العِرَاقِ» لَا يَسْتقيم إذَا قُلْنَا: استَوْلَى عَلَى العراقِ، أَيْ: علَا علَيْه، إِلَّا أَنْ نَجعلَ العُلُوَّ هُنا علوًّا معنويًّا، يَعْنِي: اسْتَوَى عَلَى العراقِ، أَي: علا عَلَى نفسِ البلدِ! فلَا يَصحُّ هَذَا، حَتَّى لَو كَانَ العُلُوُّ بالطَّائراتِ، فَالطَّائرة لَو طَارت فِي العرَاق فتَطِير عَلَى جزءٍ يَسِير منْهُ، فَإِذَنْ، لَا يُمْكن أَنْ يُرادَ باسْتوَى عَلَى العراقِ، أَي: علا علَيْه، إِلَّا إذَا جُعِلَ ذلكَ علوًّا معنويًّا، ولَا مَانع أَنْ نَقولَ: إنْ صحَّ أنَّ هَذَا البيتَ مُسْنَدٌ إِلَى رجُل مِمَّن يُحتجُّ بِلِسانه فِي العَرِبيَّة، فإنَّنا نَقولُ: الاستواءُ هُنَا بِمَعنى العُلُوِّ المعنويِّ، أمَّا اسْتوَى عَلَى الشيءِ بِمعنى اسْتَوْلى علَيْه، فَهَذَا لَا يُوجدُ فِي اللُّغة العربيَّةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨] أَيْ: عَلَوْتُ علَيْه، ورَكبت علَيْه، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]

تَرْكَبُ علَيْها، أَيْ: تَعْلو علَيْها، والأَمْرُ ظَاهِرٌ.

وإذَا فُسرتِ اسْتَوَى بِمَعنى استَوْلى، فَيكونُ العرشُ قبلَ الاستيلَاءِ علَيْه لِغَيْرِ اللهِ، ثُمَّ إذَا قلتَ: استَوْلى علَيْه، فالاستِيلَاءُ لَا بُدَّ أَنْ يَكونَ إثرَ مُغالبةٍ، فَمَنِ الَّذِي غالبَ اللهَ؟!! وإذَا قلتَ: اسْتَوَى عَلَى العرشِ بِمَعنى استَوْلَى علَيْه، فإنَّهُ يَلْزمك أَنْ

تقولَ: اسْتَوَى عَلَى الأَرْضِ؛ لِأَنَّ الأَرْضَ مُلكهُ، كَما أَنَّ العرشَ ملكهُ.

وَبِهَذَا يَتبيَّن لنا أَنَّه لَا يَحل لِشَخصٍ أَنْ يُفَسِّرَ اسْتَوَى عَلَى العرشِ بِمَعنى استَوْلى علَيْه، فاللهُ أَنْزَل علينَا الكتابَ بِلِسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وماذَا يَكونُ جَوابنَا إِنْ سألْنَا عنْ صفةٍ منْ صفاتِ اللهِ العظيمَةِ، وهيَ الاستواءُ عَلَى العرْشِ، فنعجَزُ أَنْ نجدَ جوابًا صوابًا؛ فاسْتَوَى بِمَعْنَى استَوْلَى، لَا يُوجدُ فِي اللغةِ العربيَّةِ، وَالقُرْآنُ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، اسْمَعْ قَولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣] أَي: صَيَّرناهُ بلغةِ العربِ، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] حَتَّى تَعْقِلون وتَفْهَمون مَعْناه، بِمُقتضى ذَلكَ اللِّسانِ العربيِّ.

وعلَى هَذَا، فيجبُ أَنْ نَعتقدَ شَيْئَينِ:

الشَّيءُ الأَوَّلُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى نفسهُ فوقَ كُلِّ شيءٍ، وأمرهُ فوقِ كُلِّ أمرٍ، وَسُلْطانه فَوْقَ كُلِّ سُلْطانٍ، فهوَ عَليٌّ بذاتِهِ، وعليٌّ بِصِفَاته.

الشَّيءُ الثَّاني: أَنْ نُؤْمنَ ونَعتقدَ بأَنَّ اللهَ اسْتَوَى عَلَى العرشِ استواءً حقيقيًّا، بمَعْنَى العُلُوِّ علَيْه عَلَى ما يَلِيق بِجَلالهِ.

وهُنَا يَرد سُؤَال: هَل يَلزم مِنْ إثبَاتنا استِواء اللهِ عَلَى العرشِ حَقِيقة أَنْ يَكُونَ مماثلًا لِلْمخلوقِ؟

الجَوَابُ: لَا يَلزمُ.

فَإِذا قَالَ قائِلٌ: أَنَا لَا أَعْقلُ الاستِوَاءَ إِلَّا عَلَى مَا أُشَاهدُ استِوَاءَ المخلوقِ، فَيكونُ استوَاءُ اللهِ تَعَالَى مُماثلًا لِاستواءِ المخلُوقِ؟

نَقولُ لَهُ: هَلْ تعقل مَوْجودًا إِلَّا عَلَى مَا تُشَاهِدُ المخلوقَ؟ إِمَّا أَنْ يَقُولَ: نَعمْ، فنقولُ: إِذَنْ وُجودُ اللهِ كَوُجودِ المخلُوقِ وجودًا مُمكنًا جَائزَ الزَّوالِ، وإِنْ قالَ: لَا، أبدًا، وُجودُ الخَالقِ يَختصُّ بِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالَى هُوَ الأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قبلهُ شَيءٌ، والآخرُ الَّذِي لَيْسَ بعدَهُ شيءٌ، قُلْنَا: إِذَنِ، استواءُ الخَالقِ عَلَى عرشِهِ خَاصٌّ مُختصٌّ بِهِ لَا يُماثلهُ استوَاءُ المخلوقِينَ.

وهَذِهِ قَاعدةٌ منْ أَفيدِ القواعِدِ فِي العقيدَةِ؛ لِأَنَّهُ كَما لَا يَجُوز لَنَا أَنْ نُمَثِّل اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ذَاته بِذَوات المخلوقِينَ، أَوْ عِلمه بِعِلْمِ المخلُوقينَ، أَوْ وُجودَه بوجودِ المخْلُوقينَ، أَو قُدرتَه بقدرَةِ المخلوقِينَ، فَكَذلك بَاقِي الصِّفاتِ، البابُ فِيها واحدٌ.

فمَنْ يَعتقدُ أَنَّ اللهَ لَيْسَ عاليًا بذاتهِ وَلَيس مُسْتويًا عَلَى العرشِ حَقِيقة، فعَلَيْه أَنْ يَرجعَ إِلى الحقِّ، وأَنْ لَا يُلاقيَ ربَّه وهُوَ يَعْتقدُ أَنَّ اللهَ لَيْسَ فِي العلوِّ، أَوْ لَيْسَ مستويًا عَلَى العرشِ، وأَنْ يَكونَ عَلَى مَا كَانَ عليْه إِمَامُه الإمامُ الأعظمُ منَ الأَئمَّةِ، وهوَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم، وكذلِكَ خُلَفاؤهُ الرَّاشدُونَ، فإِنَّهم أَحَق مَنْ يُقْتَدَى بِهِم بعدَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

فالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهوَ يُقرر علوَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ علوًّا حقيقيًّا بذاتِهِ، وهوَ يَقُولُ فِي سجُودِهِ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»[1]، ويَقُولُ فِي رقيةِ المريضِ: «**رَبَّنَا اللهَ الَّذِي فِي السَّماءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ**»[2]، ويَقُولُ للجاريَةِ: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّماءِ، قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**» قَالَتْ: أَنتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[3]، فَجَعل إِقْرارَها

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة اللَّيل، رقم (٧٧٢).
(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السَّلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٦).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب تحريم الكلام في الصَّلاة، رقم (٥٣٧).

بأنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ عَلَامة عَلَى إيمانِهَا، ومَعْلوم أَنَّهُ إِذَا انتفى الدَّلِيلُ انتفى المدلولُ، فَالأَمر خَطيرٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّ مرادَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ»، مُرَادهُ أَين مُلكهُ؟

قُلْنَا: هَذَا تَحريفٌ، فالنَّبِيُّ ﷺ لَا يُعْجِزَهُ أَنْ يَقُولَ أَين مُلكُ اللهِ، ثُمَّ هَذَا يُنَاقِضُ قولَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران ١٨٩]، فَمُلكه لَيْسَ لِلسماءِ فقطْ، بلِ السَّمَاءِ والأَرْضِ.

والنَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم فِي أكبرِ مَجمعٍ للأَمَّةِ الإِسلاميَّةِ، وفِي خيرِ يومٍ طَلَعتٍ علَيْه الشَّمْسُ منْ أَيَّامِ العَامِ، وهوَ يومُ عرفةَ حينَ خَطبَ النَّاسُ الخطبةَ البليغةَ المشهورَةَ، وَقَالَ لهُمْ: «**فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللهُمَّ اشْهَدْ»**»[1] أي: عَلَى النَّاسِ أَنَّهم أقرُّوا بأنَّه بَلَّغَ، ثمَّ أعادهَا، ثَلاث مرَّاتٍ.

فلَا يُمكن لِأي إِنْسَانٍ أَنْ يَقُولَ بعدَ هَذَا: إنَّ اللهَ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ، ونحنُ نُشْهِدُ اللهَ وملائكتهُ وجميعَ خلقهِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَد بَلَّغ البلاغَ المبينَ، وأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تُوفِّي ومَا طائر يقلِّب جناحَيْه فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَر لِأمته منْهُ علمًا[2]؛ وَلهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] مَا فِي شَيْءٌ إِلَّا وفِي القُرْآنِ بيانهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة في منًى، رقم (١٧٤١)، ومسلم: كتاب الحج، باب حجة النَّبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٢) أخرجه الطبراني: (٢/ ١٥٥، رقم ١٦٤٧).

والبيانُ أنواعٌ، فقدْ يَكونُ بصريحِ المقالِ، أَوْ بِظاهرِ المقالِ، أَوْ بإشَارةِ المقَالِ، أَوْ بِفَحوى المقالِ، أَنْواعُ الدَّلَالَةِ كَثِيرةٌ.

بعضُ العُلَماء كَانَ فِي مَطعمٍ فِي إحدَى دُول أُورُوبا، وكانَ فِي المطعمِ رَجل من كبَارِ النَّصَارَى، وهوَ يعرفُ هَذَا الرَّجلَ المسلمَ أنَّه عَالِمٌ، فجاءَ النصرانيُّ إِلى المسلمِ العَالِمِ يُريدُ أَنْ يَمتحنَهُ، وَقَالَ لهُ: إنَّ القُرْآنَ نزَل تبيانًا لكلِّ شيءٍ، فَأَيْنَ بيانُ هَذِهِ السَّلَطَةِ؟

فقالَ العَالمُ هَذَا البيانُ موجودٌ فِي القُرْآنِ، فقالَ النَّصرانيُّ أينَ؟ فقالَ -العَالِمِ المسلمُ- للطبَّاخِ: تعَالَ، كيفَ تَصْنع هَذِهِ السَّلَطةَ؟ فوصفَ لَهُ الطباخُ كَيْف يصنَعهَا فقالَ العَالمُ هَكذَا فِي القُرْآنِ، إنَّ اللهَ يَقُول: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

إذَا أشكلَتْ عليَّ مسألةٌ فقهيةٌ، فأَسألُ الفُقهاءَ، وإذَا أشكلتْ عليَّ مَسألةٌ نَحويَّةٌ أسألُ النَّحويينَ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُول: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾، وعللَ الأمرَ بالسؤالِ: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وعلَى هَذَا، فكلُّ شَيْءٍ لا أَعْلمه فقدْ أرشدَ القُرْآنُ الكريمَ كيفَ أتوصلُ إلى علمِهِ.

فإذَا كَانَ القُرْآنُ تبيانًا لكلِّ شيءٍ، وَوجدنَا أَنَّهُ يُثْبِتُ فِي آياتٍ كثيرةٍ علوَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ نفسهُ فوقَ العبادِ، واستواءَهُ عَلَى عرشِهِ العظيمِ، فَإِنَّهُ لَا عذرَ لنَا أبدًا أنْ نخالفَ هَذَا.

وَيجِبُ عَلَى الَّذِينَ يَعْتقدونَ: أنَّ اللهَ لَيسَ فِي السَّماءِ، سواءٌ قَالُوا: لَيسَ فِي السَّماءِ، ولَا فِي الأرْضِ، ولَا يَميناً ولا يَسارًا، أَو قَالُوا: إنَّ اللهَ فِي كُلِّ مكانٍ! بأَنْ يَرْجعوا عن

هَذَا إلى الحقِّ، وليسَ سببَ دعوتِي لَهم أَنْ يَعودُوا إلى الحقِّ منْ أَجلِ أَنِّي أقولُ هَذَا، فقولِي إذَا خالفَ الحقَّ يجبُ أَنْ يُوضعَ تَحت النعالِ، وتضربَ به الحيطانُ، لكِنِّي أقولُ: إذَا تبينَ الحقُّ يجبُ عَلَى كُلِّ مَن يؤمنُ بِمَصادرِ الحقِّ، أنْ يَقبلَ الحقَّ؛ لِأَنَّ القُرْآنَ حُجَّةٌ مُلزمةٌ، والسُّنَّة حجةٌ ملزمةٌ، وإنْ كَانَ عندَ المخالفِ دليلٌ أَنْ يَبْينَهُ؛ حَتَّى تَقومَ الحجةُ بِمُخالفةِ الدَّلِيلِ إنْ كانتْ هناكَ مُخالفةٌ.

فَنَصيحةٌ لِجَميع مَن يَتَوجَّهون إِلَى الكعبةِ فِي صَلاتهِمْ، أَنْ يَرجعُوا إلى الحقِّ فِي هَذِهِ المسأَلَةِ، الَّتِي هِيَ منْ كُبرياتِ أمَّهاتِ العقائدِ، أَتَرْضَى أنْ يَكونَ إِلَهك ومعْبودَك فِي كُلِّ مَكَانٍ، حَتَّى فِي الحمامَاتِ، والمرَاحِيض، والأَسْواق القَذِرة، وغَير ذلِكَ، لَا يُمْكِنُ أَبدًا أَنْ تَرضَى أَنْ يَكونَ مَعْبودكَ وإلهكَ فِي كُلِّ مكانٍ، إطلاقًا.

هَلْ تَرضَى أَنْ يَقُولَ لَكَ قائلٌ: إنَّ إلهكَ ومَعْبودكَ الَّذي قَامتِ السَّماواتُ والأرْضُ بِأَمرهِ لَيْسَ فِي السَّماءِ وَلَا فِي الأرْضِ، ولَا مُتصلًا بِالعَالمِ، ولَا مُنْفصلًا عنِ العَالمِ، ولَا يَمينًا ولا يَسارًا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأوصافَ السَّلبيةَ، تَعنِي العدمَ، فَيَكونُ مَنْ عبدَ اللهَ عَلَى هَذِهِ العقيدة عَبَدَ عَدَمًا، ويَكونُ مَنْ عبدَ اللهَ عَلَى العقيدةِ الأُولى عَبَدَ مَن لا يُنزَّه عنِ القَاذُوراتِ والأنتانِ، وكلُّ هَذِهِ أمورٌ خَطيرةٌ جدًّا، إنَّما نَحن وأنتمْ نَعبدُ إلهَ الأَرضِ والسَّماءِ، الَّذِي هُوَ فوقَ كُلِّ شيءٍ، والَّذِي اسْتَوَى عَلَى عَرشهِ.



الدَّرس الثَّالث:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحَمَّد خَاتم النَّبيِّين، وإمَام المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تَعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

قولُه: ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ آلُ فِرعونَ، هم أتباعُه على ما دعَا إليهِ منَ الكفرِ والشركِ، وهوَ أيضًا على رأسِهم، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨] فهوَ داعيةُ ضلالٍ، وداعيةُ كفرٍ، وداعيةُ إلحادٍ، مقاوِمٌ لِمَن يدعُو إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ حتى قالَ مهددًا موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر:٢٦]، وكأنهُ أرادَ أن يَظهرَ بمَظهرِ مَن يمنَع مِن قتلِ موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيقولُ: ﴿ذَرُونِيٓ﴾ أي: اتركُوني، ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾، وهذا مِن بابِ التحدي لموسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كأنهُ يقولُ: إن كانَ لهُ ربٌّ، فليدعُ هذا الربَّ، ليحميَه مني.

ثم عللَ هذا التهديدَ السَّاحرَ بقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، يقولُ فِرْعونُ: ﴿أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ إلى دينِ الحقِّ، لكنَّهُ يرى أن هذا الدينَ الحقَّ، دينٌ باطلٌ، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ وهو ما يُعرفُ الآنَ عندَ الكفارِ الَّذين يَقْدحونَ في المُسْلمينَ الَّذينَ يدعونَ إلى اللهِ، فيُسمونَهم أُصولِّيينَ، أو يُسمونهم مُخربينَ، أو ما أشبهَ ذلكَ، نفسُ الشيءِ قالَه فِرْعونُ

في حقِّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكنِ اختلفتِ العبارةُ، فهؤلاءِ يقولونَ: هؤلاءِ أُصوليونَ مُخربونَ، أو يقولونَ: إنهم أُصوليونَ مُتعنتونَ، ومُتشددونَ، وهذا قولُ فِرْعونَ في حقِّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

والَّذي يُظهرُ في الأرْضِ الفسادَ، هوَ الَّذي يَدعو إلى الباطلِ، ويَقمعُ مَن يَدعو إلى الحقِّ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في شأنِ المنافقينَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١١-١٢].

ولا شكَّ أن الكفارَ أعداءٌ للإسلامِ والمُسْلمينَ، وأنهم يَرمونَ كلَّ مَن تمسكَ بدينِ اللهِ بما هم أحقُّ بوصفِه منهمْ؛ لأجلِ أن يُنفِّرُوا النَّاسَ عما يدْعو إليهِ هؤلاءِ المُوفَّقونَ الَّذين يدعونَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وتأملُوا كيفَ وصفوهُم بالأصوليينَ ولم يقولُوا المُسْلمينَ؛ لأن كلمةَ الإِسْلامِ تُرعبُهم، ويخافونَ منَ الإِسْلامِ أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخرَ؛ لأنهم يعلمونَ أنَ الإِسْلامَ الحقَّ لوِ انتشرَ في الأرْضِ، لانتصرَ على أهلِ الكفرِ.

ولا يخفَى على كثيرٍ منكُم ما جرَى لأبي سفيانَ معَ هِرقلَ عظيمِ الرومِ، حينَ قدِمَ أبو سفيانَ إلى الشَّامِ، وكان هِرقلُ رجلًا ذكيًّا، لكنَّهُ ليسَ بعاقلٍ، رجلٌ ذكيٌّ عندَهُ علمٌ، فسمعَ بمقدَمِ أبي سفيانَ، وكانَ أبو سفيانَ مشركًا، وكانَ قدومُه بينَ صلحِ الحديبيةِ وفتحِ مكةَ، فلَما سمعَ بهم هِرقلُ دعاهُم، وسألهُم عما يدعُو إليهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من عبادةِ اللهِ، والصدقِ، والعفافِ، والأخلاقِ الفاضلةِ، وعمن يتبعُه منَ النَّاسِ؛ أَهُمُ الملأُ والأشرافُ، أمِ الضعفاءُ، فأخبرُوه بكلِّ ما يعلمونَه من صفاتِ

الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وما يدعُو إليهِ.

فقالَ هِرقلُ: إن كانَ حقًّا ما تقولُ، فسيملِكُ ما تحتَ قدميَّ هَاتينِ، أي: يملكُ الشَّامَ، فمَن يُصدقُ أن رَسولَ اللهِ ﷺ الَّذي خرجَ مُختفيًا من مكةَ إلى المدينةِ، سيملكُ الشَّامَ، ويسقِط أعظمَ دولةٍ في ذلكَ الوقتِ وهيَ دولةُ الرومِ.

فخرجَ أبو سفيانَ، فقالَ لقومِه: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كبشةَ، إنهُ لَيخافُه مَلِكُ بني الأصفرِ، أمِر بمعنى: عَظُمَ، ومنهُ قولُه تَعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف:٧١] أي: عظيمًا، (وابنُ أبي كبشةَ) كانَ الكفارُ يُكنونَ الرَّسُولَ ﷺ بهذهِ الكنيةِ؛ تحقيرًا لهُ، وتصغيرًا لشأنِه، وعَلَّلَ عِظمَ أمرِ الرَّسُولِ ﷺ بأنهُ يخافُه مَلِكُ بني الأصفرِ، وقد حدثَ ما توقعَهُ هِرقلُ أنْ مَلَكَ النَّبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ ما تحتَ قدميهِ[1].

فإن قيلَ: أشكلَ علينا أن الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ماتَ قبلَ أن تُفتحَ الشَّامُ.

والجوابُ: أن الرَّسُولَ ﷺ ملكَ الشَّامَ بخلفائِه ودينِه، فإن الشَّامَ فُتِحتْ في عهدِ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعمرُ هوَ الخليفةُ الثَّاني بعدَ رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وسلمَ، فَفُتِحَتْ بدينِه وخلفائِه، فمَلَكَ النَّبيُّ ﷺ بدينِه، وخلفائِه ما تحتَ قَدمَيْ هِرقلَ.

فالنَّصارَى يعلمونَ أن المُسْلمينَ لو رجعُوا إلى ما كانَ عليهِ الرَّسُولُ ﷺ وأصْحَابُه، فسيزلزلونَ الأرْضَ تحتَ أقدامِهم، ويملكونَ أراضِيهم، ولذلكَ هم يخافونَ منَ الإِسْلامِ أشدَّ من كلِّ شيءٍ، ويحاولونَ القضاءَ عليهِ، وما شأنُ النَّاسِ في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رَسول الله ﷺ؟، رقم (٧)، ومسلم: كتاب المغازي، باب كتاب النَّبي ﷺ إلى هرقل، رقم (١٧٧٣).

البُوسنةِ والهرسكِ ببعيدٍ، فإنَّنا نسمعُ في الأخبارِ ما تقشعِرُّ منهُ الجلودُ، وتنفرُ منهُ النفوسُ، وتنكره الفِطرُ السَّليمةُ مما يَفعلُ هؤلاءِ النَّصارَى الضَّربُ بالمُسْلمينَ؛ لأنهم لا يريدونَ أن توجدَ دولةٌ إسلاميةٌ في وسطِ أوروبا، إذ إن هذا خطرٌ عليهمْ، ولذلكَ نجدُ الأممَ الكَافِرةَ صامتةً على هذا الموضوعِ، ولم تُحركْ ساكنًا، مع أن هذا يُنافي مِيثاقَ الأُممِ المتحدةِ، ويخالفُ جميعَ الأَعرافِ، لكن حالَهم يقولُ: لَم آمُرْ بِهَا، وَلَم تَسُؤْنِي.

ولكنَّنا نستجيرُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ ونستنصرُ بهِ على كلِّ عدوٍّ للإسلامِ والمُسْلمينَ، ونسألُ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن ينصرَ دينَه، ويُعليَ كلمتَه، وأن يعذِّبَ هؤلاءِ بعذابٍ من عندِه، أو بأيدينَا، إنهُ جَوادٌ كريمٌ، وما ذلكَ على اللهِ بعزيزٍ.

وإني أوصيكُم -أيها الإخوةُ- أن تدعُو اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في كلِّ موطنِ إجابةٍ، وفي كلِّ زمنِ إجابةٍ، وفي كلِّ حالِ إجابةٍ، أن تدعُو اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن ينصرَ المُسْلمينَ في كلِّ مكانٍ.

وفي قولِه تَعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥-٤٦]، استدلَّ بعضُ العُلَماءِ بهذهِ الآيةِ على إثباتِ عذابِ القبرِ، وقالَ إن عذابَ القبرِ ثابتٌ بالقُرآنِ والسنةِ وإجماعِ المُسْلمينَ، وهذا الاستدلالُ حقٌّ، فاللهُ تعالى يقولُ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

فقولُه تعالى: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ﴾ يعني قبلَ قيامِ السَّاعةِ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وهناكَ آيةٌ أُخرى تدلُّ على ذلكَ وهيَ قولُه

تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾، أي أيدي الملائكةِ، ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ اليوم أي اليومَ الحاضرَ، فـ (ال) هنا للعهدِ الحضوريِّ، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وتأملُوا قولَه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، مما يدلُّ على أن هؤلاءِ شَحِيحُونَ بأنفسهم لا يريدونَ أن تخرجَ الأنفسُ منَ الأجسادِ، لأنهم والعياذُ باللهِ إذا نزلَ بهمُ الموتُ ونزلتْ بهم ملائكةُ العذابِ يقولونَ لأرواحِهم: اخرجي أيتُها النَّفسُ الخبيثةُ، اخرجِي إلى غضبِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وسخطِه فإذا سمعتِ النَّفسُ أوِ الروحُ هذا الوعيدَ تفرقتْ في البدنِ ونفرتْ ولم تُردِ الخروجَ ولكنَّهم ينتزعونَها بشدةٍ عظيمةٍ مِن هذا البدنِ الَّذي تشبثتْ بهِ، أما المؤمنُ فإنهُ تأتيهِ ملائكةُ الرَّحمةِ وتبشرُه بالجنةِ ورضوانٍ منَ اللهِ فتخرجُ نفسُه منقادةً كالشعرةِ تُسلُّ منَ العجينِ[(١)].

فعذابُ القبرِ ثابتٌ بالقُرآنِ والسنةِ المتواترةِ عمليًّا بين المُسْلمين، فكلُّنا نقرأُ في صلواتِنا هذا الدعاءَ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[(٢)]، فكلُّ المُصلينَ يقرءونَه في صلواتِهم، فهوَ إذنْ متواترٌ ولا يمكنُ أن نقولَ «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧)، والحاكم (١/ ٩٣ ٩٨، رقم ١٠٧، ١٠٩ ١١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٥٥، رقم ٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر، رقم (١٣١١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب ما يستعاذ منه في صلاة، رقم (٥٨٨).

عَذَابِ القَبْرِ» وليسَ في القبرِ عذابٌ.

ووردتْ أحاديثُ خاصةٌ في عذابِ القبرِ على فعلِ شيءٍ معينٍ منهَا:

أولًا: حديثُ عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النَّبيَّ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلمَ مرَّ بقبرينِ قالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ**»، فالجملةُ هنا مؤكَّدةٌ، «**وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ**» أي في أمرٍ شاقٍّ عليهما بل هوَ في أمرٍ سهلٍ، «**أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»، فهذانِ الفعلانِ من أسبابِ عذابِ القبرِ، عدمُ التنزهِ منَ البولِ، والاستبراءِ منهُ، فإذا أصابَ ثوبَك رَشَاشٌ منَ البولِ وتهاونتَ بهِ ولم تطهرْه فهذَا من أسبابِ عذابِ القبرِ، وإذا قَضَيْتَ الحَاجةَ ولم تَستنجِ استنجاءً شرعيًّا، سواءٌ بالماءِ أو بالأحجارِ، فهذا من أسبابِ عذابِ القبرِ، وإذا كانَ لا يستنزِهُ منَ الغائطِ فهوَ في الوعيدِ مثلُ البولِ، فلا فرقَ، وكلاهُما نجسٌ، «**وَأَمَّا الآخَرُ: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»[1]، فالنميمةُ أن ينقلَ الحديثَ من شخصٍ لآخرَ من أجلِ الإفسادِ بينهُما، فالنميمةُ من أسبابِ عذابِ القبرِ والعياذُ باللهِ.

ثم أخذَ النَّبيُّ ﷺ جَريدةً رَطْبة فَشقَّها نصفينِ وغرزَ في كل قبرٍ واحدةً، قالوَا: لمَ صنعتَ هذا يا رَسولَ اللهِ؟ قال: «**لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَم يَيْبَسَا**»[2]، لعل للترجِّي أي أرجُو أن يخففَ اللهُ عنهمُ العذابَ ما لم ييبسا، وهذا نوعٌ منَ الشَّفاعَةِ من رَسولِ اللهِ ﷺ لهذينِ القبرينِ اللذَينِ يعذبانِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٥)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدَّليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدَّليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

فإن قالَ قائلٌ: هل يُشرعُ لنا نحنُ أن نضعَ على القبرِ غصنًا رطبًا من جَريدٍ أو غيرِه أو لا يُشرعُ؟

فالجوابُ: لا يُشرعُ ذلكَ، والَّذي يضعُ جَريدةً رَطْبَةً، أو شجرةً أو ما أشبهَ ذلكَ على القبرِ، فإنه يُسيءُ إلى صاحبِ القبرِ، لأنهُ اتهمَهُ بأنه يُعذبُ، ولو سئلَ هذا الَّذي يضعُ الجريدةَ على القبرِ، هل تشهدُ أن صاحبَ هذا القبرِ يُعذبُ، ففعلُك هذا يدلُّ على أنكَ تشهدُ بأنهُ يُعذبُ؛ لأن الرَّسُولَ ﷺ لم يكنْ يضعُ الجَريدةَ الرَّطبةَ على كلِّ قبرٍ، بل وضعَها على قبرينِ يُعذبانِ، فإذا وضعتَ على القبرِ جريدةً أو شجرةً أو ما أشبهَ ذلكَ، فيلزمُ من هذا الوضعِ أن تكونَ شاهدًا بأن صاحبَ هذا القبرِ يُعذبُ.

فالَّذينَ يفعلونَ هذا يُسيئونَ إلى ميِّتِهم إساءةً عظيمةً، ثم إنهم اتبعُوا ما لا علمَ لهمْ به، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

ثم إنهُم ابتدعُوا في الدينِ ما ليسَ منهُ، فإن الرَّسُولَ ﷺ لم يكنْ يضعُ ذلكَ على كلِّ قبرٍ بل وضعَهُ أو وضعَ الجريدةَ على مَن كانَ يُعذبُ.

قولُه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

الآلُ: هنَا بمعنَى الأتباعِ على دينِه وعلى مِلتِه، وهكذَا نقولُ في قولِنا: اللَّهُمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، أن المرادَ بآلِه أتباعَه على دينِه، وذلكَ أن كلمَةَ آلٍ إن قُرنَ معهَا الصَّحبُ والأَتباعُ صارَ لها معنًى، وإن أُفردتْ صارَ لها معنًى آخرَ، فإذا قيلَ: اللَّهُمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِه وأصْحَابِه ومَن تبعهُم بإحسانٍ، صارَ المرادُ

بالآلِ مَن ليسوا أهلَ بيتِه.

وإذا قلنَا: على محمدٍ وعلى آلِه وأصْحَابِهِ وأتباعِهِ بإحسانٍ، فالمرادُ بالآلِ هنا: مَن آمنَ بِهِ من آلِ بيتِه، ليخرجَ مَن كفرَ بِهِ من آلِ بيتِه فإنهُ لا كرامةَ لهُ، ولا يدخلُ في الآلِ مثلُ أبي لهبٍ عمِّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقد أنزلَ اللهُ فيهِ سورةً كاملةً منَ القُرآنِ الكريمِ تُتلى إلى يومِ القِيامَةِ.

فإذا قلنَا: اللَّهُمَّ صلِّ على محمدٍ، وآلِه وأصْحَابِه ومَن تبعهُم بإحسانٍ يشملُ: الآلَ الَّذينَ آمنُوا بهِ مِن أهلِ بيتِه، أما أصْحَابُ الرَّسُولِ فكلُّ مَن آمنَ بهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ واجتمعَ بهِ وماتَ على ذلكَ فهوَ معَ أصْحَابِه؛ ولهذا قالَ العُلماءُ أجمعُ تعريفٍ للصحابيِّ: أنهُ مَنِ اجتمعَ بالنَّبيِّ ﷺ مؤمنًا بهِ وماتَ على ذلكَ، وأتباعُه هم الَّذينَ كانوا على نهجِه وسيرتِه عقيدةً قولًا وفعلًا.

وينبغي عندَ ذكرِ الأتباعِ أن نُقيدَها فنقولُ أتباعٌ بإحسانٍ كما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠]، فتقَيدُ بإحسانٍ لئلا يدخلَ مَن زعمَ أنه متبعٌ لهم، ولكنَّهُ لم يُحسنْ.





سورة فصلت

الدَّرس الأوَّل:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورَسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَعالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت:١-٣].

ابتدأَ اللهُ تَعالَى هذه السورةَ بحرفينِ هجائيينِ، وهما: ﴿حمٓ﴾. والحروفُ الهجائيَّة من حيثُ اللغةُ العربيَّةُ الَّتي نزلَ بها القُرآن ليس لها معنًى في ذاتها، بل هي حروف هِجائيَّةٌ يُركِّب النَّاطقونَ منها كلامهم، وليس لها معنى في حدِّ ذاتِها، ولذلك لو كُتب لك الحروفُ الهجائيَّة من أوَّلها الألف إلى آخِرِها الياء وقرأتَها فلا تَفهَم شيئًا؛ لأنها حروف هِجائيَّة منها يَتكوَّن كلامُ البشرِ.

فإذا علِمنا ذلك، وعلِمنا أن القُرآنَ نزلَ بلغةِ العربِ؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥] بيِّنٍ واضِحٍ؛ إذا علِمنا ذلك علِمنا أن هذه الحروف الهِجائيَّةَ ليس لها معنًى في حد ذاتها؛ لأن القُرآنَ عربيٌّ نزل باللغةِ العربيةِ،

والحروفُ الهِجائيَّةُ في اللغةِ العربيةِ ليس لها معنًى في حد ذاتها. وقد ذكرَ ابنُ كثيرٍ هذا عن مُجاهِد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو إمامُ المفسِّرينَ في التَّابعينَ، أَنَّه ليس لها معنًى في حدِّ ذاتِها[1].

ولكن يَرِد على هذا إشكالٌ، وهو كيف يكون في القُرآنِ العظيمِ ما ليس له معنًى؟

فيُقال: المعْنَى نوعانِ:

- نوعٌ دلَّ عليه اللفظُ بمُقتضَى تَركيبِه، وهذا واضِح.
- ونوعٌ دلَّ عليه اللفظُ من حيثُ المغزى.

والمغزى هنا أن نقولَ: إن هذا القُرآنَ الَّذِي أعجزَ العربَ، وهم أفصح الفصحاءِ، وأبينُ أهلِ البيانِ، إنَّه لم يأتِ بحروفٍ لا يُرَكِّب العربُ كلامَهم منها، وإنما أَتى بحروفٍ العربُ يركبون كلامَهم منها، ولو جاء العربَ بحروفٍ جديدةٍ لَكان عجزهم عن ذلك أمرًا مَعقولًا، لكنَّه لم يأتِ إلى العربِ إلَّا بالحروفِ الَّتي يركِّبون منها كلامَهم، ومع ذلك عَجَزوا أن يأتوا بمثلِ هذا القُرآن، بل عجزوا أن يأتوا بعشرِ سُوَرٍ منه، بل عجزوا أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ منه، بل عجزوا أن يأتوا بحديثٍ مِثله، ولو أقلَّ من سورةٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ يعني أن مُحَمَّدًا قاله من عنده ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور:٣٣].

فهم غير صادقينَ بقولهم هذا؛ لأنهم يَعلمون أن مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم لا يمكِن أن يأتيَ بمثلِه: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٤]،

(١) تفسير القُرآن العظيم (١/ ١٥٩).

فهل أتى العرب الحريصونَ على دفْع آية النَّبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإبطالها، هل أتى العرب بمثلِه؟

نقول: لا واللهِ عَجَزوا، بل إن العرب سَحَرهم القُرآنُ سِحرًا حتَّى كان مِن أكابرهم مَن يأتي إلى النَّبيِّ ﷺ يجلِس حوله سِرًّا يَسمَع قراءتَه؛ لأنَّه سَحَرَهم، وعَجَزوا عن أن يأتوا بمثله.

فدلَّ ذلك على أنَّه ليس من كلامِ البشرِ، بل هو من كلامِ الخَالِقِ جَلَّوَعَلَا، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ مُتَحَدِّيًا جميع الخلق من الجن والإنسِ أن يأتوا بمثل هذا القُرآن فقال تَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ لو اجتمع الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القُرآن لم يُمْكِنهم ذلك، وإذا تعاونوا فإنهم لا يأتون؛ لقولِه: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

فتبيَّن بهذا أن القُرآنَ ليس من كلامِ البشرِ، ولكنَّه من كلام ربِّ العَالمينَ عَزَّوَجَلَّ.

إذن لو سألَنا سائلٌ: ما تقولون في الحروفِ الهجائيَّة الَّتي ابتدأ الله بها بعضَ السُّوَرِ؟

فالجَواب: أما من حيثُ المعْنَى الذاتيُّ لها فليس لها معنًى، والدَّليل أن القُرآن نزل بلغةِ العربِ، ولغةُ العربِ ليس للحروف الهجائيَّة فيها معنًى ذاتيٌّ، ولكن الله أنزلها لحكمةٍ، وهي أن هذا القُرآن الَّذِي تحدَّى به العربَ لم يأتِ بحروفٍ جديدةٍ لم يَعرِفْها العربُ، حتَّى يقولوا: لا نستطيع أن نأتيَ بمثلِ هذه الحروفِ، ولكنَّه أتى بكلامٍ من حروف العربِ، ومع ذلك عَجَزوا.

قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾.

أوجه الإعرابِ قد تكونُ متعددةً، وأحسنُ ما يقال في إعرابها أن (تنزيلٌ) خبرٌ مُقَدَّم، و(كتابٌ فُصِّلت آياتُه) مبتدأٌ مؤخَّر، والتقديرُ: كتابٌ فُصِّلتْ آياتُه تنزيلٌ من الرَّحمنِ الرَّحيمِ، هذا أحسنُ ما يقال فيها، ولا يحتاج إلى تقدير، وكلما استغنينا عن التقديرِ في الإعرابِ كان أولى؛ لأن التقدير يعني أن في الكلام حَذفًا، والأصل عدم الحذف.

قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يعني أن الكتابَ -وهو القُرآن- منزل من عند الله، وتأمَّل قولَه: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لِيَتبيَّنَ لك أن شرائع هذا الكتاب مبنيَّة على الرَّحمةِ؛ لأنَّه نزل من الرَّحمنِ الرَّحيمِ، والنَّازلُ من الرَّحمنِ الرَّحيمِ لا بُدَّ أن يَتَضَمَّنَ الرَّحمةَ، وهو كذلك؛ فإن الشَّريعةَ الإِسْلاميَّةَ مبنيةٌ على الرَّحمةِ، وعلى التسهيلِ، وعلى التَّيسيرِ.

وأصلُ إنزالها لمصلحةِ الخلقِ، فإن اللهَ غنيٌّ عنَّا؛ إنْ أطعناه لم تنفعْه الطَّاعة، وإنْ عصينا لم تضرَّه المعصيةُ، ولكن لرحمتِه إيَّانا شَرَعَ لنا ما شرعَ حتَّى يُثِيبَنا على الطَّاعاتِ، وحتى يعفوَ عن السيِّئاتِ، إلَّا ما لا يعفو الله عنه كالشركِ؛ فإن اللهَ تَعَالَى يَغفِر كلَّ شيءٍ لمَن شاء إلَّا الشرك.

وفي قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دليلٌ واضحٌ على أن القُرآنَ كلامُ اللهِ. وقد جاءتْ آيةٌ مصرِّحة بأن القُرآن كلامُ اللهِ، وهي قوله تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة:٦]. يعني القُرآنَ، بالاتفاقِ، فالقُرآنُ كلامُ اللهِ؛ لأن الله تَعَالَى أضافَ تنزيلَه إليه، والَّذي أضافَ اللهُ تنزيلَه إليه

ينقسمُ إلى قسمينِ:

- عين قائمة بنفسها فهو مَخلوق، ووصف لله عَزَّوَجَلَّ فهو غير مخلوقٍ.
- فهل القُرآن عينٌ قائمةٌ بنفسها أم وصفٌ للمتكلِّم؟

الجَواب: الثَّاني، إذن هو كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يمكِن أن يُضيفَ الله تَعَالَى كلامًا أو إنزالَ كلامٍ إلى نفسِه والمتكلِّمُ به غيرُه، لا يمكن هذا إطلاقًا؛ لأن ذلك يُعتبَر تدليسًا وتلبيسًا، وقرآنُ اللهِ تَعَالَى وكلامُ اللهِ تَعَالَى كله بيانٌ وهدًى. فيُستفاد من الآيةِ أن القُرآنَ كلامُ اللهِ.

وهل القُرآنُ كلامُ اللهِ باللفظِ أو بالمعْنَى؟

زعم بعضُ النَّاسِ أن الله لا يَتكلَم كلامًا يُسمَع، وإنما كلامه معنًى قائم بنفسه، ثمَّ يخلق أصواتًا تعبِّر عما في نفسِه، وعلى هذا فمعنى تكلَم اللهُ أو كلَم اللهُ على رأيهم: خَلَقَ كلامًا سمِعه المُخاطَب.

ولا شَكَّ أن هذا تحريفٌ للكلِم عن مَواضعِه؛ لأنَّه لا أحدَ يَفهَم إذا كان ذا فِطرةٍ سليمةٍ أن معنى كَلَم اللهُ: خلق كلامًا في غيرِه أبدًا؛ إلَّا مَنِ انحرفتْ فِطرتُه، فنشكو إلى الله تَعَالَى ذلك، ونسأله أن يهديَه صراطهُ المستقيم.

فكلام الله -يا إخواني- هو المعْنَى واللفظُ، فالقُرآن تكلَم اللهُ تَعَالَى به كلامًا مَسموعًا سمِعه جبريلُ، ثمَّ ألقاهُ إلى قلبِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم. ولهذا قَالَ اللهُ تَعَالَى لنبيِّه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القِيامَة:١٦-١٨].

فجعلَ قراءةَ جبريلَ قراءةً له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ جبريلَ مُرسَل به، فيكون كلامُ المرسَل كلامًا لمَن أرسلهُ، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ﴾، ومعلوم أن القارئَ على النَّبي ﷺ هو جِبريل، لكنَّه يقرأ كلامًا من اللهِ، فكأن الله قرأهُ على النَّبي صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّم.

فالقُرآن إذن كلامُ اللهِ، فيجب علينا أن نَلقَى ربَّنا ونحن نؤمنُ بأن القُرآن كلامه؛ لفظه ومعناه، فمن لاقَى ربَّه وهو يَعتقد أن الله خلقَ أصواتًا لتعبِّر عما في نفسِه فقد أخطأَ خطأً عظيمًا، فالشيءُ المُضمَر في النَّفسِ لا يُسمَّى كلامًا، فلا يُعَدُّ كلامًا بل يُعَدُّ حديثَ نفسٍ، ويُعد تفكيرًا، أما أن يُعد كلامًا فلا.

قالوا: إن الله تَعَالَى قال: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة:٨].

فنقول: هذه الآية الَّتي استدللتمْ بها هي حُجَّة عليكم، وليستْ حجةً لكم؛ لأن الله لما أرادَ القولَ في النَّفسِ قيَّد؛ قال: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، فالقولُ إذا أُطلِق والكلام إذا أُطلق فهو اللفظُ والمعنَى، أما إذا قُيِّدَ فهو حسَبَ ما تَقَيَّد به، فالقُرآن الكريم قَالَ اللهُ تَعَالَى فيه: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، والحديث النبويُّ قال فيه النَّبي صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلهِ وسلَّم: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تتَكَلَم**»[1].

لذلك ندْعُو إخوانَنا الَّذِينَ يَعتقِدُون هذِه العقِيدةَ -أن الله ليس يَتكَلَم بكلامٍ مسموعٍ- أن يفكروا في الأمرِ بعلمٍ وعدلٍ، لا بهوًى وتقليدٍ، وأن يجرِّدوا أنفسَهم

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطَّلاق، باب الطَّلاق في الإغلاق والكره.. رقم (٥٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النَّفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

من قَول كلِّ قائلٍ إلَّا قول الله ورَسولِه، وحينئذٍ يَتبيَّنُ لهم أن قولَ اللهِ، وكلام الله هو كلامه المسموع، وأن الله تَعَالَى يتكلم بصوتٍ مسموعٍ، يُسمِعه مَن يشاء من خلقه.

علوُّ الله عَزَّوَجَلَّ:

وفي قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دليلٌ على علوِّ اللهِ. ووجهُهُ أن النزولَ لا يكون إلَّا من علوٍّ، فإذا كان نازلًا من الرَّحمنِ فالرَّحمنُ إذن عالٍ في السَّماء.

وهذا القولُ هو الَّذِي دلَّ عليه الكتابُ، والسُّنة، وإجماعُ الصَّحَابَةِ، والعقلُ، والفِطرةُ، خمسةُ أنواعٍ من الأدلَّة، فكل ما يمكِن أن يكون دليلًا فقد دلَّ على علوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنه عالٍ جَلَّوَعَلَا بذاتِه فوقَ كلِّ شيءٍ:

القُرآن والسنة:

أما القُرآن فمملوءٌ من ذِكر العلو، وأما السنَّة فكذلك، وقد جاءتِ السنَّة بإثباتِ العلوِّ على وجوهٍ ثلاثةٍ: قَوليَّة، وفعليَّة، وإقراريَّة.

فأمَّا القوليَّة فإنَّنا نعلم أن الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يُصَلِّي ويسجُد، ويقول في سجوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**».

وأما الفعليَّة فإنه كان في حَجَّةِ الوداعِ يَرفَع أُصبُعه إلى السَّماءِ يُشهِد الله عَزَّوَجَلَّ على إقرار أُمَّتِه بأنه بلَّغ البلاغَ المبينَ، فإنه ﷺ خطب النَّاسَ يومَ عَرَفَةَ في حجَّة الوداعِ، وهو أكبرُ اجتماعٍ يكونُ بينَ الرَّسُول ﷺ وبين الصَّحَابَة، خطبهم خطبة بليغةً، وقال: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**». قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ.

اللهُمَّ ارضَ عنهم، ونحن نَشهَد بما شهِد به الصَّحابَة؛ أنَّه ﷺ قد بلَّغ الرِّسالَةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأُمَّةَ.

فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «**اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[١]. فيشير إلى الله في عُلُوِّه.

فهل يُعقَل أن الرَّسُول يشير بأصبعه إلى السَّماء يقول: «**اللهُمَّ اشْهَدْ**» دون أن يُريد إثباتَ علوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ! لا يُعقَل.

أما الإقرار فإنه سأَلَ جاريةً مملوكةً عبدةً، والغالبُ أن الجواريَ لا عِلمَ عندهنَّ، قال لها: «أَيْنَ اللهُ؟» و(أين) يُستفهَم بها عن المكانِ، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. فقال لسيدها: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[٢]. ولم ينكِرْ عليها قولها: إن الله في السَّماء، بل أقرَّها، وقال: هذا هو الإيمان.

الفطرة:

أما الفِطرة فلو سألتَ أيَّ واحدٍ لم يُغلَّف على قلبه: أين الله؟ لقال: في السَّماء.

ولو رأينا كلَّ داعٍ يؤمِن باللهِ يدعو الله لوجدناه يرفعُ يديْه إلى السَّماء، وقلبه إلى السَّماء، فهو يرفع قلبَه ويديْه إلى مَن يدعوه، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

العقل:

وأما العقلُ فباللهِ عليكم لو سألنا: أيما أكملُ: مَن يُوصَف بالعلوِّ أو مَن لا يُوصَف به؟ لقيل: الَّذِي يُوصَف بالعلوِّ أكملُ، فكل العقول تدلُّ على هذا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النَّبي ﷺ، رقم (١٢١٨).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصَّلاة، باب تحريم الكلام في الصَّلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

إجماع الصَّحابَة:

أما إجماع الصَّحَابَة، وهم خير النَّاس، على أن الله تَعَالَى في السَّماء، فأنه لا يوجدُ عنهم حرفٌ واحدٌ يقول: إن الله ليسَ في السَّماءِ، أبدًا، فكلُّهم مُجْمِعُونَ على ما دلَّ عليه الكتابُ والسنَّة من علوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكيف بعد هذا يأتي إِنْسان ويقول: إن الله ليسَ في العلوِّ!

والَّذين أنكروا العلوَّ انقسموا إلى قسمينِ:

قسم قالوَا: إن الله بذاتِه في كلِّ مكانٍ، أعوذُ باللهِ، أعوذ بالله، أعوذ بالله! كيف يستطيع عاقلٌ أن يتفوَّه بهذا: إن الله بذاتِه في كل مكان! لا إِلَهَ إلَّا اللهُ! ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٣].

فعلى هذا القولِ إن كنتَ في السوقِ فالله -على قولهم- في السوق، وإنْ كنتَ في المسجد فالله في المسجدِ، وإن كنتَ في المِرحاض -تَعَالَى الله- على قولهم يَلزَمهم بهذا أن يقولوا بهذا، وإلا فقد تناقضوا: فالله في المرحاض! مَن يستطيع أن يَصِفَ اللهَ بأنه في المرحاضِ! نسأل الله العَافيةَ، فهذا أمرٌ خطيرٌ جِدًّا، ولا يمكِن للإِنْسان أن يلاقيَ ربَّه على هذه العقيدةِ.

فلْيَتُبْ إلى اللهِ تَعَالَى مَنِ اعتقدَ هذا قبل فواتِ الأوانِ، قبل ألَّا يستطيعَ التخلُّصَ من هذه الورطةِ العظيمةِ، فأنت الآن إذا كنتَ في السوقِ فالله في السوقِ، وإذا كنت في المسجدِ فالله في المسجدِ، وفي البيت فالله في البيت، وفي المثال الآخر في المرحاضِ يَلزَم من قولهم أن يكونَ الله في المرحاضِ، فلو كان واحدٌ آخرُ في السوقِ وأنت في المسجدِ فأين اللهُ؟ على قولهم في السوق والمسجد، فإما

أن يكون الله اثنينِ فأكثر ممَّا لا حصرَ له، وإما أن يكون اللهُ مُتَجَزِّئًا مُتَفَرِّقًا، وكلاهما باطِل.

النَّصَارَى لما قالوا: إن الله ثالثُ ثلاثةٍ كفَّرهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فكيف بالَّذي يقول: إن الله في كلِّ الأمكنةِ! فالمسْأَلَة خطيرةٌ جِدًّا جِدًّا، وأنا قلت هذا عِدَّةَ مراتٍ مِن على هذا الكرسيِّ في هذا المسجدِ؛ لأنني أعلمُ أن من أُمَّة الإِسْلامِ مَن يقول بهذا، وأسأل اللهَ تَعَالَى أن يَهدِيَهم إلى الحقِّ قبل أن يَمُوتوا فيفارقوا الجماعةَ، فهذه مسألةٌ خطيرةٌ، ويجب أن تَعتقدَ بأن الله تَعَالَى في السَّماءِ فوقَ كلِّ شيءٍ.

ولكن هل هناك شيءٌ مِن مخلوقاتِه أحاط به، أو أن الله هو المحيطُ بكل شيءٌ؟

الجَواب: الثَّاني لا شَكَّ في هذا، فإذا كان ما فوق المخلوقاتِ ليس فيه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ لم يكن شيءٌ من المخلوقات مُحِيطًا بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله تَعَالَى فوقَ كل شيءٍ، وكلُّ الأشياءِ بالنِّسبَةِ له ليستْ بشيءٍ.

أخبر النَّبيُّ ﷺ فيما يُروَى عنه أنه قال: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**» أي: حَلْقة المِغفَر، وهي صغيرة جِدًّا ما يدخل فيها الإصبع «**وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ**»[1].

فلا أحد يمكنه أن يقول: إن الله تَعَالَى قد أحاط به شيء، فالله تَعَالَى مُحِيط بكلِّ شيءٍ، وليس شيءٌ من مخلوقاتِه مُحيطًا به، وإذا أَثْبَتْنَا أن اللهَ فوقَ كلِّ شيءٍ ولا يُحِيط به شيءٌ؛ فأيُّ عقلٍ ينكِر هذا ويقول: إنك وصفتَ الله بما لا يَلِيق به، فالعقل يُنكِر كلَّ الإنكارِ أن تقول: إن الله بذاته في كلِّ مكانٍ.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦، رقم ٣٦١).

وهناك قسمٌ آخرُ أنكر علوَّ اللهِ وقال: لا يجوز أن تقول: إن الله فوق المخلوقاتِ، ولا تحتَ المخلوقاتِ، ولا عن يمينِ المخلوقاتِ، ولا عن شمالها، ولا مُتَّصِل بها، ولا مُنفصِل عنها.

فإذا قلنا: إن الله ليس هكذا فأين الله؟! ليس موجودًا! ولهذا قال بعض العُلَماءِ: لو قيل لنا صِفوا الشيء المعدومَ ما وجدنا وصفًا أدقَّ من هذا الوصفِ، أن تقولَ: المعدومُ مَن ليس فوق، ولا تحت، ولا يمينًا ولا شمالًا، ولا مُتَّصِلًا بالخَلق، ولا مُنفصِلًا عن الخلق[1]، فهذا المعدوم، لكنك وصفتَه بأوصافٍ سلبيَّةٍ، والوصفُ بالأمورِ السلبيةِ لا يجوزُ إلَّا عند الضرورةِ.

فاحمدِ اللهَ -يا أخي- أن هداك صراطَه المستقيمَ، وأن هداك لما اختُلف فيه من الحقِّ، إنَّه يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ، وانتشِلْ إخوانَكَ من هذه الورطةِ، الَّتي وقعَ فيها بعضُ النَّاس الَّذِينَ يقولون: إن الله في كل مكان.

شُبهة من يقولون: إن الله في كل مكان:

وشبهتُهم غريبةٌ، وعجبًا لهم ولأمثالهم، أن يَدَعُوا المُحكَم من القُرآنِ ويأخذوا بالمُتشابِه، فالَّذِينَ يَدَعُونَ المُحْكَم ويأخذون بالمُتشابِه قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُم**»[2].

وأنا -واللهِ- لا أُحِب أن أتكلمَ بهذا الكلامِ، لكن الأمر شديد، وليس لنا مَحِيد

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القُرآن، باب ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، رقم (٤٥٤٧)، ومسلم: كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القُرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القُرآن، رقم (٢٦٦٥).

عن كلامِ اللهِ ورَسولِه، فكلُّ إنْسانٍ يَتَّبعُ المُتشابِهَ ويَدَع المُحكَم فقد قال فيه النَّبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُم**».

وكيف سَمَّى اللهُ؟

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران:٧] يعني مَرجِعَه، أي الَّذِي يجب أن يُرَدَّ إليه الكتابُ، وإذا رُدَّ المُتشابِهُ من الكتاب إلى المُحكم صار الجميع مُحكَمًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ فيها اشتباه، وفيها احتمال ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ يعني ويتركونَ ما كان مُحُكَمًا، ويصنعون ذلك ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران:٧] فتنةِ النَّاسِ عن دِينهم وصَدِّهم عن دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

ولذلك لا تجد زعماءَ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يقولون: إن الله بذاتِه في كل مكانٍ من الصَّحابَةِ، ولا من أئمةِ التَّابعينَ، ولا من أئمةِ المُسْلمينَ بعدهم، إنَّما هي عقولٌ مُتناقِضَة مُتنافِرة، أوجبتْ أن يقولوا بهذا القولِ الفاسدِ المعلوم فسادُه بالضرورةِ من دينِ الإِسْلامِ.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]. وما موقف الرَّاسِخينَ في العلمِ؟

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] يعني المُتشابِه والمُحكَم من عند اللهِ.

وإلى أيِّ شيءٍ نَردُّ المُتشابِهَ؟

أشار الله تَعَالَى إلى شيءٍ نردُّه إليه فقال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني ردوا المتشابهَ

إلى أصلِه؛ إلى المحكَم؛ حتَّى يَتبَيَّنَ لكم.

فما هي الآياتُ الَّتي شَبَّهوا بها ولَبَّسوا بها، وليس لهم -واللهِ- فيها دليل، إلَّا إن كان ذِئب يُوسُفَ له حظٌّ من قتلِ يوسفَ -وليس له حظ، فإخوانه جاؤوا بدمٍ كذِبٍ على ثيابِه وقالوَا: أكله الذئبُ-.

قالوَا: إن الله تَعَالَى صرَّح في عدة آياتٍ أن الله مع كذا:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨].

وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة:٧].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد:٤]، وما أشبهَ ذلك.

فهذه الآياتُ شَبَّهوا بها، والعَامِّيُّ يُمكِن أنْ يَشتبهَ عليه هـذا، ولكن نقول: يا سُبْحَانَ الله! كيف تأتون بهذه الآيات المُتشابهاتِ، وتَدَعُونَ الآياتِ المُحكَماتِ؟!

والآياتُ المحكَماتُ بالنِّسبَة لمسألتنا أن الله فوقَ كل شيءٍ، أما هذه الآيات فليسَ فيها اشتباه لمَن فتحَ اللهُ قلبَه، ولمَن رَسَخَ في العلمِ قَدَمُه، فالمَعِيَّةُ لا تَقتضي الاختلاطَ، ولا تَستلزِم الاختلاطَ، فقد يكون الشيءُ مع غيرِه وهو بَعيد عنه؛ أرأيتَ القمرَ يسيرُ في كَبِدِ السَّماءِ، ألسنا نقول: «ما زِلنا نَسير والقمر معنا»؟ بلى نقول هذا، وكل المسافرين يقولون هذا؛ من العرب الَّذِينَ قبل الرَّسُول، والَّذين مع الرَّسُول، والَّذين بعد الرَّسُول، يقولون مثل هذا الكلام، ولا أحد منهم يشك في أن القمرَ مَوضُوع في السَّماءِ. فإذا كان لا تناقُضَ بين المَعِيَّة والعلوِّ في مخلوقٍ فكيفَ بالخَالِقِ جَلَّوَعَلَا الَّذِي لا يُماثل شيئًا من مخلوقاتِه.

كذلك أيضًا رجلٌ في مكةَ، وزوجتُه في أقصَى ما يكون من الشرقِ، وسألَنا سائلٌ: هل فلانةُ مع زوجها؟ فقلنا: نعم، والمعْنَى في عِصمته وليس المعْنَى أنَّها في مَكانه، بل في عصمته، مع بُعد ما بَينهما، وربما يقتضي هذا السؤال أن المعْنَى معه في صُحبته، مثل أن نقول: سافر فلانٌ من بلدِه إلى مكةَ، فحينئذٍ يَتوجَّه أن أقول: هل زوجته معه أي مُصاحبة له.

والضابطُ واللواءُ والفريقُ وما أشبه ذلك من الرُّتَب العسكريَّة، يقول الضابط للجند: ادخلوا ساحةَ القتالِ وأنا معكم، فهل معناه أنَّه في غُرفة القيادةِ، أو معناه أنَّه يخوض مِضمار الحربِ معهم؟

الجَواب: الأول، وهو الكلام الصَّحيح، فالله معنا عَزَّوَجَلَّ يَعلَمنا ويَسمَعنا ويَرانا ويدبِّرنا ويُحيط بنا، حتَّى إنَّه يعلم ما لا يكونُ، ويعلم ما لا يَظهرُ؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] نعلم ما تُوسوِس به نفسه قبل أن يظهرَ للنَّاسِ -اللهُمَّ اجعلْ بَواطِنَنا خيرًا من ظَواهرنا، وأَعِذنا من النِّفاقِ والرياءِ- بل إنَّه يعلم أكثر من ذلك، يعلم ما بين أيديهم إلى مـا لا نهايـة له، وما خلفهم كذلك، يعلم ما مَضَى مهما تطاوَلَ زَمَنُه؛ لأَنَّه جَلَّوَعَلَا لا يَنسَى، ويعلم المستقبَلَ مهما بعُد؛ لأَنَّه لا يَجهَل. فنحن نقول: إن الله معنا حقًّا لكنَّه في السَّماءِ، ولا مُنافاةَ ولا غَرابة.

وإن من أهمِّ الأمورِ هذه المسْألَة؛ لأنها شائعةٌ في كثيرٍ من العوامِّ، فكثيرٌ من العوامِّ يرى أن الله معك أي يمشي معك. أسأل الله العَافيةَ، فما يصحُّ هذا، فلذلك يجب علينا أن نبيِّن، وقد أخذَ اللهُ مِيثاق الَّذِينَ أوتوا الكتابَ، وأسأل الله أن يجعلنا

وإياكم من العُلَماءِ به وبِشرعِه، أن نبيِّن للنَّاسِ؛ لأن هذا في أَعناقنا، فإن لم نُبيِّنْ ما تَبيَّن لنا من كتابِ اللهِ دَخلنا في قوله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠].

فأنا أرى أن من واجبي أن أُبيِّن للنَّاس هذه المسْألَةَ الخطيرةَ، وأدعو جميع إخواني المُسْلمينَ إلى أن يُؤمِنوا بأن الله تَعالَى فوقَ كل شيءٍ، وأنه مُستوٍ على عرشِه الَّذِي هو أعلى المخلوقاتِ، فيجب أن نؤمنَ بهذا، ويجب أن نَلقَى اللهَ بهذهِ العقيدةِ، وإلا فإنَّا على خطأٍ.

أما الَّذِينَ قالوَا بأن الله لا يُوصَف بأنه فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متَّصِل ولا مُنفصِل، فهذا قول تَصَوُّرُهُ فقطْ يُغنِي عن رَدِّهِ؛ لأنَّه قولٌ باطِلٌ.

ولهذا قال محمودُ بنُ سبكتكين[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحد القوَّاد المشهورينَ، قال لبعضِ أهلِ الكلام، وهو مُحَمَّد بنُ فُورَك، وقد حاجَّه في العلوِّ فقال: إن الله لا يُوصَف بأنه فوق ولا تحت إلى آخِره، فقال: لو أردتَ تَصِف المعدومَ كيف كنتَ تَصِفه بأكثرَ مِن هذا؟![2].

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولذلك كان هذا القولُ مَهجورًا، لكن القول الَّذِي ما زال عليه بعض النَّاس اليوم، هو أن الله في كل مكانٍ، وهذا خطأٌ عظيمٌ، وخطَر جَسيمٌ،

---

(١) هو السلطان أبو القاسم محمد بن سبكتكين التركي، صاحب خراسان والهند. انظر سير أعلام النبلاء (١٧/ ٤٨٣).

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣)، والصواعق المرسلة (٤/ ١٢٨٧).

ولا يَحِلُّ لمؤمنٍ أن يَلقَى ربَّه بهذه العقيدةِ، بل عليه أن يصحِّحَ عقيدتَه، ويَبنيها على الحقِّ، حتَّى يلقَى اللهَ وهو يُؤمِن به حَسَبَ ما جاء في شَريعةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم.

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الدَّرس الثَّاني:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبِيِّين، وإمَام المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إِلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال الله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ إلى آخِرِ الآياتِ [فصلت:٣٠-٣١]، ففي هذه الآياتِ الكَريمةِ يُخبِرُ اللهُ -سبحانه- عن جَزاءِ الَّذين قالوَا: رَبُّنا الله ثم استقاموا، أي إنهم أَقَرُّوا واعتَرَفوا بأنَّ الله وَحْدَه هو رَبُّهم، ونَستفِيدُ هذا الحصرَ مِن تعريفِ رُكْنَي الجملةِ، فـ(رَبُّنا) هذا الركن الأول هو المبتدأُ، و(اللهُ) الرُّكْنُ الثَّاني وهو الخَبَر، والرُّكْنان هنا مَعْرِفَتانِ.

وقد ذكَرَ عُلماءُ البَلاغةِ أنَّ مِن طُرق الحَصْرِ تعريفَ الرُّكنَيْنِ في الجملةِ، يعني أنْ يكونَ طَرَفاها مَعْرِفَتيْنِ، أيْ رَبُّنَا اللهُ وَحْدَه لا رَبَّ لنا غَيْرُه، وهذا هو تَحْقِيقُ التوحيدِ، ثم استقاموا على شَريعةِ اللهِ، وهذا تَحْقِيقُ المُتابَعَةِ.

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾، تَتنَزَّل عليهم، ليس عندَ الموتِ فَقَطْ، بل في كلِّ موطنِ خَيْرٍ، تَتَنَزَّلُ عليهم الملائكةُ لِتُطَمْئِنَهَم وتُقرر نُفوسَهم ألا تخافوا ولا تحزنوا، ألا تخافوا على شيءٍ مُسْتقبَلٍ، ولا تحزنوا على شيءٍ ماضٍ، والإِنْسان دائمًا يَغْتَمُّ من الماضي، ويَهْتَمُّ للمستقبلِ، فإذا انتفى عنه الخير في المستقبل والحزن على الماضي تَمَّتْ له الرَّاحةُ والطُّمَأْنِينَةُ.

إذن لا تخافوا من مُسْتقبَلٍ، ولا تَحْزَنوا على ماضٍ ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، فلما نفوا عنهم ما يخافون ويحزنون أَثْبَتَ لهم ما يُسَرُّونَ بِهِ ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فالمَلائكةُ أَوْلِياءُ المُؤْمِنِينَ في الدُّنيا والآخرة، ولهذا تَجِدُ المُؤْمِن مُسَدَّدًا دائمًا في أقوالِه وأفعالِه؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُسَخِّر الملائكةَ بتَثْبيتِه، كما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢]، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ يعني في الآخرة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تطلبون، وهذا تمام النعيم، بل إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقولُ في سُورة ق ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

ثم قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ والنُّزل معناه: الضيافةُ الَّتي تُقَدَّم للضيفِ، فهؤلاء يحصل لهم ما يَشْتهون وما يَدَّعونَ نُزُلًا مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بمَغْفِرتِه لهم ورَحْمَتِهِ إياهم وَصَلُوا إلى هذا النُّزل، ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، كلمة (مَن) استفهاميَّةٌ لكن هذا الاستفهامَ بمعنَى النَّفْيِ، أي لا أَحَدَ أحْسَنُ قولًا مِمَّن دَعَا إلى اللهِ.

فإذا قال قائلٌ: ما الفائدةُ من كونِ الاستفهامِ يَقَعُ مَوقِع النَّفْيِ؟

قلنا: إن الاستفهام إذا جاء مُرادًا به النَّفْيُ صار مُشْرَبًا بالتَّحدِّي، يعني كأنَّ المُتكلِّم يَتَحدَّى المُخاطَبَ، يقول: أرني أَحْسَنَ مِن كذا وكذا، يعني لا أَحَدَ أحْسَنَ، وإذا كُنْتَ تَدَّعِي ذلك فأَرِنيهِ.

وهذه قاعدةٌ لطالبِ العِلْم يَنْبَغِي أن يَفْهَمَها، وهي: أَنَّ كلَّ استفهامٍ جاءَ بمعنى

النَّفْي فإنه يكون مُشْرَبًا معنى التَّحدِّي، فلا أَحَدَ أحسنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إلى اللهِ.

وتَأَمَّل قولَه: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى دِينِ الله عَزَّوَجَلَّ ليس يَدْعو النَّاسَ إلى قولِه، وهناك فرقٌ بين شخصٍ يدعو النَّاسَ إلى قولِه ويُرِيدُ أن يَنْتَصِرَ لقَوْلِه -سواءٌ أخطأ أم أصابَ- وبينَ شَخْصٍ يَدْعو النَّاسَ إلى سبيلِ الله، فالأَوَّلُ لا يَدْعو للهُدَى، وإنما يَدْعو للهَوَى، والثَّاني هو الَّذي يَدْعُو للهُدَى.

نعم لو أنَّ إِنْسانًا دعا لقولِه على أنه هو الحقُّ لا لأنه قولُه، فقد لا يُلامُ على ذلك، أما أن يَنتصِرَ لنفسِه ويُريد من النَّاسِ أن يأخذوا بقولِه لأنه قولُه، فهذا خَطَرٌ عظيم، وهذا الَّذي يريد من النَّاس أن يَقْبَلوا قولَه لأنه قولُه قد نَزَلَ مَنْزِلَةً.

فلا تُشْعِر بأنك تَدْعو النَّاسَ إلى قولِك لأنه قولُك، ولكن تدعوهم إلى قولك لأنه قَوْلُ اللهِ ورَسولِه، أي إنه هو الَّذي دلَّ عليه قولُ اللهِ ورَسولِه، فلا أَحَدَ أَحْسَنُ قولًا ممن دعا إلى اللهِ.

ومن عَلاماتِ كونِ الرجُلِ يدعو إلى قولِه لأنه قولُه أنَّك تَجِدُه إذا خالفه أَحَدُ النَّاسِ في اجْتِهادِهِ يَغْضَبُ، ورُبَّما يُعادِيه، ورُبَّما يَتَّخِذُ من تلك المخالفةِ تَسَلُّطًا على هذا المُخالِفِ بالقَدْحِ فيه في المَجَالِسِ، وفي كلِّ مُناسبةٍ، وهذا يَدُلُّ على أن الرَّجل لا يُريد الحقَّ، لأن الإِنْسان الَّذي يريد الحقَّ إذا أخذ به فإنه يَعْذِرُ غيرَه إذا أخذ به، فأنتَ مَثَلًا إذا كنتَ تُخالِفُني في رأيي فليسَ مِن حَقِّي أنْ أَلُومَك أو أَعْتَدِيَ عليك، كما أنه ليس من حَقِّك أن تَلُومَنِي أو تَعْتَدِيَ عَلَيَّ، لأنني لو لُمْتُكَ لكنتَ أنت بنَفْسِك تُوَجِّهُ إليَّ هذا، وتقول: أنا ألومك وأنت تُخالِفُني.

والإِنْسانُ الَّذي يُرِيد الحقَّ هو الَّذي يبتغي الحقَّ بقَدْرِ استطاعتِه، ولا يلومُ غَيْره

إذا خالفه فيما يُسَوَّغ فيه الاجتهادُ، وهذا له أمثلةٌ كثيرةٌ، منها: لو رأيتَ شَخْصًا إذا قام يصلِّي لا يَضَعُ يَدَهُ اليُمْنَى على يَدِه اليُسْرى في الصَّلاةِ، فتَجِدُ مِن النَّاس مَن يَكْرَهُ هذا الرجُلَ، ويُبْغِضُه ويُعادِيهِ ويَتكَلَم فيه في المجالسِ، مع أن هذا الرَّجل قد خَالَفَه لدليلٍ كان عندَه، وهذا خَطأٌ، بل أنت يجب عليك أن تَعْذِره فيما طريقُه الاجتهاد.

كذلك لو رأيتَ إنْسانًا إذا نزل للسجود يُقَدِّم يَدَيْهِ، وأنت ترى أن الرَّاجِحَ أن يُقَدِّم رُكْبتيهِ، فليس من حَقِّك أن تَلومَه على اجتهادِه وتجعل من ذلك سُلَّما للكلامِ فيه بينَ النَّاسِ والقدح فيه؛ لأنك إذا سَلَكْتَ هذا الطَّريقَ فسوفَ يَسْلُك هو هذا الطَّريقَ مَعَكَ أيضًا، ويَحْصُلُ التَّنازُعُ والتَّفرُّقُ والتباعُدُ.

ولو رأيتَ شَخْصًا إذا قام إلى الثَّانيةِ أو إلى الرَّابعةِ في الصَّلاةِ الرُّباعيةِ، جَلَسَ قَلِيلًا ثم قام، فصِرْتَ تَلُومُه على هذا الجلوس، فهذا أيضًا ليسَ من حَقِّك لأن هذا الرَّجل جَلَسَ عن اجتهادٍ، وهذا الَّذي أداه إليه اجتهادُه، فإنْ لُمْتَه على فِعْلِ ما أداه إليه اجتهادُه، فله الحقُّ أن يَلومَكَ في تَرْكِ الشيءِ الَّذي أداه إليه الدَّافعُ إليه اجتهادُك.

فالمُهِمُّ أن الدَّاعيةَ إلى اللهِ حقيقةً هو الَّذي لا يَدْعُو النَّاسَ لقولِه لأنه قولُه، بل يَدْعو النَّاسَ للحقِّ، وإن كان هو الَّذي قال به، ففَرْقٌ بين مَن يدعو النَّاسَ إلى الحَقِّ ويكونُ هو الَّذي قال به، وبين مَن يَدْعو النَّاسَ إلى قولِه.

على كلِّ حالٍ، قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، العَمَلُ الصَّالح ما جَمَعَ وَصْفَيْنِ: أنَ خَالِصًا للهِ، وأن يكونَ صَوَابًا على شريعةِ الله، أي مُوافقًا للشريعةِ، ولا تَتَحقَّق الموافقةُ للشريعةِ إلا إذا كانتِ العِبادةُ مُوافِقةً للشريعةِ في أمورٍ سِتَّةٍ: في سَبَبِها، وجِنْسِها، وقَدْرِها، وكَيْفِيَّتِها، وزَمَانِها، ومكانها، فلو أَنَّ أحدًا من النَّاسِ تَعَبَّد

للهِ عبادةً بسببٍ غَيْرِ شَرْعِيٍّ فعِبادَتُه مردودةٌ عليه، مثل لو تَعَبَّد للهِ عَزَّوَجَلَّ بالثناءِ على رَسولِ اللهِ ﷺ ليلةَ مَوْلِدِه، قلنا: هذا بِدْعةٌ مَرْدودةٌ على مَن قـام بها، لأنَّ الشَّرْع لم يَجْعَل مَوْلِدَ رَسولِ اللهِ ﷺ سَبَبًا للثَّناء عليه والاجتماعِ على الصَّلاةِ عليه، وما أَشْبَهَ ذلك.

في جِنْسها: لو تَعَبَّدَ الإِنْسانُ للهِ بعبادةٍ بجِنْسٍ غيرِ مشروعٍ، مثل أن يُضَحِّيَ الإِنْسانُ بفَرَسٍ، ومعلومٌ أن الفرس أغلى في الغالبِ من البَقَرةِ، فلا تُجْزِئُ الأُضْحِيَّة بالفَرَسِ، لأنه ليس موافقًا للشريعةِ في الجِنْسِ، إذ إنَّ الأضاحِيَّ لا تُشْرَعُ إلا مِن بَهيمةِ الأنعامِ.

القَدْر: لو أنَّ إِنْسانًا أَحْدَثَ أَذْكارًا مُعَيَّنةً بعَدَدٍ مُعَيَّن، فقال: سأُسَبِّح ألفَ مَرَّةٍ، وأُهَلِّل أَلْفَ مَرَّةٍ، واتخذ ذلك شَرْعًـا، قلنـا: هذه بِدْعةٌ يُنْهَى الإِنْسانُ عنها، لأنها لا تُوافِقُ الشرعَ في العَدَدِ.

الكَيْفيَّة: لو تَعَبَّد للهِ تَعالَى بعِبادةٍ على غيرِ الكيفيةِ المَشْروعةِ، فإنها لا تُقْبَل لمخالفتِها للشَّرْعِ في الكَيْفيةِ، مثل أن يَتوضَّأَ فيَبْدَأَ أولًا بقَدَمَيْهِ، ثم برأسِه، ثم بيَدَيْهِ، ثم بوَجْهِهِ، قلنا: لا يُقْبَلُ هذا الوضوءُ، لأنه مخالفٌ للشريعةِ في الكيفية، ولو سَجَدَ في الصَّلاةِ قبلَ الركوعِ، لم تَصِحَّ الصَّلاةُ، لأنه مُخالِفٌ للشَّرْعِ في الكَيْفيةِ.

الزَّمان: لو أنَّ الإِنْسانَ ضَحَّى -أي ذَبَحَ أُضْحِيَّته- يومَ عَرَفَةَ قَبْلَ يومَ العيدِ، لكانتِ الأُضْحِيَّةُ غيرَ مَقْبولةٍ، لأنها مُخالِفةٌ للشريعةِ في الزَّمانِ.

المكان: لو أنَّ الإِنْسان اعتكف في بيتِه في الأيام العَشْرِ الأخيرةِ من رمضان، قُلْنـا: هذا الاعتكاف لا يَصِحُّ، لمُخالَفَتِهِ للشَّريعةِ في المكان؛ لأن الاعتكافَ

لا يَصِحُّ إلا في مَسْجِدٍ تُقامُ فيه الجماعةُ في أيِّ مكانٍ من الأرْضِ، كلُّ المساجدِ في الأرْضِ يَصِحُّ فيها الاعتكافُ.

وأما ما يُرْوَى عن النَّبيِّ ﷺ من أنه لا اعتكافَ إلا في المَسَاجِدِ الثَّلاثة[1]، فإنَّنا قد تَكَلَمنا على هذا الحديثِ، وبيَّنا أنه إنْ سَلِمَ من القوادح فالمرادُ بالنَّفْيِ هنا نَفْيُ الكمالِ، وبيَّنا أنه يَتعَيَّن أن يكون هذا المرادَ، لأن الآيةَ الكَريمةَ تَدُلُّ على أن الاعتكافَ عامٌّ في جميعِ المساجدِ، وأنه يُخاطَبُ به جميعُ النَّاسِ، لأن المُخاطَبَ بالاعتكافِ هم الَّذين خُوطِبوا بالصيامِ، والنَّاسُ الَّذين يَصُومونَ هم الَّذين يَصُومون في كلِّ مكانٍ.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾، المُخاطَبُ بهذه الجُمَل جميعُ المُسْلِمِينَ في جميعِ أقطارِ الدُّنْيا ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾، ثم قال: ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧]، فأباح اللهُ مُباشرةَ النِّساءِ ليلًا لمَن صامَ، ثم نَهَى عن مُباشَرتِهنَّ مُطلقًا لمن اعتكَفَ، فالخِطابُ في الآيةِ الكَريمةِ لا يُمْكِنُ أنْ يُجزَّأ، لا يُمْكِنُ أنْ يُجْعَلَ القُرآنُ عِضِين، بل القُرآنُ أُسْلوبُه واحدٌ، وخِطابُه واحدٌ، فالخطابُ في قولِه: ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ هو الخِطَابُ في قولِه: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾.

وعَامَّةُ الأُمَّةِ من الأئمة أصْحَاب المذاهب المتبوعة على أنَّ الاعتكافَ يَصِحُّ في كلِّ مَسْجِدٍ؛ في المساجد الثَّلاثةِ وغَيْرِها، وبهذا نَعْرِف أنَّ هذا الحديثَ إن صَحَّ

(١) أخرجه البيهقي (٤/ ٥١٩، رقم ٨٥٧٤).

وسَلِمَ من القَوادحِ، فإنه يُحْمَل على أن المرادَ بالنَّفْي هنا نَفْيُ الكمالِ ولا بُدَّ، ولا يَجُوزُ سوى هذا في هذا الحديثِ المَرْويِّ عن رَسولِ الله ﷺ.

إذن العِبادةُ لا تَتحَقَّقُ إلا إذا وَافقَتِ الشَّرْعَ في سَبَبِها وجِنْسِها وقَدْرِها وكَيْفِيَّتِها وزَمَانِها ومَكَانِها.

لو أنَّ رَجُلًا كلما تَجَشَّأ حَمِدَ اللهَ نقول: هذا غَيْرُ مشروعٍ، لأنه لم يَرِدْ في الشَّرْعِ أو في السُّنة أنَّ الجُشاء سَببٌ لِلْحَمْدِ.

ولو أنَّ رَجُلًا كلما عَطَسَ حَمِدَ الله قُلنا: هذا صحيحٌ، لأن الشَّرْعَ قد جَرَى به، فالعُطاسُ سَببٌ للحَمْدِ.

ولو عَطَسَ وهو يُصَلِّي فإنه يَحْمَدُ اللهَ، ولكن لا يُظْهِرُ صوتًا، وقد وَرَدَ دليلٌ، وهو حديثُ مُعاويةَ بْنِ الحَكَم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كانَ مع النَّبيِّ ﷺ يُصَلِّي فعَطَسَ رجلٌ من القومِ، فقال: الحمدُ للهِ. فقال له مُعاوِيَةُ: يَرْحَمُكَ اللهُ. قال مُعاوِيةُ: فرَمَاني النَّاس بأَبْصارِهِمْ يعني يَنْظُرون إليه يُنْكِرون عليه، فقال: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، تَكَلَم الثَّانيةَ فجعلوا يَضْرِبونَ على أَفْخاذِهم يُسكِّتُونَني، لكني سَكَتُّ، فلما فَرَغَ من الصَّلاةِ دَعَاهُ النَّبيُّ ﷺ قال مُعاوِيةُ: فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَوَاللهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**»[1].

وَجْهُ الدَّلالةِ من الحديثِ: أنَّ الرَّجل الَّذي عَطَسَ حَمِدَ اللهَ ولم يُنْكَرْ عليه، ولدينا قاعدةٌ أُصوليَّةٌ مُهِمَّةٌ، وهي: أنَّ كلَّ ما فُعِلَ في عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب تحريم الكلام في الصَّلاة، رقم (٥٣٧).

فهو حُجَّةٌ، سواءٌ عَلِمْنا أنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَلِمَ به أم لم نَعْلَم، لأننا إذا عَلِمْنا أنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَلِمَ به وأَقَرَّهُ، كانَ ثابتًا في السُّنة الإِقْرارِيَّةِ، وإنْ لم نَعْلَم أنه عَلِمَ به وأَقَرَّهُ كانَ ثابتًا في إقرارِ اللهِ له، وبهذا اسْتَدَلَّ الصَّحابَةُ على جوازِ العَزْلِ بإقرارِ اللهِ إيَّاهُم عليه، والعَزْلُ هو أنَّ الرَّجُلَ إذا جامَعَ زَوْجَتَهُ أَنْزَلَ خارِجَ المكانِ، لِئَلَّا تَحمِلَ، فكانَ الصَّحابَةُ يفعلـون ذلك، ولم يُنْكِرِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عليهم، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا لم يَرْضَ شيئًا أَنْكَرَه، وإن لم يَعْلَم به النَّاسُ.

ألم تَرَوْا إلى قولِه تعالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النِّساء:١٠٨]، فأنكر عليهم ما يُبَيِّتُونَه مِمَّا لا يَرْضَاهُ مِن القولِ، مع أن النَّاسَ لا يَعْلَمون بذلك، فدَلَّ هذا على أنَّ كلَّ شيءٍ لم يُنْكِره اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِمَّا وقَعَ في وقتِ نُزولِ القُرآنِ في حياةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه يُعْتَبَرُ حُجَّةً.

وهذا يَنْفَعُ طالبَ العلمِ عندَ المناظرةِ، لو اسْتَدْلَلْتَ على أَحَدٍ بأنَّ هذا الشيءَ وَقَعَ في عَهْدِ الرَّسُولِ، فقال لكَ: هاتِ الدَّليلَ على أنَّ الرَّسُولَ عَلِم به وأَقَرَّه. تقول: إنْ لم يُقِرَّه الرَّسُولُ فقد أَقَرَّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولو كانَ مِمَّا لا يَرْضَاهُ اللهُ لأَنْكَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نحن نَتكَلَم عن قولِه تعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، فلا أَحَدَ أَحْسَنَ قولًا من هذا الَّذي دَعَا إلى اللهِ وَعَمِلَ صالِحًا وأَعْلَنَ إِسْلامَهُ على المَلأ وقالَ: إِنَّني من المُسلِمِينَ، والربُّ عَزَّوَجَلَّ إذا ذَكَرَ مِثْلَ هذه الأشياءَ، فإنما يُريدُ مِنَّا أن نأخُذَ بها، فليستْ قِصَّةً تُقال فَقَطْ، بل هذا مما يُريدُ اللهُ أن نَأْخُذَ به حتى نَتَّصِفَ بهذا الوصفِ الَّذي ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

الدَّرس الثَّالث:

إن الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنَا، منْ يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورَسولهُ، صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وأصْحَابهِ، ومنْ تَبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، **أَمَّا بَعْدُ**:

فقد قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في هذهِ الآيةِ يخبرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عنِ الَّذينَ جمَعُوا بينَ هذينِ الوصفينِ: الوصفُ الأولُ: الإيمانُ، والوصفُ الثَّاني: الاستقامةُ، وهذانِ الوصفانِ هما اللذانِ أجابَ بهما رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم حينَ قالَ لهُ رجلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غيرك. يَعني قولًا حَاسمًا، قالَ: «**قل: آمنت بالله ثم استقم**»[1].

وهذا الجوابُ مطابقٌ تمامًا للآيةِ، قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، رقم (٣٨).

والإيمانُ باللهِ يتضمنُ أربعةَ أشياءٍ:

الأمرُ الأولُ: الإيمانُ بوجودِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنهُ جَلَّوَعَلَا هوَ المدبرُ لكلِّ الكونِ، فتؤمنُ بأن اللهَ موجودٌ، ولا يُعلمُ أن أحدًا أنكرَ وجودَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، حتى فِرْعونَ الَّذي قصَّ اللهُ علينا من نَبئِهِ ما قصَّ في آياتٍ كثيرةٍ؛ لم ينكرِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لقدْ قالَ لهُ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢]، قالَ لهُ هذا القولَ ولم يستطعْ أن يَردَّهُ، قالَ لهُ مُوسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني ما جاءَ بِهِ موسى ﷺ منَ الآياتِ البيناتِ ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، ولو كانَ فِرْعونُ منكرًا لذلكَ لقالَ: لمْ أعلمْ هذا الأمرَ.

الأمرُ الثَّاني: يتضمنُ الإيمانَ باللهِ: الإيمان بربوبيتِه، وأنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُ كل شيءٍ، وخالقُ كل شيءٍ، والمصرفُ لجميعِ الأمورِ، لا يُشركُه في ذلكَ أحدٌ، ولا يعينُه في ذلكَ أحدٌ، بلْ هوَ سبحانَهُ المنفردُ بذلكَ.

الأمرُ الثَّالثُ: الإيمانُ بألوهيتِه؛ أن تؤمنَ بأن اللهَ وحدَهُ هوَ الإلهُ الحقُّ، وأن كلَّ إلهٍ سواهُ فباطلٌ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

الأمرُ الرَّابعُ: أن تؤمنَ بجميعِ أسمائِه وصفاتِه على ما جاءتْ في كتابِ اللهِ، وسنةِ رَسولِ اللهِ ﷺ منْ غيرِ تحريفٍ ولا تمثيلٍ.

وهذَا الأمرُ الرَّابعُ هوَ الَّذي ضلَّ فيهِ مَن ضلَّ منْ أهلِ القبلةِ من هذهِ الأمةِ، فلمْ يهتدوا فيهِ إلى الصَّوابِ، ولكنِ اللهُ هدَى فيهِ إلى الصَّوابِ أهلَ السنةِ والجماعةِ،

الَّذينَ أخذُوا بسنةِ الرَّسُولِ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم واجتمعُوا عليهَا، فآمنُوا بكلِّ اسمٍ سمَّى اللهُ بهِ نفسَه، وآمنُوا بكلِّ صفةٍ وصفَ اللهُ بها نفسَه، من غيرِ أن يُحرفُوها عنْ ظاهِرها، ومنْ غيرِ أن يُمثلُوها بصفاتِ المخلوقِينَ.

وأسماءُ اللهِ تعالى كلها حسنَى، و(حسنى) اسمُ تفضيلٍ للمؤنثِ، ومذكرُها (أحسنُ)، ووُصفتْ بهذا الوصفِ لأنها بالغةٌ أكملَ الكمالاتِ في دلالاتِها، وفيما تضمنتْهُ منَ المعاني، ولهذا لا تجدُ في أسماءِ اللهِ اسمًا غيرَ مشتقٍّ، بلْ كلُّ أسماءِ اللهِ مشتقةٌ منَ المعاني الَّتي تدلُّ عليها، حتى اسم الجلالةِ مشتقٌّ منَ الألوهيةِ، وليسَ اسمًا جامدًا كما ادَّعاهُ بعضُهم؛ لأننا لو جعلنَاهُ اسما جامدًا لم يكنْ منَ الأسماءِ الحسنَى، فكلُّ أسماءِ اللهِ دالةٌ على معانٍ، فالخَالقُ دالٌّ على الخلقِ، والرزاقُ دالٌّ على الرزقِ، والعليمُ دالٌّ على العلمِ، والحكيمُ دالٌّ على الحكمةِ وعلى الحكمِ أيضًا، وهلمَّ جرًّا.

ومِنْ ثَم نعلمُ أن الدَّهرَ ليسَ من أسماءِ اللهِ؛ لأنهُ اسمٌ جامدٌ لا يدلُّ على معنًى، فأما قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحديثِ القدسيِّ: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»[1] فليسَ المعْنَى أن اللهَ تَسمى بهذا الاسمِ، لكن معناهُ أنا مالكُ الدَّهرِ، بدليلِ قولِه: «**أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» ولأن الَّذي يسبُّ الدَّهرَ ليسَ يسبُّ اللهَ، وإنما يسبُّ الزَّمانَ والوقتَ، فتجدهُ يقولُ: هذا يومُ شرٍّ، هذا عامُ شرٍّ، وما أشبهَ ذلكَ منَ السبِّ للأزمانِ، وخالقُ الأزمانِ هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قالَ اللهُ تعالى: «**وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القُرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدَّهر، رقم (٢٢٤٦).

فالدَّهرُ ليسَ من أسماءِ اللهِ، ووجهُ ذلكَ أنهُ لا يدخلُ في أسماءِ اللهِ الحسنى، ولأن الَّذينَ يسبونَ الدَّهرَ لا يُوجهونَ السبَّ إلى اللهِ، وإنما يوجهونَ السبَّ إلى الدَّهرِ.

إذنْ فالإيمانُ باللهِ يتضمنُ الإيمانَ بألوهيتِه؛ أنهُ اللهُ المعبودُ حقًّا، وما عداهُ فعبادتُه باطلةٌ، وهذا يتضمنُ الإيمانَ بكلِّ ما أخبرَ اللهُ بهِ؛ أخبرَنَا اللهُ تعالى بأن لهُ ملائكةً؛ فالإيمان بالملائكةِ منَ الإيمانِ باللهِ؛ لأننا لم نعلمْ أن هنالكَ ملائكةً إلا بإخبارِ اللهِ، فنحنُ لا نعلمُ ملائكةً إلا بإخبارِ اللهِ.

ويدخلُ في ذلكَ أيضًا الإيمانُ بالكتبِ؛ لأنها الَّتي أنزلها اللهُ تعالى على الرُّسلِ.

ويدخلُ في ذلكَ الإيمانُ بالرُّسلِ؛ لأنهمْ من عندِ اللهِ.

وعلى هذا فإذا أُطلقَ الإيمانُ باللهِ شَملَ جميعَ أركانِ الإيمانِ الستةِ، وهيَ الإيمانُ باللهِ، وملائكتِه، وكتبِه، ورسلِه، واليومِ الآخرِ، والقدرِ خيرِه وشرِه.

قولُه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ استقامُوا على شريعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولم يُقصروا عنهَا، ولم يَزيدُوا عليهَا، بل كانتْ عبادتُهم للهِ على وَفقِ ما شَرعها اللهُ، لا يزيدونَ ولا يَنقصونَ، ولا يُشرعونَ في دينِ اللهِ ما لم يشرعْه اللهُ، يقولون: سمعنَا وأطعنَا، ولا يقولونَ: سمعْنَا وعصينَا، إنما يستقيمونَ على شريعةِ اللهِ، ولهذا يُذمُّ المتطرفانِ: المقصرُ والغالي، يعني الزائدَ، فكلٌّ منهما مخطئٌ، لكنِ الغالي أشدُّ إثما منَ المقصرِ؛ لأن الغالي زادَ في دينِ اللهِ ما ليسَ منهُ، والمقصرَ نقصَ عما يجبُ عليهِ العملُ بهِ، وبقيَ الدينُ ليسَ فيهِ زيادةٌ ولا نقصٌ.

فالغالونَ المتشددونَ في الدينِ، المتنطعونَ فيهِ، المتعمقونَ فيهِ، هؤلاءِ أشدُّ منَ المقصرينَ، اللَّهُمَّ إلا أن يكونَ التقصيرُ مؤديًا إلى الكفرِ، أو ما أشبهَ ذلكَ.

ولهذا لما واصلَ الصَّحابَةُ في الصومِ -ومعنى الوصالِ أن يَقرنوا بينَ يومينِ أو أكثرَ بدونِ أكلٍ وشربٍ بينهما- نهاهُمُ النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الوصالِ رحمةً بهم، وكراهةً للتنطعِ والتعمقِ في دينِ اللهِ، لكنَّهمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لحرصِهم على الخيرِ تأولُوا وقالُوا: إنما نهانَا رَسولُ اللهِ ﷺ رحمةً بنا ونحنُ بنا قوةٌ على الوصالِ، فواصَلُوا، فواصلَ بهمُ النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وواصلَ بهمْ، حتى رؤيةَ هلالِ شوالٍ، وقالَ: «**لَوْ تَأَخَّرَ الهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ**»، كَالمُنكِّلِ لهُمْ[1]، حيثُ تعمَّقُوا، وقالَ: «**لَوْ مُدَّ بِيَ الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وِصَالًا يَدَعُ المُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ**»[2].

ولذلكَ يقالُ: دينُ اللهِ بينَ الغالي فيهِ والجافي عنهُ.

فعليكَ -يا أخي- بالاعتدالِ في دينِ اللهِ.

إذنِ استقامُوا على شريعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قالَ اللهُ تعالى لرَسولِه عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:١٨-٢٠]. إذن الاستقامةُ تكونُ على شريعةِ اللهِ.

ومآلُ هؤلاءِ القومِ البررةِ الكرامِ الطيبينَ الَّذينَ قالُوا: آمنا باللهِ ثم استقامُوا: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني عندَ الموتِ ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، بل إن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال، رقم (١٩٦٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، رقم (١١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التمني، باب ما يجوز من اللو، رقم (٧٢٤١)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، رقم (١١٠٤).

الآيَةَ أعمُّ مِن ذلكَ؛ تتنزلُ عليهمُ الملائكةُ في كلِّ الشدائدِ ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ في مستقبلِكم ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ في ماضِيكم ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بشرى سارةٌ عظيمةٌ يبشَّرونَ بها عندَ الموتِ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾، فالَّذينَ قالُوا: ربُّنا اللهُ ثم استقامُوا أولياؤُهم في الدُّنيا همُ الملائكةُ، يُسددُونَهم ويُدخلونَ عليهمُ السرورَ والنشاطَ في العملِ الصَّالحِ، والذب عنِ العملِ السيئِ؛ لأنهم أولياءُ اللهِ.

قولُه: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وفي الآخرةِ أيضًا الملائكةُ أولياؤُهم، يدخلونَ عليهمْ من كلِّ بابٍ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤].

قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الآخرةِ ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ من كل ملاذٍ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تطلبونَ ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافةٍ ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ وهوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.



الدَّرس الرَّابع:

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ، وأُصلِّي وأسلمُ علَى نَبيِّنا مُحمدٍ، وعَلى آلهِ وَأَصحابهِ، ومَن تَبِعهم بِإِحسانٍ إِلى يومِ الدينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا﴾ هذَا هوَ الإيمانُ والتَّوحيدُ والإِخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فلَا ربَّ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، هوَ ربُّ السَّماواتِ والأَرضِ، وربُّ العرشِ العظيمِ، هوَ الَّذي يُدبِّرُ الكَائناتِ كَما يشاءُ، عَلى مَا تَقتضيهِ حِكمتهُ ورَحمتهُ وعَدلهُ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ استقَامـوا عَلى دينِ اللهِ، واستقَامـوا عَلى شَريعتهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا يَزيدونَ عَلَيْها، ولَا يَنْقصون عَنْها، ولَا يَبْتَدعون فِي دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مَا لَيس مِنهُ.

والاستقامَةُ هيَ الاعتِدالُ والمشيُ عَلى الصِّراطِ المستَقِيمِ، وهذهِ الكلمَةُ أَعْني ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ هيَ الكلمةُ الصَّحيحةُ الَّتي ذكَرَها اللهُ فِي كِتابهِ، وذكَرَها النَّبيُّ ﷺ فِي سُنَّته، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، وقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم، ٣٠]، وقالَ النَّبيُّ ﷺ حينَ سألهُ رجلٌ قالَ: قُل لِي قَوْلًا فِي الإِسلامِ لَا أَسأَلُ عنهُ أَحدًا غيركَ؟ قالَ: «**قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ**»[١]، هذهِ الكلِمةُ (استقمْ) هيَ الكلِمةُ الصَّحيحةُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤/ ١٤١ رقم ١٥٤١٦).

وأمَّا مَا نَسمعهُ اليومَ مِن كثيرٍ منَ النَّاسِ حيثُ أَبْدلها بِقولِهِ: (التَزم) فهذَا لَيس بِقويٍّ؛ لأنَّ الاستقامةَ هيَ الاعتدالُ، والالتزامُ هوَ الذلُّ وَالخضُوعُ، ولَا شكَّ أنَّ الذلَّ والخضوعَ للهِ عَزَّوَجَلَّ استقامةٌ، لكن لا تدلُّ عَلى مَا يدلُّ عَليهِ الاستِقَامةُ.

يَحكي لَنا كَثيرٌ منَ النَّاسِ اليومَ يقولُ: فلانٌ مُلتزمٌ، نِعْمَ الالتزامُ؛ لكنْ لَا تقلْ هَكَذَا، قلْ: فلانٌ مُستقيمٌ، كَما جاءَ ذلكَ فِي كتابِ اللهِ، وسنةِ رَسولِهِ ﷺ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ اللَّهُمَّ اجعلنَا مِنهمْ، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يَعْني شَيئًا فشيئًا، كلَما احتَاجُوا إِلى دعمٍ ومساعدةٍ نَزلت عَليهمُ الملائكةُ فَأيدتهم، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال:١٢]، وتَتنزل عَلَيْهمُ الملائكةُ فِي أَضيقِ حالٍ، عندَ حضورِ الأَجلِ تَنزلُ عَليهمُ الملائكةُ، مَلائكةُ الرَّحمةِ يقبضونَ أَرْواحهم وَيَصْعدون بِهَا إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يَقولونَ لَهم أَي الملائكةُ: لَا تَخافوا، وَلَا تَحْزنوا، لَا تَخافوا مِنَ المستقبلِ مِنَ العَذابِ، فَإنَّكم مِنه آمنونَ، ولَا تَحْزنوا عَلى مَا مَضى، فَإنَّكم قَد شَغَلْتموه بِطاعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أَي: تَوَلَّيناكم فِي الحياةِ الدُّنيا وَفِي الآخرةِ، فِي الحياةِ تُسدِّدُهم، وَتدلُّهم عَلى الخيرِ، وَتَحسهم عَليهِ، وتُبين لهمُ الشَّرَّ، وتُحذرهمْ منهُ، وفِي الآخرةِ عندَ نُزولِ الملكِ لقبضِ روحِ الإِنْسانِ تُؤيدهمْ، وتُناصرهمْ، وتُبشرهم بِالخيرِ؛ وَلهذَا قالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ لكمْ فِيها أَي: فِي الآخرَةِ، ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ مِن كلِّ

شيءٍ؛ حتَّى إنَّ الإنْسانَ ليطلبُ الشَّيْءَ ويُعطى أكثرَ مِمَّا طلبَ، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: مَا تَطلبونَ، ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ يَعني أنَّها غياث منَ العزيزِ الرَّحيمِ عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ قالَ تعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ منْ أحسنُ: يَعني لَا أحدَ أَحسنُ قَولًا مِمن دَعا إِلى اللهِ، إِلَى دينِهِ وشَريعته وتَوْحِيده وَالإيمانِ بهِ، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أَي: عَمل عَملًا صَالحًا وقالَ إِنَّني منَ المُسْلمينَ، والعملُ الصَّالحُ مَا اشتملَ عَلى شَيْئين: الإِخلاصِ للهِ، وَالمتابعةِ لِرَسولِ اللهِ ﷺ، فمنْ لمْ يُخلصْ فَعملهُ بَاطلٌ؛ لِقولِ اللهِ تَعالى فِي الحديثِ القُدسيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1]، ومنْ أَخلص للهِ لكنْ عَلى غيرِ شريعةِ اللهِ فإنَّه لا يقبلُ منهُ أَيضًا؛ لِقولهِ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2]، ولا يُمكن أنْ تكونَ العبادةُ مُوافقةً للشريعةِ إلَّا إذَا وَافقتِ الشَّريعةُ فِي أمورٍ ستٍّ:

الأولُ: السَّببُ.

الثَّاني: الجنسُ.

الثَّالثُ: القدرُ.

الرَّابعُ: الهيئةُ.

الخَامسُ: الزَّمانُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٥٣٠٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (٣٢٤٩).

السَّادسُ: المكانُ.

فإذَا اختلَّ واحــدٌ منْ هذهِ الأمورِ الستِّ لم تكنِ العبادةُ لِلشريعةِ، فَمثـلًا: لَو أنَّ إِنسانًا أَخْلَص للهِ، وضَحَّى بفرسٍ -وهيَ واحدةُ الخيلِ- لمْ يُقْبَلْ منهُ؛ لأنَّ ذلكَ جنسٌ لَا يصحُّ فِي الأضحيةِ، بَيْنَما لَو ضَحَّى بِبقرةٍ أَجزأَ؛ لأنَّها منَ الجِنْسِ.

كذلكَ لَو أنَّ إِنسانًا ضحَّى بِبقرةٍ؛ لكنْ فِي غيرِ زمنِ الأضحيةِ لم تقبلْ منهُ، فلَو ضحَّى ببقرةٍ قبلَ صلاةِ عيدِ الأضحَى لمْ تقبلْ منهُ؛ لأنَّهَا فِي غيرِ وقتهَا، ولَو أنَّ رجلًا اعتكفَ فِي العشرةِ الأخيرةِ مِنْ رَمضانَ فِي بيتهِ دونَ المسجدِ لم يقبلْ؛ وذلكَ لأَنَّه خالفَ الشريعَةَ فِي المكانِ، ولوْ أنَّ رجلًا تَوضَّأَ مُنكسًا، أَي: بدأَ بِالوضوءِ بِيديهِ، أَي: بغسلِ يديهِ إِلَى المرفقينِ، ثمَّ غَسَلَ الوجهَ؛ لمْ يقبلْ؛ لأَنَّه عَلى غيرِ الهيئةِ المَشْروعةِ، فلا بدَّ فِي العملِ أنْ يكونَ مُوافقًا لِلشريعةِ فِي هَيئتهَا.

ولوْ أنَّ رجلًا صلَّى الظُّهْرَ خمسَ رَكعاتٍ فإنَّه لَا يقبلُ منهُ، إِلَّا أنْ يكونَ نَاسيًا، فتصحُّ الصَّلاةُ، ويجبرها سجودُ السَّهوِ؛ لكنْ عمدًا لَا تقبلُ؛ لأَنَّه زادَ فِي الصَّلاةِ عَلى العددِ.

فاتَّقوا اللهَ أَيها الإخوةُ واعْمَلوا صَالحًا، واستَعِدوا لما يُستقبلُ مِن حَياتكمْ، فإنَّ هَذا هُوَ الَّذي يجبُ أنْ يُلاحظَ، وأمَّا مَا مَضى فأمرهُ سهلٌ؛ لأنَّ الَّذي مَضى إنْ كانَ وَاجبًا قامَ بِهِ الإِنْسانُ وتابَ إِلى اللهِ، وإنْ كانَ مُحرَّمًا استَغْفِروا اللهَ منهُ، وأدُّوا مَا يجبُ عَلَيْكم فِي هذهِ المخالفَةِ، واللهُ أعلمُ.

ثمَّ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] مَعنى ذَلكَ: أَنَّ الإِنْسانَ إِذَا

أساءَ إِلَيك وقَابَلته بِالإحسانِ؛ فإِنَّ اللهَ تَعَالى يُقلبُ حالَ هذهِ الإساءَةَ إِلَى حَسنةٍ؛ لأنَّ القُلوبَ بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُقلِّبها كَيف يَشاءُ، وهذَا شيءٌ مجربٌ أنَّ الإِنْسانَ إذَا قابلَ الإِساءةَ بِالإحسانِ، فإِنَّ اللهَ تَعَالى يَجعلُ هذهِ الإِساءَةَ مَودَّةً وَرَحمةً.

ولقدْ أَتَى رجلٌ إِلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليَه وعلَى آلِه وسلَم فذكرَ لهُ أنَّ لهُ قَرابةً يُحسنُ إِلَيهم وَيُسِيؤُون إِلَيه، وَيَصلُهم فيَقْطعونه، ويحنُّ عَلَيْهم فيَجهلونَ عليهِ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم: «**إِنْ كَانَ الأَمْرُ كَمَا قُلْتَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَوْفَ يَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ وَيَكُونُ عَوْنًا لَكَ**»، وكذلكَ أيضًا قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم: «**لَيْسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِئِ، إِنَّمَا الوَاصِلُ هُوَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلها**»[1]، يَعني الإِنْسانُ الَّذي لَا يصلهُ أَقاربهُ إلَّا إذَا وَصلوهُ لَيس بِواصلٍ فِي الحَقيقةِ؛ بَل هذَا مُكافئٌ، وأَي إِنسانٍ يحسنُ إِلَيك وتردُ عَليه فهذهِ مُكافأةٌ، ولَيست صلةً، فَعَليكم بِصلةِ الأَرحامِ.

فإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تضمنَ للرَّحمِ أنْ يَصلَ مَن وَصَلها، ويقطعَ مَن قَطَعَها، وهذَا ضمانٌ مكفولٌ بِلا شكٍّ، وهُو شيءٌ مُجربٌ، فإِنَّنا نجدُ منَ النَّاسِ الآنَ مَن يَمُنُّ اللهُ عليهِ بِصلةِ الرَّحمِ فيصلهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وإِنْ كانَ فِي العِبادَاتِ الأُخرى قَويًّا لكنْ يصلهُ اللهُ؛ وَلهذَا قالَ عَزَّوَجَلَّ فِي هذهِ الآيةِ: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ يَعني كأَنَّهُ قَريبٌ وليٌّ صديقٌ.

ولَا عجبَ مِن ذلكَ، فإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقلبُ القُلوبَ كَيف يَشاءُ، فَما مِن قلبٍ إلَّا وهوَ بينَ أَصابعِ الرَّحمنِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقلبهُ كَيف يَشاءُ، فعليكَ بِصلةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ، رقم (٥٥٥٩).

الرَّحمِ، ولَا تحقرنَّ شيئًا، قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم: «**لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا شَيْئًا وَلَوْ بِفِرْسَنِ**[1] **شَاةٍ**»[2].

ثمَّ قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ يَعني مَا يُوَفَّقُ لها ويَدْفع بِالَّتي هِي أَحسنُ إِلَّا الَّذين صَبَروا، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أَيْ: يوفقُ لها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أَيْ: نصيبٌ عظيمٌ.

واعلمْ -أَخِي المسلمَ- أَنَّك كُلَما كُنت وَصولًا لِرَحمك كَانَ اللهُ معكَ، ويَسَّرَ لكَ الأمرَ وسهَّلَه عليكَ؛ حتَّى مَا تنفقهُ فِي هذَا السبيلِ يُخْلِفُه اللهُ عليكَ، ويكونُ عونًا لكَ عَلى أقاربكَ.

وقولهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَعني أَنَّ الشَّيْطانَ إِذَا تَسلَّط عَلَيْكَ، وأَدخلَ عليكَ الوَساوسَ وَالشكوكَ والارتيَابَ؛ فَاستعذْ بِاللهِ إِنَّه هوَ السَّميعُ العَلِيمُ، وهذهِ المسأَلَةُ أَعني الأَخيرَةَ ابتلاءَ الشَّيطانِ لِبَني آدمَ، وكَونهُ يُوسوسُ لَهم فِي الطَّهارةِ وفِي الصَّلاةِ وفِي الطَّلاقِ وفِي كلِّ شيءٍ، حتَّى إِنَّه لِيُوَسوس لَه فِي أمورٍ تَتعلق بِاللهِ تَعَالى؛ كلُّ هذهِ الأمورِ دَوَاؤها بيَّنَهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم فِي قولهِ: «**فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**»[3].

واعلمْ أَنَّ الشَّيطانَ لَن يَتسلطَ عَلى بَنِي آدمَ فِي مثلِ هذهِ الأُمورِ إِلَّا لِكمالِ إِيمانهمْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المكاتب، باب إذا قال المكاتب اشترني وأعتقني، رقم (٢٣٩٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بالقليل، رقم (١٧١٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المكاتب، باب إذا قال المكاتب اشترني وأعتقني، رقم (٢٣٩٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بالقليل، رقم (١٧١٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٠٥٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان، رقم (١٩٥).

مِن أَجل أنْ يفسدَ عَلَيْهم دِينَهم، وإلَّا فَالرَّجلُ الَّذي لَيس بِكاملِ الإِيمانِ لَا يهمهُ الشَّيطانُ، لَكنَّ الَّذي كَمل إِيمانهُ وَاستقامَ دِينهُ هوَ الَّذي يَغزوهُ الشَّيطانُ بَين آونةٍ وأُخْرَى، حتَّى يُلَبِّسَ عَليه دينهُ، والدواءُ لِمِثلِ هذَا بيَّنهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم هوَ أنْ يستعيذَ الإِنْسانُ بِاللهِ ولينتهِ، يَعني يَقول: أَعوذُ باللهِ منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ، وَلينتهِ: أَي: يُعرضُ عَن هذَا كلهِ، ولْيَقِسْ نَفسه بأَنَّه رَجلٌ مسلمٌ مؤمنٌ، جاءَ إِلى الصَّلاةِ لِيعبدَ اللهَ، فَكَيف يَعبد مَا يُسمَّى فُلانًا مثلًا؟! فإِذا قاسَ الإِنْسانُ نفسهُ بِهذا تبينَ لهُ الحقُّ، واستراحَ، وأعاذهُ اللهُ منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ.

أَمَّا من ذَهَب يُتَابع هذهِ الوَساوسَ ولَمْ يألُ بِها جُهْدًا؛ فإِنَّه رُبَّما يضيعُ ويهلكُ، ولكنَّ الإِنْسانَ إِذَا استعملَ الدواءَ الَّذي ذَكرهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم سَلِمَ منَ الشرِّ، فإِذَا أَحسستَ بِوسواس فِي وُضوئكَ أَو فِي صَلاتكَ أَو فِي إِيمانكَ أَو فِي أَي شيءٍ فقلْ: أعوذُ باللهِ منَ الشَّيطانِ الرجيمِ، وأعرضْ عَن هذَا كلِّهِ.

وفِي هذَا السياقِ دليلٌ عَلى أنَّ القُرآنَ دَواءٌ لِما فِي القُلوبِ، ولِما فِي الأَجسَامِ، وأَنَّه مُصلحٌ لِلمجتمعِ مِن كلِّ نَاحيةٍ، لَمَّا ذكرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عداوةَ بَنِي آدمَ لِبَني آدمَ، وكيفَ دَوَاؤها، ذكرَ عَداوةَ الشَّيْطانِ لِبَنِي آدمَ وَكَيْف يَتَخَلص منهُ.

نسأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنْ يُعيذَنا وإِياكمْ منَ الشَّيطانِ الرجيمِ، وأنْ يهبَ لَنَا منهُ رحمةً إِنَّه هوَ الوهَّابُ.



الدَّرس الخَامس:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبيِّين، وإمَام المُتَّقِينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعَالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٣-٣٦]

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هذهِ ثلاثةُ أوصافٍ بينَ اللهُ فيهَا أنهُ لا أحدَ أحسنُ قولًا مِن هذا الوصفِ الأولِ: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى سبيلِ اللهِ، وشريعةِ اللهِ، ودينِ اللهِ؛ لأن التمسكَ بشريعةِ اللهِ ودينِه يُوصلُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فالدَّعوةُ إلى ذلكَ دعوةٌ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وفي قولِه: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى الإخلاصِ، وأن الإِنْسانَ يجبُ أن تكونَ دعوتُه إلى اللهِ فقطْ، لا إلى نفسِه؛ لأن بعضَ الدعاةِ يدعُو إلى نفسِه في الوَاقعِ ليبينَ أنهُ صاحبُ قولٍ فصيحٍ، وبيانٍ بليغٍ، أو مِن أجلِ أن يَصرفَ وجوهَ النَّاسِ إليهِ، نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعَافيةَ.

لكنِ الدَّاعيةُ حقيقةً هوَ الذِي يَدعو إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإذا كانَ يدعُو إلى اللهِ فلا بدَّ أن يسلكَ الأساليبَ الَّتي يكونُ فيها ترغيبُ النَّاسِ وتَرهِيبُهم، فلا يقتصرُ

على الترغيبِ فقطْ، ولا يقتصرُ على الترهيبِ، وإنما يكونُ مرةً هذا ومرةً هذا، كما هيَ طريقةُ القُرآنِ الكريمِ، فإذا ذكرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوصافَ أهلِ النَّارِ ذكرَ أوصافَ أهلِ الجنةِ، وإذا ذكرَ نعيمَ الجنةِ ذكرَ عذابَ النَّارِ؛ حتى يكونَ الإِنْسانُ سائرًا إلى اللهِ تعالى بينَ الخوفِ والرجاءِ؛ وذلكَ أن الإِنْسانَ إذا غلبَهُ جانبُ الخوفِ استولى عليهِ اليأسُ مِن رحمةِ اللهِ، وإذا غلبَ عليهِ جانبُ الرجاءِ استولَى عليهِ الأمنُ مِن مكرِ اللهِ، وإذا كانَ يسيرُ بينَ الخوفِ والرجاءِ فذلكَ هوَ السيرُ القويمُ المستقيمُ.

ولهذا قالَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغِي أن يكونَ خَوفُه ورجاؤُه واحدًا، فأيهما غلبَ صاحبَه هلكَ»[1].

قالَ تَعالى: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والدَّاعي إلى اللهِ لا بدَّ أن يكونَ عالما بشريعةِ اللهِ، وهذا ركنٌ أساسيٌّ في الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ أن يكونَ الدَّاعي عالمًا بشريعةِ اللهِ؛ لأنهُ إن كانَ جاهلًا فإلى أيِّ شيءٍ يَدعو! وإن كانَ عالمًا فحينئذٍ يكونُ داعيًا إلى اللهِ على بصيرةٍ.

وقولُه: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ هذا عملُه بنفسِه، أي يعملُ عملا صالحًا يقربُه إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فما هوَ العملُ الصَّالحُ؟

قالَ العُلماءُ: العملُ الصَّالحُ ما جمعَ شرطينِ:

الشَّرطُ الأولُ: الإخلاصُ للهِ.

والثَّاني: المتابعةُ لرَسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

فالعملُ الَّذي فيهِ شِركٌ ليسَ بصالحٍ، والعملُ المبتدَعُ ليسَ بصالحٍ، فلا بد أن

(١) الفروع لابن مفلح (٣/ ٢٥٨).

يكونَ جامعًا بينَ أمرينِ؛ فيجبُ الإخلاصُ للهِ والمتابعةُ لرَسولِ اللهِ، فمَن أشركَ مع اللهِ أحدًا فعملُه مردودٌ؛ لقولِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في الحديثِ القدسيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1]؛ لأن اللهَ غنيٌّ عنِ العَالمينَ، فإذا عملَ الإِنْسانُ عملًا منَ العِبادَاتِ وأشركَ فيهِ معَ اللهِ أحدا، فإن اللهَ لا يقبلُهُ منهُ.

مثالُ ذلكَ: رجلٌ قامَ يصلِّي أمامَ النَّاسِ مِن أجلِ أن يقولَ النَّاسُ: إن فلانا صاحبُ صلاةٍ، فهذا مشركٌ شِركا أصغرَ وليسَ أكبرَ؛ لأنهُ مُراءٍ، وهذهِ الصَّلاةُ لا تُقبلُ منهُ؛ لأنهُ أشركَ فيها معَ اللهِ غيرَه.

مثالٌ آخرُ: رجلٌ تصدقَ بصدقةٍ أمامَ النَّاسِ مِن أجلِ أن يقولَ النَّاسُ: إن فلانًا كريمٌ، فصدقتُه هذهِ غيرُ مقبولةٍ وباطلةٌ؛ لأنهُ أشركَ فيها معَ اللهِ غيرَه، أما لو تصدقَ أمامَ النَّاسِ مِن أجلِ أن يتأسَّى النَّاسُ بهِ، فهذا محمودٌ، وهذا داخلٌ في قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلمَ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ**»[2]. ولهذا امتدحَ اللهُ المنفقينَ سرًّا وعلانيةً حسبَ نياتِهم.

ومَنِ ابتدعَ في دينِ اللهِ ما ليسَ منهُ فعملُهُ مردودٌ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[3]. أي مردودٌ، حتى لو لانَ قلبُ المبتدعِ لبدعتِه، واطمأنَّ فيها، وخشعَ فيهَا، وبكَى، فإنها لا تُقبلُ منهُ؛ لعدمِ المتابعةِ، فلا بدَّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم (١٠١٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

منَ المتابعةِ لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

ولهذا نقولُ: إن العملَ الَّذي فيهِ اتباعٌ أفضلُ منَ العملِ الَّذي ليسَ فيهِ اتباعٌ، وإن كَثُرَ الثَّاني، ولهذا أمثلةٌ:

مثالُ ذلكَ: لو أن إنْسانًا قالَ: أريدُ أن أطيلَ صلاةَ سنةِ الفجرِ لأتمكنَ مِنَ التسبيحِ والدعاءِ، قلنَا: لا تفعلْ، فالسنةُ هيَ التخفيفُ، فالَّذي يخففُ سنةَ الفجرِ أفضلُ مِن الَّذي يطيلها.

ورجلٌ آخرُ معَ الإمامِ في حال سجودٍ، قالَ: أنا أريدُ أن أدعوَ اللهَ في سجودِي، ومعِي وقتٌ، فالإمامُ سيقومُ ويقرأُ وربما يطيلُ القراءةَ، فأنا أريدُ أن أزيدَ في التسبيحِ، وفي السجودِ، وفي الدعاءِ، وآخرُ من حين رفعَ الإمامُ قامَ بعدَه، فأيُّهما أفضلُ؟

الثَّاني أفضلُ؛ لأن الثَّاني متبعٌ، والأولُ قد نقصَ اتباعُه، فالثَّاني الَّذي تابعَ الإمامَ هوَ الَّذي على السنةِ؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وسلمَ: «**إِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا**»[1].

إذنِ العملُ الصَّالحُ ما جمعَ الإخلاصَ للهِ والمتابعةَ لرَسولِ اللهِ.

وضدُّ الإخلاصِ الشركُ، وضدُّ المتابعةِ الابتداعُ.

قولُه: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يعني هذا الرَّجلُ الَّذي دعَا إلى اللهِ وعمِلَ صالحًا قالَ معلنًا: إنني منَ المُسْلمينَ، ولم يبالِ بلومِ لائمٍ، ولا بانتقادِ منتقدٍ، بل هوَ يُعلنُ إسلامَهُ ويجهرُ بهِ على الملأِ.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب تفسير الصَّلاة، باب صلاة القاعد، رقم (١١١٣)، ومسلم: كتاب الصَّلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام، رقم (٤١٢).

وقولُه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذه الجملةُ استفهاميةٌ، ولكن هذا الاستفهامُ بمعنى النَّفيِ، ومعنى الآيةِ: لا أحدَ أحسنُ قولا ممنْ دعَا إلى اللهِ.

واعلمْ أن الاستفهامَ إذا جاءَ في موضعِ النهيِ كان أبلغَ منَ النهيِ المجردِ.

فالقَاعِدةُ: إذا جاءَ الاستفهامُ في موضعِ النَّفيِ كان أبلغَ مِن النَّفيِ المجردِ، فقولُ القائلِ: لا أحدَ أحسنُ ممن دعَا إلى اللهِ، دونَ قولِه: ومَن أحسنُ قولا ممنْ دعا إلى اللهِ؛ لأن الاستفهامَ إذا جاءَ في موضعِ النهيِ كان مُشربًا معنى التحدِّي، كأن المتكلمَ يقولُ: ائتِ لي بأحدٍ يكونُ أحسنَ قولًا ممن دعَا إلى اللهِ وعمِلَ صالحًا.

إذنْ لا أحدَ أحسنُ قولًا ممن دعَا إلى اللهِ وعملَ صالحًا وقالَ: إنني منَ المُسْلمينَ.

فإذا قالَ قائلٌ: كيفَ تكونُ الدَّعوةُ؟

قلنَا: القُرآنُ يفسرُ بعضُه بعضًا؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ بماذا؟ ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥].

فهذِه طرقُ الدَّعوةِ، وهذهِ أساليبُ الدَّعوةِ؛ أن تكون بالحكمةِ، وهي وضعُ الشيءِ في موضعِه، فقد تجدُ إنسانًا على منكرٍ لكنِ الحَالُ لا تناسبُ أن تتكلمَ معَهُ؛ إما لانفعالِه، أو لضيقِ صدرِه، أو لسببٍ منَ الأسبابِ، فهنا لا بأسَ أن تؤخرَ دعوتَه إلى وقتٍ يكونُ مناسبًا؛ لأن الدَّعوةَ في وقتٍ يكونُ مناسبًا أرجى في القبولِ من الدَّعوةِ في وقتٍ غيرِ مناسبٍ؛ لأنكَ لو دعوتَ إنسانًا في حالٍ غيرِ مناسبةٍ ربما تأخذُه العزةُ بالإثمِ ويقولُ: انصرفْ عني، لا شأنَ لكَ بي، لكن إذا كانَ في الوقتِ المناسبِ

في حالِ طمأنينةٍ؛ فإنهُ ربما يكونُ قبولُه وإقناعُه أقربَ إلى المقصودِ.

كذلكَ أيضًا منَ الحكمةِ أن تُنزلَ النَّاسَ منازلَهم، فهذهِ منَ الحكمةِ؛ أن تنزلَ النَّاسَ منازلَهم، فليسَ منَ الحكمةِ أن تدعوَ شخصًا قد عُرِفَ بالاستكبارِ والعنادِ كما تدعُو شخصًا ساذَجًا يغلبُ عليهِ الجهلُ، ولو بُينَ لهُ الحقُّ بأدنى وسيلةٍ لقبلَه، فلا تستوي دعوةُ هذا وهذا، فالمعاندُ لهُ حالٌ، والإِنْسانُ السَّاذَجُ الَّذي ليسَ في قلبِه شيءٌ ويَقبلُ بكلِّ وسيلةٍ لهُ حالٌ أخرى.

ولهذا نجدُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في إنكارِهِ المنكرَ تختلفُ أساليبُه؛ فمرةً ينكرُ بعنفٍ، ومرةً ينكرُ بلينٍ؛ دخلَ أعرابيٌّ المسجدَ، والأعرابيُّ هوَ البدويُّ، والغالبُ على الباديةِ أنهمْ لا يعرفونَ كثيرًا منَ الأحكامِ الشَّرعيةِ، فتنحَّى ناحيةً في المسجدِ وجعلَ يبولُ أمامَ النَّاسِ، وفي مسجدِ الرَّسُولِ ﷺ، فصاحَ النَّاسُ بهِ وجعلُوا يزجرونَهُ، فنهاهمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم وقالَ: «**دَعُوهُ وَلَا تُزْرِمُوهُ**» أي لا تقطعُوا عليهِ بولَه.

فلما قَضى بولَه أمرَ النَّبيُّ ﷺ أن يُراقَ عليهِ سَجلٌ مِن ماءٍ، يعني دَلوا، ودعَا الأعرابيَّ وقالَ لهُ: «**إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا البَوْلِ وَلَا القَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ**». أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[1].

فهناكَ فرقٌ بينَ معاملةِ الصَّحابَةِ لهُ ومعاملةِ النَّبيِّ ﷺ له، فمعاملةُ النَّبيِّ ﷺ أرفقُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم (٦٠٢٥)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء، من غير حاجة إلى حفرها، رقم (٢٨٤، ٢٨٥).

قالَ الأعرابيُّ: «اللَّهُمَّ ارحمنِي ومحمدًا ولا ترحمْ مَعَنَا أَحَدًا»؛ لأن الصَّحابَةَ أغلظُوا عليهِ في الإنكارِ، ومحمدٌ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم رفقَ بِهِ وعلمَهُ بهدوءٍ وسكينةٍ، فرأى هذا الأعرابيُّ لِقِصَر نظرِه أن الرَّحمةَ لا تسعُ إلا إياهُ ومحمدًا صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلمَ. فقالَ لهُ ﷺ: «**لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا**»[1].

أما مفسدةُ البولِ فقدْ زالتْ؛ حيثُ أمرَ النَّبيُّ ﷺ أن يُراقَ على بولِه سَجلٌ من ماءٍ أو ذَنوبٌ من ماءٍ، وانتهتِ القضيةُ.

وقصةٌ أُخرى: دخلَ معاويةُ بنُ الحكمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصَّلاةِ، فعطسَ رجلٌ منَ المصلينَ فقالَ: الحمدُ للهِ، فقالَ لهُ معاويةُ: يرحمُكَ اللهُ؛ لأنهُ يجبُ على كلِّ إنسانٍ سمِعَ عاطسًا عطسَ فحمدَ اللهَ أن يقولَ لهُ: يرحمُك اللهُ، فرماهُ النَّاسُ بأبصارِهم، يعني نظرُوا إليهِ نظرَ إنكارٍ، فلما رآهُم أنكرُوا عليهِ قالَ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ. وهذه تقالُ عندَ التحسرِ والتحزنِ، فجعلُوا يضربونَ على أفخاذِهم يُسكِتونهُ حتى سكتَ، إذنِ الرَّجلُ فعلَ فعلًا ينافي الصَّلاةَ، وهوَ قولُه: يرحمُك اللهُ، وهذا خطابٌ آدميٌّ، وقولُه: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ. قالَ معاويةُ: فَلَما صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[2].

فتجدُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم في هذا الحديثِ عاملَهُ باللطفِ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١/ ٤٢٣، رقم ١٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب تحريم الكلام في الصَّلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

والرفقِ واللينِ.

ويستفـادُ منْ هذا الحديثِ فائـدةٌ عظيمةٌ، وهيَ أن مَن تكلمَ في صلاتِهِ وهوَ لا يَدري أن الكلامَ حرامٌ فصلاتُه صحيحةٌ.

وهذهِ قاعدةٌ في كلِّ محظوراتِ العِبادَاتِ، فكلُّ محظوراتِ العِبادَاتِ إذا فعلها الإِنْسانُ جاهـلًا فلا شيءَ عليهِ، فجميعُ المحظوراتِ -أيِ الممنوعـاتِ- في العِبادَاتِ؛ في الصَّلاةِ، وفي الصيامِ وفي الحجِّ، وفي أي عبادةٍ، إذا فعلَ الإِنْسانُ شيئًا محرمًا فيها مما يُفسدُها فإنها لا تَفسدُ، ولا شيءَ عليهِ.

ولهذا لم يأمرِ النَّبيُّ ﷺ معاويةَ بنَ الحكمِ بإعادةِ الصَّلاةِ.

ويستفادُ منهُ أيضًا فائدةٌ أخرى، وهيَ أن الإِنْسانَ إذا عَطسَ في صلاتِه فليقلِ: الحمدُ للهِ؛ لأن النَّبيَّ ﷺ لم يقلْ شيئًا لهذا الرَّجلِ الَّذي حمِدَ اللهَ حينَ عطسَ.

فإن قالَ قائلٌ: أليسَ الحمدُ كلامًا؟

قلنَا: لأنهُ ذِكرٌ.

فإن قالَ قائلٌ: أرأيتُم إن هبتِ الريحُ وهوَ يُصلِّي وعَصفتْ، فهلْ يقولُ: **«اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»**[1]؟

قُلنا: مقتضى هذا الحديثِ أن يقولَ ذلكَ؛ لأنهُ وجدَ سَببَ الذكرِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، رقم (٣٢٠٦)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر، رقم (٨٩٩).

فلو سمعَ أذانَ الديكِ هل يقولُ: اللَّهُمَّ إني أسألُك مِن فضلِك؛ لأن الإِنْسانَ إذا سمعَ أذانَ الديكِ يُسنُّ لهُ أن يقولَ: أسألُ اللهَ مِن فضلِه[1]؟

الجوابُ: نعمْ.

ولو سمعَ نُباحَ الكلابِ، أو نهيقَ الحميرِ، هل يقولُ: أعوذُ باللهِ منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ وهوَ يُصلي؟

الجوابُ: نعمْ، هذا مُقتضى الحديثِ.

ولو سمِعَ المؤذنَ وهوَ يُصلِّي هلْ يجيبُ المؤذنَ؟

الجوابُ: نعمْ يجيبُ؛ لأن كلَّ ذكرٍ وُجدَ سببُه في الصَّلاةِ فإنهُ مشروعٌ، وهذا ما ذهبَ إليهِ شيخُ الإسْلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقالَ: إنهُ لا بأسَ أن يقولَ المصلِّي كلَّ ذِكرٍ مشروعٍ وُجدَ سببُه في الصَّلاةِ[2].

ولكن في النَّفسِ مِن هـذا شيءٌ، والنَّفسُ تميـلُ إلى أنهُ إذا كانَ الذكرُ يَسيرا لا يَشغلُ عنِ الصَّلاةِ سنَّ أن يقولَه، وإن كانَ طويلًا فلا يُسنُّ، فمثلا إجابةُ المؤذنِ طويلةٌ وليستْ قصيرةً، وأنت في شغلٍ «**إِنَّ فِي الصَّلاةِ لَشُغْلًا**»[3].

أما كلمةٌ واحدةٌ عندَ العطـاسِ، أو إذا وسوسَ لكَ الشَّيْطانُ في صـلاتِكَ

---

(١) أخرجه البخاري:كتاب بدء الخلق، باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، رقم (٣٣٠٣)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الدعاء عند صياح الديك، رقم (٢٧٢٩).

(٢) الفروع لابن مفلح (٢/ ٢٨).

(٣) أخرجه البخاري: أبواب العمل في الصَّلاة، باب ما ينهى عنه من الكلام في الصَّلاة، رقم (١١٩٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب تحريم الكلام في الصَّلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٨).

فإنكَ تَنفثُ عنْ يسارِكَ وتقولُ: أعوذُ باللهِ منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ، فهذا شيءٌ يسيرٌ لا يَضرُّ.

قولُه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ هل معنى الآيةِ: لا تَستوي الحَسَناتُ بعضُها معَ بعضٍ، أوِ السيِّئاتُ بعضُها معَ بعضٍ، أوِ المعْنَى لا تَستوِي الحسنةُ معَ السَّيئةِ؟

فيها للعلماءِ قولانِ: قولٌ أن المعْنَى: لا تستوي الحسنةُ معَ السَّيئةِ، فالحسنةُ لا شكَّ خيرٌ، والسَّيئةُ شرٌّ، وبعضُهم قالَ: لا تستوي الحسنةُ في جزئياتِها، أي أن الحَسَناتِ بعضُها أعلى مِن بعضٍ، والسيِّئاتِ بعضُها أعلى مِن بعضٍ.

فعلى القولِ الأولِ أن المعْنَى أن الحسنةَ لا تُساوي السَّيئةَ تكونُ (لا) في قولِه: ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ زائدةٌ للتوكيدِ، كما هي في قولِه تَعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] فإن (لا) هنا زائدةٌ للتوكيدِ؛ لأن المعْنَى: غيرِ المغضوبِ عليهم والضالينَ.

فإذا قلنا بالقولِ الأولِ أن الحسنةَ لا تُساوي السَّيئةَ صارتْ (لا) زائدةً للتوكيدِ، زائدةً إعرابًا لا معنًى؛ لأن لها معنًى وهوَ التوكيدُ، وإذا قلنَا بالثَّاني: لا تستوِي الحَسَناتُ بعضُها معَ بعضٍ، ولا تَستوي السيِّئاتُ بعضُها معَ بعضٍ، صارتْ (لا) ليستْ زائدةً؛ لأن الجملةَ كأنها جملةٌ مستقلةٌ؛ كأن المعْنَى: ولا تَستوي الحَسَناتُ ولا تستوي السيِّئاتُ.

فإذا كانتْ تحتملُ معنيينِ فهلْ نحملها على المعنيينِ، أو نطلبُ مُرجِّحًا؟

نقولُ: لدينَا قاعدةٌ مهمةٌ في التفسيرِ، والحديث أيضًا: إذا كانَ النصُّ يحتوي

علـى معنيينِ لا مُرجحَ لأحدِهما على الآخَرِ، ولا منافـاةَ بينهُما وجبَ أن يحملَ على المعنيينِ جميعًا؛ وذلكَ لأن المتكلمَ بذلكَ هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أو رَسولُه محمدٌ ﷺ، وهوَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يعلمُ ما يحتملُه هذا اللفظُ، فإذا تكلمَ اللهُ بهِ محتمِلا للأمرينِ، وليسَ لأحدِهما مُرجحٌ، ولا منافاةَ بَينهُما، فإنهُ يجبُ حملُ الآيةِ على المعنيينِ جميعًا، وكذلكَ يقالُ في الحديثِ.

فهذهِ قاعدةٌ مفيدةٌ: أنهُ إذا احتملَ النصُّ القُرآنيُّ أوِ النبويُّ معنيينِ، لا مُرجِّحَ لأحدِهما على الآخَرِ، ولا منافاةَ بينهُما، وجبَ حملُه على المعنيينِ.

إذنْ ففي الآيةِ الكَريمةِ أنهُ لا تستوي الحسَناتُ بعضُها معَ بعضٍ، ولا تستوي السيِّئاتُ بعضُها معَ بعضٍ، ففي الحسَناتِ حسناتٌ واجبةٌ مفروضةٌ، وحسناتُ تطوعٍ، الخيارُ فيها للإنْسـانِ، مثل راتبةِ صـلاةِ الظهرِ؛ إن فعلها الإنْسانُ أُثيبَ، وإلا فلا عقابَ عليهِ، والأحبُّ إلى اللهِ والأفضلُ هوَ الصَّلاةُ المفروضةُ؛ ففي الحديثِ: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**»[1].

والعجبُ أن كثيرًا منَ العوامِّ يظنونَ أن التطوعَ أفضلُ منَ الفريضةِ، وهذا غلطٌ، فالفريضةُ أفضلُ مِن جنسِها منَ التطوعِ.

وفي السيِّئاتِ أيضًا هناكَ كبائرُ، وأكبرُ الكبائرِ، وصغائرُ، فالشركُ أكبرُ الكبائرِ، وعقوقُ الوَالدينِ أكبرُ الكبائرِ بالنِّسبَةِ لحقوقِ الآدميينَ، وشَهادَةُ الزورِ أكبرُ الكبائرِ. وفي السيِّـئاتِ صغائرُ تُمحى بفعلِ الحسَنـاتِ **﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾** [هود:١١٤]، فـ«**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمْعَةُ إِلَى الجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ،**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاب، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢).

مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ»(١).

قولُه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بعدَ قولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ فيهِ إشارةٌ إلى أن عدمَ استواءِ الحسَناتِ والسيِّئاتِ يشملُ ما كانَ في حقِّ اللهِ وما كانَ في حق الآدميينَ.

﴿ٱدْفَعْ﴾ أي ادفعِ السَّيئةَ ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وليسَ ادفعِ الحسنةَ بما هوَ أحسنُ؛ لأن الحسنةَ لا يجبُ دفعُها، يعني لا يُلزمُ الإنْسانُ بأن يدفعَ الحسَناتِ بأحسنِها، لكِنِ ادفعِ السَّيئةَ بالَّتي هيَ أحسنُ منهَا، وهيَ الحسنةُ، فإذا أساءَ إليكَ شخصٌ فقابلْ إساءَتَه بالإحسانِ؛ فإنكَ إذا فعلتْ ذلكَ مَلكتَه تمامًا، فإذا أساءَ إليكَ شخصٌ فاعفُ عنهُ؛ فإن مَن عَفَا وأصلحَ فأجرُه على اللهِ، ولكن هلِ الأفضلُ العفوُ مطلقًا، أوِ العفوُ بشرطِ أن يكونَ إصلَاحًا؟

الجوابُ: الثَّاني، فإياكَ أن تأخذَكَ العَاطفةُ وتعفو عنْ كلِّ مجرمٍ وعنْ كلِّ مفسدٍ، بل إذا كانَ العفوُ في محلِّه فهوَ أفضلُ، وإذا لم يكنْ في محلِّه فالأخذُ بالحزمِ أفضلُ، فلو أن رجلًا معروفًا بالعدوانِ اعتدَى عليكَ فهلِ الأفضلُ أن تأخذَ بحقِّك، أوِ الأفضلُ أن تعفوَ عنهُ؟

الجوابُ: الأولُ الأفضلُ؛ أن تأخذَ بحقِّك؛ حتى تُرجعَ هذا المعتديَ عن أن يعتديَ على غيرِك، أما إذا كانَ العدوانُ من شخصٍ لم يُعرفْ بالعدوانِ، ومعروفٌ بالاستقامةِ، ولكن بدرتْ منهُ هذهِ البادرةُ، فالأفضلُ أن تعفوَ عنهُ، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الصَّلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، رقم (٢٣٣).

ولذلكَ نحنُ لا نؤيدُ الَّذينَ إذا حصلَ حادثٌ على أحدٍ مِن أقاربِهم، وهمْ أهلُ الحقِّ، أن يعفُوا عن صاحبِ الحادثِ، لا نؤيدُ بل نقولُ: يجبُ النظرُ إلى المصلحةِ، فإذا كانَ في العفو إصلاحٌ فاعفُ، وإن لم يكنْ في العفوِ إصلاحٌ فلا، فلو أن رجلًا متهورًا يقودُ السيارةَ ولا يبالي دهسَ قريبًا لكَ أنتَ وارِثُه، فليسَ من الأفضلِ أن تعفوَ عنهُ، والأفضلُ أن تأخذَ بحقِّكَ كاملًا؛ لأن هذا متهورٌ، وأنتَ إذا عفوتَ عنهُ الآنَ ذهبَ غدا يَدهسُ آخرَ، لكن إذا كانَ الحادثُ وقعَ من شخصٍ معروفٍ بالالتزامِ، ونعلمُ أنهُ أكره النَّاس لهذا الحادثِ، ولكن قدرَ اللهُ وما شاء فعلَ، فهذا العفوُ عنهُ أفضلُ.

لذلكَ يجبُ على الإنسانِ أن يُلاحظَ هذهِ الأمورَ، فقولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ هذ مشروطٌ بما إذا كانَ الدفعُ أحسنَ؛ كما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

قولُه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ هكذا قالَ الربُّ عَزَّوَجَلَّ وهوَ أعلمُ بعبادِه، وهوَ الَّذي يقلبُ القُلوبَ، وهوَ الَّذي ما مِن قلبٍ من قلوبِ بني آدمَ إلا وهوَ بينَ أصبعينِ مِن أصابعِه عَزَّوَجَلَّ[1].

فهذا الرَّجلُ الَّذي بينَك وبينَه عداوةٌ إذا دافعتَ سيئتَه بالَّتي هيَ أحسنُ أصبحَ كأنهُ وليٌّ حميمٌ، أي قريبٌ صديقٌ، وكانَ في الأولِ عدوًّا ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ والقائلُ لهذا هوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فلا تستبعدِ الأمرَ أن يكونَ هذا العدوُّ غدا صديقًا لكَ؛ لأن القُلوبَ بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القُلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

بعضُ النَّاسِ يأخذُ بالمقاصةِ ولا يدفعُ بالَّتي هيَ أحسنُ، ويقولُ: هذا الَّذي هجرَني واللهِ لأهجرنَّه، هذا الَّذي أساءَ إليَّ واللهِ لأسيئنَّ إليهِ، هذا الَّذي قطعَ الرَّحمَ بيني وبينَه واللهِ لأقطعنَّ الرَّحمَ بيني وبينَه، وهذا غلطٌ، بل أنظرُ المصالحَ، وهذا العدوُّ سيكونُ صديقًا لكَ إذا فعلتَ ما أمرَكَ بهِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾؛ أي لا يُوفَّقُ لهذهِ الخصلةِ -وهي الدفعُ بالَّتي هيَ أحسنُ- إلا الَّذينَ صبروا، أي حبَسُوا أنفسَهم وحملُوها على أحسنِ الأخلاقِ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ذو نصيب عظيمٍ.

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ وهو شيطانُ الجنِّ، يعني الشَّيْطانَ الَّذي هوَ إبليسُ إن نزَغَك منهُ نَزْغٌ، أيّ نزغٍ يكونُ، فاستعذْ باللهِ إنهُ هوَ السميعُ العليمُ.

نزغُ الشَّيْطانِ:

نزغُ الشَّيْطانِ شيئانِ:

الشيءُ الأولُ: التفريطُ في الوَاجِبِ، فإن الشَّيْطانَ يثبطُ العزيمةَ ويهونُ الأمرَ ويقولُ للإِنْسانِ: انتظرْ، أو يقولُ: هذا شيءٌ سهلٌ لو تركتَه، فليسَ عليكَ إثمٌ، فهذا نزغ منَ الشَّيْطانِ.

الشيءُ الثَّاني: التهاونُ بالمحرمِ، فيقولُ لكَ: أَقدم على هذا، فهذا شيءٌ سهلٌ، وبابُ التَّوبةِ مفتوحٌ، فيزينُ لكَ السوءَ ويَعِدُك ويُمنِّيكَ، وما يَعِدُك الشَّيْطانُ إلا غرورًا.

إذنْ ذِكرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ دواءٌ لعدُوَّينِ: العدوُّ البشريُّ؛ أن تدافعَ سيئاتِه بالَّتي هيَ

أحسنُ؛ لأنه بشرٌ مثلُك وتستطيعُ أن تدافعَه بعملٍ من عملِكَ أنتَ، والعدوُّ الشَّيْطانيُّ الجِنيُّ، وتدفعُ عداوتَه بالاستعاذةِ باللهِ؛ لأنكَ لا تستطيعُ أن تدافعَه بشيءٍ محسوسٍ، فلم يبقَ عليكَ إلا الاستعاذةُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ وهوَ اللجوءُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِن سوءِ وشرِّ هذا العدوِّ الشَّيْطانيِّ.

فإذا نزغَكَ شيءٌ ورأيتَ مِن نفسِكَ أن شيئًا يأمرُكَ بمعصيةٍ فهذا يُسمى نزغًا منَ الشَّيْطانِ، وتداوِيه بالاستعاذةِ منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ؛ فتقولُ: أعوذُ باللهِ منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ، وإذا قلتَ ذلكَ بصدقٍ فإن اللهَ تعالى يعيذُكَ منهُ.

وإذا تثاءبَ الإِنْسانُ، والتثاؤبُ معروفٌ، فالسنةُ أن يَكظمَ ذلكَ؛ يعني ألا يتثاءَبَ، فإن لم يستطعْ فليضَعْ يدَه على فمِه فقطْ، وهلْ يقولُ: أعوذُ باللهِ منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ؟

الجوابُ: لا يقولُ: أعوذُ باللهِ منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ؛ لأن النَّبيَّ ﷺ لما ذكرَ التثاؤبَ قالَ: فليكظمْ ما استطاعَ فإن لم يستطعْ فليضعْ يدَه على فِيهِ[1]، ولم يأمُرْنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن نقولَ: أعوذُ باللهِ منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ.

فإن قالَ قائلٌ: أليسَ قدْ ثبتَ عنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن التثاؤبَ منَ الشَّيْطانِ؟

قلنَا: بلى، لكنِ النَّبيُّ ﷺ أخبرَنَا أنهُ منَ الشَّيْطانِ لأن التثاؤبَ عنوانُ الكسلِ والخمولِ، والإِنْسانُ ينبغي أن يكونَ نشيطًا دائما قويًّا، ولكنَّهُ لم يأمرنَا أن نستعيذَ باللهِ

---

(١) أخرجه البخاري:كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٨٩)، ومسلم:كتاب الزهد والرقائق، باب تشميت العَاطس، وكراهة التثاؤب، رقم (٢٩٩٤).

منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ؛ لأن نزغَ الشَّيْطانِ الَّذي أُمرنا أن نستعيذَ باللهِ منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ عندَ حصولِه هوَ الأمرُ بالمعصيةِ، أوِ التهاونُ في الطَّاعةِ.

أسألُ اللهَ تعالى أن يعيذَني وإياكُم منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ، وأن يجعلَنا منَ القائمينَ بأمرِ اللهِ على ما يحبُّ ويرضى.

والحمدُ للهِ الَّذي بنعمتِه تتمُّ الصَّالحَاتُ، وصلى اللهُ وسلم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبِهِ.



الدَّرس السَّادس:

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنا ومن سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَن يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ له، وأَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورَسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، ومَن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٠-٣٦].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الأول: إيمانٌ، والثَّاني: إسلام.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هذا إيمان بربوبيَّة اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنه الربُّ الخَالِقُ المالِك المدبِّر لجميعِ الأمورِ.

وكلِمة (قالوَا) تعني القول باللسانِ والقولَ بالقلبِ، أما القولُ باللسانِ فظاهِر، أن يقول الإِنْسانُ: ربُّنا اللهُ، وأما القولُ بالقلبِ فأن يعتقدَ اعتقادًا جازمًا

لا شَكَّ فيه أن الربَّ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

إذن قالوَا بقلوبهم وأَلسنتهم: ربُّنا اللهُ.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ أي: استقاموا على دِين اللهِ وشَريعته، وذلك بأن يَأتوا بالشَّريعةِ من غير غُلُوٍّ ولا تَقصيرٍ؛ لأن النَّاسَ باعتبارِ الاستقامةِ يَنقسمونَ إلى **ثلاثةِ أقسامٍ:**

الأوَّل: غالٍ في دِين الله.

والثَّاني: جافٍ عن دِين الله.

والثَّالث: مُعتدِل مُستقيم على دينِ اللهِ، لا غُلُوٌّ ولا تفريطٌ.

أما الأوَّل الغالي في دين الله فإنه واقع فيما نَهَى عنه النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم وفيما حذَّر منه، حيث قال: «**إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ**»(١).

والغلوُّ في الدينِ ربما يؤدِّي إلى الكفرِ الصريحِ؛ لأن الغاليَ في الدين تجاوزَ الحدَّ، ومَن تجاوزَ الحدَّ فهو ظالمٌ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطَّلاق:١].

وقد أدَّى الغلوُّ في الدينِ إلى تكفيرِ المُسْلمينَ عوامِّهم ووُلاتِهم؛ كما جرَى ذلك من الخوارجِ الَّذينَ غلَوْا في دينِ اللهِ، فكانوا يَتجاوزون الحدَّ فيما شَرَعَه الله عَزَّوَجَلَّ، وكفَّروا المُسْلمينَ، واستباحوا دِماءَهم و أموالَهم، كما جَرَى للخوارجِ في زمنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإن هَؤُلاءِ الخوارجَ كانوا مع عليِّ بنِ أبي طالبٍ

---

(١) أخرجه النسائي:كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، رقم (٣٠٥٧)، وابن ماجه:كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، رقم (٣٠٢٩).

على خَصمِه، ثمَّ لـمَّا رضيَ عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالتحكيمِ، الَّذِي هو صُلح، كَفَّرُوا عليَّ ابنَ أبي طالبٍ، وخرجوا عليه وقاتلوهُ، ولكن كانتِ الدَّائرةُ -ولله الحمد- عليهم، فقتلهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وهناك أُناس آخَرونَ على العكسِ من هَؤُلاءِ؛ فَرَّطوا في الدينِ وتهاونوا فيه، وقالوَا: إن الدينَ هو العقيدةُ فقطْ، وأما الأعمالُ فلا دخلَ لها في الدينِ، والإِنْسانُ له أن يزنيَ ويسرِق ويقتلَ النَّفسَ ويفعل كلَّ شيءٍ ولا يخرج منَ الإِسْلامِ؛ ما دام عنده إيمانٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، واعترافٌ بأن الله تَعَالَى هو الربُّ، فإن ذلك كافٍ.

فالأَوَّلون غَلَوا، وهؤلاء جَفَوْا وفَرَّطُوا، وأخرجوا عن شَريعة اللهِ ما هو منها، أما الوسطُ، وهم الَّذِينَ استقامـوا، فهم الَّذِينَ التَزَموا بدينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا غلـوٌّ ولا تقصيرٌ.

أسأل اللهَ أن يجعلني وإياكم مِنهم، وأن يُعِيذَنـا من نَزَغَات الشَّيْطانِ، وأن يَرزُقنا الاستقامةَ على دينِ اللهِ حتَّى نلقاهُ.

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ وخبرُ (إنَّ) هو قولُه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: تَنزِل عليهم الملائكةُ شيئًا فشيئًا. ويكون هذا التنزُّلُ في مواضِعِ الخوفِ والذُّعر، تَتنَزَّل عليهم الملائكةُ فيُوَطِّنونهم، وأحوج ما يكون الإِنْسان إليه في توطين نفسه عند الموت، فإن أضيقَ ما يكون على الإِنْسان في تلك اللحظةِ -نسأل اللهَ أن يُحسِنَ لنا جميعًا خاتمتنا- في تلك الحَالِ تَتنَزَّل الملائكةُ، يقولون: لا تخافـوا ولا تَحزنوا، أي: لا تخافوا من مُستقبَل، ولا تحزنوا على ماضٍ؛ لأن الحزن يكونُ على الماضي، والخوف يكون منَ المستقبَل.

قوله تعالَى: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ والبشارةُ هي الإخبارُ بما يَسُرُّ.

وقوله تعالَى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يعني الَّتي وعدكم الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله تَعالَى وَعَدَ الجنةَ كلَّ مَن آمنَ به واستقام على دِينِه.

قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾؛ أما ولاية الملائكةِ للإِنْسانِ في الحياةِ الدُّنيا؛ فإن الملائكة تكون معه تُسَدِّده، وتُشَجِّعه على الخيرِ، وتحذِّره من الشرِّ، حتَّى يَستقيمَ على دينِ اللهِ، وأما في الآخرةِ فإن الملائكة تَتَلَقَّاهُم يوم الحَشر وفي الجنة: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنةِ أو في الآخرةِ ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تَطلبون ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: ضيافةً من الله عَزَّوَجَلَّ الَّذي هو غفورٌ للذنوب، رَحيم بالعباد عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (مَنْ) اسم استفهامٍ، لكن هذا الاستفهام بمعنى النَّفيِ، أي: لا أحدَ أحسنُ قولًا ممَّن دعا إلى اللهِ، ولكن يأتي النَّفيُ بصيغةِ الاستفهامِ لأنَّه في هذه الحَالِ يكون مُشْرَبًا بالتحدِّي؛ كأن المتكلِّمَ يقول: أَرِنِي أحدًا أحسنَ ممَّن دعَا إلى اللهِ وعمِل صالحًا.

فنأخذ من هذا قاعدةً: أن الاستفهام يأتي بمعنى النَّفي، وإذا جاء الاستفهامُ بمعنى النَّفيِ كان دالًّا على أمرينِ: الأمر الأول: النَّفي، والثَّاني: التحدِّي.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: ممَّن اتصفَ بهذينِ الوصفينِ:

الأوَّل: الدَّعوة إلى اللهِ.

والثَّاني: أن يعملَ صالحًا.

الدَّعوة إلى الله:

والدَّعوةُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ هي سبيلُ الرُّسلِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

والدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ هي: أن يدعوَ النَّاسَ إلى دينِ اللهِ بأن يقومَ في مسجدٍ، أو في مجتمعٍ، أو في مجتمع خاصٍّ، فيدعو إلى اللهِ، ويُذَكِّرُ النَّاس ويحثُّهم على الخيرِ، ويحذرهم من الشرِّ، ويجمع كلِمَتهم على الحقِّ.

شروط الدَّاعي إلى الله:

أولًا: أن يكون على علمٍ:

ولا بُدَّ أن يكون الدَّاعي إلى اللهِ عنده علم، فإنْ دعا إلى اللهِ على غير علمٍ كان إفسادُه أكثرَ من إصلاحِه؛ لأن الدَّاعيَ إلى اللهِ على غير علمٍ ربما يُحَرِّمُ الحلالَ ويحلِّل الحرامَ وهو لا يدري، فلا بُدَّ أن يكون على علمٍ؛ لقولِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: أدعو اللهَ على بصيرةٍ، أي على علمٍ.

ثانيًا: أن يكون حكيمًا:

ولا بُـدَّ أن يكونَ الدَّاعي حَكيمًا، فيبدأ بما هو أهمُّ، وبطريقِ الرِّفق واللِّين

والبيانِ والإقناعِ؛ لَمَّا بعثَ النَّبيُّ ﷺ مُعاذًا إلى اليمنِ قال له: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ**» يعني من النَّصارَى أو من اليهودِ، «**فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**» وهذه هي أصل الأصولِ، ولا يمكن لأيِّ عملٍ أن يُقبَل إلَّا بشَهادَةِ أنْ لا إِلَهَ إلَّا اللهُ وأن مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**»؛ لأن أهم أركان الإِسْلامِ بعد الشَّهادتينِ الصَّلاةُ، «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ**»[(١)].

وهذا ترتيب للدعوةِ، يعني لا تبدأِ النَّاس بالأقلِّ أهمِّيَّةً قبل الأهمِّ، فابدأْ بالأهمِّ فالأهم، ثمَّ انظرْ هل يَقبَل النَّاس أو لا، فإذا قبِلوا الأهمَّ فانتقِلْ بهم إلى المهمِّ شيئًا فشيئًا؛ لأن النفوسَ، ولا سيَّما الَّذِينَ اعتادوا على شيءٍ، لا يُمكِن أن تَقبلَ بمجرَّد دعوةٍ، فلا بُدَّ من ممارسةٍ، ولا بُدَّ من صبرٍ.

إذن لا بُدَّ للداعي أن يكون حكيمًا، يعرِف كيف يدعو، وكيف يبدأ بالأهم فالأهم، فلو رأيتَ أُناسًا يَشربون الخمرَ، ويشربون الدخَان، فبأيِّهما تبدأ في النهيِ؛ الخمر أم الدُّخَان؟

نقول: الخمر؛ لأن الخمر أشدُّ، فنبدأ في النهيِ بالأشدِّ، وفي الأمرِ بالأهمِّ.

ثالثًا: أن يكون عالـمًا بحال المدعوِّ:

ولا بُدَّ أيضًا في الدَّاعي أن يكون عالـمًا بأحوالِ المدعوِّ؛ لأن المدعوين

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشَّهادتين وشرائع الإسْلام، رقم (١٩).

يختلفون، فأحيانًا تدعو صاحبَ جَدَلٍ وخصومةٍ وعنادٍ، فلا بُدَّ أن تَستعِدَّ له، حتَّى تستطيعَ أن تُجادِلَه، وتَدحَض حُجَّته، وأحيانًا تدعو عامِّيًّا، فهذا يكفيه أدنى شيءٍ.

وبناءً على ذلك لا بُدَّ أن تستعدَّ عند الدَّعوةِ إلى اللهِ خوفًا من أن يقومَ مُنافِق يُجادِلك بالقُرآنِ فتبقى حيرانَ، فلا بُدَّ أن يكون لديك علمٌ بحالِ الَّذِي تدعوه، حتَّى تكونَ مستعدًّا لما سيُورِده من الشُّبه، ولا تقف حَيرانَ.

رابعًا: أن يكون على خُلق:

ولا بُدَّ أيضًا للداعيةِ أن يكون على خُلُق، حيثُ يَقتدي به النَّاسُ، ويأخذون بأقوالِه، ويأخذون بأفعالِه. وكثيرٌ من النَّاسِ يتأثَّر بخُلق الدَّاعيةِ أكثرَ ممَّا يتأثَّر بقولِه، فتجده يَتَرَسَّم خُطاه؛ ماذا فعل، وماذا ترك، وماذا قال، ويقلِّده تمامًا، حتَّى يكونَ كأنه نُسخة منه.

العمل الصَّالح:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، فما هو العمل الصَّالحُ؟

العمل الصَّالح ما جمع بين شرطينِ:

الأوَّل: الإخلاص لله.

والثَّاني: المتابعةُ لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّم.

أولًا: الإخلاص:

فإنْ فُقِد الإخلاصُ فالعملُ مَردود، وإن فُقدت المتابعةُ فالعملُ مردودٌ.

والدَّلِيل: قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ في الحديثِ القُدُسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**،

مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[١].

وهذا نصٌّ صريحٌ في أن العمل إذا كان فيه شِرك فهو مَردود لا يَقبله اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

مثال ذلك: رجل رأى النَّاس ينظرونَ إليه فقام وتصدَّق ليقولَ النَّاسُ: إنَّه رجل كَريم، فإنه لا تُقبَل صدقتهُ؛ لفقدِ الإخلاصِ.

رجلٌ آخرُ رأى النَّاس ينظرونَ إليه فقام يُصَلِّي، وهو لا يريد الصَّلاةَ، لكن من أجلِ أن يقولَ النَّاسُ: هذا رجل متديِّن، فلا تُقبَل صلاتُه؛ لفقدِ الإخلاصِ.

ثانيًا: المتابعة:

أي المتابعة للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فمَن عمِل عملًا وأخلصَ فيه لله، لكنَّه على غيرِ سبيلِ اللهِ، فإن عمَله لا يُقبل، والدَّليلُ قولُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**» وفي لفظٍ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[٢].

ولهذا قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[٣].

وبناءً على ذلك ما نَسمع ممَّا يُقال منَ الأذكارِ والأورادِ البِدعيَّة الَّتي هي في حد ذاتها حقيقةٌ صَحيحةٌ؛ لكن صِيغَتْ على صفةٍ لم تَرِدْ بها الشَّريعةُ، مع إخلاص الَّذِينَ ابتدعوها، فهذه بدعة لا تُقبَل.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصَّلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

فبعض النَّاس له طُرُقات في الأذكارِ، وفي التسبيحِ، وفي قراءةِ القُرآنِ، وغير ذلك، وهم مُخلصون للهِ عَزَّوَجَلَّ لكنَّهم أَتَوْا بعملٍ يَتَعَبَّدون به للهِ؛ والله تَعَالَى لم يَشْرَعْه، فهَؤُلاءِ لا يُقبَل عملُهم؛ لفقد المتابعةِ، فلم يوافق شريعة الله، وقد قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

بقِيَ أن يُقال: هل يُثابون أو يَأثَمون؟

نقول: في هذا تفصيلٌ؛ فإنْ بُيِّنَ لهم الحقُّ، وأصرُّوا على ما هم عليه من البِدعة، فهم آثِمون، وإلا فإنهم يُثابون على أصلِ النِّيَّة، ولكنَّهم لا يُثابون على العملِ؛ لأن العملَ على غيرِ شريعةِ اللهِ، والنيةُ طيبةٌ، لكن لا يَكفي الإخلاصُ، بل لا بُدَّ من المتابعةِ.

مثال: رجلٌ صلَّى بعد صلاةِ العصرِ، وطرأَ عليه فقامَ يتطوَّع للصلاةِ بعد صلاةِ العصرِ، فإنه لا تُقبَل صلاتُهُ؛ لِفَقْدِ المتابعةِ؛ لأن هذا وقتُ نهيٍ منهيٌّ عنه، فكيف تَتعبَّد للهِ بما نهى عنه! فهذا لا يَصِحُّ إطلاقًا.

إذن لا بُدَّ من الإخلاصِ، ولا بُدَّ من المتابعةِ.

ويقول بعضُ النَّاسِ في الابتداع في دين الله: إن هذه بدعة حَسَنة، فنقول: مَن قال: إن في البدع بِدعة حسنة؟! وأقصِد بالاستفهامِ هنا الإنكارَ الشديدَ، فلا يمكِن أبدًا أن يكون في البدعةِ حَسنة، وكيف يمكن أن يكون في البدعِ شيءٌ حَسَنٌ وأعلمُ الخلقِ بشريعةِ اللهِ، وأنصحُ الخلقِ لعبادِ اللهِ، وأفصحُ الخلقِ فيما يتكلَم به، وأشدُّ النَّاس إرادةً للحقِّ، وهو رَسول الله ﷺ قال: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»؟!

فهل النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يعرِف ما يقول! لا والله.. وهل النَّبي ﷺ يريد

أن يُعَمِّيَ على النَّاس ويضلِّلهم بدون حقٍّ! لا واللهِ أبدًا.. وهل النَّبي ﷺ تكلَم بغير علم! لا.. إذن قال أنصحُ الخلقِ، وأعلمُ الخلقِ، وأفصحُ الخلقِ، وأحسنهم إرادةً: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، وعلى هذا فمَن قسَّم البِدَع إلى ثلاثةِ أقسامٍ، أو إلى خمسةِ أقسامٍ فإنَّنا نردُّ عليه تقسيمَه هذا ولا نُبالي أيًّا كانت مَنزلتُه من العُلَماءِ، ولا يمكِن أن يكون في البدعةِ شيءٌ حسنٌ والرَّسُول ﷺ يقول «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**».

فمَن قال: إن مِنَ البِدع ما هو حَسَن، فقولُه مردودٌ؛ لأننا نقول: إما أَلا يكون هذا بدعةً، وإما يكون بدعةً سيِّئةً، أما أن يصدق عليه أنَّه بِدعة ثمَّ نقول: بدعة حسنة، فكلا واللهِ.

فإنْ قَالَ قَائِلٌ: أليس أميرُ المؤمنينَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا جمعَ النَّاسَ في قيامِ رمضانَ على إمامٍ واحدٍ، خرج ووجدَ النَّاسَ يُصلُّون مع إمامِهم فقال: «**نِعْمَ الْبِدْعَةُ هَذِهِ**»[(١)]، فأثنَى على هذه البِدعة؟

فالجواب: أن أمير المؤمنينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يَبْتَدِعْ هذا، فقيامُ رمضان بإمامٍ ثابتٌ بالسنَّة؛ وذلك أنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم قام بأصْحَابه في رمضان ثلاثَ ليالٍ، وتأخَّر في الرَّابعة، وقال: «**إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ**»[(٢)].

فتأخَّر لسببٍ، وهو خشيةُ أن تُفرَض بعد وفاتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَم. ولا يمكن أن تُفرَضَ فرائضُ بعد وفاتِه، فزالتِ العِلَّة الَّتي من أجلها تأخَّرَ النَّبيُّ ﷺ عن القيام بالنَّاس، فسمَّاها عمرُ بدعةً باعتبارِ أنَّها تُركتْ في عهد الرَّسُول ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان، رقم (٢٠١٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد، رقم (٩٢٤)، ومسلم: كتاب الصَّلاة، باب الترغيب في قيام رمضان، رقم (٧٦١).

وفي عهد أبي بكرٍ، ثمَّ أُحْيِيَتْ من جديد، فتكون بدعةً باعتبار أنَّها تُركت ثمَّ أُعيدتْ، فهي سُنة مُعادَة، فلا دليلَ فيها لأهلِ البِدع.

ولو أننا قلنا: إنَّ مِنَ البِدع ما هو حَسَن لتَفَرَّقَ النَّاسُ في دينِ اللهِ؛ وصار هَؤُلاءِ يُحْدِثون أشياءَ ويقولون: هذه من الدينِ، وآخرون يحدِثون أشياءَ ويقولون: هذه من الدينِ، وغيرهم يُحدثون أشياء ويقولون: هذه من الدين، وتَفَرَّقَتِ الأُمة بلا ميزانٍ ولا استقامةٍ.

فإذا قال قائل: ما هو الأصلُ في العِبادَاتِ؟

فالجَواب: أن الأصل في العِبادَاتِ المنعُ، وألَّا يَتَعَبَّدَ أحدٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ إلَّا بدليلٍ، فإذا رأينا أحدًا يَتَعَبَّد بعبادةٍ فلنا أن نقولَ: ما دَليلُك على هذه العبادة؟ لأَنَّه إذا لم يكنْ له دليل صار فِعله بدعةً، فكلُّ إنْسانٍ يَتَعَبَّد لله بشيءٍ قوليٍّ أو فعليٍّ أو عَقَدِيٍّ، فإنَّنا نقول له: هاتِ الدَّلِيلَ على هذا، فإن أتَى بدليلٍ صار عَمَلُه سُنةً وليس ببدعةٍ، وإن لم يأتِ بالدَّلِيلِ صار عملُه بدعةً مردودًا عليه، وهو به ضالٌّ مُضِلٌّ إذا كان ممَّن يُقتدَى به.

إذن نقول: قولُه في الآيةِ الكَريمةِ: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ العملُ الصَّالحُ ما جمعَ شرطينِ: الأول: الإخلاصُ للهِ، والثَّاني: المتابعةُ لرَسولِ اللهِ ﷺ.

قوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هذا الوصفُ الثَّالثُ؛ فالأولُ: الدعاءُ إلى اللهِ، والثَّاني: العملُ الصَّالحُ، والثَّالث: إعلانُ الإِسْلامِ؛ أن يُعلِنَ إسلامَه ويقول: إنني من المُسْلمينَ، وهذا مَشروط بها إذا لم يكن في الإعلانِ ضَرر على الدَّعوةِ، فإن كان في ذلك ضَرَر على الدَّعوةِ فلا بأس أن يُخفِيَ إسلامَهُ، ويدل لهذا أن دعوةَ النَّبي

ﷺ أوَّل ما دعا كانت سِرًّا، ثمَّ أُمِرَ بالإعلان، وقيل له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤].

وانظر إلى قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن مؤمنِ آلِ فِرعونَ.. وفِرْعونُ توعَّد موسى بالقتلِ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]، فقام رجل مؤمن من آلِ فِرعون يكتُم إيمانَه؛ خوفًا أن يُقتَل وتَضْعُف الدَّعوة، وهو لا يُهِمُّه أن ينتقلَ من الدُّنيا إلى الآخرةِ؛ لأن كل إِنْسانٍ سوف ينتقل إن عاجلًا وإن آجِلًا، لكن إذا قُتل الدَّاعيةُ بَطَلَتِ الدَّعوةُ، ونَقَصَتِ الدَّعوةُ.. فيقول هذا الرَّجل الَّذِي يكتُم إيمانَه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر:٢٨]. فانظر إلى الفصاحة، والحِذْق والذكاء والعقل، قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وهو يعلم أن هذا الرَّجلَ مُوسَى، لكن لم يقل: مُوسى؛ لئلَّا يظنَّ أحدٌ أن بينه وبينه صِلة ومعرِفة، بل جاء بصيغةِ النكِرة: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

فلو قال: أتقتلونَ موسى لَقِيلَ: هذا صاحبٌ له يُدافِع عنه، لكن أتى بصيغةِ النكرةِ حتَّى لا يتوهَّمَ واهِمٌ أن بينه وبينه صِلَةً. ولا شَكَّ أن بينهما صلةً لأنَّه مؤمِن، ولكن هو أمام أعداءٍ يَخشى على نفسِه، قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨] إلى آخِره.

المهم أن قوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني إعلان إسلامِه ولا يبالي، وهذا الإعلانُ محمودٌ بشرط ألَّا يترتبَ عليه ضررٌ أشدُّ من الإخفاءِ، فإنْ تَرتَّبَ عليه ضَرَرٌ فلْيُخْفِه حتَّى يأتيَ اللهُ بأمرِهِ.

أسأل الله تَعَالَى أن يجعلني وإياكم من دُعاةِ الحق، وأنصارِ الحق، وأن يُعيننا على أنفسنا أولًا، ثمَّ على غيرنا ثانيًا، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ في هذا التعبير احتمالانِ:

أحدُهما: أن يكون معنى قولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ أي: ولا تستوي الحسَناتُ؛ فإن الحسَناتِ بعضُها أفضلُ من بعضٍ لا شكَّ، فالوَاجِب من العِبادَاتِ أفضلُ من المسنونِ، وبعضُ الوَاجِباتِ أوكدُ من بعضٍ، وبعضُ المسنوناتِ أوكدُ من بعضٍ، ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ يعني: ولا تستوي السيِّئاتُ، ففي السيِّئاتِ ما هو فاحشةٌ، ومنها ما هو كبيرةٌ، ومنها ما هو صغيرةٌ، فتختلِف.

وينبغي لنا أن نفهمَ هذا المعْنَى وهذا الاحتمالَ: فلا تستوي الحسَناتُ يعني بعضها مع بعضٍ، ولا السيِّئاتُ يعني بعضها مع بعضٍ، بل في الحسَناتِ ما هو في قِمَّة الحسنى، ومنها ما هو دون ذلك، ومن السيِّئاتِ ما هو أسفل شيءٍ ومنها ما هو فوق ذلك، هذا احتمالٌ.

الثَّاني: ولا تستوي الحسنةُ مع السَّيئةِ؛ يعني أن الحسنة لا تَستوي هي والسَّيئةُ، فإن الحسنةَ أَكْمَلُ وأفضلُ من السَّيئةِ، والسَّيئةُ على اسمها سَيِّئة.

فعلى القولِ الأولِ أو الاحتمال الأول تكونُ (لا) في قولِهِ: ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ مُؤَسِّسَةً، بمعنى أنَّها غيرُ زائدةٍ.

وعلى الثَّاني تكون مؤكِّدةً؛ أي أنَّها زائدة للتوكيدِ، وأنها لو حُذفت وقيل في غير القُرآن: (ولا تستوي الحسنة والسَّيئة) لَاستقامَ الكلامُ.

والثَّاني أقربُ، أي أن معنى الآيةِ: لا تستوي الحسَناتُ والسيِّئاتُ.

ونظيرُ ذلك: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر:١٩-٢١]، فـ(لا) في هذه المواضعِ مُـؤَكِّدَة وليستْ مُؤَسِّسَةً.

أما كونُ الحسَناتِ تَختلِف بعضها مع بعضٍ، وكذلك السيِّئاتُ، فهذا أمرٌ ظاهِرٌ؛ لكن يُؤخَذ من نصوصٍ أُخرى.

وإذا كانتْ لا تستوي الحسنةُ والسَّيئةُ وجَرَى من غيرِك إساءةٌ إليك فبماذا تَدْفَعُ إساءَتَهُ؟

قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فإذا كان قدِ اعتدَى عليك في عِرْضِكَ، وبَلَغَكَ أنَّه يغتابُك في المجالِسِ، فادفعْ بالَّتي هي أحسنُ. والَّذِي هو أحسنُ ليسَ أنْ تَغْتَابَه في المجالسِ كما كان يغتابُكَ في المجالِسِ، بل بالَّتي هي أحسنُ. ومن ذلكَ أن تذهبَ إليه وتقول: يا أخي، بَلَغَنِي أنك تقولُ فِيَّ كذا وكذا، فإن كان حَقًّا فهذه غِيبة منك لي، وإن كان كذِبا فهذا بُهتانٌ.

لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما تكلَم على الغِيبةِ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الغِيبَةُ؟». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَم يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[١].

إذنْ عامِـلْ مَن أساء إليك بالَّتي هي أحسنُ، والَّتي هي أحسنُ -يا إخواني- لا تظنوا أنَّه الإحسانُ؛ فبالَّتي هي أحسن أي: بالخَصْلَةِ الَّتي هي أحسنُ، فقد يكونُ الأحسنُ أن تُسِيءَ إليه كما أساء إليك، والآيةُ لم يقل الله فيها: ادفَعْ بالحَسَنِ، بل قال:

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الغيبة رقم (٢٥٨٩).

﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾ والَّتي هي أحسن قد تكونُ المعاملةَ الحسنةَ، وقد تكون المعاملةَ بالعدلِ، فإذا كان هذا الَّذِي أساء إليك رجلًا مُجْرِمًا شِرِّيرًا لا يَدَعُ مُؤْمِنًا إلَّا وقع في عِرضِه، فهل الدفاعُ هنا أن تَتَرَقَّق له، وتُلِينَ له القولَ، أم أن تأخذَ بالعدلِ؟

نقول: بالعدل، ولهذا لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ العفوَ؛ قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] ولهذا إنْ جاءَنا واحدٌ يقولُ: فلان جَنَى عليَّ فأيُّهما أَولَى؛ أن أعفوَ عنه أو آخُذ بحقِّي؟ قلنا: إن كان في أَخذِك بحقِّك إصلاحٌ فخُذْ به، وإن كان في العفوِ إصلاح فخذْ به.

وهنا نُنبِّه على مسألةٍ: إن حوادثَ السياراتِ الوَاقعة الآن كثيرةٌ، فإذا وقع حادثٌ ومات بسببِه إِنْسانٌ، فهلِ الأفضلُ لأولياءِ هذا الميتِ أن يعفوا عمَّن جَرَى منه الحَادثُ أو ألَّا يَعفُوا؟

نقول: فيه تفصيلٌ؛ فإذا كان في العفوِ إصلاح فالعفوُ أفضلُ، وإلا فلا، فإذا علِمنا أن هذا الَّذِي حصلَ منه الحَادثُ رجلٌ مُتَهَوِّر لا يُبالي بأرواحِ الأبرياءِ ولا يَهْتَمُّ، وإذا قيل له: يا فلانُ، تَرَفَّقْ ولا تُسْرِعْ فربما يحصل منك حادثٌ، قال: وإذا حدثَ فالحمدُ للهِ الدِّيَةُ بالطبلون. ويَضرِب بيدِه على الطبلون[1] حتَّى يكاد أن يَنْكَسِرَ، أي أنه غير مبالٍ، فهذا لا يَنبغي أن نعفوَ عنه، ولا كرامةَ له حتَّى يرتدعَ هو وأمثالُه.

لكن لو جَرَى الحَادثُ من شخصٍ نَعلَم أَنَّه رجل مُتَّزِنٌ، ولكن قضاء الله لا مَفَرَّ منه، وحصل منه خَطَأٌ فحصل به الحَادِثُ، فالأفضل في حق هذا العفوُ؛ لقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

---

(١) الطبلون: هو دُرْج في مقدَّم السيارة تحفظ فيه الأوراق والأشياء غالبًا.

قوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ ختامُ الآيةِ بهذه الجملةِ يفيدُ أن المراد بالأحسنِ هو العفوُ والإصلاحُ، وهذا ما لم يَتَرَتَّبْ على العفوِ والإصلاحِ ضَرَرٌ، فالضررُ لا تأتي به الشَّريعةُ.

و(إذا) في قوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى﴾ عند النحْويينَ ليستْ شرطيَّةً، بل هي فُجائيَّة، كقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم:٣٦].

و(إذا) تأتي لعدَّةِ معانٍ، منها الشَّرطيَّة، ومنها الفُجائيَّة، ومعنى الفجائيَّة أن يأتيَ الشيءُ بسرعةٍ مُفاجئًا: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ يعني إذا دفعتَ بالَّتي هي أحسنُ فاجأك هذا الأمر، بدل أنْ كان عدوًّا فإنه يَنقلِب فيكون وليًّا حميًا.

وهذا الوعدُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ العَالم بكلِّ شيءٍ، المصرِّف للقلوبِ، فكم من قلبٍ مملوءٍ بُغضًا لشخصٍ وإذا به يكون مملوءًا حُبًّا له، وكم من قلبٍ مملوءٍ عَدَاوَةً لشخصٍ فإذا به مملوءٌ ولايةً له.

إذن إذا دفعتَ بالَّتي هي أحسنُ انقلبتِ العَداوَةُ الأُولَى إلى ولايةٍ، وليس ولاية فقطْ، بل قال: ﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ شديد الولاية، ومع الولايةِ قَرابة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي ما يُوَفَّق لها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ يعني: لا يُوَفَّقُ لهذه الخَصْلَةِ، وهي الدفاعُ بالَّتي هي أحسنُ، إلَّا رجلٌ صابرٌ يَحبِس نفسَه، وإلا فلو رَجعنا إلى مُقتضَى النفوسِ لكان أن الإِنسانَ يريد أن يأخذ بالثأرِ، فهذا مُقتضَى طبيعةِ الإِنْسانِ، لكن إذا وُفِّق الإِنسان وصبرَ وحبسَ نفسَه وفعل ما أَمَرَ اللهُ به في قولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فإنَّه ذو حظٍّ عظيم.

ولما ذكرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دِفاعَ العدوِّ منَ الإنسِ، ذكر دفاعَ العدوِّ منَ الجِنِّ، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. والشَّيْطانُ لا يمكِن أن تُقابِلَه بشيءٍ محسوسٍ؛ لأنَّ ما يُوسوِس به الشَّيْطانُ أمرٌ معنويٌّ، وإلا فالشَّيْطـانُ جسمٌ كسائرِ الأجسـامِ، لكن ما يوسوس به أمر معنويٌّ لا يمكِن دفاعُه إلَّا بالاستعاذةِ باللهِ منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ.

وما هو نزغُ الشَّيْطانِ؟

نزغُ الشَّيْطانِ وعدٌ بالشرِّ وإغراءٌ به، فإذا رأيتَ من نفسِكَ ميلًا إلى معصيةِ اللهِ فاعلمْ أن هذا من نزغِ الشَّيْطانِ، وإذا رأيتَ من نفسِكَ تهاونًا في واجباتِ اللهِ فاعلمْ أنَّه من نزغِ الشَّيْطانِ، ودواؤه أن تستعيذَ باللهِ من الشَّيْطانِ الرجيمِ.

وإذا استعذتَ باللهِ منَ الشَّيْطانِ الرجيمِ أعاذَكَ: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وهذا من بلاغة القُرآنِ؛ أنَّه لما ذكرَ مدافعةَ العدوِّ منَ الإنسِ ذكرَ مدافعةَ العدوِّ مِنَ الجنِّ.

أسألُ اللهَ تَعَالَى أن يُعِيذَنا وإيَّاكم من الشَّيْطانِ الرجيمِ، ومن شرِّ عبادِهِ، إنَّه على كل شيءٍ قديرٌ.

والحَمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِه تَتِمُّ الصَّالحَاتُ، وصَلَّى اللهُ وسَلَم على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه.

الدَّرس السَّابع:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبيِّين، وإِمَام المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإِحسَانٍ إِلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد استمعنا فيما قرأه إمامُنا إلى قول اللهِ تَعالَى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣١-٣٢]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ بقُلوبِهم وأَلْسِنَتِهم، ثم استقاموا عَلَى دِينِ اللهِ، لم يزيدوا فيه، ولم يَنْقُصوا عنه، هؤلاء تَتَنَزَّلُ عليهم الملائكة، أي يَنزلون عليهم أفواجًا، فَوْجًا بَعد فَوْجٍ قائلين لهم: أَلَّا تخافوا فيما يُستقبل مِن أَمْرِكم، ولا تحزنوا على ما مضى مِن حياتكم، لأنكم قُمتم بالإيمان والاستقامة.

﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وهذا عند الموت إذا قيل للرُّوح في تلك اللَّحظة العصيبة ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإن الرُّوح تتطلَّع، وتفرح بما وُعِدَت به، ولهذا تَنْسَلُّ مِنَ الجَسَد انسلالًا سهلًا كما تُسَلُّ الشَّعَرَةُ مِنَ العجين، إذا رأيتَ في العَجِين شَعرة ثم نزعتَها سيكون ذلك سهلًا، الرُّوح تخرج مِن جَسَد المسلِم -أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يجعلني وإياكم منهم- سهلةً مُنقادَةً لأنها بُشِّرَتْ بهذه البُشرى، ولهذا لَما قَالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**». قالت عائشة: يَا رَسُولَ اللهِ، كُلُّنا يَكْرَهُ الموتَ. قال: «**لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ**

وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»(١)، قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي سَكَرَاته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي مَدُّوا أَيْدِيَهُم إلى أَرْوَاحِهِم ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النُّفوس تَنْفِرُ إذا دُعِيت للخُروج فيقال ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ كَرْهًا ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠] فالكَافِر إذا بُشِّرَ بهذا فإن نَفْسَهُ تَنفِرُ وتُريد أَنْ تَبقى في البَدَنِ، لكنَّهم يَنْزِعُونَها مِنَ البَدَنِ كما يُنْزَعُ السَّفُّود -الحَديدة الَّتي يُشوى بها اللحم- مِنَ الصُّوف المَبْلُول.

قوله تَعالَى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١] القائلُ هُم الملائكة تقول: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فوليُّ المؤمنِ الملَك يدُلُّه على الخَيْر، ويَنْهاهُ عن الشَّرِّ، وأما الكافِرُ فقَرِينُهُ الشَّيْطانُ يأمُره بالمنكر، وينهاه عن المعروف.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ مِنَ الأكل والشُّرب والنكاح والاستقرار وغير ذلك، كل ما يشتهيه الإِنْسان في الجَنة فله ذلك، اللهُمَّ اجْعَلْنَا منهم يا ربَّ العَالمين، اللهُمَّ اجْعَلْنَا منهم يا ربَّ العَالمين، اللهُمَّ اجْعَلْنَا منهم يا ربَّ العَالمين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٦١٤٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتَّوبة، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٢٦٨٣).

قال بَعْضُ العُلَماءِ في تفسيرِ قولِه تَعالَى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرَّحمن:٥٤]، وَقَالَ تَعالَى ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣] قالوا: إنَّ الرَّجُل على سَريره ينظر إلى الثَّمرة يشتهيها فينزل الغُصن إليه حتى تَقَعَ الثَّمرة بين يديه. لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! لا يحتاج إلى تَعَبٍ، ولا إلى طَلَبٍ، مُجَرَّدُ ما يقعُ في نفسه أنه يُريد هذه الثَّمرة يَنزل الغُصن بِإِذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تطلُبون ﴿نُزُلًا﴾ أي ضِيافَةً، ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ وَهُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣] يعني أَخْبِرُونِي مَن أحسنُ قولًا مِنَ الَّذي ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أسألُكم بالله: هل أحدٌ أحسنُ مِن قول هذا القائل؟ لا والله؛ لأن اللهَ يَسْأل مُتَحَدِّيًا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وتأمَّل يا أخي قولَه تَعالَى: ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى دِين اللهِ وشريعتِه لتَعْرِفَ أَنَّهُ لَا بُدَّ في الدَّعوة مِنَ الإخلاص، أما مَن دعا إلى نفسه مِنْ أَجْلِ أَنْ يُعَظِّمَهُ النَّاس، ومِنْ أَجْلِ أَنْ يَصْرِفَ وُجوه النَّاس إليه -اللهُمَّ أَعِذْنا مِن ذلك يا رب العَالمين- أو دعا إلى مذهبٍ باطِلٍ أو بِدعة مُضِلَّة، فهذا لَيْسَ في قولِه حُسن، بل قولُه سيئ، وإثمُه ووبالُه عليه.

رَجُل دعا إلى مذهبٍ باطِلٍ، وبكُل أسلوب، وبكُل دِعاية، فليس هذا حَسَنًا؛ لأنه لم يَدْعُ إلى الله، الدَّاعي إلى الله هُوَ الَّذِي يُصِرُّ على الدَّعوة حتى وإن أُوذِيَ في ذلك، وحتى وإنْ سَخِرَ منه النَّاس، وحتى وإنْ رُدَّ عليه، فما دام على الصراط لا يهمُّه

أَحد، يَدْعُو إلى اللهِ.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ انتبه أيها الدَّاعي، تدعو إِلَى اللهِ وَلَا تعمل صالحًا لا يصلح هذا، فمثلًا: دعا إلى إقامة الصَّلَاة وَهُوَ لا يصلي، كيف هذا؟ دعوتُه هذه وبالٌ عليه، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣] تقول للنَّاس: أقيموا الصَّـلَاة. ولكن لا تُقِيمُها أنت، تقول: أَنْفِقُـوا في سبيل اللهِ. ولا تُنفِق، تقول: بِرُّوا آباءكم. ولا تَبَرُّ، اسمع قولَ اللهِ تَعالَى: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

والعمل الصَّالح ما اجتمع فيه شيئان:

الأَوَّلُ: الإِخْلَاصُ لله، اللهُمَّ اجْعَلْنَا لك مخلصين.

والثَّاني: المتابَعة لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم، فمَن عَمِل عملًا يُرائي به النَّاس لا يكون عملُه صالحًا؛ لأنه فقَد الإخلاصَ، ومَن عَمِل عملًا على غير الشَّريعة لكنَّه مُخلص، لا يكون عمله صالحًا، ولهذا يوجد مِن أهل البِدع مَن هُم مخلصون للهِ عَزَّوَجَلَّ إخلاصًا تامًّا، تدمعُ أعيُنهم وتخشَع قلوبهم، وتجدهم على أكملِ حالٍ في مَظْهَرِهم، لكن عملهم هذا حابِط باطـل؛ لأنه مخالفٌ لشريعة الرَّسولِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

واعلم أخي المسلم أَنَّ الموافقة للشريعة لا تَتِمُّ إلا إذا وافَقَ العملُ الشَّريعةَ **في أمورٍ سِتة:**

الأول: السَّبب: لو أَنَّ الإِنْسان تعبَّد للهِ عَزَّوَجَلَّ بعِبادَة هي حقٌّ، لكن قَرَنَها بسبب لم تُقْرَن به شَرْعًـا، فإنها تكون باطلة؛ لأنـه على غيرِ الشَّريعة، وَمِنْ ذَلِكَ

مَا يفعلُه بَعْضُ النَّاس عند مرور اليوم الثَّانيَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ ربيعٍ الأولِ مما يُسمونه المولِدَ النبوي، وأَشْهَدُ بالله أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أعظمُ مِنَّةً مَنَّ اللهُ به علينا ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤] ولا شك أنه نِعمة مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ علينا، نشكرُه عليها، لكن مِن تمام شُكره أن نمشيَ على هدي الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

هذه البدعةُ أصْحَابُها تَحملهم المحبَّة والمودَّة لرَسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم أَنْ يُقيموها، ونحن لا نُنكر محبَّة الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل هو والله، والله، والله، أحبُّ إلينا مِن أنفسُنا، ومِن آبائنا وأمهاتنا، ولكن مقتضى المحبَّة أن نمشيَ على شريعته، فنقول: هذه البدعةُ لا أصلَ لها مِن ناحية التَّاريخ، ولا أصلَ لها مِن ناحية الشرع، فيا مسلمون ستُقْبِلُون عليها عن قريب، ولكن الوَاجِب عليَّ أَنْ أُبيِّنَ أنها لَيْسَ لها أصلٌ، واللهُ يتولَّى عِباده، ولكن هل الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وُلِدَ في اليومِ الثَّانيَ عشرَ؟ في ذلك خلافٌ على سِتَّةِ أقوالٍ أو سَبعة، وقد رجَّح أحدُ الفَلكيين المصريين أنَّ وِلادته كَانَتْ في اليوم التَّاسِع مِن ربيعٍ الأوَّل، إذن، لا أصلَ لها مِنَ النَّاحية التَّاريخية، فكيف نَفرِضُ على التَّاريخ أنها في اليومِ الثَّانيَ عَشَرَ وَلَيْسَ فيه؟ هذا غلط عظيم.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: سُبْحَانَ اللهِ! أَتُغَلِّطُ النَّاسَ كلَّهم؟ قلنا: ولْيَكُنْ، هذا التَّاريخ أمامَنا، وإذا كان الَّذي ابتدَع هذه البدعةَ ابتدعها في هذه اللَّيْلَةِ، أو في هذا اليومِ فعَلى أيِّ أصلٍ؟ لأن هذه البدعةَ أول ما ظَهرت في الإِسْلام في القَرن الرَّابع، يعني قد مضى على المُسْلمين ثلاثة قرون وزيادة، ولم يعرفوا هذه البدعة، فأين المسلمون مِن هذا

الاحتفال في هذه المدة؟ أغافِلُون هُم، أَمْ جاهِلون، أَمْ مُفَرِّطُون، أَمْ هُم لا يُحبون الرَّسُول؟ طبعًا لا، لكنَّهم يعرفون أنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ هَدْيِه.

هذا مِنَ النَّاحية التَّاريخية، إذن هي باطلة مِنَ النَّاحية التَّاريخية؛ لأنها لَيْسَتْ في الثَّانيَ عشرَ.

ثانيًا: مِنَ النَّاحية الشَّرعية، نحن نتلقَّى الشرع مِنَ الكتاب والسُّنَّة وعَمَلِ الصَّحابَة، فائتوني بآية مِنْ كِتَاب الله تدلُّ على أنه ينبغي الاحتفال بمولد الرَّسولِ ﷺ ولكم مِنَ اليوم إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، ابحثوا لكم اليوم وغدًا وبَعد غَدٍ في القُرآن مِن أوله إلى آخِره فلننظر.

أما مِنَ السُّنة، فهل يمكن أن تُوردوا لي أَنَّ النَّبِيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم- أَمَرَ بالاحتفال لمولده، أو أقرَّ الاحتفال بمولده؟ لكم مِنَ اليوم إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، لن تجدوا هذا.

وأما ما احتجَّ به مَن احتجَّ بقول الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين سُئِلَ عَنْ صومِ يَوْمِ الاثنينِ قال: «**ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وُبُعِثْتُ فِيهِ**»، أَوْ «**أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ**»[1]. **فنقول:**

أولا: إِنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقُل: اعتَبِرُوا التَّاريخ مِنَ الشَّهر، بل اعتَبِرُوا اليومَ مِنَ الأسبوع، وهؤلاء لا يُبالون أصادَفَ يومُ الثَّانيَ عَشَرَ يومَ الاثنين أو غيرَه.

ثانيًا: الَّذي أَقَرَّهُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الصيامُ، ونقول: جزاكم الله خيرًا، إذا كان يومُ المولِد وأردتُم أن تحتجُّوا بهذا الحديثِ فصُوموا فقط، أما أن تأتوا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس، رقم (١١٦٢).

بالاحتفالات الَّتي لا أُحب أن أنشُر ما سمعتُ عنها فِي هَذَا المَقَام، لكن يعرفها أصْحَابها، فهذا غلط، لَيْسَ فيه استدلال.

والخلفاءُ الرَّاشدون أبو بكر، وعُمر، وعثمان، وعليٌّ لم يُقيموا لهذا المولدِ احتفالًا، أَهُم جاهلون بما يَجِبُ للرَسول؟ لا والله، أَهُمْ عالِمُون وتركوا ذلك عَمْدًا؟ لا والله أبدًا، أهُم أقلُّ مِنَّا حُبًّا للرَسول؟ لا والله، هُم أَشَدُّ مِنَّا حُبًّا للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلماذا لم يُقيموا هذا المولد؟ لماذا مَضت ثلاثةُ قُرون للمسلمين لم يُقيموا هذا المولد؟

إذن، هذه العِبَادَة -وإن كان الَّذين يُقيمونها على زعمهم أنها عِبَادَة وإظهارٌ لمحبة الرَّسولِ ﷺ وإحياءٌ لِذِكْرَاه- لَيْسَتْ مِنَ العَمل الصَّالح لأنها خالَفَتِ الشَّريعة في سببها.

الثَّاني: الجِنْسُ: بأن تَكُونَ موافِقة للشريعة في جِنسها، فإن خالَفَتِ الشَّريعة في الجِنس فلَيْسَتْ عملًا صالحًا، مثال ذلك: لو أهديتَ ظَبْيًا فإنه لا يُجْزِئ، لكن يُضَحَّى بالضَّأن، بالبَقَر، بالإبِل، بالمَعْزِ، فلو كان غَزالًا قِيمةُ الوَاحِد تُساوي خَمْسَ شِياه ولحمُها لَذِيذ وطيِّب، وشكلها جميل، فإنها لا تُجْزِئ، ولَيْسَتْ عَمَلًا صالحًا، لأنها خالَفَتِ الشَّريعةَ بالجِنس، فلا يُمكن أَنْ يُهْدَى أو يُضَحَّى إلا بالأنعام الثَّلاثة: الإِبِل والبَقر والغَنَم.

الثَّالث: القَدْرُ: لا بُدَّ أَنْ يوافِق العمَل الشَّريعة في القَدْر، فلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا راغبًا في الخير وقال: أُحب أن أصليَ الفَجر أربعَ ركعات، لأنه أكثرُ مِن ركعتين. لا يَصِحُّ؛ لأنه خالَفَ الشَّريعة في القَدْرِ، فلا تُقبل.

ولو توضَّأ الإِنْسانُ -وأعضاءُ الوضوءِ معروفةٌ- ولكنَّه مَسَحَ مع ذلك الرَّقَبة، فإنه لا يُقبل منه هذا المَسْحُ لأنه مخالِف للشريعة.

الرَّابعُ: الكَيْفِيَّة: لو أَنَّ الإِنْسانَ تَوَضَّأَ فبَدَأَ بِغَسْل رِجْلَيْهِ، ثم مَسَح رأسَهُ، ثم غَسَل يديه، ثم غَسَل وجهه، فهذا عملٌ غيرُ صالح؛ لأنه خالفَ الشَّريعة في الكيفية.

ولو أنَّ إِنْسانًا صلَّى وَبَدَأَ بالسُّجود ثم قام وركعَ، فهذا غير صالحٍ؛ لأنه خالَف الشَّريعة في الكيفية.

الخَامِس: الزَّمَان: فالأُضْحِيَّة تكون في العِاشر والحَادِيَ عشرَ والثَّانيَ عشرَ والثَّالثَ عشرَ مِن ذي الحِجة، فلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا قال: سأُضَحِّي في عِيد رمضانَ اليومَ الأولَ مِن شوَّال والثَّاني والثَّالث والرَّابع. وضَحَّى بأُضحيَّة ممتازة، لا تُقبل، وَلَيْسَ عملًا صالحًا.

في عَهْدِ النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحدُ الصَّحابَة -وَهُوَ أبو بُرْدَةَ بنُ نِيَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عِيد الأضحى ضَحَّى بأُضْحِيَّتِه قَبل الصَّلَاة، يعني يوم النَّحر، فخطب النَّبي صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم وقال: «**مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَنَسَكَ نُسْكَنَا، فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَتِلْكَ شَاةُ لَحْمٍ**».

عندما قال هذا الكلام قام أبو بُرْدَةَ بنُ نِيَارٍ وقال: يَا رَسُولَ الله، إني ذبحتُ أُضْحِيَّتِي قَبل أَنْ أُصَلِّيَ لآكُلَ منها أولَ مَن يأكُل، فقال له: «**تِلْكَ شَاةُ لَحْمٍ**»[1]، يعني ما قُبلت مع أنها أُضْحِيَّةٌ، لأنها لم توافق الشرع في الزَّمان، فذَبَحَ بَدَلها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب كلام الإمام والنَّاس في خطبة العيد، وإذا سئل الإمام عن شيء وهو يخطب، رقم (٩٨٣).

السَّادسُ: المَكَان: قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧] فلو أَنَّ رَجُلًا مِنَ النَّاسِ قال: لا داعيَ أن أعتكفَ في المسجد؛ لأني إذا بَقِيت في المسجد أتاني رَفِيقي وصديقي، وجعل يتحدَّث إليَّ ويُلهيني عن ذِكر الله، أنا سأعتكف في حُجرة في بيتي حتى أنفردَ، وأتخلى للعِبادَة. فاعتكف في بيته، فهذا الاعتكافُ لا يصلُح لمخالَفَةِ الشَّريعة في المكان.

إذن، لا يكون العمل صالحًا حتى يُوافِق الشَّريعة فِي هَذِهِ الأمورِ الستة الَّتي ذكرناها.

قوله تَعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت:٣٣-٣٤] فالإحسانُ إلى النَّاس والإساءة إليهم لا يستويان، هذا هو ظاهِرُ الآية الكَريمة أَنَّ السَّيئة لا تساوي الحسنة، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ (لَا) تكون زائدة للتَّوْكِيد كما هي في قوله تَعالَى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧].

وقيل: المعْنَى لا تستوي الحسنة في حَدِّ ذاتها، فبعضُها أرفعُ مِن بعضٍ، ولا السَّيئة في حَدِّ ذاتِها، فبعضُها أدنى مِن بعضٍ.

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:٣٤] يعني ادفعِ السَّيئةَ بالحَسنة لأن الحسنة أحسنُ، فإذا أساء إليك شخصٌ فلا تُقابله بالإساءة، ولكن قابِله بالإحسان، إلا إذَا كَانَ هَذَا الرَّجل لَيْسَ أهلًا للإحسان فخُذ بِحَقِّكَ، أَمَّا إِذَا كَانَ أهلًا للإحسان فأحسِن.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] سُبْحَانَ اللهِ! يعني

لو أساء إليك رَجُل، وبدأتَ تُحسن إليه ستنقلب إساءتُه إلى إحسان ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: قريبٌ صَدِيق، وهذا كلامُ الله الَّذي بِيَدِهِ الأمورُ والقُلوب.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥] أي: ما يُوَفَّقُ لهذا، وَهُوَ المدافعة بالَّتي هي أحسنُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ وما يُوَفَّقُ لها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ﴾ أي نَصِيبٌ ﴿عَظِيمٍ﴾.

إذا أساء إليك جارُك فلا تُقابل إساءته بإساءة، بل قابِل إساءته بإحسانٍ، وسينقلب هَذَا الجَار الَّذي أساء إليك قريبًا صديقًا بِإِذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فصَبِّرْ نفسَك، وتحمَّل إساءة مَن يُسيء إليكَ، وستَنقلب هذه الإساءة إلى إحسان، كَما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

قَوْلُه تَعالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٦] إمَّا: (إنْ) شَرطية، و(مَا) مُؤَكِّدة، يعني أيُّ نَزْغٍ ينزغُك مِنَ الشَّيْطان فالجأ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٦] وكلمةُ (نَزْغ) نَكِرة في سياق الشَّرْط فتعُمُّ، أَيُّ شيء يُلقيه الشَّيْطان في قلبك فاستَعِذ بالله، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

كثُرت الوَساوِس والأمراض النَّفسية في هذا الزَّمَن مع كثرة النِّعم حتى كان الشَّيْطان يوسوس في قَلب بني آدم في أمورٍ طَوامَّ عظيمةٍ، والدواءُ عند اللهِ؛ قَالَ تَعالَى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ولهذا لما شكى الصَّحابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم ما يجدونه في قلوبهم، حتى إِنَّ الشَّيْطان يقول:

مَن خَلَق كذا؟ مَن خَلَق كذا؟ حتى يقول: مَن خَلَق اللهَ؟ أمرَهم بأمرين هما الدَّوَاء فقال: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»[1]. يعني يُعْرِض عن هذا، ولا يلتفت إليه، يصلِّي ويصوم ويتصدق ويتَوَضَّأ ويفعل الخير، ولا يلتفت لهذه الوَساوِس، وطَهِّرْ قلبَك يا أخي مِن هذه الوَساوِس.

أحيانًا يأتي الشَّيْطان للإنْسان ويقول له في صلاته: إنك لم تُكَبِّر تكبيرة الإحرام، وإذا لم يكبر الإِنْسان تكبيرة الإحرام لم تَنْعَقِد صلاتُه، فاستعذ بالله واتركه وامضِ في صلاتك.

يأتيك الشَّيْطان حتى فيما بينك وبين زوجتك، يقول لك: تراك طلَّقت زوجتَك. حتى إن بعضهم إذا كلَم صديقه قال: تُراك قُلتَ: إنَّ زوجتي طالِق. إذا قرأ وقلَب الصفحة قال الشَّيْطان: تُرى أنت طلقتَ زوجتَك وقلتَ: إنْ قَلَبْتُ الصفحةَ فزوجتي طالِقٌ.

هكذا يُبتلى الإنْسان، فالوَاجِب على هذا أَنْ يستعيذَ بالله فيقول: أعوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. وَأَنْ ينتهيَ عن هذه التقديرات كلها، وحينئذ لا تَضُرُّ.

ألم تعلموا أَنَّ بعضَ الَّذين ابتُلوا بالوَساوِس -نسأل اللهَ لَنَا وَلَهُمُ العَافية- يبقى لِيُكَبِّرَ تكبيرةَ الإحرام نِصف ساعة، نِصف ساعة ليقول: الله أكبر ويَعْجِزُ، ولو قالها مِن غير الصَّلَاة لسهلت عليه كغيره، وبهذا نعرف أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا ابتُلي بهذا فليسْتَعِذْ برب العَالمين عَزَّوَجَلَّ ويُعرض عن هذا، ويمضي في صلاته، ولا يهمَّه.

---

(١) أخرجه البخاري:كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، وأخرجه مسلم:كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

ويأتيه الشَّيْطان ويقول له: أحدَثْتَ، نزل منك نُقطة بَوْلٍ، خَرج منك رِيح، فليقل: أعوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. ولا يَلتفت لهذا إطلاقًا، وليُصَلِّ حتى لَوْ غَلَبَ على ظَنِّه أنه أَحْدَث فلا يَهْتَمَّ بهذا، يعني لو كان عنده تسعون في المئة أنه أحدَثَ وعَشَرة في المئة أنه باقٍ على طَهارته يُغَلِّبُ البَقاء على الطهارة، ولا يلتفت لهذا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم شُكِيَ إليه الرَّجُل يُخَيَّل إليه في الصَّلَاة أنه أحدَثَ قال: «**لَا يَنْفَتِلْ -أَوْ لَا يَنْصَرِفْ- حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»[1].

ومُراد النَّبي ﷺ حتى يَتيقَّنَ يَقِينًا لا مِرْيَةَ فيه أنه أحدَثَ، فالحمد للهِ عَلَى هذه النعمة أَنَّ اللهَ تَعالَى رَفع عنا مِثل هذا الشك.

فمتى أصابك مِنَ الشَّيْطان نَزْغُ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

اللهُمَّ أَعِذْنا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، اللهُمَّ لا تجعل له علينا سبيلًا، اللهُمَّ أَبْعِدْه عَنَّا يا ربَّ العَالمين، اللهُمَّ اكتُب ذلك لنا ولوالِدِينا ولِذُرِّيَاتِنا، ولمن له حَقٌّ علينا يا رَبَّ العَالمين.



---

(١) أخرجه البخاري:كتاب الوضوء، باب من لَا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم (١٣٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدَّليل على أن من تيقن الطهارة، ثم شك في الحدث فله أن يصلِّي بطهارته تلك، رقم (٣٦١).



سورة الشورى

الدَّرس الأوَّل:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبيِّين، وإمَام المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تَعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

قولُه: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾، الشَّرعُ، والشِّرعةُ: هوَ الطَّريقُ والمنهاجُ الَّذي يسيرُ عليهِ الإنْسانُ، ومنهُ سميَ: لفظُ (الشَّارعِ) لأنهُ يسلكُهُ النَّاسُ ويسيرونَ عليهِ، فقولُه: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾، أي جعلَ لكُم طريقًا تَسيرونَ فيهِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قولُه: ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أي منَ العملِ الَّذينَ تُدانونَ عليهِ، وتجازونَ عليهِ.

والدِّينُ يُطلقُ على معنيينِ:

المعْنَى الأولُ: العملُ والشِّرعةُ الَّتي يسيرُ عليهَا النَّاسُ.

المعنَى الثَّاني: الجزاءُ الَّذي يُجازَى بهِ العَاملُ.

فمنَ المعنَى الأولِ: قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:١-٢]، إلى أن قالَ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، أي عملُكُم الَّذي تَدينونَ بهِ، ﴿وَلِىَ دِينِ﴾ أي عمَلي الَّذي أَدينُ بهِ، ومِن ذلكَ قولُه

تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقولُه تَعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

أما الدِّينُ بمعنَى الجزاءِ، فمنهُ قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، وقولُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩]، فالمرادُ بالدِّينِ هنا: الجزاءُ؛ فإن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هوَ مالكُ ذلكَ اليومِ، ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يومُ الجزاءِ، وهوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مالكٌ ليومِ الدينِ، وليومِ الدنيَا، ولكنَّ ظهورَ مُلكِهِ الظهورَ التَّامَّ إنما يكونُ يومَ القِيامَةِ، حينَ لا يوجدُ مَلكٌ يمتازُ على المملوكِ، ولا حرٌّ يمتازُ على العبدِ، ولا غَنيٌّ يمتازُ على الفقيرِ، ولا قويٌّ يمتازُ على الضعيفِ، ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

ومنَ الأمثالِ المشهورةِ: «كما تدينُ تُدان»، (كما تدين)، يرادُ العملُ، وتُدانُ يرادُ الجزاءُ، أي: كما تَعملُ تُجازى.

قولُه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هوَ أولُ رَسولٍ أرسلَهُ اللهُ إلى أهلِ الأرْضِ، ودليلُ ذلكَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النِّساء:١٦٣]،، وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦].

ومنَ السُّنَّةِ: ما جاءَ في حديثِ الشَّفاعةِ، أن النَّاسَ يَلحقُهُم منَ الغَمِّ والكَربِ ما لا يُطيقونَ فيَذهبونَ إلى آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسألونَه الشَّفاعةَ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يُريحَهم منْ هذا الموقفِ العظيمِ فيعتذرُ بأنهُ أكلَ منَ الشَّجرةِ، وقد نُهيَ عنِ الأكلِ منها، ثم

يَأتونَ إلى نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقولونَ لهُ: أنتَ أولُ رَسولٍ أرسلَهُ اللهُ إلى أهلِ الأرْضِ، وهذا هوَ الشَّاهدُ[1].

فنوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أولُ الرُّسلِ، وبهذا نعرفُ خطأَ مَن نقلَ مِنَ المؤرخينَ أن إدريسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قبلَ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن إدريسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ منَ الأنْبياءِ ولا يمكنُ أن يكونَ قبلَ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ هوَ أولُ الرُّسلِ الَّذينَ أُرسلُوا إلى أقوامِهِم.

والأنْبياءُ المذكورونَ في القُرآنِ كلُّهم رسلٌ لقولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، فكلُّ مَن قصَّ اللهُ نبأَهُ علينا في القُرآنِ فإنهُ رَسولٌ حتى وإن وصفَهُ اللهُ بأنهُ نبيٌّ فإنهُ رَسولٌ نبيٌّ.

فمِن عقيدتِنَا أن أولَ رَسولٍ أرسلَهُ اللهُ إلى أهلِ الأرْضِ هوَ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقولُه تَعالى: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، فيهِ ذكرُ أولِ الرسالاتِ، وآخرِ الرسالاتِ.

قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني وشرعَ لكُمُ الدينَ الَّذي أوحينَا إليكَ.

فإن قالَ قائلٌ: هلْ هذا يقتضِي التسويةَ بينَ دِينِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ودِينِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح:١]، رقم (٣١٦٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

قلنَا: أما مِن حيثُ الأصولُ العَامةُ فإن الشرائعَ مُتفقةٌ فيها، وأما مِن حيثُ التفصيلُ فقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، وذلكَ لأن التفاصيلَ تختلفُ مصالحُها باختلافِ الأممِ والأزمانِ والأحوالِ، فكانَ لكلِّ أمةٍ منَ الشِّرعةِ والمِنهاجِ ما يُناسبُها.

أما الأصولُ العَامةُ كتوحيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والإيمانِ بالبعثِ، والإيمانِ بالقَدَرِ، وأصولِ الدِّياناتِ العَمليةِ: كالصَّلاةِ، والصيامِ، والحجِّ، والزكاةِ، فإن الشرائعَ مُتفقةٌ فيها من حيثُ الأصولُ، لا من حيثُ التفاصيلُ، لأن التفاصيلَ تختلفُ فيها المِللُ.

قولُه تَعالى: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

هذهِ الآيةُ جمعتْ بينَ خمسةٍ منَ الرُّسلِ، وسُمُّوا جميعًا في آيةٍ أُخرى منَ القُرآنِ، وهيَ قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧]، ولم يذكُروا جميعًا سِوى في هاتينِ الآيتينِ، وهؤلاءِ الخمسةُ هُم أولُو العزمِ منَ الرُّسلِ عندَ جمهورِ أهلِ العلمِ، قالَ تَعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقد لَبِثَ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومِه ألفَ سَنةٍ إلا خمسينَ عَامًا، وآمنَ مِن قومِه معَ هذهِ المدةِ الطويلةِ، اثنا عشرَ فقطْ، قالَ تَعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

أما إبراهيمُ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، فقدْ وقعتْ لهُ أعظمُ محنةٍ عظيمةٍ بالنِّسبةِ للعاطفةِ البشريَّةِ، حيثُ إن اللهَ أمرَهُ أن يذبحَ ابنَه، قالَ تَعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾، ورُؤيا الأنبياءِ وحيٌ؛ ولهذا قالَ لهُ ابنُه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافات:١٠٢]،، فعزمَ على أن يذبحَ ابنَه واستسلَما هوَ وابنُه، قالَ تَعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الصَّافات:١٠٣-١٠٤] ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ فلم يُضجِعْـهُ على جنبِه، ولا على ظهرِهِ، وإنما على وجهِـهِ، حتى لا ينزعجَ عندَ ذبحِه وعندَ إمرارِ السكينِ على رقبتِه؛ لأن الأمرَ عظيمٌ وخطيرٌ.

ولما حصلَ الامتثالُ للأمرِ الإلهيِّ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾. وجاءتِ الوَاوُ في جوابِ الشَّرطِ في قولِه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾. والمعروفُ أن جوابَ الشَّرطِ إنما يرتبطُ بالفاءِ دونَ الوَاوِ، لأنها هيَ الَّتي تدلُّ على التعقيبِ، فجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، والوَاوُ عاطفةٌ على ذلكِ الشَّرطِ المحذوفِ، والتقديرُ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ تحققَ فيهِ صدقُ الإرادةِ والعزيمةِ وحينئذٍ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصَّافات:١٠٤-١٠٥]، فالوَاوُ عاطفةٌ على شيءٍ مقدَّرٍ.

ونظيرُها مِن بعضِ الوجوهِ قولُه تَعالى في أهلِ الجنةِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣]، فجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، والوَاوُ عاطفةٌ على ذلكِ الجوابِ المحذوفِ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ فشفعَ النَّبيُّ ﷺ في افتتاحِها، وفتحتْ أبوابُها إلى آخرِ الآياتِ؛ لأن الجنةَ إذا وردَ أهلها إليهَا وجدوهَا مغلقةً، فيُحبسونَ على قَنطرةٍ بينَ الجنةِ والنَّارِ، ويُقتصُّ لبعضِهم مِن بعضٍ

الاقتصاصَ النهائيَّ، ثم يشفعُ النَّبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ إلى اللهِ، في أن يفتحَ بابَ الجنةِ لأهلِ الجنةِ، فتفتحُ الأبوابُ[1].

وقيلَ: إن الوَاوَ زائدةٌ، وهيَ واوُ الثمانيةِ؛ لأن أبوابَ الجنةِ ثمانيةٌ، لكنِ الرَّاجحُ ما قلناهُ أولًا.

موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن أشدِّ الأنْبياءِ وأقواهُم؛ ولهذا لما رجعَ إلى قومِه ووجدَ أنهم قَد عبدُوا العجلَ، وكانتْ معهُ التوراةُ مكتوبةً، أَلقَى الألواحَ مِن شدةِ الغضبِ، وأخذَ برأسِ أخيهِ يَجُرُّهُ إليهِ ويوبخُه، كيفَ عبدَ هؤلاءِ القومُ العجلَ وأنتَ فيهمْ؟!، فيقولُ هارونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤]، وهذهِ أعظمُ محنةٍ جرتْ لموسى في حالِ نبوتِهِ.

أما المحنةُ الَّتي حدثتْ لموسَى فقدْ بينهَا اللهُ في قولِه تَعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥]، فحينما اختارَ موسَى سبعينَ رجلًا لميقاتِ ربِّه، فأخذتْهُمُ الصَّاعقةُ والرجفةُ وهَلكُوا، فضاقَ عليهِ الأمرُ؛ لأنه إذا رجعَ إلى بني إسرائيلَ وقدِ اختارَ منهمْ سبعينَ رجلًا، ثم قالَ إنهمْ هَلكُوا صارتِ المصيبةُ عظيمةً، ولهذا قالَ: ربِّ لو شئتَ أهلكتَهُم مِن قبلُ وإيايَ، فدعَا اللهَ عَزَّوَجَلَّ حتى بعثَهُمُ اللهُ بعدَ موتِهم، ورجعَ بهمْ إلى قومِهِم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القِيامَة، رقم (٦٥٣٥).

وعيسَى بنُ مريمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أيضًا لهُ ضائقةٌ، فاليهودُ أرادُوا أن يقتلُوهُ ويصلبُوهُ، بلِ ادَّعَوا أنهم قتلُوه وصلبُوه لكن شُبِّهَ لهمْ، ألقَى اللهُ شَبهَهُ على واحدٍ منهمْ وقالُوا هذا عيسَى فقتلُوه وصلبُوه، وادعَوا أنهم قتلُوا المسيحَ عيسَى بنَ مريمَ وصلبُوه، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النِّساء:١٥٧-١٥٨].

فعيسَى بنُ مريمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يُقتلْ ولم يُصلبْ، ومِن ضلالِ النَّصارَى وسَفَهِ عقولِهم أنهم كانُوا يقدسونَ الصليبَ، لأنهم يَدَّعونَ أن عيسَى صُلبَ عليهِ، وكانَ مقتضَى العقلِ أن يَكسِروا الصليبَ؛ لأنهُ صُلبَ عليهِ نبيُّهم، شيءٌ صُلبَ عليهِ نبيُّكم كيفَ تقدسونَهُ؟ والصلبُ إهانةٌ لا شكَّ، ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة:٣٣].

ولكنِ النَّصارَى ينطبقُ عليهم تمامًا وصفُ اللهِ إياهُم بأنهم ضالونَ، فعندَهُم ضلالٌ وسَفَهٌ، فهذا مِن جملةِ سَفهِهم العظيمِ، أن يُقدِّسُوا الصليبَ الَّذي صُلب عليه نبيُّهم كما زعمُوا، ونحنُ نُشهدُ اللهَ وملائكتَه وجميعَ خلقِه أن عيسَى لم يُقتلْ ولم يُصلب بلْ أكرمَهُ اللهُ ورفعَهُ إليهِ، وسينزلُ في آخرِ الزَّمانِ يحكمُ بالقسطِ، ويكسِرُ الصليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، ولا يقبلُ إلا الإسْلامَ[١].

قولُه: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، هذا هوَ المشروعُ، إقامةُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢١٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا -محمد ﷺ-، رقم (١٥٥).

الدِّينِ وإقامةُ الشَّريعةِ، فيجبُ على الأمةِ الإِسْلاميةِ أن تقيمَ شريعةَ النَّبيِّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ، ولا تَتَفَرَّق في الدِّينِ، فيجبُ على الأمةِ أن تتحدَ، وأن تتفقَ على دِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يحلُّ للأمةِ أن تَفترقَ لأن التَّفرقَ طريقُ غيرِ المُسْلمينَ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥].

فإن قالَ قائلٌ: هلْ وقعَ التَّفرقُ بينَ الأُمةِ؟ وهلِ الاختلافُ رحمةٌ أو نِقمةٌ؟

فالجوابُ: نعمْ، وقعَ التَّفرقُ بينَ الأُمةِ، فاختلفتِ اليهودُ على إحدَى وسبعينَ فرقةً، وافترقتِ النَّصارَى على ثنتينِ وسبعينَ فرقةً، وستفترقُ هذهِ الأمةُ كما قالَ النَّبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً كلها في النَّارِ إلا واحدةً وهيَ مَن كانَ على مثلِ ما عليهِ النَّبيُّ ﷺ وأصْحابُه[1].

فالتَّفرقُ وقعَ، ولهذا لما تفرقتِ الأمةُ لحِقَها الذُّلُّ وزالَ عنها العِزُّ، لحقَها الضعفُ وزالتْ عنها القوةُ، تَكالبتْ عليها الأعداءُ، تَداعتْ عليها الأممُ كما تداعتِ الأكلةُ على صَحفتِها، وأصبحتِ الأمةُ الإِسْلاميةُ أمةً مُمزقةً يُضللُ بعضُها بعضًا، ويطعنُ بعضُها في بعضٍ، ولا شكَّ أن هذا خلافُ ما أمرَ اللهُ بهِ منَ الاتفاقِ، ووقوعٌ فيما نَهى عنهُ منَ التَّفرقِ، والوَاجِبُ علينَا أن نتفقَ جميعًا في دينِ اللهِ وألا نَتفرَّقَ.

فإن قالَ قائلٌ: ما هوَ دواءُ هذا التفرقِ؟

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم (٤٥٩٦)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب افتراق الأمة، رقم (٢٦٤٠) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه: كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، رقم (٣٩٩١).

قلنَا: دواءُ هذا التفرقِ سلوكُ سبيلِ الحكمةِ الَّذي أمرَ اللهُ بهِ، قالَ تَعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النِّساء:٥٩]، فالوَاجِبُ أن نجتمعَ وأن ننظرَ ما اختلفنَا فيهِ، ثم نرجعُ في ذلكَ إلى الكتابِ والسنةِ، ولكن قدْ لا تتفقُ الأفهامُ في فهمِ النصِّ، قد يفهمُ منهُ فلانٌ معنًى، ويفهمُ منهُ فلانٌ الآخرُ معنًى آخَرَ، وهذا لا يُعدُّ تفرقًا ما دامتِ النيةُ حسنةً، وما دامَ الإِنْسانُ قدِ اتقى اللهَ ما استطاعَ، ولم يتبينْ لهُ أكثرُ مما فهِمَ؛ لأن اللهَ لا يكلفُ نفسًا إلا وُسعَها.

والأمثلةُ على ذلكَ كثيرةٌ:

المثالُ الأولُ: الاختلافُ في أقسامِ المياهِ:

اختلفَ النَّاسُ في أقسامِ المياهِ، هلْ هيَ ثلاثةُ أقسامٍ أو قسمانِ؟

منَ العُلماءِ مَن قالَ إن أقسامَ المياهِ ثلاثةُ أقسامٍ:

القسمُ الأولُ: طَهورٌ.

القسمُ الثَّاني: طاهرٌ.

القسمُ الثَّالثُ: نجسٌ.

ومنهمْ مَن قالَ بل هيَ قسمانِ:

القسمُ الأولُ: طَهورٌ.

القسمُ الثَّاني: نجسٌ.

وليسَ هناكَ قسمٌ يُسمى طاهرًا.

التطبيقُ العمليُّ لهذا المثالِ: رجلٌ قامَ من نومِ اللَّيلِ، وغمسَ يدَه في إناءٍ بِهِ ماءٌ، فما حكمُ هذا الماءِ؟

مَن قالَ إن أقسامَ المياهِ ثلاثةٌ: قالَ هذا الماءُ طَاهرٌ غيرُ مُطهِّرٍ.

ومَن قالَ إن أقسامَ المياهِ قسمانِ: قالَ هذا الماءُ طَهورٌ مُطهر.

وهذَا الاختلافُ لا يُعدُّ في الحقيقةِ اختلافَ قلوبٍ، بلِ اختلاف أفهامٍ، وكلُّ واحدٍ منَ المُختلفينَ، قامَ بما يجبُ عليهِ منَ النَّظرِ، ولكنَّهُ لم يهتدِ إلى أكثرَ مما وصلَ إليهِ فهمُه، ولا يكلفُ اللهُ نفسًا إلا وُسعَها.

والصَّحيحُ في هذهِ المسْأَلَةِ أن الماءَ قسمانِ، قسمٌ غَيَّرَتِ النجاسةُ طعمَه أو لونَه أو ريحَه، فهوَ نجسٌ، والآخرُ طَهورٌ وهوَ ما لم يتَغيرْ بالنجاسةِ، وعلى هذا فالماءُ الَّذي غُمستْ فيهِ يدُ مَن قامَ منَ النومِ ليلًا يُعتبرُ طَهورًا، ويجوزُ التطهرُ بِهِ، ويرفعُ الحدثَ.

المثالُ الثَّاني: عدةُ المرأةِ إذا تُوفيَ عنها زوجُها وهيَ حاملٌ:

ومنْ ذلكَ أن النَّاسَ اختلفُوا في عدةِ المرأةِ إذا تُوفيَ عنها زوجُها وهيَ حاملٌ.

قالَ بعضُ العُلماءِ: تَعْتَدُّ بأطولِ الأَجلينِ: وضعِ الحملِ، أو أربعةِ أشهرٍ وعَشر، فإن وضعتْ قبلَ تمامِ أربعةِ أشهرٍ وعشر، وجبَ عليها أن تُكملَ أربعةَ أشهرٍ وعشرًا، وإن تمتْ أربعةَ أشهرٍ وعشرًا قبلَ أن تضعَ، وجبَ عليها أن تنتظرَ حتى تضعَ.

فإن تُوفيَ عنها زوجُها في أولِ يومٍ مِن شهرِ محُرمٍ، ووضعتْ في أولِ يومٍ في شهرِ ربيعِ الأولِ فلا تَنقضي عدتُها، ويبقَي عليها شهرانِ وعشَرةُ أيامٍ.

وإن تُوفيَ عنهَا زوجُها في أولِ يومٍ من شهرِ محرمٍ، ومضَى أربعةُ أشهرٍ وهيَ:

محرمٌ، صفرٌ، ربيعٌ الأولُ، ربيعٌ الثَّاني، جمادَى الأولُ، وهيَ لم تضعْ فتنتظرُ حتى تضعَ، وهذا رأيٌ من آراءِ العُلَماءِ وممن رأى هذا الرأيَ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعبدُ اللهِ بنُ عباسٍ وناهِيكَ بهما علمًا وفقهًا(١).

ومنَ العُلَماءِ مَن قالَ تَعْتَدُّ بوضعِ الحملِ، وإن صارتْ مدتُه أقلَّ منْ أربعةِ أشهرٍ وعشرٍ، فإذا وضعتْ بعدَ موتِ زوجِها ولو بليلةٍ واحدةٍ انتهتْ عدتُها، وهذا القولُ قولُ جمهورِ أهلِ العلمِ(٢).

والذِي يحكمُ بينَ هؤلاءِ وهؤلاءِ هوَ كتابُ اللهِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطَّلاق:٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، فكلُّ واحدةٍ منَ الآيتينِ فيها عمومٌ:

الآيةُ الأولى: تشملُ منِ اعتدتْ لوفاةٍ، ومنِ اعتدتْ لطلاقٍ.

الآيةُ الثَّانيةُ: تشملُ مَن كانتْ حاملًا أو غيرَ حاملٍ، فلا سبيلَ إلى الأخذِ بالآيتينِ، إلا إذا قلنَا بأنها تعتدُّ بأطولِ الأجلينِ، وإلى هذا ذهبَ عليٌّ، وابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أما السُّنَّةُ: فنجدُ أن السُّنَّةَ دلتْ على أن المُعتبَرَ الحَملُ، ولو قَلَّتْ مدتُه.

ودليلُه ما ثبتَ في الصَّحيحينِ، عن سُبيعةَ الأَسلميةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها نَفِستْ بعدَ موتِ زوجِها بليالٍ لم تبلغْ شهرًا، ولم تبلغْ أربعةَ أشهرٍ وعشرًا، فأذِنَ لها

---

(١) انظر الشرح الكبير على متن المقنع لابن قدامة (٩/ ٧٩).

(٢) انظر زاد المعاد (٥/ ٥٢٨).

النَّبيُّ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ أن تتزوجَ، وبهذا عُرفَ أن المعتبرَ هوَ وضعُ الحملِ، وأن قولَ الجمهورِ هوَ الصَّحيحُ لأن السنةَ دلتْ عليهِ(١).

هذَا الخلافُ الَّذي يَحصلُ في مثلِ ذلكَ لا يضرُّ؛ لأن كلَّ قصدِهم الحقُّ، ولكنِ اختلفتِ الأفهامُ، أوِ اختلفتِ العلومُ، فمنَ النَّاسِ مَن يعطيهِ اللهُ تعالى فهمًا قويًّا، ويفهمُ منَ النصِّ ما لا يفهمُه غيرُه، ومنَ النَّاسِ مَن يكونُ فهمُه قاصرًا، ومنَ النَّاسِ من يُعطيهِ اللهُ علمًا، ومنَ النَّاسِ مَن يَقلُّ علمُه، فهذا الاختلافُ لا يدخلُ في الاختلافِ المنهيِّ عنه؛ لأنهُ اختلافٌ في المفهومِ ولا يضرُّ.

ولكنِ المشكلُ أن نجدَ أن بعضَ الخلافِ يصلُ إلى الاختلافِ في القُلوبِ، وهذا هوَ الشرُّ والبلاءُ أن تختلفَ القُلوبُ، فتحملُ الأحقادَ على الآخرينَ، وأن تتبعَ عوراتِهم، وأن تُشيعَ الخطأَ، وتكتمَ الصَّوابَ، ولا شكَّ أن هذَا هوَ البلاءُ الَّذي نهى اللهُ عنهُ في قولِه: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾.

فيجبُ علينا إذا رأَى أحدُنا مِن أخيهِ خطأً أن يتصلَ بهِ على وجهِ المحبةِ، محبةِ الخيرِ لهُ، ومحبةِ تصحيحِ الخطأِ سرًّا لا علانيةً، ويتناقشُ معهُ، وإذا علمَ اللهُ منهما حُسنَ النيةِ، فكما قالَ اللهُ تعالى في الزوجينِ: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النِّساء:٣٥]، هذَا وهوَ خلافٌ بينَ رجلٍ وزوجتِه، فكيفَ بالخلافِ بينَ قادةِ الأمةِ منَ العُلماءِ وطلبةِ العلمِ.

فإذا اجتمعَ النَّاسُ ونظرُوا سببَ هذا الخلافِ، وأرادُوا الإصلاحَ، فإن اللهَ تعالى يوفقُ بينهُم، ويدلُّهم على الحقِّ، أما أن يأخذَ النَّاسُ من هذا الخلافِ سببًا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطَّلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)، ومسلم: كتاب الطَّلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها...، رقم (١٥٠٠).

لاختلافِ القُلوبِ والتفرقِ وتتبعِ الزَّلاتِ، فلا شكَّ أن هذا خلافُ ما أمرَ اللهُ بهِ من وجوبِ الاتفاقِ وجمعِ الكلمةِ، وأنهُ وقوعٌ في المنهيِّ عنهُ منَ التفرقِ، وأن ذلكَ سوفَ يقتلُ النهضةَ الإِسْلاميةَ الَّتي وُجدتِ الآنَ وللهِ الحمدُ بينَ شبابِ هذهِ الأمةِ وغيرِها.

وبسببِ هذا الاختلافِ نشأَ بينَ الشَّبابِ مشاكلُ في مسائلَ تتعلقُ بالعقيدةِ، ومسائلَ تتعلقُ بالأشياءِ الاجتماعية، وكان مِن نتيجةِ ذلكَ تفرقُ الشَّبابِ بسببِ هذا الخلافِ؛ لأنهم لم يَجِدُوا حَكَمًا يرجعونَ إليه يَحكمُ بينهُم، وهذا لا شكَّ أنهُ خطرٌ عظيمٌ على هذهِ النهضةِ الإِسْلاميةِ.

فالوَاجِبُ الإصلاحُ ما استطعنَا إلى ذلكَ سبيلًا، حتى يزولَ هذا الخلافُ وتنشأَ المحبةُ في القُلوبِ، ويزولَ عنها هذا الصدأُ الَّذي سوفَ يفتتُها حتى تتكسرَ، نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعَافيةَ.

قولُه تَعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣] ﴿كَبُرَ﴾ بمعنى عَظُمَ، والذِي يَدعوهُم إليهِ: هوَ الدَّعوةُ إلى التوحيدِ، وهيَ عندَ المشركينَ كبيرةٌ عظيمةٌ؛ لأنها تنافي مقصِدَهُم، فهم يقولونَ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، والعُجابُ أن يجعلَ الكَافِرونَ معَ اللهِ إلها آخرَ، وليسَ العُجابُ أن يُوحدُوا اللهَ، لكن هؤلاءِ المشركينَ قد نَكَّسَ اللهُ قلوبَهم فقالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾.

تحقيقُ قولِ لا إلهَ إلا اللهُ:

كلُّ المُسْلمينَ يقولونَ سرًّا وعلنًا: أشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ، فمنابرُ المساجدِ يُرفعُ فيها كلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ قولُ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، والمسلمونَ في صلواتِهم

يقرأونَ التشهدَ ويقولونَ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وإذا تطهرَ المسلمُ قالَ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، فكلُّ المُسْلمينَ يقولونَ هذا ولا يطبقونَه بفعلِهم، إلا قليلًا منهمْ.

فتجدُ القائلَ مِن هؤلاءِ القليلِ يقولُ: لا إلهَ إلا اللهُ، ولكنَّهُ يعتقدُ أن الوليَّ المعينَ، أوِ الإمامَ المعينَ، هوَ الَّذي يُرجعُ إليهِ في الشكوَى والتضرعِ وكشفِ الكرباتِ وما أشبهَ ذلكَ، حتى أننا نسمعُ أنهُ منَ النَّاسِ مَن يدعُو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الأمورِ السهلةِ، ويدعُو غيرَ اللهِ في الأمورِ الصعبةِ، فهذا لا يكونُ محققًا لقولِ لا إلهَ إلا اللهُ، ومناقضًا لقولِ لا إلهَ إلا اللهُ، فكيفَ تقولُ لا إلهَ إلا اللهُ وتعبدُ غيرَ اللهِ.

فكلُّ مَن عبدَ غيرَ اللهِ فقدْ عبدَ الشَّيْطانَ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

فهؤلاءِ المتعلقونَ بالأولياءِ أو بالأئمةِ يدعونَهم مِن دونِ اللهِ ويفزعونَ إليهمْ عندَ الشدائدِ هؤلاءِ مشركونَ باللهِ، ولا ينفعُهُم قولُ لا إلهَ إلا اللهُ، لا تنفعهُم يومَ القِيامَةِ، وقدْ سفَّهَ اللهُ هؤلاءِ وبيَّنَ ضلالهُم فقالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وملةُ إبراهيمَ هيَ الحنيفيةُ السمحةُ، والتوحيدُ الخالصُ، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وضللَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاءِ، فسفَّهَ عقولَهم، وضللَ آراءَهم؛ فقالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾، استفهامٌ بمعنى النَّفيِ، يعني لا أحدَ أضلُّ ﴿مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا

يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥] لا يستجيبونَ لهم كما قالَ تَعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، وتكونُ النتيجةُ يومَ القِيامَةِ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦] ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

فعلى مَن يدعُونَ الأئمةَ والأولياءَ، أن يعلمُوا أن هؤلاءِ الأئمةَ وهؤلاءِ الأولياءَ الَّذينَ يدعونَهم لن ينفعوهُم أبدًا، ولن يكشفُوا عنهم ضُرًّا، وأن يَتقُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وأن يُنيبُوا إلى اللهِ وحدَه وأن يَرجُوا اللهَ وحدَه لكشفِ الكُرباتِ، وأن يَدعُوا اللهَ وحدَه لحصولِ المطلوباتِ، لأن هؤلاءِ الأئمةَ والأولياءَ قد ماتُوا وأصبحُوا جُثثًا هامدةً، وربما تكونُ الأرْضُ قد أكلتهُم، ولم يَبقَ منهمْ إلا عَجْبُ الذَّنَبِ[1]، فكيفَ يدعونَهُم من دونِ اللهِ.

وربما يُبتلى الإنْسانُ فيدعُو هذا الوليَّ أو هذا الإمامَ، ثم يحصلُ لهُ المطلوبُ، فإذا حصلَ هذا الأمرُ، فإنَّنا نعلمُ علمَ اليقينِ أنهُ ليسَ هذا الإمامُ أو هذا الوليُّ هوَ الَّذي أعطاهُ هذا المطلوبَ، لقولِه تَعالى: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥].

لكن حدثَ المطلوبُ عندَ هذا الفعلِ لا بهذا الفعلِ، وفرقٌ بينَ حصولِ الشيءِ عندَ الشيءِ، وحصولِ الشيءِ بالشيءِ، إذا قلتَ حدثَ الشيءُ بالشيءِ، فمعناهُ أنه كانَ سببًا في حصولِه، وإذا قلتَ حصلَ عندَه، فمعناهُ أنهُ كانَ وقتَ حصولِه، ولكنَّهُ ليسَ هوَ السَّبب.

---

(١) هو العظم الذي في أسفل الصلب عند العَجُز. النهاية عجب.

فربما يُفتنُ العبدُ ويُبتلى ويحصلُ مطلوبُه عندَ هذا الشيءِ، وليسَ بهذا الشيءِ، لأننا نعلمُ علمَ اليقينِ أن هؤلاءِ المدعوينَ لا يستجيبونَ لأحدٍ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

وسبحانَ اللهِ! هؤلاءِ المَدعوونَ إذا كانَ يومُ القِيامَةِ كفروا بشِركِ مَن أشركَ بهم، وكانوا أعداءً لهم، مُتبرئينَ منهُم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧]، انظرْ يومَ القِيامَةِ، هؤلاءِ الأتباعُ يَتمنونَ أن تكونَ لهم رَجعةٌ إلى الدُّنيا؛ مِن أجلِ أن يتبرءُوا مِن هؤلاءِ، كما تبرأَ منهمْ هؤلاءِ في الآخرةِ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]؛ لأن ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وعلى طلبةِ العلمِ أن يُبينُوا لهؤلاءِ خطأَهُم وضلالَهم، وأنهمُ منحرفونَ عن صراطِ اللهِ الذي هدَى إليهِ مَن شاءَ مِن عبادِه؛ لأن واجبَ طلبةِ العلمِ أن يُبينوا للنَّاسِ ما نُزلَ إلى محمدٍ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وسلمَ.



الدَّرس الثَّاني:

إنَّ الحمدُ للهِ، نَحمدهُ ونَستعينهُ، ونَستغفرهُ ونَتوبُ إليهِ، ونَعوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أَنْفسنا ومِنْ سَيِّئاتِ أَعْمالنَا، مَن يَهدِهِ اللهُ فَلا مُضلَّ لهُ، ومنْ يُضلل فَلا هَاديَ لهُ، وأشهدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، وَحدهُ لَا شريكَ لهُ، وأَشْهَدُ أنَّ مُحمدًا عَبدهُ ورَسولهُ، أَرسلهُ اللهُ تَعالى بِالهدَى وَدينِ الحقِّ، فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصحَ الأمَّةَ، وتَركها علَى مَحجَّةٍ بَيضاءَ، لَيلها كنهَارها، لَا يَزيغُ عَنها إلَّا هالكٌ، فَصلواتُ اللهِ وَسلامهُ عَليهِ، وعَلى آلهِ وأَصحابهِ، ومَنْ تَبعهمْ بِإِحسانٍ إِلَى يَوْمِ الدينِ.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، فَقد بيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ أَنَّه شرعَ لهذهِ الأمَّةِ خُلاصةَ مَا جاءتْ بهِ الأَنبياءُ، وعلَى رَأسهمُ الرُّسلُ الخَمسةُ، أُولو العَزمِ، وهمْ: نُوح، وإِبراهيمُ، ومُوسى، وعِيسَى، ومُحمدٌ، صَلواتُ اللهِ وسلامُهُ عَلَيهم، هَؤلاءِ الخمسةُ هُمْ أُولو العزمِ منَ الرُّسلِ، وقدْ ذَكرهمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي القُرآنِ فِي مَوْضعين، فِي هذَا الموضعِ، وفِي سُورةِ الأحزابِ، فَهنا يَقولُ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، وقالَ فِي الأَحزابِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب:٧].

والوَصيَّةُ بِالشَّيءِ تَدلُّ علَى الاهتمامِ وَالعنَايةِ بِه، وهذَا الشيءُ الموصَى بِهِ وَالموحَى بِهِ هوَ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، كَلمتانِ: إِقامةُ الدينِ، وعدمُ التَّفرقِ فيهِ، أمَّا إقامةُ الدينِ فأنْ نكونَ جَميعًا مُتعاونينَ عَلى تَنفيذِ شَريعةِ اللهِ فِي عبادِ اللهِ، ومنْ

ذَلك أنْ نُقيمَها بِأنفسنَا؛ لأنَّ الإنْسانَ يَبْدأ بِنفسهِ قَبل غَيْرِه، فإذَا أَقَمنا دِينَ اللهِ فِي أَنفسنَا وفِي عِبادِ اللهِ؛ فهذَا هوَ امتثالُ قَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾، ويَلزمُ مِن هذَا أنْ نَتعاونَ عَلى البرِّ والتَّقوى، إذَا رَأَينا شَخصًا قَائمًا بِمَشروعِ برٍّ أَعنَّاه بِأَموالنَّا وأَبْدانِنا وأَقْوالنَّا وَجَاهِنا، بكلِّ مَا نَستطيع، وإذَا رَأَيْنا شَخصًا مُتَّقيًا للهِ عَزَّوَجَلَّ نُعينه عَلى التَّقْوَى، وعَلى تَركِ المحَارمِ، ونَصبِّرهُ عَلى ذَلكَ، ونَقولُ لهُ: اصبرْ عنِ المحرمِ، وإنْ جَادلتكَ نَفسكَ فاصبرْ وَصابرْ وَرَابطْ، فإنَّ العَاقبةَ لِلمتَّقينَ.

ويلزمُ منْ هذهِ العبارةِ أَيضًا أنْ نَتواصَى بِالحقِّ، وأنْ نَتَواصى بِالصَّبرِ، وأنْ نَتواصى بالمرحمَةِ، كَما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢]، استَثْنَى منْ؟ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

نَتواصى بِالحقِّ، وهوَ مَا جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ، ومَعْنى التَّواصي بِه أَي: يُوصي بَعْضُنا بَعضًا، كَما يُوصي الرَّجلُ عِند مَوتهِ عَلى صِغارِ أَطْفالهِ، وكذَلكَ نَتواصى بالصَّبرِ؛ لأنَّ الحقَّ يَحتاجُ إلى مُثابرةٍ، إذَا لَم يَصبرِ الإِنسانُ عَلى الحقِّ عَجزَ وَاستَحْسر وَتَركهُ؛ وَلهَذَا يُقالُ: إنَّ الصَّبرَ ثَلاثةُ أَنواعٍ، بَعضهَا أَعْلَى مِن بعضٍ:

الأَوَّلُ: الصَّبرُ عَلى أَوامرِ اللهِ.

الثَّاني: الصَّبرُ عَن مَحارمِ اللهِ.

الثَّالثُ: الصَّبرُ عَلى أَقدارِ اللهِ المؤلمةِ.

فأَمَّا الصَّبرُ عَلى أَوامرِ اللهِ فأنْ يَصبرَ الإِنْسانُ عَلى مَا يُصيبهُ مِنْ تَنفيذِ الطَّاعةِ؛ لأنَّ الطَّاعةَ شَاقَّةٌ عَلى النَّفس، لَيس كلُّ النَّاسِ تَنقادُ نَفسهُ إلى الطَّاعةِ، وأيضًا قَد تَنقادُ

نَفسه إِلى الطَّاعةِ ويُحبُّ الخيرَ؛ لكنَّهُ يَعبدُ اللهَ بِالهوى، لَا بِالهدَى، فَتنبهْ لِذلكَ، يَعبدُ اللهَ بِالهوى لَا بِالهدى، فَتجدهُ تَأخذهُ العَاطِفةُ الدِّينيةُ حتَّى يَزيدَ فِي دينِ اللهِ، ويَغلو فِي دينِ اللهِ، ويُشدِّد فِي دينِ اللهِ عَلى نفسهِ وعَلى غيرِهِ؛ لأنَّ عندهُ عَاطفةً قَويةً فِي الدينِ، وغَيْرَةً عَظيمةً؛ لكنَّهُ لَا يُحْكِم هذهِ العَاطفةَ وَيُقرنها بِالعقلِ؛ وَلِهَذا يُقالُ: النَّاسُ أَقسامٌ، مِنْهم مَن عِندهُ عَاطفةٌ وَعقلٌ، ومِنْهم مَن عِندهُ عَقلٌ بِلَا عَاطفةٍ، وَمِنْهم مَنْ عِندهُ عَاطفةٌ بِلَا عَقلٍ، وَمِنْهم مَنْ لَيْسَ عِنده عَاطفةٌ وَلَا عقلٌ، وأَكملُ هَؤلاءِ جميعًا مَن عِنده عَاطفةٌ وَعقلٌ؛ لأَنَّه لَوْلا العَاطفَةُ مَا نَشطَ الإِنْسانُ ولَا تَحرَّك، ولَوْلَا العقلُ لكانَ تَصرُّفه أَخْرَقَ؛ إمَّا فِي غلوٍّ، وإمَّا فِي تقصيرٍ، فإِذَا اجتَمعتِ العَاطفةُ الَّتي تَحذوهُ وتُحسُّه عَلى العملِ وعَلى الإِقبالِ معَ العقلِ الَّذي يَحكمُ صَنيعهُ حَصلَ الكمالُ، علَى كلِّ حالٍ لا بدَّ منْ أَن نَتَواصى بِالصَّبرِ عَلى الطَّاعةِ.

وأَمَّا الصَّبرُ عنِ المعصيةِ فَالمعاصِي كَثيرةٌ، وهِي إِمَّا لِشهوةِ الفَرجِ، أَوْ لِشهوةِ البَطنِ، أَوْ لِشهوةِ الرِّئاسةِ، أَو لِشهوةِ المالِ، أَو لِشهوةِ الجاهِ، فَالشَّهواتُ أَنواعٌ كَثيرةٌ، تَجدُ بَعضَ النَّاسِ يَميلُ إِلى المالِ، وبَعضهمْ يَميلُ إِلى الجاهِ، وَبَعضُهمْ يَميل إِلَى الرِّئاسةِ، وبَعضهمْ يَميلُ إِلَى النِّساء، تَخْتلفُ الإرادَاتُ والأَهواءُ فِي المعاصِي، لكنْ لَا بدَّ منَ الصَّبرِ عنْ مَعصيةِ اللهِ، بأَنْ تحبسَ نفسكَ، لَو صَوَّرَتْ لَك نَفسُكَ أَنْ تَعملَ المعصيةَ فَاحبسهَا وجَاهدهَا، حتَّى تَكْمُنَ.

وأَمَّا الصَّبرُ عَلى أَقدارِ اللهِ المؤلمةِ؛ فذلكَ لأَنَّ أَقدارَ اللهِ تَتنوعُ؛ فإِمَّا أَنْ تَكونَ مُؤلمةً، وإِمَّا أَنْ تكونَ مُلائمةً، فَالملائمةُ مَا يُلائمُ الطَّبيعةَ وَتَرتاحُ لهُ، والمؤلمةُ مَا لَا يُلائمُ الطَّبيعةَ ولَا تَرتاح لهُ، فالمرضُ -مثلًا- منَ الأَقدارِ المؤلمةِ، وكذَلكَ الفقرُ،

والجدبُ، والقحطُ، وتلفُ الأموالِ، كلُّ ذلكَ مُؤلمٌ، والصِّحةُ، والأولادُ، والزَّوجاتُ، والمالُ هذهِ منَ الأقدارِ الملائمَةِ، والأقدارُ الملائمَةُ فِي الحقيقةِ تحتاجُ إلى صبرٍ أيضًا، وهوَ الصَّبرُ عَلى شكرِ النِّعمةِ، لكنَّ الأقدارَ المؤلمةَ هِيَ الَّتي نُريدهَا هُنا، الصَّبرُ عَلى أقدارِ اللهِ المؤلمةِ، الإنسانُ يُبتلَى فِي الدُّنيَا ولَا شكَّ، ولَا أحدَ يَسْلَم منَ الابتلاءِ في الدُّنيَا، والشَّاعرُ يقولُ:

فَيَــوْمٌ عَلَيْنَـــا وَيَــوْمٌ لَنَـــا وَيَــوْمٌ نُسَــاءُ وَيَــوْمٌ نُسَــرُّ[1]

فكِّرْ فِي نفسكَ، تَأملْ حَياتكَ، هَل يَنطبقُ عَلَيك هذَا البيتُ أَو لَا؟ نَعم، الغالبُ أَنَّه يَنطبق، تَجدُ الإِنسانَ يومًا منَ الأَيَّامِ مَسرورًا مُنشرحَ الصَّدرِ، وفِي اليومِ الثَّاني بِالعكسِ، وفِي اليومِ الثَّالثِ كَاليومِ الأَوَّلِ، وفِي اليومِ الرَّابعِ كاليومِ الثَّاني، وهكذَا، سَواءٌ أكانَ يَومًا بَعد يومٍ، أو يَوْمين بَعد يَومينِ، أَو ثَلاثةٍ بَعد ثلاثةٍ، المهمُّ أَنَّ الدُّنيا لَا تَتمُّ لأحدٍ، لَا بدَّ منْ أقدارٍ مؤلمةٍ، فالوَاجِبُ عَلَينا أنْ نُقابلَ هذهِ الأقدارَ بِالصَّبرِ؛ وذَلك أنَّ الإِنْسانَ أَمام هذهِ الأقدارِ **لَا يَخْلو مِن أَربعِ حَالاتٍ**:

الأُولى: الجَزَعُ.

الثَّانيةُ: الصَّبرُ.

الثَّالثةُ: الرِّضا.

الرَّابعةُ: الشُّكرُ.

فأمَّا الأوَّلُ وهوَ الجزعُ فَواضحٌ، إذَا أُصيبَ بِالمصيبةِ جَزِعَ وتَسخَّط، وعَلامةُ

---

(١) البيت للنَّمِر بن تَوْلَب؛ ينظر: «ديوانه» (ص:٥٧).

ذَلك إمَّا بِالقولِ، وإمَّا بالفعلِ، أيْ: إنَّ عَلامةَ الجزعِ إمَّا قوليةٌ أَو فعليةٌ، فمنَ العلاماتِ القَوليَّةِ أنْ يَشتمَ الدَّهرَ، ويَدعو عَلى نَفسهِ بِالويلِ وَالثُّبورِ، ومَا أَشبهَ ذَلك مِن دَعاوَى الجاهليَّةِ، وأمَّا العلاماتُ الفِعليَّةُ فَمثل نَتفِ الشَّعرِ، وصفعِ الخدودِ، وشقِّ الجيوبِ، وخمشِ الصُّدورِ، ومَا أَشْبهَ ذَلِكَ.

إذَن؛ الجزعُ أَنْ يَتسخَّطَ مِن قضاءِ اللهِ وقدرهِ، ولَا يَرضاهُ بِقلبهِ، وعلامتهُ - كَما سبقَ - إمَّا قَوليَّةٌ، وإمَّا فعليَّةٌ.

وأمَّا الثَّاني وهوَ الصَّبر فأنْ يَتألَم لِلمَقدور لكنْ يَصبرُ، يَحبس لِسَانه، ويَحبس جَوَارحه، ويَحْبس قَلبهُ، فلَا يَكونُ فِي قلبهِ سَخطٌ عَلى القَضاءِ، ولَا فِي لسانهِ قَولٌ مُحَرَّمٌ، ولَا فِي جَوارحهِ فِعلٌ محرمٌ، لكنَّه مُتألِمُ مِما أَصابه، كَرجلٍ أُصيبَ بفَقْدِ مالٍ، فتراهُ يتألَم؛ ولكنَّه قَد حَبس قَلبه ولِسَانه وجَوَارحه، فَهذَا هُو مَقامُ الصَّبرِ.

وأمَّا الثَّالثُ فالرضَا، وهذَا المقامُ هُو أنَّ الإنْسانَ لَا يَتألمُ؛ بَل يَكون مُتماشيًا معَ قضاءِ اللهِ وقدرهِ، وقَضاءُ اللهِ لَه مَا يُلَائمه، أوْ مَا يُؤْلمه عَلى حدٍّ سَواءٍ؛ لأنَّه رَاضٍ تَمامًا بِالقضاءِ، لَا يَتألم، يَقولُ: هذَا قضاءُ اللهِ، وهُو ربِّي يَفعل بِي مَا شاءَ، فأنَا رَاضٍ، لَا أَتألم، وكأنَّ الذِي يُؤلِمني يُلَائمني، وَواضح أنَّ هذَا المقامَ أَعلَى مِن مَقامِ الصَّبرِ.

وأمَّا الرَّابعُ وهوَ الشُّكرُ فأنْ يشكرَ اللهَ عَلى مَا أَصابهُ مِما يُؤلمهُ، ولكنْ هذَا يَبدو وكأنَّه أمرٌ مُستحيلٌ، كَيف يَشكرُ الإنْسانُ ربَّه عَلى شيءٍ يُؤلمهُ؟ ولكنْ يُقالُ: إنَّ ذَوِي الأَربابِ العَاليةِ، والمنازلِ الرَّفيعةِ، لَا يَتعذَّر هذَا بِحقِّهم؛ لأنَّهم لا يَنْظرون إِلَى هَذا القضاءِ أَو إِلَى هذهِ المصيبةِ عَلى أنَّ المرادَ بِها إهانةُ المصابِ، وإنَّما يرون أنَّ المرادَ

بِها والحكمةَ مِنها أنْ يَعلوَ المصابُ دَرجاتٍ، ويُكَفِّرَ اللهُ بِها عنهُ، فَيشكرَ اللهَ عَلى نَتَائجِهَا وَثَمَراتِها؛ لأَنَّه يُكَفِّرُ بِها -أيْ: بِهَذِهِ المصائبِ- مِن خَطَايَاهُ، ويَعلو بِها أَيضًا دَرجات فِي الآخرةِ، إذَا نَظر إِلى هذهِ النَّاحيةِ انقَلبتْ هذهِ المصيبةُ أَو هذهِ المحنةُ مِنْحَةً، وَالمنحةُ يُشْكر عَلَيْهَا. لكنْ هذهِ مَنازلُ عاليةٌ، لَا يَبْلُغها إلَّا الوَاحدُ منَ الألفِ.

فالنَّاسُ إذَن أمامَ المصائِبِ لهمْ أَحوالٌ أربعٌ: سَخطٌ، وصبرٌ، ورضًا، وشكرٌ.

حُكْمُ هذهِ الأَحوالِ:

أَمَّا السَّخطُ فحرامٌ، ومنْ كبائرِ الذُّنوبِ؛ وَلهذَا قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**»[1].

فالجزعُ ضَلالٌ فِي الدينِ، وسفهٌ فِي العقلِ أَيْضًا؛ لأنَّ هذَا الجزعَ لَا يردُّ المصيبةَ، ولَا يخففُ منهَا؛ بلْ يُزيدهَا ألـمًا؛ وَلِهذا قالَ بعضُ العُلماءِ: (إذَا أُصِبْتَ بِمُصِيبَةٍ فَإِمَّا أَنْ تَصْبِرَ صَبْرَ الكِرَامِ، وَإِمَّا تَسْلُوَ سُلُوَّ البَهَائِمِ)، سبحانَ اللهِ! هذَا صَحيحٌ، إمَّا أنْ تصبرَ صبرَ الكرامِ، وإمَّا أَنْ تَسلوَ سلوَّ البهائِمِ، يَعني تَنْسى المصِيبةَ، هذَا مَعْنَى السلوِّ.

وأنَا أظنُّ أنَّه مَا منْ أحدٍ منَّا إلَّا وقدْ أُصيبَ مُصيبةً آلمتهُ، ولكنْ بِطولِ الزَّمنِ يَنْساها ويَسْلو عَنْها، فإذَا صبرَ علَيْها حينَ المصيبةِ نالَ دَرجةَ الصَّابرينَ، وإنْ تَسخَّط نَزَلَ عنْ هذهِ الدَّرجةِ ولَم يغنِ عنهُ التَّسخطُ والجزعُ شيئًا؛ ولهذَا مرَّ النَّبيُّ ﷺ بامرأةٍ وهيَ عندَ قبرِ ابنهَا تَبكي، فقالَ لها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا هَذِهِ اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**»، فقالتْ: إليكَ عنِّي، فإنَّك لم تُصَبْ بِمُصِيبتي، فلمَّا انصرفَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، رقم (١٢١٨).

وأخبرتْ بهِ، جاءَتْ تَعْتَذِرُ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»[1].

إذَن؛ الإِنسانُ الَّذي يَجزعُ عندَ المصيبَةِ لَنْ يَستفيدَ أبدًا، فَجزعهُ ضَلالٌ فِي الدينِ، وَسَفَهٌ فِي العقلِ.

وأمَّا الصَّبرُ فَحكمهُ فَواجبٌ؛ لأنَّ اللهَ أَمر به، فقالَ: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، وثَوابهُ عَظيمٌ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، فاصْبرْ، وتَحمَّلْ، وثِقْ أنَّ الحَالَ سَتتغيرُ منَ الصباحِ إِلَى المساءِ، وَالجزعُ والحزنُ العظيمُ الَّذِي أَصابكَ فِي المصيبَةِ إذَا صَبرتَ سوفَ يَنقلبُ بَرْدًا وسَلامًا فِي آخرِ النَّهارِ.

أمَّا حكمُ الرِّضا، فقالَ بعضُ العُلَماءِ: إنَّه واجبٌ كالصبرِ، وقالَ بَعضُهُمْ: إنَّه مُستحبٌّ، والصَّحيحُ أنَّه مُسْتحبٌّ؛ وذَلك لأنَّه أمرٌ لَا يقومُ بِهِ كلُّ أحدٍ، فلوْ أَوْجَبناه علَى النَّاسِ لَأَلْزَمناهم بِما لَا يَسْتَطيعون، فَالصَّحيح أنَّه مُسْتحبٌّ، ولَيس بِواجبٍ.

وحكمُ الشُّكرِ أنَّه مستحبٌّ، منْ بَابِ أَولى؛ لأنَّه إذَا كانَ الرِّضا مُستحبًّا؛ فالشكرُ مِن بابِ أَوْلَى؛ لأنَّه رضًا وزيادةٌ، ولستُ أَتكَلمُ الآنَ عَلى الشُّكر عَلَى النِّعمةِ، وإِنما أَتكَلم عَنِ الشكرِ عَلَى المصيبةِ، فَهو مُستحبٌّ، ولَيس بِواجبٍ.

إذَن؛ مِن جُملةِ إقامةِ الدينِ الَّذي أمرَ اللهُ بِه فِي قولِه: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ أنْ نَتَواصى بالصَّبرِ كَما أمرَ اللهُ، ومنْ إقامةِ الدِّين الَّتي أمرَ اللهُ بِها أنْ نتآمرَ بِالمعروفِ، وأنْ نَتَناهى عَنِ المنكرِ؛ حتَّى نكونَ أمةً واحدةً، تَتفِقُ فِي أفكارِهَا واتِّجاهاتها وأَقْوالها وأَفْعَالها وأَحْوَالها؛ لأنَّه إذَا لَم نَأمرْ بِالمعروفِ ونَنْهى عنِ المنكرِ تفرَّقنا ولا بدَّ؛ لأنَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم (١٢٢٣).

صاحبَ المنكرِ يَمْشي مَع فَريقهِ، وصاحبُ المعروفِ يَمْشِي مَع فَريقهِ، وهذَا تفرُّقٌ؛ وَلهَذَا قالَ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٤، ١٠٥]، ولتكنْ مِنكمْ أمةٌ يَدْعونَ، ويَأْمرونَ، ويَنْهونَ، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾، فدلَّ هذَا عَلى أنْ تَركَ الدَّعوةِ إِلى اللهِ، وتَركَ الأمرِ بِالمعروفِ والنَّهي عنِ المنكرِ سببٌ للتفرقِ ولا بدَّ، والأمةُ إذَا تفرَّقت تَنَازعت، وإِذَا تَنَازعت فَشَلَت وذهبَ رِيحهَا، وصارتْ فَريسةً لِأَعدائهَا.

وَلهَذَا يقالُ: إنَّ مِن سِيَاسةِ الكفارِ تِجاهَ المُسْلمينَ أنَّهم يَأْخذون بِمَبدأٍ يُسمَّى مَبدأَ فَرِّقْ تَسُدْ، يَعْني اجعلِ النَّاسَ يَتفرَّقون تكن أنتَ السيدَ، وهذَا حَقيقةٌ إذَا تفرَّقَ المسلمونَ تَنَازَعوا ففَشَلوا وذهبتْ رِيحهمْ، وصَارُوا فَريسةً لِأَعْدائهم، فَصارَ العدوُّ يَجلسُ يَتفرجُ عَلى تَنازعِ المُسْلمينَ وَتفرُّقِهم، ويَكونُ بِأْسُهم بَيْنَهم، وعدوُّهُم مُستريحًا.

تَعريفُ المعروفِ وَالمنكرِ:

إِذَن نَقولُ: منْ جملةِ إِقامةِ الدينِ أنْ نَتآمرَ بِالمعروفِ وَنَتَناهى عنِ المنكرِ، وهنَا نَقف لِنَسأل: مَا هوَ المعروفُ؟ هلِ المعروفُ مَا عرفهُ النَّاسُ، أَو مَا عَرفهُ الشَّرع وأقرَّه؟

والجوابُ: المعروفُ هُوَ مَا عَرفَهُ الشَّرع وأقرهُ، لَا مَا عَرفهُ النَّاسُ؛ لأنَّ النَّاسَ قَد يَعرفونَ المنكرَ، ويُنْكرونَ المعروفَ، وإنَّما المعروفُ مَا عرفهُ الشرعُ وأَقرَّه كَشَرائعِ الإِسْلامِ، والمنكرُ مَا أنكرهُ الشرعُ وحَذَّر منهُ كَالمعَاصي، هذَا تَعريفُ المعروفِ،

وتَعريفُ المنكرِ، ولكنْ لَا بدَّ لذلكَ منْ شروطٍ:

الشَّرطُ الأوَّلُ: أنْ يكونَ الآمرُ عَالمًا بِالمعروفِ، يَعني عَالمًا بأنَّ هذَا مِما أمرَ اللهُ بِه، أَما إذَا كانَ جَاهلًا فكيفَ يأمرُ؟! ولهذَا يُفْسِدُ الجاهلُ الآمرُ بِالمعروفِ وهوَ يَجهلهُ أكثرَ مما يُصْلِحُ، فكمْ منْ إنْسانٍ تَجدهُ عَلى منكرٍ! وأكثرُ مَا يَكون هذَا فِي البدعِ فِي الدينِ، البدعُ التِي تَقْسِمُ الأعناقَ والظُّهورَ، ويَحْسبها الجاهلُ حقًّا وهِيَ باطلٌ، هيَ الَّتي يَأمر بِها الجهالُ، فيُغرونَ العوامَّ، تَأتي للشَّخصِ تَقول لهُ: هذَا منكرٌ، فَيقول لَكَ: منكرٌ! فُلان أَمَرني بِه، فكيفَ يَكون مُنكرًا؟! والَّذي أَمره بِه جاهلٌ؛ وَلهَذَا لَا يجوزُ أنْ تَأمرَ بشيءٍ عَلى أنَّه مِن شرعِ الله حتَّى تكونَ عالمًا بأنَّه منْ شرعِ اللهِ، وإلَّا كنتَ مَسْؤولًا مِن جِهتَين: مِن جِهة أنَّك نَسبت هذَا الشَّيءَ إلى شرعِ اللهِ وليسَ منهُ، ومنْ جهةٍ أُخرَى أنَّك أَمَرت بِهِ عبادَ اللهِ، ولَيْسَ مِما تعبَّدَهمُ الله بِهِ.

الشَّرطُ الثَّاني: أنْ يكونَ الآمرُ عالمًا بأنَّ هذَا الشَّخصَ تَركَ المعروفَ، فلَا يأمرُ بشيءٍ وفيهِ احتمالٌ أنَّ المأمورَ قَد فَعله، حتَّى يَستفسرَ وينظرَ؛ هلْ فعلَ أَو لمْ يفعلْ؛ لأنَّه إذَا أمرَ بشيءٍ وهوَ لَا يدرِي أنَّ المأمورَ قدْ فعلهُ؛ صارَ مُتسرعًا غيرَ حكيمٍ فِي أمرِهِ.

وانظرْ إلَى حكمةِ الرَّسولِ ﷺ، كانَ يخطبُ النَّاسَ يومَ الجمعةِ، فدخلَ رجلٌ المسجدَ وجلسَ، والجلوسُ عندَ دُخولِ المسجدِ تَرْكٌ للمعروفِ، والمعروفُ وقتئذٍ صَلاةُ رَكعتينِ تحيةُ المسجدِ، جلسَ الرَّجلُ ولمْ يقلْ لهُ النَّبيُّ ﷺ قمْ فَصلِّ، لَم يقلْ لهُ ذلكَ؛ لِاحتمالِ أنْ يَكونَ صلَّى؛ ولهذَا قالَ لهُ: «**أَصلَّيت؟**» قالَ: لَا، قالَ: «**قُم فصلِّ رَكْعَتين، وتجوَّزْ فيهمَا**»[1]، فاستفسرَ أوَّلًا: هَل فَعل هذَا المعروفَ أَمْ لَم يَفعلْهُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب من جاء والإمام يخطب صلى ركعتين، رقم (٨٨٤).

فلمَّا قالَ: لَا، قالَ: قمْ فصلِّ ركعتينِ، إذَن لَا بدَّ أنْ تكونَ عالمًا بحالِ المأمورِ، وأنَّه لم يقمْ بِما أمرَ اللهُ بِهِ، فإنْ كنتَ جَاهلًا فِي ذلكَ تَسألُ وتَستفسرُ قَبْلَ أَنْ تأمرَهُ.

الشَّرطُ الثَّالثُ: لا بدَّ أنْ يكونَ الأمرُ مُفيدًا، أيْ: أنْ يَكونَ علَى وجهٍ يُقبلُ منهُ، بِحيثُ لَا يَأتِي بِعنفٍ وشدةٍ تُوجِبُ نفورَ المأمورِ؛ لأنَّك لَو أَتيت بشدَّةٍ لِنفرِ المأمورِ مِن أمرِكَ، لكنْ لَو أتيتَ بِرفقٍ ولِينٍ لم يَنْفِرْ، واطمأنَّتْ نَفسهُ، وانشرحَ صدرهُ، وأحبَّكَ، وقَبِلَ منكَ، وهذَا شيءٌ مشاهَدٌ، تَجدُ العَالمَ الكبيرَ يَأمرُ هذَا الشَّخصَ بِالمعروفِ؛ لكنْ بِعنفٍ، فَلا يقبلْ، ويجيءُ عاميٌّ منَ السُّوقِ يَتكلم معهُ بِسهولةٍ ولِينٍ، فتراهُ يَقبلُ منهُ، الغالبُ أنَّه يقبلُ؛ لأنَّ صيغةَ الأمرِ لها تأثيرٌ علَى المأمورِ، فِي المنكرِ يُشترطُ أنْ نَعلمَ أنَّ هذَا منكرٌ حَسبَ الشَّريعةِ الإِسلاميَّةِ، فإنْ لَم نعلمْ لَم يجزْ لَنا أنْ نَنهَ عنهُ.

وهاهُنا مِثالانِ:

المثالُ الأوَّلُ: رجلٌ وجدناهُ يتعبدُ اللهَ بِما لَم يَشرعْهُ اللهُ، فالأصلُ أنْ نُنكرَ؛ لأننَا نعلمُ أنَّه عَلى غيرِ شريعةٍ، ونقولُ: تعالَ، مَا هذهِ الصَّلاةُ؟ مَا هذَا التَّسبيحُ؟ مَا هذَا القولُ؟ مَا هذَا الفعلُ؟ كَيف تَتعبدُ للهِ بِهذا الشَّيءِ؟ نُنكر عَليه حتَّى يُوجدَ دَليلٌ عَلى أنَّ هذَا منْ شَرعِ اللهِ، وإنَّما قُلنا بِذَلك لأنَّ الأصلَ فِي العِبادَاتِ المنعُ، وأنَّه لَا يُمكن أنْ يَتعبَّدَ أحدٌ للهِ إلَّا بدليلٍ، أيُّ إِنْسانٍ تَراه يَتعبد بِلا دليلٍ أَنْكِرْ عليهِ، وقلْ: هاتِ الدَّليلَ، إذَا قالَ لكَ: مَا دَليلكَ عَلى أنَّ هذَا منكرٌ؟ تَقول: مَا دَليلكَ أَنت عَلى أنَّ هذَا عبادةٌ؟ والأصلُ ألَّا نَتعبدَ للهِ إلَّا بِما شُرِع، فَالأصلُ فِي العِبادَاتِ المنعُ، فَننكرُ عَلى كلِّ إِنْسانٍ أحدثَ عِبادةً لَا نعلمُ أنَّها منْ شَريعةِ اللهِ حتَّى يَأتينا بِدليلٍ.

المثالُ الثَّاني: رَجلٌ وَجَدْناه يَعملُ عَملًا غيرَ عِبادةٍ، فَالأصلُ أَلَّا نُنْكِر عليهِ، الأصلُ عدمُ الإنكارِ؛ لأنَّ الأصلَ فِي غيرِ العِبادَاتِ الحلُّ والإبَاحةُ؛ حتَّى يَقومَ دليلٌ عَلى المنعِ، بناءً عَلى ذلكَ؛ مَا تَقولونَ فِي رجلٍ حضرَ مُحاضرةً فَجاءَ بِمسجلٍ يُسجلُ المحاضرَةَ، فقالَ لهُ رجلٌ: هذَا حرامٌ، وأنكرَ عَليهِ غايةَ الإِنكارِ؟ هلْ هُو عَلى صَوابٍ أَم عَلى غَيْرِ صَوابٍ؟

نقولُ: علَى غيرِ صوابٍ؛ لأنَّ هذهِ ليستْ عِبادةً، أنَا لَم آتِ بِالمسجلِ لأَتعبدَ للهِ بِالمجيءِ بهِ؛ لكنْ لأحفظَ هذهِ المحاضرةِ بَدَلًا مِن أنْ أُتعبَ يَدِي بالكتابةِ، ويَفُوتَني بَعضُ الكلماتِ، أُسجلُ وأستمعُ إِلى هذَا عَلى طَمَأنينةٍ، لَم آت لأتعبدَ للهِ بِإحضارِهِ، فكيفَ تُنكرُ عليهِ، فإنْ قالَ هذَا المعترضُ: سُبحانَ اللهِ! هَل هذَا المسجلُ مَوجودٌ فِي عهدِ الرَّسولِ؟ قُلنا لهُ: غيرُ موجودٍ؛ لكنَّ الشَّريعةَ صَالحةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، ولمْ يَتركْ شيئًا، اللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، أينَ فِي القُرآنِ والسُّنةِ أنَّ هذَا ممنوعٌ؟ قُل لِي، أَجب، هَل أنتَ تَقرأُ كِتابًا مَطْبوعًا؟ أَسألُ مَن قالَ: المسجلُ حرامٌ، أقولُ لهُ: هَل أنتَ تَقْرأ كِتابًا مَطبوعًا؟ فإنْ كَان يَقرأ فَسيقولُ: نعمْ، فَنقولُ لهُ: هلِ المطابعُ مَوْجودةٌ فِي عهدِ الرَّسُولِ وأصْحَابِهِ؟! لَا، إذَن لَا تقرأْ الكتبَ المطبوعةَ؛ لأنَّ هذهِ مَطبوعةٌ بآلَةٍ حَادثةٍ، مَا كانتْ مَعروفةً فِي عهدِ الرَّسولِ، ولَا عهدِ أَصحابهِ، فَهي بِدعةٌ، لَا تَقرأِ الكتابَ المطبوعَ أبدًا، إذَن؛ فَلا تُنكرْ عَليَّ المسجِّلِ.

نَخلص مِن هذَا إِلى أنَّ الذِي يُنكرُ عَلى صاحبِ المسجِّلِ تَسجيلَ المحاضَراتِ النَّافعةِ القيِّمةِ لَيس عَلى صَوابٍ، بَل إنَّ إنكارَهُ هوَ المنكرُ؛ وَلهذَا نَقولُ: لا تُنْكِرْ إلَّا مَا عَلمت أنَّه مُنْكَرٌ فِي الشَّرعِ.

جَاءنَا آخرٌ، وقالَ: كيفَ تُصلِّي بِالميكرفونِ؟ هَذا بِدعةٌ، حرامٌ، هذَا بوقُ اليهودِ؛ وقالَ بحرمةِ استعمالِ الميكرفونِ فِي الصَّلاةِ والأذانِ، فلمَّا قلنَا لهُ: لماذَا تُشددْ عَلى استِعمالِ الميكروفُونِ؟ قالَ: هَل كانَ الرَّسولُ وأصْحَابهُ يَسْتَعملونهُ؟ قُلنا لهُ: لَا، مَا كَانوا يَستَعملونه؛ لكنَّهُم لَم يَكُونوا يَستَعملونه لأَنَّهُ حَرامٌ؛ بَل لأَنَّه لَم يَكنْ مَوْجودًا فِي عهدهمْ؛ ولهذَا كانَ النَّبيُّ ﷺ يأمرُ أصْحَابهُ الَّذين لَهم صَوتٌ عَالٍ أَن يُبلِّغوا، بَل أمرَ الذِي رَأى الأَذان فِي المنامِ أَن يُلقيَه عَلى بِلالٍ، وقالَ: «**إِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ**»[1]، وأمرَ أبَا طلحةَ يَوم خَيبر أنْ يُناديَ: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحومِ الحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ**»[2]، وأمرَ العباسَ بنَ عبدِ المطلبِ فِي غزوةَ حنينٍ أنْ يُناديَ الصَّحابةَ الَّذين فرُّوا: «**يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ البَقَرَةِ**»[3]؛ لأَنَّه كانَ قويَّ الصوتِ.

إذَن فرَفْعُ الصوتِ بِالتبليغِ أصلهُ مَوجودٌ فِي عهدِ الرَّسولِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكنَّ الآلةَ هذهِ لَم تَكنْ مَوجودةً وقْتئِذٍ؛ والآلةُ وَسيلةٌ فَقَطْ لِإبلاغِ الصوتِ، وإذَا كانَ الرَّسولُ ﷺ أقرَّ أبَا بكرٍ عَلى أنْ يُبلغَ عنهُ فِي الصَّلاةِ حِينما صلَّى فِي النَّاسِ مريضًا، كانَ أَبو بَكرْ يبلغُ عنِ الرَّسولِ ﷺ؛ دَلَّ هذَا عَلى أنَّه لَا مَانعَ مِنِ استعمالِ مَا يُبلغُ الصَّوت إِلى المصلينَ.

لكنْ هُنا أَمر يَجب أنْ نُشيرَ إليهِ، وهُو أنَّ بعضَ النَّاسِ يَستعملُ هذَا الصَّوتَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأذان والسنة فيها، باب بدء الأذان، رقم (٦٩٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٣٩٢٠)، ومسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب تحريم أكل لحم الحمر الإنسية، رقم (٣٥٩٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١ رقم ١٧٧٥).

عَلى وَجهٍ يُؤْذي الآخرينَ، كَما يُوجد فِي بعضِ المدنِ والقُرى يَقْرؤون أَوْ يُؤَدُّونَ الصَّلاةَ بِالميكرفونِ، ويُسمعُ مِن عَلى المنارةِ، ويَسْمعه جِيرانهُ، جِيرانُ المسجدِ من المساجِدِ أَو منَ البيُوتِ، فَيشوش عَلَيْهم تَشويشًا بَالغًا، حتَّى إِنَّه بلغنَا أنَّ بعضَ النَّاسِ الَّذينَ يُصلونَ خَلف هذَا الإمامِ إذَا سَمعوا قِراءةَ المسجدِ الثَّاني بِمكبرِ الصَّوتِ، وكانَ صوتُه لَذيذًا وقراءَتُه جَيِّدةً، صَاروا يَسْتمعون إِلَى قِراءتِه، وتَركوا الاستماعَ إِلى قِراءةِ إِمامهِمْ، وصَار إِمامهمْ كأَنَّما يَقرأ عَلى خُشُبٍ مُسَنَّدةٍ، لَا يَسْتمعون إِلَّا إِلى قِراءةِ المسجدِ الجيِّدِ.

وَبَلغني أنَّ بعضَ النَّاسِ كانَ يَستمعُ إِلى قِراءةِ الإمامِ الثَّاني فِي المسجدِ الثَّانِي، فَلما قالَ ﴿ولا الضالين﴾ [الفاتحة:٧] قَالوَا: آمينَ، وإِمامهم يقْرَأ بِالفاتحةِ وَلم يُكملْ؛ لكنَّهمُ استمَعوا إِلى قِراءةِ المسجدِ الثَّاني.

ولَا شكَّ أنَّ هذَا الصَّنيعَ وُقوعٌ فِيما نَهى عنهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومَعصيةٌ للرَسولِ، ومنْ فعلَ ذَلك فَهو إِلَى الإثمِ أَقربُ مِنْهُ إِلى السَّلامةِ؛ لأَنَّه يُؤْذي إِخوانهُ ويُشَوش عَلَيْهم، خرجَ النَّبيُّ ﷺ عَلى أَصحابهِ ذاتَ يَومٍ وهمْ يُصلُّونَ وَيَجْهرون بِالقراءةِ، فقالَ لَهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كُلُّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ، فَلَا يَجْهَرْنَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقُرْآنِ**»، أَو قالَ: «**فِي الْقِرَاءَةِ**»[١]، وقدْ رُوي فِي هذَا حَديثانِ، قالَ ابنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهما صَحِيحانِ، أَحدهمَا فِي الموطَّأ[٢]، والثَّاني فِي أَبي دَاودَ، ولفظُ أَبِي دَاودَ: «**فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**»[٣]، فجعلَ النَّبيُّ ﷺ هذَا أَذيَّةً، وصدقَ الرَّسولُ

(١) أخرجه النسائي (٥/ ٣٢ رقم ٨٠٩٢).

(٢) أخرجه النسائي (٥/ ٣٢ رقم ٨٠٩٢).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصَّلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة اللَّيل، رقم (١٣٣٤).

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَنَّه يُؤْذي ويُشَوِّش ويُزْعِج.

فإِذَا أَنكرَ إِنسانٌ الصَّلاةَ فِي الميكروفونِ مِن هذهِ النَّاحيةِ فَإِنكارهُ صَوابٌ؛ لأَنَّ هذَا هُو الَّذي نَهى عنهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومَا أَدري مَاذا يَكونُ جوابُ مَن فَعلَ ذلكَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيامةِ؟! إذَا كانَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولَ: «**لَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْض، بالقراءة**»[1]، أَو: «**لَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**»[2]، وثبتَ أَنَّ هذَا يُشوِّش عَلى الآخرينَ أَو يُؤْذيهِمْ، لَا أَدْري مَاذَا يَكونُ جَوابُ هذَا الفَاعلِ الَّذي بَلغهُ حَديثُ الرَّسولِ ﷺ؟! وهمَا حَديثانِ اثنانِ عنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، صَحَّحهما ابنُ عَبدِ البرِّ، وقدْ كانَ يَكفي منَ الدَّليل حَديثٌ واحدٌ، واللهِ لَا أَدري مَاذا يَكون جَوابهُ؟! ولَا أَدري مَاذا يَكون إِحْساسه بِإِخوانهِ وهُم سَاجدونَ تَبعًا لِإِمامهمْ يُريدونَ أَن يَدعوا اللهَ، وصوتُ هذَا يَخرقُ آذانَهم بِالقراءَةِ وَلَا يَدرونَ مَاذا يَدْعون بِهِ؟! هذَا فِيه جِنايةٌ عظيمةٌ عَلَى الآخرينَ، معَ أَنَّ الفائدةَ مِنْ هَذا قَليلةٌ جدًّا، إِن قُدِّرَ أَنَّ فيهِ فَائدةً، نقولُ: فإِذَا أَنكرَ إِنْسانٌ هذَا الصَّوتَ أَوِ استعمالَ المكبرِ مِن هذهِ النَّاحيةِ فَإِنكارهُ صَحيحٌ؛ لأَنَّ النَّبيَّ ﷺ نَهى أَنْ يُشوِّشَ النَّاسَ بَعْضهم عَلى بَعضٍ أَو يَجهرَ بَعضُهم عَلى بَعضٍ.

وقَد صَرَّح شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمية رَحِمَهُ اللَّهُ بأَنَّه ليسَ لِلإِنْسانِ أَنْ يَفعلَ مَا يُشوِّشُ بِه عَلى المصلِّينَ، ذَكرهُ فِي الفتَاوَى وغَيْرها[3]، ونحنُ فِي غِنًى عَن كَلامِ أَيِّ إِنسانٍ مَا دَام عِنْدنا كلامُ رَسولِ اللهِ ﷺ، الَّذي قالَ: «**لَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**»[4]،

---

(١) أخرجه النسائي (٥/ ٣٢ رقم ٨٠٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصَّلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة اللَّيل، رقم (١٣٣٤).

(٣) الفتاوى لابن تيمية (٢/ ٨٦).

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب الصَّلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة اللَّيل، رقم (١٣٣٤).

أَو: «**لَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي القِرَاءَةِ**»[1].

وَلِهَذا فإِنَّنِي مِن هذَا المكانِ أُحمِلُ مَن سَمع هذَا الحديثَ عَن رَسولِ اللهِ ﷺ المسْؤُوليةَ أَمام رَبِّ العَالمينَ، إِذَا سَأَلهُ مَاذا صنعَ فِي التَّشويشِ عَلى إِخوانهِ، وكَوْنهم يَدْعون مَن أَمروا بِالإِنصاتِ لَه فَيَسْتمعون إِلَيْه، ونَسْأَلُ اللهَ لَنا وَلِإِخْواننا الهِدَاية.

والوَاقعُ أَنَّ هذَا مِما أَشَرنا إِلَيه قَبل قَليلٍ، وهُو تَغليبُ العَاطفةِ عَلى العقلِ، الإِنسانُ إِذَا تَعقَّل، وقَال: مَا الَّذي يَحْملني أَنْ أَعِصيَ الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأُوذي إِخْواني وأُشوِّش عَلَيْهم فِي أَمر لَا فَائدةَ مِنهُ، والفائدةُ مِنه قَليلةٌ، يَعْني لَو قُدر أَنَّ فِيه فَائدةً فَالفائدةُ قَليلةٌ.

أَمَّا استعمالُ مُكبرِ الصَّوتِ فِي غَيرِ الصَّلاةِ الجَهرِيةِ -كَصلاةِ الظُّهرِ وَالعَصرِ- فَمنَ النَّاسِ مَن أقرَّهُ، وقالَ: هذَا ليسَ فِيه تَشويشٌ، ومِنْهم مَن لَم يُقرَّهْ، وقالَ: نَعم هذَا لَيْسَ فِيه تَشويشٌ، لَكن قَد يَحصلُ أَحيانًا إِذَا قالَ إِمامُ المسجدِ المجاورِ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فقدْ يَقومُ هَؤلاءِ، يَحسبونَ أَنَّهُ إِمامهمْ.

وبَعضُ النَّاسِ قالَ: إِنَّ نقلَ الصَّلاةِ السِّريةِ فِي مُكبرِ الصَّوتِ رُبَّما يَحملُ بَعضَ المصلِّينَ عَلى التَّواني فِي أداءِ الصَّلاةِ، فإِذا سمعَ الإمامَ قَد كبَّرَ لِلرَّكعة الأُولى تباطَأَ، وقالَ: هذهِ الركعةُ الأُولى، مَا زالَ أمامَه ثَلاثُ ركعاتٍ، فَيحملهُ ذَلك عَلَى التَّباطؤِ، أَمَّا إِذَا لَم تَنقلْ عبرَ مُكبرِ الصوتِ فإِنَّه يهب متَى سَمعَ الإِقامةَ، ولَا يَنتظرُ حتَّى يُصلِّيَ إمامُه رَكعةً أو رَكعتينِ، إِذَن فَفي نَقلِ الصَّلاةِ السِّريةِ عَبر مُكبِّرِ الصَّوتِ منَ المنارةِ شَيءٌ منَ النَّظرِ؛ لكنَّه لَيس كَالصَّلاةِ الجهريَّةِ.

---

(١) أخرجه النسائي (٥/ ٣٢ رقم ٨٠٩٢).

فإنْ قيلَ: نقلُ الإقامةِ دُونَ الصَّلاةِ، هَل يُنكر؟

قلنا: بعضُ النَّاسِ أَقرهُ، وقالَ: لَا مَانعَ منهُ؛ لأَنَّه يحثُّ النَّاسَ عَلى الحضورِ؛ ولأنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةَ وَالوَقَارَ، وَلَا تُسْرِعُوا**»(١)، وهذَا يدلُّ عَلى أنَّ الإقامةَ تُسمَعُ مِن خارجِ المسجدِ، فَلا بأسَ بهِ.

وقالَ آخرونَ: لَا نُقرُّهُ؛ لأنَّ عِندنَا مَن إذَا قُلنا لَهُ: قُم صلِّ، قالَ: اصبرْ حتَّى يُقيمَ، وإذَا ذهبَ بعدَ الإقامةِ رُبَّما يَفوتُه شيءٌ؛ لكنَّ الذِي أَرى أنَّ الإقامةَ لَا وَجه لِإنْكارهَا مِن مكبرِ الصَّوتِ مِن عَلى المنارةِ؛ لأَنَّنا نَقولُ: إذَا كانَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ**»؛ دَلَّ هَذا عَلى أنَّ الإِنْسانَ لَو لَم يَقُمْ إِلى الصَّلاةِ إِلَّا بَعدَ الإقامةِ؛ لكانَ مُمتثلًا لأمرِ الرَّسولِ ﷺ، معَ أنَّ الأفضلَ أنْ يَقومَ مِن حينِ أنْ يَسمعَ الأذانَ.

كلُّ هذَا الذِي ذَكرنا المنكرُ لا بدَّ أنْ نعلمَ أَنَّه منكرٌ، دَاخلٌ فِي قولنَا: إنَّ المنكرَ لا بدَّ أنْ نعلمَ أَنَّه مُنكرٌ، فإنْ شَككنا وَجبَ عَلَيْنا التَّوقفُ.

الشَّرطُ الرَّابعُ: أَلَّا يزولَ المنكرُ إِلى مَا هُو أنكرُ مِنهُ، يَعْني لَا تَنهَ عَن مُنكرٍ فَيفعلَ المنهيُّ مَا هُو أَكبرُ وأنكرُ، وَدَليلُ هذَا قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨]، سبُّ آلهةِ المشركينَ وَاجبٌ، وعَيْبها وَاجبٌ، لكنْ إذَا كانَ يَترتبُ عَليه سبُّ ربِّ العَالمينَ المنزهِ عَن كلِّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصَّلاة، وليأت بالسكينة والوقار، رقم (٦٣٦).

عيبٍ ونقصٍ؛ وجبَ أَنْ ندعَ سبَّ آلهةِ المشركينَ؛ لأَنَّنا لَو سَببنا آلهَتَهم لَسبوا إِلَهنا عَزَّوَجَلَّ، فلَا نسبُّ الآلهةَ؛ لأنَّ هذَا المنكرَ يُؤدِّي إِلى مَا هُو أَنكرُ وأشدُّ، فتَرْكُ السَّبِّ لِآلهتهِمْ واجبٌ، إِذَا كانَ سبُّ الآلهةِ يُؤَدي إِلى سبِّ اللهِ.

وقدْ ذكرَ عنْ شيخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّه مرَّ بقومٍ منَ التَّترِ فِي الشَّامِ وهمْ يَشْربونَ الخمرَ، وشُرْبُ الخمرِ مُنكرٌ، لَا إِشكالَ فِي ذلكَ بِإجماعِ المُسْلمينَ، ولكنَّه لَم ينْهَهم عَنِ الشربِ، وكانَ مَع شيخِ الإِسْلامِ صاحبٌ لهُ، فقالَ: مَا لكَ لَم تَنْههم؟! قالَ: لَو نَهَيْناهم عَن شربِ الخمرِ لَذَهبوا ينْهبون أَمْوالَ المسلمينَ، وَيُفْسدون نِسَاءَهم، وَنهبُ أموالِ المُسْلمينَ وإِفسادُ النِّساءِ أَعظمُ مِن شُربهِمْ لِلخمرِ؛ لأنَّ مَفسدةَ شُربهِمْ لِلخمرِ لَا تَتَعدَّاهم، وَمفسدةُ نهبِ أَموالِ المُسْلمينَ وَإِفسادِ نِسائهِمْ تَتَعدَّاهم، والضَّررُ القاصرُ عَلى فَاعلِهِ أَهونُ منَ الضررِ المتَعدِّي لِغيرِه، وهذَا منْ حكمةِ شَيخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المهمُّ أَنَّه يُشترطُ أَلَّا يَـزولَ المنكرُ إِلَى مَا هُو أَنكرُ منهُ.

فإنْ قيلَ: هلْ يُشترطُ أنْ يكونَ الآمرُ بِالمعروفِ فَاعلًا لَه، والنَّاهي عَنِ المنكرِ مُجتنبًا لَه؟

قُلنا: لَا يُشترطُ هذَا؛ لأَنَّنا لَو اشترَطنا هذَا لَم يَقمْ أمرٌ بِمَعروفٍ ولا نهيٌ عَن مُنكرٍ؛ لأَنَّه مَا مِن إِنسانٍ إِلَّا وعندهُ إِخلالٌ بِمعروفٍ، أو فِعْلٌ لِمنكرٍ، كلُّ بَنِي آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخطائينَ التَّوابونَ، فنقولُ: يَجبُ الأَمرُ بِالمعروفِ وإِن كُنتَ لَا تفعلُ، والنَّهيُ عَنِ المنكرِ وإِنْ كُنتَ تَفعلهُ؛ لأَنَّكَ لَو تَركتَ الأَمرَ بِالمعروفِ وأنتَ لَا تَفعلهُ تَركتَ مَأمورينَ، وهمَا: فِعلكَ، وأمركَ، ولَو أمرتَ وأنتَ لَم تَفعلْ لَتركتَ مَأمورًا

وَاحدًا، وكَذَلك نَقول فِي المنكرِ: لَو تَركتَ النَّهيَ عَنِ المنكرِ وأنتَ تَفعلُ المنكرَ لَوقعتَ فِي نهيينِ، وهُما: عدمُ الإنكارِ، وفعلُ المنكرِ، ولَو أَنكرتَ مَع فعلكَ لِلمنكرِ وَقعتَ فِي مُنكرٍ واحدٍ: وهوَ: فعلكَ لِلمنكرِ، والإِنْسانُ عَليهِ أنْ يَقومَ بِالوَاجِبِ بِقدرِ مَا يَستطيعُ، وأنْ يَدعَ المنكرَ بِقدرِ مَا يستطيعُ.

المهمُّ أنَّ الأمرَ بِالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المنكرِ، داخلٌ فِي قولهِ تَعَالَى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، فَانظرْ إِلى هذهِ الكلمَةِ، جُملةً واحدةً وَتَستوعبُ مُجلداتٍ، وَفَهْمي بِالنسبةِ لِكتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَ بِشيءٍ، المهمُّ أنَّ هذهِ الإِقامةَ لِلدِّين تَشملُ إِقامةَ الدينِ فِي نفسِ الإِنْسانِ، وإِقامةَ الدينِ مَعَ غَيرِه، فَتشملُ صَلاحَ الفردِ، وصَلاحَ الأمةِ جَميعًا.

والدِّينُ كلُّ مَا يَدينُ بهِ النَّاسُ لِربهمْ عَزَّوَجَلَّ، فَيشملُ مُهمَّاتِ الإِسْلامِ، وأصولَ الإِسْلامِ، ومَا دُونَ ذَلك فِي الإِسْلامِ، كلُّ هذَا نحنُ مَأمورونَ بِإِقامتهِ؛ إمَّا عَلى سَبيلِ الوجوبِ، وإمَّا عَلى سبيلِ الاستحبَابِ، حسبَ هذهِ الشَّعيرةِ الَّتي نُريدُ أَن نُقيمَها.

وأمَّا قولهُ: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣] فَالمعْنَى: لَا تَتفرَّقوا فِي دِينِ اللهِ، والتفرقُ فِي دينِ اللهِ هوَ الذِي مزَّقَ الأمةَ الإِسْلاميَّةَ، وَجَعَلها دُويلاتٍ، وَجَعَلها أَحزابًا، كلُّ حِزبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحونَ، والتَّفرقُ فِي الأمةِ الإِسلامُ تفرقٌ فِي الأصولِ، وتَفرقٌ فِي الفروعِ، والتَّفرقُ فِي الفروعِ تَفرُّقٌ فِي أُصولِ الفُروعِ، وفِيما دُونَ ذَلكَ، وكلُّ هذَا مِما نُهيَ عنهُ أَنْ نَتفرقَ فيهِ، هذهِ الأمةُ أَخبرَ نَبيُّهَا ﷺ أنَّها سَتفترقُ عَلى ثَلاثٍ وَسَبعينَ فِرقةً، كلها فِي النَّارِ إِلَّا وَاحدةٌ، وهِي مَن كَان عَلى مِثلِ مَا عَليهِ النَّبيُّ ﷺ

وأَصْحابه(١)، وإذَا نَظَرنا إِلَى الأمةِ الإِسلاميَّةِ وَجَدْنا فِيها التَّفرقَ كثيرًا، فِي الأصولِ وَفِي الفُروعِ، حتَّى فِي الَّذينَ يَنْضمُّون تَحْتَ لِواءٍ واحدٍ، قَد نَجدُ مِنْهمُ التَّفرقَ؛ وذَلك لِضعفٍ فِي دِينهمْ، وقلةٍ فِي بَصِيرتهم، نَجدُ مثلًا مِن أَهلِ السنةِ المنتسبِينَ للسُّنةِ -وأهلِ السُّنةِ همُ الَّذينَ يَتَّبعون طَريقةَ السَّلفِ فِي أُصُولهم وفُرُوعهم- نَجدُ أنَّ بَيْنهمُ اختلافًا حَدَثَ فِي مَسائلَ خَفِيفةٍ لَا تُعدُّ مِن أُصولِ الدينِ، ومَع ذَلك يَجْعلون مِنْ هَذا الاختلافِ تفرُّقًا وَاختلافًا فِي القُلوبِ، معَ أنَّ اللهَ تَعَالى نَهاهمْ عَن ذَلكَ.

نسأَلُ اللهَ تَعَالى أنْ يَجمعَ شَملَ المسلِمينَ، وأنْ يُوحدَ كَلِمَتهم.



---

(١) أخرجه أحمد (٨/ ٣٠١ رقم ٨٣٧٧)، وسنن الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم (٢٦٤٠).

الدَّرس الثَّالث:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبيِّين، وإمَام المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابِه ومَن تَبِعَهم بِإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، **أَمَّا بَعْدُ:**

فقد قال تَعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠].

قولُه تَعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾؛ أَيْ إِذَا أساءَ إِلَيْكَ شَخصٌ، فلك الحقُّ أَنْ تسيءَ إِليه بمثل مَا أساء إِليك، فَإِذَا ضربكَ عَلَى ظهرك مرةً، فاضربه عَلَى ظَهرِه مرةً، وهَذِهِ بِهَذِهِ، فإِنْ ضربتَه مَرَّتَيْنِ فقدِ اعتديتَ عَلَيْهِ، وإِنْ لَم تضربْه فقد عفوتَ، وَإِذَا قَالَ لك: يَا بهيمةُ، فقلت له: يَا بهيمةُ، فقد جَازيته سيئةً بمثلها، وإِن قلتَ له: يَا حمارُ، فقد اعتديتَ عليه؛ لأَنَّ البهيمة أخفُّ مِنَ الحمار.

فقد تكونُ البهيمة بعيرًا، وَالبعيرُ مِنَ الحيوان الطيب، لَكِنِ الحمارُ مِنَ الحيوان النجِس؛ كَمَا جَاء فِي الحَدِيث الَّذِي رواه أنسُ بنُ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ أبا طلحةَ أَنْ يُنادِيَ فِي النَّاس يومَ خيبر: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ**»[1]؛ أَيْ نَجِس.

وإِذا قَالَ: لعنَك الله، فتقول لَهُ بَلْ لعنَكَ اللهُ أنت، لأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾.

مسائلُ:

الأُولى: لو أَنَّ شخصًا جنَى عَلَى إِنْسَان فقطع يده، فَهَلْ نقطعُ يدَ القاطع إِذَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب التكبير عند الحرب، رقم (٢٧٨٥).

تمت شروطُ القَصاص؟ وهل نقطع رجلَه لَوْ فرضنا أَنَّ يده الَّتِي تماثل يدَ المقطوع غيرُ موجودة؟

الجَوَابُ: نعم، تُقطع يدُ القَاطِعِ، ولكنْ لَا تُقطع رجله لَوْ فرضنا أَنَّ يدَه الَّتِي تماثل يد المقطوع غيرُ موجودةٍ؛ لأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾.

الثَّانيةُ: لَوْ أَنَّ شخصًا قتلَ إِنْسَانًا مَعَ التَّمثيلِ به؛ فقطع أولًا يديه ثُمَّ رجليه ثُمَّ رأسَه، فَهَلْ نفعلُ بِهِ كَمَا فعل؟

الجَوَابُ: نعمْ، نفعلُ بِهِ كَمَا فعل نقطَع يدَيْه، ثُمَّ رجليه، ثُمَّ رأسَه؛ لأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، فَإِذَا كَانَ هَذَا الجَانِي قَدْ مَثَّلَ بالمجني عَلَيْهِ، فإِنَّنا كَذَلِكَ نُمَثِّلُ به؛ لأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾، وَلِهَذَا قَام يهوديٌّ فِي المدينةِ إِلَى جَارِيَة مِنَ الأنصار فقتلها بِأَنَّ رضَّ رأسَها بينَ حجرَيْن، «فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُرَضَّ رَأْسُهُ بِالحِجَارَةِ»[1].

قولُه تَعَالَى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ من عفا عمَّن أساءَ إِليه ﴿وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، وَإِذَا كَانَ أجرُه عَلَى اللهِ فَإِنَّهُ سيكُونُ أعظمَ ممَّا لَوْ كَانَ الأجرُ من سيئات هَذَا الجَانِي؛ لأَنَّ الجَانِي لا بُدَّ أَنْ يُقتصَّ منه، إِمَّا فِي الدُّنْيَا، وإِمَّا فِي الآخرةِ إِذَا لم يعفُ صَاحبُ الحق، فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنۡ عَفَا﴾؛ يَعْنِي عمَّن أساءَ إِلَيْهِ ﴿وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وَهَذَا قيدٌ مهمٌّ يتبيَّن بِهِ أَنَّ العفوَ لَا يَكُون خيرًا إِلَّا إِذَا كَانَ مصحوبًا بالإِصلاحِ، أَمَّا لَوْ كَانَ غيرَ مصحوبٌ بالإِصلاح فَإِنَّهُ لَيْسَ بخير.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص، باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر، رقم (٣١٧٤).

وعَلَى هَذَا فَإِذَا جنَى شخص معروفٌ بالشرِّ عَلَى إِنْسَان، فليسَ مِنَ الحكمة أَنْ يُعفوَ عَنْ هَذَا الشَّخصِ المعروف بالشرِّ؛ لأَنَّ هَذَا العفوَ لَا يَكُون بِهِ إِصلاحٌ، فرُبَّما إِذَا عفا عَنْ هَذَا الشَّخصِ المعروفِ بالشَّرِّ، يتعدى شرُّه إِلَى مَا هُوَ أكبرُ وأعظَمُ.

ولو أَنَّ شخصًا معروفًا بالخيرِ، ولكن لسببٍ مَا اعتدى عَلَى شَخْصٍ، فنقولُ: إِنَّ العفوَ هُنَا مطلوبٌ؛ لأَنَّ العفوَ هُنَا إِصلاحٌ؛ فإِنَّ هَذَا الرَّجلَ المعروفَ بالاستقامة وعدمِ العدوان إِذَا عُفِيَ عَنْهُ كَانَ فِي هَذَا تشجيعًا لَهُ عَلَى الخُلُقِ الفَاضلِ الَّذِي هُوَ ملتزمٌ به.

ومما يجبُ التنبُّهُ لَهُ مسألةٌ تقعُ كثيرًا فِي حوادث السياراتِ، فيحدُث مِنَ الرَّجلِ حَادث بسبب تهورِه وعدمِ تقيدِه بِمَا يجبُ أَنْ يُتقيدَ به، وَهُوَ معروفٌ بالتَّهور وعدمِ المبالاة، فَإِذَا حصلَ مِنْهُ الحَادثُ نجد بعضَ النَّاس يفزعُ إِلَى صَاحبِ الحقِّ يطلبُ مِنْهُ العفوَ عَنْ هَذَا الجَاني، وَرُبَّما يَكُونُ مِنَ المجني عَلَيْهِ عَاطفةٌ تستوجِبُ أَنْ يَسمحَ عَنْ هَذَا الجَاني، فَفِي هَذِهِ الحَال لَيْسَ مِنَ الحكمة أَنْ يَطلبَ مِنْهُ العفوَ؛ لأَنَّهُ معروفٌ بالتَّهور وعَدمِ المبالاةِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ نشفعَ له، بَلْ نأخذَ مِنْهُ بالحَقِّ وَافيًا، حَتَّى لَا يعودَ لمثلِ هَذَا؛ لأَنَّهُ رجلٌ لَوْ عفونا عَنْهُ وسمحنا عَنْهُ فِي هَذِهِ المرَّة، فَإِنَّهُ سَوْفَ يرجِعُ ويفعلُ مثلما فعلَ أولًا، وَالدِّينُ الإِسْلَاميُّ دينُ حزمٍ، وَلَيْسَ دينَ ضَعفٍ ورقَّة تخرُجُ عَنِ الحكمة.

فَإِذَا اقتضى اللِّينُ أنْ يَكُونَ حكمةً، فحينئذٍ يَكُون مأْمُورًا بِهِ، وَإِذَا كَانَ الأمرُ بالعكسِ فَإِنَّهُ لا يَكُونُ مأْمُورًا به، وَلهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٢]، فنهى اللهُ تَعَالَى أَنْ تأخذَنا الرأفةُ

بالزَّاني وَالزَّانية فِي دينِ اللهِ مَعَ أَنَّ الرأفةَ مطلوبة، وَقَدْ أثنى اللهُ عَلَى رَسولِه مُحُمَّد ﷺ بِأَنَّهُ بالمُؤْمِنِينَ رءوفٌ رَحيمٌ، لَكِنِ الرأفةُ فِي غير محَلها غيرُ مطلوبةِ، وَلهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النور:٢]، وقَالَ تعَالَى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨].



الدَّرس الرَّابع:

الحَمدُ لله رَبِّ العَالمِين، وأُصلِّي وأُسلِّم عَلى نَبيِّنا مُحمَّد خَاتم النَّبيِّين، وإمَام المُتَّقينَ، وعَلى آلِه وَأصحَابه ومَن تَبِعَهم بإحسَانٍ إلَى يَوم الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَعالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أَيْ: مُلكُ أَعْيانها فَلَا يَمْلك أَحدٌ شَيئًا منَ السَّماواتِ والأرْضِ إلَّا اللهُ، وأَيْضًا لهُ مُلك تدبيرِ شُؤُونها فَمن يُصرِّفُ الرِّياحَ؟ ومنْ يَأتي بِاللَّيْلِ؟ ومَن يَأْتي بالنَّهارِ؟ ومنْ يَأْتي بالحَرِّ؟ ومنْ يَأْتي بالبردِ؟ ومنْ يَأْتي بالسِّلْمِ؟ ومنْ يَأْتي بِالحربِ؟ ومَن يَأْتي بالغِنَى؟ ومنْ يَأْتي بالفَقْرِ؟ ومن يَأْتي بالمرضِ؟ ومَنْ يَأْتي بِالصِّحةِ؟ كُلُّ ذَلك لله عَزَّوَجَلَّ.

إذَنْ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ مُلكٌ عامٌّ؛ لِأَنَّ المُلكَ قد يَكُون ملك أعْيَان دُون تَدْبيرٍ، وقَدْ يَكونُ مُلكَ تَدْبير دونَ أعيَانٍ، فالمسْتَأجرُ يَمْلك عَينَ الدَّارِ وَلَا يملكُ التصرفَ فِي مَنْفَعتها، ومالِكُ الدَّارِ حِينَ تَأْجيرهَا يملكُ عينَ الدَّارِ دُونَ تَدْبيرهَا ومَنْفعتهَا، أَمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فهو مَالكٌ لِلأعيانِ وَللتَّصرفِ فِيهَا.

وَفِي تَقْديم الخبرِ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إفَادةُ الحصرِ، يَعْني: أَنَّ مُلك السَّماواتِ وَالأرْضِ للهِ دُونَ غَيرِه، فَهُو جَلَّوَعَلَا يفعلُ مَا يَشاءُ فِي جَميعِ خَلقهِ.

قَولُهُ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أَيْ: يَخلقُ مَا يَشاءُ مِنْ إنسٍ وَجِنٍّ، وَمَلائكةٍ، ودوابٍّ، وَوُحوشٍ، وغَيْرهِمْ.

ومِنْ جُمْلةِ خلقهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أفعالُ المخلوقَاتِ، فَأَفْعالُ المخلوقاتِ خَلْقٌ للهِ، صَلاةُ الإِنْسَانِ مَخْلوقةٌ للهِ، حَجُّ الإِنْسَانِ مَخلوقٌ للهِ، صيَامهُ مَخْلوقٌ للهِ، وجميعُ صفاتِهِ وَأَفعالهُ مَخْلوقةٌ للهِ؛ لِأَنَّ أَصْلها مَخْلوقٌ والفرعُ يَتْبَعُ الأصلَ، فالإِنْسَانُ يَفْعَلُ وَيَتحركُ ويسكنُ، يَنام وَيَستيقظُ، كُلُّ هَذَا مَخْلوقٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ نَفسهُ مَخلوقٌ، ومَا تَفرعَ عنهُ منَ الأفعالِ مَخلوقٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

فيَدخلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أَعْيانُ المخلوقَاتِ، وأَوصافُ المخلوقَاتِ، وأفعالُ المخلوقَاتِ، خلقُ الآدميِّ عَلَى هَذَا الوجهِ الَّذِي هُوَ أَحْسنُ تقويمٍ، وخَلقَ الحيوانَاتَ الأُخرى عَلَى ما تَقْتَضيهِ حِكمتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَهُوَ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾، ومنْ حِكْمتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَهبُ لِمَنْ يَشاءُ إناثًا، ويهبُ لمنْ يَشاءُ الذُّكورَ، أَوْ يُزَوجهُمْ ذُكْرانًا وإناثًا، ومِنْهم مَن لَا يَهبه لَا ذكورًا ولا إناثًا؛ لِأَنَّ الأمْرَ أمرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ الَّذِي يَهَبُ مَنْ يَشاءُ مَا يشاءُ.

وقدْ يَسْتَدلُّ الكفرةُ ومُقلدوهمْ عَلَى أَنَّ النِّسَاءَ مُقدَّمونَ عَلَى الذُّكورِ، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾، فاللهُ قَدَّم الإناثَ، وَقَالَ المُقَدِّمونَ لِلإناثِ: نَحنُ إِذَا قُلْنَا: سيِّدَاتي وسَادَتي، فإِنَّنا وافقنَا القُرْآن حيثُ قدَّم الإناثَ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾؟

والجَوَابُ: أنَّ مِنْ حكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ جَعل فِي مَخْلوقاتِه وَكَلَماته أشياءَ مُشْتبهةً، أَلم تَعْلموا أَنَّ اللهَ يُقدِّر الزَّلازلَ، ويُقدِّر الفَيَضاناتِ، ويُقدِّر العواصِفَ، وهيَ ضَارةٌ لِبَعض الخلقِ، لكنَّ لها نفعًا عظِيما أكثر مِمَّا تَضُرُّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ

وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم:٤١]، كَذَلك فِي آياتهِ الشَّرْعِيَّةِ هُناك آياتٌ مُشْتبهات يَحْتجُّ بِهَا أهلُ الباطلِ عَلَى بَاطلهمْ، فَماذا نُجيب هَؤُلاءِ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ النِّسَاءَ عَلَى الرِّجَالِ؟

الأمرُ فِي هَذَا سهلٌ جدًّا، فَنَقولُ: يَجِبُ أنْ نَعلمَ أنَّ كتابَ اللهِ لا يَتَناقضُ، وفِي كتابِ اللهِ منْ تقديمِ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ الشيءُ الكثيرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] إِلَى آخِرِ الآيةِ، بَلْ أكثرُ خطاباتِ القُرْآنِ مُوجهةٌ لِلرجالِ فقطْ؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ تبعٌ، وإذَا ذُكِر الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ قُدِّمَ الذكورُ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:١٩٥]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، فكيفَ يُشبِّه علَيْنا هَذَا المشبِّهُ بهَذِهِ الآيةِ مَعَ أنَّ الآياتِ الكثيرةَ تُقدِّمُ الرِّجَالَ، بَلْ فِي كثيرٍ منَ الآياتِ ذُكِرَ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ، بلْ قَاصمة ظَهر هَذَا الرَّجل قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النِّساء:٣٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وَالحكمةُ فِي أَنَّ اللهَ بدأَ بِالإناثِ قبلَ الذُّكورِ فِي هَذِهِ الآيةِ؛ لِأَنَّ الإناثَ عنْدَ العربِ مَكروهاتٌ، حَتَّى إنَّ الرَّجلَ إذا بُشِّرَ بِالأنثَى ظَلَّ وجههُ مُسودًّا كَما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ [النحل:٥٨-٥٩] يَختبئُ منَ القومِ، يَختبئُ ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾، فَأَرَادَ اللهُ أنْ يُبينَ أنَّ الأمرَ لَيْسَ إلَيْكم حَتَّى تَختارونَ مَا شئتمْ، فبدأَ بِما يَكرهونَ حَتَّى يُبيِّن أَنْ خلقَ اللهِ للشَّيءِ يَكونُ رُغْمًا عَلَى أنوفهمْ، فبدأَ بالإناثِ.

وقدْ يشتبهُ عَلَى بعضِ النَّاسِ أنْ تقديمَ ذِكرِ الإناثِ يَعْني تَقْديمهنَّ، قالَ: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ وَلَم يَقُل: (ذُكورًا)، فَأَتى بـ(أَل) الدَّالةِ عَلَى شرفِ المقامِ، وعَلَى أنَّ الذكورَ هُمُ المحبوبُونَ إِلَى النَّاسِ: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾، يَعْنِي: لَو أنَّ إِنْسَانًا قرأَ الآيَةَ يَقُولُ: مَا تَطَابقتْ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، وكانَ مُقْتضى اللَّفظِ أنْ يُقالَ: «وَيهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ ذُكُورًا» لَكنْ قالَ: «الذكور»؛ لِأَنَّ الذُّكورَ همُ المقصودُونَ؛ وَلهَذَا دَخلتْ أَل الَّتِي لِلتَّعريفِ عَلَى الذُّكورِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾، فإذَا كَانَ الإِنْسَانُ عَقِيمًا، سَواءٌ كَانَ ذكرًا أو أنثَى، فَالوَاجِبُ أنْ يَرْضَى بِقَضاءِ اللهِ، وَأَنْ يَقُولَ: لعلَّ مَا حَدث هُوَ الخيرُ؛ لِقولِ اللهِ تَعالَى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:١٩]، وَلَم يَقُلْ: (فَإنْ كَرِهْتموهنَّ فعَسى أَنْ تُكْرهوهنَّ وَيَجعلَ اللهُ فِيها خيرًا كَثيرًا) قَالَ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا﴾ أي شيء، ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وهَذَا واقعٌ.

دَائمًا نُريدُ شَيئًا ثمَّ لَا يَتيسرُ وَيَحصلُ شَيْءٌ آخرُ، وتكونُ العَاقِبَةُ الحميدَةُ فِيمَا تيسر لَنَا، واعتبرَ هَذَا بِمَا يَجْرِي علَيْك منْ يَوْميَّات أَوْ أسبوعيَّاتٍ أو شهرياتٍ، فَنقولُ: ارضَ بِقضاءِ اللهِ وقدرِهِ، وعسَى أَنْ يَكونَ هَذَا خيرًا، فرُبَّما يُولد لَك ولَدٌ يَصيرُ عِلةً عليكَ، وعلَى مُجْتمعهِ، كَمَا أَنَّهُ يُمكنُ أَنْ يَكونَ خيرًا لكَ وَلِلْمجتمعِ، لكنَّ حكمةَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنهَا مَا يُعلَم، ومِنْها مَا لا يُعلمُ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ عَلِيمٌ بكلِّ شيءٍ؛ لِأَنَّ منَ القواعِدِ المقررَةِ عندَ

عُلَماءِ البلاغَةِ أَنَّ حذفَ المعمولِ يُفيدُ العمومَ، ومِنْه قَولُ اللهِ تَعَالَى لِرَسولِهِ ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى:٦] وَلَم يَقلْ: (فَآوَاكَ)، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧] وَلَم يَقُلْ: (فَهدَاكَ)، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨]، ولَم يَقُلْ: (فَأَغْنَاكَ)؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَصَل إيواؤُه بِنَفسه، وَحَصل بهِ إيواءٌ مَن آمَنَ بهِ، أيضًا حصلَ بِهَذا الوحيُ العظيمُ الَّذِي أَوْحى اللهُ إِلَيْه الهدايَةَ التَّامَّةَ لَهُ ﷺ وهِدَاية غَيْره.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يَعْني: جاهِلًا لَا تَعْلَم، فعلمكَ، كَما قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النِّساء:١١٣] علَمه، وهدَاه وهَدَى به، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، أغْناه وأَغْنى بِهِ، وانظُر لِلْغنائمِ الكثيرَةِ الَّتِي حَصَلت فِي التَّمَسُّكِ بِشَريعةِ النَّبِيِّ ﷺ.

فالقاعدَةُ أَنْ حذفَ المعمولِ يُفيدُ العمومَ. إِذَنْ، إنَّه عَلِيم بِكُل شَيءٍ، قَديرٌ عَلَى شَيءٍ، قَدِيرٌ يَفعلُ الشَّيءَ بِلَا عجزٍ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، وَمِنْ قُدرتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّه قَالَ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧] يَعْني: بَلْ هُوَ أَقْرب، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

عندَ قِيامِ السَّاعَةِ يَأمرُ اللهَ تَعَالَى مَنْ فِي بَاطِنِ الأَرْضِ أَنْ يَخْرجُوا، فَيَخْرجوا فِي لَحْظَةٍ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازعات:١٣-١٤].

إِذَنْ، قَديرٌ لَا يُعجزهُ شَيْءٌ مَهما كَانَ صعبًا: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١].

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ هَذِهِ ثَلاثُ صفَات فِي تَكْلِيمِ اللهِ تَعالَى لِلبشرِ: ﴿وَحْيًا﴾ وهوَ مَا يُلْقِيهِ فِي رَوْعِ الرَّسُولِ، ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، كَكَلامِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم ليلةِ المعراجِ، وكَذَلكَ كَلامُ اللهِ تَعالَى لمُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليلةَ الطُّور، هَذَا كلامٌ، لَكنْ مِن وَرَاء حِجابٍ؛ لِأَنَّ البَشَرَ لَا يُمْكن أَنْ يَروا اللهَ فِي الدنيَا أبدًا، وَلَما قَالَ مُوسَى لِرَبِّه عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ قَالَ له: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ يعني: لَا يُمْكن أَنْ تَرانِيَ فِي الدُّنيَا، ثُمَّ قَالَ اللهُ له: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ فنظرَ إِلى الجبلِ، فَلَمَّا تَجلى اللهُ لِلْجَبل جعلهُ دكًّا لِعَظمة اللهِ، فَما بَالكَ بِالبشرِ! وَلهَذَا لَم يَتحمَّل مُوسَى أَنْ يَنظرَ إِلى الجبلِ فضلًا عنِ النظرِ إِلَى اللهِ، فَلَما رَأَى مُوسَى الجبلَ مُنْدَكًّا خرَّ صَعقًا، قَالَ تَعالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾: ﴿عَلِيٌّ﴾، فَوق كُلِّ شَيءٍ، فِي ذاتِه، وفِي صِفَاتِه.

﴿حَكِيمٌ﴾ جميعُ أَحْكامهِ مَبنيَّةٌ عَلَى الحكمَةِ، وَلَهُ الحكمُ المطلقُ فِي شُؤُون خَلقهِ التَّشريعيَّة وَالتَّدْبيريَّة، وله الحكمةُ فِي كُلِّ مَا فَعل، وفِي كُلِّ مَا شَرع، وفِي كُلِّ ما خَلَق.

وقَد تُشْكِلُ علَيْنا بعضُ الأَشْياء فِي الأُمور الشَّرْعِيَّة، تُشْكِلُ علَيْنا حِكْمتهَا،

وإذَا أُشْكِلت الحكمةُ، فالوَاجِبُ علَيْنا التَّسليم، وأنْ نَعْلمَ أنَّ مُجردَ الحكمِ الشَّرْعِيِّ حِكْمَةٌ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة:٥٠] مُجَرد مَا يَثْبتُ الحُكْم الشَّرْعِيُّ بالتحليلِ أَوِ التَّحريمِ أَوِ الإيجابِ، نَعْلمُ أَنَّه حكمةٌ.

ومنْ فِقهِ الصَّحَابَةِ: أنَّ امرأَةً سألَتْ أُمَّ المؤمنينَ عَائشةَ، فَقالتْ: مَا بَالُ الحَائضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ وكانَ مُقْتضى العقلِ المَبْني عَلَى بَادئِ الرَّأيِ، أَنْ تُقضَى الصَّلَاةُ؟ فَانظرْ إِلَى جَوابِ أُمِّ المؤمِنينَ عَائشةَ، وهِيَ مِنْ أَفْقهِ النِّسَاءِ فِي دِينِ اللهِ، ومنْ أَعْلَم النِّسَاءِ، وتفُوقُ كَثيرًا منَ الرِّجَالِ فِي الفقهِ، ويَرجِعُ كثيرٌ منَ الصَّحَابَةِ إلَيْها فِي الفقهِ.

قالَتْ لِلسائلَةِ: «كنَّا يُصيبنَا ذَلكَ، فنُؤمَر بِقضاءِ الصَّوْمِ ولَا نُؤمرُ بِقَضاءِ الصَّلَاةِ»[1]، يَعْني: يَأْمرهَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقضاءِ الصَّوْمِ، وَلَا يَأْمرهَا بِقَضاءِ الصَّلَاةِ، وكَفَى بِذَلك حِكمَةً.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصَّلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الحائض الصوم، رقم (٣٣٥).

الدَّرس الخَامس:

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نَبِيِّنا محمدٍ، وعلى آلِهِ وأصْحَابِهِ ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٤٩] أي للهِ وحدَه مُلْكُ السَّماواتِ والأرْضِ، مُلْك أعيانِها، ومُلْكُ التصرف فيها، فلا أحَدَ يَمْلِكُ منها شيئًا معَ اللهِ، ولا أحَدَ يُدبِّرُ منها شيئًا معَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قال اللهُ تَعالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]، فهم لا يَمْلِكون على وَجْهِ الانفرادِ، ولا على وَجْهِ المشاركةِ، ولا على وَجْهِ المُعاونةِ، للهِ وحدَه مُلْكُ السَّماواتِ والأرْضِ.

فإذا قال قَائِلٌ: بم عرَفْنَا هذا الاختصاصَ والحَصْرَ؟ فالجوابُ أنه قَدَّم فيهِ الخَبَرَ ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ﴾، والخَبرُ حَقُّه التأخيرُ، وإذا قُدِّمَ في الجُملةِ ما حَقُّه التأخيرُ كانَ ذلك دَليلًا على الاختصاصِ، كما في قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، المعْنَى لا نَعْبُدُ إلا إياكَ، ولا نَستعِينُ إلا إياك، ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو مَالِكُ السَّماواتِ والأرْضِ، مالك أعيانِها ومالكُ التَّصرُّفِ فيهما جَلَّ وَعَلَا.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٤٩] مِن ذَوِي الحيَاةِ، ومن الجماداتِ، ومن البحارِ والأنهار والنجوم وغيرِ ذلك، كلُّ ما شاءه فإنه يخلُقُه لأنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلاق:١٢] أي من الأرْض

سبع أَرَضين ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطَّلاق:١٢] أي بينَ السَّماواتِ بعضِها معَ بعضٍ وبينَ الأَرَضين بَعْضِها مع بعضٍ وبينَ السَّماءِ والأرْضِ، ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطَّلاق:١٢]، يعني أخبرناكم بذلك ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطَّلاق:١٢]، إذن يَخْلُق ما يَشاءُ من ذوي الأرواحِ والجمادات والأفلاك والأرْضين وكل شيء، كل ما شاء فإنه يَخْلُقُه لكمالِ قُدْرتِه عَزَّوَجَلَّ.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾[الشورى:٤٩] الهِبَةُ يعني العَطِيَّةُ، يعني يَهَبُ لمن يشاء من عِبادِه إناثًا، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى:٤٩-٥٠]، أي يَجْعَلُهم صِنْفين ذُكورًا وإِناثًا ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى:٥٠] فهذه أربع أصناف:

الأول: أن يَهَبَ للإِنسانِ إناثًا خُلَّصًا ما فيهم ذَكَرٌ.

الثَّاني: أن يَهَبَ له الذُّكورَ خُلَّصًا ليس فيهم إِناثٌ.

الثَّالث: أن يَجْعَلَ له صِنْفين ذُكورًا وإِناثًا.

الرَّابع: أنه يجعلُ مَن يَشاءُ عَقِيمًا، لا يُولَدُ له، سواءٌ من الإناثِ أو من الذُّكورِ.

ولا يَخْرُجُ الخَلْقُ عن هذه الأَصْنافِ الأربعةِ، إما ذُكورٍ خُلَّصًا أو إِناثٍ خُلَّصًا أو مزدوجين من هذا وهذا، أو عَقِيمِينَ، بَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ذلك وهو مَعْلومٌ بالمُشاهَدةِ حتى يَعْلَمَ النَّاسُ أنَّ الأمرَ كُلَّه بيدِ اللهِ، فكم من إِنْسانٍ يَتَمَنَّى الذُّكورَ ولا يَحْصُلون، وكم من إِنْسانٍ يَتَمَنَّى الإناثَ ولا يَحْصُلْن، وكم من إِنْسانٍ يَتَمَنَّى أن يُولَدَ له، ولكن لا يُولَدُ له!

ولا يُمْكِنُ لأَحَدٍ أن يُغَيِّرَ خَلْقَ اللهِ مِن ذَكَرٍ إلى أنثى، ولا من أنثى إلى ذَكَرٍ؛ لأن

هذا من اختصاصِ الرُّبوبيةِ، رُبوبية اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يَخْلُقُ ما يَشاءُ، ثم فَصَّلَ فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

ويندرج تحتَ هذه المسْألَةِ مَسائِلُ:

أولا: يَنْبَغِي للإِنْسانِ أن يَخْتارَ من الأسماءِ ما هو أفضلُ وأطيبُ وأنسبُ للزَّمَنِ الَّذي هو فيه، فلنبدأ بأسماءِ الذُّكورِ، «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»(١) فسَمِّ ولَدَكَ بعَبْدِ اللهِ، ثم ثَنِّ بعَبْدِ الرَّحْمنِ، فإن ذلك أَحَبُّ الأسماءِ إلى اللهِ. وقد اشتهر عندَ العوام هذا المعْنَى بلفظِ: «خَيْرُ الأَسْمَاءِ مَا حُمِّدَ وَعُبِّدَ»(٢)، وهذا ليسَ بصحيحٍ، هذا حديثٌ موضوعٌ، لا يَصِحُّ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم، والصَّحيحُ: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»، فسَمِّ أَوَّلَ وَلَدٍ عَبْدَ اللهِ، والثَّانِيَ عَبْدَ الرَّحمنِ، ثم اخْتَرْ، وكلُّ ما كان الاسمُ مُضافًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في العُبوديةِ فهو أَفْضَلُ من غَيْرِه، كعبدِ الرَّحيمِ، وعبدِ الوهابِ، وعبد الكريمِ، وعبد الغني، وما أشبه هذا، وإياكَ أن تُسَمِّيَ بأسماءَ الفَراعنةِ، فإن القائل يقول(٣):

وَقَلَّ إِنْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ ... إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لَقَبِهْ

فلا تُسَمِّ ولدك بأسماءِ الفراعنةِ؛ لأنك لو سَمَّيْتَه بذلك لكان هذا اللباس مُؤَثِّرًا على اللابسِ، فيُخْشَى أن يكون في ولدك من أخلاقِ الفراعنةِ ما هو جَدِيرٌ به،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ومزيل الإلباس رقم (١٢٤٥). وقال: قال النجم: لا يعرف... وأقول: تقدم في الهمزة بلفظ: «أحب الأسماء إلى الله ما عبد وحمد»، وقال السيوطي: لم أقف عليه.

(٣) ذكره ابن القيم في زاد المعاد (٢/ ٣٣٦).

أو تُسَمِّيه بأسماءِ الشياطين مثل إبليس أو خَنْزَبٌ، فخَنْزَبٌ هذا شيطانٌ يأتي النَّاسَ في الصَّلاةِ يَفْتَحُ عليهم بابَ الوَسواسِ والهَوَاجس. فاحْذَر أن تُسَمِّيَ ولدَك بهذه الأسماءِ القَبيحةِ.

وكلُّ أسماءِ الأنْبياءِ -صلوات الله عليهم أجمعين- طَيِّبةٌ، مثل أَحْمد ومُحَمَّد وصَالِح وشُعَيب.

وبالنِّسبَةِ في الإناثِ كذلك اخْترِ الاسْمَ الَّذي يكونُ أطيبَ وأنسبَ للوقتِ الحَاضِرِ، وإيَّاكَ أن تُسَمِّيَ بأسماءَ قَبيحةٍ أو بأَسْماءَ خَاصَّةٍ بإناثِ الكُفَّارِ مثل إليزبيث وغيرِه من الأسماءِ الخَاصةِ بالكفارِ، لا تُسَمِّ بها؛ فالكفار لا حَياءَ فيهم ولا في أَسْمائِهم.

وَلْتكُن التَّسْميةُ حينَ الولادةِ، فحينَما يُولَدُ لك فَسَمِّ، وهذا إذا كُنْتَ مُهَيِّئًا الاسم، ويَدُلُّ لهذا أن النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم قال مُبَشِّرًا أهلَه: «**وُلِدَ لِيَ اللَّيْلَةَ وَلَدٌ وَسَمَّيْتُهُ إِبْرَاهِيمَ**»[1] على اسْمِ أَبِينَا إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالشَّاهدُ أنه سَمَّاهُ حِينَ وِلادَتِه، أما إذا كان الاسمُ لم يُهَيَّأ، فَلْتكُنِ التَّسْميةُ في اليومِ السَّابعِ، والسَّابعُ هو اليومُ الَّذي يَليهِ يومُ الولادة، فمَن وُلِدَ يومَ الجمعة فسَابِعُه الخميسُ، ومن وُلِدَ الخميسَ فسابعُه الأربعاءُ، فسَمِّه في اليومِ السَّابعِ.

فإن قِيلَ: هل اختيارُ الاسمِ يَرْجِعُ للأُمِّ أو يَرْجِعُ للأبِ، أو يقال: الذكورُ للأبِ، والإناثُ للأُمِّ؟ قلنا: اختيارُ الاسمِ يَرْجِعُ للأبِ، فإذا اختارَ له اسْمًا فليسَ لأَحَدٍ أن يُعارِضَه، لكن يَنْبَغِي للإِنْسانِ إذا أرادَ أن يُسَمِّي ولَدَه الذَّكَرَ أو الأُنْثى أن يَتشاوَرَ معَ أُمِّه؛ لأنَّ ذلك أَطْيَبُ لقَلْبِها وأقربُ لمَوَدَّتِها، وهي لها شيءٌ من الحَقِّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، رقم (٢٣١٥).

في الوَلَدِ، فلتكُنِ التَّسْميةُ باتِّفاقٍ من الطَّرَفَيْنِ.

ثانيًا: وهنا بَحْثٌ آخَرُ، العقيقةُ عن المَوْلودِ، وهي سُنَّةٌ مُؤَكَّدةٌ، حتى قال بعضُ العُلماءِ: إنها وَاجِبَةٌ. والعَقيقةُ هي ذَبيحةٌ تُذْبَحُ للمَوْلودِ يعني من أجلِ الوِلادةِ شُكْرًا للهِ عَزَّوَجَلَّ على النِّعْمةِ، للذَّكَرِ ثِنْتانِ وللأُنْثَى واحدةٌ تُذْبَحُ في اليومِ السَّابعِ، فإن فاتَ ففي اليوم الرَّابع عشر، فإنْ فاتَ ففي اليوم الحَادي والعشرين، ثلاثة أسابيع، فإن فاتَ ففي أيِّ يومٍ.

وتكون من الغَنَمِ الضَّأْنِ أو المَاعِزِ، ويَرَى بعضُ العُلماء أنها لا تكونُ من الإِبِلِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وسلَم قالَ: «**عَنِ الغُلَامِ شَاتَانِ مُكَافَأَتَانِ، وَعَنِ الجَارِيَةِ شَاةٌ**»[1]. فعَيَّنَ، والبعيرُ ليس شَاةً، فلو أنَّ الإِنْسانَ عَقَّ عن ابنتِه بناقةٍ وآخَرَ عَقَّ عن ابنتِه بشَاةٍ أيها أصحُّ؟ الَّذي عَقَّ بالشَّاةِ؛ لأنه أقْرَبُ للسُّنةِ، وإذا قُلْنا بجَوازِ العَقيقةِ بالبعيرِ، فهل يُجْزِئُ البعيرُ عن سبعةٍ أو لا يُجْزِئ إلا عن واحدٍ؟ فالجوابُ على هذا أنه لا يُجْزِئُ إلا عن واحدٍ، ومع ذلك فالشَّاةُ أفضلُ لأنها هي الَّتي وَرَدَ بها النصُّ.

وكيف يَعْمَلُ بهذه العقيقةِ؟ أَيَتَصَدَّقُ بها كلها أم يَأْكُلها كلها أم ماذا؟ نقول: تَصَدَّق وكُلْ؛ لأنها نَسِيكةٌ يُقْصدُ بها شُكْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فهي كدَمِ التَّمَتُّعِ، يُؤْكَلُ منه ويُهدَى ويُتَصَدَّق. فإن قال قائِلٌ: هل الأفضلُ أنْ أَتصدَّقَ بها نِيئَةً أو أن أَطْبُخَها وأتصدقَ بها مطبوخةً معَ طعامٍ؟

---

(١) أخرجه أحمد (١١/ ٣٢١، رقم٦٧١٣)، وأبو داود: كتاب الضحايا، باب في العقيقة، رقم (٢٨٣٤)، والترمذي: أبواب الأضاحي، باب ما جاء في العقيقة، رقم (١٥١٣)، والنسائي: كتاب العقيقة، رقم (٤٢١٢)، وابن ماجه: كتاب الذبائح، باب العقيقة، رقم (٣١٦٢).

قُلنا: الأفضلُ أن يُنْظَرَ ما هو أَنْفَعُ للفقيرِ، فإن كانَ يَنْفَعُه أن يَتصَدَّقَ بلَحْمِها نِيئًا فَعَلَ، وإن كان الأفضلُ أن يَتصَدَّقَ به مَطْبوخةً فعَلَ. ويَنْبَغِي أن تَعْزِم الجِيرانَ عليها حتى تُظْهِرَ هذه السُّنة الَّتي ربما تكونُ خَفِيَّةً على بعضِ النَّاسِ.

فإن سأل سَائِلٌ: هل يُشترَطُ في العقيقةِ ما يُشترَطُ في الأضحيةِ؟ يعني أن تبلغ سِنًّا مُعَيَّنًا وأن تخلو من العُيوبِ؟

قلنا: نعم، لا بُدَّ أن تَبْلُغَ السنَّ المُعتبرةَ شَرْعًا وأن تكونَ سَالِمَةً من العُيوبِ المانعةِ من الإجزاءِ، وهذا له مكانٌ مُعَيَّن في بسطِ الكلامِ عليه.

ثالثًا: ومما يتعلق بالمولود أنه في اليوم السَّابع يُحْلَقُ الرَّأْسُ، رأسُ الذَّكرِ يُحْلَقُ إذا وُجِدَ حَالِقٌ حَاذِقٌ؛ لأنَّ رَأْسَ الصَّبِيِّ لَيِّنٌ جِدًّا، فيُخْشَى إذا حَلَقَه مَن لا يَعْرِفُ أنْ يَشُقَّه، لذلك اطْلُب حَالِقًا حَاذِقًا يَحْلِقُ شَعَرَ الغلامِ، ويُتصدق بوَزْنِه فِضَّةً، وذلك كما ذَكَرْنا في اليومِ السَّابعِ.

رابعًا: ومما يَتَعَلَّقُ بالوِلادةِ أيضًا الخِتانُ، ويُسَمَّى عندَ النَّاسِ الطهارةَ؛ لأنه يُطَهِّرُ لا شَكَّ، الخِتانُ من الفِطْرَةِ كما قال النَّبيُّ -صلى الله وعلى آله وسلم-: «خَمْسٌ مِنَ الفِطْرَةِ»[1] وذكَرَ الخِتانَ، وهو مع ذلك مُفِيدٌ جِدًّا للمَخْتونِ حَاضِرًا ومُسْتقبَلًا، بالنِّسبَةِ للذَّكَرِ تُقَصُّ الجِلْدةُ الَّتي على الحَشَفَةِ حتى تَبْرُزَ الحَشَفَةُ؛ لأنَّ ذلك أَكْمَلُ في الطهارةِ، فإن هذه الجلدة لو بَقِيت صار يَتَبوَّلُ ويَحْتَقِنُ من بَوْلِه شيءٌ بينَ هذه الجِلْدةِ وبينَ الحشفةِ، ويَحْصُلُ بذلك أَذًى، ورُبما يحصل بذلك تَقَرُّح، والَّذين

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب قص الشَّارب، رقم (٥٥٥٠)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٧).

لا يختتنون كالنَّصارَى مثلا، تجد الوَاحدَ منهم يَتعب تعبًا عظيمًا، ورُبَّما حَصَلَ له تَورُّمٌ، وإذا سَلِمَ من هذا فإنه لا يَتَلَذَّذُ بالجِماعِ كما يَتلَذَّذُ مَن خُتِنَ، وهذا يَدُلُّ على كمالِ الشَّريعةِ الإِسْلاميةِ.

والخِتانُ على القولِ الرَّاجحِ واجبٌ في حقِّ الذكورِ، سُنَّةٌ في حقِّ الإناث، وهذا القولُ وَسَطٌ بينَ مَن يقول: إنه واجبٌ على الجنسين. ومَن يقول: إنه غيرُ واجبٍ على الجنسين. فالصَّوابُ التفصيلُ، وهو أنه واجبٌ في حقِّ الذكورِ، وليسَ واجبًا في حقِّ الإناثِ.

لكن متى يَكونُ الخِتانُ؟

الخِتانُ وَقْتُهُ مُمْتَدٌّ إلى البُلوغِ، إذا قارَبَ البُلوغَ وَجَبَ أن يَخْتَتِنَ؛ لأنه قبلَ ذلك غيرُ مُكَلَّفٍ، ولا تَجِبُ عليه الصَّلاةُ، ولكن يَقولُ العُلماءُ: إنه في زَمَنِ الصِّغَرِ أَفْضَلُ. وكذلك قال الأطباءُ، وذلك لسببين، السَّبب الأول: أنه أسرع بُرْءًا؛ لأنَّ نمو الطفل قويٌّ فيَبْرَأُ بسُرْعةٍ. والثَّاني: أن هذا الَّذي خُتِنَ وهو صَغِيرٌ لا يَتَأَلَّم قَلْبِيًّا، بخِلافِ ما إذا كان كبيرًا، فتَجِدُه يَتَأَلَّم قَلْبِيًّا ويُفكِّرُ، رُبَّما تَعْدُو الجُروح إلى أكثرَ مِن مَوْضِعها فيتألم قَلْبِيًّا، والصغيرُ لا يَتَأَلَّم قَلْبِيًّا إن أَوْجَعَه صاحَ، وإن سَكَنَ سَكَت، فهو في زَمَنِ الصِّغَرِ أَفْضَلُ.

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[الشورى:٥٠] فما كان من إناثٍ فبِقُدْرةِ اللهِ وعِلْمه، وما كان من ذُكورٍ فبقُدْرةِ اللهِ وعِلْمِه، وما كان من هؤلاء وهؤلاء فبقُدْرةِ اللهِ وعِلْمِه، وما لم يَكُنْ منه شَيْءٌ فبقُدْرةِ اللهِ وعِلْمِه.

فإن قال قَائِلٌ: هل يَجوزُ أن يَتداوَى الإِنْسانُ من العُقْمِ ؟

فالجوابُ: نَعَم، إذا عَلِمَ أنَّ العُقْمَ له سَبَبٌ محسوسٌ مَعْلومٌ يَعْرِفُه الأطباءُ، فلا حَرَجَ أن يُعالَجَ لإزالةِ العُقْمِ.

ثم قالَ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥١-٥٢] وهو القُرآنُ، وسَمَّى اللهُ القُرآنَ رُوحًا لأنه تحْيَا به القُلوبُ، فإذا أردتَ يا أخي المُسلم حَياةَ قَلْبِكَ وَلِينَه فعليك بالقُرآنِ، فإنه الحياةُ واللِّين، قال ابنُ عَبْدِ القَويِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في قصيدتِه المَشهورةِ[1]:

وَحَافِظْ عَلَى دَرْسِ القُرَانِ فَإِنَّهُ ... يُلَيِّنُ قَلْبًا قَاسِيًا مِثْلَ جَلْمَدِ

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢] الخِطابُ للنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم لأنه كانَ من الأُمِّيِّينَ لا يَقْرأُ ولا يَكْتُبُ، فهو لم يَكُن يدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، ولكن مَنَّ اللهُ عليه بهذا الوَحْيِ فعَلَم أُمته الكتابَ والحِكْمةَ، وجَعَلَ لهم النورَ العظيمَ، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]. فاللَّهُم اهدنا بكتابِك إنك على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.

قال تَعالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] (تهدي) أي تَدُلُّ، فالَّذي يَدُلُّ على الصراطِ المُسْتقيمِ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَم، وكلُّ ما دلَّ عليه الرَّسُولُ ﷺ فهو صِراطٌ مُستقيمٌ لا اعوجاجَ فيه ولا ارتفاعَ ولا انخفاضَ، بل هو مُسْتوٍ صِراطٌ مُستقيمٌ، وعلى هذا فكلُّ ما جاءت به السُّنة فهو صِراطٌ مُستقيمٌ؛ لقولِه تَعالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

---

(١) انظر منظومة الآداب لابن عبد القوي (ص:٩٩).

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣] صراط الله، أضافَ اللهُ الصراطَ إلى نفسِه لأنه تعالَى هو الَّذي شَرَعَه لعِبادِه، ولأن هذا الصراطَ يُوصِلُ إلى اللهِ، فلو أرادَ الإِنْسانُ أن يَصِلَ إلى اللهِ بغيرِ شَريعةِ الإِسْلامِ لم يَصِلْ.

فَائِدَةٌ:

إِنْ قِيلَ: قال تَعالَى في هذه الآيةِ الكَريمةِ: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وفي سُورةِ إبراهيمَ: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١-٢]، وفي سورة الفاتحة: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] فكيف نجمع؟

قلنا: إنما أضافَ اللهُ الصِّراطَ إلى نفسِه لأنه هو الَّذي شَرَعَه ولأنه يُوصِلُ إليه تعالَى، وأضافَه إلى الَّذين أنْعَمَ اللهُ عليهم لأنهم سَالِكوه أو الآخذون به المتبعون له.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٣] هذه الجملةُ فيها حَصْرٌ وتَأْكِيدٌ، التأكيدُ في قولِه: ﴿أَلَآ﴾ لأنها للاستفتاحِ والتأكيدِ، والحصرُ في قولِه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي تَرْجِعُ جميعُ أمورِ الخَلْقِ إليه؛ فهو الَّذي يَحْكُمُ بينَ العِبادِ، وهو الَّذي يَحْكُمُ على العِبادِ، وهو الَّذي يَحْكُمُ في العِبادِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

تَمَّ المُجَلَّدُ الثَّالِثُ بِحَمدِ الله تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ

وَيَلِيهِ بِمَشِيئَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ المُجَلَّدُ الرَّابِعُ

وَأَوَّلُهُ دُرُوسُ التَّفْسِيرِ (سُورَةُ الزُّخْرُفِ)

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة



فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

دروس التفسير

